التاريخ الاقتصادي والاجتماعي

للشرق الأوسط في العصور الوسطى

ملاحظة

حاشية الفصل السادس في ص ٣٢١

وتكملة الفصل السابع تبدأ من ص ٣٣١

آ. آشتور

التاريخ الاقتصادي والاجتماعي

للشرق الأوسط في العصور الوسطى

ترجمة: عبد الهادي عبلة
مراجعة: أحمد غسان سبانو

دار قتيبة

مطبعة خالد بن الوليد

عدد الطباعة ٢٠٠٠ نسخة



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لم تحظ الدراسات الاجتماعية والاقتصادية بالاهتمام الكبير من الباحثين العرب رغم خطورتها واهميتها سواء كانت هذه الدراسة اقتصادية بحتة ام تاريخية .

فكما ان الجغرافيا توجه التاريخ ، فان الاقتصاد يوجه التاريخ ايضا والاجتماع ، هو ناتج تدخل التاريخ بالاقتصاد ، او الاقتصاد بالتاريخ فعلم الاقتصاد فرع من فروع المعرفة ، التي تصف البيئة ، وتحللها ، ،وهي تفسر الحادثة التاريخية وتوضحها . اذ يدرس تاريخ الاقتصاد الحلول المقدمة للمشاكل الاجتماعية والاقتصادية ، التي واجهت شعبا ما في وقت ما . اما التاريخ الاقتصادي فهو يدرس الحالة الاقتصادية وتاثيرها في التاريخ ، وتاثير التاريخ في الحوادث التاريخية ، ويحلل تلك التاثيرات مبينا ، ومفسرا المظاهر الاجتماعية الناتجة عن مجمل تلك الاحداث .

كتب مؤرخونا القدماء عن الحالة الاقتصادية ، وعن الازمات الاقتصادية ، وبحثوا في ارتفاع الاسعار ، وانخفاضها ، وعللوا اسبابها ، ودرسوا العملات وسعر الصرف والسوق السوداء ، وقدموا الحلول ، وناقشوها . ويعتبر (الكسب) ودراساته من الابواب الهامة في كتاباتنا التراثية مع ان طريقة الدراسات التراثية تختلف عن الطرائق الحديثة الا ان اهمال باحثينا لتلك الدراسات في وقتنا الحاضر ، لم يقتصر على تقديم البحوث الجديدة ، بل تعداها الى الكتابات والمؤلفات التراثية بحد ذاتها التي كثير منها لم يبصر النور بعد .

وقد قدم بعض المستشرقين دراسات اقتصادية عن الدولة العربية الاسلامية ، ولعل اهم تلك الدراسات تلك التي قدمها (هايد) في كتابه (التاريخ الاقتصادي) . كما وقدم الباحثون العرب كتبا في هذا المجال فالدكتور احسان السامرائي قدم كتاباً عن تاريخ العراق للفترة الاسلامية المبكرة ، وقدم الدكتور عبدالعزيز الدوري مقدمة في تاريخ الاقتصاد ، وقدم أيضاً تاريخاً للاقتصاد في العراق خلال القرن

الثالث والقرن الرابع وقدم بعض الباحثين العرب الحقوقيين دراسات اقتصادية ، سلكت مسلك دراسات تاريخ الاقتصاد كفرع من الحقوق ، أو العلوم السياسية .

وكتابنا الذي نقدم له من وضع احد المستشرقين النمساويين ، الذين اتسموا بالقدرة الكبيرة على التحليل ، والاحاطة بالموضوع احاطة كاملة وهو ذو ثقافة وخلفية علمية جيدة حيث اتقن عدة لغات ، على رأسها العربية والفارسية والانكليزية والفرنسية والالمانية وفي كتابه هذا يلاحظ انه عاد للمصادر الكثيرة ليقدم بحثه ويعرض مؤلفه بشكل جيد . نقدمه بدورنا لقراء العربية والباحثين العرب للاستفادة منه منهجاً ومضموناً ، وخصوصاً ، انه يفوق مؤلف هايد ، ليتصدر الابحاث الاقتصادية والاجتماعية ، التي صدرت عن فترة الدولة العربية الاسلامية حتى الآن .

الا انه لابد لنا من اعطاء بعض الملاحظات ، رغم اننا قدمنا توضيحات في حواش على المتن ، دون الاستفاضة بالرد ، او التفصيل ، تحاشيا لان يضم الكتاب متنين ، تاركين الردود والتفصيلات لبحث مستقل ، اوللباحثين العرب استنادا لمقولة الفعل ورد الفعل ، ولقانون الاثارة والرد .

فالمؤلف مستشرق . والاستشراق بالاساس يعتمد على نظرة تفوق الانسان الغربي ، كما ويعتمد على مقولة ان الامبراطورية اليونانية والرومانية والبيزنطية كان لها التأثير الاول في تكوين الفكر الاسلامي ، ويليها في التأثير الامبراطورية الساسانية . وهم بذلك يتجنون على الحقيقة ، وينسون او يتناسون من اثر بالامبراطوريات المذكورة والتي كانت فجر الحضارة الانسانية .

نحن، وحينما ندرس التاريخ لا نتعصب لتاريخنا ، لنحط من شأن تاريخ امة اخرى ، وانما ناخذ حقنا ونعطي كل ذي حق حقه . وحين نعطي كل ذي حق حقه خاصة اثناء البحث فيما يعرف بالعصور الكلاسيكية ، اي التاريخ الاغريقي والروماني ، ومع الاعتراف بدور كلا الشعبين وهذا امر واضح من خلال الوثائق الا ان الاوضح ان بدايات الحضارات في بلاد الاغريق ، وصناعها جاءوا من بلاد الشام . وان ازهى العصور الاغريقية ، هو الذي عرف بالهلنستية (المشرقية) .

وحين نأتي الى روما ذات الامجاد العسكرية الواسعة نجد صروحها واوابدها وطرقها ، قد اقامها مهندسون عرب جلهم من الشام . وشعب روما اكل القمح الشامي وسميت حوران ، اهراءات روما . ولبس الملابس المشرقية وتعبد بطقوس الشرق ، واولع حينا من الوقت بفلسفة الاسكندرية وانطاكية ، وحينا وصلته افكار الهداية والتوحيد التي جاءته من القدس والناصرة وانطاكية وعرب سوس (المسوس) . كان فجر الثقافة الغربية متاخرا في اشراقه ، ورغم ذلك فقد ظهر فجرهم من شرقنا الذي اضاء لهم عبر قنوات ليديا واسيا الصغرى وسواحل البحر الابيض المتوسط (آمورو العظيم) .

اما فجرنا فقد كان سباقا في اشراقه فلو عدنا للنواة للاولى للحضارة ، اعتبارا من عصر انسان الكهوف لكان شرقنا العربي ، هو آدم وحواء الحضارة فنحن الذين قدمنا (الانسان الحديث) بعد أن قدمواهم (انسان نياندرتال) . ونحن الذين ابتدعنا الصيد وتأهيل الحيوان ، والزراعة ، وفجر الصناعة ونحن الذين اخترعنا العجلة ، وصنعنا الفخار والزجاج ، واكتشفنا النحاس والبرونز والحديد .

ومع بدايات العصور التاريخية بنينا المدن ، وشكلنا الدول والامبراطوريات واخترعنا الابجدية والعلوم والمعارف الانسانية . وقدمنا كل هذا الى الغرب من اغريق ورومان وبقي تأثيرنا في الحضارة الانسانية حتى في اوج ظهورهما .

وجاءت الدولة العربية الاسلامية لتكلل الانسانية باكليل الغار ولترفع عاليا مجدا تليدا ، وعزا اكيدا وسؤددا .

ورغم ذلك فإننا أبعد ما نكون عن التعصب وعن نكران مساهمات الامم الاخرى في الحضارة الانسانية . وفي تقدم البشرية عبر العصور فالانسانية لبني الانسان جميعا والحضارة لبني البشر .

وناحية أخرى اعتاد المؤرخون المبالغة فيها هي ادعاؤهم بتأثير الديانة اليهودية على الديانة الاسلامية ، وهو عين الخطأ وهو مرفوض بالاساس . فالديانة الاسلامية جاءت لتتمم مكارم الاخلاق ، وهي وحي مرسل من عند الله .

الا ان هذه الفكرة التي لازمت اكثر المستشرقين ، انما نبعت من ان المستشرقين انما يتوجهون للقارىء الأوروبي ، حيث أن الكاتب والقارىء واقع

تحت تأثير الدعايات الصهيونية التي ثبت مؤخراً أن خصوصيات الفكر اليهودي الديني والاجتماعي والادبي إنما جاء من أصول عربية عمورية كنعانية آرامية . والحفريات الاثرية والمكتشفات الحديثة تثبت ذلك كذلك يلح المستشرقون على ان العهد العربي قد هدم ، وخرب البلاد التي تم فتحها وهم يجحفون بحق الفاتحين الاوائل ، وبحق الامويين ويصفوهم بالبدائية والتبدي . وهنا لا بد لنا من ايراد الملاحظات التالية :

١ ـ شهد القرن السادس والقرن السابع الميلادي عمليات القمع الديني ، الذي مارسته السياسة البيزنطية بسوريا وهو امر معروف .

٢ ـ كانت سوريا وبلاد الشام قبيل الفتح الاسلامي مسرحا للحروب الساسانية البيزنطية ، وحلبة للصراع العالمي بينهما . ونذكر بمعركة نينوى التي حدثت عام ٦٢٧ م ، اي قبل معركة اليرموك ببضع سنوات .

٣ ـ تحدثت النصوص العربية عن الفتوحات فذكرت عمليات قتال مكشوفة ، وهي على صدقها ووثوقها ، لم تورد اي خبر عن عملية قتل جماعية او تهديم مدن او تهجير سكان او اضطهاد عنصري او عرقي . فالناس سواسية والسبق في التقوى . والانسان حر بطبيعة الامور . لذلك قال احد المستشرقين «لم يشهد العالم فاتحاً ارحم من العرب» .

٤ ـ احسنت الجيوش العربية استخدام الاسلحة الفردية ، ولم تستخدم في فجر زحفها للتحرير الاسلحة الجماعية . لذلك فان فتحهم للمدن كان عن طريق الحصار والتضييق على المؤن ، ولم يقم على الاختراق والتهديم والحرق .

٥ ـ ان عمليات الفتح التى يذكرها المستشرقون ، انما هي عمليات التحرير . وهذا ينطبق على سوريا والعراق وشمال افريقيا . فالعرب اقاموا مدنا ولم يخربوا او يهدموا مدنا اخرى قديمة .

٦ ـ العرب المسلمون ، جيل من اجيال العرب ، الذين خرجوا من الجزيرة العربية مستقر العرب وخزانهم البشري وعبر قنوات وطرق ابدية ازلية ، كانت خط سير جميع الهجرات السابقة واللاحقة .

ونتيجة لنزوح بعض البيزنطيين اثر الفتح ، جلب العرب من اسكنوه في المدن التي شاركت بقوة في عمليات التصدي والتحرير .

ومن المؤكد أن أعظم أعمال الدمار ، تلك التي رافقت الغزو المغولي الأول واستمرار الحملات الايلخانية المدمرة على الشام ، وتزامن ذلك مع نظام الاقطاع المملوكي ، وصراعت السلطات المملوكية ورجالاتها . وأخيراً فإن المستشرقين يتعرضون لمشكلة التبدي التي وصفوا بها العرب المسلمين الاوائل وسكناهم البادية .

إلا أن سكن البادية في الحقيقة في تلك الفترة ليست تبدياً ، لأن البادية كانت منطقة عمار ، وأكبر شاهد على ذلك سد (خريقة) في البادية قرب قصر الحير وتدمر . وهو يشكل مجموعة سدود بطول ٢٥ كم ، وقد تم العثور على حمامات في البادية ، قصور صيد ومزارع . كما وأن الاتهام موجه للامويين إلا أن الأمويين لم يكونوا بداة مدنيين من سكان مكة .

فقد سكن بنو امية في قصور واقعة في واحات تحولت الى بادية فيمابعد . كما وانهم لم يسكنوا بيوت الشعر فهل نقول عن رئيس الولايات المتحدة مثلا حين ذهابه إلى مزرعته انه تبدى. ورغم ذلك فقد سكن الامويون خارج المدن لعدةأسباب منها سياسية ومنها صحية وعسكرية وقد ذكرت الكثير من المصادر التاريخية انها كانت هروبا من مؤامرات القصر . فسليمان سكن مرج دابق ، لان قواته كانت تحاصر القسطنطينية ومروان بن محمد سكن حران ، لان حكمه كان مرتبطا بمشاكل خطيرة بالعراق ، وبجبهة الخزر معا .

صحيح ان المادة والروح العلمية متوفرة لدى المستشرقين ، ولكنهم كعادتهم في استخدام الاداة العلمية للتضليل ، واستنادا لمقولة ان ناقل الكفر ليس بكافر فان دراسات المستشرقين جديرة بالدراسة والبحث وتفتقر مكتبتنا العربية لكثير من الدراسات التي قدمها ، وما زال يقدمها المستشرقون من اهل الغرب . وضمن هذا الاطار نقدم هذا الكتاب الذي يؤرخ اقتصاديا واجتماعيا ويقدم منهجا واسلوبا ومادة لم يقدمها اي من الابحاث او الكتابات قل سكانها مثل طرابلس ومناطق الثغور ، وهي ظاهرة نجدها حتى الآن في مناطق الحدود الساخنة .

كذلك تعرضت بعض مناطق وطننا العربي قبيل الفتح العربي الاسلامي وبعده، لجائحات طبيعيةمن جفاف، أو برد منقطع النظير (منذ عدةسنوات تلفت

مليونا شجرة زيتون نتيجة صقيع أصاب تدمر) .

كما وتدل التحريات الاثرية على ان كثيرا من الاماكن التي تعرضت للزلازل ، تهدمت بشكل كامل ، وقد وصف مؤرخونا بعض الزلازل التي قشرت الارض قشرا ، فازالت مدنا بكاملها واطاحت بها . منها افاميا التي كانت اعظم مدن الشام واكبرها ، والتي ضمت اكبر تجمع سكاني في بلاد الشام (٢٠٠,٠٠٠ شخص) .

وقد وصف ابن العديم مثل هذه الزلازل ، التي دمرت مدنا بكاملها مثل وصفه لزلازل منطقة جبل الاربعين .

كذلك وصف ابن القلانسي زلازل حماه وشيزر ، وشمال بلاد الشام وقد ذكرت المصادر التاريخية ان شيزر ازيلت من الوجود اثر زلزال اصابها وان معلما في مدرسة بحماة كان لديه أربعون طفلاً قتلوا جميعاً تحت انقاض البناء ، بينما كان هو خارجه لم يسأل أحد من أهلهم عنهم (أي هلك أهلهم جميعاً) .

الا ان الحياة عادت لحماة وباقي المدن ، فكانت حماه على سبيل المثال مملكة ايوبية قوية تصدت للغزو الصليبي ، وكانت نقطة مواجهة اولى . مثلها مثل المعرة وكفر طاب وحلب ، وفي كتاب (الاعتبار) لاسامة بن منقذ مواد كثيرة تفصل ذلك .

وبالتالي فان بعض الاوصاف والكتابات التي وردت في الكتب الجغرافية ، وكتب الحوليات ، والرحلات التي وصفت حالة في مرحلة ما ، لا تشكل ديمومة وليس لها سمة القانون .

وعندما نعود الى بعض المصادر ولتكن على سبيل المثال تلك التي تتحدث عن فترة الحروب الصليبية ، فنجد ان هنالك مناطق سبق ووصفت بالدمار مع بداية قيام هذه الحروب وعند نقاط التماس ، الا انها عادت للحياة السابقة سريعاً فلعله يثير من ناحية المنهج ومن ناحية رد الفعل بعض الباحثين العرب لكتابة شيء ، او صرف بعض من جهودهم في سبيل التاريخ الاقتصادي ، والاهتمام بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي اكثر من الاهتمام بالتاريخ السياسي فالحدث السياسي هو نتيجة لاسباب اقتصادية واجتماعية وسياسية وغير ذلك من الاسباب لان الحدث السياسي محصلة لاسباب كثيرة الا ان اهمها ناتج عن اسباب اقتصادية واجتماعية .

مقدمة المؤلف

يستطيع محب الكتب والمهتم بتاريخ الشرق الاسلامي بكل سهولة ان يملأ مكتبة كبيرة منها . كما أن الكثير من العلماء الكبار الذين توفرت لديهم المعرفة العميقة للغات الشرقية ، قد كتبوا مؤلفات ضخمة عن الحضارة الاسلامية ، وتغيرات الخلافة ، إذن ما هو مسوغ كتاب جديد حول هذا الموضوع ؟ الهدف من هذا الكتاب الحالي يختلف عن معظم المؤلفات الاكاديمية التي نجدها في المكتبات الغربية .

فالعلماء الذين قاموا حتى الان بالابحاث في تاريخ الشرق الاوسط في العصور الوسطى توفرت لديهم الأدبيات التاريخية الغزيرة لدى العرب والفرس ، وهي تقدم مادة وفيرة للتاريخ الشرقي ، ولكن الكتّاب الشرقيين للاسف يسردون قصة الارستقراطية : فكتبهم مركزة على بلاط الامراء وانجازات جيوشهم ، حتى المستشرقون أنفسهم ـ مع بعض الاستثناءات ـ اهتموا بصورة رئيسية بالحياة الروحية للمسلمين والاسلام والادب العربي ، هناك بالفعل كتب كثيرة تشير الى الحياة الاجتماعية والاقتصادية ولكن العلماء الذين لا تعني عندهم هذه القضايا شيئاً ، أهملوا هذه الكتب أو أخطأوا فهمها ، ولكن مثل هذه الكتب عموماً (ومنها التقارير حول الحركات الثورية) غامضة ومتناقضة وناقصة مما يجعل من الصعب توافقها كما يصعب التفريق بين الغابة والأشجار ، فكل العلماء الذين كتبوا حول الحضارة الاسلامية ركزوا على التقدم العظيم الذي حققه العرب أيام الخلفاء ، ولكنهم لم يشرحوا لنا سبب التوقف التقني اللاحق ونتائجه ، وثورات الطبقات الدنيا في المجتمع التي توصف بأنها حركات شغب ، ولكن من الأرجح ان كان للبعض من أهداف بعيدة .

يهدف هذا الكتاب الى أن يرينا أن الشرق الأوسط لم يكن في القرون الوسطى مجتمعاً مستقراً لا يعتريه التغيير ، فهو على العكس من ذلك وسأحاول كشف

التغيرات الهامة في الاطار الاجتماعي لسكان الشرق الأوسط ، وتتبع الحركات الاجتماعية الكبيرة فيه ، مؤكداً انه حتى في الشرق الأوسط شغلت البرجوازية دوراً عظيماً في التاريخ السياسي حيث ظهرت هناك حركات ثورية قوية وبالرغم من أنها تختلف عن تلك الحركات في التاريخ الغربي . فليس هدفي من هذا الكتاب إعادة سرد السلاطين العثمانيين أو بحث انجازات الشعراء والفلاسفة العرب والفرس ، وانما سيكون الكتاب متميزاً في مضمونه عن المراجع العديدة المتوفرة في العالم الغربي .

إن محاولة اختصار مختلف المقالات وأبحاثي الخاصة في إطار عام حول التطور الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط خلال ٩٠٠ سنة لمحاولة جريئة إن لم تكن متسرعة ، ولكن حتى لو لم تكن سوى تحدياً لأبحاث اخرى فستؤدي خدمة كبيرة .

بعض الفرضيات والاستنتاجات ربما تثبت خطؤها ، ولكن المؤلف يستطيع القول بكل اخلاص انه استخلصها من المصادر . .

فهذا الكتاب مبني على دراسة الكثير من الحوليات العربية ، لا يزال عدد غير قليل منها لم ينشر في مكتبات لندن واكسفورد . وقد تم استعمال عدد كبير من الوثائق اليهودية - العربية في جنيز القاهرة[1] بالاضافة الى الوثائق العديدة في دور وثائق البندقية والمدن الايطالية الأخرى التي تاجرت مع الشرق الأدنىٰ في العصور الوسطى . هذه الوثائق الاخيرة لم تكن معروفة لدى (هايد) عندما كتب مؤلفه الرائع عن تاريخ تجارة شرق المتوسط في القرون الوسطى ، ولا حاجة بنا للقول بان الوثائق المطبوعة لم تهمل طالما عرف المؤلف بوجودها .

(١) - ساد لدى سكان الشرق القدماء أن الحرف كائن حي ، وعليه فكل شيء مكتوب ، استغني عنه لايجوز طرحه أو احراقه بل ينبغي دفنه ، وأخذ اليهود بهذه العقيدة ، فاعدوا في كل كنيس غرفة دفن خاصة دعيت بالجنيزا - وهي لفظة فارسية الاصل - وأودع في هذه الغرف كميات هائلة من الوثائق ، ولم يسلم من غرف الدفن هذه سوى تلك التي كانت في كنيس الفسطاط ، وقد حوت ما لا يحصى من الوثائق الخطيرة ، يرجع تاريخ اقدمها الى القرن العاشر ، وتوزعت هذه الوثائق في انحاء العالم ، وقامت عليها دراسات اهمها تلك التي قام بها كويتين في كتابه (بالانكليزي) مجتمع البحر المتوسط ، نشر منه ثلاث مجلدات قبل وفاة المؤلف .

والكتاب الجديد الى حد ما يلخص نتائج أبحاث المؤلف المنشورة ، ولكن المعلومات غالباً ما صححت وعدلت وأضيفت اليها مواد جديدة ، وقد امتنع المؤلف قدر الامكان عن الجدل لأن الكتاب يتوجه للقارىء العادي ، وليس الغرض منه الاطروحة العلمية ، ولنفس السبب استشهدت بالترجمات الاوروبية للمصادر الشرقية .

ولدى تقديم نتائج أبحاثه للقارىء يطلب المؤلف المغفرة التي يبديها عادة القراء تجاه محاولة البحث في مجال مهمل جداً حتى الآن .

زيوريخ ـ تشرين الاول ١٩٧٢

إي . آشتور



الفصل الاول

الدولة العربية

عالج المستشرقون أصول الاسلام موضحين التأثيرات المسيحية واليهودية[1] على محمد (ص) وحاولوا تعليل الانتصارات العربية التي فتحت تقريباً كل الشرق الأوسط ، وهزمت في عقد من السنين جيوش فارس وبيزنطة المدربة ، وبنى علماء الاجتماع نظريات حول عوامل هجرة القبائل البدوية من الجزيرة العربية وتوطنهم في البلاد الأخرى .

الا انه سيكون اهتمام المؤرخ الاقتصادي مركزاً على تأثيرات الفتوحات الاسلامية على اقتصاد الشرق الأوسط والأحوال الاجتماعية في البلاد التي حكمها أتباع محمد (ص) منذ ذلك التاريخ :

هل أدّى فتح هذه البلاد على يد العرب الى الاضطراب الاجتماعي ، أم كانت جيوش الفتح مفروضة على طبقات المجتمع الدنيا ؟ هل أدى الفتح الى تغيير في النظام الاجتماعي ؟ هل انصهر العرب خلال زمن قصير في المجتمع المحلي كما كان مصير كثير من الفاتحين ؟

ـ **استيطان العرب** : انبهر طلاب التاريخ على الدوام بقوة الفاتحين العرب ، وفوق كل شيء بالسرعة الخارقة لتقدمهم .

في الموجة الأولى من الفتوحات والتي دامت من ٦٣٣ الى ٦٥٦فتح العرب سورية والعراق وفارس ومصر ، وقد انهت معركة البرموك مصير سورية وفلسطين

(١) ـ لا يجوز الحديث عن مؤثرات مسيحية ويهودية ، بل كل ما هنالك ان النبي محمد صلى الله عليه وسلم هو اخر الانبياء ومتمم رسالتهم ، وفي الاسلام العناصر الأساسية للديانات السماوية السابقة .

كما أنهت معركة القادسية مصير العراق عام ٦٣٧ . وخلال الفترة (٦٣٨ ـ ٦٤٠) استولى العرب على المدن المحصنة التي استمرت في المقاومة في فلسطين وفتحوا العراق الأعلى وغزوا خوزستان وهي المنطقة الفارسية المجاورة لجنوب شرق العراق ، وبدأ فتح مصر في عام ٦٣٩ واكتمل في عام ٦٤٢ عندما استسلمت العاصمة الاسكندرية ، وبالتالي فإن العرب المنتصرين دخلوا الى البلدان الواقعة شرق العراق ، وغرب مصر ، واخر جيش فارسي عظيم هزم في معركة نهاوند عام ٦٤٢ ، وفي السنوات اللاحقة فتح المسلمون معظم مناطق أرمينية وأذربيجان وتلا ذلك فتح فارس وخراسان ووصلوا نهر جيحون في عام ٦٥١ ، وتم تحقيق ذلك كله على يد قوات محدودة العدد . إذ لم يتجاوز عدد المقاتلة العرب الذين غزوا العراق في عام ٦٣٣ (٢٠٠٠ ـ ٣٠٠٠) رجل ، ولم يتجاوز عددهم في معركة القادسية الحاسمة (٦٠٠٠ ـ ٧٠٠٠) رجل ، وفي معركة اليرموك كان عددهم على الأرجح ٢٥,٠٠٠ رجل . وتم فتح بلاد فارس على يد (٣٥,٠٠٠ ـ ٤٠,٠٠٠) رجل . وبدأ غزو مصر بواسطة (٤,٠٠٠ رجل) عززوا فيما بعد بستة الاف رجل ، ورغم انه لا يجوز المبالغة في تقدير عدد الجيوش الفارسية والبيزنطية ، الا انها من المؤكد فاقت اعداد العرب[1] ، فالعرب لم يستعملوا أسلحة يجهلها اعداؤهم ، ومن جهة أخرى فقد واجهوا جيوشاً جيدة التدريب بأمرة قواد امتازوا بالمهارة الاستراتيجية .

هذه الانجازات العربية الهائلة عُلِّلت قوى الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية استنزفتها الحروب الدائرة بينهما والتي دامت ٢٥ سنة ، كما ان الامبراطوريتين شغلتا بالخلافات الداخلية وبدأت مظاهر التفكك الاقطاعي تظهر في الامبراطورية الفارسية ، كما كان للخصومات في الكنيسة الشرقية داخل الامبراطورية البيزنطية أثرها ، فالخلاف بين الارثوذكسية التي تبنتها الامبراطورية البيزنطية ومذهب الطبيعة الواحدة ، الذي تمثل في مصر وفي سورية ما اظهر بالخلاف بين الحكام اليونانيين ، والسكان المحليين شديداً ، وبالتالي فان سكان هذه البلاد لم يعتبروا الفاتحين العرب أعداء لهم بل رحبوا بهم كمحررين لهم أو على الأقل وقفوا على الحياد ، ويعتبر المستشرقان الشهيران ـ الايطالي ليوني برنسيبي دي

(١) ـ والمناطق الخصبة من سورية الوسطى

كايتاني والألماني ك . هـ . بيكر - أن الفتوحات الاسلامية كانت نتيجة للأوضاع الاقتصادية في شبه جزيرة العرب ، ففي رأي كايتاني حدثت نتيجة للتغيرات المناخية ، التي بدأت قبل عدة قرون ، فجفاف الجزيرة العربية تزايد خلال عصور طويلة ، فاذا كانت قد جرت الانهار العظيمة وغطت الجموديات سفوح الجبال في الماضي فقد تحولت في هذا الوقت الى صحارى وسهول لم تستطع إشباع حاجة سكانها المتزايدين ، فالتناقض بين الاحوال البيئية المتدهورة وتزايد السكان ، أدى الى هجرات دورية ، بدأت الأولى منها حوالي عام ٥٠٠٠ قبل الميلاد ، وبعد عام ٣٨٠٠ ق .م اشتدت الهجرة من الجزيرة العربية لدرجة حولت الحضارة السومرية في العراق إلى حضارة سامية .

وحوالي عام ٢٥٠٠ ق .م ظهرت أسرة حاكمة عربية اسرة حمورابي في بلاد بابل . وتبع ذلك هجرات الآراميين والكلدانيين الذين ظهرت بينهم أسرة نبوخذ نصر الحاكمة ، فقلة المراعي والطعام بسبب الجفاف أجبر البدو على اتباع سياسة التوسع العسكري . وفي رأي المستشرق الألماني بيكر ، لم تكن الفتوحات العربية تجسيداً للأفكار التي آمن بها الزعماء المسلمون ، بل على العكس من ذلك فإن القبائل العربية المتنقلة عند حدود بابل بدأت الغزو وطلبت المساعدة فيا بعد من زعماء المسلمين في المدينة ، ولكن بيكر اعترف بأن الاسلام قدم الوحدة الضرورية والقوة المركزية لهم . فرغم أن الجوع والطمع كانا الدافعين القويين فان الدين الجديد هو الذي خلق الوحدةبين القبائل المتنازعةوعززت الأبحاث الجديدةأفكار كايتاني وبيكر ، ففي سلسلة نشرها حديثاً (التايم ستيل) جمع عدد من العلماء مادة هامة حول التوسع العربي ما بين النهرين وبلاد الشام والمناطق الأخرى من الشرق الأدنى قبل الاسلام ، وناقشوها كثيراً ، فلقد أظهروا أن هجرة العرب في سوريا وصلت ذروتها في عهد السلوقيين ، بين اوديسا (الرها) [اورفا حاليا في تركيا] على يد قبيلة عربية ، كما أن الرها كانت مملكة عربية في النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد . وحتى في بعض المناطق من العراق الأعلى مثل منطقة سنجار ، حيث كانت السيطرة للعرب فيها في القرنين الاولين قبل الميلاد ، وفي نفس الوقت أنشأ العرب مملكة الحضر الى الشرق من دجلة الأسفل وهي دولة ازدهرت لمدة ٣٠٠ سنة . وفي شرقي الأردن وجدت القبائل العربية أيام حملات انتيوخي الثالث ضد مصر (٢١٨ -

٢١٧ ق .م) وبنى الضجاعمة العرب مملكة في سورية الوسطى في القرن الأول قبل الميلاد . ومنذ ان اكتشف الرحالة السويدي ج . ل . بوركهات آثار البتراء في عام ١٨١٢ ازدادت معرفتنا كثيرا بمملكة الأنباط . وأصبح من المعروف الان ان العرب احتلوا جنوب شرقي الأردن في بداية القرن السادس قبل الميلاد وأقاموا فيها بعد دولة قوية غنية في فلسطين وسورية الجنوبية كما أن الصفوريين من القبائل العربية الاخرى التي دخلت سورية استوطنوا بشرق وجنوب شرق دمشق . وفي هذه المناطق خلف العرب الالاف من النقوش العربية التي ترجع إلى القرن الاول قبل الميلاد وتستمر حتى بداية القرن الرابع الميلادي .

ومن بين كل الامارات التي أنشأتها القبائل العربية قبل الاسلام في بلاد الهلال الخصيب تعتبر مملكة تدمر أقواها بحيث أصبحت في أواسط القرن الثالث أعظم قوة في الشرق الادنى ، واستمرت الهجرة العربية إلى بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام في ظل آخر الأباطرة الرومان والاباطرة البيزنطيين ، أطلق الكتاب السريان في القرن الخامس على العراق الأعلى أرض العرب وقد أقام اللخميون على الحدود الجنوبية الغربية لأرض العراق بمساعدة ملوك فارس مملكة الحيرة ، كدولة حاجزة ، ترتب عليها أن تحمي الأراضي الفارسية ضد البيزنطيين ، ومنذ أواسط القرن الرابع حتى أواسط القرن السادس ساد ملوك الحيرة على المنطقة الواقعة بين الفرات . والمناطق الخصبة من سورية الوسطى .

ومن جهة أخرى أوجد البيزنطيون دولة عربية أخرى وهي إمارة الغساسنة الذين حكموا حوران والبلقاء وشمال شرقي الأردن وفلسطين وشكلت حاجزاً لهم ضد فارس واستوطن العديد من القبائل العربية في مصر قبل الفتوحات الاسلامية بوقت طويل ، وحسب رواية هيرودوت سميت المناطق الشرقية منها بالعربية في القرن الخامس قبل الميلاد .

وهكذا عندما غزا المسلمون أراضي الهلال الخصيب وجدوا في هذه المناطق أعداداً كبيرة من العرب معظمهم من الرحّل أو أنصاف البدو ، وكانت عدة قبائل عربية منها تعيش على ضفاف العراق وفي شمال الجزيرة من بني تغلب وتميم ونمير وربيعة ، اما بنو اياد فقد سيطروا على انبار والمنطقة المحيطة بها ، كما تحول الكثير من القبائل العربية الى فلاحين وتشهد على ذلك النصوص القديمة الموثوقة وقد كانت

الحيرة مدينة عربية كبيرة نسبياً يبلغ عدد سكانها حوالي ٥٠,٠٠٠[٣] نسمة ، وباختصار ان الفتوحات الاسلامية شكلت مرحلة جديدة في سلسلة الهجرات ، والضرورة الاقتصادية هي القوة الدافعة الرئيسية لها وعندما بدأ الغزو البدوي المستمر نسبياً بسبب الدافع الديني أصبح هذا الغزو قوة هائلة سقطت أمامها الامبراطوريتان الشرقيتان القديمتان[١] .

ولكي نقوّم أثر الفتوحات الاسلامية والدور الذي توجب على العرب أن يشغلوه في الاطار الاجتماعي لمجتمعات الشرق الأدنى القديمة لا بد للمرء من معرفة الاعداد التي استقرت من هؤلاء الفاتحين في هذه المناطق .

ولقد استنتج أ . موللر أن عدد القوات العربية خارج الجزيرة العربية بلغ ٨٠,٠٠٠ / عام ٦٣٦ . وفي عهد الخليفة عثمان (٦٤٤ ـ ٦٥٦) بلغ عدد الجيوش الاسلامية من شرق فارس الى قرطاج ٢٥٠,٠٠٠ ـ ٣٠٠,٠٠٠ رجل ـ حسب رواية نفس العالم . وما يقدمه المؤرخون العرب حول معركة صفين في عام ٦٥٧ يتوافق مع هذه التقديرات ، حيث يقولون أنه احتشد ١٥٠,٠٠٠ رجل في هذه المعركة الحاسمة في أول حرب اهلية في العالم الاسلامي .

ولكن كل هذه الأرقام مبالغ فيها على الأرجح ، ومن جهة أخرى يقول المؤرخ المصري المقري أنه وجد في أحد مصادره أن عدد العرب في مصر وفي أيام الخليفة معاوية (٦٦١ ـ ٦٨٠) بلغ ٤٠,٠٠٠ رجل ولكن هذا العدد ظل في تزايد مستمر وتبعا لتخمينات هـ . لامنس بلغ عددهم في عام ٧٢٠ في سورية ٢٠٠,٠٠٠ نسمة من مجموع السكان العام البالغ ٤,٠٠٠,٠٠٠ نسمة ، بينما يميل علماء آخرون الى الافتراض أن عدد العرب كان أكبر بكثير بحيث يصل الى ٣٠٠,٠٠٠ ـ ٤٠٠,٠٠٠ نسمة ، في حين أن عدد سكان سورية كان أقل من ذلك[٤] ، ومهما كان الأمر فإن العرب الوافدين بالاضافة الى القدماء منهم شكلوا

---

(١) في حين لا يمكن للباحث انكار دور العامل الاقتصادي في صنع الأحداث التاريخية ، فان من الواضح أن الذي حرّض على الفتوحات وسبب نجاحها المؤقت ثم الدائم هو الاسلام .

اقلية صغيرة في كل مكان في الفترة اللاحقة للفتوحات .

يشكل الفاتحون الذين يستقرون في البلاد المفتوحة دائماً أقلية ولذلك فان الأمر الأكثر اهمية هو معرفة الطبقات الاجتماعية للحكام الجدد في الشرق الأدنى ، ونظرة سريعة الى المصادر العربية القديمة تكفي ليدرك القارىء ان الفتوحات العربية أدت إلى تغييرات كبيرة في التركيب السكاني للشرق الأدنى ، فجزء من القبائل العربية التي سكنت سورية قبل الفتح واعتنقت المسيحية لم تقبل بالحكم الاسلامي ورحلت الى بيزنطية ، فالمصادر العربية القديمة تؤكد ان جبلة بن الأيهم ـ أمير بني غسان ـ رحل الى آسيا الصغرى مع ٣٠,٠٠٠ رجل[1] اضافة الى أن هجرة من يتكلمون الاغريقيةمن سكان المدن كانت كبيرة، بينهم الموظفون والتجارالبيزنطيون والسكان الأصليون في سورية ومصر الذين تربوا في أحضان الثقافة اليونانية والمخلصين للمسيحية الأرثوذكسية لم يستطيعوا العيش تحت حكم الشعب الذي اعتبروه بربرياً ، فالالاف من سكان المدن الساحلية في سورية وفينقية رحلوا الى بيزنطية ، ويقول البلاذري أن هذا حدث في مدن صيدا وبيروت وجبيل وعكا ، وطرابلس . والشيء نفسه حدث في الاسكندرية ، ويقول كاتب عربي من القرن التاسع أن ٢٠٠,٠٠٠ نسمة من سكان هذه المدينة غادروها الى بيزنطة ، ورغم أن هذا العدد مبالغ فيه ولكنه يشير الى أن خروج الاغريق كان ظاهرة ملحوظة ، كما أن الفلاحين المشبعين بالثقافةاليونانية تركوا بيوتهم وأراضيهم. يتحدث مؤ رخ عربي عن هجرة سكان المدن الصغيرة بالس (مسكنه حاليا في سورية) وقنسرين ، الخ في شمال سورية ، وبالتأكيد لسنا مخطئين عندما نفترض أنهم من أصحاب الاقطاعات في المناطق المجاورة ، ووجدت في العراق على الأرجح ظاهرة مشابهة أيضاً إذ غادر الكثير من الفرس أثناء الفتح العربي وبعده ، إلا أن هذا لا يعني أن الفرس

* مثل هذا الكلام يتقبله المرء في حال اقرار أن سكان سورية القدماء ليسوا من أصل عربي ، ويلاحظ هنا التناقض الواضح بين ما سبق عرضه حول الهجرات العربية منذ / ٥,٠٠٠/ قبل الميلاد وان الفتوحات العربية حلقة من هذه الهجرات ، وبين ما جرى التوصل اليه هنا .

(١) هذا الرقم غير موثق ، ولم يهاجر من العرب غير المسلمين الى بيزنطية الا أفراد فقط ، ونسوق هنا شهادة قضية نصارى تغلب ومعاملة عمر بن الخطاب لهم معاملة خاصة حينا رفضوا دفع الجزية .

والاغريق جميعهم تركوا قراهم ومدنهم . ويطالعنا نص لكاتب عربي من النصف الثاني من القرن التاسع يقول إن القرى الكبيرة على الطريق من بغداد إلى الكوفة كان يسكنها في أيامه العرب والفرس(٥) .

وأدرك الحكام العرب النتائج التي ستعقب خروج أهالي البلاد من الفرس والأغريق وحاولوا تخفيف تدهور المدن المهجورة بتوطين سكان المدن الأخرى فيها اذ جُلب الفرس واليهود إلى مدن سورية وفلسطين التي هجرها سكانها السابقون ، وحسب رواية اليعقوبي الذي كتب في القرن التاسع كان الفرس يشكلون مجموعة كبيرة من سكان مناطق دمشق والأردن وفلسطين ، واستقر الكثير من الفرس في مدينتي عكا وبعلبك . بينما استوطن اليهود في طرابلس التي هجرها سكانها الاغريق(٦) .

إن الغالبية العظمى من السكان الذين استوطنوا في الأرض التي فتحها المسلمون كانت من البدو و(العرب الرحل) . صحيح أن بعض المصادر تعطي المعلومات عن القبائل العربية زمن الخلفاء التي تعود الى النصف الثاني من القرن التاسع ، وهي الفترة التي تغير فيها توزيع العرب في بلدان الشرق الاوسط بعض الشيء ، ولن نكون مخطئين على الأرجح في افتراضنا أن القسم الأكبر من القبائل العربية المذكورة من خلال هذه المصادر عاشت في نفس المناطق منذ الفتوحات الاسلامية .

وقد تمثلت تقريباً كل القبائل العربية الشمالية والجنوبية بين العرب الذين استوطنوا جنوب العراق ، فهناك قيس وتميم وبكر بن وائل ، وتعود أصولهم الى شمال الجزيرة وهناك أيضاً عشائر أسد وهمدان وقضاعة ومذحج وعشائر عرب الجنوب الأخرى ، أما على ضفاف الفرات نجد هناك الكثير من القيسيين ، بينما انقسم العراق الأعلى بين مضر وبكر وربيعة ، وكلها من عرب الشمال ، ولكن بنو عقيل ونمير وحبيب شغلوا دوراً كبيراً في هذه المنطقة ، ومعظم أفراد هذه القبائل عاشوا عيشة البدو الرحل كما فعل أجدادهم في شبه الجزيرة ، رغم أن البعض الآخر انتقل الى حياة نصف مستقرة أما القبائل العربية التي عاشت في سورية قبل الفتح الاسلامي فمعظمها من عرب الجنوب ، وبقيت هذه العشائر حتى بعد الفتح

تمثل قطاعاً هاماً من السكان العرب ، فالكلبيون عاشوا في واحة تدمر وطي وكندة وحمير وكلب وهمدان عاشوا في منطقة حمص ، وعاشت بهراء في المناطق المحيطة بحماة ، وقد تواجد اليمنيون أيضاً قرب كفر طاب واللاذقية ، وتواجدت كندة في شيزر وطرطوس ، وفي منطقة دمشق تواجدت غسان وكندة وكلب ولخم الى جانب ربيعة من عرب الشمال ، وفي فلسطين عاشت عشائر كثيرة من لخم وجذام وكندة ، ولكن في أعقاب الفتح العربي انتقلت قبائل كثيرة من شمال الجزيرة الى سورية وانتشرت في أنحاء البلاد ، فعاش القيسيون في المناطق المحيطة بدمشق وحوران وباشانا (من حوران) والجولان وقرب أريحا وفي جنوب فلسطين . ولكن قبائل عرب الجنوب بما انضم اليها من قادمين جدد مثل العاملة الذين أعطوا اسمهم لقسم كبير من سكان الجليل . وهكذا نجد سكان سورية وفلسطين يشكل العرب فيها خليطاً من القبائل اليمنية والقيسية أما الموجات المتعاقبة من المهاجرين العرب التي استقرت في البلاد المفتوحة وتوافدت الى مصر أيضاً وشكلت خليطاً من القبائل البدوية فبعد الفتح استقر كثير من اليمنيين في مصر ، وظلت الهجرات العربية تتوالى فيما بعد حيث التحقت بهؤلاء مجموعات أخرى من العرب الجنوبيين أيضاً وفي عام ٦٧٣ نقل حاكم العراق القوي زياد عشائر عديدة من قضاعة وتجيب ولخم وجذام الى مصر ، التي كان فيها في السابق قبائل من حمير ومذحج وهمدان وخولان وعشائر أخرى من عرب الجنوب . وفي أيام الخليفة هشام بدأ استيطان منتظم للعشائر العربية الشمالية ، فوفقا للمصادر العربية وبناء على طلب حاكم مصر أرسل الخليفة إليه في عام ٧٢٧ ما يقرب من ٣٠٠٠ من القيسيين الذين استوطنوا المنطقة الشمالية الشرقية المسماة الحوف جنوب تنيس وشرق بلبيس ، وأجبرتهم الحكومة على الاشتغال بالزراعة ولكنهم احتكروا أيضاً نقل الحبوب المصرية الى شواطىء البحر الأحمر حيث كان يرسل من هناك الى الحجاز ، وفي أواسط القرن الثامن الميلادي أتت الى مصر عشائر جديدة من القيسيين بعد أن سمعوا بالوفرة والخيرات التي نالها اخوانهم ، وفي الوقت نفسه بدأ العرب بالانتشار في الريف والاستيطان في جميع قراه ولم يمض وقت طويل حتى فرض المهاجرون لغتهم على معظم مناطق مصر ، وكان هذا نتيجة أكيدة لهجرة البدو البطيئة المنتظمة التلقائية واعتمد هؤلاء البدو في حياتهم على تربية المواشي وبادلوا منتجاتهم بمنتجات الفلاحين المحليين ، حيث نصبوا

خيامهم على تخوم الاراضي المزروعة على جانبي وادي النيل ، وتقدموا ببطء نحو الجنوب ، ويستدل على حجم الهجرة البدوية من أن الفائض كان كافياً لانتشار البدو الرحل في شرق السودان[٧] .

ب ـ التبدي والتمازج الثقافي : ادى استيطان العرب في البلاد المفتوحة الى نتيجتين هامتين على الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، وبدأت ظاهرتان تبدوان للوهلة الاولى متناقضتين ، ولكنهما في الحقيقة تشكلان جانبين لعملية واحدة وهي احتكاك العرب بالسكان المحليين ، فالفاتحون العرب انقسموا الى قطاعين كبيرين تباينت مواقفهما من السكان المحليين وحضاراتهم ، وبرهن رجال القبائل على انهم عنصر ضار بالحياة الاقتصادية للمناطق الخصبة في الشرق الاوسط الذي يعتمد على الزراعة ، هذا من جهة ومن جهة اخرى فان العرب الذين انتقلوا الى الحياة المستقرة وقعوا تحت تاثير الحضارات الشرقية القديمة ، التي عاشت مع السكان المحليين ، وبمرور الوقت امتزجت الحضارات المختلفة وكانت نتيجة ميلاد حركة توفيقية عربية رائعة وظهرت هذه الحضارة العربية الجديدة في المدن حيث اختلفت طريقة حياة السكان عن حياة اجدادهم البدو وتعارضت معها .

وانشأ بعض العرب الذين احترفوا الزراعة في ارض اجدادهم القرى ما بين النهرين وبلاد الشام وامكنة استيطانهم الاخرى ، وانتقل البدو من حياة الرعي فاشتغلوا بالزراعة ، وخير مثال على ذلك جنوب لبنان حيث انتقل العرب الى حياة الاستقرار ، وليس هناك اي دليل على ان عددهم كان محدودا . ولم يكن لحكومة الخلفاء مصلحة في ذلك لان العرب حين تحولوا الى فلاحين دفعوا ضرائب اقل من الفلاحين الاصليين الذين بذلت الحكومة قصارى جهدها لحمايتهم وذلك بمنع القبائل العربية من الاعتداء على ممتلكاتهم ، وبالاضافة الى ذلك فان الخلفاء الاوائل تمسكوا بفكرة الابقاء على هؤلاء المحاربين العرب كطبقة مستقلة لانهم اعتقدوا ان هؤلاء عندما يصبحون فلاحين سيفقدون خصائصهم العسكرية . ولكن حدث ان غادر هؤلاء المحاربون المعسكرات المدينية واستقروا في القرى واحترفوا فيها الزراعة ، مع ان استيطانهم في الريف لم يكتب له النجاح دائما وغالبا ما اخفق ليعود العرب بعدها الى طريقة الحياة البدوية .

وهكذا فان عددا كبيرا من العرب الذين غادروا الجزيرة مابين النهرين وبلاد الشام والمناطق الاخرى استمروا في حالة البداوة ، ولابد ان عدد القبائل البدوية المتنقلة في البلاد المفتوحة ازداد كثيرا لان الغالبية العظمى من جيوش الفتح ظلت بدوية ، وبما ان معظم هؤلاء المحاربين البدو لم تكن لديهم الخبرة في حياة الاستقرار ، وكان موقفهم من الزراعة سلبيا منذ البداية فلا بد ان وجودهم شكل اكثر من عائق امام النشاطات الزراعية في كثير من المناطق ، واصبحت ظاهرة التبدي المتزايدة ظاهرة رئيسية في الحياة الاقتصادية والاجتماعية في بلاد الرافدين وبلاد الشام والبلاد الاسلامية الاخرى وهي مسألة خطيرة لان حياة الاستقرار تدهورت في كثير من مناطق الشرق الادنى قبل الفتوحات الاسلامية بوقت طويل .

والمناطق الواقعة الى الجنوب من المناطق الكلسية الممتدة من قنسرين (في شمال سورية) الى نصيبين هي اراض للبدو والرحل من السابق في القرنين الخامس والسادس الميلاديين .

وجلبت هجرات البدو الدمار للنشاطات الزراعية للسكان المستقرين بطرق مختلفة ، فرعي الماعز والجمال ـ وهي ميزة نموذجية للحياة البدوية ـ كان له تأثير مدمر على النباتات الطبيعية ، مما دعا الى التخلي عن المناطق المزروعة سابقا . وازدادت مناطق الرعي على حساب الحقول الزراعية ، وعندما غادر السكان السابقون وهم الفلاحون المتمرسون بدأ البدو باحتراف الزراعة ولكن على طريقتهم البدائية ، فبدأوا بحراثة قطع من الارض الصغيرة بشكل بدائي لتعطي محصولا متواضعا ، ثم ليتخلوا عنها بعد سنوات قليلة ، وغالبا ما ارتكب البدو اعمال النهب حاملين معهم قطعان اغنام الفلاحين او مسببين لهم الضرر بطرق اخرى . ولقد ادرك الجغرافيون العرب الذين كتبوا في القرن العاشر العلاقة بين اعتداءات البدو وتدهور الزراعة .

---

(١) لم يفرق المؤلف والمستشرقون عموما بين البدو والعرب فسكان الحجاز لم يكونوا بدواً او رحالة بل كانوا ملاكين ومدنيين . وقد فرق القرآن الكريم ايضاً بين الاعراب (البدو) وسكان المدن . وهذا الامر ينطبق على جيوش الفتح الاسلامي التي ضمت المدنيين وبعض رجالات البدو وكان لكل منهم تأثيره على الحياة الاقتصادية والاجتماعية في المناطق المفتوحة .

اما السهول المفتوحة والهضاب التي قطعت اشجار غاباتها فقد كانت اكثر عرضة للتخريب من قبل البدو بينما بقيت الجبال ومناطق الغابات في مأمن نسبي ، ولما لم تكن تقدم هذه المناطق الاخيرة للبدو المراعي المناسبة لقطعانهم ، فقد ابتعدوا عنها ، كما ان المناطق الباردة نجت من تخريب البدو ، وحتى اراضي المستنقعات

وقفت عائقا في وجه هجراتهم اليها ، ولكن بدرجة اقل من المناطق الجبلية . ففي الاراضي المستنقعية في جنوب العراق - على سبيل المثال - استطاعت بقايا السكان المحليين الحفاظ على نفسها في الوقت الذي أصبحت الأراضي المرتفعة ملجأ للسكان المستقرين ، وسلاسل الجبال في سورية خير مثال على هذه الظاهرة ، فكل المرتفعات من الشمال الى الجنوب اصبحت ملاجىء تستطيع المجموعات الدينية المنشقة التمترس فيها في وجه المذابح الدينية ، وهكذا اصبح جبل النصيرية ارض العلويين ، ولبنان ارض الموارنة ، والمناطق الجبلية من جنوب لبنان ملجأ للدروز والمتاولة ، وعبر القرون الطويلة من الحكم الاسلامي تغير توزيع هذه المذاهب في الاجزاء المختلفة للسلاسل الجبلية ، ولكن الحقيقة المؤكدة هي ان هذه المناطق اصبحت ملاجىء منذ بدايات العصر الاسلامي . ولم تنفذ القبائل العربية الى هذه المنطقة حتى القرن التاسع ، وتحول معظمها الى حياة الاستقرار ، ولكن تمركز السكان المستقرين في المناطق الجبلية والملاجىء الاخرى والكثافة المتزايدة فيها ، كانت لها آثار ضارة على زراعتها . فقطعت بقايا الغابات ، ولم تعد السفوح الخصيبة كافية لتغذية السكان المتزايدين .

لم تسلم كل المناطق الجبلية في الشرق الادنى من تدخل البدو ، فمرتفعات شرقي الأردن، واجزاء من حوران تعرضت لغزو القبائل العربية، واستسلم لها تماما سكان الواحات ، واصبحوا بمجموعهم يعتمدون عليها ، فاما ان يحل البدو محل السكان الاصليين او ان هؤلاء يضطرون لمواءمة نشاطاتهم وفق حاجات ورغبات البدو ، ويعتبر مصير واحة تدمر مثالا على هذه الظاهرة(1) ، وكذلك على وجه الخصوص المناطق التي تتم فيها الزراعة البعلية بقيت معرضة لتدخلات البدو ، هذا من جهة ومن جهة اخرى استطاعت الزراعة في المناطق المجاورة للمدن

---

(1) تم تدمير تدمر من قبل الرومان قبل الاسلام بزمن طويل .

أن تقاوم بنجاح(١) . التبدي وشكلت في الشرق الادنى ظاهرة ملموسة خصيصا في النصف الثاني من القرون الوسطى ، ولكنها بدت بعد الفتوحات العربية ، انها حصيلة هجرة القبائل البدوية التي بقيت دعامة الاسر المختلفة الحاكمة في هذا الجزء من العالم ، وهي طبقة عاشت حياة مستقلة الى حد كبير واستغلت السكان المستقرين بصورة واضحة .

ولكن جزءاً كبيراً من الافواج التي شكلت الجيوش العربية دفع به باتجاه الحياة المتحضرة او ان حكومة الخلفاء عملت على توطينهم مع عائلاتهم في معسكرات مدينية مستقرة سميت الامصار ، واقيمت هذه المعسكرات في البداية للاقامة في فترات الحملات ، ولكنها مع مرور الوقت اصبحت مستوطنات دائمة وتطورت الى مدن كبيرة ، ولما تدفق على هذه المعسكرات الدائمة الكثير من غير العرب والنصف الاخر من الاجانب ، وبالتالي تحولت الامصار الى مراكز للتمازج الثقافي .

وفي العراق ـ الذي عرف قبل الفتح ببلاد بابل ـ اقيم معسكران مدنيان كبيران هما البصرة، والكوفة اللذان تأسسا عام ٦٣٨، وقدر للبصرة أن تؤوي القوات المسيطرة على مداخل العراق من الجنوب والطرق المؤدية الى مناطق ايران الجنوبية الغربية ومعظم سكانها اتوا من شرق الجزيرة العربية ، اما الكوفة التي لا تبعد كثيرا عن ضفة الفرات الغربية فكان سكانها خليط من عرب الشمال والجنوب ، وفي سورية كانت الجابية (قرب نوى في سورية) في بداية العصر الاسلامي المعسكر الرئيسي للجيش العربي وموطن الغساسنة سابقا وهم الامراء العرب الذين حكموا جنوب سورية وشرقي الأردن قبل الفتوحات الاسلامية، وتقع في الجابية حوران على مسيرة يوم الى الجنوب الغربي من دمشق ، وبعد فتح سورية اتى الخليفة عمر اليها وعقد مؤتمر الجابية الشهير في التاريخ الاسلامي الذي عرف بالمجلس العظيم ووضعت فيه اسس الخلافة ، وعندما بدأ العرب غزو آسيا الصغرى ـ فيما بعد ـ اصبح معسكر دابق الى الشمال من حلب مقر قيادتهم ، وهناك عدة اسباب منعت الجابية من التطور الى مدينة كبيرة مثل البصرة والكوفة . ذلك ان الكثير من العرب الذين رافقوا جيوش الفتح الى سورية وفلسطين او فيما بعد ، استوطنوا المدن القديمة حيث وجد الكثير من البيوت الخالية بعد خروج المسيحيين

اليونانيين ، كما تأسس معسكر كبير آخر في قرية عمواس في سهول الضفة الغربية من الاردن عند سفح الجبال ، وفي مصر تحول المعسكر العربي مقابل القلعة البيزنطية بابليون الى مدينة كبيرة ، وحافظت على اسمها الاول ـ الفسطاط ـ (الذي يعني معسكرا محاطا بخندق) وتمكننا السجلات المحفوظة في كتابات المؤلفين العرب الاقدمين ومن تتبع تحول المعسكرات الى مدن حقيقية خطوة خطوة ، ودورها في تطور الحضارة العربية ففي البداية لم تكن البصرة والكوفة اكثر من تجمعات من الاكواخ المصنوعة من نباتات الاسل ، وفيما بعد استبدلت هذه الغرف البسيطة بالخيام المرصوفة في صفوف طويلة وفي حوالي عام ٦٧٠ بنيت المنازل بالآجر المشوي ، وقد احيطت البصرة ايضا بسور ترابي وخندق . ومعروف ان التغييرات في التنظيم الداخلي للامصار هي من نتائج تواؤم الغزاة العرب مع حياة المدينة ، اما الكوفة فقد قسمت بعد تاسيسها الى اسباع (سبع مناطق) على اساس قبلي بحيث مثل كل حي قبيلة واحدة ومن حالفها من القبائل الاخرى بينما قسمت البصره الى خمسة اقسام سميت لذلك بالاخماس ، وفيما بعد ـ في عام ٦٧٠ ـ استبدلت اسباع لكوفة باربع مناطق ليست لها اية علاقة بقبائل معينة ، وهكذا تحولت المعسكرات التي بدأت كنقاط تجمع المحاربين فقط الى مدن .

ويجدر بنا ان نؤكد على الدور الذي شغله اليمنيون في تطور الامصار ، فبعكس العرب القادمين من وسط الجزيرة وشمالها كانت لدى اليمنيين بعض الخبرة او المعرفة بحياة المدن ، وبعضهم عاش ـ قبل هجرتهم من الجزيرة ـ في مستوطنات مدينية ، وكانوا على تماس مباشر بغيرهم ، وبفضل تقاليد حياتهم المدينية استطاع اليمنيون التواؤم بسهولة اكبر مع ضرورات الحياة المدينية في البلاد المفتوحةوبالتالي اصبحوا الى حد ما انصار التمدين . ويشهد على دورهم هذا النصوص التي تشير الى تعيينهم في المناصب البلدية العليا كما تشهد بذلك السجلات الاخرى . ولعب المستوطنون المتنسبون للقبائل اليمنية المختلفة الدور القيادي في تمدين الكوفة كما برز عرب الجنوب في المراحل الاولى من تطور الفسطاط كما ان السكان العرب في دمشق والقدس بعد الفتح ينتمون كلية الى المناطق اليمنية . ولعب السكان الذين اعتادوا حياة المدنية في البصرة والكوفة والامصار الاخرى دورا عظيما في تطور حياة المدنية العربية في التجمعات الاخرى ، حيث يذكر الجغرافيون العرب في عصر الخلافة ان

الاول ـ الفسطاط ـ تطور الفسطاط حياة المدينة والعراق الاعلى[١٠] .

ونظراً لهجرة الكثيرين من غير العرب الى الامصار احتك العرب مباشرة مع الحضارة المحلية . وتعايش العرب مع غير العرب في المدن وخصوصاً في الامصار مما ادى الى تمازجهم الثقافي وانتج الحضارة العربية التي تحتاج الى دراسة مستفيضة يخالطها الالم في بعض الاحيان ويمكن للمؤرخ الحديث ذي الميول السوسيولوجية ان يتقصاها .

ومن الواضح مسبقا ان استقرار العرب بين السكان الذين ورثوا التقاليد العريقة للحضارة الشرقية القديمة ، سيؤدي الى تعايشهم مع طرق اخرى في الحياة ، والى اعادة توحيد التقاليد الثقافية المختلفة ، ذلك هو مصير كل الفاتحين الذين استقروا في البلاد المتحضرة ، ولكن المسألة هي الى اي حد يتقبل الفاتحون حضارة السكان المحليين ؟ واي التقاليد ـ العربية ام غير العربية ـ ستكون العنصر الرئيسي في الحضارة الجديدة الناشئة ؟

استحوذت الدوافع المتناقضة العرب كما استحوذت غيرهم من الفاتحين ، اذ استهوتهم طريقة الحياة المتحضرة التي قدمها الفرس والسوريون والمصريون ، وسرعان ما ادركوا ان عادات ومؤسسات هؤلاء السكان غير العرب متفوقة على عاداتهم ومؤسساتهم التي ورثوها عن اجدادهم وفي الوقت نفسه كانوا يتوقون الى حرية السهوب والصحاري في الجزيرة العربية ، وضاقوا ذرعا بحياة المدينة وانغلاقها وبكثرة ما جلبت لهم من امراض على عكس حياة الصحراء الصحية . وبدا لهم ان طعام البدو البسيط افضل كثيرا من طعام سكان المدن والثقافة التي يعلمها البدو لابنائهم اكثر مواءمة لابناء الاحرار منهم من ثقافة المدينة ، لذا اصر العامة منهم الذين استقروا في المعسكرات المدينة على أن تكون لهم مراع يستطيعون الذهاب اليها في الربيع مع خيولهم ليعيشوا مع قطعان غنمهم ، بينما فضلت الطبقات الارستقراطية العربية العيش ـ بقدر الامكان ـ في الريف على تخوم الصحراء كلما سنحت الفرصة لهم بذلك ، فبنوا لانفسهم القصور فيها وسموها البوادي ، او استقروا في القلاع الرومانية القديمة للغرض نفسه واعتمدوا الاسلوب اليوناني في بناء الحمامات فيها ، وهذه من خصائصهم ، وهكذا فان حياة الاجيال

العربية الاولى بعد الفتح كانت مزدوجة الثقافة في الفترة الانتقالية .

إلا أن الغلبة العددية للبدو أو أحفاد البدو في الأمصار عرقلت التمازج الثقافي . كما أن سطوة العائلات الوجيهة (البيوتات) في القبائل العربية القديمة كانت عاملاً آخر في تبطيء عملية تلاؤم العرب مع الحضارات الشرقية القديمة . الا أن هذا لا يلغي دور الخبرة في الحياة المدينية التي جلبها اليمنيون معهم ساعدت التمازج الثقافي وسرعة .

وفي الوقت الذي وازنت فيه هذه العوامل بعضها بعضاً فإن الزواج المختلط والتقليد جعل العرب يقعون بازدياد تحت تأثير الحضارات المحلية القوي . فسادت التقاليد المحلية في الأطعمة والملابس والأثاث . ولكن الدراسة الشاملة لطريقة الحياة التي تبناها العرب ترينا أنها لم تعكس علاقة الأخذ والعطاء التبادلية . ففي الوقت الذي اتجهت فيه الطبقات الراقية من المجتمع العربي إلى الأخذ بنموذج الحضارات المحلية القديمة بينما تمسكت الطبقات الدنيا الفقيرة بعاداتها العربية القديمة .

ولما اتجه العرب الأغنياء المتنفذون الى استعمال الأسرة بقي الفقراء ينامون على الأرض كعادة أسلافهم . وفي حين تناول الأغنياء طعامهم على موائد تناول الفقراء طعامهم من الصحون الموضوعة على الموائد البدوية الجلدية .

وما تبديه قوائم المهور التي تعود الى فترة الحروب الصليبية أن الزوجين من طبقات المجتمع الدنيا بأن الاسرة لم تستخدم للنوم حتى ذلك الحين[1] .

وفي الوقت الذي سادت التقاليد المحلية في أمور الحضارة المادية ، فإن العرب قدموا للحضارة الجديدة لغتهم ودينهم ولا حاجة للقول بأن هذين العنصرين يفوقان في الأهمية كل التقاليد الأخرى التي ورثتها الحضارة الاسلامية . بحيث أصبحت اللغة العربية هي أداة الثقافة الجديدة الرائعة ، في كافة الامصار التي تعايش العرب بمختلف قبائلهم فيها .

ولكن مضى وقت طويل قبل ان يشيع استعمال اللغة العربية في الوثائق المكتوبة والتعبير الأدبي ، فوفقاً للتقارير الرسمية يقال إن الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٨٥ ـ ٧٠٥) هو الذي جعل العربية اللغة الرسمية للادارة ، وبذلك حلّت محل الفارسية واليونانية المستعملتين قبل ذلك ، ولكن هناك أوصافاً متناقضة

لهذا التغيير الكبير ، وهي تشير على الأرجح إلى أن عمليات التعريب تمت تدريجياً ، ولم يتم ذلك في كل البلدان الاسلامية بوقت واحد ولم تسد اللغة العربية في مصر قبل عام ٧٠٦ ، أما في العراق عام ٦٩٩ ، ولكن يخطىء المرء عندما يظن استعمال اللغة العربية وحدها منذ هذين التاريخين ، لأن اللغة العربية دخلت كاحدى اللغات المستعملة ، اذ بقيت اللغات الأخرى مستعملة معها لفترات طويلة .

وفي نفس الوقت الذي أصبحت فيه العربية اللغة الرسمية للامبراطورية الاسلامية الجديدة ، بدأ العرب باستعمالها في المؤلفات الأدبية ، صحيح أن هناك شعراً عربياً قديم ، ولكن في أواسط القرن الثامن أي بعد مائة عام من استيطانهم لبلاد ما بين النهرين وبلاد الشام بدأوا أيضاً بكتابة المؤلفات في فقه اللغة العربية والتاريخ .

ويتضح من تطور القانون الاسلامي الذي نتج عن اعتماد العرب الأساليب القضائية[1] والادارية البيزنطية والفارسية لحاجاتهم الخاصة وافكارهم الدينية ، ان ميلاد الحضارة العربية انما هو إعادة توحيد نموذجية للتقاليد الثقافية المختلفة ، ونتيجة لهذا الانتصار تحولت المؤسسات البيزنطية والفارسية الى مؤسسات اسلامية وتحولت ممتلكات المعبد الى الوقف الذي يعتبر مؤسسة إسلامية نموذجية ، ومراقب السوق الذي كان في الدولة البيزنطية اصبح محتسبا في الدولة الاسلامية صاحب السوق وأدخل في عداد الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . ولكن مبادىء المناقشات القضائية وأسسها واصطلاحاتها أخذت عن الاساليب الفارسية والبيزنطية واليهودية ، وما لبث العرب في أواسط القرن الثامن أن بدأوا أيضاً بكتابة المؤلفات الاولى في القانون .

وقبل أن يمضي وقت طويل أصبح انصهار التقاليد الثقافية كاملاً ، لدرجة أن العرب بدأوا يعلنون انتماءهم الى التراث التاريخي لبلدانهم الجديدة ويفتخرون بانجازاتها[12] .

---

١ ـ يمكن للباحث المنصف ان يتحدث عن مؤثرات على الممارسات ، لكن مسألة التبني مسألة اخرى تتعارض مع الدراسات الموثقة في تاريخ التشريع الاسلامي وقد اشبع هذا الموضوع بحثا في المؤلفات القانونية وتاريخها . ويمكن للقارىء الرجوع الى مؤلفات تاريخ القانون (دواليبي) والقانون المدني (زرقا) وغيرهم .

ارتأى الخليفة عمر ـ خليفة الرسول الثاني رضي الله عنه والمؤسس الحقيقي للدولة الاسلامية ـ فكرة الدولة المؤلفة من طبقة عسكرية عربية سائدة ، وطبقات عمالية ينتمي اليها غير العرب وغير المسلمين ، ويعتمد العرب الذين عاشوا في معسكراتهم شبه معزولين عن الحياة المدنية في حياتهم المعاشية على الضرائب التي يدفعها رعايا الدولة الاسلامية بحيث يُحصل كل عربي عطائه من بيت المال وهذه هي الفكرة الأساسية للنظام الذي أرسى عمر أسسه ، لكنه لم يكن بعيد النظر لأنه لم يأخذ بعين الاعتبار أن الرعايا من غير العرب سيصبحون مسلمين وبالتالي فإن الدولة القائمة على الأسس الدينية ستعجز في نهاية الأمر عن الابقاء على امتيازات الطبقة الحاكمة[1] . واخفاقه في أن يدرك أن المسلمين غير العرب سيطالبون بنفس الحقوق كالمسلمين العرب خطأ قاتل سبب فيما بعد الثورات والحروب الاهلية التي أدت الى الكثير من سفك الدماء[2] . ولكن أربعة أجيال من العرب تمتعت بالامتيازات التي منحهم اياها نظام عمر رضى الله عنه وأصبح أحفاد البدو الفقراء الطبقة الحاكمة في الامبراطورية العظيمة ، أي شكلوا نوعاً من الارستقراطية العسكرية الغنية ، وأصبح التنافر بين هؤلاء الفرسان العرب ، والطبقات العاملة غير العربية منذ البداية مشكلة أساسية في دولة الخلافة .

وكان مقدار العطاء في حده الأدنى في بداية الحكم الاسلامي هو ١ ٢/٣ أو ٢ ١/١٢ أو ٢ ١/٢ دينار في الشهر، ولكن معظم المحاربين العرب حصلوا على ٣ دنانير وحصل المقاتلة الاوائل الذين اشتركوا في فتوحات سورية والعراق حتى على ضعف المبلغ الأخير ، وفي النصف الثاني من القرن السابع والنصف الأول من القرن الثامن حصلت غالبية الجند الشامي على ما يبدو على عطاء شهري قدره ثمانية دنانير ، وحصل المحاربون الذين ينتمون الى قبائل معينة على ١٦

١ ـ ان ما قام به عمر بن الخطاب كان عبارة عن تنظيمات ادارية تستند الى الشريعة الاسلامية ، وذلك لمصلحة الأمة الاسلامية والدولة ، وليس في سبيل خلق طبقة عليا ، فسيرة عمر التي هي قائمة على فهمه للاسلام تعارض الطبقية وتؤمن بالمساواة .

٢ ـ الذي ادى الى الثورات أسباب كثيرة من بينها تجاوزات بعض الخلفاء والولاة ، لا العيب في القانون ، ففي الاسلام تقاس أعمال الأفراد على الشريعة لا العكس .

ديناراً ، ولكن عطاء الجيوش في العراق كان أقل من ذلك ، حيث لم يتلق المقاتل العربي فيها على اكثر من اثنين الى أربعة دنانير في الشهر[١] ، ولتقدير الوضع الاجتماعي والاقتصادي الذي يضمنه مثل هذا العطاء للمقاتل العربي ، على المرء عندما يقارنه بدخل الصناع المهرة او برواتب الجنود البيزنطيين التي يمكن للمرء ان يستخلصها من السجلات القليلة التي تعود إلى أوائل الفترة الاسلامية التي تبين ان مخصصات المقاتل العربي بلغت ضعف معدل دخل الصناع المهرة[١٣] ، ومن جهة اخرى فالجندي البيزنطي في الفترة نفسها لم يتجاوز راتبه دينار ونصف في الشهر ، ويساوي هذا المبلغ دخل صانع ماهر في معظم المناطق المتقدمة من الامبراطورية البيزنطية ، فالنظام الاسلامي مثل منذ البداية من الناحية الاقتصادية سيطرة الارستقراطية العسكرية .

ولكن ثروة الجندي العربي في العصر الذهبي للحكم الاسلامي لم تقتصر على العطاء وانما اضيف اليها نصيبه من الغنائم ، وحتى لو افترضنا الكثير من المبالغة في روايات الكتاب العرب القدماء ، فان على المرء ان يستخلص ان الكميات الخيالية من المال والكنوز الهائلة وزعت على المحاربين الذين اشتركوا في حروب الفتح ، وحسب ما تروي المصادر العربية قدرت الغنيمة المأخوذة من المدائن بمبلغ ٩٠٠ مليون درهم ، بلغ نصيب كل محارب عربي منها ١٢,٠٠٠ درهم ، وبعد حملة ناجحة في شمال افريقيا قام بها القائد عبد الله بن سعد بن أبي سرح حصل كل فارس عربي على ٣٠٠٠ مثقال من الذهب (المثقال = ٤,٤٦ غرام) .

ولا حاجة بنا للقول بأن ذوي المناصب الرفيعة واتتهم الفرص الكثيرة للاغتناء ، وقد أصبح بعضهم غنياً حقا . فالمغيرة ابن شعبة ـ حاكم الكوفة والبصرة الذائع الصيت ـ كان واحدا من هؤلاء ، كما أن الولاة وحتى الخلفاء أنفسهم مارسوا المضاربات المختلفة باحتفاظهم برواتب الجند أو تخزين كميات كبيرة من الحبوب الى حين ارتفاع الاسعار ، واحتكار بيع الحبوب . ولقد كان العديد من أصحاب الرسول ﷺ والحكام العرب من كبار التجار ، يبدو ان الأملاك التي حصلوا عليها

---

١ ـ لم يكن نظام العطاء مستندا على الطبقية بل استند على معايير لها اساسها الشرعي فالسابق للاسلام عطاءه اكثر والمجاهد في سبيل الله عطاءه اكثر من القاعد . والفارس عطاءه اكثر من الراجل وهكذا . ان هذا التفريق قد غاب عن ذهن المستشرقين او تجاهلوه .

بالوسائل المختلفة أكسبتهم مبالغ أكبر بكثير ، واصبحت مصدرا رئيسيا لثرواتهم الطائلة ، ومكنت هذه الثروات الزعماء العرب من أن يعيشوا حياة البذخ ، سواء الذين سكنوا في الأمصار في ـ المعسكرات المدنية ـ ام الـذين سكنـوا خيامهم في الريف حيث عاش زعماء القبائل حياة مترفة ، ولا بد ان التنـاقض بـين طبقـات المجتمع الدنيا والأشراف كان كبيرا جدا ، بحيث اصبح هذا التناقض ايضا في تلك الفترة علامة مميزة في العالم الاسلامي ، حتى في المناطق الحضارية التي ورثوهـا ضمن اطارها الاجتماعي التقليدي ، والكتّاب العرب الـذين يشـيرون الى الفتـرة الأسلامية الأولى يذكرون العائلات الوجيهـة في الأمصـار مثـل المهلبية في البصرة والسامية زعماء بكر في الكوفة والجارودية زعماء عبدالقيس في نفس المدينة والأشاعثة زعماء كندة . تشير كل هذه النصوص إلى نفوذ الأسر الوجيهة في الأقطار . وقلما يجد المرء في المصادر العربية تفاصيل عن ثروات هذه العائلات ، ولكن من المؤكد انها صاحبة ثراء واسع فحصلت على اموال كثيرة من املاكها ، وعاشت مجتمعة تملك العبيد والخدم والاتباع ، ولا بد ان عدد العبيد كان كبيرا جدا لأن المصادر عن أسواق العبيد الأفريقية وفيرة جدا ، واستخدم هؤلاء العبيد في اعمال متعددة منها الخـدم والمساعدين في المخازن ، بينما أصبحت النساء منهم محظيات .

لم يركز معظم المؤلفين في القرون الوسطى على الحالة الاقتصادية للطبقات المختلفة او الأفراد ، وجمع بعضهم المعلومات عن هذا الموضوع آملين بالتأكيد ان يثيروا الفضول والمتعة ، رغم أنها بالنسبة للعالم الحـديث مادة توضـح التنـاقض الواسع بين ثروات الطبقات العـالية ، وبـؤس الطبقـات الـدنيا في مجتمـع دولـة الخلافة ، ولنستشهد ببعض هذه النصوص .

يقال ان خليفة الرسول (ص) الثالث عثمان (٦٤٤ ـ ٦٥٦) ترك أملاكا تقدر بمبلغ ١٠٠٠٠٠ ـ ٢٠٠٠٠٠ دينـار ، وتـرك مع خازنـه نقـداً ١٥٠,٠٠٠ دينـار ومليون درهم[١]، كما أن ثروة عبد الرحمن بن عوف أحد المقربين من الرسول كانت

١ خ لا صحة لهذا لأن عثمان رضي الله عنه كان قبل الاسلام من كبار تجار مكة وكان ممن بذل الكثير في سبيل الاسلام وتقوية جيش المسلمين في عهد الرسول (ص) وهذا امر لا يخص عثمان فقط وذلك لأن مكة والمدينة كانت من مدن القوافل والتجار .

مضرب المثل ، فلقد ترك سبائك ذهبية قيمتها ٤٠٠,٠٠٠ دينار . وكان تاجرا عظيما بالاضافة الى أنه صاحب أملاك واسعة ، وامتلك طلحة بن عبيد الله أحد المسلمين الأوائل الذين بشرهم الرسول ﷺ بالجنة أطياناً كثيرة في العراق والأردن ، ووفقاً لبعض المصادر تكون تركته ٢٠٠,٠٠٠ دينار و ٢,٢٠٠,٠٠٠ درهم ، وتشير هذه الأرقام الى الأموال النقدية ، ولكن الأملاك والبضائع التي خلفها بلغت قيمتها ٣٠ مليون درهم ، وقد بلغت قيمة حاصلات أملاكه في العراق وحده ١٠٠,٠٠٠ درهم كل عام ، وكل هذا دون أن يتولى أي منصب في الدولة الاسلامية ، كما ان عبد الله بن الخليفة عمر رضي الله عنهما كان غنيا أيضاً ، واتصف بالكرم ، وبلغت زكاة امواله ٣٠,٠٠٠ ـ ٢٠,٠٠٠ درهم ، وكذلك العباس عم الرسول ﷺ عرف رجلا غنيا ويتعاطى الربا قبل الاسلام ، ورغم ان الرسول ﷺ شجب هذه النشاطات جهاراً الا أنه كأمثاله لم يهجر الدنيا من أجل الآخرة[1] ، والزبير بن العوام من اوائل المسلمين الذين شاركوا في معارك الاسلام الأولى ، وممن أحب الترف وقدرت قيمة الأملاك التي خلفها بمبلغ ٣٥,٢ ـ ٥٢ مليون درهم ، وكانت لديه بيوت واقطاعات في المدينة والبصرة والكوفة والفسطاط والاسكندرية ، ويستطيع المرء ان يستخلص انه مارس التجارة أيضا عندما يقرأ أنه ترك بعد وفاته سندات ديون فعلية وليس من الصعب أن نخمّن من أين اتت ثروات زيد بن ثابت ، فهو كاتب الرسول ﷺ وكاتب وحيه ، وبعد وفاة الرسول ﷺ عهد اليه بحكم المدينة ، ورافق عمر رضي الله عنه في رحلته الى سورية ، وهو الذي وزع الغنيمة بعد معركة اليرموك واصبح فيما بعد خازن بيت مال الخليفة عثمان ، وتروي المصادر العربية أنه ترك أملاكاً وبضائع قيمتها ١٠٠٠٠٠ دينار ، بالاضافة الى سبائك ذهبية قسّمت بالمجارف ، كما ترك يعلى بن مرّة ـ أحد صحابة الرسول ﷺ ١٥٠٠٠٠ دينار نقدا ، وسندات دين وقطعا من الأرض بلغت قيمتها ٣٠٠٠٠٠ دينار ، وعلى المرء أن يؤكد أن هذا الصحابي لم يتقلد أي منصب رفيع في الدولة الاسلامية الجديدة ، وترك خباب بن الأرت ـ الذي كان من قبل صانعاً فقيراً ـ ٤٠٠٠٠ درهم . وأما المقداد بن عمرو بن ثعلبة ، المعروف باسم المقداد والأسود

---

١ ـ هذا كلام يفتقر الى الدليل ويدل على الاجحاف .

وهو أحد المسلمين الأوائل ، فقد استطاع أن يبني منزلاً فخماً بجوار المدينة ، وسعد ابن أبي وقاص الذي انتصر في معركة القادسية لم يمت فقيراً ، إذ أنه بنى بيتاً حديثاً في العقيق القريبة من المدينة ، حيث بنى الأغنياء الآخرون بيوتهم ، وتخص كل هذه المعلومات الجيل الأول من المسلمين ، ومع كل التحفظات التي تفرضها المبالغات الشرقية فليس هنالك أي شك في الثروات الأسطورية التي جمعها صحابة الرسول ﷺ ، ولا حاجة بنا للقول بأن كبار المسؤولين المسلمين من الأجيال اللاحقة والحكام والقادة اقتدوا بهم ، وما يقوله المؤرخ العربي الطبري عن خالد القسري ـ حاكم العراق (٧٢٤ ـ ٧٣٨) يلقي الضوء على أوضاعهم ، فلقد استصلح للزراعة أرضاً بكراً ، وحصل على أراضي اخرى مما جعل دخله السنوي يصل الى ٢٠ مليون درهم .

ولا حاجة للقول بأن ثروات وترف الأغنياء أثار الحسد والمرارة بين الفقراء الذين تساءلوا عن مصدر هذه الثروات ، وشعروا بأنهم خدعوا لدى تقسيم الغنيمة ، ولقد عبّر أحد الشعراء عن خيبة أملهم[١٥] واستنكر خروج الأكثرية الى الحرب ثم عودتهم منها فقراء ، بينما عاد الأقلية أغنياء .

ورغم أن تأثير تعاليم محمد ﷺ كان عظيما بحيث اصبح الاسلام عاملاً هاما في الحياة الاجتماعية والاقتصادية في منطقة كبيرة من العالم ، فان تعلق الطبقات العليا من المجتمع الاسلامي بالمكاسب الدنيوية كانت ظاهرة مميزة للامبراطورية الجديدة وليس من قبيل الصدفة أن يحل الأمويون محل الصحابة ، ويصبحوا أول عائلة مالكة في دولة الخلافة وهم في الأصل احدى العائلات الغنية بمكة التي عملت بالتجارة وناهضت محمدا كغيرها من عائلات مكة الغنية بكل قواهم ، وما ان احتلوا قمة الهرم الاجتماعي في الدولة الجديدة حتى اصبح الحس القومي بديلا للحماسة الدينية ، فبنوا دولتهم مجسدة طموحات العرب بحكم الشعوب الأخرى ، فكانت الخلافة الأموية ملكية عربية حقيقية قدمت للعرب انجازات عسكرية عظيمة ، الا ان الصراعات الداخلية التي سببتها التناقضات التي بني عليها نظامهم أدت بالضرورة الى سقوطها خلال فترة لا تزيد عن ٩٠ عاما* .

---

* في الاعتماد على العامل المادي فقط لتعليل احداث الاسلام الأولى ، وخاصة التاريخ الأموي ، اجحاف كبير ، وتعمد واضح لالغاء دور الاسلام .

اسس معاوية الحكومة الاموية (٦٦١ - ٦٨٠) ولقد كان واليا على سورية ، قبل هذا التاريخ ومنذ تلك الفترة اصبحت سورية مركز الحكومة ، ولقد حافظ الأمويون على التقاليد العربية والتي أصبحت القبائل العربية الكبرى التي وفدت إلى سوريا دعامتهم الرئيسية واحتكت هذه القبائل بالعرب الذين عاشوا في سورية قبل الفتوحات الاسلامية وتعرفت على الحضارة البيزنطية ، ولذا فإن وراثة الحكم في الاسرة الواحدة لم يكن غريباً على العرب السوريين ، فأصبح بإمكان الخلفاء الأمويين توريث أولادهم الحكم ، على عكس الخلفاء الأربعة الاوائل عليهم السلام .

الا ان الحكم الاموي واجه منذ البداية عداء مريرا من عدة جهات ، منها شيعة علي بن ابي طالب رضي الله عنه صهر الرسول (ص) لم يتخلوا عن مطالبة اسرته ان تكون الخلافة في ذريته ، وتآمروا ضد الحكومة بل وقاموا بالثورة العلنية ، وفريق آخر من المسلمين الاتقياء الذين لم يثقوا بالامويين ، وانتقدوا علمانيتهم واعتبروهم مغتصبين للخلافة ، فما ان توفي معاوية حتى ثار في مكة عبدالله بن الزبير ، الصحابي المعروف ، ونصب نفسه خليفة منافسا ليزيد وتبع ذلك حرب اهلية انتهت بعد ثلاثة عشر عاما حيث استطاع فرع آخر من الاسرة الاموية في قمع الثورة ، وتمكن الخليفة الشهير عبد الملك بن مروان (٦٨٥ - ٧٠٥) من رأب الصدع .

لكن عرب العراق ، حيث عاش علي بن ابي طالب رضي الله عنه لم يتقبلوا نقل مركز ثقل دولة الخلافة الى سوريا ففي عام ٧٠٠ ثار القائد العراقي عبد الرحمن بن الاشعث على رأس جيش عظيم ضد الامويين ، ورفض الاستسلام رغم ان الخليفة هزمه ، وعرض على جنوده نفس المبالغ التي يتقاضاها الجند الشامي .

ويعتبر عهد معاوية وعبد الملك وابنه الوليد قمة السلطنة العربية ، واستطاعت جيوش الفتح بالحملات المتتالية من توسيع رقعة الامبراطورية الاسلامية حتى امتدت من وادي المندوس الى شواطىء المحيط الاطلسي ، ومن ضفاف نهر سيحون الى حدود الصحراء الكبرى .

في خلافة معاوية اجتازت الجيوش الاسلامية للمرة الاولى نهر جيحون وغزت

بخارى ، وفي نفس الوقت فتح العرب كل بلدان شمال افريقيا حتى المحيط الاطلسي ، ولكنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بهذه المنطقة الواسعة بصورة دائمة ، وعندما هزم البطل العظيم عقبة بن نافع وقتل في معركة قادها ضد البربر في عام ٦٨٣ اضطر العرب للتراجع الى برقة ، كما ان الحملات ضد الجيش البيزنطي لم تكن ناجحة ، فمنذ عام ٦٦٣ بدأ العرب بالقيام بحملات كل عام الى آسية الصغرى واستطاعوا في عام ٦٧٢ ان يحاصروا القسطنطينية لمدة ٧ سنوات الا انهم اخفقوا في نهاية الامر لان تفوق البيزنطيين التقني رجح الكفة .حيث استخدم البيزنطيون النار الاغريقية لاول مرة واحدثوا خسائر فادحة للعرب اجبرتهم على التراجع والانسحاب وما ان انتهت الحرب الاهلية عام ٦٩٣ حتى بدأت موجة اخرى من الفتوحات ، فقاد حسان بن النعمان العرب الى انتصارات جديدة في شمال افريقيا ، ادتّ الى فتح تونس النهائي ، واستمرت حرب الفتوحات في عهد الخليفة الوليد الاول ، واخيرا فتحت الجيوش العربية شمال افريقيا بكامله ، وفي عام ٧١١ اجتازت مضيق جبل طارق وفتحت بلاد الاندلس ، وفي الشرق فتح قتيبة بن مسلم بلاد ما وراء النهر وفرغانة ، ووصل كاشغر على حدود الصين وفي نفس الوقت وطدت حملة عربية الحكم الاسلامي في وادي نهر الهندوس ، إلا أن العرب عانوا من النكسات أيضاً ، واخفقت الحملات الجديدة على الامبراطورية البيزنطية كما أخفق حصار القسطنطينية عام ٧١٦ ـ ٧١٧ ثانية وانتهت الحملات العديدة خلف جبال البرانس إلى مملكة الإفرنج إلى كارثة ، وبالرغم من ذلك فإن الأمويين أصبحوا حكام دولة تمتد في ثلاث قارات ، وتحتوي على ما يبدو على موارد لا تنضب .

لكن القبائل العربية التي كانت العمود الفقري لقوة الامبراطورية كانت أيضاً العنصر الذي استنزفها ، حيث حافظت هذه القبائل على المبادىء العشائرية القديمة ـ الولاء المطلق والدعم المتبادل ـ وقبل كل شيء الثأر لمظالم الأهل والأجداد ، فواجب الولاء للقبيلة هو واجب العربي الأول ، ومع مرور الزمن أصبحت الخصومة بين المتحالفين العشائريين الكبيرين ـ القيسي من شمال الجزيرة العربية واليمني من جنوبها ـ العامل الأساسي في الحياة السياسية ، وشكل ظاهرة جديدة لم تعرفها الجزيرة العربية قبل الاسلام . لقد تطورت في سورية حيث

عاشت القبائل اليمنية من القديم ، وعانت من تعديات القيسيين الذين قدموا في أعقاب جيوش الفتح الاسلامي ، واعتبر القيسيون ابن معاوية وخليفته يزيد الأول (٦٨٠ ـ ٦٨٣) حامياً لليمنيين ، وبعد موته ناصروا عبد الله بن الزبير الخليفة المنافس للأمويين ، كما قاتلوا في معركة مرج راهط في عام ٦٨٤ ضد الخليفة مروان الأول ، وهزموا فيها شر هزيمة فتوترت العلاقات بين القبائل العربية لفترة طويلة من الزمن ، وقد انسحبت هذه الخصومات على الخلفاء الامويين بسبب علاقات النسب أو من خلال عمالهم ، فانضم بعضهم فعلياً إلى إحدى المجموعتين المتنافستين بينما اعتبر الآخرون منحازين سواء شاء وا ذلك أم أبوا ، وفي عهد يزيد الثاني (٧٢٠ ـ ٧٢٤) تفـوّق القيسيون ، بينما أصبـح اليمنيون في أيام هشـام (٧٢٤ ـ ٧٤٣) المسيطرين على العراق والمناطق المجاورة ، وفي ظل الوليد الثاني (٧٤٣ ـ ٧٤٤) عادت السيطرة إلى القيسيين مرة أخرى لكن اليمنيين انتصروا مرة أخرى في عهد يزيد الثالث (٧٤٤) ، وانتقل الصراع القديم بينهما إلى العراق وإلى جميع الامصار التي سكنها العرب ؛ خراسان في المشرق ، وشمال أفريقيا واسبانيا في المغـرب ، وازدادت الاحقاد واخذت العصبية دورها في تفتيت الولاء للعائلة المالكة[1] .

والمشكلة الاكثر خطورة في الخلافة الأموية هي قضية الموالي ، من غير العرب الذين اعتنقوا الاسلام . حيث ازداد عدد الذين انضم منهم إلى الاسلام تلقائياً لأن هذا يمكنهم من الحصول على المناصب الحكومية ، فاصبح الدافع لديهم قوياً للانتماء للدين الجديد ، فوضع المواطن يتقرر على أساس الدين حسب المبادىءالدينية التي قامت عليها الدولة الاسلامية ، إلا أن ما حدث في الحقيقة أن المسلمين من غير أن العرب أصبحوا موالي للقبائل العربية دون الحصول على حقوق المواطنين الكاملة ، رغم انهم ساهموا في الحملات العسكرية وحاربوا بشجاعة ضد المشركين إلا أن اسماءهم لم تسجل في الـديوان . في جداول الرواتـب ، ولـم يحصلـوا إلا على نصيب ضئيل من الغنائم أو بدون أي مقابل والأسوأ من ذلك أنهم اضطروا لدفع الجزية التي تشير إلى موقعهم الاجتماعي المتدني ، وعندمـا وزعـت دولـة الخلافة

(١) ـ لكن ليس وحده الذي دفع إلى الدخول في الاسلام بل مبادىء الاسلام والتوحيد كانت هي الدافع للملك .

اراضي الفيء على المسلمين المستحقين ، فإن الموالي الذين كانوا أكثر تديناً من العرب طالبوا بتقسيم الأراضي مع أمثالهم من العرب ، ولكن مطالبهم رفضت[١٧] ، كما أن بعض الموالي الآخرين أصبحوا جنوداً مشاة واضطروا أحياناً للصلاة في مساجد مستقلة ، وبالاضافة الى ذلك أطلق عليهم العرب القاباً تثير السخرية نتيجة نظرتهم المتعالية والمتكبرة لهم وفي المقابل أدرك الموالي مستوياتهم الثقافية الرفيعة ، وقوتهم العددية ، وأهميتهم الاقتصادية للدولة الاسلامية[١٨] . فبعضهم كان من احفاد فرسان الفرس ، بينما انحدر الآخرون من أنساب عريقة ، أما الذين تحدروا من أصول فلاحية تعرضوا للاضطهاد لوقت طويل ، وعندما اعتنقوا الاسلام وغادروا القرى وأتوا إلى المدن أعيدوا إلى قراهم بالقوة وهذه هي سياسة الحجاج والي العراق التي طبقها في عهد عبد الملك والوليد الأول ، لكن الخليفة التقي عمر الثاني (٧١٧ ـ ٧٢٠) حاول ايجاد حلّ للمشكلة ، وأصدر أوامره بابقائهم في المدن ، ويبدو أنه ما أن توفي الخليفة حتى أعيد العمل بالسياسة السابقة . وهكذ أصبح الموالي قوة هدامة مستعدة لاستعمال أسلحتها في خدمة أية ثورة ضد الأسرة الأموية .

ء ـ الثورات الاجتماعية : إن الشرخ بين الطبقات العليا والدنيا في المجتمع ، والتناقض بين تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم وحكم الأثرياء الأمويين ، والتناقض بين المبادىء الثيوقراطية والممارسات الادارية ، وتمركز عدد كبير من مواطني الدرجة الثانية ـ الموالي ـ في المدن الكبيرة ، كل هذه الأمور هيأت الظروف التي تسبق الثورة في الخلافة الأموية ، فالسخط كان واسع الانتشار ، وكانت مجموعات كثيرة تتآمر ضد الخلفاء الأمويين في دمشق ، وتنتظر اللحظة المناسبة للثورة العلنية .

فبالاضافة إلى التمردات الفردية والمنعزلة ، تواجد تياران أساسيان للمعارضه ومهيئان للثورة : أولهما الخوارج ، وثانيهما الموالي ، فكلاهما قام بثورات خطيرة ، أدت أخيراً إلى سقوط الخلافة الأموية .

فالخوارج فرقة دينية ، وحركة ثورية اجتماعية ، أو على الأصح فرقة من المنشقين ، أدت إلى حركة ثورية عظيمة . بدأت الفرقة في عام ٦٥٨ ، عندما عارض بعض مؤيدي علي رضي الله عنه المتدينين الذين خاضوا ثاني حرب أهلية في

الاسلام ضد معاوية ضد التحكيم ، وآمنوا بأن السيف[1] هو الحكم ، وكان الخوارج أبطال الثيوقراطية الحقيقية ، ولكنهم كانوا أيضاً ديمقراطيين أوفياء لأنهم قالوا إن أي مسلم تقي يمكن أن يتولى منصب الخلافة ، واعتبر ذلك في تلك الأيام مبدأ ثورياً حقيقياً في المجتمع العربي المشبع بالأفكار المحافظة حول حكم الوجهاء المتجسد بالقيادات العريقة (دون أن يعني ذلك بالضرورة أبناء القيادات السابقة) ، فالقول بحق كل فارسي وكل زنجي بالخلافة ـ كما قال الخوارج ـ لا بد وأنه صدم غالبية العرب ، وقالوا أيضاً بأن الخليفة الذي يتعدى حدود القانون الاسلامي يفقد حقه في الاحتفاظ بالمنصب ولا بد من عزله ، وهذا أيضاً مناقض تماماً للعقيدة الاسلامية[2] . فحسب آراء علماء المسلمين على المرء أن يطيع الخليفة وحكامه ولو كانوا آثمين ، والمسلم الحقيقي مجبر على إطاعة السلطات ما لم تأمر بمخالفة النص القرآني .

وليس من الصعب أن نفهم أن حركة كهذه تنادي بالمساواة بين الأجناس أصبحت موضع اعجاب الشعوب الكثيرة ، التي لم ترض عن النظام الأموي ، فالخوارج ينتمون إلى فئات مختلفة تماماً والكثير منهم بروليتاريون حقيقيون البعض الآخر مثقف ، فخابت آمال الجميع ، لذا تواجد في صفوفهم العرب والموالي ، إلا انهم لم يكونوا مجموعة متماسكة ، لأن طبيعة مبادئهم أدت إلى الخلافات في داخلهم ، ومن جهة أخرى كان الخوارج راديكاليين حقيقيين وأفراد لا يعرفون الاستسلام ، فإما أن ينجحوا أو يقاتلوا حتى النهاية .

وكانت البصرة (عاصمة جنوب العراق) منبت استياء الخوارج ، ولم يكن هناك أي مكان آخر في الشرق الأوسط في العصر الأموي بلغ العداء الاجتماعي فيه مثل هذه القوة ، فبدأت في عام ٦٧٠ سلسلة طويلة من ثورات الخوارج في البصرة ، وبعد عشر سنوات تقريباً غادر أحد زعماء الخوارج وهو أبو بلال مرداس ابن أدية مدينة البصرة وبدأ ثورة في منطقة خوزستان المجاورة ، ورغم قلة عدد أتباعه فقد هزموا جيشاً توجّه ضدهم إلا أن حملة ثانية سحقتهم .

---

١ ـ آمنوا أن الله هو الحكم .

١ ـ كلا ولا أساس لهذا .

النهرين ، وتعتبر ثورة شبيب حرب عصابات نموذجية ، ففي أي وقت من الأوقات يمكن أن يتواجد شبيب في كل مكان وليس في أي مكان ، وهزم شبيب قادة الحجاج في بعض الأحيان كما واستطاع التغلب على بعض المدن دون الاحتفاظ بها لفترة طويلة . ولكنه أخيراً قتل في عام ٦٩٧ .

وفي الوقت نفسه كانت للخوارج ثورات اخرى متفرقة في أجزاء من دولة الخلافة . في عام ٦٨٥ ثار الخوارج في جنوب الجزيرة العربية ، ونجحوا في فرض سلطتهم بالتتالي على مناطق مختلفة هناك ، وبالتحالف مع قبائل البدو الأقوياء وهزموا أيضاً اليمامة وحضرموت ومدينة الطائف ، ولكن في عام ٦٩٢ تم القضاء على هذه الحركة أيضاً ، ومن حين لآخر كانت تقوم للخوارج ثورات أخرى سحق معظمها في وقت قصير . ولكن في أواسط القرن الثامن عندما بدأت الخلافة الأموية بالتداعي ، أصبحت نشاطات الخوارج التخريبية إحدى القوى الهدامة التي هزّت أسس النظام وقادته إلى الفوضى .

وإلى جانب الأزارقه وجدت مجموعات من الخوارج أقل راديكالية ، وإحدى هذه المجموعات تسمىٰ الصفرية أسسها عبد الله بن الصفر (النحّاس) وهو رجل ينتمي إلى أصول بروليتارية ، وأنكرت هذه الفئة الاستعراض ولكنهم اشتركوا في حركة صالح بن مسرّح وقاموا بحملة دعاية مركزة في أقسام الامبراطورية الشرقية والغربية .

والفرع الثالث من الخوارج هو الإباضية التي تمركزت في البصرة ، وحاولت لفترة طويلة من الزمن تجنب سفك الدماء والوصول إلى أهدافهم بالطرق السلمية ، فشجبوا النشاطات الارهابية للأزارقة الراديكاليين ، وأقام زعيمهم عبد الله بن إباض علاقات ودية مع زعماء دولة الخلافة ، وفي العقدين الأولين من القرن الثامن اتخذوا موقفاً سلمياً آملين بإقناع حكومة الأمويين نفسها بأفكارهم ، وفيما بعد قاموا بقيادة أبو عبيدة مسلم بنشاطات ثورية على نطاق واسع فأقاموا مراكز في البصرة تلوب فيها الدعاة ، ثم أرسلوا مجموعات من هؤلاء العلماء الخوارج لإشعال الثورة في كل انحاء العالم الاسلامي . أما في البصرة نفسها فقد شكلوا حكومة إباضية .

ولاقت هذه النشاطات نجاحاً كبيراً في أواسط القرن الثامن ، فثار الإباضيون

ويعتبر نافع بن الأزرق أكثر ثوار الخوارج عناداً واقداماً ، لقد كان بروليتارياً حقيقياً . فهو ابن لحدّاد عتيق من أصل اغريقي ووفقاً لمبادئه : على الخارجي ألا يقبل بحكم المسلمين الآخرين ، وبالاضافة إلى ذلك فإنه برأيه نظراً لكونهم آثمين فإن عليه أن يبيدهـم مع زوجاتهـم وأبنائهـم ، هذا هو المبـدأ الـذي سموه الاستعراض* ، وهكذا أصبحت الثورة الدائمة والقتل العمد لمعارضيهم شعار فرقة الخوارج . ثار نافع بن الأزرق في عام ٦٧٤ إلا انه انهزم وقتل في العام التـالي ، ولكن اتباعه ومريديه استمروا بالقتـال إذ قامت مجموعـات صغـيرة من الفرسـان الشجعان المتمرسين بأساليب القتال الشعبي على مبدأ «اضرب واهرب» بسلسلة من الغارات ، فهم يظهرون فجأة في مكان ما ويهاجمون قوات الحكومة ويحرقون منازل المواطنين المسالمين ويهربون قبل وصول قوات الدعم ، ومن بعد نافع بن الأزرق قاد الخوارج زعيم مقتدر آخر ـ قطري بن الفجاءة ـ إلى انتصـارات كثـيرة ، ونشرت قواته الرعب في المناطق الواقعة بين البصرة وخوزستان ، ونجحت في الاستيلاء على عدة مدن مثل المدائن ونهبها ، واستطاعت القوات الحكومية التغلـب عليهـا بحيث اختفت عن مسرح الاحداث إلا انها تمكنت من اعادة تنظيم نفسها وتجددت هجماتها ، وعندما انتهت الحرب الأهلية الكبرى وأصبح الحجاج حاكماً للعراق في عام ٦٩٤ أوكل الى قائده المهلب مهمة القضاء على الأزارقة ، الذين قاوموا قواته مدة خمس سنوات ليجدوا أنفسهم بعدها انهم وقعوا في مآزق عديدة ، ودبّت الخلافات بين صفوفهم ، وانفصل العرب عن الموالي . وهكذا نرى أن هؤلاء الديمقراطيين الحقيقيين لم يستطيعوا التغلب على تحاملهم على غير العرب ، إنها لعنة القومية ، وفي عام ٦٩٩ قتل قطري بن الفجاءة ، وتم القضاء على بقايا جيشه .

وقبل القضاء على هذه الثورة ثارت مجموعة خوارج أخرى في غرب العراق بقيادة صالح بن مسرّح ، وبعد موته تولى شبيب بن يزيد قيادة هؤلاء المتمردين الذين ينتمون أيضاً إلى الجناح الراديكالي من الخـوارج ، وجـل هؤلاء المتمردين ينتمون إلى القبائل العربية ـ وكذلك قائدهم نفسه ـ والكثير منهم من الشيبـانيين الـذين هاجروا من ضفـاف العـراق الأسفـل إلى الجـزء الأعلى من بلاد ما بـين

---

* ـ استعرض القوم : قتلهم ولم يسأل عن حال أحد .

في عُمان وفي نفس الوقت أقاموا حكمهم في طرابلس الغرب(*) ، وبقيت هاتان المنطقتان مركزين للدعاة الإباضيين ودولتين إباضيتين مستقلتين لفترة طويلة من الوقت(١٩) .

وهكذا نجد أن الجناح المعتدل من الخوارج لاقى نجاحاً أكبر مما لاقاه الراديكاليون ، وكانت مبادىء الأزارقة ذات طبيعة تجعل من الصعب تأسيس حكومة دائمة لأنها أدت إلى الانقسامات ضمن الحركة نفسها ، ولقد جذبت الخياليين واليائسين ، ولكنها لم تنجح في استمالة الطبقة بكاملها ، وفي بعض الفترات انضم إلى الخوارج الفئات الساخطة ولكن لفترة قصيرة على الأرجح ، وتعتبر انجازات الخوارج المعتدلين أعظم ، لأنهم كانوا أكثر واقعية ولأن فئة اجتماعية واحدة على الأقل كان لها حضورها كطبقة بينهم .

وعارضت الأباضية مبدأ الاستعراض ، ولكنها اعتقدت كفئات الخوارج الأخرى أن الإيمان بالدين الصحيح لا ينقذ الآثمين ، وبالتالي فإن هؤلاء الخوارج (كغيرهم) لا بد وأنهم كانوا حذرين في معاملاتهم ، وآمنوا بأن النشاطات الاقتصادية الشريفة مثابة ؛ وكما استطاع البيوريتانيون (التطهريون) الانكليز إظهار فضائلهم الدينية من خلال نشاطاتهم الاقتصادية ، ولم يلجأوا للتأويلات الفضفاضة للمبادىء الدينية نجد ما يشابهها لدى هذه الفرقة من الخوارج ، فالاباضي تاجر مستقيم جداً ، وبالتأكيد ليس من قبيل الصدفة أن ينجح التجار الإباضيون في كل مكان ، ويصبحوا زعماء التجارة في العالم الاسلامي ، ومن المرجح أنهم استخدموا طرقاً جديدة في التجارة العالمية في أيامهم تماماً كما فعل التطهريون بعد ذلك بعدة قرون في أجزاء أخرى من العالم ـ إنه تشابه غريب . على أي حال أصبح التجار دعامة المجتمع الإباضي في كل مكان ، في البصرة وعُمان ، وشرق أفريقيا والجزائر ، وساعدوا الدعاة الإباضيين كما أنهم شاركوا بأنفسهم في الدعوة لمذهبهم ، ولكن نجاح الخوارج المعتدلين إنما كان نجاح فرقة دينية ، نجاح مجموعة من المعارضين الديمقراطيين ، الا ان المبادىء الديمقراطية ضعفت إلى حد كبير ، ومهما كانت الحال فإن الحركة فقدت الكثير من طابعها الثوري الاجتماعي الذي

* ـ مؤقتا لم يشكل أطول في يفرن في جزائر اليوم .

تميزت به في البداية .

ولدىٰ تقويم نجاح واخفاق هذه الحركة على المرء أن يميز بين الشرق الأوسط والمناطق الأخرىٰ من العالم الاسلامي . ففي بلاد الهلال الخصيب والبلدان المجاورة للشرق الأدنىٰ كانت مشكلة الموالي هي القضية الأساسية ، والخوارج كانوا عرباً رغم إيمانهم بالمساواة ، وبالتالي لم يصبحوا أبطال قضايا المسلمين من غير العرب ، غير أن الموالي وجدوا أبطالاً آخرين أشهرهم رجل يسمىٰ المختار ، الذي كان بالرغم من طموحه وتهوره زعيماً حقيقياً قاتل بأخلاص من أجل المساواة في الحقوق بين كل المسلمين .

وأظهر إمامه [محمد بن الحنفيه] على أنه المهدي المنتظر سليل أسرة علي رضى الله عنه الذي سيقيم العدالة على الأرض ، وبدأت ثورته في الكوفة عاصمة العراق الغربي وهي المدينة التي أقام فيها عليّ رضى الله عنه والتي كانت معقل شيعته ، وهم الذين يقولون بحق ذريته بالخلافة ، ومن جهة أخرىٰ فإن عدد الموالي في الكوفة كان كبيراً ، انضموا إلى المختار .

ولاقت تعاليم المختار الذي كان متحدثاً بليغاً نجاحاً كبيراً بين شيعة الكوفة ، وفي نهاية عام ٦٨٥ استولىٰ على النقاط الاستراتيجية وفي مقدمتها القصر ، وبوصفة قائداً موهوباً نجح في استمالة قادة مقتدرين آخرين وخصوصاً القائد المعروف ابراهيم بن مالك الأشتر ، وهو ابن قائد عليّ رضى الله عنه المشهور . وكان معظم أتباع المختار من الموالي . فإما أنه اعترف صراحة بحقهم في المساواة مع العرب المسلمين أو أنهم شعروا بالفطرة أنه يحارب من أجلهم ، وعندما بدأوا بالانضمام إليه بأعداد كبيرة منحهم حقوقاً كثيرة كانوا يتشوقون إليها . وحتىٰ لو كان في البداية قائداً شيعياً كالكثيرين من أمثاله ، فإنه أصبح بحكم الظروف مع مرور الوقت بطل الموالي الذين وقفوا إلى جانبه ، وفي الحقيقة لا يهمنا ما كانت عليه أهدافه في البداية إذ مهما كانت هذه الأهداف عندئذ ، فإنه أصبح في النهاية قائد ثورة اجتماعية ، ووفقاً لرواية المؤرخ العربي الطبري كان المختار محاطاً بالموالي كما أن معظم محاربيه منهم(٢٠) ، وقد عرفوا بحملة الهراوات[1] بعكس جنود الخلافة المسلمين الذين حملوا

---

١ - يريد بهذا الخشبية ، ذلك أن رجال المختار الذين أرسلهم لمساعدة محمد بن الحنفية في مكة ،

السيوف والرماح ، كانت علاقات المختار بأشراف الكوفة متوترة منذ البداية ، فرغم ادعائه بأنه رسول محمد بن الحنفية أحد أبناء علي رضى الله عنه الذي عاش حياة منعزلة ، فإن الأشراف المدركين لافكاره في المساواة لم يتمكنوا من الثقة به ، وبالتالي فإنهم دافعوا عن حاكم الكوفة ضد المختار ، وذهبت جهوده لاستمالتهم عبثاً ، وذلك لأنهم لم يكونوا ميالين للقتال ضد الحكومة كما هي حال الأغنياء دائماً ، ولم يغفروا له أنه قاسم الموالي في الغنائم ، وهو إجراء اعتبروه مهيناً للعرب ، كما اتهموه بأنه أعطىٰ الموالي خيولاً وأنه حرّر العبيد منهم[٢١] ، وبدت ثورته في نظرهم ثورة اجتماعية حقيقية ، وقد كانت كذلك إلى حدّ كبير . وكانت أهداف المختار بعيدة المدى ، فلقد هدف فعلاً إلى الإطاحة بحكومة الخلافة ، وإقامة نظام اجتماعي جديد في الامبراطورية الاسلامية بكاملها ، وعندما هزم جيشه قوات الخلافة على ضفاف نهر الخازر في عام ٦٨٦ ، أصبح كل العراق وجزء كبير من بلاد ما بين النهرين العليا ، وحتىٰ أذربيجان تحت سيطرته ، فعينّ حكاماً لهذه الأقاليم ، ولكن الحظ ابتسم له لفترة وجيزة فقد هاجر أشراف الكوفة وانضموا إلى قوات منافس الخليفة عبد الله بن الزبير الذي استولى على البصرة والمناطق المحيطة بها ، وانهزمت قوات المختار أمام قوات أعدائه في معركتين إحداهما على ضفاف دجلة والأخرىٰ قرب الكوفة ، وحوصر بعدها في القصر حيث قاوم مدة أربعة أشهر ، ثم تخلى عنه معظم رجاله ، ومات في المعركة في عام ٦٨٧ م .

وأخفقت ثورة المختار ، لكن الموالي ثاروا من جديد ، فعندما ثار يزيد بن المهلب في عام ٧٢٠ ضد الخليفة يزيد الثاني انضم إليه الموالي ، وفي نهاية العقد الخامس من القرن الثامن وقفوا إلى جانب ثائر آخر هو عبد الله بن معاوية الذي انتشرت ثورته إلى مناطق كثيرة من الامبراطورية الاسلامية ، ومهدت الطريق أمام حركة ثورية أخرى أدت في النهاية إلى سقوط الخلافة الأموية .

= استخدموا الهروات والسيوف الخشبية .

الحواشي

الفصل الأول

١ ـ CAETANI

HITTI

٢ ـ CAETANI

BECKER

٣ ـ ALTHEIM

DUSSAUD

NAU

CAETANI

ابو يوسف ـ كتاب الخراج (القاهرة ١٣٤٦) ص ١٧٠ وما بعدها .

٤ ـ MULLER

المقريزي ـ الخطط (بولاق ١٢٧٠) ـ ١ ص ٩٤

LAMMENS

POLIAK

٥ ـ البلاذري ـ فتوح البلدان (ليدن ١٨٦٦) ص١٢٦ وما بعدها ، ١٣٦ ، ١٥٠ ترجمة حتي (نيويورك ١٩١٦) ص١٩٤ ، ٢٠٨ وما بعدها ، ٢٣٢

اليعقوبي ـ كتاب البلدان ص٣٠٩ ، ٣٢٧ ، ترجمة فييت (القاهرة ١٩٣٧) ص ١٤٠ ، ١٧٨

٦ ـ اليعقوبي ص ٣٢٧ وما بعدها ، ترجمة فييت ص ١٧٧وما بعدها ، ١٨٠ وما بعدها

البلاذري ـ فتوح ـ ص ١٢٧

٧ ـ ابن حوقل ـ صورة الارض تحقيق كرامرز ص٢١٥ ، ٢٢٨ ، ترجمة فييت ـ ١ ص ٢٠٩ ، ٢٢٢

اليعقوبي ص ٣٢٤ وما بعدها ، ٣٢٦ وما بعدها ، ٣٢٩

BECKER

الكندي ـ ولاة وقضاة مصر (ليدن ١٩١٢) ص ٧٦ وما بعدها الخطط ـ ١ ص ٨٠

الخطط ـ ٢ ص٢٦١

٨ ـ ياقوت ـ معجم البلدان ـ ٤ ص ٧٥٧

POLIAK

الجاحظ ـ كتاب الحيوان (القاهرة ١٣٢٣ ـ ١٣٢٥) ـ ١ ص ١٤٣

الخطط ـ ١ ص ٨٢

الخطط ـ٢ ص ٢٦١*

BECKER

البلازري ص ١٥٠

٩ ـ REIFENBERG

PLANHOL

POLIAK

MASSIGNON

BECKER

GOITEIN اليعقوبي ص ٣٢٦

ابن حوقل ص ٢١٥ ، ٢٢١ ترجمة فييت ـ ١ ص ٢٠٩ ، ٢١٥

١١ ـ BECKER

LAMMENS

STRIKA

MASSIGNON

SADAN

ASHTOR

١٢ ـ الخطط ـ ١ ص ٩٨

BECKER

SCHACHT

COULSON

FOSTER

VADET

١٣ ـ ASHTOR

ASHTOR

WELHAUSEN

LAMMENS

MULLER. ١٤
GOLDZIHER
LAMMENS
WELHAUSEN
ابن الاثير ـ اسد الغابة (القاهرة ١٢٨٠هـ) ـ ٣ ص ٣١٥
ابن قتيبة ـ عيون الاخبار (برلين ١٩٠٠ ـ ١٩٠٨) ص ٢١٢
LAMMENS

١٥ ـ محمد بن علي بن طولون ـ رسائل تاريخية ـ ٤ : اللمع البرقية (دمشق ١٣٤٨) ص ١٠ وما بعدها
المسعودي ـ مروج الذهب ـ ٤ ص ٢٥٣ وما بعدها ترجمة بللات ـ ٣ ص ٦١٦
اليعقوبي ـ مشكلة الناس بزمانهم (تحقيق ميلوارد ـ بيروت ـ ١٩٦٢) ص ١٣ وما بعدها
ابن سعد ـ طبقات ـ ٣/ ١ ، ص ٧٦ وما بعدها ، ١٥٨ ،
ابن سعد ـ طبقات ـ ٤ ص ١٠٩
ابن الاثير ـ اسد الغابة ـ ٣ ص ٢٢٩
ابن هشام ـ السيرة (غوتنغن ١٨٥٩) ص ٩٦٨
GOLDZIHER
ياقوت ـ ٣ ص ٧٠٠''
الطبري ـ ٢ ص ١٦٥٥
البلاذري ص ٣٨٤

WELHAUSEN- ١٦
LOKKEGAARD- ١٧
LAMMENS- ١٨
MASSIGNON
WELHAUSEN- ١٩
LEWICKI
٢٠ ـ الطبري ـ ص ص ٦٣٤ ، ٦٤٧ ، ٦٨٩
٢١ ـ نفس المصدر ، ص ص ٦٠٩ ، ٦٣٠ ، ٦٣٤ ، ٦٤٩ وما بعدها .

الفصل الثاني

الأحوال الزراعية في الدولة الاسلامية

بما أن الغالبية العظمىٰ من سكان الشرق الأدنىٰ يعتمدون على الزراعة ، فإن
ثر الفتوحات الاسلاميةسيتحدد بوضـوح بمـدى تأثـير نتائجـه على فروع الزراعة
لمختلفة وأحوال الفلاحين ، وبالرغم من أن جزءاً كبيراً من السكان كان ينتـج
لأغذية التي يحتاجها . فإن نمو المدن أدىٰ إلى ازدهار التجارة التـي اعتمـدت على
لحاصلات الزراعية ، كانت الحياة الريفية في الشرق الأدنىٰ في أوائـل العصـور
لوسطىٰ مختلفة جداً عن حياة الاقتصاد المغلق التي تميزت به أوروبا الغربية في تلك
لفترة بالتأكيد ظهرت هناك بعض المقايضة ولكن المدن أدت إلى انتشار الاقتصـاد
لمالي في الريف ، هذه هي الحقائق التي تبرز من المصـادر التـاريخية منـذ الوهلـة
لأولى . ولا شك أن اندماج أقطار كثيرة في امبراطورية جديدة كان له أثره على نمو
و تدهور الحاصلات المختلفـة ، وأدى إلى ثورة في نظـام ملـكية الأراضي ، لكن
لمؤ رخ الاقتصادي لن يكتفي بتوضيح هذه الأمور لأنه يريد أن يعرف ما إذا كانت
هذه التغيرات مرتبطة باعتماد أساليب جديدة .

آ ـ ملكية الأراضي : ترينا الوثائق والمصادر التـاريخية والأدبية بوضـوح أن
التغييرات في عهد الخلافة التي أدخلتها الفتوحات الاسلامية كانت بطيئة نسبياً ،
فلم يصادر العرب الأراضي التي بقي عليها أصحابهـا ، وهـذا ما فعلتـه الغـالبية
العظمىٰ بالفعل ، وهكذا مرّ وقت طويل قبل أن يتبلور نظام إسلامـي متّسـق في
ملكية الأراضي في البلاد التي خضعت في الماضي لدول مختلفة .

وفقاً للمصادر العربية ارتأى الخليفة عمر أن يفرض العرب كجيش احتلال
السكان الأصليين الذين يجب أن يتكفلوا بالانفاق عليه ، ولكن ثبت أن هذه الفكرة
وهم فيما لو ارتآها عمر حقاً . فالفاتحون العرب قاموا للحصول على مساحات واسعة



من الأراضي في الهلال الخصيب ومصر كما في البلدان الأخرى ؛ فقبيلة بني بجيلة التي شغلت دوراً بارزاً في فتح العراق قيل أنها حصلت على ما لا يقل عن ربع الأراضي المفتوحة[1] ، ولكن الأراضي التي منحت للعرب هي في غالبيتها أملاك التاج الساساني ، أو أراضي الملاك الذين هجروها من الارستقراطية الفارسية وأعطيت هذه الأراضي على شكل حصص سميت صوافي قطائع للعرب المتعطشين للأرض بشروط مفيدة جداً : إذ ترتبت عليهم ضريبة العشر فقط ، بينما ترتب على الملاك الآخرين دفع ضرائب أعلى من ذلك بكثير ، ومنح الخلفاء الأمويون القطائع لمحسوبيهم في كل مناطق العراق وسورية حيث وطّنوا العرب قرب أنطاكية ، وعلى شاطىء البحر المتوسط ، كما أن الأمراء الأمويين أيضاً حصلوا على القطائع في شمال سورية ، وهكذا برزت طبقة جديدة من الملاك العرب الأغنياء ، و جزءكبير من هذه القطائع صوافي كبيرةأجرّها أصحابها بكاملهاأو جزءاًكبيراً منهاإلى الفلاحين الفقراء بمبالغ كبيرة ، أما الفارق بين ضريبة العُشر وهذه الايجارات المرتفعة فهي ارباحهم منها التي كانت كبيرة جداً يسوغ الاهتمام الكبير الذي أبداه هؤلاء العرب في الاستيلاء على أراضي الفلاحين المسيحيين ، ويشهد على تلهفهم على تملك أراضيهم في العراق الأعلى كتابات ديونيسيوس التلمحري البليغة ، وهو رئيس الكنيسة اليعقوبية في تلك البلاد ، عاش في بداية القرن التاسع ، واعتبرت هذه القطائع أملاكاً خاصة ، ولكن الملاكين لم يقطنوها بل سكنها المستأجرون الراسخون .

وأدى هذا الازدياد في الدساكر الكبيرة إلى نقصان موارد بيت المال ، وبالتالي اتخذ بعض الخلفاء الاجراءات للحدّ منها ، فالخليفة الأموي يزيد الثاني (٧٢٠ - ٧٢٤) حاول مصادرة القطائع ، ولكنه أثار احتجاجات عنيفةواضطر للتخلي عن مشاريعه ، بل وزاد على ذلك أنه منح جزءاً من الصوافي المصادرة كقطائع جديدة لكبار رجال الدولة ، كما منح العباسيون - الذين خلفوا الأمويين - أتباعهم قطائع في مختلف المناطق ، بدأ في نفس الوقت الملاكون الأغنياء عن طريق الوصيه بمنح هذه الصوافي كهبات للأغراض الدينية أو لمصلحة ذراريهم وهي طريقة لتجنب

---

١ - وعدت بذلك ، لكن عمر بن الخطاب لم يوزع أراضي السواد ، والقضية مشهورة ، أخبارها في كتب الفتوح وفي كتاب الخراج لأبي يوسف وما ماثله من الكتب .

المصادرة ، ولتأمين مستقبل العائلة يعني ذلك تجميد الممتلكات ، وإلى حد ما منع الناس من النشاط الاقتصادي ، ولكنه يضمن بقاء الصوافي الكبيرة ، وعملية تجزيتها مستحيلاً ، وانشئت في مصر دائرة حكومية في عام ٧٣٦ لإدارة الأوقاف[١] .

وجد إلى جانب أصحاب القطائع العرب في كل مكان طبقة من أصحاب الأراضي الذين يملكون قرى متوسطة الحجم ، وبقي في العراق جزء كبير من الارستقراطية الفارسية الذين يسمون الدهاقنه ، والذين عاشوا على إيرادات أراضيهم وذكر المؤلفون العرب في فترة الخلافة الذين كانوا يعيشون في المدن الصغيرة على نهر دجلة مثل دير العاقول والجرجرائيه والنعمانية والمضرية ، وترينا أوراق البردي العربية أنه حتى في مصر وجدت طبقة من ملاك الأراضي المسلمين والأقباط تؤجر الأراضي، وكتب بعضهم العقود التي يسميها رجال القانون المسلمون المزراعة ، وهو عقد إيجار يجبر المستأجر على تسليم المؤجر حصة معينة من المحصول . وعندما نعرف من هذه الوثائق أن المسلمين الذين يسكنون عاصمة مصر استأجروا أراضي التاج (أملاك الدولة)على المرء أن يستنتج أنهم استأجروا هذه الأراضي ليؤجروها إلى الفلاحين الذين يدفعون إيجارات أعلى[٢] .

ولم يكن هؤلاء الملاكون سوى فئة صغيرة من الأغنياء، بينما كان غالبية الفلاحين من الملاكين الصغار ، إنها على الأقل صورة الفلاحين في العراق الأعلى التي تبرز من التاريخ السرياني الذي كتبه ديونسيوس التلمحري ، ويبدو أنه لم يكن في أيامه صوافي كبيرة في العراق الأعلى . ولا حاجة للقول بأنه وجد فلاحون أغنياء وآخرون فقراء ، وأن الكاتب السرياني يتذمر بمرارة لأن الفلاحين الأغنياء يستغلون إخوانهم الفقراء عندما تفرض مبالغ معينة من الضرائب في المناطق الريفية ، ويشير أبو يوسف ـ الذي ألف كتابه الخراج (الضرائب على الأراضي) في نهاية القرن الثامن ـ أيضاً إلى وجود فئات متمايزة بين الفلاحين ، وكان هذا الكاتب المسلم يفكر في وضع العراق الأسفل ، ففي قاعدة الهرم الاجتماعي وجد في كل مكان على مايبدو طبقةمن العمال الزراعيين الذين أجّرواأنفسهم للذين يحتاجون جهدهم ، ويسرد ديونيسيوس التلمحري كيف كان يهاجر هؤلاء العمال الزراعيون إلى أماكن العمل ، وفي العراق غالباً ما استأجر العمال الزراعيون ـ الذين

لا يملكون البذار ولا الماشية قطعاً من الأراضي بمعدل $\frac{5}{9}$ - $\frac{6}{7}$ من المحصول[٣] .

ولكن الحقيقة الأساسية للحياة الزراعية ـ التي تعكسها مصادر فترة الخلافة هي وجود الفلاحين الأحرار ، الذين تتناقض أوضاعهم الاجتماعية ، مع أوضاع الفلاحين في الفترة الأخيرة من الامبراطورية الرومانية أو الفلاحين في أوروبا الاقطاعية في القرون الوسطى .

والميزة الأخرى للحياة الزراعية في الامبراطورية الاسلامية هي عبء الضرائب المتزايد باستمرار ، فالقواعد التي وضعها رجال القانون المسلمون تميز على وجه العموم بين نوعين من الأراضي يختلفان من حيث الضرائب .

فالأراضي التي منحتها الحكومة للعرب وأراضي الملاكين المحليين الذين اعتنقوا الاسلام أيام الفتح اعتبرت أراضي العُشر ؛ وحاولت حكومة الخلافة من آن لآخر فرض الخراج (وهو الضريبة العالية على الأراضي) على أراضي العُشر ، ولكنها واجهت معارضة قوية ، واضطرت للتخلي عن مشاريعها، وبالاضافة إلى ذلك اضطرت الحكومة منذ أواسط القرن الثامن بسبب نقص الأموال لتحويل أراضي الخراج إلى أراضي العُشر مقابل مبالغ كبيرة، ومع ذلك بقي حجم أراضي العُشر محدوداً بالمقارنة مع أراضي الخراج ودفع العُشر يعتبر ميزة الأشخاص الذين ينتمون إلى طبقات المجتمع العيا .

أما قرى كل الملاكين الآخرين (ماعدا المنح) فكانت تخضع للخراج ، ولكن تحليل المصادر العربية يرينا أنه في بداية الحكم الاسلامي لم يكن هناك نظام ضريبي موحّد في البلاد التي فتحها العرب ، في العراق الأدنى والعراق الأعلى وسورية ومصر جمعت الضرائب طبقاً للمعاهدات التي أبرمت مع الشعوب أيام الفتح ، أو طبقاً للنسب التي فرضتها السلطات الاسلامية بعد الفتح . ومع مرور الزمن تقاربت أنظمة الضرائب في البلدان الاسلامية ولكنها مع ذلك بقيت مختلفة عبر حكم الخلفاء .

وفي الفترة الاسلامية الأولى ، كان الموظفون الذين يجبون الضرائب في كل مكان هم أنفسهم الذين جبوها قبل الفتح ، ولذلك فهناك سبب وجيه للافتراض

بأنهم لم يغيروا أنظمة الضرائب القديمة ، ففي العراق فرضت ضريبة الأراضي حسب النسب التي حددها الفرس ، أما في سورية ومصر فقد فرضت حسب النظام البيزنطي ، وكما فعل آخر الملوك الفرس والبيزنطيين ، كذلك فرض الحكام العرب الجدد في العراق وسورية ومصر مبالغ محددة متناسبة مع حجم القرى ، ولكن المصادر العربية القديمة تحتوي وصفين متناقضين لضريبة الأراضي التي فرضها في العراق الخلفاء الأوائل ، وبحسب أحد هذين الوصفين فرض الخلفاء ـ كما فرض الفرس ـ درهماً على كل جريب (١٥٩٢ م٢) ولكنهم أضافوا قفيزاً (٤٨,٧٥ كغ) من الحبوب ، وحسب الرواية الأخرى فرضت سلطات الفاتحين ٤ دراهم على كل جريب من أرض القمح ، ودرهمين على كل جريب من أرض الشعير ، الخ . والوصف الأول يشير إلى نسبة ٠,٥ ـ ٠,٦ . دينار على المساحة المقابلة للفدان المصري بينما تبلغ النسبة حسب الوصف الآخر ١,٥ دينار . هذه نسب متباينة ولكن المؤلفين العرب يقولون أن الضريبة الأدنى فرضت على كامل مساحة الأرض سواء كانت مزروعة أم متروكة بينما فرضت الضريبة العليا على الأراضي المزروعة فقط . وفي مصر توجب على الفلاحين أن يدفعوا ديناراً واحداً و٣ أرادب من الحبوب وهذا يصل إلى ١,٢٥ دينار .

في العقد الثامن من القرن الثامن التمس فلاحو العراق من الخليفة تغيير نظام الضرائب بفرض نسبة معينة من المحصول بدلاً من الكمية المحددة ، ووافق مستشارو الخليفة على أن هذا التغيير سيكون مفيداً للحكومة والفلاحين معاً . بحيث يزداد دخل الحكومة في المواسم الجيدة أما في مواسم القحط فيقع الضرر على الفلاحين ، وهكذا أوجد الخليفة المهدي (٧٧٥ ـ ٧٨٥) نظاماً جديداً سماه المقاسمة أي دفع نسبة معينة من المحصول ، ولكن يبدو أن عبء الضرائب ازداد كثيراً قبل هذا الاصلاح الضريبي الذي تم تطبيقه لمساعدة الفلاحين ، لأن نسب الخراج التي يذكرها المؤلفون الذين كتبوا في القرنين التاسع والعاشر مرتفعة جداً ، ووفقاً لرواياتهم ، فإن الأراضي التي لاتستوجب الري الاصطناعي فرض عليها ٢/٥ المحصول أو حتى النصف ، والأراضي المروية بالآلات الهيدروليكية فرض عليها ٣/١٠ أو ١/٤ المحصول ، وبالاضافة إلى ذلك فإن النظام الجديد لم يطبق في كل مكان ووجدت مناطق في العراق والعراق الأعلى حيث بقي الخراج مفروضاً كما في

السابق على أساس المساحة .

وعلى وجه العموم فإن الهوة بين وضع أراضي العشر وأراضي الخراج اتسعت أكثر فأكثر ، وبعض العرب الذين حصلوا على أملاك التاج تمتعوا بوضع أفضل : حيث دفعوا مبلغاً محدداً ثابتاً وفقاً للاتفاق المعقود مع الحكومة (أي ما يسمى بالمقاطعة) ، ومن جهة أخرى هناك عمال زراعيون (فلاحون بلا أراض) اضطروا لاستئجار الأراضي من الدولة حسب نظام المزارعة ، توجب على الفلاحين الذين يدفعون الخراج ويشكلون الغالبية ضرائب أخرى أيضاً : توجب عليهم أن يدفعوا ضريبة الوظيفة المفروضة لتغطية بعض النفقات الحكومية ، ولكنها ليست ضريبة منتظمة تأتي في تواريخ معينة ، بل تدفع عند حاجة السلطات لها ، وتوجب على غير المسلمين دفع ضريبة الرؤوس (الجزية) التي كانت على ما يبدو عبئاً ثقيلاً ، وقد تقاضى كل من الفرس والبيزنطيين ضريبة الرؤوس من الفلاحين ومن طبقات المجتمع الدنيا الأخرى ، ولكنها جبيت على ما يبدو مع الضرائب الأخرى ، وحافظ المسلمون على هذا النظام لبعض الوقت ولكنهم بدأوا فيما بعد بجبي ضريبة الرؤوس على حدة ، ويقول أحد المؤلفين السريان أن معاوية هو الذي أوجد النظام الجديد ، ولكن هناك آخرون يعزونه إلى عبد الملك ، ونظراً لأن ضريبة الرؤوس الاسلامية غالباً ما سميت «بضريبة الجزية» فمن المرجح أن السلطات الاسلامية بدأت بجبايتها على حدة عندما تزايد عدد الفلاحين الذين كانوا يفرون من القرى ، ومهما كان الأمر فإنها بقيت عبئاً ثقيلاً على من تجبى منهم .

ففي مصر توجب على كل قبطي ذكر أن يدفع دينارين كل عام ، وفي العراق والبلاد الأخرى هناك تعرفة تصاعدية لضريبة الجزية : فالأغنياء كانوا يدفعون ٤ دنانير والطبقة الوسطى كانت تدفع دينارين والطبقة الفقيرة ديناراً واحداً .

ويستنبط المؤلفون المسلمون (كأبي يوسف و يحيى بن آدم) الذين كتبوا المؤلفات عن نظام الضرائب القواعد ويجمعون الأدلة على شرعيتها مستشهدين بالمبادىء التي أوجدها الخلفاء الأوائل ، ولكن المؤلفين من غير المسلمين الذين كتبوا تاريخ مجتمعاتهم في نفس الفترة يصورون طريقة جمع الضرائب على نحو مختلف ، يذكر ديونيسيوس التلمحري كيف كانت تجمع الضرائب عدة مرات وكيف فرضت

السلطات الاسلامية ضرائب إضافية جديدة وجبتها حتى من الأموات مجبرين ذراريهم وأقاربهم دفع ما يترتب عليهم ويذكر كيف اضطر الفلاحون في العراق الأعلى إلى بيع محصولاتهم للتجار كي يدفعوا المقادير المطلوبة وتآمر هؤلاء التجار مع جباة الضرائب ودفعوا بالتالي نصف أسعار السوق[1] . وحتى لو افترضنا الكثير من المبالغة فإن المرء ـ لدى قراءة التاريخ السرياني ـ يتولد لديه الانطباع بأن نظام ضرائب الخلفاء جلب الكوارث لفلاحي العراق الأعلى ، وليس هناك أي سبب يدفعنا للاعتقاد بأن مصير فلاحي بلدان الشرق الأدنى الأخرى كان أفضل من ذلك .

ب ـ الحاصلات الرئيسية : الميزة الرئيسية في زراعة الشرق الأدنى أيام الخلفاء هي سيادة القمح ، فالاوروبيون وحتى الذين ينتمون منهم إلى طبقات المجتمع العليا أكلوا خبز الدخن خلال القرون الوسطى ـ أنها حقيقة تثبتها السير الذاتية في أقطار أوربا المختلفة وروايات العائلات البرجوازية والنبلاء . وفي نهاية القرون الوسطى فقط بدأت الطبقات العليا تأكل خبز القمح ، بينما الشرقيون وعلى الأقل سكان المدن منهم أكلوا خبز القمح الأبيض منذ أقدم العصور ، إذن كان القمح العنصر الرئيسي من الحبوب في الشرق الأدنى إبّان حكم الخلفاء كما كان لقرون كثيرة قبلهم وسيكون في المستقبل ، أما الخبز المصنوع من الشعير والحبوب الرخيصة فهو طعام الزهاد . وسيادة القمح ظاهرة تعم كل أقطار الشرق الأدنى .

وتحتوي حسابات بيت المال العراقي التي تشتمل عليها مؤلفات الكتّاب العرب في القرنين التاسع والعاشر على معلومات هامة حول مساحات زراعة القمح والحبوب الأخرى ، فوفقاً لرواية قدامه بن جعفر جمعت الحكومة في عام ٨٢٠ ضرائب عينية من مناطق العراق ١٧٧٢٠٠ أردب (٢٩٢٥ كغ) من القمح و ٩٩٧٢١ أردب من الشعير ، ولكن هناك فرق بين هذه الأرقام ومجموع الضرائب التي جمعت في مختلف المناطق كما يذكرها المؤلف نفسه ، وبجمع هذه الأرقام يجد المرء أن كمية القمح بلغت ٨٨٦٠٠ (أو ربما ١١٥٦٠٠) أردب وكمية الشعير بلغت ١٠٥٩٢١ (أو ربما ١٢٣٩٢١) أردب ، وربما كانت هذه الأرقام الأخيرة أقرب الى الصحة . ويقدم لنا ابن خرداذبه معلومات عن الضرائب المدفوعة عيناً في عام ٨٧٠

(تقريباً) . إنها تبلغ (٧٣٦٥٠ أردب) من القمح و (٧٨٧٥٠ اردباً) من الشعير و ٨٩٠٠ (أو ربما ٢٦٩٠٠) اردب من مخلوط الشعير والرز ، وترينا هذه الأرقام أن كمية محاصيل القمح والشعير متقاربة ، ولما كانت الضريبة المفروضة على محاصيل القمح أعلىٰ على ما يبدو ١٩,٥ كغ للجريب من القمح مقابل ١٦,٢ من الشعير - فيبدو من ذلك أن الشعير هو السائد ، ولكن المعلومات التي يقدمها المؤلفون العرب ترينا أن الشعير زرع بشكل رئيسي في بعض المناطق التي تبدو تربتها أقل مناسبة لزراعة القمح مثل مناطق الزاب وبابل والفالوجة السفلىٰ والجبة البداة والصيباني والسيلحاني على الفرات وبراز روز والنهر وان العليا والنهر وان السفلىٰ والبدارية الباخوسية على دجلة . وربما أنتجت منطقة كسكر وحدها ٢٠٠٠٠ - ٣٠٠٠٠ اردب من الشعير والرز . وبالاضافة إلى ذلك يجب أن نأخذ بالاعتبار أن الشعير استخدم علفاً للحيوانات ، ومن المهم في هذا المجال أن التوازن بين القمح والشعير في زراعة العراق يمكن تقصيه من عهد السومريين إلى العصر الحاضر حيث تبلغ نسبة القمح إلى الشعير ٤١٪ إلى ٤٧٪ .

وكان العراق الأعلى في عهد الخلفاء أهراء للبلدان المجاورة ، إنها المنطقة التي زودت العراق الجنوبي بكميات كبيرة من القمح ربما شحنت عن طريق دجلة والفرات . فهي بلاد زراعة القمح منذ أقدم العصور وبقيت كذلك حتى النصف الأول من القرن العاشر ، وفي سورية أيضاً زرع القمح في كل مكان تقريباً وكانت هناك بعض المناطق التي صدرت كميات كبيرة منه ، ومناطق زراعة القمح هي حماة وحمص وساحل البحر المتوسط في شمال سورية وبعلبك في الوسط وحوران والجولان وشرقي الأردن في الجنوب، وحتى النقب إلى عقبه ايلات لم يكن في تلك الأيام منطقة قاحلة كما أصبح فيما بعد ، بل كان يصدر القمح إلى المناطق الأخرىٰ .

وأنتجت مصر التي كانت اهراء روما وبيزنطة في الأيام الماضية من الحاصلات الزراعية ما فاق حاجاتها بكثير ، وبذلك أمكن تصدير كميات كبيرة إلى الحجاز والأقطار الأخرىٰ ، وامتاز القمح المصري أيضاً من حيث النوعية . ويذكر مؤرخو عصر الخلافة أن بعض أنواع القمح المصري (مثل النوع المسمى اليوسفي) كانت لا تضاهى ، وكان الصعيد - مناطق مصر الجنوبية - منطقة زراعة القمح ولكن

الفيوم وبعض مناطق الدلتا أيضاً صدّرت كميات كبيرة منه ، وبدأ تدهور زراعة الشعير قبل الفتح الاسلامي بوقت طويل ، ومن المرجح ان كمياته تناقصت باستمرار في عصر الخلافة[٥] .

ومن جهة أخرى فإن ازدياد مزارع الرز أصبح ظاهرة جديدة غيّرت مع مرور الزمن بنية الزراعة في بعض المناطق من الشرق الأوسط ، حقاً لقد زرع الرز في العراق منذ الأزمنة القديمة ، ولكن زراعته ازدادت بعد الفتح الاسلامي وتلك بلا شك نتيجة لهجرة الفرس إلى العراق ، فالموالي من خوزستان ومناطق بحر قزوين اعتادوا على الرز ، ولذلك تزايد الطلب عليه في مدن العراق الكبرىٰ ولكن يبدو أن الرز لم يصبح المحصول الذي تستهلكه الجماهير حتى النصف الثاني من القرن التاسع ، ولمدة طويلة بقي الرز غذاء للفقراء ، ويبدو أن كميات كبيرة منه استوردت إلى العراق من المناطق المجاورة في إيران ، بدأت فيما بعد الطبقات الأخرى بأكل الرز وخبزه عندما أصبح خبز القمح مرتفع السعر بالنسبة لهم ، ومهما كان الأمر فقد وجدت مزارع رز كبيرة في النصف الثاني من القرن التاسع في مناطق نهر الفرات مثل قوصين والسورة وسيب الأسفل وبار بسطرمة وفرات بادقلي وفي منطقة نسطار قرب بغداد وفي مناطق كسكر والجبول على نهر دجلة ، وفي المراجع التي تشير إلى النصف الثاني من القرن التاسع تظهر أسماء علماء يدعون الرزاز أي تجار الرز ، وبطء تقدم الرز تشير إليه الحقيقة القائلة بأن مزارع الرز غير مذكورة في تاريخ العراق الأعلى الذي كتبه ديونيسيوس التلمحري في بداية القرن التاسع ، وحتى في المصادر المصرية في الفترة الاسلامية الأولىٰ يذكر الرز ، رغم أنه معروف قبل الفتوحات الاسلامية[٦] .

ودراسة المعلومات الوفيرة في كتابات المؤلفين العرب ، الذين يعالجون الفروع المختلفة للبستنة وزراعة الأشجار المثمرة تجبر المرء على الوصول إلى نفس النتيجة : بعد الفتوحات الاسلامية لم تطرأ تغييرات كثيرة والتغييرات التي تمت إنما تمت ببطء[٧] .

كان النخيل شجرة الفاكهة الرئيسية لأراضي الهلال الخصيب ، فقد زرع في كل مناطق العراق الأدنى تقريباً وبالتحديد في البصرة وواسط والثرثار ، كما وجدت

بساتين نخيل كبيرة أيضاً في المناطق الواقعة شمالي بغداد ، وفي منطقة دسكرة في شمالها الشرقي، وفي مناطق الأنبار وعانة على الفرات، وإلى الشمال منه وزراعته النخيل جزء هام من الزراعة العراقية ، وحجم تجارة التمور الكبير في كثير من مدن العراق يستدل عليه من ذكر علماء الدين في الكوفة وواسط الذين يكنّون بالتّار (تاجر التمور) وعلى ما يبدو فإن واسط والبصرة هما مركزان هامان لهذه التجارة الحيوية . وازدهرت البستنة في العراق الأعلى وفي سورية اللذين صدّرا الفواكه المختلفة للمناطق المجاورة من امبراطورية الخلافة ، وأنتجت المناطق المتعددة من سورية ولبنان وفلسطين كميات كبيرة من التفاح ، وفي كل من شرق الأردن وغربه زرعت أشجار التين والعنب والبرقوق من مختلف الأنواع .

ووجدت كل هذه الأنواع من زراعة الأشجار المثمرة في الشرق الأوسط منذ عدة قرون وبعد الفتوحات الاسلامية (ولكن ليس مباشرة) زرعت أنواع أخرى ، واستقدمت فواكه لم تعرف من قبل ، ومن المرجح حدوث ذلك بالاستنتاج ، كما أن هناك شواهد على هذه الظاهرة في المصادر العربية القديمة .

ويذكر أحد مؤلفي القرن العاشر أن العنب المسمى بالرازمي منتشر في العراق ، وهو النوع المعروف في الطائف والحجاز ، والأهم من ذلك انتشار زراعة بعض فواكه الحمضيات ، فحسب رواية المسعودي استقدم البرتقال والليمون بعد عام ٩١٢ إلى عُمان ، ومنها انتشر إلى العراق وسورية ومصر ، ولما كانت هذه الفواكه موجودة في أراضي الهلال الخصيب ومصر في القرن التاسع ، فيبدو أن الكاتب العربي يعني بعض الأنواع الأخرى من الحمضيات مثل الكبّاد .

ومن جهة أخرى حدث هناك تراجع في زراعة الزيتون ، على الأقل في بعض مناطق الشرق الأوسط صحيح أن فلسطين استمرت في إنتاج كميات كبيرة من الزيتون وزيت الزيتون ، وإذا استطعنا تصديق أحد . الجغرافيين العرب من القرن العاشر فإن كل الجبال ومناطق التلال والجليل وأواسط فلسطين غطيت بأشجار الزيتون . وحتى بعض مناطق العراق - مثل الكوفة - نمت فيها بساتين الزيتون الكثيرة وأصبح بامكانها تصدير منتجاتها إلى البلدان الأخرى . ولكن في بعض مناطق سورية تراجعت بعض القرى ذات المحصول الواحد من الزيتون ، حدث

ذلك في مرتفعات جبل السماق وهي منطقة واقعة بين حلب وانطاكية من جهة واعزاز وآفاميا من جهة أخرى . وتراجع مزارع الزيتون في هذا الجزء من سورية ناتج عن ضياع الأسواق لأن سورية صدرت زيت الزيتون لقرون عديدة إلى أنوب أوروبا .

ونمو المزروعات الصناعية في هذه الفترة أصبح يشكل بالتأكيد قطاعاً هاماً من زراعة الشرق الأوسط[٨] ففي مصر وخصوصاً في الفيوم والدلتا أنتج الكثير من الكتان ، وأنتجت سورية وفلسطين كميات كبيرة من القطن . ويبدو أن منطقة حلب ومناطق الحولة وبانياس في تلك الفترة هي المراكز الرئيسية لهذه الزراعات[٩] . كما أن ازدياد حجم الصناعة كان حافزاً قوياً للتوسع في الزراعات الصناعية . ويذكر أحد المؤرخين القدماء أن أحد أقرباء الخليفة العباسي الاول أوجد في شرق سورية مدينة السلمية ، وحفر هناك قناة للري وزرع الزعفران ، ولكن ليس هناك أي دليل على الازدياد الكبير في هذه الزراعات في الفترة الاسلامية الأولى ، وطالما لم يغير ظهور الدساكر الكبيرة من بنية الزراعة في الشرق الأوسط فان زراعة الحاصلات الصناعية لم تتوسع على حساب زراعة الحبوب .

وهكذا يستنتج المرء أنه لم تطرأ تغيرات كبيرة في هذه الفترة في زراعة الشرق الأدنى بالنسبة للمحاصيل المختلفة والمساحات النسبية للفروع المختلفة .

جـ الاساليب الزراعية وطرق العمل :

اعتمدت محصولات الحبوب في كثير من بلدان الشرق الأدنى على طاقة الري الاصطناعي ، فازدادت المحاصيل خلال مراحل الاهتمام بمراحل نظام الرى وبصيانته وبطرق تحسينه وقلت عندما تعطلت الالات . وفي حين زرعت معظم الأراضي في العراق الأعلى وسورية وفلسطين دون الاعتماد على الري بالوسائل الميكانيكية فإن الزراعة في العراق الأدنى ومصر اعتمدت على نظام معقد للري . فلقد وجدت في هذه المناطق مجموعات من الاقنية والحواجز والسدود التخزينية كلف بناؤها غالياً[١٠] إضافة إلى أن نفقات شبكات التصريف في الأراضي المستنقعية

وتشغيل الالات الهيدروليكية باهظة مما جعل القليل فقط من الملاكين قادرين على تنفيذ مثل هذه المشاريع .

وهكذا اعتمد الكثير بشكل واسع في تنفيذها على عاتق الحكومة ، حيث كلف الخلفاء معتمدين من قبلهم مسؤولين عن نظام الري وأبدى هؤلاء بدورهم اهتماماً فعالاً ، في أعمال الصيانة والتحسين .

ارتأى رجال الفقه المسلمون الذين خلفوا لنا الكتب عن دولة الخلفاء وادارتها ان حفر الاقنية الكبيرة يجب أن تنفق عليه الحكومة وكذلك إقامة السدود التخزينية والمصارف والأعمال المائية الأخرى أيضاً ، إلا أنها شكلت عبئاً على السلطات ، ومن جهة اخرى فان المؤرخين العرب يذكرون ان الحكام الذين عينهم الخلفاء الأوائل التفتوا مباشرة لهذه الأعمال ، ففي أيام عمر حفروا القناة التي زودت البصرة وما يجاورها بالماء ، وأعيد حفرها ثانية في عهد الخليفة عثمان بعد أن طمرت ، وقد حفر زياد حاكم العراق في عهد معاوية نهر معقل قرب البصرة . واهتم يزيد الأول ابن معاوية وخليفته (٦٨٠ ـ ٦٨٣) كثيراً بالري ولذلك لقب «المهندس» كما أنه أصلح نظام الري في الغوطة المحيطة بدمشق ، وقام ولاة العراق في عهد الخلفاء الأمويين اللاحقين بنشاطات مماثلة . وحفر سلم بن زياد قرب البصرة قناة سماها حرب، كما حفر الحجاج أقنيةفي منطقةالأنبار على الفرات وفي منطقةكسكر على الدجلة وحفر خالد القسري قناتي البجاوة والبرمانة وحفر المبارك قناة الجامع وغيرهم . واهتم الأمير الأموي مسلمة بن عبد الملك جداً بالمشاريع الزراعية فحفر قناة من الفرات في شمال سورية قرب مدينة بالس . حفر الخليفة هشام (٧٢٤ ـ ٧٤٣) قناتي الهاني والمدي في منطقة الرقة . ولم تتوقف مثل هذه المشاريع حتى نهاية العهد الأموي كما حفر العباسيون أقنية الري وأعادوا حفرها . ففي بداية عهدهم كانت الانشاءات الضخمة لا تزال في دور التشييد في منطقة ديالى . ولقد جعل بناء بغداد بمفرده من ذلك أمراً ضرورياً وأقيم في عهدهم نظام معقد للري لجر مياه الري من الأقنية الفرعية الى الحقول البعيدة عن الاقنية الرئيسية . ولا شك انه مشروع جبار نحكم عليه من آلاف بوابات سدود التحكم الآجرية التي وجدت على طول الاقنية الفرعية . وحفر هارون الرشيد قناة القاطول قرب بغداد الى الشرق من

الدجلة . كانت هذه الاراضي التي أمكن زرعها عن طريق الري بالماء الذي تجلبه هذه الاقنية في معظمها قطائع منحت للأغنياء الذين تعهدوا بالحفر . ويقرأ المرء في احدى المصادر العربية أن خالد القسري تلقى من القرى الممتدة بجانب الأقنية التي حفرها دخلاً سنوياً بلغ ٥ ملايين درهم . وهكذا نجد أن الأغنياء كانوا سباقين في هذا المجال حيث استعملوا كل الوسائل الممكنة لاستصلاح الاراضي البور بينما نظر الفلاحون شذراً الى حفر الأقنية التي حسنت القرى الكبيرة[١١] .

والأوصاف العديدة لهذه النشاطات لا تشير الى الابداعات التكنولوجية ضمن نظام الري الذي ورثه الحكام المسلمون ببساطة عن سابقيهم . والسجلات في كتابات المؤرخين العرب ترينا أن الذين قاموا بتجفيف المستنقعات وحفروا الأقنية هم «النبط» سكان العراق الأصليون من غير العرب . وأحد المهندسين المحليين المشهورين هو حسان النبطي الذي جفف المستنقعات للحجاج في جنوب العراق وفيما بعد لهشام . وأسماء الالات الهيدروليكية التي استعملها العرب خير شاهد على هذه الحقيقة : معظمها آرامي أو فارسي . على أية حال ان المصادر القديمة تناقض افتراضات بعض العلماء المعاصرين الذين يقولون أن العرب نقلوا الالات المستعملة في آسيا الوسطى الى الشرق الأدنى .

استعمل المسلمون دواليب الماء (النواعير) والآلات المشابهة في كل مكان لرفع الماء من الأنهار والأقنية . وهناك نوعان رئيسيان من دواليب الماء : النوع المسمى الساقية وهو دولاب يديره نوع من الحيوانات والنوع المسمى (الناعورة) وهو دولاب ماء كبير عليه سلسلة من الأواني يديره الماء الجاري وهذه النواعير غالباً ما تكون على ضفاف الأنهار وهي موجودة أيضاً في المستنقعات الكبرى في جنوب العراق على نهر دجلة وفي شمال سورية سميت بعض القرى باسمها (الناعورة أو النواعير) ولقد استعملت هذه الالات منذ أقدم الأزمنة كما يقول فتروينوس ، واشتهرت على نهر العاصي منذ القرن التاسع . ووصفها مذكور في تقرير كتبه شخص يسمى أحمد ابن الطيب الذي تجول في شمال سورية عام ٨٨٤ . أما النوع الثاني المسمى (الساقية) فقد وجد في المناطق الريفية المحيطة بمدينة بلبيس ودمياط على النيل وفي أمكنة أخرى من مصر ، وكانت أواني هذه السواقي مصنوعة من الخشب أو الفخار وتقذف الماء

بواسطة دولاب أفقي تديره الجمال أو بعض الحيوانات الأخرى . ولا حاجة للقول بأن الفلاحين استعملوا آلات بدائية في بعض المناطق مثل الدالية كانت تتألف من عمود خشبي له إناء على طرفه لجر الماء . وقد سميت قرية في العراق الاعلى قرب قرقيسيا (البصيرة حالياً في سورية) باسم هذه الالة (الدالية) ومن جهة أخرى فإن بعض المناطق امتلكت أنظمة ري متقدمة . ففي مناطق من شرق العراق جر الماء لري الحقول من الأقنية والأنهار بواسطة أنابيب الملاط والأحواض المرصوفة بعضها فوق بعض[١٢] .

كانت دواليب الماء الكبيرة آلات غالية الثمن سريعة العطب لأنها مصنوعة من الخشب الذي يتعفن مع مرور الزمن ، وعندما تتجمد الانهار في الشتاء فإنها لا تعمل اطلاقاً وليست هناك أية أدلة على التحسينات التي قام بها العرب كما وأن تقنية العمل الزراعي في الفترة الاسلامية الأولى كانت متوقفة ويشهد بذلك وصف طواحين الماء في الأردن الذي نجده في مؤلفات جغرافي القرن العاشر المقدسي ، الذي يرينا أن مثل هذه الطواحين كانت نادرة في الشرق الأدنى ، كما تحتوي مؤلفات الكتاب العرب في فترة الخلافة أيضاً بعض الروايات عن الاخفاقات والمصاعب التي واجهها الحكام المسلمون عندما حاولوا تشجيع الزراعة بواسطة تحسين الري ، كما تهدمت في العهد العباسي الأول كثير من السدود على نهري دجلة والفرات ولم تلاق جهود الخلفاء لاصلاحها نجاحاً كبيراً ويقول المؤلفون العرب أن نتيجة هذا الأخفاق ، هي أن منطقة جنوب العراق المغطاة بالمستنقعات بدأت بالاتساع منذ نهاية العصر الساساني[١٣]

وبالقراءة المتأنية لروايات المؤلفين العرب يدرك المرء أن نشاطات الخلفاء الاوائل وحكامهم في حقل الزراعة في الشرق الادنى أكثر من نشاطات العباسيين ، ويبدو ان الاساليب القديمة في الزراعة والري والمحافظة على التربة كانت لا تزال حية في بداية الحكم الاسلامي ، ولكنها اختفت أيام العباسيين ، والملاحظة الثانية التي يجب ابداؤها قبل تقويم موقف حكومة الخلافة من الزراعة هي التالية ، يسرد المؤلفون العرب النشاطات الواضحة مثل حفر الاقنية الكبيرة الا انهم لا يقدمون اي معلومات تتعلق بالواجبات الاخرى المترتبة على الحكومة الرشيدة والبعيدة النظر التي

تبدي اهتماماً كبيراً بالزراعة ومن هذه الواجبات في الشرق الادنى المحافظة على المصاطب التي تحفظ التربة الخصبة ، وقد اثبتت الابحاث الاثرية بصورة مقنعة على الاقل في العصور المتأخرة من الحكم الاسلامي أن هذه المهمة قد اهملت .

وقد ظهر ببطء وبالتدريج موقف آخر تجاه مشاكل الزراعة . ومن المؤكد ان العبء الضريبي المتزايد باستمرار ثبط همم الفلاحين الميسورين ، وصرفهم عن المشاريع الهادفة الى تحسين التربة طالما لم تكن ضرورية جداً ، ولكن الاهم من ذلك هو التغير في موقف الحكومة ، فبدلاً من عناية البيزنطيين العظيمة والحكومات السابقة الاخرى ، كان لدى العرب موقف آخر من الحياة الزراعية ، فالري الاصطناعي كما مارسه العرب برهن على انه عائق ، وبسبب الري الدائم وعمليات الصرف التي اخفقت ساءت التربة واصبحت قلوية ، وتجمع الملح في الطبقات العليا مشكلاً بذلك قشرة بيضاء ، ومن جهة اخرى فكثيراً ما اهملت الاقنية بسبب خصائص القانون الاسلامي ، فبناء على مبادىء القانونيين المسلمين فان الملاك الذي لا تكون قريته مهددة بصورة مباشرة غير ملزم بالمساهمة في اصلاح السدود او الاقنية . وبالاضافة إلى ذلك إذا هدم أو تصدع أو تسرب الماء من قناة خاصة إلى حقول الجيران فمالك القرية غير ملزم بالاصلاح[١٤] .

والمعلومات التي يقدمها لنا المؤلفون العرب حول طرق العمل الزراعي بالاضافة الى اقنية وآلات الري قليلة جدا ، وبجمع هذه السجلات من المصادر المختلفة يميل المرء للاستنتاج ان العرب لم يحسنوا طرق العمل الزراعي ، وهناك ادلة قليلة على الابداع التقني في زراعة الشرق الادنى في العصور الوسطى بينما نرى في تاريخ الزراعة الاوروبية مدى التغيرات العظيمة والانجازات التقنية فإدخال محراث الدواليب ادى الى تقدم كبير في الزراعة الاوروبية ، كما ان استعمال محراث الجر يعتبر اختراعا آخر ، اما في الشرق الادنى فلقد استعمل الفلاحون محراث حوض البحر المتوسط الخشبي وهي حقيقة ادهشت النبيل الفرنسي جين دي جوانفيل الذي رافق القديس لويس في حملته الصليبية على مصر . ومن الجدير ان نستشهد في هذا المجال برأي علماء الاثار الذين يعللون ازدهار الزراعة البيزنطية في مناطق الشرق الادنى الجافة باستعمال سكة المحراث الحديدية وبالتالي تكون حراثة

نوفقا للمصادر العربية في العصور الوسطى التي من المؤكد انها تنقل عن مصادر اقدم منها تقول ان المصريين بذروا ٢/٣ ـ ١ اردب من القمح في الفدان وحصلوا على ٢٠ ـ ٢٠ اردبا ، وفي بعض المناطق في مصر العليا كانت كمية القمح المبذورة اقل من ذلك*، وللحصول على تقويم مناسب لهذه المؤشرات على المرء ان يقارنها بنسب المحاصيل في اوروبا في العصور الوسطى ، ويبدو ان نسبة غلة الحبوب في اوروبا الغربية في العهد الكارولنجي ١ : ٢ ـ ٢ : ٥ ، وفي القرن الثالث عشر اعتبر الزراعيون الانجليز بنسبة غلة القمح البالغة ١ : ٥ للقمح و١ : ٨ للشعير و١ : ٧ للجودار و ١ : ٤ للشوفان نسباً معقولة ، وفي الحقيقة كانت النسب اقل من ذلك اذ ربما بلغت في انكلترا في تلك الفترة ١ : ٤ للقمح و ١ : ٣,٥ للشعير و ١ : ٥,٥ للجودار و ١ : ٣ للشوفان ولكن نسب الغلة في اوروبا الغربية ـ كما هو متوقع ـ اتجهت نحو الارتفاع بينما اتجهت نحو الانخفاض في الشرق الادنى . ففي بعض القرى في آرتوا (في شمال فرنسا) بلغت غلة القمح في بداية القرن الرابع عشر٩ ـ ١٣ ضعفاً من كمية البذار ، ومن جهة اخرى يقول المؤرخ المصري المقريزي ان الغلال تناقصت في ظل الحكم الاسلامي مما جعل من الضروري اقتطاع ١/٤ ـ ١/٣ المحصول لتصبح الزراعة مربحة ، (١٦) ومن المؤكد ان المؤرخ العربي كتب هذا في الفترة الاخيرة من العصور الوسطى ، ولكن تناقص الغلال على الارجح بدأ قبل ان يكتب المقريزي بوقت طويل . انها نتيجة الاهمال وطرق الزراعة القديمة المستنفذة ، والضرائب الفادحة وموقف الحكومة القصير النظر .

د ـ تعرية التربة وزراعة الشرق الاوسط : علل بعض العلماء المعاصرين التناقض بين ازدهار زراعة الشرق الاوسط في العصور القديمة والخراب في العصور اللاحقة بافتراض الجفاف المتزايد ، ويقترحون ان كمية الامطار قديماً كانت اكثر من العصور الوسطى والعصر الحاضر مما حول الارض الخصبة الى قاحلة ولكن معظم الزراعيين رفضوا هذه النظرية ، فالجيولوجي فيتا ـ فنزي يفترض انه في الوقت الذي فتح فيه العرب بلاد الهلال الخصيب بدأت فترة من التناسق على سطح الارض ، وحصل بعض التغيير في نشاط الانهار الجيولوجي والتعرية المتزايدةفي اعالي الانهار ادى الى

---

*هذه الارقام تشير الى ان وسطي نسبة المحصول هو ١ : ١٠

المسلمين اقل فعالية من حراثة سابقيهم ، واستعمال محراث الدواليب في اوربا الغربية في القرن العاشر . وقد اصبح هذا التغيير ممكنا بسبب التحسينات الكبيرة في عدّة الخيول أي استعمال الطوق الصلب الجديد الذي يستند الى كتفي الحصان ، حيث استعمل الفلاحون الطوق الجلدي المستند الى رقبة الحصان والذي يعيق تنفسه فيجعله صعبا مما يعيق اداءه الكامل ، ولكن الاقطار الاسلامية في الشرق الادنى استمرت في استعمال الثيران او الجواميس للحراثة كالسابق .

وهناك اختراعات اخرى في الزراعة الاوربية بقيت مجهولة او انها لم تستعمل في الشرق الادنى مثل استعمال الرفش ذي الشعب الحديدية ، والمنجل ومدقات الدراس . اما المسلفة الحديثة التي تجرها الخيول لم تعرف في اسبانيا الاسلامية لان العالم الزراعي الاندلسي المسلم ابن عوّام الذي كتب في القرن الثاني عشر يعطينا وصفا شاملا لها ، كان يفترض ان قراء كتابه لا يعرفونها فالمسلفة الاسلامية تجرها الثيران .(١٥)

وللتعويض عن مثالب الزراعة الشرقية فان العوامل الطبيعية كانت الى جانب الفلاح المسلم ، فخصب التربة في كثير من مناطق الشرق الاوسط عظيمة جدا لدرجة جعلت المحاصيل غنية ، حتى بدون التحسينات في الطرق الزراعية ، وازدادت غلة الزراعة الغربية كثيرا عندما تبدلت الدورة الزراعية من ثنائية الى ثلاثية ، بينما لم يغير الفلاحون المسلمون طرق البوار . ففي العراق ساد النظام التقليدي لزراعة القمح او الشعير الشتوية بالتناوب مع فصل البوار ، بينما لم يكن البوار ضرورياً في مصر حيث تمت زراعة القمح بعد البرسيم او الفول او الخيار او البوار ، والخصوبة الطبيعية للتربة في بعض المناطق وخصوصاً في مصر العليا جعلت من الممكن زراعة القمح في الحقول في سنوات متتالية ، وتناوب الشعير مع القمح او المحصولات الاخرى كما تناوب الفول مع الشعير . كما لم يتمكن الفلاحون من زراعة حقولهم مرات مساوية للاوروبيين ، أو أنهم قاموا بعزق أقل كما لم تكن هناك اية ضرورة لتسميد الارض رغم ان هناك دلائل على استعمال التربة المالحة كسماد وهو اكتشاف مصري في تلك الفترة .

لا بد ان نسبة الغلة كانت مرتفعة جدا في فترة الحكم الاسلامي الاولى ،

السحر اصابها فوق تلال صخرية جرداء ، تبلغ مساحتها ٤٦٠٠ كم٢ ، وكانت الزراعة فيها الدعامة الرئيسية لمئات المستوطنات المتطورة قبل الفتح الاسلامي - امتلكت (اقتصاداً مزدهراً) ووجود هذه المستوطنات بجانب بعضها البعض لا يترك مجالاً للشك في ان الزراعة كانت مكثفة ، وان موارد المياه كافية كما ان مباني الينابيع القائمة اليوم حيث لا توجد ينابيع تشهد على ذلك ايضا ، ان استنزاف التربة وتدهور الزراعة هما نتيجة للتغيرات السياسية والاقتصادية بعد الفتح الاسلامي ، وعندما تم التخلي عن زراعة الزيتون الوحيدة اضطر السكان السابقون على ما يبدو لمغادرة قراهم وبدأ العرب نصف الرحل في زراعة الحبوب ، ولكنهم - كعادة البدو - زرعوا بقاعاً من الارض بطريقة متناثرة مما ادى الى انجراف التربة وبقاء الهضاب الجرداء ، واستنتج عالم صيانة التربة الامريكي و . ك . لودر ملك ان ٣ - ٦ اقدام من التربة الحمراء الخصبة قد انجرفت ، والدليل الواضح على ذلك هو ان ادنى درجات مداخل الكنائس ترتفع ٢/١ ٤ قدماً عن مستوى الارض الحالي، والدليل الآخر على ذلك هو الطرق الرومانية ترتفع عما يحيطها من المناطق وآثار الزراعة القديمة التي وجدت في شرق وغرب حمص تدل على نفس الظاهرة ، فعلى سهل قلعة الحصن بين حمص وساحل البحر المتوسط ، وعلى الطريق الصحراوي بين حمص وتدمر نرى آثار معاصر الزيتون والمدرجات فيما هو الان بمثابة ارض جرداء قاحلة كان في القديم تربة خصبة ، ولقد ادى التخلي عن طريقة الزراعة على المدرجات ادى الى تدهور الزراعة نفسها والى تدهور القطاعات الاقتصادية الاخرى ايضا . وحتى في حوران التي بقيت حتى نهاية العصور الوسطى اهراء سورية لا بد من وجود الكثير من التعرية وضياع التربة الجيدة ، ونتيجة للرعي الكثير اصبحت التربة الغنية اكثر عرضة لقوى التعرية من مياه ورياح .

والدمار الذي جلبته التعرية في فلسطين والاردن واضح للعيان ، ولكن علماء صيانة التربة وعلماء الآثار جمعوا معلومات قيمة عن هذه الظاهرة ، ففي الجليل انجرفت بقاع كثيرة من التربة الجيدة . ففي صفورية على سبيل المثال انجرف تقريباً ٢٠ قدماً من التربة من الهضاب الى المسرح الروماني ، والمسرح الروماني في بيسان مغطى الآن بالطمي حتى المقاعد العليا منه ، وهجرة القرى الجبلية هنا هو نتيجة انجراف التربة ، كما حصل في كل الاماكن الاخرى ، عندماانجرفت التربة الجيدة

عن التلال لم يعد بامكان الفلاحين كسب عيشهم من الزراعة فهجروا القرى ، لقد وجد في الجليل في منطقة مساحتها ٤٠٠٠ كم٢ ، ٤٦٠ مستوطنة مهجورة بنسبة ١,٤ مستوطنة مهجورة في كل ١٢ كم٢ ، والعلاقة بين هجر الزراعة المصطبية ، وتدهور الزراعة واضحة خصوصاً في وسط فلسطين - في منطقة هضاب نابلس وطول كرم - حيث السفوح منحدرة ، وبعضها شديد الانحدار . ووجد علماء صيانة التربة لحكومة الانتداب البريطانية في فلسطين ان ٨٪ فقط من السفوح الشديدة الانحدار و ١٤٪ من السفوح المنحدرة ، ووجدت فيها بعض مصاطب ذات فعالية في منع انجراف التربة ، وهناك آثار مصاطب قديمة بحدود نصف السفوح ، وعلى اية حال في الوقت الذي قام فيه علماء صيانة التربة البريطانيون ، وجدت ٧٦٪ من السفوح المنحدرة و ٤٤٪ من السفوح الشديدة الانحدار مزروعة بكثافة ، ولا حاجة للقول بان ذلك يعني التعرية الطبيعية المتزايدة باستمرار .

وقضية الجسر قرب اللد مفيدة جداً ، لقد ثبت وجود جسر روماني تحت الجسر المبني عام ١٢٧٢ ، وحجر عقد الجسر القديم ينخفض اكثر من ١٣ قدماً تحت الانحناء الداخلي لقوس جسر القرن الثالث عشر ، والواضح ان الفرق الكبير في المستوى هو نتيجة لامتلاء حوض النهر برواسب الطمي ، وهذا ظاهر ايضا في تحريات ضابط آخر في حكومة الانتداب البريطاني في عام ١٩٣٨ وهو العقيد ب . ل . و . غاي عن القرى المهجورة في منطقة حوض وادي مصرارا الذي بني فوقه الجسر ، فهذه المنطقة تضم منطقة الهضاب بين اللد - الرملة وجبال الخليل ورام الله في الشرق ، والجدول التالي[1] يلخص نتائج تحريات غاي في منطقة مساحتها ٨٠٥,٧ كم٢ منها ٤٢٠ كم٢ في السهل (حتى ارتفاع ١٠٠ م فوق سطح البحر) ، و ٢٦٠ كم٢ في سفوح الهضاب (١٠٠ - ٣٠٠ م فوق سطح البحر) و ٣٠٠ كم٢ في الجبال ، ترينا هذه التحريات ان هجر الزراعة وتدهورها ظاهرة خطيرة في المناطق الجبلية . انها نتيجة تعرية التربة التي عرت الهضاب بجرف التربة الخصبة ، وهذا ظاهر من خارطة القرى المهجورة في منطقة مصرارا . (ص ٥٤) .

وناحية اخرى من نفس الظاهرة عالجها ي . كرمون الجغرافي الذي اظهر ان تدهور الزراعة وهجر القرى في السهل الساحلي من فلسطين ، كان واسع الانتشار على ساحل البحر المتوسط حيث ادى امتلاء الجداول بالطمي وتعرية الرياح الى زيادة

المستنقعات وانتشار الكثبان ، بينما - من جهة اخرى - منذ الفتح العربي وحتى فترة الحروب الصليبية نجد ان عدداً من المستوطنات لم يتدهور في الحزام الشرقي في المنطقة حيث امكن بواسطة السفوح المصطبية والطمي الخصب ، وكميات المياه المناسبة من استثمارها لمحصولين في العام الواحد ، والنتائج التي توصل اليها كرمون ملخصة في الجدول الثاني [٢] .

(١) القرى المهجورة في حوض مصرارا

الارتفاع	فوق مستوى البحر	المشغولة	المهجورة	نسبة الهجر
السهل	أقل من ١٠٠ م	٣٢	٤	٪١١
سفوح الهضاب	١٠٠-٣٠٠ م	٣١	٦٥	٪٦٧
الجبال	أكثر من ٣٠٠ م	٣٧	١٢٤	٪٧٧

(٢) القرى المهجورة في سهل سارونة

	النطاق الغربي رملية	النطاق الأوسط هضاب/ مستنقعات		النطاق الشرقي	المجموع
الفترة الرومانية البيزنطية	٢٨+ مدينتي مرفأ	٧	٢١	٣٣	٩١
فترة الحملات الصليبية	٨	٥	٤	٣٥	٥٢
عام ١٨٠٠ م	٤ .	٤	-	١٧	٢٥

وهكذا فإن ٤٢,٨٪ من المستوطنات في هذه المنطقة هجرت منذ الفتح العربي وحتى فترة الحروب الصليبية . والفرق بين نسبة الهجرة من الساحل والنطاق الشرقي واضح .

وتوصل عالم صيانة التربة البريطاني ف. هـ. تيلر إلى الاستنتاج أن ٢٠٠٠ ـ ٤٠٠٠ مليون م٣ من التربة انجرف من الجانب الغربي من هضاب الخليل منذ أيام الرومان ، وهذه الكمية كافية لتشكيل ٤٠٠٠ ـ ٨٠٠٠ كم٢ من الأراضي

الزراعية الجيدة ، كما استنتج أ. رايفنبرغ أن كمية الطمي التي حملتها سيول الوديان في فلسطين شمال خط يمتد من أريحا إلى غمرة تبلغ ٧ ـ ٩ ملايين م^{٣} في السنة ، وهذا يعني أن حوالي ٢ مليون م^{٣} من التربة الجيدة انجرفت من هذه المنطقة التي تبلغ مساحتها حوالي ٨٠٠٠ كم^{٢} منذ عهد الرومان .

وأدرك علماء الآثار الباحثون في صحراء النقب في جنوب فلسطين الانجازات المذهلة للزراعيين القدماء في هذه المنطقة ، وتدعم نتائج أبحاثهم افتراضات علماء صيانة التربة ، الذين يقولون إن طرق الزراعة الاعتباطية أدت إلى التدهور الكبير في الزراعة خلال القرون الثلاثة عشرة الماضية .

ونرى في المرحلة الحاضرة من الأبحاث حيث لا يبقى أي شك أن هذه المنطقة التي تعتبر قاحلة وغير صالحة للزراعة كانت تزرع حتى الفتح العربي وما بعده ، ويستنتج علماء الآثار أن صحراء النقب وصلت قمة تطورها في العصر البيزنطي حيث تم تطوير مناطق لم تزرع من قبل ، والطرق التي نجح بواسطتها الزراعيون في جعل هذه المنطقة خصبة هي بناء المصاطب والمهارة في استعمال الموارد المائية ، ومدى تعرية التربة وتمركز الطمي في هذه المنطقة يظهر بوضوح من كمية التربة الكبيرة الموجودة في مناطق الآثار ، ففي تل دوير (وهي لكش القديمة) توضعت ٥ أقدام من التربة فوق الطريق الروماني منذ القرن الثالث ، ولكن من الخطأ الاعتقاد أنه بعد الفتح الاسلامي حدث تغير كبير في التاريخ الزراعي للمنطقة ، في الحقيقة حدث تدهور مستمر ، فزراعة الحبوب والفروع الأخرى من الزراعة استمرت كما استمر بناء المستوطنات ، كما تدل على ذلك الشواهد الأثرية .

واستنتج عالم الآثار الأمريكي نلسون غلوك الذي درس بقايا الزراعة النبطية في الأردن أيضاً أن المصاطب على التلال أهملت منذ نهاية العصر البيزنطي ، ولكن حتى هذا العالم ركز على أن الحياة الزراعية لم تختفِ فجأة ، ففي رأيه استمرت الزراعة لمدة حوالي ٥٠٠ سنة ولا بد أن يكون حجم المصاطب في هذه المنطقة كبيراً جداً .

فلقد وجد أن كل سفوح الوديان الكبيرة تقريباً ذات مصاطب ، حتى تلك السفوح التي تبلغ نسبة انحدارها ٨٠٪ وعندما أهملت المصاطب قضت التعرية على

الزراعة التي ازدهرت من قبل ، وجد لودر ملك في المدخل المؤدي إلى موقع البتراء قطعة من قناة مائية مغطاة ببقايا التعرية حتى ارتفاع ثلاثة أقدام ، والقناة نفسها الآن على ارتفاع ٧ أقدام فوق سطح المدخل . وهذا يعني أن ١٠ أقدام من بقايا التعرية متراكمة هناك .

وتلقي أبحاث نلسون غلوك الذي تفحص ٥٠٠ موقع أثري ضوءاً كاشفاً على نشاطات الأنباط الزراعية ، كما أظهرت أن هؤلاء الفلاحين القدماء نجحوا في دفع حدود الزراعة إلى الصحراء أكثر مما فعل أي شعب قبلهم ، ولقد كانوا مهرة في بناء المصاطب وعرفوا كيف يحصنون الأنهار ، ويمنعون إغراق الحقول ، ولقد جرّت الأقنية الاصطناعية المياه من الينابيع إلى الحقول ، كما شيّدت أحواض المياه الكبيرة فوق أعالي الهضاب حتى لا تدوس المواشي المحاصيل وهي في طريقها إلى الينابيع ، وأقيمت بعض المصاطب في بعض الوديان حتى تسيل مياه الفيضانات بهدوء . وبواسطة هذه المصاطب تمت السيطرة الفعالة على التعرية والفيضانات ، ولا يبدو أن أي شعب آخر نجح إلى هذا الحد في تجميع واستعمال ماء المطر .

ويمكن تعيين ازدهار زراعة الأنباط بين ٣٠٠ ق.م و ٢٠٠ ميلادية ، وتلت بذلك فترتي ازدهار في زراعة الشرق الأوسط في هذه المنطقة من القرن الثالث والعشرين إلى القرن العشرين قبل الميلاد ، وهكذا فإن تدهور الزراعة في هذه المنطقة الذي بدأ في القرن الثامن إنما هو في رأي غلوك أحد هذه الدورات(١٨) ، والتاريخ يعيد نفسه .

وقارىء كتاب حول التاريخ الاقتصادي يمكن أن يميل إلى الاعتقاد بأن أهمية انجراف التربة كظاهرة مادية ربما بولغ فيها لدى معالجة نتائجها على زراعة الشرق الأوسط ، ولكن الأبحاث الجيولوجية تقدم باستمرار أدلة جديدة على أن هذه الفرضية يمكن أن تكون خاطئة ، ففي أطروحة نشرت مؤخراً أظهر د. نيف و ك. ف ايمري أن إهمال المصاطب وزيادة الرعي في حوض الأردن زادت سرعة التعرية لدرجة أن مستوى البحر الميت بدأ بالارتفاع قبل حوالي ١٥٠٠ سنة ، مما جعله يسيل

* ومن القرن الثالث عشر إلى القرن السادس .

تناسق اكبر في اقسامها السفلى ، ففي الاجزاء العليا من احواض الانهار انجرفت التربة واضطر اهالي القرى الجبلية الى هجرها ، وتصدعت القمم التي بنيت عليها السدود وارتفعت احواض الاودية في الاجزاء السفلى من الانهار بالسيول المثقلة بالطمي . [١٧] ويعتقد هذا الجيولوجي ان التعرية المتزايدة والتراكم المتزايد هما نتيجة الرطوبة المتعاظمة ، ومهما كان الامر فليس هنالك اي شك في ان تعرية التربة كانت احدى الكوارث الرئيسية التي حلت بزراعة الشرق الاوسط في القرون الوسطى .

وفي بلدان الشرق الاوسط وخصوصاً في المناطق الجبلية التي يتساقط منها المطر بغزارة في اشهر الشتاء مما يؤدي الى جرف التربة المخلخلة في السفوح حيث تحمل كمية كبيرة من الطمي عبر الاخاديد الى السهول ، وعندما تتوضع هناك تصبح في بعض الاحيان معرقلة للزراعة وتختنق فوهات الوديان وتتكون المستنقعات ، وعندما تختفي التربة النافذة تختفي معها الينابيع ، وحيث الارض الخصبة لا يبقى سوى الصخور القاحلة .

وجد الزراعيون الشرقيون في القديم علاجاً لهذه الكارثة الكبيرة وهو بناء المصاطب (المدرجات) لايقاف الانجراف ، وهكذا استقرت تربة سفوح الهضاب بمصاطب متدرجة كل منها بارتفاع ٩٠ سم وتحميها الجدران ، وفي السياج زرعت شجيرات الطرفاء التي تصد الريح وتجذب الرطوبة وتمسك بالتربة ، والطريقة الاخرى للحفاظ على التربة الخصبة هي بناء السدود في قاع الانهار والجداول التي تمنع السيول من غمر الحقول . والسدود على المجاري العليا للانهار تحجز السيول الجارفة في خزانات وتوقف الطمي ، بعد الفتح الاسلامي اهملت هذه الوسائل التي استخدمها الزراعيون القدماء وتركت الزراعة لتعود القهقرى ، هذا هو الاستنتاج الذي وصل اليه علماء الآثار والمحافظون على التربة الذين درسوا تاريخ الزراعة في مختلف مناطق سورية وفلسطين حيث اعتمدت الى مدى بعيد على الادارة الواعية والبعيدة النظر لموارد الماء .

والمثال النموذجي على ما جلبه التغيير من زراعة العصور القديمة الى العصور الوسطى هو قدر ما يسمى بالمدن البائدة في شمال سورية ، منها ـ مرتفعات جبل السماق القديمة والتي سميت باسم آثار المستوطنات القديمة التي لا تزال قائمة وكأن

إلى الحوض الجنوبي[١١] ، وهكذا فإن الشكل الحالي للبحر الميت إنما هو نتيجة انجراف التربة وتدهور الزراعة .

هـ - المساحات المزروعة : هناك أدلة على أن تدهور الزراعة في الشرق الأوسط وتناقص المساحة المزروعة بدأ منذ بداية الحكم الاسلامي رغم أنه ليس هنالك أي شك في أنه تسارع في العصور الوسطى المتأخرة .

يشكو أبو يوسف - الذي كتب في نهاية القرن الثامن - أن الجوخة ، وهي منطقة شرقي دجلة تدهورت ابان الفتح العربي وأن موارد مياه لهذه المنطقة التي كانت خصبة في السابق قد اختفت ، وأن حاصلاتها الزراعية قد تناقصت نهائياً ، ويؤكد الكتاب العرب الآخرون هذه المقولة وبأن الجوخة كانت أخصب مناطق العراق ، وفي مكان آخر يتحدث أبو يوسف بعبارات عامة حول تدهور زراعة العراق منذ أن فتحه المسلمون ، ويقول إن المساحة المزروعة التي أصبحت جرداء منذ ذلك الوقت ، كبيرة لدرجة لا يمكن إعادة زراعتها خلال فترة قصيرة .

وتناقص المساحة المزروعة مرتبط باختفاء الكثير من القرى ، التي هجرها فلاحوها وذهبوا للعيش في المدن . وقد أظهر العالم الأمريكي روبرت ماك آدم - الذي قام بتحريات أثرية في منطقة ديالي في شرق العراق - التناقص الكبير في القرى في الفترة الاسلامية الأولى .

ويمكن تلخيص نتائج أبحاثه القائمة على الاستطلاع الميداني كما يلي :

عدد القرى في منطقة ديالي

	العصر الساساني	العصر الاسلامي الأول
القرى الكبيرة	٥٩ (٣٥٦ هكتار)	٥٧ (٣٢٧ هكتار)
القرى الصغيرة	٣٠٨ (٤٤٠ هكتار)	٢٣٤ (٣٦٧ هكتار)

متوسط مساحة القرى

القرى الكبيرة	٦ هكتار	٥,٧ هكتار
القرى الصغيرة	١,٤ هكتار	١,٥٦ هكتار

وهكذا نجد في هذه المنطقة التي تغطي مساحة ١٢,٤٩٣ كم٢ أن نسبة ٢٤٪ من القرى قد هجرت في العصر الاسلامي الأول . ويفترض أن هناك عدد من المستوطنات هجرت في العراق الأعلى أيضاً وأن تناقص الزراعة في هذه المنطقة بلغ حجماً واسعاً إلا أنه لم يتم حتى الآن أي بحث شامل لاثبات تاريخ هجرها .

ويمكن تلخيص اكتشافات العقيد غاي ـ الذي تحرى القرى المهجورة في منطقة الهضاب الممتدة من اللد ـ الرملة إلى رام الله وجبال الخليل ـ كما يلي :

	القرى المسكونة حالياً	القرى المهجورة	المجموع
منطقة وادي مصرارا	١٠٠	١٩٣	٢٩٣
منطقة وادي جنداس	٤٢	٩٥	١٣٧

ورغم أن هذه الأرقام تشير إلى العصر الاسلامي بأكمله فإنها مدهشة حقاً ففي المنطقة التي تحراها غاي تم هجر ٧٠٪ من القرى .

وتدهور منطقة الخليل الجنوبية في ظل الحكم الاسلامي واضح تماماً ، يقرأ المرء في الاصحاح الخامس عشر من يشوع (٤٨ ـ ٥٧) عن وجود ٣٠ مدينة تحيطها القرى جنوب الخليل لدى الاجتياح الاسرائيلي ، وفي بداية القرن التاسع عشر وجد في المنطقة ٩٠ مستوطنة مهجورة مقابل ٥ قرى مسكونة ، وبما أن هذه المنطقة تغطي ٩٦٠ كم٢ فهناك قرية واحدة لكل ١٨ موقعاً في ١٩٢ كم٢ .

ولا بد أن يكون عدد المستوطنات التي قامت في صحراء النقب في العصر النبطي ، والعصر البيزنطي كبيراً ، اختفت جميعها تقريباً وقامت بدلاً منها مضارب البدو . كما أن عدد السكان قد تناقص : فبينما بلغ في أوجه ٨٠,٠٠٠ ـ ١٠٠,٠٠٠ نسمة إذا به يصبح ٥٠,٠٠٠ نسمة في عام ١٩٣١ .

وعلى العموم كان في غرب الأردن ٩٣٤ قرية عام ١٩٣١ مقابل ١٧٩٠ مستوطنة مهجورة وهذا يعني أن أعداد المستوطنات المسكونة يبلغ ضعف عددها في العصور القديمة . ولكن هذا العدد يشمل ١٢٤ مستعمرة أقيمت بعد بدء الانتداب البريطاني .

وحتى في مصر لا بد أن المساحة المزروعة قد تناقصت خلال القرن الثامن والنصف الأول من القرن التاسع . يقول المؤرخ المصري المقريزي ـ الذي يقتبس

عن مصادر قديمة موثوقة ـ أنه في منتصف القرن التاسع كانت البلاد في حالة تدهور مما أدى إلى نتائج سيئة بالنسبة لواردات الحكومة ، كما أن مؤرخاً مصرياً حديثاً استنتج أن المساحة المزروعة بلغت في أيام الخليفة هشام (٧٢٤ ـ ٧٤٣) ٣ ملايين فدان ، أما في عهد المأمون (٨١٣ ـ ٨٣٣) فبلغت ٢,١٢٨,٥٠٠ فدان فقط[٢٠] .

مقابل الأدلة على هجر القرى والبراهين الأخرى على تدهور الزراعة توجد في المصادر العربية القديمة سجلات عن تعمير الأراضي الصحراوية . لا تترك هذه السجلات اي شك بشأن الجهود التي قام بها الأغنياء والأمراء والحكام لتحويل الأراضي البور إلى أراض زراعية، إلا أنه تشكلت صحار جديدةوكنتيجة لانفجار السدود غمرت مياه دجلة والفرات جزءاً كبيراً من العراق الأدنى وتحولت مساحات كبيرة الى مستنقعات والتي شكلت كارثة بدأت في مرحلة سابقة للفتح العربي بوقت طويل وحاول ملوك الفرس عبثاً إصلاح الضرر ، وتحولت الأمور من سيء لأسوأ عندما زادت الفوضى أبان الفتح العربي وتشكل المستنقع العظيم الذي يغطي مساحة واسعة بين النهرين من الكوفة إلى ضواحي البصرة ، كما تحول نهر دجلة من المجرى الشرقي (الحالي) إلى الغربي وصب في المستنقع ، فتحولت كل المناطق المجاورة للقناة القديمة إلى صحراء ، وحاول الحاكم الأموي خالد القسري جاهداً إعادة النهر إلى مجراه القديم لكن دون طائل[٢١] .

ومن جهة أخرى بذلت عدة محاولات لتجفيف أراضي المستنقعية ، وقد تكللت على ما يبدو بالنجاح الجزئي ، ويصف الكتاب العرب أنه في عهد الخليفة الأموي الأول معاوية استصلح عبد الله بن دراج أراض من المستنقع أعطته ٥ ملايين درهم (وحسب روايات اخرى ١٥) ، فلقد بنى الحواجز وجفف المستنقعات حتى أصبح جزء منها صالحاً للزراعة من جديد ، كما أن زياد بن أبيه ـ حاكم العراق في عهد معاوية ـ كان معمراً كبيراً ، فلقد حصل على الأراضي بكل الوسائل الممكنة ، وأقطع بناته القطائع فحفرن الأقنية ووطّن الفلاحين ، عمر عماله الأراضي البور . لكن الحواجز المائية التي بنيت في عهد الأمويين الأوائل انفجرت في نهاية القرن السابع ، وحسب رواية المؤرخين العرب رفض الحجاج إصلاحها لكي ينتقم لنفسه من اعدائه الدهاقنة . غير أن هذا الحاكم الشهير حفر (أو أعاد حفر)

عدة أقنية روت مساحات واسعة ، وجعلت الزراعة ممكنة ، ومن هذه الاقنية صراة جبب وهي قناة حلقية تتفرع عن الصراة الكبرى والزابي التي تصل هذه القناة الكبرى بنهر دجلة ، وهكذا أصبحت الأراضي التي تعتمد في ريها على هذه الأقنية صالحة للزراعة . وسياسة التعمير التي قام بها الحجاج متعددة الجوانب فلقد استثمر الأراضي التي جففها عبد الله بن دراج ، ومنح الأراضي البور للفلاحين الذين يحفرون لها الأقنية ويزرعونها .

وأعظم المهتمين باعمار الأراضي نشاطاً بين الأمراء والنبلاء الأمويين هو مسلمة ابن الخليفة عبد الملك ، إنه مستثمر حقيقي اذ استصلح الأراضي البور في عدة مناطق من بلاد الرافدين وبلاد الشام ، ويخبرنا المؤلفون العرب أنه انفق ٣ ملايين درهم لاصلاح السدود التي تفجرت في جنوب العراق ، واستصلح مساحة واسعة من الأراضي الخصبة بتجفيف المستنقعات فيها . وقام أيضاً بحفر قناتي السيب في منطقة السورا قرب الكوفة ووطن فيها عدداً كبيراً من الفلاحين . ووفقاً لهذه الأخبار قدم فلاحون كثيرون من المناطق المجاورة قراهم الى مسلمة وأصبحوا أتباعه . وفي المنطقة العليا مما بين النهرين الى الشرق من نهر البليخ بنى مسلمة حصناً عرف باسمه (حصن مسلمة) منذ ذلك التاريخ .

وقد جرت قناة الماء من نهر البليخ اليه والى المناطق المحيطة به التي لم تتمتع في السابق بالري الاصطناعي . وفي شمال سورية بين حلب وبالس بنى هذا الامير الأموي قرية جديدة وقصراً آخر سماه قصر مسلمة ، ويذكر المؤرخون العرب القدماء أيضاً نشاطات مماثلة لاخيه سعيد حيث استصلح الأراضي البور قرب الرقة ونعلم من أوراق البردي أن قرة بن شريك ـ حاكم مصر الأموي (٧٠٩ ـ ٧١٤) أقام مزارع للسكر[٢٢]

ولم يتوقف تعمير الأراضي البور على الأمراء والحكام في تلك الفترة ، بل قام به أيضاً الأغنياء والمغامرون . ولا حاجة للقول بأن الكثيرين منهم أقرباء أو أصدقاء النبلاء . وساند التشريع الاسلامي الذي بدأ بالتطور في ذلك الوقت مثل هذه التدابير واستطاع أن يجسد القواعد التي استنتها السلطات ، لمثل هذه الأعمال فتمتع مستثمرو الأراضي البور بامتيازات ضريبية .

وأسكن معاوية في شمال سورية الجنود السوريين الذين عملوا كمعمرين عسكريين حقيقيين في مناطق الحدود . ومنحهم الخليفة الأموي القطائع في المناطق المحيطة بانطاكية وعلى ساحل سورية على المتوسط ، وفي العراق الأعلى أيضاً أعطيت القرى المهجورة الى العرب ، كما أن الأراضي التي هجرها النبلاء الفرس والاراضي المستنقعية في العراق الأدنى أصبحت المنطقة المفضلة للتعمير العربي وقد منح عبد الله بن عامر ـ الذي بقي حاكماً للبصرة حتى عام ٦٦٤ ـ عمه عمير مساحة ٨٠٠٠ جريب عمل على استصلاحها بحفرقناة لري الحقول والحدائق : وحتى والدة ابن عامر نفسه أمرت بحفر عدة أقنية . كما أن عبدالله أمر بحفر الأقنية في منطقة البصرة ، وبنى قصراً على الطريق ما بين البصرة ومكة بالحدائق المروية اصطناعياً في منطقة النباج في شمال الجزيرة العربية ، وفي قرية القريتاني المجاورة لها ، وحفرت احدى بناته قناة لري الأراضي قرب البصرة ، وكان من عادة زياد بن أبيه أن يمنح الأراضي البور كقطائع بشرط زراعتها خلال عامين والا استعادها وخلال هذه الفترة سكنت في جنوب العراق عائلات مهتمة جداً بأعمال التعمير واستثمروا مبالغ طائلة فيه ، ومن هذه العائلات عائلة أبو بكرة ، ويجد المرء في المصادر العربية أسماء رجال كثيرين ينتمون إلى هذه العائلة التي نشطت في هذه المشاريع مثل عبيدالله ، وأولاده بشير وأبو برذعه وعبدالرحمن ولقد صادر الخليفة العباسي المأمون في أيامه قسماً كبيراً من قراهم قرب البصرة .

كتب المؤلفون العرب الذين استشهدنا بهم حتى الآن أيام العباسيين وكانوا ميالين الى تشويه سمعة الخلفاء الأمويين والتغني بفضائل العباسيين ، ولكن نظرة خاطفة على كتاباتهم كافية لترينا أن نشاطات العباسيين في مجال اعمار الأراضي محدودة جداً ، وتطالعنا المراجع العربية بأن الخليفة المهدي (٧٧٥ ـ ٧٨٥) حفر قناة نهر الصلة قرب واسط وعمر الأراضي المحيطة بها ، وأن هارون الرشيد (٧٨٦ ـ ٨٠٩) استصلح ارضاً في وسط فلسطين أصبحت فيما بعد بوراً ، كما أن الخيزران والدة هارون الرشيد مشهورة أيضاً في أعمال التعمير . ولكن نشاطات هذه «العائلة الحاكمة» تقل كثيراً بالقياس لما قام الامويون به في هذا المجال[٢٣] .

وهناك أدلة غير مباشرة على أن ذلك ليس تخميناً ، فسجلات الواردات من

الضرائب في بلدان الشرق الأوسط . ترينا بوضوح حجم تناقص المساحة المزروعة من خلال كمية الخراج لأن الخراج فاق الضرائب الأخرى والجدول التالي يلخص الأرقام التي تذكرها هذه السجلات .

الواردات من العراق

اسم الخليفة أو الحاكم أو التاريخ	درهم	دينار
بعد الفتح الاسلامي	١٢٨مليون	١٢,٨ مليون
معاوية (٦٦١ - ٦٨٠)	١٠٠ مليون	١٠ ملايين
عبيد الله بن زياد (٦٨٠ - ٦٨٦)	١٣٥ مليون	١١,٢ مليون
الحجاج (٦٩٤ - ٧١٤)	١١٨ مليون	٩,٨٣ مليون
عمر الثاني (٧١٧ - ٧٢٠)	١٢٠ مليون	١٠ ملايين
يوسف بن عمر (٧٣٨ - ٧٤٤)	١٠٠ مليون	٨,٣ مليون
هارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩)	١٣٤,٩٨ مليون	٦,٧٥ مليون
٨١٩	١٠٨,٤٥٧,٦٥٠	٥ ملايين
٨٧٠	٧٨,٣٠٩,٣٤	٣,٢١ ملايين

ومع كل التحفظات بشأن الأرقام التي تصلنا من مؤلفي القرون الوسطى وأخطاء تحويل الدراهم الى دنانير فانها مع هذا لا تترك مجالاً للشك حول النقص الكبير في عائدات الضرائب منذ منتصف القرن الثامن .

والمعلومات التي ينقلها المؤلفون العرب عن الوثائق المتعلقة بعائدات الضرائب في العراق الأعلى قليلة :

العائدات من العراق الأعلى

اسم الخليفة أو التاريخ	المنطقة	درهم	دينار
هارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩)	الموصل ، طريق الفرات ٢٤ مليون		
	ديار مضر	٥٨ مليون	٢,٩ مليون
	ديار ربيعة ٣٤ مليون		(دون الدفع العيني)
٨١٩	طريق الفرات		
	موصل ، ديار مضر	٨٣٥,٠٠٠	١٢٠ مليون
	ديار ربيعة		
٨٧٠	طريق الفرات		
	الموصل ، ديار مضر	١٧,٣ مليون	٦٩٢,٠٠٠
	ديار ربيعة		

في هذا الجدول يبدو التدهور أكثر وضوحاً .

بالنسبة لعائدات الضرائب من مصر فان المعلومات الموجودة في المصادر العربية أكثر وفرة . وهي مرتبة في هذا الجدول في عمودين الاول مؤلف من العائدات الاجمالية والآخر الكميات المرسلة الى بيت المال في العاصمة :

العائدات من مصر

اسم الخليفة / الحاكم/ التاريخ	العائدات الاجمالية	الكمية المرسلة الى الخليفة
عمر الأول (٦٣٤- ٦٤٤)	١٢ مليون دينار	
٦٤٧	١٤ مليون دينار	
٦٦٢	٥ ملايين دينار	
سليمان (٧١٥ - ٧١٧)	١٢ مليون دينار	
٧٢٥		٢,٧٢٣,٨٣٧ دينار
المهدي (٧٧٥ - ٧٨٥)		١,٨٢٥,٥٠٠ دينار
موسى بن عيسى (٧٨٦ - ٧٩٦)	٤ ملايين دينار	٢,١٨٠,٠٠٠ دينار
٨١٩		٢,٥٠٠,٠٠٠ دينار
المأمون (٨١٣ - ٨٣٣)	٤,٢٥٧,٠٠٠ دينار	
٨٢٧		٣,٠٠٠,٠٠٠ دينار

وبما أن المعلومات عن بداية العهد الاسلامي لا يمكن أن تكون دقيقة تماماً الا انه باستطاعة المرء ان يستنتج من هذا الجدول ان عائدات الضرائب من مصر كانت مستقرة تقريباً . الا ان هذا ليس دقيقاً تماماً .

صحيح لم يكن هناك نقص هائل في اجمالي عائدات ضرائب مصر لأن السلطات عمدت الى زيادة الضرائب ، منذ بداية القرن الثامن كما يبدو . ومما يعزز هذا الافتراض أن ثورات الفلاحين بدأت في العقد الثالث من القرن الثامن . وفي النصف الأول من القرن التاسع ازداد الخراج المدفوع نقداً من دينار واحد الى دينار ونصف ثم ازداد فيما بعد الى دينارين ونصف وربما أكثر ، كما ارتفع الخراج المدفوع عيناً في نهاية العهد الأموي من ثلاثة ارادب الى خمسة من القمح وأكثر[٢٤] .

وتؤكد هذه المعلومات نقص المساحة المزروعة . وارتفاع أسعار الحبوب الذي يعتبر دليلاً آخر على هذه الظاهرة . وبشكل مؤكد لم يحصل نتيجة للتغيرات المناخية أي الجفاف وقراءات مقياس مياه النيل كمايذكرهاالمؤلفون العرب تربنا نقصاًفي

معدل مستوى الفيضانات ، ولكن هناك من الناحية الأخرى أسباباً وجيهة للاعتقاد بأن كمية الامطار في أراضي بلاد الرافدين وبلاد الشام ازدادت حتى منتصف القرن التاسع ، وهكذا على المرء بالضرورة ان يستنتج أن ارتفاع أسعار الحبوب سببه تناقص مساحة زراعية بالاضافة الى أسباب اخرى الا أن تناقص المساحة المزروعة لم يأت بشكل مفاجيء وعلى نطاق واسع .

وبما أن الطلب على الحبوب ثابت فان الأسعار استجابت بسرعة لاي تغيير مهما كان طفيفاً في التوازن نتيجة تناقص الانتاج الزراعي .

وهنا يبرز السؤال : لماذا لم يؤد ارتفاع اسعار الحبوب الى تعمير جديد للأراضي ؟ لماذا انغمس الامويون ـ وهم الملوك العشائريون الحقيقيون ـ بينما كان العباسيون أقل نشاطاً في هذا المضمار ؟ ويمكن إيجاد أجوبة متعددة على هذا السؤال .

يمكن أن يكون السبب هو أن أية مساحات كبيرة من الأراضي البور التي يمكن استصلاحها بالوسائل المتوفرة قد تم تعميرها سلفاً في عهد الأمويين ، وبالاضافة الى ذلك يجب أن نأخذ بعين الاعتبار التباين الاجتماعي لفلاحي الشرق الأوسط . ففي هذه الفترة تألفت غالبية الفلاحين من الملاكين الذين لا يتوفر لديهم رأس المال الكافي لمشاريع التعمير . وحتى في أوروبا في القرون الوسطى تمت مشاريع التعمير على يد نبلاء الاقطاع ، ويبدو أن الملاكين الاغنياء في الشرق الأوسط استثمروا أموالهم في المشاريع الزراعية والتجارية التي تدر عليهم أرباحاً عظيمة في وقت قصير ، ومثل هذه المشاريع هي مزارع الرز ، او استيراد القمح من العراق الاعلى الى العراق الأدنى[٢٥] .

ولا يؤدي زيادة السكان ـ سواء في الأرياف او المدن ـ او زيادة أسعار الحبوب بالضرورة إلى التعمير على نطاق واسع ، كما يقول المؤرخون الاقتصاديون الذين يدرسون الأزمنة المختلفة ، ولقد استنتج غ . دوبي ، أنه بالرغم من زيادة سكان القرى في أوروبا الغربية في العهد الكارولنجي فإن التخلف التقني عرقل التعمير على نطاق واسع ، كما أن م . بوستان الذي يشير الى ارتفاع أسعار الحبوب في أوروبا الغربية في القرن الثالث عشر ، والى بطء عمليات التعمير ولقد طور نظرية سميت

باسمه (نظرية بوستان) تقول أن هاتين الظاهرتين ليستا متناقضتين على الاطلاق ، فقد أدت اسعار الحبوب المتزايدة في انكلترا الى زراعة الأراضي الهامشية ، وبالتالي قلّت المراعي والمروج ، وتناقص عدد الحيوانات لدى الفلاحين ونقصت معه الأسمدة والمحاصيل ، وزرعت الحبوب في التربة الفقيرة ، وهكذا أدت الزيادة في سعر الحبوب الى نقص التغذية وبالنهاية الى الأوبئة التي خلقت توازناً على أساس جديد .

وهكذا نجد أدلة كافية للافتراض بأن المساحة المزروعة في الشرق الأدنى تناقصت في عهد الخلفاء ، ولا يتناقض هذا الافتراض مع الظواهر الأخرى في تطوره الاقتصادي .

و ـ أحوال الفلاحين :

هل أدى الحكم الاسلامي الى تحسين أو تدهور أحوال الفلاحين ؟

إن تناقص المساحة المزروعة ، وهجر القرى لا يعني بالضرورة أن أحوال الفلاحين ساءت لأن كثيراً من الفلاحين ربما تم استيعابهم في فروع اخرى من الانتاج ، ولكن هناك أدلة مباشرة وموثوقة عن تدهور أحوال الفلاحين .

ويبدو أن العبء الضريبي قد ازداد الى حد كبير خلال المائتي سنة منذ الفتح العربي حتى منتصف القرن التاسع ، ورغم ارتفاع أسعار المنتجات الزراعية فقد أصبح من الصعب على الفلاحين أن يدفعوا التزاماتهم ، إن رواية الكاتب المسيحي ديونيسيوس التلمحري بليغة حول هذا الموضوع ، وهو بالتأكيد شاهد موثوق لأنه يعبر عن مرارة هذه الفئات،ويقرأ المرء في كتابه أن الفلاحين استدانوا الأموال من أهل المدن بالفائدة وبنسبة مرتفعة ليدفعوا الضرائب ، ولينفقوا على أنفسهم ، ولا بد أن العداء بين أهل الريف وأهل المدن كان شديداً جداً لأن المرء يجد في كتاب ديونيسيوس قصصاً حول نهب الفلاحين لمخازن أهل المدن[٢٦] ، ولا حاجة للقول أن هؤلاء الفلاحين الفقراء عجزوا عن الانفاق على الالات التقنية ويصف ديونيسيوس التلمحري حالة الفلاحين في العراق الأعلى في النصف الثاني من القرن الثامن ، وليس لدينا أي شك في أن وضع الفلاحين متقارب في كل مكان في هذه الفترة .

وكانت إحدى النتائج لعبء الضرائب الثقيل ويأس طبقات الفلاحين العريضة هي الهروب من الأرض ، وهي ظاهرة رئيسية للحياة الاجتماعية في فترة الخلافة ، وهناك الكثير من الأدلة على ذلك في المصادر الأدبية والوثائق ، مثل أوراق البردي المصرية في اليونانية والعربية ، وكلها تصور بعبارات واضحة الأوضاع المزرية للفلاحين الهاربين الذين تلاحقهم السلطات كحيوانات برية ، ولمنع هجر القرى الذي أدى الى نقص الخراج ، وهو المصدر الرئيسي لواردات الحكومة فأنشأت السلطات دوائر خاصة للقبض على الفارين منهم ، وإعادتهم الى قراهم ، وأصدرت الأوامر باتباع الاجراءات الصارمة لهذا الغرض .

ويذكر المؤلفون المسلمون كيف اتخذ الحجاج الاجراءات الشديدة لأعادة الفلاحين الى قراهم عندما أدرك أن نقص الخراج ناجم عن الهرب من الأرض ، وحسب رواية ديونيسيوس التلمحري كان الهروب من الأرض ظاهرة بارزة للحياة الريفية في العراق الأعلى في النصف الثاني من القرن الثامن ، ففي كل مكان من مناطق نصيبين وآمد وحرّان والرها (أورفا) هجر الفلاحون قراهم ، وأخذ الناس يهربون من قرية الى قرية باحثين عن ملجأ أمين ، ولكن رؤساء هذه القرى أبلغوا عنهم السلطات او استغلوا وضعهم الحرج ، وقامت حملات التفتيش في الريف ، وأصبح من واجب رؤساء القرى مساعدة السلطات ، ووجد موظفون لدمغ الفلاحين بإشارات تدل على قراهم .

واشكال هذه الظاهرة في مصر متعددة ، ويصف الكتاب العرب المسيحيون هجرة الفلاحين من القرى في مصر السفلى كما تصفها أوراق بردي أفروديت في مصر العليا أيام الحاكم قرّة بن شريك . وكما يدرك المرء كل هذه المصادر أن الفلاحين المصريين كانوا في عهد الخلفاء خدم الأرض الثابتين ، كما كانوا أيام البيزنطيين ، ولا بد أن عدد الذين حاولوا تحرير أنفسهم وعائلاتهم من عبودية الأرض كان كبيراً ، وكثيراً ما أصدرت الحكومة الأوامر للبحث عن الهاربين واعادتهم الى قراهم ، وكان الفلاحون الهاربون الذين يتم القبض عليهم يدفعون غرامة قدرها /٥/ دنانير وهو مبلغ كبير بالنسبة لاوضاعهم الاقتصادية المتدنية ، كما عوقب الموظفون المسؤولون عن إدارة القرى التي يتم فيها اكتشافهم ، ولم تقتصر عقوبة

الهاربين على الجلد بـ / ٥٠/ جلدة فقط إنما يتم تثبيتهم إلى نير خشبي . في الوقت الذي كوفىء فيه كل من يقدم المعلومات عن هؤلاء الهاربين بدينارين ، بينما عوقب الذين يؤ ونهم بمبلغ ١٠ دنانير ، وتظهر أوراق البردي بوضوح أن السلطات المحلية لم تكن راغبة في تسليم الهاربين الذين لجأوا إلى مناطقهم ، لأنهم دفعوا الضرائب فيها رغم أنهم دفعوا أقل مما دفعوا في قراهم التي هربوا منها ، وتوجب أحياناً على سلطات المناطق الريفية التي أعيد إليها الفلاحون الهاربون أن يتعهدوا بألا يهربوا ثانية ، ووضعت عليهم صكوك كجوازات السفر بقصد السيطرة الكاملة عليهم داخل قراهم وكان كل من يقبض عليه بدونها تفرض عليه الغرامة ، وأحرقت السفن التي سافروا فيها ، فتلك كانت الأوامر التي أصدرها أسامة خليفة قرة بن شريك ، لكن رغم كل الاجراءات التي اتخذتها حكومة الخلافة استمر الهرب من الأرض عبر القرون ، ولقد كانت معضلة خطيرة حتى في النصف الثاني من القرن الثامن ، والنصف الأول من القرن التاسع[٢٧] .

وأدت حالة الفلاحين المزرية الى ثورات كثيرة لم تكن أكثر من تمردات سخط دون أهداف بعيدة . عام ٧٥١ حدثت ثورة فلاحية في العراق الأعلى في منطقة ميافارقين ، ولكنها قمعت على ما يبدو بدون صعوبة وفي عام ٧٧٤ نجح قائد مقدام اسمه رازن في إثارة الفلاحين في عدة مناطق من العراق الاعلى ، وبدأت الثورة في منطقة طوطس في أرمينيا وانتشرت الى ارزن وميافارقين ، فأحرقت منازل كثير من الملاكين الأغنياء ورغم أن معظم الثوار كانوا مسيحيين ، فانهم هاجموا الكنائس وقتلوا موظفي الحكومة الذين قبضوا عليهم ، ولكن الثورة ـ كغيرها من الثورات ـ قمعتها قوات الخلافة بسهولة .

وثورات الفلاحين في مصر متعددة ، ربما لان حاميات قوات الخلافة كانت ضعيفة ، ومرارة الفلاحين أشد بسبب الخلافات الدينية بين الاقباط والحكومة الاسلامية ، ومهما كان الأمر فان ثورات الأقباط أدت الى الكثير من إراقة الدماء ، بدأت الثورات تقريباً بسبب أعباء الضرائب الثقيلة ، واندلعت الثورة الاولى في الدلتا وبالتحديد في الحوف الشرقية في عام ٧٢٥ ، وفي منتصف القرن الثامن قامت عدة ثورات أخرى : في مصر العليا في عام ٧٣٩ وفي منطقة سمنود في عام ٧٥٠ ،

وبعد ذلك في رشيد . وأثناء هذه الثورة الاخيرة تغلب البشرودبون ـ وهم مجموعة من الأقباط البدائيين ـ على رشيد ، وقتلوا المسلمين ، وفي النصف الثاني من القرن الثامن أصبحت ثورات الفلاحين في مصر أكثر عدداً . وكلها تعود الى أسباب مالية ، ففي عام ٧٥٣ ثار الفلاحون ثانية في سمنود ، وفي ٦٧٦ في سخا ، وفي عام ٧٧٣ في القرى المجاورة لبلهيت ، واندلعت ثورة جديدة في عام ٧٩٤ عندما بدأ العرب بالانضمام الى الثوار ، كما قامت ثورات أخرى في عام ٨٠٢ وعام ٨٠٧ . ولكن يبدو أنها كانت جميعاً حركات محلية وانفجارات يأس وحقد على الحكومة الاسلامية .

ففي عام ٨٣١ قامت ثورة عامة للفلاحين المصريين وفي هذه المرة أيضاً انضم العرب الى الأقباط . وثار الفلاحون في كل من مصر العليا وفي مناطق الاسكندرية والدميرة في مصر السفلى ، وفي مصر العليا كانت عشيرة بني مدلج العربية ـ وهي فرع من قبيلة بني لخم ـ أكثر العناصر نشاطاً . ولكن الثورة قمعت على يد القائد التركي الجريء الأفشين رغم المقاومةالعنيفةالتي واجهتـه،إذ أن الكتاب العرب يذكرون انه اضطر لخوض عدة معارك ، وفي شرق الدلتا كانت مقاومة الفلاحين عنيفة لأن قوات أفشين قتلت عدداً كبيراً منهم وأثارت هذه الثورة عواطف قوية لأن الخليفة اتى الى مصر قبل سحق الثورة النهائي ، ولم تنفع كل محاولاته وتدخلات رجال الدين الأقباط لأن البشروديين الأقباط تحصنوا في المستنقعات واستمروا في معركتهم اليائسة حتى النهاية ، وعندما انتصرت قوات الخليفة بيع الكثير من النساء والأطفال كعبيد ونُفي الرجال إلى العراق .

واعظم ثورة فلاحية خلال المائتي سنة الاولى من الحكم الاسلامي في الشرق الادنى هي ثورة الفلسطينيين ، وسكان جنوب سورية في عام ٨٤١ وبدأت هذه الثورةفي شرقي الأردن بقيادةشخص يسمى أبو حرب، لقد تقدم كزعيم ديني، أو ربما كنبي كما فعل الكثير من الثوريين في تلك الايام ، و (قنع) ابو حرب وجهه وحث اتباعه على «الامر بالمعروف والنهي عن المنكر» وتبعه في البداية الفقراء ، وانضم فيما بعد اليه الملاكون الاغنياء ايضاً ، وشاركه بعدئذ اليمنيون المقيمون في جنوب سورية واصبحت اعداد اتباعه كبيرة جدا ، مما اضطر جيش الخليفة ـ الذي

ارسل ضد ابي حرب ـ الى ان يتوجه لقمع ثورة في منطقة دمشق بدت انها اكثر خطرا من ثورة ابي حرب ، وعندما تم القضاء على هذا التمرد تغلب جيش الخليفة على ابي حرب ايضا ، ويروي المؤرخون العرب ان المعركة الاخيرة نشبت قرب الرملة في عام ٨٤٢ ، وذلك يظهر ان الثورة امتدت الى جنوب فلسطين ايضاً .[٢٨]

واخفقت الثورة ـ بعكس الثورات الاوروبية ـ لانها لم تعتمد على الطبقات الاخرى ، ولان طبقة الفلاحين وحدها كانت ضعيفة جداً .

الفصل الثاني

١ ـ البلاذري ـ فتوح ـ ص ١٢٨ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ٢٦٧ ، ٣٦٤ ، ٣٦٦ وما بعدها .
ـ تاريخ دنيس التلمحري ـ الجزء الرابع ـ نشر وترجمة ج . شابو (باريس ١٨٩٥) ص ١٠٦ ص ١٣٠

BECKER

POL IAK

الكندي ـ الولاة والقضاة ـ ص ٣٦٤

٢ ـ اليعقوبي ـ كتاب البلدان (ترجمة فييت) ص ١٦٤ وما بعدها ب . RAINER

٣ ـ دنيس التلمحري ص ١١٢ ص ١٣٣

CAHEN

أبو يوسف ـ كتاب الخراج ترجمة فانيان (باريس ١٩٢١) ص POLIAK٧٦

٤ ـ البلاذري ص ٢٧٢ ص ٣٦٨

أبو يوسف ص ٥٦ وما بعدها

الطبري ـ ١ ص ٩٦٢ وما بعدها

BECKER

LOKKEGAARD

RAINER

DENNETT

دنيس التلمحري ـ ص ١٠ ، ١١٣ ، ١٣٠ ، ١٣٣ وما بعدها ، ١٥٩ ، ١٦٩ وما بعدها ، ١٧٢

٥ ـ أحسن التقاسيم ص ٧١ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٦٠ ، ١٧٤ وما بعدها ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٨ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٦٤ .

ترجمة لهي لوسترانج في مكتبة جمعية نصوص حجاج فلسطين ـ ٤ (لندن ١٨٩٧) ص ٩١

مسكويه تحقيق امدروز ومارغوليوث ـ ٢ ص ٣١٨ وما بعدها البلاذري ص ١٣٤ .

قدامة بن جعفر كتاب الخراج ص ٢٣٧ وما بعدها قارن ترجمة دي غوجه ص ١٨٠

ابن خرداذبة ص ٨ وما بعدها قارن ترجمة دي غوجه ص ٦ وما بعدها .

WIRTH

المسعودي ـ كتاب التنبيه ص ٢٢ .

MULLER

ASHTOR

BATH

٦ ـ ابن خرداذبة ص ١٠ وما بعدها

هلال الصابي تحقيق امدروز ص ٣٣٥

التنوخي ـ نشوار المحاضرة ـ ٨ (دمشق ١٩٣٠) ص ٦٦ وما بعدها

CANARD

COHEN

المسلمون في عصور الاسلام القديمة ـ م . ت . ق . ج . ش ١٣ (١٩٧٠) ص ٢٨

MULLER

ابن الفقيه ص ١٨٧

الاصطخري ص ٩١

التنوخي في مجلة ثقافة الاسلام ـ ٤ (١٩٣٠) ص ١٩ وما بعدها

٧ ـ الاصطخري ص ٧٧ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٨٧

ابن الفقيه ص ١١٤

ابن حوقل ـ صورة الأرض ص ٢٢٩

COHEN

٨ ـ الاصطخري ص ص ٥٨ ، ٧٣ ، ٧٨

ابن الفقيه ص ص ١١٤ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢٢ وما بعدها

المقدسي ص ١٦١ وما بعدها ، ١٨٠ وما بعدها .

LE STRAN GE

MEZ

ASHTOR

COHEN

TCHALENKO

MULLER

٩ ـ المقدسي ص ص ١٥٠ ، ١٧٦ وما بعدها ، ١٨١ ترجمة لوسترانج ص ٧٠

اليعقوبي ص ٣٢٤ قارن لوسترانج ـ فلسطين في ظل المسلمين (لندن ١٨٩٠) ص ٥٢٩

١٠ ـ ياقوت ـ ٤ ص ١٦ وقارن

WIEDEMANN

ص ٢٨٨

١١ ـ ابو يوسف ترجمة فانيان ص ١٦٧ وما بعدها

البلاذري ص ص ٢٧٤ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٣٥٦ وما بعدها ، ٣٥٩ وما بعدها ، ٣٦٧

ياقوت ـ ١ ص ٤٧٨

ياقوت ـ ص ص ١٦ ، ٨٣٢ وما بعدها (نهر الأبلله) ـ ٨٣٥ ، ٨٣٨ ، ٨٤٠ ، ٨٤٢ ، ٩٩٤ ، ٩٩٤ .

LESTRANGE

LAMMENS

JACOBSEN

الطبري ـ ٢ ص ١٦٥٥

١٢ ـ البلاذري ص ٣٦٧ مسرد الكلمات ص ٧٧

ياقوت ـ ٢ ص ٣٣١ ياقوت ـ ٤ ص ص ٧٣٢ ، ٨٣٠

مقالة قناة في الموسوعة الاسلامية ـ ٢ ص ٧٠٨ وما بعدها

ابن الأثير ـ ٩ ص ص ٢٥٠ ، ٢٥٣ ، ٢٥٦

STRECK

ابن خرداذبة ص ٧٤

ابن الفقية ص ١١١

ابن العديم ـ زبدة الحلب تحقيق الدهان ـ ١ ص ١٥١

CANARD

المقدسي ص ٢٠٨

المقريزي ـ السلوك ـ ١ ص ٤٠٩

اليعقوبي ترجمة فييت ص ٦٧

١٣ ـ المقريزي ـ السلوك ـ ٢ ص ٦٩٢

المقدسي ص ١٧٥ (طواحين الماء في الأردن وجدت حتى القرن الثالث عشر ـ انظر ياقوت ـ ٢ ص ٦١)

البلاذري ص ٢٩٤ . حول موضوع طواحين الماء والآلات الأخرى عموما انظر ج . س . كولن ـ الناعورة المراكشية والأدوات الهيدروليكية في العالم العربي ـ مجلة هسبيريس ـ ١٤ (١٩٣٢) ص ٢٢ وما بعدها .

١٤ ـ REIFENBERG

JACOBSEN

أبو يوسف ترجمة فانيان ص ص ١٤٤ ، ١٥٠

JOINVILLE- ١٥

WOOLLEY

PARAIN

LYNN - WHITE

BATH

كتاب الأغاني (بولاق ١٢٨٥) - ١٥ ص ٩٨

WÜSTENFELD

MULLER

ألف ليلة وليلة تحقيق هابخت - ١ ص ٢٠

MULLER- ١٦

PARAIN

ابن مماتي - قوانين الدواوين (القاهرة ١٩٤٣) ص ٢٥٩

المقريزي - الخطط - ١ ص ١٠١

DUBY

BATH

SHALEM

VITA - FINZI

LOWDERMILK ID

ص ٢٣٩

TCHALENKO

REIFENBERG

SHAW

MADER

GUY

KARMOM

AVI - YONAH

GLUECK

AVENARI

NEEV- ١٩

ابو يوسف ترجمة فانيان ص ٥٩ وما بعدها (النص العربي) ص ٥٧ (ترجمة ص ٧٤ خاطئة)
ياقوت - ٢ ص ١٤٣
المسعودي - كتاب التنبيه ص ٤٠
ADAMS
GUY
MAD ER
AVI - YONAH
PLANHOL
المقريزي - الخطط - ١ ص ٩٩ (١ - ٩)
عمر طوسون - مذكرات حول مالية مصر (القاهرة ١٩٢٤) ص ١٢٥ وما بعدها
٢١ - ابن رسته - الحلي الثمينة(ترجمة فييت - القاهرة ١٩٥٥) ص ١٠٦ وما بعدها .
WIRTH
LE STRANGE - ٢٢
المسعودي - مروج الذهب (ترجمة بيلاّت) - ١ ص ٩١
WELLHAUSEN
البلاذري ص ص ٢٩٠ وما بعدها ، ٢٩٣ وما بعدها ، ٣٥٨ ، ٣٦٣ ، قدامة بن جعفر ص ٢٤٠ وما بعدها .
ياقوت - ٢ ص ٢٧٨ قارن ياقوت - ١ ص ص ٨٦٤ ، ٨٦٩ ،
ياقوت - ٣ ص ٢٠٨ ، ياقوت - ٤ ص ص ٧٣٢ ، ٨٣٥ ، ٨٤٠ وما بعدها ، ٨٤٥
دنيس التلمهري ص ٢٣ وما بعدها ،
BEGKER
٢٣ - ابو يوسف ترجمة فانيان ص ٩٩
LAMMENS
WELLHAUSEN
البلاذري ص ص ١٢٧ وما بعدها ، ١٣٣ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٥٨ ، ٣٥٨ ، وما بعدها ، ٣٦٢ ، ٣٦٤ .
ياقوت - ٤ ص ص ٨٣٠ ، ٨٣٥ ، ٨٣٨ ، ٨٤١ ، ٨٤٤ ،
CAETANI
حول عائلة أبو بكرة انظر لامنس - زياد ص ٤٥
KREMER - ٢٤
ID

ص ١١ وما بعدها
ابن خلدون المقدمة ترجمة روز نتال (نيويورك ١٩٥٨) ـ ١ ص ٣٦١ وما بعدها .
ابن خرداذبه مترجم ـ ص ص ٥٤ ، ٦٨ ، ٦٩
قدامة ـ المصدر السابق ـ ص ١٨٦ وما بعدها
عمر طوسون ـ المصدر السابق ـ ص ص ٢٢ وما بعدها ، ٥٨ وما بعدها ، ١٢٦

BECKER

٢٥ ـ POPPER

BROOKS

DUBY

BUTZER

٢٦ ـ المصدر السابق ص ص ٩٢ ، ١٣٤ ، ١٥٦

٢٧ ـ البلاذري ـ حوليات عربية مجهولة ـ تحقيق ألوات ص ٣٣٦ وما بعدها .

WELL HASEN

دنيس التلمهري ص ص ١٠٥ وما بعدها ، ١٠٩ وما بعدها ، ١٢٣ وما بعدها ، ١٢٧ ، ١٣٤ ، ١٣٧ ، ١٩١ ،

BELL

BECKER

BECKER

POLIAK

٢٨ ـ دنيس التلمهري ص ١٧٢ وما بعدها

الكندي ـ كتاب الولاة والقضاة ص ص ٧٣ وما ابعدها ، ٨١ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ١٠٢ ، ١١٦ ، وما بعدها ، ١١٩ ، ١٩٠ وما بعدها

المقريزي ـ الخطط ٢ ص ٤٩ وما بعدها .

QUATREMERE

BECKER

الطبري ـ ٣ ص ١٣١٩ وما بعدها

ابن الأثير ـ ٦ ص ٣٧١ وما بعدها

الفصل الثالث

العصر الذهبي للامبراطورية الاسلامية

ان سقوط الامويين عام ٧٥٠ ووصول العباسيين الى عرش الخلافة ، يعني اكثر من تغير في الاسر الحاكمة ، اذ خضع النظام بكامله للتغيير التام ، فحكم الامويين كان نوعاً من الاحتلال العسكري لملوك القبائل العربية الذين فرضوا انفسهم على الادارة البيزنطية والفارسية ، ومن جهة اخرى فان العباسيين حاولوا جاهدين لتحقيق مطامح المسلمين التقليديين، الذين ساندوا ثورتهم، واقامة حكومة دينية حقة ، وبينما استمرت مختلف البلدان المفتوحة في عهد الامويين بالبقاء كمناطق اقتصادية وثقافية متنوعة ، دمجها العباسيون في امبراطورية اسلامية عظيمة واحدة .

وبدأت سلطة العباسيين العسكرية والسياسية بالانحطاط بعد وصولهم الى العرش بوقت قصير ، وتقلص نطاق حكمهم بازدياد ، ولكن في نفس الوقت اصبح التماسك الاقتصادي للاقطار الاسلامية اقوى من ذي قبل ، ولم تعد هذه البلدان تعترف بسلطة الخلفاء ومع هذا لم تقطع علاقاتها الاقتصادية مع اقطار الامبراطورية الاخرى ، وهكذا نشأت خلال القرن التاسع وحدة اقتصادية هائلة قائمة على التبادل التجاري ـ وحدة لا مثيل لها في التاريخ القديم ، والسيادة الاقتصادية للامبراطورية العباسية فوق المناطق الاخرى في آسيا وافريقيا وحتى في اوروبا الغربية كانت كاسحة واستمرت مدة طويلة نسبياً بلغت حوالي ٢٠٠ سنة .

آ ـ امبراطورية العباسيين : كان انهيار النظام الاموي نتيجة للدعاية المركزة الطويلة التي قام بها دعاة العباسيين ، وهم فرع من اسرة الرسول (ص) الذين ادعوا بانهم دعاة الاسلام الحقيقي ، وبدأت نشاطاتهم الهدامة في عام ٧١٨ ، ونشبت الثورة في خراسان في عام ٧٤٧ ، وتتوجت بنصر في المعركة في شمال العراق على ضفاف

الزاب الكبير في عام ٧٥٠ ، ونفّذ الحكام الجدد ما وعدوا به بشأن تغيير سياسة حكومة الخلافة ، فمقابل التسامح الديني والتاكيد على العروبة الذي يميز حكم الامويين ، اكد العباسيون على الاسلام كاساس لنظامهم فرفعوا من شأن اعوانهم الدينيين وبدأوا بملاحقة الهراطقة واقاموا جهازاً للتحقيق في امور المانويين واصبح نشر الاسلام المهمة الاساسية لادارة الدولة .

كما ان انتقال مقر الخلفاء من سورية الى العراق ـ حيث بنى العباسيون مدينة بغداد كعاصمة جديدة عام ٧٦٢ ـ كان اكثر من انتقال جغرافي لمركز الثقل في الامبراطورية ، واكثر من عامل رمزي حيث يعني في الحقيقة الانعتاق من التقاليد الاموية ، وبذلك اعتبر بداية عهد جديد .

استمر خلال القرن الاول من الحكم العباسي توسع حدود امبراطورية الخلافة بفتح الاقطار غير الاسلامية ، ففي عام ٧٥٩ الحقت بالخلافة منطقة طبرستان على بحر قزوين ، وفي عام ٨٢٧ بدأ فتح صقلية ، ومن جهة اخرى فقد العباسيون سيطرتهم ـ منذ بداية النصف الاول من القرن الثامن ـ على المناطق الواقعة غرب مصر ، وفي عام ٧٥٦ نجح الامير الاموي عبد الرحمن حفيد الخليفة هشام في فرض حكمه على اسبانيا الاسلامية ، حيث حكم احفاده لمدة قرنين ونصف، وفي عام ٧٦١ قامت إمارةللخوارج في الجزائر الغربيةتحت امرةاسرة الرستميين الفارسية التي اتخذت من مدينة تيهرت عاصمة لها ، كما اسست مجموعة اخرى من الخوارج البربر حكمها في تافيلالت في شرقي مراكش ، وفي عام ٧٧٢ اصبحت سجلماسة عاصمة لاسرة حاكمة جديدة ـ بنو مدرار ـ حكمت حتى عام ٩٧٧ ، وفي نهاية القرن الثامن استقل احفاد علي من الادارسة بحكم شمال المغرب حيث تاسست مدينة فاس في عام ٧٩١ ، واصبحت عاصمة لهم ، واستمرت تونس بالاعتراف بسلطة الخلفاء الذين اوكلوا حكمها في عام ٨٠٠ الى القائد ابراهيم بن الاغلب ، بعد ان منحوه لقب امير ، وحكمت سلالته في تونس لاكثر من مائة عام كامراء مستقلين عملياً ، وحتى في الجزء الاعظم من مناطق الامبراطورية الشرقية لم تكن سلطة الخليفة قوية ، في عام ٨٢٠ عينً القائد الفارسي طاهر بن الحسين حاكماً على خراسان ، واورث منصبه لسلالته . وحكم الطاهريون الذين اتخذوا من نيسابور عاصمة لهم مناطق اخرى من فارس والاراضي الاسلامية شرق خراسان

حتى الحدود الهندية وشمالا حتى حدود امبراطورية الخلافة ، ولم يكن الطاهريون رسمياً اكثر من حكام ، ولكن نفوذهم توسع بحيث لم يعد بامكان الخليفة تبديلهم وضعفت سلطة العباسيين ليس فقط بسبب التسلسل الوراثي لحكامهم شبه المستقلين، وإنما أصبحت سلطات القواد الاتراك المتزايدةباستمرار أكبر خطراً على الاسرة الحاكمة ، ولقد جاء بعض هؤلاء القادة الى الشرق الادنى كاسرى حرب او كعبيد ، بينما قدم الآخرون كمرتزقة مأجورين ، وبتزايد عددهم تزايد نفوذ قادتهم في الدولة بحيث اصبحوا في منتصف القرن التاسع الحكام الفعليين ، ينصبون الخلفاء ويخلعونهم حسب مشيئتهم ، كما اصبحوا من كبار ملاك القرى في العراق نفسه ، ومن اقطار الشرق الاوسط الاخرى[1] .

وبحث المستشرقون مطولاً طبيعة الثورة العباسية ، ففي القرن التاسع عشر اعتبرها معظمهم ردة فعل ايرانية على حكم العرب ، كما اعتقدوا ايضاً ان الحرب الاهلية بين الاخوين الامين والمأمون (٨١١ ـ ٨١٣) صراع بين الفرس والعرب ، ولكن الابحاث الحديثة تقول ان الصراع عربي بحت ، بالرغم من وجود تيار خفي من العداء القومي ،[2] اما من وجهة نظر المؤرخ الاجتماعي فمن المهم تقويم نتائج الانقلاب العباسي ، ولقد اكد المستشرقون التقليديون مراراً على التغلغل الايراني القوي داخل النظام العباسي ، وفي الحقيقة يعتبر وصول العباسيين الى العرش استيلاء لطبقة اخرى على السلطة . فبدلاً من القبائل العربية السورية والمجموعات الاخرى العربية النسب استلمت زمام الامور ارستقراطية عربية ـ فارسية[3] ، فثورة العباسيين في خراسان بقيادة ابي مسلم تحققت بفضل دخول الطبقة السائدة في ايران جماعياً في الاسلام او نتجت عنها، ويرمز دور الوزراء البرامكة في عهد هارون الرشيد الى التغير الكبير في التطبيق الاجتماعي للخلافة في ظل العباسيين الاوائل ، فالطبقات الدنيا لسكان بغداد ـ الذين حاربوا بشجاعة ضد جيش المأمون الفارسي ـ ربما احست باللاوعي بهذا العداء الطبقي[4] ، اما حكم الطاهريون في ايران فانما يعتبر عودة الحكم الى الارستقراطية الفارسية القديمة .

وسيطرة هذه الارستقراطية العربية ـ الفارسية (الامبراطورية الساسانية الجديدة) لم تدم اكثر من ثلاثة اجيال اذ انتهت في عهد الخليفة المعتصم (٨٣٣ ـ

٨٤٢) عندما تمتع الحرس التركي بنفوذ كبير ، وشطبت اسماء العرب من سجلات رواتب الجيش واصبح القادة الاتراك حكام الخلافة المطلقين .

ولا حاجة للقول بان اعادة حكم الارستقراطية الفارسية ادى الى قيام حركات ثورية يتضح بنيانها الطبقي بين سطور كتاب الحوليات العرب المتميزة ، ولا شك في ان بعض الثورات التي قامت في وجه الحكم العباسي في المناطق الشرقية من الامبراطورية ذات خلفية دينية ، فبين الثوار تواجد العلويون الذين شعروا بخيانة العباسيين الذين جعلوا من انفسهم انصاراً «لاسرة الرسول» ، وفي النهاية اقاموا دولتهم بدلاً من دولة سلالة علي ، وزوجته فاطمة بنت الرسول . كما كان هناك مجموعات من المتطرفين الدينيين الذين حلموا بحكومة اسلامية كاملة فخيب النظام الجديد آمالهم .

واستمر الخوارج في نضالهم المستمر من اجل مجتمع ديمقراطي ، وقامت عدة ثورات في بلاد الهلال الخصيب والمناطق الايرانية حيث ثاروا في العراق الاعلى عامي ٧٣٦ و ٧٤٧ كما قامت ثورة اخرى شملت العراق الاعلى وشمال سورية عام ٧٧٩ وفي عام ٧٨٤ قامت ثورة ايضا في العراق الاعلى . وتعددت ثورات الخوارج في عهد هارون الرشيد ، فثاروا عام ٧٩١ في خراسان وعام ٧٩٥ في العراق الاعلى كما بدأت ثورة لهم في عام ٧٩٦ في شرق ايران يقودها حمزة بن الترك الذي استمر يحارب عدة سنوات ، وحدثت ثورة اخرى لهم في العراق عام ٨٠٧ وتشير اخبار الثورات الكبيرة الاخرى في ايران بكل وضوح الى طابعها الاجتماعي ، ويركز المؤرخون العرب على الافكار الدينية التوفيقية المشوشة للثوار الذين اتهموا بالفسق ـ ككثير من الحركات الثورية الاجتماعية في العصور الوسطى ، في الحقيقة بقي في فارس بعض اتباع الحركة المزدكية ، وهي الحركة الشيوعية الغريبة في العصر الساساني .

وعندما يتحدث كتاب الحوليات العرب عن ثورة سنباذ في عام ٧٥٤ فانهم يتحدثون عن الصلة بينه وبين المزدكية . كما ان الشخص الذي قاد ثورة اخرى اندلعت في خراسان عام ٧٦٧ يسمى استاذ سيس هو بروليتاري حقيقي، أما الحركة الثورية التي قادها «النبي المقنع» فهي على ما يبدو اكثر من تمرد ساخط ، لان معظم اتباعه من الفلاحين وبعض المزدكيين ومركزها في مقاطعة صغد ما وراء النهر ، الا انها امتدت ايضا الى بخارى والمناطق المجاورة الاخرى ، وعندما تم قمعها بعد قتال

عنيف في عام ٧٨٠ قامت ثورة اخرى في منطقة جرجان على بحر قزوين . وكالمعتاد نجد هؤلاء الثوار الذين يسمون «بالحمر» متهمين أيضاً بالاشتراكية الجنسية . وقامت لهؤلاء الحمر في عام ٦٩٦ وعام ٨٠٨ ثورات جديدة ، واعظم ثورة ضد العباسيين في النصف الأول من القرن التاسع هي ثورة بابك الذي تحدى جيوش الخلافة في اذربيجان ومناطق القوقاس لاكثر من عشرين عاماً (٨١٦ ـ ٨٣٨) وبابك بروليتاري حقيقي كسب عيشه من القيام بأعمال مختلفة ومتعددة ، وكالمعتاد عندما يتحدث كتاب الحوليات الاتقياء عن الحركات الثورية ، فإنهم يتهمون اتباع بابك بالفسق والجرائم الاخرى ولكن رواياتهم لا تترك مجالاً للشك حول الطبيعة الثورية الاجتماعية لهذه الحركة ، ويشير أحد المؤلفين العرب بكل وضوح إلى أن اتباع بابك ينتمون إلى طبقات المجتمع الدنيا .

وثورة المازيار بن قارن امير طبرستان في عام ٩٣٩ رافقتها ثورة اخرى «من الاعلى» ، ففي محاولة لاعادة الدولة الفارسية القديمة والديانة الزرادشتية استخدم العداء الاجتماعي بين الفلاحين الفرس والملاكين الاغنياء وحث الثوار على نهب بيوت الاغنياء وتعهد بطرد المسلمين من المدن .

وفي بغداد ـ حيث تعسكر القوات العسكرية القوية ـ اضطرت الطبقات الدنيا الناقمة الى السكوت ، ولكن تواجدت فيها مجموعات من الساخطين وقطاع الطرق الذين عاشوا على هامش المجتمع وانتقموا لانفسهم باعمال النهب . ومنذ ايام المأمون (٨١٣ ـ ٨٣٣) يرد ذكرها في كتاب الحوليات تحت اسم «العيارين» من حين لآخر. ولكنهم يتحدثون أيضاً عن البيض وهم المنشقون اصحاب الافكار التوفيقية ، وترينا هذه النصوص انه حتى في بغداد تواجدت مجموعات تحلم بالثورة الاجتماعية رغم انهم يضيفون الى اهدافهم الحقيقية غطاء دينيا ، وانضمَ في اوقات الحرب الاهلية الرعاع الى احد الفريقين وفتحوا السجون وحرروا المسجونين وعلى وجه العموم عارض سكان بغداد عموماً الجيش التركي ، وثاروا ضده كلما كانت تسنح لهم الفرصة بذلك (٥) .

الا ان العباسيين وبفضل قوة الجيوش الفارسية والتركية نجحوا في قمع كل الثورات وتحقيق خطتهم الكبرى في تلاحم البلاد التي فتحها اسلافهم وجعلها

امبراطورية موحدة ، فتكللت جهودهم بالنجاح . ونجحت عملية ادخال السكان في الاسلام ، وتحويل ولائهم الى العباسيين ، وفي نفس الوقت اصبحت اقطار الشرق الاوسط وحدة اقتصادية تميزت بالنشاطات الصناعية والتجارية المكثفة ، وليس من المبالغة التحدث عن معجزة اقتصادية حقيقية . تمت تحت اشراف حكومة العباسيين[٦] .

فقد اشتغلت البلدان البيزنطية والفارسية سابقاً بالتبادل المتعدد للمنتجات الزراعية والصناعية ؛ وصحيح أنه كانت هناك علاقات تجارية بين سورية وإيران قبل أن يفتح العرب بلدان الهلال الخصيب ، وصحيح أيضاً أن مخافر الجمارك على الحدود القديمة وغيرها من الأماكن لم تختفِ في ظل حكم الخلفاء ، ولكن ليس هناك أي شك في أن التجارة بين مصر وسورية من جهة والعراق وإيران من جهة أخرى ازدادت إلى حد كبير عندما توحدت كل هذه الأقطار في ظل الخلفاء، وازدياد التجارة بين الاقطار التي انتمت لعدة قرون سابقة إلى مناطق اقتصادية م تلفة كان بطيئاً ولكنه لم ينقطع ، وكانت له نتائج هامة على الحياة الاقتصادية في البلدان الاسلامية .

ففي الفترة السابقة للفتح الاسلامي اقتصرت التجارة بين الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية عموماً على البضائع الكمالية ، أما في عهد العباسيين فقد تمّ تبادل كميات كبيرة من البضائع المخصصة للاستهلاك الجماهيري والمنسوجات والأغذية بين المناطق البعيدة من الامبراطورية الواسعة .

وشحن القمح من العراق الأعلى إلى العراق الأدنى ، وزيت الزيوت من سورية وفلسطين وتونس إلى مصر ، وشحن التمر من العراق إلى مناطق كثيرة من العالم الاسلامي . وانتجت خوزستان ومكران واليمن السكر واشتهرت سورية بزراعة أشجار الفاكهة التي لاقت رواجاً كبيراً في العراق ومصر . وأمدت برقة مصر بالماشية ، وصدرت صناعة النسيج في خراسان وبخارى وسمرقند والأقمشة القطنية إلى مناطق الشرق الأدنى ، وبيعت المنسوجات القطنية من هراة ومرو ونيسابور في كل أرجاء الامبراطورية ، وانتجت مناطق بحر قزوين المنسوجات الحريرية والصوفية التي اشتهرت في كل الامبراطورية العباسية ، وصدرت خوزستان

وفارس ـ وهما المنطقتان الواقعتان على الخليج العربي في جنوب شرق إيران ـ المنسوجات الحريرية والقطنية الثمينة ، كما صدرت أرمينيا سجادها المشهور ، واشتهرت مصر منذ أقدم الأزمنة بصناعة الكتان المتطورة ، وعندما توحدت مع العراق وإيران في ظل الخلفاء ، أصبحت هذه البلدان سوقاً كبيرة للمنتجات المصرية .

وأخيراً صدرت مناطق شمال افريقيا المنسوجات الصوفية الثقيلة المخصصة للطبقات الدنيا من المجتمع الشرقي [٧] ، وليس هناك أي شك في أن ازدياد حجم التجارة جلب معه فترة ازدهار لكثير من المدن . كما ازداد الانتاج الصناعي بانتظام وارتفعت الأسعار والأجور كما ازداد الطلب على اليد العاملة المؤهلة ، وازداد بذلك سكان التجمعات المدنية ، وبكلمة أخرى إن الاتجاهات الرئيسية للتطور الاجتماعي والاقتصادي في الشرق الأدنى معاكسة تماماً لمثيلاتها في التاريخ الأوروبي في نفس الفترة ، ولكن الازدهار الاقتصادي لم يكن فقط نتيجة توحيد أقطار عديدة في الامبراطورية الاسلامية وتكثيف التبادل التجاري ، ولكنه حدث أيضاً ـ إلى حد بعيد ـ نتيجة تدفق المعادن الثمينة إلى الشرق الأوسط .

ب ـ توسع الذهب : لفت العالم الفرنسي الواسع الذكر موريس لومبارد الانتباه إلى الأهمية الكبرى لمصادرة كنوز الذهب في اقتصاد امبراطورية الخلافة ، وبفرض الضرائب والتبرعات الاعتباطية أجبر حكام المسلمين الأساقفة ورؤساء الأديرة على بيع الأواني الثمينة أو تسليمهم كميات كبيرة من الذهب المكدس في الكنائس والأديرة في سورية ومصر ، ومن المرجح أن الحكام الجدد استخدموا عموماً طريقة المصادرة ، وحدث الشيء نفسه في العراق ، وفي ايران . صودرت كميات كبيرة من الذهب من قصور الملوك والنبلاء الايرانيين بعد أن جدوه بتكديسه أو باستعماله لصناعة المجوهرات ، فعاد الحكام العرب ووضعوه قيد التداول بصيغة نقود . وتبرهن الكثير من النصوص في روايات المؤلفين العرب القدماء على صحة افتراضات لومبارد ، وعندما أدرك العرب أن المقابر الفرعونية تحتوي كنوزاً دفينة بدأوا بالبحث المنظم ، ووجدوا على ما يبدو كميات كبيرة من الذهب [٨] ، وعلى المرء ألا ينسى أيضاً أن البيزنطيين أحياناً دفعوا للخلفاء الجزية التي بلغت مبالغ طائلة من النقود الذهبية .

كما أن كميات كبيرة من الذهب تدفقت إلى الامبراطورية الاسلامية من مناطق مناجم الذهب المجاورة لحدودها ، فقد ورد إلى مصر كميات كبيرة من الذهب من بلاد النوبة وخصوصاً من المناجم الشهيرة في وادي العلاّقي وهي منطقة بين النيل وبين البحر الأحمر [٩] ، ولكن المصدر الرئيسي للثروات الذهبية الاسلامية هي مناطق مناجم الذهب في غرب السودان وأرض بمبوك بين نهر السنغال ورافده فاليمي ومنطقة البور قرب التقاء نهر التنكيسو والنيجر ، أنشأ العرب تجارة منتظمة مع هذه البلاد التي سموها غانا أو «تكرور» . وهكذا أصبح إنتاج مناجم ذهبهم الغنية (الذي لم يستطع الرومان الحصول عليه) أهم العناصر في اقتصاد الامبراطورية الاسلامية . ونشّط نهر الذهب الذي بدأ بالانسياب من غرب السودان إلى الشرق الأوسط حياته الاقتصادية إلى درجة لم تعرف من قبل .

وصل ذهب «غانا» إلى الشرق الأوسط بطرق متعددة . والطريق في أقصى الغرب هو الذي وصل سجلماسة ومنها إلى تلمسان وعبر سواحل شمال افريقيا إلى مصر وظل هذا الطريق باستمرار على غاية الأهمية ، وفي ذلك يقول ابن حوقل (أحد جغرافيي القرن العاشر) أن حاكم سجلماسة جمع ٤٠٠,٠٠٠ دينار كل عام كضرائب على تجارة عاصمته ، والطريق الثاني يقود من ولاته إلى طغزه ، ومنها إلى توات فساحل البحر المتوسط . والطريقان الآخران يصلان غاو ـ وهي مركز تجاري هام على نهر النيجر ـ بمصر : الأول يقود من مدينة تاد مكة ثم ورقلة حتى ساحل المتوسط والآخر يقود من تاكدة فهضبة عير ثم تيبستي فواحات الكفرة والداخلة والخارجة حتى مصر العليا ، وكان هناك طريق تجاري يربط غرب السودان بمصر بواسطة طرق القوافل جنوب الصحراء عبر بلاد كانم وبحيرة تشاد ، وهناك أدلة على العلاقات التجارية الوثيقة بين غرب السودان ومصر بدأت بالازدهار في القرن الثامن ليس فقط في النصوص الكثيرة في كتابات الجغرافيين العرب القدماء بل أيضاً في روايات سكان «تكرور» الذين استقروا في مصر في تلك الفترة المبكرة [١٠] .

ولما كانت التجارة من غرب السودان وثيقة الصلة بتقدم الفتوحات الإسلامية ، ولما كان احتلال شمال افريقيا لم يتحقق قبل بداية القرن الثامن ، فإن زيادة تداول الذهب في الشرق الادنى كان بطيئاً رغم استمراره . فالخلفاء الأمويون

الأوائل لم يغيروا النظام النقدي في البلاد التي أصبحت تحت سيطرتهم . ودور ضرب النقود في سورية ومصر استمرت في ضرب النقود البيزنطية التي تحمل بالاضافة إلى الكتابات اليونانية ـ شعارات الخلفاء أو صورهم ، وفي البلاد الساسانيةسابقاً ضربوا الدرهم الفارسي القديم مستبدلين باسم الملك الفارسي اسم الخليفة أو الحاكم الأموي ، ووجدت في مصر وفي سورية في عهد الأمويين دور ضرب كثيرة أصدرت النقود البرونزية تقليداً للفوليس البيزنطي ، والتي كثيراً ما حملت الكتابات باللغتين اليونانية والعربية بعد طمس اسم الامبراطور البيزنطي ، وفي نهاية القرن الثامن أخذ الخليفة عبدالملك على عاتقه إصلاح النظام النقدي وضرب النقود الاسلامية الحقيقية : والعملة الذهبية الجديدة ـ الدينار الاسلامي ـ الذي ضرب في عام ٦٩٦ اتخذ شكلاً جديداً مختلفاً عن العملة البيزنطية ، إنه قطعة منقوشة يبلغ وزنها ٤,٢٥ غ مقابل ٤,٥٥ غ للعملة الذهبية البيزنطية ، وبعد عامين تم اصدار عملات فضية إسلامية جديدة : الدرهم الذي يبلغ وزنه ٢,٩٧ غ مقابل الدرهم الساساني العربي الذي يبلغ وزنه ٣,٩٨ غ ، وأصبحت هاتان القطعتان منذ ذلك الوقت مقبولتين كعملة إسلامية قانونية ، وظل معمولاً بهما لدى حكام العالم الاسلامي لعدة قرون (١١) .

واقتصر سك العملة الذهبية في عهد الخلفاء الأمويين المتأخرين على دمشق وحدها ، وعمّ تداولها المناطق البيزنطية سابقاً ، بينما بقي العراق وإيران والمناطق المجاورة لها «منطقة لتعامل النقد الفضي» كما كانت منذ أقدم العصور ، وحتى في النصف الأول من القرن التاسع كان الدفع وحساب المبالغ الكبيرة في العراق يتم بالدراهم الفضية (١٢) ، وعندما ازداد تدفق الذهب من غرب السودان بدأ تغيّر كبير في النظام النقدي للامبراطورية الاسلامية ، وانتقلت إلى العملة الثنائية (الذهب والفضة) البلدان التي قامت عملاتها لعدة قرون على أساس فضي ، ولا حاجة بنا للتأكيد على نتائج هذا الانتقال على كل قطاعات الاقتصاد ، تناقصت القوة الشرائية للذهب ، وارتفعت الأسعار ، ولكن الناس وظفوا الأموال في المشاريع الصناعية والتجارية .

وتزودنا مجموعات النقود بدلائل كثيرة على توسع الذهب ، في عام ٨٤٢ بدأ ضرب النقود الذهبية في مرور ، وفي عام ٨٤٩ في الريّ ، وفي عام ٨٦١ في

سمرقند ، وفي عام ٨٦٢ في الشاش ، وفي عام ٨٨٢ في قزوين ، وفي عام ٨٨٤ في الأهواز وهمذان ، وفي عام ٨٨٥ في أذربيجان ، وهكذا نشأ نظام نقدي ثنائي في القسم الشرقي من الامبراطورية الاسلامية ، ويذكر الجغرافيون العرب في القرن العاشر أن مناطق فارس وكرمان وبخاري بأنها لا تزال في أيامهم مناطق العملات الفضية ، بينا انتقلت إلى النظام الثنائي مناطق أرمينيا وأذربيجان والرّان وفارس ، ومناطق قزوين وسمرقند وتشهد على هذا التبدل الكبير في الحياة النقدية للامبراطورية الاسلامية المداخيل في موازنات الخلافة ، ففي الوقت الذي تحسب فيه واردات العراق في موازنة عام ٨٧٤ بالدرهم تحدد بالدينار في عام ٩١٥[١٣] .

وقد زودت دور الضرب في الخلافة بكميات كبيرة من السبائك الفضية ، لأن الجيوش الاسلامية فتحت معظم مناطق مناجم الفضة في آسيا الوسطى ، وهكذا أمدّ الانتاج الكبير لمناجم الفضة في أفغانستان وشرق ايران وبلاد ما وراء النهر دور الضرب في الشرق الأدنى بكميات كافية ، ويتحدث الجغرافيون العرب عن الكميات الكبيرة من الفضة المستخرجة من مناجم بنجهير في أفغانستان ، ولا بد أن انتاج مناجم الفضة في مدينة جربايا المجاورة ومناجم ما وراء النهر كانت كبيرة ، واستطاعت بالتالي دور الضرب الاسلامية باستمرار صنع كميات كبيرة من الدراهم .

لو كان معدل سعر الدينار في العراق وسورية في الفترة الأموية في الحقيقة لا يقل عن ١٠ دراهم ـ كما نستنتج من كتابات الفقهاء المسلمين القدماء ، فلا بد أن نسبة الذهب إلى الفضة هي ١ : ٨,٥ . وارتفع المعدل بعد اعتلاء العباسيين العرش إلى ١٢ درهم ، وبذلك أصبحت النسبة ١ : ٨,٤ . وترينا هذه النسبة المنخفضة ـ التناقص النسبي في القوى الشرائية للذهب ـ وهي دليل واضح على التغير الكبير الذي أحدثه تدفق الذهب السوداني في اقتصاد الشرق الأدنى ، ففي القرن التاسع لا بد أن كمية الذهب من آسيا الوسطى قد ازدادت ، لأن نسبة تبادل الدينار ازدادت باستمرار ، وحتى لو افترضنا أن الدرهم قد خُفضّت قيمته فلا بد أن سعر الذهب قد ارتفع ثانية[١٤] .

ومقابل تأرجح نسبة ثمن الذهب إلى الفضة بسبب تير كميات هذين المعدنين ، وأسباب أخرى ، فإن الاستقرار الملحوظ في القيمة الجوهرية للدينار

ظاهرة هامة جداً في النظام النقدي للخلافة ، وازدياد إنتـاج الذهـب وإقامـة دور ضرب جديد لم تؤدِ إلى تخفيض سعر الدينار ، وقد تميَّز الدينار الذي أنتجته دور ضرب الخلافة بهذه النوعية الممتازة خلال القرن التاسع .

ومنذ بداية إصدار العملات الذهبية الاسلامية كانت نسبة الذهب في الخليطة مرتفعة جداً .

وبعد فحص مائة دينار في المجموعـة النقديـة للجمعيـة الأمريكيـة توصـل أ. س. ايرينكروتز إلى النتائج التالية فيما يخص الدنانير الأموية في الشرق الأدنـى (باستثناء الجزيرة العربية) :

الدنانير الأموية

نسبة الذهب:	٨٩٪	٩٠٪	٩١٪	٩٢٪	٩٣٪	٩٤٪	٩٥٪	٩٦٪	٩٧٪	٩٨٪	٩٩٪	١٠٠٪
عدد النماذج:	١	١	١	١	١	١	٣	٤٠	٢٢	٢٢	٣	-

وهكذا نرى أن الدنانير التي تحتوي ٩٦٪ ذهباً تمثل ٤٢٪ من العملات الذهبية الأموية ، وأن المجموعة التالية هي ٩٧٪ و ٩٨٪ . وهذه المجموعات الثلاثة تمثل ٨٨٪ . ومن المرجح أن العيار الأساسي في البداية هو ٩٦٪ ، وأصبح فيا بعد ـ في أيام هشام (٧٢٤ ـ ٧٤٣) ـ ٩٨٪ . والوزن الوسطي لـ ١٧٧ ديناراً أموياً وعباسياً مبكراً هو ٤,١٩ غ ، وربما كانت النسبة العالية للذهب في خليطة دنانير هشام لها علاقة بمركزية دور الضرب ، فالدنانير السابقة لعهد هشام ضربت في دمشق والحجاز ومصر وتونس واسبانيا ، بينا حصر هذا الخليفة إصدارها في دمشق .

وأغلق العباسيون الذين نقلوا مركز حكومة الخلافة إلى العراق دار ضرب النقود في دمشق . والدنانير التي أصدرها الخلفاء الأوائل من هذه الأسرة لا تحمل أية دلالة على مكان ضربها ، ولذلك يسميها خبراء النقود «الدنانير المجهولة الضرب» ، ويمكن تلخيص نتائج أبحاث ايرينكر وتز في خليطة هذه الدنانير العباسية المبكرة بالجدول التالي : «الدنانير العباسية المجهولة الضرب»

نسبة الذهب:	أقل من ٨٩٪	٨٩٪	٩٠٪	٩١٪	٩٢٪	٩٣٪	٩٤٪	٩٥٪	٩٦٪	٩٧٪	٩٨٪
عدد النماذج	٤	٣	٣	٥	٤	٣	١٦	١٥	٣٦	١٧	١٣

٩٩٪	١٠٠٪
١	١

ويمكن أن نستنتج ثانية أن المعيار هو ٩٦٪ ، لأن هذه المجموعة تشمل ٢٩,٧٪ من الدنانير العباسية المبكرة التي فحصها ايرينكر وتز مقابل ١٧٪ التي تبلغ نسبة ذهبها ٩٧٪ ، ولكن يبدو أنه خلال العصر الأموي والفترة الأولى من العصر العباسي أن نسبة نقاوة الدنانير المصرية دائماً أعلى من النقود الذهبية المضروبة في سورية والعراق إذ بلغت ٩٨٪ ، وبعد موت هارون الرشيد في عام ٨٠٩ وأثناء الحرب الأهلية التي تلته اضطرت دور الضرب الحكومية إلى تخفيض نقاوة الدينار لكنها ظاهرة مؤقتة متصلة بالأزمة السياسية . وعندما استقر حكم المأمون (٨١٣ - ٨٣٣) أعيد المعيار القديم للدينار . والدنانير الذهبية التي ضربها المعتصم (٨٣٣ -

٨٤٢) والمعتمد (٨٧٠ ـ ٨٩٢) وصل معيارها إلى ٩٦ ـ ٩٨٪ ، كما أن وزن الدينار العباسي هو تقريباً الوزن القانوني ، وتزن معظم النقود الذهبية التي أصدرها الخلفاء في هذه الفترة ٤,٠٦ ـ ٤,٣ غ .

ولم تكن النوعية الممتازة للدينار هي فقط نتيجة لتوفر كميات الذهب الكافية ، ولكنها أيضاً نتيجة القدرة التقنية أو ربما للتقدم ، فالسكاكون المسلمون توفرت لديهم المعرفة التامة ببوتقة المعادن الثمينة ، وفصل الذهب والفضة بواسطة حمض الآزوتيك واستخلاص الذهب والفضة بملغمتها بالزئبق . والخليط الترابي الذي يحتوي على البقايا يسحق أولاً ثم يخلط مع الزئبق ويغسل بالماء . ثم تصفى فلزات الذهب بمعالجتها المتكررة بالنار، أما الفضة فتفصل عن النحاس والذهب بمزجها بالرصاص المنصهر في بوتقات تحفظ تحت حرارة عالية باستعمال الكير ، وأخيراً عرف السكاكون العرب كيفية استعمال المعايرة الفعالة للحصول على دقة تامة عند تعديل الخليطة[١٥] .

وكان لاصدار الكميات الكبيرة من النقود الذهبية والفضية نتائج هامة في الحياة الاقتصادية في الشرق الأوسط ، وعندما وضعت هذه النقود الذهبية قيد التداول تناقص ميل الناس نحو التخزين ، وعلى العكس من ذلك أدى التداول الكثيف للدنانير إلى زيادة في استهلاك مختلف البضائع، وأحدثت هذه الظاهرة أيضاً ارتفاعاً كبيراً في الأسعار ، ويستشهد أحد الكتاب العرب يقول بأن قيمة الدينار في أيام هارون الرشيد أقل من قيمة الدرهم في أيام المنصور (٧٥٤-٧٧٥)، ولما كانت أسعار الذهب والفضة مختلفة في المناطق المختلفة ، وبما أن نسبة الذهب إلى الفضة تبدلت كثيراً بدأت أعمال الصرافة بالازدهار وبدأت الأساليب الجديدة بالتطور ، ولكن الظاهرة التي تميز الحياة الاقتصادية في امبراطورية الخلافة (وفيما بعد في الدول المنبثقة عنها) هي انخفاض معدل الفائدة ، فبينما كانت فائدة ٢٠٪ عادية في المدن الاوروبية الغنية ، فإن الناس في الشرق الاوسط اقرضوا الاموال حتى أيام الصليبيين بفائدة ٤ ـ ١٠٪[١٦] مظهرين بذلك الكميات الكبيرة من الاموال الموضوعة في التداول .

جـ ـ النمو السكاني : أثرت الفتوحات الاسلامية ، وخلق وحدة اقتصادية

ممتدة من حدود الصين الى شواطىء المحيط الاطلسي على النمو السكاني لفترة طويلة نتيجة للنمو الاقتصادي والموقف الديني لكل طبقات المجتمع و ـ اخيراً وليس آخراً ـ الامل الذي نظر من خلاله الناس للمستقبل ـ مستقبلهم ومستقبل مجتمعهم ، ولم تأت زيادة السكان مطلقاً نتيجة لانتشار تعدد الزوجات ، لقد لاحظ الجاحظ وهو كاتب القرن التاسع العربي ان الأسر الاسلامية المتعددة الزوجات لديها اطفال اقل من العائلات المسيحية[١٧] .

فازدياد السكان في العراق ظاهر جداً . فعدد العرب الذين استوطنوا العراق بعد الفتح الاسلامي كبير جداً ، ومعاجم الانساب ـ وهي فرع هام من الادب العربي التاريخي ـ تحتوي على سير متعددة للعلماء الذين هاجروا في هذه الفترة من بلدان ايران الى العراق ، ولكننا يمكن بالتأكيد ان نفترض ايضاً ان الكثير من التجار واصحاب المهن الاخرى اتوا ليعيشوا في العراق عندما اصبحت هذه البلاد مركزاً للامبراطورية الشاسعة في عهد العباسيين ، كما ان الكثير من العبيد الذين جلبوا من افريقيا وغيرها وكذلك الجنود الاتراك من آسيا الوسطى مثّلت إضافات كبيرة الى عدد السكان الاصليين ، وحسب رواية بعض المصادر الشرقية في العصور الوسطى استقدم الخليفة المعتصم ٧٠,٠٠٠ عبداً تركياً للحراسة في السنوات التسعة من حكمه[١٨] .

ولا بد ان الصحة العامة تحسنت كثيراً في عهد العباسيين نظراً لأن الاوبئة والجائحات قلت وان كان العراق قد عاني في السابق من الاوبئة المتعددة التي يوصف بعضها بالطاعون الدبلي ، ورغم ان معظم هذه الاوبئة محلية فلا بد انها قضت على عدد كبير من سكان العراق وخصوصاً في المدن الكبرى مثل البصرة وبغداد وواسط ، في عام ٦٣٩ انتشر الطاعون الدبلي بمدينة البصرة ، وفي عامي ٦٦٩ و ٦٧٣ انتشر الوباء في الكوفة ، وفي ٦٨٨ ـ ٦٨٩ حل ايضاً وباء الطاعون الدبلي في البصرة ، وفي عام ٧٠٦ حل بالبصرة زائر الطاعون ثانية ، وفي نفس الوقت انتشر الوباء في واسط كما حدثت فيها جائحات اخرى في عام ٧٣٢ أو ٧٣٤ ، وفي البصرة في عام ٧٤٥ وعام ٧٤٩ ، وفي العراق الاعلى عام ٧٠٥ ، وعام٧٤٥. ومن جهة اخرى قلما يذكر الكتاب العرب الاوبئة في العراق بعد وصول العباسيين إلى الحكم . يقرأ المرء عن انتشار الطاعون في العراق في عام ٧٦٣ ، وفي العراق

الاعلى في عام ٧٧٤ . وفي هذه السنة ايضاً انتشر في العراق الاعلى الجدري والحصبة والتيفوئيد والاستسقاء ، وامراض اخرى ، كما انتشرت أوبئة اخرى في الاعوام ٧٧٥ و ٨٣٦ و ٨٦٣ و ٨٧٢ ، وفي هذه السنة الاخيرة انتشر الوباء في كل مناطق العراق بشكل غير محدد[١٩] ، إذن هناك اسباب وجيهة للاعتقاد بأن سكان العراق ازدادوا زيادة كبيرة منذ اواسط القرن الثامن ، ويستدل على ذلك ايضاً بإقامة العديد من المستوطنات المدينية التي اصبحت مدناً كبيرة .

ان البصرة والكوفة اللتين اقيمتا بعد فتح العراق كمعسكرات حربية تحولت الى مدن كبيرة توسعت باستمرار عبر فترة طويلة ، ووصلت الى الاوج بعد اعتلاء العباسيين العرش في نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع ، ثم بدأت الكوفة بالتدهور ولكنها بقيت مدينة هامة ، وبقيت واسط مدينة هامة خلال حكم الامويين والعباسيين وخلال الفترات التالية .

واقيمت مدن جديدة في كل مناطق العراق ؛ بني فيها مدينة النيل على القناة الجنوبية التي تصل الفرات بدجلة فأصبحت المدينة الرئيسية في المنطقة ، اما قصر ابن هبيرة الذي شيده عمر بن هبيرة في نهاية العصر الاموي فأصبح مركزاً هاماً لصناعة النسيج في العراق ومدينة كبيرة حسب رواية احد جغرافيي القرن العاشر ، ومن بين المدن التي انشئت في القرن الاول من الحكم العباسي بغداد العاصمة الجديدة التي بنيت في عام ٧٦٢ ، وبعد عامين انشأ الخليفة المنصور قرب الرقة مدينة جديدة حلت محل بغداد مع مرور الزمن واصبحت مركزاً صناعياً وتجارياً هاماً . كما أن هارون الرشيد الذي اقام هناك لبعض الوقت بنى قصراً جديداً واصبحت المدينة في النهاية عاصمة منطقة ديار مضر ، ومدينة الرحبة على الفرات انشئت في عهد المأمون واصبحت مدينة كبيرة في القرن العاشر ، وفي عام ٨٣٦ انشأ المعتصم مدينة سامراء على دجلة وقد حلت محل بغداد كمقر للخلفاء لاكثر من نصف قرن . أما مدينةجزيرةابن عمرو في العراق الاعلى، فأنشئت في اواسط القرن التاسع، وسرعان ما أصبحت مركزاً لتجارة العراق مع ارمينيا وبيزنطة ، ومن المدينة الصغيرة التي بناها المسلمون او اعادوا بناءها نجد مدينتين باسم الحديثة : احدهما تقع قرب اتصال الزاب الكبير مع دجلة اعاد بناءها مروان الثاني اخر الخلفاء الامويين والثانية المسماة حديثة عانة والواقعة على الفرات انشئت في عهد الخليفة عمر الاول ، وعند

الحديث عن إنشاء وتطوير المدن في العراق في العهد العباسي يجب الا نغفل حصون الحدود (الثغور) لانها لم تجذب المسلمين الاتقياء فقط الذين قدموا لمحاربة البيزنطيين ولكنها احياناً اصبحت مراكز للتجارة النشطة مع المناطق المجاورة . ومن هذه الثغور التي شيدها او اعاد بناءها العباسيون الاوائل نذكر الهارونية وعين زربه وملاطية والحدث وحصن منصور[٢٠] .

ومقابل المدن الجديدة العديدة التي انشأها العرب هناك مدن قديمة قليلة تدهورت في هذا العصر . احدى هذه المدن هي الحيرة العاصمة السابقة للملوك اللخميين التي تدهورت بسرعة ، ومركزمدني آخر اكثر اهمية تداعى فأصبح انقاضاً بعد ان فتح العرب العراق هو المدائن «طيغون» عاصمة الملوك الساسانيين .

ولكننا لا نكتفي بالطبع بجمع تفاصيل انشاء المدن الجديدة التي اعتبرها الجغرافيون العرب القدماء كبيرة . اننا نريد ان نعرف اعداد السكان او حتى نخمن عدد سكان العراق الاجمالي . فعلماء الآثار الذين قاسواالمساحات التي غطتهابعض المدن يقدمون لنا المعلومات التي تجعل بعض هذه التخمينات قريبة من الواقع ولكن ذلك لا ينقذنا من الاقدام على التخمينات المغامرة .

من الثابت ان بغداد في اوج العصر العباسي غطت مساحة ٧٠٠٠ هكتار اي حوالي خمسة اضعاف القسطنطينية في القرن العاشر وثلاثة عشر ضعفاً من مساحة المدائن . والعلاّمة الامريكي . ج . لاسنر المتخصص في هذا المجال من الابحاث يميل الى الافتراض ان سكان المدينة بلغوا ٥٦٠,٠٠٠ نسمة . ولكن عالماً كبيراً آخر استخلص ان سكان العاصمة العباسية بلغوا اقل من ٢٠٠,٠٠٠ نسمة ، كما ان مساحة سامراء أيضـًا كانت واسعة جداً إذ بلغت ٦,٨٠٠ هكتار ولكن الجزء الاعظم منها على ما يبدو مؤلف من القصور والحدائق ، بينا كانت مساحة المدن الاخرى صغيرة نسبيا ، فمساحة الرقة ١٩٢ هكتاراً والموصل ٢٩٢ هكتاراً ، ومن جهة اخرى بلغت مساحة البصرة التي كانت مدينة كبيرة ٣,٠٠٠ هكتار . والعالم الذي اجرى ابحاثاً شاملة في تاريخها استخلص ان عدد سكانها بلغ ٢٠٠,٠٠٠ نسمة في القرن التاسع . وسكان الكوفة ربما بلغ ٣/٤ سكان البصرة .

وتقديرات سكان المنطقة كلها بالطبع اكثر مخاطرة ، ولكنها تعطينا فكرة عن اتجاهات التطور الديمغرافي في ظل الحكم الاسلامي ، فعالم الآثار الامريكي الذي قام بتحري مواقع المستوطنات المهجورة في منطقة ديالي شرق نهر دجلة استخلص ان سكان المنطقة بما في ذلك بغداد في اوج الحكم العباسي بلغ ٨٤٠,٠٠٠ نسمة[٢١] ، وفي عام ١٩٦٥ بلغ عدد سكان جمهورية العراق الحديثة ٨,٢٦١,٥٢٧ نسمة، وباضافة الاقسام العليا من منطقة ما بين النهرين التابعة الآن لتركيا (سيرت وماردين وموس ومرعش وديار بكر وملاطية وبتليس) يصل ١٠,٠٠٠,٠٠٠ نسمة ، تمثل منطقة بغداد وديالي منها ١/ ٥ هذا العدد . ولربما امكننا ان نفترض باطمئنان نفس النسبة للعصر العباسي ، ونستنتج ان عدد سكان العراق والاقسام العليا من منطقة ما بين النهرين بلغ عندئذ ٤ ملايين نسمة .

والظاهرة المميزة لتطور العراق الديمغرافي في العصر العباسي هي بلا شك نمو المدن . فبمقارنة المواقع في العصرين الساساني والعباسي توصل عالم الآثار الامريكي نفسه الى الجدول التالي :

نوع المواقع	العصر الساساني	العصر العباسي
المواقع الامبراطورية	١ (٥٤٠ هكتار)	٢ (١٣,٨٠٠ هكتار)
المدن	٨ (١,٢٤٤ هكتار)	٤ (٧٣٠ هكتار)
المدن الصغيرة	٤ (١٨٨ هكتار)	٦ (٢٦٥ هكتار)
المدن التجارية الصغيرة	٣٥ (٥٩٩ هكتار)	٢٠ (٣٤٤ هكتار)

وسيظهر من حساب متوسط مساحة نفس المواقع انه في العصر العباسي كان يعيش عدد اكبر من السكان في المستوطنات المدنية :

المواقع الامبراطورية	١ (٥٤٠ هكتار)	٢ (٦,٩٠٠ هكتار)
المدن	٨ (١٥٥ هكتار)	٤ (١٨٢ هكتار)
المدن الصغيرة	٤ (٤٧ هكتار)	٦ (٤٤ هكتار)
المدن التجارية الصغيرة	٣٥ (١٧ هكتار)	٢٠ (١٧ هكتار)

وهكذا ليس هناك اي شك في وجود ظاهرة التمدين الواسعة . ولكن من الخطأ الافتراض ان نمو المدن الكبرى كان بشكل رئيسي على حساب المدن التجارية

الصغيرة والقرى . وترينا نصوص كثيرة في المصادر العربية القديمة بصورة مقنعة ان المدن كبغداد والبصرة جذبت الناس حتى من الاقاليم البعيدة [٢٢] . على اية حال فان الاتجاه الرئيسي للتطور الديمغرافي هو التمدين بعكس الاتجاه الرئيسي للتاريخ الاجتماعي في اوروبا في الفترة الاولى من العصور الوسطى عندما اختفت المدن تقريباً ، ورافق التمدين ظواهر اخرى مناقضة للتطور الاقتصادي في اوروبا في نفس الفترة ، وعندما نمت المدن انتشر الاقتصاد النقدي الى الريف ، وجعلت هذه الظاهرة بمفردها الحياة في العالم الاسلامي مختلفة جداً عن الحياة في اوروبا في العصور الوسطى .

ولا بد ان سكان سوريا قد ازدادوا ، ولكن ببطء في عصور الخلفاء ، فالى جانب هجرة القبائل العربية اثناء الفتح الاسلامي وبعده الذي لم توازنه على الارجح هجرة المسيحيين العرب وسكان المدن الاغريق الى بيزنطة ، فقد كان هناك خلال هذه الفترة هجرة الشعوب من كل البلدان ـ بلاد فارس وغيرها ـ الذين أتوا ليعيشوا في حصون الحدود ، وسببت هذه الهجرة ازدياداً ظاهراً للسكان في هذه المدن المسماة«بالثغور»وأصبحت طرطوس والمصيصةمدناً كبيرةمزدهرةواهتم جميع الخلفاء جدا بتحصينها ، وقرب المصيصة على الضفة الاخرى لنهر جيحان ظهرت مدينة جديدة هي كفربايا ، والى الجنوب على ساحل البحر الى الشرق من انطاكية قامت مدينة الاسكندرونة في عهد الخليفة الواثق (٨٤٢ ـ ٨٤٧) وتظهر السير التي تضمها الموسوعة العربية القديمة (معجم البلدان) قوة الجذب الكبيرة لهذه المدن حتى بالنسبة للتجار والفئات الاخرى[٢٣] . فمدينة الرملة في جنوب فلسطين التي انشأها الخليفة الاموي سليمان (٧١٥ ـ ٧١٧) كمقر لاقامته اصبحت مركزاً تجارياً مزدهراً وبقيت مدينة هامة لمدة ثلاثة قرون .

وسجل الاوبئة التي اجتاحت سورية خلال القرنين الاولين من الحكم الاسلامي مشابه لذلك السجل الذي يبرز من حوليات العراق : فهناك جائحات متكررة من الطاعون في العهد الأموي ، وبعد فتح سورية حدثت جائحة رهيبة من الطاعون في عام ٦٣٨ ـ ٦٣٩ تبعتها جائحات مشابهة في عامي ٦٧٦ و٦٩٨ ، وهذه الجائحة الاخيرة التي تعرف على وجه الدقة بأنها طاعون دملي اودى بحياة عدد كبير من سكان سورية ، وحدث في النصف الأول من القرن الثامن خمس جائحات

طاعون على الأقل في سوريا في الاعوام ٧١٧ و ٧١٩ و ٧٢٥ و ٧٣٣ ـ ٧٣٤ و ٧٤٥ . وفي نفس الفترة حدثت عدة هزات جلبت الدمار في بعض المدن الكبرى في سورية ، في عام ٧١٣ حدثت هزة أرضية في انطاكية والمنطقة المجاورة لها وتبعتها الهزات الأخرى في الأعوام ٧١٧ و ٧٤٨ و ٧٤٩ ، وقد أحدثت الهزتان الاخيرتان أضراراً بالغة في دمشق ويذكر منذ بداية العصر العباسي أحد الكتاب العرب القدماء جائحة من الطاعون الدمّلي التي أودت بعدد كبير من سكان فلسطين في عهد هارون الرشيد ، ويمكن أن تكون جائحة محلية ، وبينا يبدو أن الطاعون قد اختفى من سورية في العصر العباسي فإن البلاد في أواسط القرن التاسع عانت من عدة هزات أرضية عنيفة ، وفي عام ٨٣٥ دمرت انطاكية تقريباً ، وفي عام ٧٤٧ امتدت حركة الزلازل من دمشق إلى انطاكية وفي عام ٨٤٨ حدثت هزة أخرى في دمشق ، في عام ٨٣٥ عانت طبرية من هزة أرضية وفي عامي ٨٥٦ و ٨٥٩ عانت سورية بأكملها[٢٤] من حدوث مثل هذه الهزات ، ومن المنطقي ان نفترض أن الاوبئة في العصر الاموي والزلازل في العصر العباسي أدت إلى بطء في الزيادة الطبيعية لسكان سورية .

ولوحكمنا من المنطقة المأهولة في المدن السورية في هذه الفترة فعلى المرء ان يستخلص ان البلاد لم يكن فيها مدن كبيرة حقاً ، فحلب غطّت مساحة ٥٦ هكتاراً (التي يمكن أن تضاف اليها مساحة القلعة البالغة ½ ٥ هكتاراً) وغطت دمشق مساحة ١٢٥ هكتاراً أو أنها مع ضواحيها غطّت مساحة ١٣٣ هكتاراً . وبالتالي فإن عدد سكان هاتين المدينتين لا يمكن أن يتجاوز ١٠,٠٠٠ ـ ٢٠,٠٠٠ نسمة لكل منهما .

يمكن ان يبلغ عدد سكان سوريا ايام الفتح العربي حوالي ٣ ـ ٣,٥ مليون نسمة ، وهناك سبب وجيه للاعتقاد بان العدد لم يتزايد كثيراً في العصر الاموي بسبب الاوبئة والحروب ، كما ان التزايد كان بطيئاً ومنتظماً في العهد العباسي[٢٥] .

وبدراسة المعطيات غير المؤكدة حول سكان مصر في عهد الخلفاء الامويين والعباسيين الاوائل يصل المرء الى نتائج مشابهة : هناك ازدياد مستمر في عدد السكان ، وبعد الفتح مباشرة بدأت هجرة مستمرة من القبائل العربية بعشائر كبيرة

وصغيرة ، ومن جهة اخرى كانت مصر ـ خلال حكم الخلفاء الامويين ـ خالية من الحروب الاهلية والثورات التي يمكن ان تودي بحياة الكثيرين ، وحتى الجائحات التي تذكرها المصادر العربية قليلة العدد ، فوفقاً للمؤرخين العرب حدثت خلال هذه الفترة جائحات من الطاعون في الاعوام ٦٨٦ و ٦٨٠ - ٦٩٠ و ٧٠٤ و ٧٥١ و ٨٣٢ ، ومن جهة اخرى فان حركة التمدن في مصر كانت اقل بروزا منها في العراق، فالعاصمة الجديدة الفسطاط لم يصل عدد سكانها إلى ١٠٠,٠٠٠ نسمة[٢٦] . ولكن المدن الصغيرة ازدادت نوعاً ما باستمرار بامتصاصها الفلاحين الهاربين والعبيد .

وادى النمو الديمغرافي الذي كان ظاهرة رئيسية في الحياة الاجتماعية في امبراطورية الخلفاء الى ارتفاع في الاسعار والرواتب وتشير النصوص الكثيرة في كتابات المؤلفين العرب القدماء والمعلومات المتجمعة من اوراق البردي والمصادر الاخرى الى هذه الحقيقة ، ورغم ان ذلك شكل ظاهرة عامة في الحياة الاقتصادية في الشرق الادنى في هذه الفترة ، فانها لم تبرز بنفس النسبة في الاقطار المختلفة . وبما ان وقتاً طويلاً قد مضى قبل ان تشكل هذه الاقطار وحدة اقتصادية واحدة فان ارتفاع الاسعار بدأ في بعض الاقطار قبل الاخرى ، وليس هناك اي شك في ان هذه الظاهرة كانت نتيجة لعدة اسباب تختلف اهميتها من مكان لآخر ، وفي فترات متعاقبة. وبالتأكيد فإن الارتفاع في أسعار القمح سببه التداول الواسع للنقود الذهبية ، وكذلك الازدياد الديمغرافي ، وقبل كل شيء حركة التمدن المستمرة ، التي تعني ازدياد اعداد المستهلكين ، كل هذه تعتبر اسباب اخرى لهذه الظاهرة .

لا بد ان اسعار المواد الغذائية في سورية ارتفعت كثيرا منذ العقد الثاني من القرن الثامن لان مؤلفاً عربياً قديماً موثوقاً يذكر كيف اتى الناس الى الخليفة عمر الثاني (٧١٧ ـ ٧٢٠) يشكون المجاعة . وهناك شكاوى اخرى في اوراق البردي العائدة لنفس الفترة .

ويبدو ان اسعار القمح في العراق ارتفعت باستمرار تقريباً منذ بداية العصر العباسي ، وحسب رواية ديونيسيوس التلمحري بلغ السعر التجاري لكمية ٣٠ - ٤٠ جريب من القمح في العراق الاعلى في سبعينات القرن الثامن مبلغ ٢ دينار ،

وهذا يعني ان ثمن كل ١٠٠ كغ هو ٠,١٢٥ دينار ، ويمكن ان تكون الاسعار في العراق الاسفل اكثر ارتفاعاً ولكن ليست لدينا سجلات من تلك الفترة .

تدل الروايتان من القرن العاشر بوضوح على ارتفاع الاسعار المستمر ، فرواية قدامة بن جعفر الذي كتب في الربع الاول من ذلك القرن تقول ان معدل سعر ١٠٠ كغ من القمح في جنوب ما بين النهرين هو ١,٣٦ ديناراً ، بينما يروي الجغرافي ابن حوقل انه عندما زار جنوب ما بين النهرين في عام ٩٦٩ بلغ سعر نفس الكمية ١,٥١ ديناراً ، ومن المؤكد ان هذه اسعار الجملة ، ولا نعرف مبلغ ارباح تجار المفرق .

اما بخصوص اسعار القمح في مصر فتزودنا اوراق البردي والمصادر الاخرى بالكثير من التفاصيل . وهي مبينة في الجدول التالي :

أسعار القمح في مصر في عهد الخلفاء

التاريخ	ثمن الأردب (= ٦ ويبة)
٦٩٩	$\frac{١}{٨}$ دينار
٧٠٦ - ٧٠٧	$\frac{١}{١٢}$ دينار
٧٠٩	$\frac{١}{١٣}$ دينار
٧١٤	سعر منخفض جداً $\frac{١}{٢٥}$ دينار
٧١٥	$\frac{١}{١٠}$ دينار
٧٤٣	$\frac{١}{١٤}$ دينار - ثم ندرة: ١ مُدّ $\frac{١}{٢}$ دينار
القرن الثامن	$\frac{١}{١٠}$ دينار
بداية القرن التاسع	١ اردب + $\frac{١}{٢}$ ٢ ويبة = ١ دينار
القرن التاسع	$\frac{٢}{٣}$ ١ اردب = ١ دينار
القرن التاسع	٣ اردب + ١ - ٢ ويبة = ١ دينار
القرن التاسع	$\frac{١}{٢}$ ٢ - $\frac{١}{٣}$ ٣ اردب من أفضل الأنواع = ١ دينار
القرن التاسع	٢ اردب + $\frac{١}{٤}$ ويبة = ١ دينار
القرن التاسع	٢ اردب = ١ دينار

يرينا هذا الجدول بوضوح أن ثمن الاردب (على ما يبدو ١٠٩,٦٨٧٥ كغ) في القرن الثامن ١/١٣ - ١/١٠ دينار بينما ارتفع في النصف الأول من القرن التاسع إلى ١/٤ - ١/٢ دينار . وبالتالي فإن متوسط سعر المائة كيلوغرام من القمح هو ٠,٠٧٥ ديناراً في القرن الثامن وأكثر من ٠,٣ دينار في النصف الأول من القرن التاسع ، ويرتبط هذا الارتفاع الحاد في الأسعار في النصف الأول من القرن التاسع بالثورات والحروب الأهلية ، ولذلك كان إلى حدٍ ما ظاهرة مؤقتة لأن الاحصاءات التي ظهرت حتى الآن تظهر الفرق بين ارتفاع أسعار الحبوب في العراق ومصر . والارتفاع (فيما يختص بهذا الاتجاه الدنيوي) أقل بكثير من مصر لأن من المرجح أن العملة الذهبية في ذلك النظام النقدي لم تكن بدعة ، ولأن ازدياد السكان محدود .

وكما يحدث غالباً ، كانت الأجور متخلفة جداً وترتفع بدرجة أقل من أسعار الأطعمة والسلع الأخرى ، ففي العراق كسب الحرفي الماهر كالخياط أو البناء في النصف الثاني من القرن الثامن حوالي ٥ - ٦ دنانير في الشهر وهو أجر مرتفع نسبياً ، أما بالنسبة لأجور العمال المياومين البسطاء فإننا نجد بعض الاحصاءات من نهاية القرن الثامن والقرن التاسع . وطبقاً للمصادر المختلفة كسب البناء في أيام هارون الرشيد ١,٥ دينار في الشهر بينما كسب الطباخ الماهر في بيوت الأغنياء في النصف الأول من القرن التاسع ديناراً واحداً بالإضافة إلى مخصصات الطعام ، ولكن بالرغم من الارتفاع المستمر في تكاليف المعيشة لم يكن كسب الزجّاج في النصف الثاني من القرن التاسع أكثر من ١,٣ - ١,٥ دينار في الشهر .

في النصف الأول من القرن الثامن كان الأجر الشهري للعامل المياوم ١/٢ - ٣/٤ دينار . وطبقـاً لأوراق بردي أفروديت التي يعود تاريخها إلى تلك الفترة بلغ أجر العامل في كروم الخليفة في الفسطاط ٥/٦ دينار في الشهر والعامل في إصلاح السفن ٣/٤ دينار ، والعمال المصريين المستخدمين في بناء الجامع الكبير في القدس ٧/١٢ - ٢/٣ دينار ، ولكن الصناع المهرة في نفس الفترة كانوا يكسبون ٢ ١/٤ دينار وبلغت أجور النجارين الشهرية ١ ١/٤ أو ١ ١/٣ أو ٢ ١/٢ دينار ، كما بلغت أجور الحر في الخبير في بناء السفن دينارين شهرياً وأجور عامل القلفاط الشهرية ١ ١/٢ دينار والحداد ١ ٢/٣ - ١ ٣/٤ دينار ، ولكن في العقد الرابع من القرن

التاسع عندما ارتفعت الأسعار كثيراً أصبح عمال النسيج في مصر السفل لا يحصلون على أكثر من $\frac{3}{4}$ دينار ، وفي بداية القرن العاشر كان الأجر العادي للعامل المياوم على مايبدو ديناراً واحداً[٢٧] .

وهكذا فإن التضخم المالي والازدياد السكاني أدّى إلى تدهور أحوال العمال .
ولكن معظم الاحصاءات التي يجدها المرء في المصادر المختلفة تشير إلى الحد الأدنى للأجور ، وهناك أسباب وجيهة تدعونا إلى الاعتقاد بأنها أكثر بحدة ـ كما هي الحال دائماً ـ من أجور العمال المهرة .

والسؤال هو لماذا تحسنت الأحوال الصحية العامة في العصر العباسي ، وبالتالي تناقصت جوائح الأوبئة رغم ارتفاع الأسعار وتناقص الأجور الحقيقية .
بامكان المرء أن يفترض أن معدل الوفيات في العصر الأموي كان مرتفعاً جداً ، وأن بعض التحسّن قد طرأ في العصر العباسي ، ومن المرجح أيضاً أن نمو المدن كان بطيئاً جداً في تلك الفترة فالبصرة والكوفة أصبحتا مدينتين كبيرتين في وقت قصير بينما تنامت بغداد على ما يبدو على حساب المدن الأخرى ، وبالاضافة إلى ذلك على المرء ألا ينسى أن حروب الفتح ساعدت على انتشار الأوبئة .

د ـ التقدم التكنولوجي : ترافقت حالة ازدهار اقتصاد الشرق الادنى في ظل الخلفاء العباسيين الأوائل ، ونمو الكثير من المدن إلى حد كبير مع الكفاءة الصناعية ، فلقد حسّن المسلمون أساليب الانتاج في المنشآت الصناعية التي ورثوها عن الحكام السابقين من الفرس والبزنطيين ، وطوروا فروعاً جديدة من الصناعات القديمة ، وأوجدوا صناعات جديدة ، ويجدر بنا أن نؤكد أن التقدم التقني قد حدث ـ على نقيض أفكار إحدى المدارس الاقتصادية ـ في وقت كانت فيه/ القوة العاملة رخيصة والعبيد كثيرين .

وكما هي الحال في كل مكان في العصور الوسطى فإن الصناعات النسيجية في الشرق الأدني كانت هي أهم الصناعات على الاطلاق ، فصناعة الكتان القديمة في مصر حافظت على سمعتها القديمة في ظل الحكم الاسلامي واكتسبت أسواقاً جديدة . في المراكز الصناعية في مصر السفل في مدن التينة ودمياط ودبيق وشطة وبور

والدمير وتونا وعبوان وديفو ، كانت تصنع أنواع مختلفة من الكتـان . . وتخصص بعض الصناع في إنتاج الكتـان الأبيض ، بينا تخصص الآخرون في المنسوجـات الملونة أو الكتان المقصّب ، وكانت المنسوجات الكتانيـة الناعمـة المسماة بالشارب والقصب ذات شهرة عالية ، كما أن المنسوجات المطرزة بالذهـب والموشاة التي أنتجتها الاسكندرية نفيسة جداً . وتعتبر منطقة الفيوم ومدن بهنسا وأخمين في مصر العليا مراكز أخرى لانتاج الكتـان ، ولـكن مصر كانـت تنتـج أيضاً المنسوجـات الصوفية الشهيرة بجودتها ، يقـول كاتـب عربـي من القـرن التاسـع أن أحسـن الملبوسات الصوفية كانت تأتي من مصر . وتم تصدير الصناعات النسيجية المصرية إلى بلدان كثيرة أخرى ، وتدل النصوص العديدة في مؤلفات الكتاب العرب القدماء على مدى تقدير هذه المنتجات في العراق وغيره[٢٨] .

كما ان سورية والعراق اشتهرتا بالصناعات الحريرية ، ففي سورية وفلسطين كانت اشهر المراكز دمشق وعسقلان وغزة . اما حلب فقد انتجت الملبوسات القطنية وانتجت طبرية السجاد وقامت في بعض قرى الجليل صناعة منزلية لانتاج الانواع المختلفة من النسيج ، وقد اشتهرت الصناعات الحريرية المختلفة في العراق مثـل «الصقلطون الصقلي» وهو الحرير الموشى بخيوط الذهب والانواع الاخـرى والخز والاطلس التي اشتهرت بجودتها ، وتمركزت اشهر الصناعات الحريرية في العراق في بغداد والبصرة والكوفة ، كما تركزت في بغداد ايضاً صناعـة النسيـج القطنـي وخصوصاً نسيج العتابي الذي اشتهر في كل مكان ، وانتجت واسط الستائر ، كما انتجت منطقة ميسان في جنوب شرقي العراق السجاد واشتهرت تكريت بصناعـة النسيج الصوفي الممتاز . ونشأت في منطقة ما بين النهرين ـ الموصـل ونصيبيـن ـ مراكز النسيج الكبرى التي انتجت مختلف انواع الملابس والستائر والسجاد ، وقد تم تصدير منتجات الصناعات النسيجية في العراق وشمال ما بين النهرين الى كل انحاء العالم الاسلامي[٢٩] .

وبما ان الكثير من هذه الصناعات (وبصورة اكثر دقة معظم تلك الصناعات التي لم تتمركز في المدن التي انشأها العرب) قامت قبل الفتوحات الاسلامية بزمن طويل ، فان بنيتها على الأرجح بقيت بدون تغيير . وقامت في المراكـز الصناعيـة

الكبرى المصانع الملكية التي يسميها العرب الطراز ، التي كان الغرض منها تزويد الحكومة بالبضائع . كما قامت صناعات خاصة مزدهرة في مناطق متعددة في كل من المدن والقرى ، والسمة البارزة في البنية الصناعية في الامبراطورية الاسلامية هي ان معظم العمال كانوا رجالا احرارا اي ان اليد العاملة لم تكن من العبيد[٣٠] .

كان التقدم الكبير في الصناعات النسيجية في عهد الخلفاء نتيجة اكيدة لتوحيد بلدان كثيرة في امبراطورية كبيرة اصبحت بالتدريج وحدة اقتصادية هائلة ، واصبح في عهد الخلفاء توريد المواد الاولية اسهل مما كان في السابق ، نظراً للوصول الى المواد الاولية في المناطق النائية ، اذ امكن استعمال الصّوف المغربي في صناعات مصر ، كما تم تصدير الصوف الارميني الشهير للاستعمال في مناطق اخرى ، كما ان امكانية الحصول على الاصبغة من المناطق المتعددة والنائية في امبراطورية الخلافة ، مسألة تساويها في الاهمية في عصر احب الناس فيه ارتداء الملابس المزركشة ، والزعفران ـ الصباغ الذي ازداد الطلب عليه . اصبح بالامكان الحصول عليه من عدة مناطق في فارس حيث يتوفر باصناف ممتازة ، كما ان زعفران اصفهان وهمدان وروزوار ونهاوند وبرجيد صدّر الى مناطق كثيرة من الامبراطورية الاسلامية . وكان زعفران طبرستان لا يقل جودة عن هذه الاصناف ، واستورد الصباغ القرمزي الذي اشتهر من اجله السجاد الارميني من بلاد فارس الغربية والعراق ، وقد استخدم هذا الصباغ ايضاً في صناعة النسيج في مصر ، وامكن الصناعات النسيجية في الشرق الاوسط استخدام صباغ شجرة البرازيل الاحمر المستورد من الهند ، وصباغ النيلة المستورد من منطقة كرمان في جنوب ايران وبعض مناطق المغرب ، صدّر الشّب المستخدم لتثبيت الالوان وهو انتاج مصري الى كثير من البلدان الاخرى[٣١] .

ادى النشاط التجاري الكبير بين البلدان الاسلامية الى تبادل المعرفة او ـ بصورة ادق ـ الى تقليد الاساليب الصناعية ، فالصناعة النسيجية المزدهرة في خوزستان بدأت بتقليد المنسوجات المصرية كالتي تصنع في دبيق ، وفي المقابل تم تقليد صناعة الستائر والسجاد الارمينية في اشمونين في مصر العليا ، كما ان الصناعة الحريرية في المدن العراقية التي انشأها العرب كالبصرة والكوفة وبغداد تأثرت بكل تأكيد بالاساليب الصناعية في جنوب غرب ايران من حيث قدم معظم سكانها ، كما

استخدمت الصناعة النسيجية في اعالي ما بين النهرين بكل تاكيد الاساليب الارمينية[٣٢] .

ويمكن استخلاص نفس النتائج من الاحصاءات التي تخص صناعة الزجاج في الشرق الاوسط خلال العصر العباسي . ففي العراق واعالي ما بين النهرين ازدهرت صناعة الزجاج منذ الالف الرابع والثالث قبل الميلاد ، اذ وجدت الارشادات الخاصة بصناعة الزجاج في النصوص المسمارية التي تعلمنا ان صانعي الزجاج في بلاد ما بين النهرين القديمة بنوا الاتونات المختلفة ، واستعملوا المنافيخ للحصول على درجات الحرارة العالية ، كما انهم طوروا الاساليب الخاصة بتبريد الزجاج بعد خروجه من الفرن للحصول على زجاج شفاف وزجاج كما ان صناعة الزجاج قامت في سورية وفلسطين منذ اقدم العصور باستعمال السيليكات المستخرجة من رمال الشاطىء الحصوية البيضاء ، وكانت في مصر الاسكندرية وبعض مناطق جنوب القاهرة الحالية مثل مدينة الفيوم والاشمونين مراكز رئيسية لصناعة الزجاج ، مرد النوعية الجيدة للزجاج المصري بالتأكيد للقلويات الموجودةفي البحر المالح أو وادي النطرون. ونشأت بعد الفتح الاسلامي صناعة الزجاج في الفسطاط والمدن الاخرى ، واصبحت في العراق البصرة مركزاً رئيسياً لصناعة الزجاج ، ويمدنا الكتاب العرب القدماء بالكثير من التفاصيل المتعلقة بانواع الزجاج والاواني الزجاجية التي انتجت في الشرق الادنى ، كما تؤكد الاكتشافات الاثرية معلوماتهم . فصناع الزجاج في امبراطورية الخلافة صنعوا الزجاج الشفاف والزجاج الغبش والزجاج المطلي بالمينا والمعجون الزجاجي المؤلف من الزجاج الملون والاواني الزجاجية المغطاة بالذهب والزخارف الاخرى ، ويثني احد الكتاب الصينيين على جودة الزجاج الغبش في الشرق الاوسط بقوله انه يصنع من حرق اكسيد الرصاص ونترات البوتاس والجص ، وقد اضاف صناع الزجاج في الشرق الاوسط الى هذه المواد مادة البورق التي جعلت الزجاج مرناً ولايتأثر بالحرارة .

استنتج المختصون الذين درسوا طراز المنتجات الزجاجية المصرية التي يعود تاريخها الى القرنين التاسع والعاشر ان صناعة الزجاج في ذلك البلد كانت في تلك الفترة متأثرة الى حد بعيد بالاساليب المستخدمة في المصانع في العراق ، تظهر

البلورات المزخرفة المصنوعة في مصر في العصر العباسي هذه المؤثرات بوضوح تام ، اما فيما يختص ببعض انواع الزجاج الاخرى فان المصانع المصرية بالتأكيد اثرت على صناعات العراق ، اذ ان الاواني الزجاجية المكتشفة في سامراء تظهر التأثير المصري او حتى انها تدل على ان الزجّاجين المصريين استدعوا الى مقر الخلفاء الجديد .

ليس هناك اي شك في ان صناعة الزجاج في تلك الفترة تعتبر قطاعا هاما من الصناعة في الشرق الاوسط وهي حقيقة تؤيدها اوصاف كثيرة لتصدير المنتجات الزجاجية إلى أقطار نائية ، ولذلك فإن حالة ازدهار هذه الصناعة مثال آخر على تأثير الفتوحات الاسلامية على اقتصاد البلدان التي توحدت تحت حكم الخلفاء[٣٢] .

ولكن بينما قامت هذه الصناعة وغيرها قبل الفتوحات العربية بزمن طويل ، فان استقدام صناعة الورق الى الشرق الاوسط انجاز ضخم حققه المسلمون ، وبالتالي فان استبدال اوراق البردي الغالية الثمن والسريعة العطب بالورق الصيني ، بدأ عصراً جديداً في حضارة العالم القديم .

والحقيقة الثابتة الآن هي ان انتاج الورق من الالبسة البالية وصل الى الامبراطورية الاسلامية على ايدي اسرى الحرب الصينيين الذين جلبوا الى سمرقند في عام ٧٥١، وعلم صناع الورق الصينيون هؤلاء المسلمين طحن الالياف النسيجية في الاجران الحجرية وطرق تحللها الكيميائي بالنقع ، وفوق ذلك نقلوا اليهم فن لصق الورق بالغراء النشوي ، او حشوه بالدقيق النشوي ، ومنذ ذلك الوقت قامت في سمرقند صناعة ورق شهيرة بيع انتاجها الى كل ارجاء العالم الاسلامي ، وقامت في نهاية القرن الثامن مصانع الورق في بغداد واشتهر الورق البغدادي بجودته ، وانتشرت صناعة الورق الى الجزيرة العربية حيث قامت المصانع في مناطق تهامة واليمن ، ومن إلى سورية ومصر ، وفي سورية تم تصنيع الورق في دمشق وحماة ومنبج اما في مصر ، فقد اصبحت الفسطاط ومدينة بورا الصغيرة مركزين لهذه الصناعة الجديدة ، والعدد الكبير نسبياً لصناع الورق الذين يدعون بالوراقين والكاغدين والقرطاسيين (وكلها تعني في الاصل صانع ورق البردي واصبحت مع مرور الزمن تعني صانع الورق) المذكورين ، او الذين ضمت سيرة حياتهم في مجموعات السير في تلك الفترة، لدليل أكيد على التطور العظيم لهذه

الصناعة الجديدة ، واصبح للمدن الكبيرة اسواق للورق حيث يأتي الناس لشراء الورق ونسخ الكتب . وعندما ظهرت مصانع الورق في كثير من البلدان ، واصبح الورق سلعة عادية ، تم انتاج اصناف كثيرة منه وتحسنت طرق انتاجه باستمرار ، وبينما انتجت في البداية الصفائح الصغيرة فقط ، انتجت فيما بعد الصفائح الكبيرة من مختلف المقاسات[٢٤] ، وقدمت انشاء صناعة الورق بالطبع فرص العمل للكثيرين وساهمت في تطور المدن ، كما انها روجت ايضاً مختلف فروع التجارة والمصارف ، لانها جعلت عمليات المحاسبة اسهل بكثير من ذي قبل .

٥ ـ التجارة الخارجية : من اجل تقويم مناسب لاهمية التجارة الخارجية في اقتصاد الامبراطورية الاسلامية على المرء الا ينسى ابداً أن الغالبية العظمى من سكانها عاشت في الريف ، وكسبت عيشها من الزراعة ، ولكن الفرق الكبير بين بنية المجتمع في الشرق الاوسط وبين بنيته في الغرب المسيحي في اوائل العصور الوسطى هو وجود الكثير من المدن الكثيرة السكان في الامبراطورية الاسلامية ، ولهذه المدن اهمية كبيرة في اقتصاد الامبراطورية ككل ، وخصوصاً لعلاقاتها التجارية مع الاجزاء الاخرى من العالم القديم .

هذه المبادلات التجارية متعددة الجوانب وذات طبيعة مختلفة جداً ، ورغم ان الامبراطورية البيزنطية كانت لمدة اربعة قرون العدو التقليدي للامبراطورية الاسلامية ، وان الحروب المتقطعة استمرت عبر العصور فان المسلمين مارسوا ايضاً التجارة المستمرة معها ، ويبدو ان طرابزون كانت المركز التجاري للامبراطورية البيزنطية حيث حصل التجار المسلمون على الجزء الاعظم من المنتجات الاغريقية والمطرزات والمواد الاخرى التي يرغبون في الحصول عليها[٢٥]

ولكن التجارة مع اقطار افريقيا الوثنية كانت اكثر اهمية لاقتصاد الشرق الاوسط الاسلامي . ومن المرجح انها كانت اكثر فروع التجارة الخارجية منفعة لعدة قرون ، لان المسلمين حصلوا على الذهب مقابل البضائع الرخيصة ، وكان سكان السودان الغربي بحاجة ماسة الى الملح ، ويتحدث احد المؤلفين العرب في القرن الحادي عشر عن القبائل التي بادلت الملح بوزنه ذهباً ، ويقول الجغرافي ابن حوقل الذي كتب في النصف الثاني من القرن العاشر ان سكان كوغا (وهي على ما يبدو

غونجيا) في شرق غانا يعتمدون بالكامل على حكام اودغشت حيث يستوردون الملح الذي يأتيهم من البلدان الاسلامية ، وفي رأي هذا المؤلف ان حملاً من الملح يجلب ٢٠٠ ـ ٣٠٠ دينار . ويذكر البكري من جهة اخرى واردات كوغا ـ وهي مدينة في غرب غانا ـ انها تستورد الملح والودع والنحاس ونبات الشبرم ، وتعتبر السلعة الاخيرة الاكثر اهمية ، ويصف البكري مدينة اودغشت بانها مركز تجاري في غرب السودان ، ويقول انها تستورد الحبوب والفواكه والزبيب ويضيف بان ثمن كل قنطار من القمح يبلغ ٦ مثقالات ، كما يقول ايضاً بانهم يستوردون الملابس والاواني النحاسية ، وفي مواضع أخرى يذكر البكري أيضاً استيراد الملح إلى غرب السودان حيث يأتي قسم منه من المغرب ، بينما يأتي القسم الاخر من الشرق الادنى ، وفي راي البكري ان الملح يستعمل في بعض الاماكن كنقود ، وبما ان تجارة الذهب في هذه المنطقة لم تتغير على الارجح طيلة قرون عديدة فبامكان المرء ان يستشهد بالمؤلفين اللاحقين الذين يذكرون ان المسابح ، احدى السلع التي كثر طلبها في غرب السودان ، وبالتالي استوردها التجار المسلمون ، وهكذا فان التجار المسلمين بادلوا الملح والمسابح والاواني النحاسية والسلع الرخيصة الأخرى بالذهب وبالتأكيد بالعبيد ، وفي فترات لاحقة ربما شغلت الاقمشة المصرية دوراً كبيراً في واردات غرب السودان[٣٦] .

ولا بد ان نشاطات المسلمين التجارية كانت شديدة في غرب السودان ، لان المؤلفين المسلمين في القرنين العاشر والحادي عشر يذكرون وجود مناطق اسلامية في المدن الرئيسية يتألف سكانها على الارجح من تجار شمال افريقيا ومصر ، وتواجدت مثل هذه المستوطنات التجارية في غانا وكوغا والكاو كاو (الغاو على نهر النيجر) . ويقول البكري صراحة في وصفه لمدينة اودغشت ان المرء يجد نفس المجموعات السكانية في كل مدينة اسلامية كبيرة[٣٧] .

ورغم ان تجار المغرب شغلوا دوراً كبيراً في تجارة السودان ، يجب على المرء ان يأخذ بعين الاعتبار ان الكثيرين منهم كانوا مجرد وكلاء للتجار المصريين ، وان الطريق عبر الصحراء على الارجح كان تحت سيطرة التجار المصريين الى حد كبير .

اما بخصوص التبادل التجاري بين امبراطورية الخلافة وغرب السودان فهناك سبب وجيه للاعتماد على شهادات المؤلفين اللاحقين ، لان العلماء مجمعون تقريباً

على وجود القليل من المبادلات التجارية طيلة فترات طويلة على هذا الطريق الطويل ، ولكن تاريخ العلاقات التجاري بين الشرق الادنى وغرب اوروبا موضوع جدل حاد منذ ان تقدم المؤرخ البلجيكي هـ . بيرين بمقولته .

ففي راي بيرين ان فتح سواحل البحر المتوسط الافريقية والاسبانية ، والنشاطات البحرية للمسلمين ، وفيما بعد احتلال الجزر الكبيرة وسط هذا البحر الداخلي ، ذات نتائج هامة على الحياة الاقتصادية لكل المناطق المجاورة ، فقد كان البحر المتوسط لقرون كثيرة نوعاً من القناة التي تمر عبرها البضائع والافكار من الشرق الادنى الى اوروبا وبالعكس ، ولم تغير هجرات القبائل الجرمانية واحتلالهم لقسم كبير من الامبراطورية الرومانية من تركيبتها الاجتماعية ، فالجرمانيون فرضوا انفسهم فوق التركيب الهرمي الاجتماعي القديم ، وسرعان ما ذابوا داخل السكان الاصليين ، وبالتالي فان هذه الاقوام المتنقلة لم تسبب اي انقطاع في تطور اوروبا الثقافي والاقتصادي ، مما يؤدي الى بداية عصر جديد ، ولكن عندما فرض العرب سلطانهم على سواحل البحر المتوسط الشرقية والجنوبية والغربية اصبح هذا البحر حدّاً فاصلاً بين حضارتين غريبتين ومتعاديتين ، وتجهل كل منهما الاخرى ، والبحر الذي كان في السابق بحيرة كبيرة قامت على شواطئها الحكومات والقوانين والدين واللغة الواحدة او المتشابهة اصبح مسرحاً للحروب البحرية والقرصنة ، واختفت التجارة بالكامل تقريباً من البحر المتوسط خلال القرن الثامن ، واصبح من النادر ان تجد التوابل والاقمشة الحريرية النفيسة والسلع الشرقية الاخرى في اوروبا الغربية ، وفوق هذا كله فان المدن القائمة على التجارة الخارجية اختفت معها ، ولم يعد حكام اوروبا الغربية يضربون العملات الذهبية نظراً لعدم الحاجة اليها ، وحل عصر الضياع ذات الاكتفاء الذاتي ، ومع تتويج شارلمان في عام ٨٠٠م بدأت رسمياً مرحلة العصور الوسطى وعصر الاقطاع .

وواجهت مقولة بيرين نقداً شديداً ، وجمع الكثير من علماء التاريخ الاوروبي نصوصاً كثيرة تثبت ان الفتوحات الاسلامية لم تؤد الى انقطاع تام في المبادلات التجارية بين الشرق الادنى والغرب المسيحي[٣٨] ، ولكن المستشرقين قلما عالجوا المسائل التي اثارها بيرين ، رغم ان المصادر الشرقية تحتوي على المواد الكثيرة

التي يمكن باللجوء اليها البرهنة على افكار المؤرخ البلجيكي او دحضها ، وتقدم المصادر الاغريقية والعربية واللاتينية لنا الاحصاءات التي ترينا انه بالرغم من الحروب المتعددة بين المسلمين والبيزنطيين ، فان التجارة البحرية استمرت بين هاتين الامبراطوريتين ، فطبقاً للمصادر اللاتينية كانت السفن الاسلامية ترسو في الموانىء الايطالية الجنوبية في النصف الاول من القرن الثامن ويسرد لنا راهب فرنجي كيف انه ركب مع اثنين من اصدقائه في عام ٨٧٠ من ميناء باري متن سفينتين تحملان عدداً كبيراً من الأسرى المسيحيين إلى مصر ، ليباعوا عبيداً ، ويقول أن السفن الأخرى التي تحمل المزيد من الاسرى ابحرت إلى طرابلس ، وفي الحقيقة ليس هناك أي شك في أن التجارة خلال هذه الفترة استمرت بين المدن المسيحية في جنوب ايطاليا ، والموانىء الاسلامية في شمال افريقيا .

ولكن الصورة التي ترتسم للاحوال في البحر المتوسط من كتابات المؤلفين العرب ، هي الوضع الذي جعل من المستحيل استمرار التجارة الواسعة المنتظمة بين المرافىء الاسلامية في الشرق الادنى والاقطار البيزنطية والغربية ، فلقد شن البيزنطيون الحملات البحرية المرة تلو الاخرى ضد الموانىء الاسلامية ، اذ هاجموا دمياط في عام ٧٠٩ وعام ٧٣٩ ، ومرة ثالثة اثناء الحرب الاهلية بين الامين والمامون ، وساءت الاحوال في البحر المتوسط كثيراً في النصف الاول من القرن التاسع ، ففي عام ٨١٤ احتلت مجموعة من المسلمين الاسبان الاسكندرية ، وجعلتها قاعدة لنشاطاتها الشديدة في القرصنة ، وفي عام ٨٢٧ غادرت الاسكندرية الى جزيرة كريت ، ومنها هددت السفن والموانىء المسيحية بدرجة اكبر ، وفي هذه الاثناء شن حكام تونس المسلمون هجوماً كبيراً على صقلية ـ مركز القوة البحرية البيزنطي وسط البحر المتوسط ـ وفي عام ٨٣١ احتلوا بالرمو ، خلال العشرين سنة التالية لاقى المسلمون نجاحات عظيمة ، ففي عام ٨٣٨ تم فتح برنديزي ، وفي عام ٨٤١ تم فتح باري ، واستمر احتلالها ٣٠ سنة ، وفي عام ٨٤٣ فتحت مسينا ، وبدأ بعد ذلك هجوم معاكس قام به البيزنطيون الذين نزلوا على شاطىء سورية الشمالية ، احتلوا دمياط في عام ٨٣٥ ، واحتلوها ثانية في عام ٨٥٩ ، ويبدو ان هذه الحملات جلبت الدمار لهذه المدن ، والمدن الساحلية المصرية الاخرى ، ولكن في خلال الثلث الأخير من القرن التاسع كانت للاسطول الاسلامي اليد العليا في هذه

الحرب البحرية الطويلة ، ففي ظل القيادة العظيمة لاميرالين عظيمين - ليون الطرابلسي ويزمان الطرسوسي - هزم الاسطول الاسلامي البيزنطيين مرات عديدة ، وفي عام ٩٠٤ نهبوا ميناء سالونيكا ، وثار البيزنطيون لهزيمتهم باحتلال قبرص ، وشن هجوم جديد على شمال سورية ، ولكن الاميرال المسلم داميان ، هزمهم ثانية في عام ٩١١ وفي عام ٩١٥ .

ولدى تجميع هذه الروايات للحملات البحرية المتعددة ، يميل المرء لتصديق قول الجغرافي العربي المعاصر بان السفن الاسلامية والبيزنطية هاجمت سواحل بعضها ، ونهبت المدن ، وحملت كثيراً من الغنائم ويضيف بانهم غالباً ما كانوا يجمعون ١٠٠ سفينة أو أكثر ، ويبلغ ون الحرب البحرية ، وهكذا سادت حالة حرب شبه مستمرة في شرق ووسط البحر المتوسط ، مما جعل التجارة المنتظمة بين الشرق الادنى وجنوب اوروبا مستحيلة لمدة ٢٥٠ سنة ، ويتحدث جغرافي عربي آخر من نفس الفترة عن السفن البيزنطية التي تكمن للمراكب التجارية العربية على سواحل سورية ومصر .

والتخلي عن المدن الساحلية المصرية والسورية كان في قسم منه نتيجة لهجرة الكثيرين من السكان[٩] الاغريق الذين ينتمي معظمهم بالطبع الى الطبقات العليا من المجتمع ، الذين رحلوا بعد الفتح الاسلامي الى المناطق التي بقيت تحت الحكم البيزنطي ، وبالطبع كان الكثيرون من التجار بين هؤلاء المهاجرين ، وعندما أصبح عدم الاستقرار مزمناً على الشواطىء الشرقية للبحر المتوسط ، واصبحت التجارة مستحيلة ، بدا تدهور هذه المدن اكثر وضوحاً ، فلو كانت التجارة ممكنة لتمكن السكان الجدد الذين جلبهم الخلفاء الامويون الى الموانىء السورية من البدء بها من جديد ، ونظراً لخطورة هذه التجارة فان هؤلاء السكان هجروا المدن . حاول الخلفاء : معاوية وعبد الملك وهشام الابقاء على حياة هذه المدن ، وعلى الارجح لاسباب استراتيجية ، اعادوا بناء المناطق المتهدمة من صور وقيسارية وعكا ، ولكن جهودهم ذهبت سدى وعندما ترك البيزنطيون في عام ٧١٥ مدينة اللاذقية - وهي المرفأ الهام في شمال سورية - نهباً للنيران فانها بقيت خراباً لمدة ٦٠ سنة على الاقل ، تلقي المواد الوفيرة في مجموعات السير العربية في هذه الفترة الاضواء على احوال هذه المدن ، وفي الوقت الذي تحتوي فيه هذه المجموعات سير

كثير من الناس الذين غادروا العراق وايران منذ اواسط القرن التاسع الى المدن المزدهرة على الحدود البيزنطية ، والى مدن اواسط سورية ، والمستوطنات المدنية الكبرى في مصر ، فان عدد الذين اتوا للعيش في المدن الساحلية في سورية وفلسطين ، كان قليلاً جداً طبقاً لهذه المصادر(٣٩) .

وهكذا فان المستشرق يجد في مصادره نصوصاً كثيرة تبدو مؤيدة لمقولة بيرين في انقطاع التجارة الاجمالية المنتظمة في البحر المتوسط ، ولكن النصوص التي يستطيع العثور عليها تشير في معظمها الى النشاطات العسكرية وهي اوصاف نموذجية للمؤلفين في العصور الوسطى الذين لا يعللون تفوق المسلمين المذهل على الاسطول البيزنطي الحسن التدريب والتجهيز .

وحتى يصبح المسلمون نداً للبحرية البيزنطية ذات التجهيزات والاسلحة المتقدمة ، لا بد انهم بلغوا درجة كبيرة من التعادل التقني ، ولذلك فان المرء يجد شيئاً من الاقناع في نظرية عالم حديث تقول بان الاساطيل العربية كانت تستعمل ما يسمى بالشراع المثلث في البحر المتوسط في القرن التاسع ، هذا الشراع المثلث الذي يعلق طرفه الاعلى بعارضة طويلة ويركب مائلاً نحو مؤخرة السفينة تعتبر السيطرة عليه من ارض السفينة اسهل بكثير من الشراع المربع القديم ، وخصوصاً عندما تكون الريح خفيفة ، ويبدو ان البيزنطيين اخترعوا هذا الشراع ، ولكنه سرعان ما انتقل الى العرب(٤٠) .

ومهما يكن الامر فان انجازات العرب البحرية ، وحالة الحرب في البحر المتوسط ، ادت الى انقطاع التجارة العالمية ، ويعكس هذا الوضع ايضاً في فرع آخر من الادب العربي وهو المؤلفات الجغرافية البحتة ، فكتابات الجغرافيين العرب في القرن التاسع وبداية القرن العاشر تظهر جهلاً شبه تام بجغرافية اوروبا ، وحتى الشواطىء الاوربية للبحر المتوسط كانت مجهولة بالنسبة للجغرافيين العرب ، وهذا دليل واضح على غياب العلاقات التجارية ، فكتاب ابن خردا ذبه الذي الفه عام ٨٤٦ ، واضاف عليه حتى عام ٨٨٦ مثال جيد على معرفة العرب الجغرافية ، فبينا يتمتع هذا العالم بمعرفة جيدة جداً بجغرافية وادارة الامبراطورية البيزنطية ، ويتضمن كتابه فصولاً هامة عن الهند والصين ، فانه لا يعرف شيئاً عن الغرب المسيحي ، فمدينة نربون التي استولى عليها الافرنج في عام ٧٥٩ لا تزال بالنسبة له

مدينة إسلامية ، كما أن البحر التيراني لا يزال ينتظر من يستكشفه ، وهذا الجهل نفسه يظهر في كتاب جغرافية اليعقوبي الذي ألفه عام ٨٩١ ، وكتاب ابن الفقيه الذي يعود تاريخه إلى بداية القرن العاشر ، وكل الجغرافيين العرب في هذه الفترة يخلطون بين روما والقسطنطينية ويكررون القصص الاسطورية التي وجدوها في المصادر المنحولة ، ويكفي أن نستشهد بقول ابن الفقيه بأن بعد روما عن القسطنطينية هو رحلة سنة كاملة[١] .

ولكن جغرافية ابن خرداذبة تتضمن وصفاً لنشاطات مجموعة من التجار قامت بأعمال تجارية عالمية ، وهو الوصف الذي يحمل أهمية كبيرة بالنسبة لدراسة مقولة بيرين ، فحسب رواية ابن خرداذبة وجدت في أيامه مجموعة من التجار اليهود تسمى الراذانيه كانت تعمل في تبادل البضائع بين الغرب المسيحي والشرق الأقصى ، ويحدد المؤلف العربي الطرق المختلفة التي سلكتها الجماعة من مملكة الافرنج إلى الشرق الأقصى وبالعكس وسافر بعض هؤلاء التجار بحراً إلى مصر ، ومن ثم أبحر في البحر الأحمر إلى الهند . والبعض الآخر ذهب إلى سورية والعراق ثم ركب البحر في الخليج العربي ، والطريق الثالث يقود من اسبانيا إلى شاطىء شمال أفريقيا ، فمصر وعبر فلسطين وسورية والعراق ، وجنوب إيران إلى الهند وهو طريق بري من البداية إلى النهاية ، والتجار الذين اختاروا هذا الطريق حسب رواية ابن خرداذبة واصلوا رحلتهم براً إلى الصين ، والطريق الرابع بري أيضاً يقود من أوروبا الوسطى عبر روسيا إلى شمال إيران ، وبعدها عبر أراضي الترك إلى الصين ، وأثارت هذه الطرق بعض الأسئلة ، ولكن المهم بالنسبة لموضوعنا هو التركيز على السلع التي حملها الراذانية ـ حسب رواية ابن خرداذبة ـ من أوروبا إلى الشرق الأدنى ، ومن الصين والهند إلى منطقة البحر المتوسط[١] .

---

١ ـ يرى عدد كبير من الباحثين أن هذه العبارة لحقها تصحيف صوابها «الرهادرة» وكثيرا ما وقع ذكر الرهادرة في المصادر المبكرة ، خاصة في القيروان ، فقد كان لهم سوقهم ونشاطهم الواسع ، ولم يكن الرهادرة جميعاً من اليهود ، بل كان بعضهم من المسلمين ، ففي بقايا مقابر القيروان تم العثور على أسماء عدد من التجار الرهادرة ، وعبارة الرهادرة مازالت تستخدم في الدارجة في جميع مناطق الشمال الأفريقي بشكل متحول بعض الشيء «رهاطنه» وتعني الرجل القادر على جمع المال وحسن المتاجرة به .

يقول إنهم استوردوا من الغرب الخصيان والعبيد والأقمشة المطرزة والمقصبة والفراء والسيوف .

وتعتبر هذه البضائع كماليات نموذجية ، واستوردوا من الشرق السلع الغالية مثل المسك وخشب الألوة والكافور والقرفة . وهكذا نرى الراذانية يتاجرون بالسلع الغالية التي لا يقصد منها الاستهلاك الشعبي ، ومن المرجح أن تجارتهم لم تكن منتظمة ، وانهم مارسوها لأنهم لا ينتمون إلى العالم المسيحي والعالم الاسلامي ، ورغم وجود تجار آخرين عبروا الحدود ـ وهي تشبه إلى حد ما الستار الحديدي ـ الذي قام بين الامبراطورية المسيحية والدولة الاسلامية ، فإن وجود تجارة الراذانية يؤكد أنه لم تكن هناك تجارة منتظمة بين الحضارتين المتعاديتين .

ولكن الكثير من المؤرخين يعتقدون أن التجارة بين الدولة الاسلامية وأوروبا لم تنقطع ، ولكنها ببساطة غيّرت طرقها المألوفة ، ولذلك لا يمكن الحكم على مقولة بيرين بشكل صحيح دون جمع المعلومات التي يجدها المرء في المصادر الأدبية العربية حول أماكن تواجد هذه السلع ، التي أمكن استيرادها من أوروبا .

واحتل الفراء والعبيد المرتبة الأولى بينها ، أما ما يخص العبيد فإن الكثير من المواصفات لدى المؤلفين العرب في هذه الفترة يرينا بشكل مقنع أن الغالبية العظمى منهم جلبت إلى الشرق الأدنى من أفريقيا ، وروسيا والأقطار السلافية المجاورة وأواسط آسيا ، والحقيقة أن معظم هؤلاء العبيد كانوا زنوجاً وصقالبة وأتراكاً ، ويعزو الرواة إلى هارون الرشيد قوله أن عدد العبيد الزنوج في بغداد كان لا يحصى ، كما أن مجموعات قصص البحارة تتضمن أوصافاً للغارات التي قام بها صيادو العبيد المهرة من العرب في شرق أفريقيا ، من أجل الحصول على العبيد . وتشير النصوص القضائية للفقهاء اليهود الذين عاشوا في تلك الفترة في العراق أيضاً إلى الأصل الأفريقي لمعظم العبيد . وعمل هؤلاء كخدم في المنازل ، بينما كان غالبية العبيد الذين سيقوا للخدمة العسكرية من الأتراك . ولكن يبدو أن بعض التغيرات طرأت في بداية القرن العاشر ، فبينما كان معظم عبيد المنازل في القرنين الثامن والتاسع من الزنوج والخصيان الإغريق ففي القرن العاشر تم استيراد كثير من العبيد الأتراك والصقالبة إلى الشرق الأدنى . واستيراد الخصيان من اسبانيا ، ولما

كانت نوعية مختلف أنواع الفراء قد ناقشها الكتاب العرب القدماء مراراً فلدينا معلومات وفيرة عن منشئها ، فحسب رواية مؤلف موثوق في القرن العاشر نجد أن أغلى الفراء هي المستوردة إلى الشرق الأوسط من مناطق بحر قزوين ، وخوارزم ، وأن استيراد الفراء الروسية بدأ قبل ذلك بوقت طويل ، وقد تطور كثيراً في القرن العاشر .

وباختصار يجد المرء نفسه أمام كل النصوص التي تشير إلى التجارة الخارجية للدولة الاسلامية في فترة الخلفاء العباسيين الأوائل مضطراً للاستنتاج أن بيرين محق بالافتراض بأن هناك انقطاع شبه تام للمبادلات التجارية بين الشرق الأوسط والغرب المسيحي دام أكثر من ٢٥٠ سنة .

ترينا معلومات الكتاب العرب عن منشأ العبيد والفراء بأن الطرق التجارية لم تتغير ، قبل منتصف القرن العاشر حيث كانت هناك التجارة قليلة بين الشرق الأوسط الاسلامي والغرب المسيحي .

ومن جهة أخرى فإن التبادل التجاري بين الشرق الأوسط والهند وما وراء النهر لم تنقطع أبداً رغم تغير حجمها وطبيعتها من وقت لآخر . فتجار فارس وتجار عُمان حيث كان سكان المدن خليطاً من العرب والفرس نشطوا في حقل التجارة مع الهند أثناء حكم الخلفاء الأمويين والعباسيين . وكانت عُمان في العصر الأموي على ما يبدو المركز الرئيسي لهذه التجارة البعيدة ، ترينا النصوص العربية التي تشير إلى هذه الفترة وجود البضائع الهندية مثل الأسلحة والدروع وخشب التك ، ووصلت السفن الهندية والصينية إلى الخليج العربي كما وصل التجار المسلمون إلى الهند ففي حوالي عام ٧٠٠ وجدت محطة تجارية إسلامية في سيلان ، وفضلاً عن ذلك حدث تغيّر كبير في التجارة مع الشرق الأقصى بعد الفتوحات الاسلامية ، وإذا كانت سيلان في السابق مركز لقاء تجار الشرق الأوسط وتجار الصين ، فإن ما حدث بعد ذلك أن قام التجار المسلمون بنشاط كبير في الصين نفسها .

ويتحدث المؤلف الصيني ي ـ تسينغ عن السفن الفارسية التي تصل كانتون في عام ٩٧١ ، كما أن المعلم البوذي فاجرا بادي رأى في سيلان في عام ٧١٧ مالا يقل عن ٣٥ سفينة فارسية أبحرت إلى كانتون ، ويقول حاج بوذي آخر ـ هوي شاد ـ في

عام ٧٢٧ أن الفرس كانوا يأتون إلى الصين لشراء الحرير ونجد في المصادر العربية اللاحقة أسماء بعض المتاجرين مع الصين في أواخر العصر الأموي ، من هؤلاء التجار أبو عبيدة عبد الله بن القاسم ، وهو خارجي إباضي ، ولابد أن عدد المسلمين في المراكز التجارية الصينية قد تزايد باستمرار ، لأن أحد الكهنة الصينيين لاحظ في عام ٧٤٨ وجود قرية يسكنها الفرس في جزيرة هاينان ، كما وجدت مستوطنة للتجار المسلمين في خانفو ، وفي عام ٧٥٨ شارك التجار العرب في كانتون في الحرب الأهلية وبعد ستين قيل أن عدد قتلاهم بلغ ١٠٠٠ شخص .

وبالرغم من الأوصاف العديدة للنشاطات التجارية للمسلمين في الشرق الأقصى في العصر الأموي ، فعلى المرء ألا ينسى أنه عصر فتوحات وحروب أهلية ، وأن العرب لم يعتادوا بعد رفاهية العيش ولم يكن هناك بعد طلب كبير على السلع الهندية والصينية النفيسة ، ولكن يبدو أنه كان للأمويين مصلحة كبيرة في إقامة علاقات طيبة مع الصينيين ، لأنهم أرسلوا البعثات إلى أباطرتهم .

وبعد وصول العباسيين إلى عرش الخلافة بدأ عصر جديد من تاريخ التجارة الاسلامية مع الشرق الأقصى . فحياة الحكام الجدد المترفة التي قلدها الوزراء وكبار رجال الدولة الآخرون ، أصبحت تعني تزايد الطلب على العطور والسلع النفيسة الأخرى من الشرق الأقصى ، ولذلك تزايد حجم التجارة مع الهند والصين ، وقد نقلت التجارة براً وبحراً وان فضل النقل البحري فقد اعتبرت الطرق البرية من بلاد ما وراء النهر إلى الصين طويلة وصعبة ، بينما كان الطريق التجاري بين السند ـ وهي المنطقة الشمالية الغربية في الهند التي احتلها العرب ـ وشرق فارس نشطاً جداً ـ ومع ذلك فإن التجارة المحمولة بحراً من الهند والصين كانت هي الأهم ، ففي نهاية القرن الثامن عاد المسلمون إلى كانتون ، وازداد نمو التجارة مع الصين باستمرار ، وظهرت المستوطنات العربية في المدن التي لم يتواجدوا فيها سابقاً .

وأصبح العراق المركز السياسي والتجاري أيضاً للامبراطورية الاسلامية . وأصبح الخليج العربي الطريق الرئيسي للتجارة الهندية الواسعة . كما كان سابقاً أيام الساسانيين (قبل أن يحاول البيزنطيون في القرن السادس تحويله إلى البحر الأحمر) ، وصار ميناء البصرة (الأبلّه) نقطة البداية لهذا الطريق الرئيسي للتجارة العالمية في أوائل العصور الوسطى كما كانت سيراف ـ المدينة الساحلية في جنوب

غرب ايران ـ وصحار ومسقط في عُمان نقاط بداية أخرى ، وأبحرت بعض المراكب التجارية بمحاذاة الشواطىء الفارسية الجنوبية إلى موانىء الهند الشمالية الغربية ، بينما أبحرت المراكب الأخرى في عرض البحر إلى مالابار حيث كانت كولام وجهة معظم هذه المراكب ، ومنها تابعوا الرحلة بالابحار عبر مضيق بارك أو جنوب سيلان إلى جزر نيكوبار ، فالمرفأ الماليزي كالا وأخيراً كانتون ، أما التجارة مع سومطره ، فيبدو أنها كانت نشيطة ، بينما لا توجد هناك دلائل عن التجارة مع بورنيو ومالقة ، وبقيت كوريا بعيدة عن متناول التجارة العربية حتى منتصف القرن التاسع ، ولكن التجار المسلمون بدأوا خلال النصف الثاني من القرن نفسه بزيارة هذه البلاد أيضاً .

وأصبح بامكان العرب أن يتاجروا مع المناطق البعيدة . وعندما توفر لهم القدر الكافي من المعرفة الملاحية ، وتعلموا استغلال الرياح الموسمية الشمالية الغربية التي مكّنت سفنهم من عبور المحيط الهنديّ من عمان إلى مالابار في شهري تشرين الثاني وكانون الأول ، ومن ثم تابعوا رحلتهم في الرياح الموسمية الجنوبية عبر بحر الصين . وبعد قضاء الصيف في الموانىء الصينية ، عاد التجار العرب مع الرياح الشمالية الشرقية إلى مضيق مالقه ثم أبحروا عائدين إلى الخليج العربي تحملهم الرياح الجنوبية الشرقية . وهكذا نرى أن الرحلة إلى الصين كانت تستغرق عاماً ونصف العام ، وكان هناك طريق بحري آخر من الشرق الأوسط إلى الهند ، وهو الطريق من مصر عبر البحر الأحمر وعدن ، ولكن دراسة المصادر العربية التي تعود لتلك الفترة تجعل المرء يدرك أن هذا الطريق كان أقل أهمية للتجارة الهندية .

ويقدم لنا الكتّاب العرب في هذه الفترة ، والكتاب الآخرون الذين يشيرون إليها بالكثير من المعلومات حول السلع التي استوردها تجار الشرق الأوسط من الهند والصين ، حيث استوردوا الكافور والمسك والقرفة والقرنفل والقرفة البيضاء ، والهيل والزنجبيل، وجوزة الطيب وخشب الألوة ، وخشب الصندل والعطور وخشب البرازيل ، والتوابل الأخرى والأصبغة ، أما من ساحل شرق أفريقيا فلقد جلبوا العنبر والعاج .

كانت معظم هذه السلع غالية جداً ، وتعتبر سلعاً كمالية نموذجية ، أما

الخشب الذي احتاجه الشرق كثيراً في هذه الفترة ، لم يستورده من أوروبا ويعتبر أهم استثناء على الأرجح ، وتتميز طبيعة التجارة التي قام بها المسلمون مع الشرق الأقصى في هذه الفترة بغياب شبه كامل للسلعة الهندية التي احتلت المكانة الأولى في تجارة البحر المتوسط في أواخر العصور الوسطى ألا وهي الفلفل ، ففي أحد أقدم المصادر العربية يجد المرء تعبيراً واضحاً عن طبيعة السلع المستوردة من الهند ، وفي كتاب أسفار التاجر سليمان نقرأ أن الواردات الاسلامية من الصين إنما هي ـ لعدة أسباب ـ كميات قليلة من السلع النفيسة .

و ـ ظهور البورجوازية الاسلامية : بدأت في عصر الخلفاء العباسيين الأوائل طبقة جديدة من البورجوازية الاسلامية تشغل دوراً كبيراً في الحياة الثقافية والاقتصادية للشرق الأوسط . ولقد تشكل جزء منها من السكان الأصليين : من الفرس الذين استوطنوا أراضي الهلال الخصيب ، والمسيحيين الذين يتكلمون الآرامية ، والأقباط الذين اعتنقوا الاسلام ، وجنوا الأموال عن طريق الاشتغال بالتجارة ، وضمت هذه الطبقة البورجوازية أيضاً الكثيرين من العرب الذين كان آباؤهم تجاراً في مدن الجزيرة العربية ، وحافظوا على مهنتهم ، كما ضمت العرب الذين أصبحوا متعهدي تقديم الطعام لجيوش الخلفاء واغتنوا من خلال ذلك ، وقاتل بعض هؤلاء التجار في الجيوش الاسلامية أثناء الحملات وأصبحوا فيما بعد تجاراً متخصصين في التجارة بالسلع الكمالية مثل الحجارة الكريمة والعطور والعبيد ، أو في أغلب الأحيان الأقمشة ، وكان الاتجار بالأقمشة مربحاً دون شك لأن أسعار المنتجات الصناعية ارتفعت أكثر بكثير من أسعار المنتجات الزراعية ، وهي إحدى نتائج طراز الحياة الجديد الذي ابتدعه الخلفاء العباسيون ، وكانت الخدمة لدى حكومة الخلفاء مصدر كثير من الثروات الأخرى ، فمنذ بداية الحكم الاسلامي استخدم الولاة وموظفوهم مناصبهم للحصول على الثروات الكبيرة .

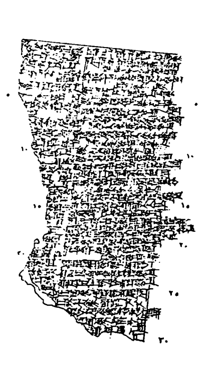
وغني عن القول بأن كل الوسائل المتاحة استخدمت للاغتناء في هذه الأيام التي عم بها الرخاء الاقتصادي ، وأصبح المال لدى بعض الطبقات العنصر الأساسي لقيمتهم في هذا العالم ، ويصور لنا كتاب القرن التاسع العرب هذا الجو بعبارات واضحة . وظف الأغنياء الجدد جزءاً من ثرواتهم في أعمال التسليف . ولاتترك المصادر العربية القديمة أي شك في أن اجراءات التسليف من الأنواع المختلفة شاعت

في التجارة والصناعة منذ نهاية القرن الثامن ، وقد سميت إحدى هذه الاجراءات بالمضاربة (أو القراض) وهي الصيغة الاسلامية من القراض والمقارضة، إنه قرض يقدم للتاجر المسافر مقابل نصيب من الأرباح التي ستتحقق دون أية مسؤولية عن الخسارة ، وقد اعتبر التسليف عموماً ـ وفقاً للمذهب الحنفي في الفقه الاسلامي ـ ضرباً من الاستثمار المشروع حتى في بداية العصر العباسي ، ولكن الأثرياء الجدد استثمروا عادة جزءاً من أموالهم أيضاً في الأرياف ، ويبدو أنهم اهتموا كثيراً في امتلاك الضياع ، مستخدمين كل الوسائل المتاحة لهم للحصول عليها . وأصبح بعض رجال الأعمال الأغنياء والمغامرين متعهدي ضرائب وهو عمل مربح جداً بحد ذاته .

وسرعان ماتلاءمت البورجوازية الاسلامية مع الطريقة الارستقراطية في الحياة التي عاشها النبلاء الفرس الذين اعتنقوا الاسلام ، كما فعلت أيضاً الزعامات العربية ، وقد سوغ البعض أعمالهم لشغل دور رعاية الأدب والفن ، في الوقت الذي انصرف فيه بعض علماء الدين الأتقياء إلى جمع الأحاديث النبوية الصحيحة التي تسمح بتجميع الثروات ، وقام رجال الأدب أيضاً بمدح الثروة والأثرياء ، وأفرطوا في تمجيد مهنة المسلمين الأوائل من التجار والصناع ، كما أصبح الكثير من التجار أنفسهم مهتمين بالعلوم الاسلامية ـ القرآن والحديث والتشريع ـ وأوقف الكثير من أبنائهم ـ كما هي الحال دائماً ـ أنفسهم للحياة العلمية ، وهكذا نستطيع أن نرى من دراسة مجموعات كتب التراجم العربية أن معظم فقهاء هذه الفترة ينتمون إلى الطبقة البورجوازية تجاراً أو أبناء تجار ، ولدى تمحيص معاجم التراجم وجد هـ . ج . كوهن ذكراً لمهنة ٤٢٠٠ عالم منهم ، ولابد من قبول استنتاجاته بالتأكيد وللأمانة العلمية مع بعض التحفظ ، ونظراً لدقائق اللغة العربية لا يستطيع المرء أن يجزم بأن الصفة التي تطلق على الشخص تشير إلى مهنته أو أنها تشير إلى مهنة أجداده ، ويكتنف الغموض الكثير من الأسماء المشتقة من المهن والتي يمكن أن تعني صانع السلعة أو بائعها ، على أي حال تعتبر النتيجة الرئيسية لأبحاث كوهن هامة . لقد وجد أن ٦٦,٦٪ من الفقهاء المسلمين في القرن التاسع هم من التجار ، ثلثهم تجار أقمشة ، كما توصل أيضاً إلى الاستنتاج القائل بأنه لم يطرأ أي تغيير في هذا الشأن بعد وصول العباسيين إلى الحكم .[٩]

ولما كانت الغالبية من المشرّعين المسلمين تنتمي إلى طبقة التجار ، فمن المفهوم تطور المبادىء التشريعية في العراق في ظل الخلفاء العباسيين الأوائل ، وقد جاءت قوانينهم البحرية مشابهة للقانون التجاري للتجار في الشرق الأدنى في تلك الفترة ، ويصح ذلك من التوافق بين هذه القواعد والأعراف التجارية التي تظهرها الرسائل اليهودية العربية التي تعود إلى القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، واكتشفت في مخازن كنيس القاهرة ، تميز الأحناف القدماء بتفهم عميق لضرورات التجارة ومصالح التجار ، وهذه هي النتيجة التي لابد من التوصل إليها من دراسة الفصول في كتب القانون التي تبحث في العمليات التجارية ، واستعمال الاستحسان بدلاً من القياس ١ يتعارض مع مصالح التجار لميزة ملفتة للنظر لتعليلات الأحناف القانونية . وكان جني الأرباح هو المحك الذي تحتكم إليه هذه المدرسة من الفقهاء عند النظر في كثير من العمليات التجارية ، وبالاضافة إلى ذلك فإنهم يأخذون بعين الاعتبار الممارسة التجارية لدى وضع هذه القواعد (٥٠)

ويمتد بين الفترة التي أصبحت فيها البرجوازية الاسلامية الجديدة تشكل عاملاً اقتصادياً لابد من التعامل معه ، والفترة التي بدأت فيها تشغل دورها في الحياة السياسية قرن كامل تقريباً ، لقد توجب على البرجوازية الجديدة أن تنتظر فترة طويلة قبل الحصول على مراكز في قمة هرم الدولة الاسلامية ، ففي العصر الأموي حصل النبلاء الفرس ـ الدهاقنة ـ على مراكز هامة في الادارة الحكومية . وسيادة الارستقراطية الفارسية في ظل الخلفاء العباسيين الأوائل ميزة بارزة للتغير الذي أحدثه الحكام الجدد والمثال على ذلك دور البرامكة ، ولكن في أيام الخليفة المأمون (٨١٣ ـ ٨٣٣) بدأت البرجوازية الكبيرة تصعد سلّم الهرم الاجتماعي ، ويشير عدد كبير من النصوص في تاريخ الطبري إلى المركز الرفيع الذي شغله المواطن العراقي جعفر بن دينار الخياط في جيش الخليفة في عهد المأمون وخلفائه . ولكن لا حاجة إلى القول أن الدور الذي بدأت البرجوازية بشغله أكبر من السابق . فخليفة المأمون ـ المعتصم عينّ في بداية حكمه (٨٣٣ ـ ٨٤٢) في منصب الوزارة الفضل بن مروان ، وهو إقطاعي من أصل متواضع ثم شغل بعده التاجر أحمد بن عمار الطحان منصب أمين السر وبهذه الصفة قام بمعظم واجبات الوزير ، لكن المعتصم استاء من أعماله وعينّ لمنصب الوزارة محمد بن عبد الملك الزيات ، وهو رجل من


٥
١٠
١٥
٢٠
٥
١٠
١٥
٢٠
٢٥
٣٠

عائلة تجارية غنية كانت في مدينة دسكرة وفيها بعد بغداد(٥١) . ومنذ ذلك الوقت ساهمت البورجوازية في الحكومة مع الأتراك قواد حرس الخليفة . وبرزت طبقة غنية من الإقطاعيين الذين تولوا مناصب عالية في إدارة الحكومة من البورجوازية الاسلامية الجديدة وسيطروا على دواوين الخليفة . أصبحت هذه الطبقة من الكتاب مجموعة ذات نفوذ واسع ومتميزة عن الفقهاء الذين يمثلون جناحاً آخر من البورجوازية الجديدة .

ونظراً لانتشار الذهب ، وازدهار الصناعة والتجارة الخارجية ، وظهور بورجوازية إسلامية غنية جديدة يبرز السؤال عن سبب عدم تطور رأسمالية حقيقية في الدولة العباسية ، إذ ليس من شك في أن اقتصاد الشرق الأوسط في زمن العباسيين بلغ مرحلة ما قبل الرأسمالية .

ان قيام طبقة من التجار والإقطاعيين الأغنياء في الامبراطورية الاسلامية بنشاطاتهم ومعرفتهم بطرق المحاسبة الرأسمالية المنطقية ، ووجود سوق حرة نسبياً لا يجعل هذا الاقتصاد رأسمالياً كما عرّفه - على سبيل المثال - ماكس فيبر . نستشهد بما قاله : «يمكن وصف فترة زمنية كاملة بأنها رأسمالية نموذجية فقط عندما تلبّى الحاجات بتنظيم رأسمالي لدرجة عالية تجعل المرء يتصور انهيار النظام الاقتصادي الكامل في حال غياب هذه الصيغة من التنظيم» . وربما كان بعض قطاعات اقتصاد الشرق الأوسط في العصر العباسي لها طابعها الرأسمالي ، ولكن مثل هذا الطابع ، فتراكم رأس المال لم يكن كبيراً لدرجة تمكنه من السيطرة على إنتاج صناعات الشرق الأوسط ، وصحيح أن هناك صناعات كبيرة نسبياً تنتج من أجل التصدير ، ولكنها لم تكن تحت إدارة التجار الذين يبيعون إنتاجها في البلدان الأخرى كما فعل الرأسماليون في البندقية في القرن الرابع عشر . ولم تكن بنية الصناعات موحدة . فهناك الصناعات الملكية والصناعات الخاصة . في بعضها تستخدم اليد العاملة المستعبدة بينما لا يحدث ذلك في البعض الآخر . في بعض الصناعات - كما في الصناعات المنزلية المتوضعة في القرى - أدوات الانتاج على الأرجح تخص العمال بينما في الصناعات الأخرى تخصّ أرباب العمل . ولا حاجة بنا الى القول إننا لا نستطيع تقدير حجم إنتاج قطاعات الصناعة المختلفة . على أي

حال ليس هناك أي سبب يدعونا لافتراض وجود سيطرة طاحنة للصناعة الكبيرة مما يضفي على اقتصاد الدولة الاسلامية الطابع الرأسمالي الحقيقي (٥٢) .

والحظر الاسلامي على تسليف المال بالفائدة لم يكن بالتأكيد عقبة في وجه تطور اقتصاد رأسمالي حقيقي ، كما أنه لم يؤ د إلى احتكار الأعمال المصرفية في يد غير المسلمين كما ارتـأى ماسينيون ، فبعض المسلمين في الحقيقة تحايل على قانـون الربا (٥٣) . ولكن نظام الوراثة الاسلامي على الأرجح عرقل تراكم رأس المال في أيدي العائلات التجارية الغنية . فوفق هذا النظام لا يستطيع الموصي بالتصرف بأكثر من ثلث أملاكه ، وفي الوقت نفسه تعتبر الوصية لواحد من الورثة الشرعيين لاغية دون موافقة الآخرين ، وفي حالة غياب الوصية يقسم الإرث بين الورثة الذين حدد القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف نصيب كل منهم . ويبلغ عددهم ١٢ فرداً وتختلف حصصهم حسب الظروف . بالاضافة إلى ذلك هناك ورثة القرابة العصبية (من جهة الأب) الذين ينالون نصيب الفضالة ويشملـون سلالـة الأب والجد والأخ وسلالة الجد . . الخ) . وبهذا أدى نظام المواريث الاسلامي إلى تجزئة الملكيات الكبيرة إذ يمكن القول بحق أن الجزء الأعظم من هذه الملكيات آل ـ وفق هذا النظام ـ إلى ورثة الفضالة الذين غالباً ما كان عددهم كبيراً .

كما أن النشاطات التجارية للحكومات الاسلامية عرقلت تطـور الاقتصاد الرأسمالي . في معظم الأقطار الاسلامية ، وفي مختلف العصـور اشتغـل الأمـراء بالتجارة ، فباعوا كميات كبيرة من الحبوب التي جمعوها كضرائب ، وقاموا بنصيب في التجارة الخارجية . لقد امتلك الأمراء السفن لتصدير السلـع النفيسـة الهنـدية وسلع بلادهم إلى المغرب والأماكن الأخـرى . فمـن الجهـة الأولى هنـاك حرية المشاريع ومن الجهة الأخرى كان على الصناعة والتجارة الخاصة الصمود في وجه منافسة الأمراء . والنشاطات التجارية الحكومية توافقت جزئياً مع حاجات العرض من البضائع الحربية مثل الخشب والحديد التي افتقر إليها الشرق الأوسط أو الحبوب الضرورية لإعاشة المدن الكبيرة ، وعلى أية حال كانت مساهمة الأمراء في التجارة عائقاً كبيراً في تطور الرأسمالية . ولقد أدرك عالـم الاجتماع المسلـم العـظيم ابـن خلدون هذه الحقيقة ودانها بشدة (٥٤) .

وسبب آخر لهذا التطور المتميز في اقتصاد الشرق الأوسط هو فقدان الأمان ،

ففي العصور الوسطى لم يكن التاجر الناجح الذي يعيش في مدينة اوروبية يخشى مصادرة الأمير الاعتباطية لأمواله بينما أصبح هذا الابتزاز للأغنياء مألوفاً في الشرق . فحيث لا يتمتع مواطنو المدن بالاستقلال الذاتي وحيث توجب على الدولة أن تتحمل النفقات الهائلة للجيوش الجرارة عن طريق الضرائب على الأراضي فإن مصادرة ممتلكات البورجوازية الكبيرة والموظفين الكبار والتجار غالباً ما بدا للحكومة بأنه الطريقة الوحيدة للحصول على الأموال التي تشتد الحاجة إليها . هذه المصادرة للملكية الخاصة التي غدت السمة البارزة للحياة الاجتماعية في العالم الاسلامي بدأت في مرحلة مبكرة . وحتى جمع الضرائب المفروضة على التجار غالباً ما كان يعني مصادرة جزء من بضائعهم وأموالهم . وقد وصف ديونيسيوس التلمعري بعبارات بليغة طرق السلب والنهب التي استخدمها جامعو الضرائب في أعالي ما بين النهرين في النصف الثاني من القرن الثامن .

ولكن هذه المقالب في النظام المالي أصبحت أكثر وضوحاً في فترات لاحقة . ففي ظل حكم الخلفاء العباسيين الأوائل كانت البورجوازية لا تزال طبقة جديدة تتسلق الهرم الاجتماعي في دولة الخلافة . وأصبحت فيما بعد طبقة قوية وعنصراً يحسب له أكثر من حساب . ويبدو أن الكثير من المستشرقين أغفلوا أن البورجوازية في الشرق الأوسط حاولت لمدة ٣٠٠ سنة مقاومة أمراء الاقطاع وأن الصراع بين هاتين الطبقتين كان من أهم العناصر في تاريخ الشرق .

الفصل الثالث

١ ـ Rainer

٢ ـ GABRIELI م شعبان ـ الثورة العباسية (كمبرج ١٩٧٠) ص ص ١٥ (المقدمة) ١٥٦

٣ ـ FRYE

٤ ـ GABRIELI

٥ ـ دنيس التلمحري ص ص ٢٧ وما بعدها ، ٤٢
ابن الأثير ـ ٦ ص ص ٣٨ وما بعدها ، ٥٢ ، ٨٤ ، ١١٤ ، ١٤٠ ،،ص٥،،

ابن النديم ـ الفهرست (لايبزغ ٨٧٢) ص ص ٦٥ ، ٣٤٤ ، الطبري ـ ٣ ص ص ١٠٧٥ وما بعدها ، ١٥٠٣ وما بعدها ، ١٥٠ ، ١٥٥٢ ، ١٥٦٣

٦ ـ LAMMENS

٧ ـ انظر الفصل الثاني ص ٤٢ وما بعدها
البكري ـ وصف شمال أفريقيا (ترجمة دوسلان) ص ١٥ التعالبي ـ لطائف المعارف (ترجمة بوزوورث) ص ص ٢١١٨ ، ١٢٦
RAINER ص ١٨٠
ابن حوقل ص ٣١٣

٨ ـ LOMBARD ASHTOR SERJEANT CAETANI
تاريخ الطبري ترجمة زوتنبورغ ـ ٣ ، ص ٤١٦ وما بعدها SPERBER RAINER
اليعقوبي ـ البلدان ترجمة فييت ص ١٩٠
المسعودي مروج اللهب ترجمة بيلات ـ ٢ ص ٣٣١

١٠ ـ ASHTOR
ابن حوقل ص ص ٩٩ وما بعدها ، ١٥٣
ابن الفقيه ص ٦٨

PELLAT

ADAMS

LASSNER

٢٣ - LE STRANCE ياقوت ٤٠ ص ٢٨٧

LE STRANGE

ASHTOR

٢٤ - KREMER دنيس التلمحري ص ٣٦

SPRENGER

البلاذري - الفتوح - ص ١٥٨

٢٥ - SAUVAGET

LAMMENS RUSSEL

ف . حتي - تاريخ سورية (نيويورك ١٩٥١) ص ٤٨٤

٢٦ - الكندي ص ص ٤٩ ، ١٠١

QUATREMERE

CLERGET

٢٧ - أبو يوسف ترجمة فانيان ص ٢٠٣

RAINER

ASHTOR

٢٨ - SERJEANT

الزيات - الملابس الكتانية الرفيعة (بالعربية) مجلة المشرق (١٩٤٧) ص ١٣٧ ومابعدها

حول موقع دابق انظر النجوم الزاهرة (طبعة القاهرة) - ٤ ص ٨١ الملاحظة - ٣

٢٩ SERJEANT RAINER

٣٠ - SERJEANT BECKER

٣١ - ASHTOR

- انظر ايضا ابن رستة (ترجمة فييت) ص ١٨٢

KARABACEK

٣٢ - SERJEANT

ITINERARY

ابن اياس - ١ ص ٤٣

GRIERSON - ١١

١٢ - ابن الجوزي - المنتظم - ٦ ص ١١٨ وما بعدها PELLAT

MILES - ١٣

FRYE

قدامة بن جعفر - كتاب الخراج ص ٢٣٧ KREMER

١٤ - GRIERSON ASHTOR الاصطخري ص ص ٢٨٠ ، ٢٨٨ تاريخ النقد

EHRENKREUTZ GRIERSON HOLMYARD EHRENKREUTZ

١٦ - البيهقي - المحاسن والمساوىء (غيسن ١٩٠٢) ص ٥٠٣ LOMBARD

أعالج نسبة الفائدة في بحثي الذي سينشر في (منوعات بورلاند)

١٧ - الفصول المختارة ص ١٧٦ ، في LAMMENS MUHSAM

١٨ - الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد - ٢ ص ص ٧٣ وما بعدها ، ١٨٥ وما بعدها ، ٢٢٦ ومابعدها ، ٢٧٣ ، ٣٦٣ وما بعدها

المصدر نفسه ٣ ص ١٥٢

المصدر نفسه - ٤ ص ٧٦ ومابعدها ص ١٧١ ومابعدها

المصدر نفسه - ٥ ص ٢٦٩

المصدر نفسه - ٦ ص ٣٦

ياقوت - ارشاد (تحقيق مار غوليوث) - ١ ص ٣٧ وما بعدها نظام الملك - سياسة نامة (ترجمة داركة) ص ٥٢

١٩ - KREMER دنيس التلمحري ص ص ١٠ ، ٣٢ وما بعدها ، ١٧٨ وما بعدها

ابن الأثير - ٧ ص ١٧٧

PELLAT LESTRANGE - ٢٠

المقدسي ص ص ١٢١ ، ١٣٩ ، ١٤٢

ياقوت - ٢ ص ص ٦٩ ، ٧٦٤ ،

ابن حوقل ص ٢٢٥

LASSNER ADAMS HERZFELD - ٢١

ID

٣٣ ـ OPPEN HEIM المصدر نفسه ـ النصوص المسمارية . إعادة طبعة من الزجاج وصناعته في بلاد ما بين النهرين القديمة (كورننغ ـ نيويورك ١٩٧٠) ص ٢٢ وما بعدها .

KREMER

LAMM

KARABACEK ـ ٣٤

HOERNLE

CARTER

الاصطخري ص ٢٨٨

القلقشندي ـ صبح الأعشى ـ ٢ ص ٤٧٦

ج. عواد ـ ورق أم كاغد ـ مجلة المجمع العربي ٢٣ (دمشق ١٩٤٨) ص ص ٤١٥ ، ٤٢٠ ، ٤٢٢ وما بعدها ، ٤٢٧ وما بعدها اليعقوبي (ترجمة فييت) ص ١٩٥

حول الوراقين انظر الخطيب البغدادي ـ تاريخ بغداد ـ ١ ص ٢٩٠

تاريخ بغداد ـ ٢ ص ص ٩١، ١٥٢، ٢٣٦ وما بعدها ، ٢٩١

تاريخ بغداد ـ ٣ ص ٦١ ومابعدها

تاريخ بغداد ٤ ص ص ٦٣ ، ٩١ ومابعدها ، ١٠١، ١٩٣ ومابعدها

تاريخ بغداد ٥ ص ص ١٢٦ ومابعدها ، ٢٣٣

تاريخ بغداد ١١ ص ٢٣٣

تاريخ بغداد ١٢ ص ص ٣، ١٥١،

تاريخ بغداد ١٢ ص ٣، ١٥١،

تاريخ بغداد ١٣ ص ٤٥

ابن الجوزي ـ المنتظم ـ ٦ ص ص ٢١٠ ، ٣٨٥ ،

حول سوق الورق في بغداد انظر ياقوت ـ ارشاد ـ ١ ص ١٥٣

٣٥ ـ المسعودي ـ مروج الذهب (ترجمة بلآت) ـ ١ ص ١٥٩ ومابعدها DEFREMERY

٣٦ - البـكري - وصف (ترجمـة دوسـلان) ص ص ٣٠٠ وما بعدهـا ، ٣٢٢ وما بعدها ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٣٥ ، ٣٤٣

ابن حوقل ص ١٠١

TRIMING-HAM

Itinerary

BOVILL

٣٧ - البكري ص ص ٣٠٠ ، ٣٢٨ ، ٣٣٥ ، ٣٤٢

PIRENNE- ٣٨

LYON

٣٩ -FALKE المسعودي - مروج الذهب (ترجمة بلات) - ٢ ص ٣٣٢

ASHTOR

ID

ADAMS- ٤٠

ASHTOR- ٤١

RABINOWITZ- ٤٢

CAHEN

ASHTOR

ASHTOR- ٤٣

٤٤ - كتاب أسفار سليمان

علاقات الرحلات التي قام بها العرب والفرس في الهند والصين (باريس ١٨٤٥) ص ص ١٣ ، ٣٢

HEYD

LEWIS

TIBBETTS

LEWICKI

MEGLIO

البلاذري - فتوح - ص ص ٣٤١ ، ٤٣٥

المسعودي (ترجمة بلات) - ١ ص ٣٢٧
٤٥ - ابن حوقل ص ١١
REINAUD
أبو زيد في كتاب رينود - العلاقات - ص ص ١١٣ وما بعدها ، ١٢٣ ، ١٤٢
الاصطخري ص ص ١٩ ، ٢٥ ، ٣٣ ، ٥٣ ، ٢٤٥ ، ٢٨٠
ابن خرداذبة ص ص ٥٩ ، ٦١ ، ٧٠ وما بعدها ، ١٧٠ ، ترجمة دوغوجه ص ص ٤٠ وما بعدها ، ٥١ ، ١٣٢
كتاب أسفار سليمان - رينو - العلاقات - ص ص ١٣ ومابعدها ، ١٧ ، ٦٠
المسعودي ترجمة بلات - ١ ص ١٤٢
REINAUD
MEGLIO

ج. ف. حوراني - الملاحة البحرية العربية في المحيط الهندي في العصور القديمة والوسطى (برنستون ١٩٥١) ص ص ٧١ ، ٧٤ ومابعدها
SAUVAGET
TIBBETTS
MEGLIO

RICHARDS
٤٦ - سليمان - المصدر السابق - ص ٤، ٧، ٨، ١٢، ٣٠، ٣٥
أبو زيد - المصدر السابق - ص ٩٣ ومابعدها ، ١٢٥ ومابعدها ، ١٣٥ ومابعدها ، ١٣٩ ، ١٤٣ ومابعدها ،
ابن خرداذبة ص ص ٦٦ ، ٧٠ ومابعدها
المسعودي (ترجمة بلات) - ١ ص ص ١٣٦ ، ١٤٨ ، ١٥١ ومابعدها ، اليعقوبي - البلدان - ص ٢٣٧ ومابعدها
الاصطخري ص ١٥٤
TIBBETTS
MEGLIO

٤٧ - المبرّد - الكامل (القاهرة ١٩٢٧ - ١٩٣٠) - ٨ ص ١٢

COHEN

BECKER

UDOVITCH- ٤٨

PELLAT

ID

البلاذري ـ الفتوح ـ ص ص ٣٦١
حوليات دنيس التلمحري ص ص ٩٢ ، ١٥٦ ،

MEZ

BECKER

BIORKMAN

GIOTEIN- ٤٩

BIORKMAN

LAMBTON

ابن قتيبة ـ كتاب المعارف (غوتنغن ١٨٥٠) ص ٢٨٣ ومابعدها نسخة ابن رسته (ترجمة فييت) ص ٢٥٤

COHEN طبقة مستقلة . انظر ابن أبي اصيبعة ـ ١ ص ١٨٥ ومابعدها بشأن بغضهم لأبناء التجار

UDOVITCH- ٥٠

ID

CAETANI- ٥١

الطبري ـ ٣ ص ص١١٠٣، ١١٩٤ومابعدها ، ١٢٠٤ ومابعدها ، ١٢٣٤ ومابعدها ، ١٢٥٤، ١٣٠٣، ١٣٥٠، ١٤٣٥، ١٤٣٦، ١٥٠٩، ١٥٥٠ (أخطأ في فهمه غواتاين ـ المصدر السابق ص ٢٣٧)

SOURDEL ومابعدها ، ٢٥٣، ٢٥٤ ومابعدها

انظر أيضا الطبري ـ ٣ ص ١٦٦١ بشأن صالح بن الهيثم ـ ابن أحد النساجين ـ الذي أصبح رئيس ديوان الأخبار

WEBER- ٥٢
robinson

٥٣- MASSIGNON
ROBINSON

٥٤- BECKER

ابن خلدون - المقدمة (ترجمة روزنتال - نيويورك ١٩٥٨) - ٢ ص ٩٣ ومابعدها
دنيس التلمحري ص ص ١٢٤ ، ١٩٣ وانظر أيضاً ص ص ١٠٨ ، ١٢٢
وما بعدها



الفصل الرابع

انحلال الخلافة

وصل فجأة ازدهار اقتصاد الشرق الأوسط إلى نهايته وتمزقت وحدة الدولة الاسلامية عندما ثار بضعة آلاف من العبيد الزنوج في المستنقعات في جنوب العراق ، تغلب الخلفاء سابقاً على الثورات الخطيرة والانقسامات الدينية والسخط الاجتماعي الذي اختبأ خلف ستار الحركات المذهبية ، وقمعت جيوشهم ثورات العرب والفرس التي كان زعماؤ ها من أعلى طبقات المجتمع الاسلامي ، لكن هذه الثورة الجديدة التي برهنت على قوتها هي تمرد اليائسين في المجتمع ألا وهم الزنوج ، ولكن لم يكن كل الثوار في الحقيقة زنوجاً وإن كانت غالبيتهم كذلك ، إن غضبهم ويأسهم هو الذي أمدهم بالقوة للصمود في وجه جيوش الخلافة ، ولقد زرعوا الرعب في نفوس نصف أهل العراق والمناطق المجاورة لمدة ١٤ سنة ، مما أوجب تجنيد كل قوات حكومة الخلافة لقمع هؤ لاء الثوار الشجعان .

وهكذا ظهرت لهذه الثورة نتائج هامة ، انفصلت بلدان كثيرة عن الخلافة وأصبحت ممالك مستقلة . كما أن العبء الذي حملته المناطق المخلصة للخلفاء زاد التوترات الاجتماعية في مجتمع الشرق الأوسط سوءاً ومهّد الطريق لسقوط النظام القديم .

أ ـ ثورة الزنج :

المؤ رخون العرب المشبعون بروح الاسلام القويم والمخلصون لموقف الخلفاء مناوئون لهؤ لاء الثوار ، ويتحدث كتاب الحوليات في العصور الوسطى باشمئزاز عن قائد الزنوج الثائرين «الخبيث» . إنهم يصورونه كطاغية متعطش للدماء قتل النساء والأطفال بل لقد وصل بهم الأمر إلى اتهامه وأتباعه بأكل لحوم البشر . ويعتبره المستشرقون الحديثون رجلاً طموحاً أثار العبيد ليستقطع لنفسه إمارة خاصة ، ولكنه

لم يكن دجالاً ، ولم يكن أتباعه رجال سلب ونهب ، فثورة الزنج ثورة اجتماعية حقيقية ، وقائدها يحمل أفكاراً محددة .

موضع الثورة هو المنطقة الجنوبية من العراق ، التي كانت ملامحها الجغرافية تختلف تماماً عما هي عليه اليوم . فهناك اتسع كل من دجلة والفرات ، وضاع في المستنقعات التي غطت الجزء الأعظم من العراق الأسفل وامتدت من الكوفة حيث استقبلت مياه الفرات حتى البصرة وغطت مساحة قدرها ٥٠×٢٠٠ ميل ، في شمال البصرة جففت المستنقعات بواسطة قناة أبو الأسد التي تصب في شط العرب ، وكانت منطقة مصب شط العرب أرضاً مستنقعية تقطعها الأقنية المتعددة التي تتعرض لتقلبات المد والجزر ، ومع مرور الزمن تغطت معظم الأراضي بطبقات نطرونية جعلت الزراعة مستحيلة .

وكان من الممكن استخدام النطرون لبعض الأغراض وبذلك تصبح الأرض في حال إصلاحها خصبة .

وهكذا استخدم رجال الأعمال البصريون المغامرون اليد العاملة المستعبدة لإزالة الطبقات العليا ، وكان معظم هذه اليد العاملة من الزنوج الذين جلبوا من شرق أفريقيا المسماة الزنج العربي ، وبالرغم من أن بعض الأحرار انضموا إلى الزنوج فإن المشروع عمل زنجي ، فالمجموعات البالغ عددها ٥٠ ـ ٥٠٠ شخص ، والمسماة «الكناسون» أزاحت طبقات النطرون وجمعتها في تلال صغيرة حتى تصبح الأراضي قابلة للري ، وفرض الناظرون ـ المراقبون وهم على الأرجح عبيد أعتقهم أرباب العمل ، نظاماً صارماً وقدموا للعبيد طعاماً فقيراً وكانت حياة هؤلاء الكناسين يائسة مما خلق روحاً جماعية ، وجعل أعدادهم الكبيرة التي وصلت إلى آلاف كثيرة تعي قوتها ، ونقل الزهاد المسلمون الذين عاشوا في تلك المنطقة إلى هؤلاء الزنوج بعض الأفكار عن الاسلام ، مثل حقوق الانسان الطبيعية والعدالة الاجتماعية ، وهكذا تواجدت كل ظروف الثورة الاجتماعية : تركز رأس المال في جنوب العراق الذي جلب معه تركز اليد العاملة ، وهي جماهير العمال اليائسة التواقة الى الخلاص ، وكل ما كان الزنوج بحاجة إليه هو القائد ، وفي النهاية ظهر هذا القائد .

وهذا القائد هو علي بن محمد الذي أقبل من فرزنين (قرب طهران الحالية) وادعى بأنه سليل الخليفة علي ، وهذا الأصل العلوي موضع شك ، وحسب شهادات المؤرخين العرب ظنّ الناس أنه ينتسب إلى قبيلة عبد القيس . وكان علي طموحاً جداً وموهوباً ، ولم يكن زاهداً على الاطلاق لأنه شارك في النهب بسرور ، ويبدو أن حياته غير طبيعية ، ففي البداية جرّب حظه كشاعر في بلاط الخليفة في سامراء ، ثم حاول القيام بثورة في مقاطعة البحرين ولكنه أخفق . وبدأ بعدها حياته كقائد ديني ، وظهر كمتنبيء بل وحتى كنبي ، عندما ازداد عدد أتباعه اضطر لمغادرة مدينة الأحساء إلى المناطق البدوية ، وأخيراً وصل البصرة ، وهناك تابع نشاطاته ولكنه أخفق ثانية . واضطر علي إلى الهرب إلى المناطق البدوية ، وأخيراً وصل البصرة ، وهناك تابع نشاطاته ولكنه أخفق ثانية . واضطر علي إلى الهرب وأرسلت السلطات أتباعه إلى السجن ، ولكن ذلك لم يفلّ من عزيمته ، ومن جديد ادعى بأنه مطلع على المعرفة الغيبية ونشر دعوته الهرطقية في بغداد حيث لاقى بعض النجاح ، وبعد عزل والي البصرة عاد علي إلى ذلك المركز التجاري الكبير الذي كان دائماً مرتعاً للمذهبيين والثوريين .

ولكنه في هذه المرة وجد مسرحاً لنشاطاته خارج المدينة ، ويبدو أن جماهير العبيد الذين يستخدمهم الرأسماليون ككناسين في المستنقعات المجاورة كانت حقلاً أكثر مناسبة ، وبدأ في بداية أيلول عام ٨٦٩ بإثارة الكناسين واعداً بقيادتهم إلى الحرية ، وأن يبيعهم الأملاك ، ويبقى مخلصاً لهم حتى النهاية . ولما كان العبيد على الأرجح يشككون في نواياه الحقيقية أقسم أغلظ الأيمان بأنه لن يخونهم ، وكان علي بن محمد خطيباً ممتازاً ، وقد عمل على ترجمة خطبه من أجل الذين لا يفهمون العربية . ولدى مخاطبته للعبيد الفقراء ركّز على بؤسهم وسوء حاضرهم ومنّاهم بمستقبل رائع ، ومنازل لايوائهم وبالأموال وحتى العبيد ، وكما فعل المتنبئون الآخرون وضع علي حجاباً على وجهه وبذلك توافق مظهره الخارجي مع تعاليمه . ولا حاجة للقول بأنه لاقى نجاحاً باهراً .

ويصف مؤرخو البلاط العرب المتدينون الذين يسردون هذه القصة علي بن محمد بأنه دجال لاضمير له، ولكنه في الحقيقة أراد إسقاط النظام القائم ، وبناء نظام اجتماعي جديد ، ولذلك كانت زخارف البدع ضرورية لإثارة طبقات المجتمع

الدنيا ، فعندما ادعى بأنه من سلالة علي توجه إلى إيمان المسلمين أن أحد أحفاد علي - وهم ورثة الخلافة الشرعيون - سيعيد الاسلام الصحيح والعدالة الاجتماعية التي يتضمنها . وركز علي كثيراً على عراقة أصله وكتبها على نقوده ، وأساطير النقود التي صكّها مشهورة . إنه يسمي نفسه «المهدي علي بن محمد» - المنقذ ، هكذا ادعى بأنه المنقذ الذي يؤمن المسلمون بأنه سيأتي في آخر الزمن ، وادعى أنه يحارب لا من أجل المنافع الدنيوية بل من أجل إعادة الدين الصحيح ، وإنها سمة ملازمة لكثير من الثورات الاجتماعية في العصور الوسطى ، ورفع علي بن محمد راية تحمل آية من القرآن «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم : ٩-١١١) . وهي الآية التي استعملها الخوارج شعاراً لهم ، كما أنه ضربها على نقوده ، ولقد حارب من أجل أفكار الخوارج - من أجل المساواة والعدالة الاجتماعية كما فهمها المسلمون ، أما مبدأ الفقر الانجيلي ، فلربما بدا لهم غريباً ، وأعلن علي بن محمد بأن الجميع يجب أن يمتلكوا المنازل والعبيد ، ويجب ألا يقتصر ذلك على أغنياء البصرة وبغداد ، حقاً لم يلغ الاسلام الرق ، ومبادىء علي بن محمد - كما نستجمعها من الاشارات المتناثرة في المصادر المعادية - جمعت تيارين رئيسيين من الثورة الاجتماعية في امبراطورية الخلفاء ، فرواية الطبري تقول انه كتب شعاراته على الرايات بالأخضر [1] والأحمر وهما لون العلويين ولون الخوارج ، فالطبري والمؤلفون العرب الآخرون منشغلون بمسألة انتسابه فعلاً إلى علي ، بينما لا تهم هذه المسألة المؤرخ الحديث ، وعلينا أن نستنتج أن ثورة الزنج هي ثورة اجتماعية تستتر برداء الحركة الدينية ، وأتباعه في غالبيتهم عبيد أو بروليتاريون حقيقيون ومن بين قواده يحيى بن محمد (وزان القمح) وسليمان بن جامع وهو زنجي عتيق ، ومحمد بن سليم (الجزّار) وفتح الحجام (وهي حرفة بغيضة) .. [1]

إن الأخبار التي يقدمها المؤرخون العرب عن تقدم ثورة علي بن محمد أكثر تفصيلاً من تلك التي تبحث في تعاليمه ، فقد حاول كسب الفلاحين إلى جانبه ولكنه لاقى في هذا المجال نجاحاً جزئياً ، وانضمت بعض القرى - ومعظمها بلا ريب مستوطنات للأجراء الفقراء - إلى الثوار بينما طلب بعضها الآخر العون من

---

١ - كذا وشعار العلويين الرسمي هو البياض .

جيش الخلافة على أن تنال المكافأة لحربها ضد الزنج ، ولكن العبيد لم يترددوا في كل مكان تجمعوا فازداد بذلك جيش علي بن محمد ، وسرعان ما أصبح قائداً لقوات من أصول مختلفة ، ورغم أن غالبية جنوده كانت من الزنوج إلا أن هناك بعض الفصائل من البيض مثل الفراتية والنوبه . لم تقلق الثوار مسألة العناصر البشرية ، ولكن ما أقلقهم كان مسألة السلاح ، ففي بداية الثورة لم تكن لدى أتباع علي أية أسلحة ، ولكن عندما حققوا نجاحاتهم الأولى وأخذوا الغنائم استولوا أيضاً على الأسلحة . وبرهن علي بن محمد على أنه قائد مقتدر ، وتميزت حملته بكفاءة استطلاعاته . وتوفرت له دائماً المعلومات عن تحركات القوات الحكومية ، وتمكن بالتالي من اتخاذ الاجراءات اللازمة ، وأعطت الطريقة القتالية التي اتبعها الزنوج التفوق على قوات الخليفة . فبينما تألف جيش الخلافة من الخيالة التي لا تستطيع التحرك بسهولة في مستنقعات شط العرب ، فإن الزنوج المسلمين هاجموهم بالمقاليع والسهام من الأقنية الجانبية المغطاة بالقصب الكثيف ، وفجأة كان يقوم بالهجوم على قوات الخلافة عدو غير منظور وبذلك كانت هذه القوات تعاني خسائر فادحة ، فالكثير منها تعرض للغرق ، والذين وقعوا أسرى أعدموا في الحال ، وهي الأساليب التي اتبعها الثوار لإرهاب أعدائهم ، وقاد النجاح إلى نجاح آخر وبدأت بعض قبائل بني تميم بمساعدة الزنوج عن طريق تزويدهم بالطعام ، ولم يكن باستطاعة الثوار الاعتماد على البدو فقط ، فقد فرضوا على القرى التي خضعت لهم تقديم كميات معينة من الأطعمة ، ونهبوا القرى التي قاومتهم ، وقد زاد عدد الأخيرة عن عدد الأولى لأن غالبية الفلاحين اتخذت موقفاً عدائياً من الزنج ، وكانت العداوة بين الطبقتين كبيرة .

وأصبح الزنج في نهاية تشرين الأول عام ٨٦٩ في حالة تجعلهم يحاولون مهاجمة البصرة ، ولكنهم ردوا على أعقابهم . وبعد هذه المحاولة المخفقة على عاصمة جنوب العراق بوقت قصير بنى الزنوج لأنفسهم مدينة جديدة سموها المختارة وأصبحت هذه المدينة الجديدة الواقعة على قناة نهر أبي الخصيب جنوب شرق البصرة مركزاً لهم وعاصمة لحكومتهم التي أقاموها في المنطقة الواقعة تحت سيطرتهم ، واستولوا في حزيران عام ٨٧٠ على مدينة الأبلّة ، وهي مدينة كبيرة تقوم حيث تصب قناة الأبلّة في شط العرب ، وكانت في ذلك الوقت مدينة غنية وتجارية عظيمة ، وقد

شعر الجميع بنتائج هذه الضربة المؤلمة في جميع مناطق جنوب العراق ، واستسلمت مدينة عبّادان للزنج ، ووعدتهم بتقديم الأسلحة والعبيد ، وبعد شهرين شعروا بقوة جعلتهم يغامرون بغزو خوزستان ، وهي من أغنى مناطق الخلافة ، ومشهورة بصناعاتها ، واستولوا على عاصمتها الأهواز وعادوا منتصرين ومثقلين بالغنائم ، وأعطتهم هذه المغامرة الشجاعة للقيام بمغامرة شجاعة جديدة حالفهم فيها الحظ من جديد ، ولقد قطعوا إمدادات بغداد من الجنوب واعترضوا السفن في نهر دجلة . وحققوا في أيلول عام ٨٧١ أعظم انتصار لهم بالاستيلاء على البصرة ، وحصلوا على غنائم كبيرة وحرروا الكثير من العبيد ، ويقول كتاب الحوليات العرب أن الكثير من الزنوج امتلكوا (١٠) عبيد بعد سقوط البصرة ، وغادر الثوار المدينة ولكنهم أحكموا قبضتهم على خوزستان ، وفي عام ٨٧٣ فتحوا الأهواز مرة أخرى .

وعندما اشتبك جيش الخليفة في عام ٨٧٦ مع ثائر فارسي تقدم الزنوج إلى العراق الأوسط وغزوا منطقة واسط ، واستولوا على هذه المدينة في عام ٨٧٨ ، وفي السنة التالية استولوا على الجبول والنعمانية والجرجرائية وهي مدن ثلاثة على نهر دجلة ، ولم يستطيعوا الاحتفاظ بهذه المدن ، ولكنهم بقيوا في المنطقة وبنوا مدينة جديدة خاصة بهم سموها المانية ، واعترف في خوزستان أحد الثوار الأكراد بسلطانهم ، وقدم لهم مدينة رام هرمز ، ووصلت قوة الزنج في عام ٨٧٩ أي بعد عشر سنوات من ثورتهم إلى الأوج ، وأصبحت المختارة عاصمة لدولتهم التي تضم أجزاء كبيرة من جنوب العراق وخوزستان وقام على رأس المناطق المغلوبة ضباط من الثوار كما هي الحال في العالم الاسلامي . ولقد أقاموا دولة حقيقية في المختارة لها بيت مال ودواوين وسلطات قضائية ، ولكن هذه السنة كانت نفسها هي سنة تحول المدّ إلى جزر .

فالموفق ـ أخو الخليفة المعتمد ، والسيد الحقيقي للعاصمة العباسية ـ قاد الحرب ضد الزنج بحذر ولكن بعناد أيضاً ، وانشغل لمدة طويلة بالصراع مع الثائرين الآخرين ، ولكنه لم يتخلّ عن حملته ضد الزنج . ولقد عهد بمتابعة الحرب إلى قواده ، وفي الحقيقة استولى ابنه العباس على المانية في عام ٨٨٠ ، وتوجه الموفق في بداية عام ٨٨١ إلى خوزستان ، وعندما عاد بعد مرور عام كامل بدأ هجومه الكبير ، فحاصر جيشه المختارة ، وأغلق الزنوج المحاصرون الممرات المائية

بإقامة السدود وحتى بالسلاسل حتى لا تستطيع السفن الكبيرة للجيش النظامي التقدم ، لكن وحدات الموفق تلقت الدعم باستمرار ، ومع مرور الوقت نجح في قطع إمدادات المدينة المحاصرة وقلت المواد الغذائية مع استمرار الحصار للمختارة ، ووصلت قواته في تموز ٨٨١ إلى المدينة للمرة الأولى ، وعندما جرح الموفق في نهاية ٨٨٢ توقف القتال لعدة أشهر ، ثم بدأت النشاطات العسكرية من جديد في نهاية نيسان ٨٨٣ ، ومعها بدأ الهجوم النهائي . وتم بعد أربعة أشهر من القتال الضاري الاستيلاء على المختارة ، وقتل علي بن محمد ، وأخمدت ثورة العبيد بعد أن استمرت ١٤ عاماً [٢] .

وكما أنه ليس هنالك شك بشأن الظروف التي جعلت نجاحات الزنج ممكنة ، فليس من الصعب أيضاً تفهم اخفاقهم النهائي وإذ لم ينجح قائد الزنج في اكتساب قطاعات كبيرة من الطبقات الأخرى إلى جانبه فلم يتحالف معه الفلاحون وبروليتاريو المدن ، وأصبح العبيد بمفردهم ضعفاء رغم عددهم الكبير ، ولكن كيف نعلل الموقف الذي اتخذته الطبقات الدنيا من المجتمع الشرقي ؟ لماذا تطوع التجار الصغار والحرفيون في بغداد في الحرب ضد الزنج ؟ لماذا لم ينضم الأجراء الزراعيون في قرى جنوب العراق إلى الثورة بكاملهم ؟ من السهل أن نفهم العداء بين الزنج والفلاحين الأغنياء الذين نهب الزنوج أوانيهم الثمينة ومجوهراتهم وذهبهم ، وفضتهم ولكن تواجد في كثير من القرى سكان لم يكونوا أكثر من أرقاء بكثير .

من المرجح أن البروليتاريا الصناعية في مدن جنوب العراق كانت ضعيفة عدديا لأن المدن في الشرق الأوسط مراكز تجارية في غالبيتها وبالتالي فإن العداء بين الزنوج المراطقة والطبقات الأخرى المتمسكة بالدين الاسلامي الحنيف أصبح شاملاً . وهناك ثانياً النفور الطبيعي بين السود والبيض لأن المشاعر العنصرية ملتهبة في تلك الأيام . فالزنوج محتقرون رغم التعاليم الاسلامية . في بداية الثورة هجر كثير من الجنود الزنوج الجيش النظامي وانضموا إلى الزنج لكن عدداً قليلاً فقط من بروليتاريي المدن انحازوا إلى جانب الثورة .. ويجب أن نتذكر ثالثاً العداء بين السكان المستوطنين والبدو الرحل . وبالتالي فإن الدعم الذي تلقاه الزنج من بعض القبائل البدوية زرعت الشكوك في نفوس الفلاحين الذين يكرهون البدو الذين

يقومون بأعمال السلب والنهب ، والبدو انفسهم ليسوا حلفاء يمكن الاعتماد عليهم ، إذ أن همهم الأكبر هو النهب والسلب والمتاجرة المربحة بالبضائع ، ومن أجل هذه الأهداف كانوا على استعداد دائم للانحياز للجانب الآخر .

وهكذا أخفقت ثورة الزنج لغياب التأييد من الطبقات الأخرى ، ولكن الدولة الاسلامية تضعضعت كثيراً أثناء سنوات الحرب الطويلة ، حيث أرسلت زهرة القوات النظامية إلى المستنقعات في جنوب العراق ، كما أن انقطاع العلاقات التجارية أثقل على الطبقات الوسطى في مدن العراق الكبرى .

فالتجار الكبار الذين زودوا الجيش بحاجاته مارسوا أعمالاً مربحة ، بينما عانى الآخرون الخسائر عندما استولى الزنج على سفنهم التجارية مع حمولتها واستحالت التجارة مع بلدان الخليج العربي ، كما أن ارتفاع الأسعار لدى قطع الامدادات أفقر التجار الصغار ، وفقد الحرفيون زبائنهم لعدم قدرتهم على دفع أثمان السلع الباهظة ، ونتج عن ثورة الزنج تزايد التوتر الاجتماعي في العراق والبلدان المجاورة ، ولكن هناك نتائج أخرى أكثر أهمية .

ب ـ تفكك الخلافة :

كانت ثورة الزنج المرحلة الحاسمة في تاريخ دولة الخلافة إذ أصبحت القوى الانفصالية قوية جداً بحيث أدت إلى تفككها ، فشمال أفريقيا انفصلت منذ وقت طويل ، وأثناء الحرب الطويلة ضد الزنج الثائرين ، وبعدها بوقت قصير انفصلت بلدان كثيرة أخرى عن الخلافة العباسية ، وأتاح الوضع الصعب الذي وجد فيه حكام بغداد أنفسهم الفرصة للقواد الطموحين لإقامة حكوماتهم في أنحاء مختلفة من الامبراطورية ، ولكن يبدو أن نجاحهم توافق مع رغبات الطبقات العليا في تلك البلدان . فالتطور الصناعي لم يتم بسرعة كافية لامتصاص اليد العاملة الوفيرة ، كما أن الحرب ضد البيزنطيين والأتراك الوثنيين تباطأت كثيراً ولم تعد مخرجاً للعاطلين عن العمل ، وبالتالي تواجد في كل مكان الكثير من الشباب الذين انضموا إلى الحركات الثورية أو وضعوا أنفسهم تحت تصرف المستعدين لاستخدامهم ، وبالامكان تلمس الميول الشعوبية الاجتماعية في كثير من المناطق إذ نشطت قوى اجتماعية جديدة ضد الارستقراطية العربية والفارسية القديمة . فالأمير الألفي عبد

العزيز الذي حكم في كاراج الواقعة بين همدان وأصفهان جنّد في عام ٨٦٧ جيشاً قوامه ٢٠,٠٠٠ من الصعاليك ، والكلمة في اللغة العربية تعني الفقير والشحاذ وقاطع الطريق ، وفي هذه الحالة تعني البروليتاريين الأجراء على الأرجح ، وأصبح انتشار اللصوصية وأعمال السلب البدوي ظاهرة عامة كما ظهرت الحركات المذهبية التي تهدف إلى الثورات الاجتماعية في مختلف قطاعات السكان الحضريين ، وفي بداية القرن العاشر ثار المسمى محمد بن هارون في الريّ ، وقد كان خياطاً وقاطع طريق ؛ ويذكر كتاب حوليات العرب أنه جمع الرعاة والمجرمين ، وبدأ نشاطاته الثورية ، وأحياناً وضع قواته بالأجرة تحت أسرة من يحتاجون إليها ، وعندما استدعاه قسم من سكان ريّ في عام ٩٠٢ ، دخل المدينة وقتل الحاكم ، وأصبح حاكم المنطقة ، ولكنه طرد بعد عام واحد على يد ملك بخارى ، ويقول المؤرخون العرب أن عدد أتباعه بلغ ٨,٠٠٠ [٣] رجل إنها بحق ثورة اجتماعية .

ويمكن أن نفهم بسهولة سبب تخوف الطبقات العليا في المجتمع - البرجوازية الغنية والمتوسطة - من القلاقل الاجتماعية ، وسبب دعم هذه الطبقات الجاهز للحكام القادرين على ضمان الأمان الضروري لنشاطاتهم الاجتماعية والحفاظ على الاستقرار الاجتماعي ، لقد نشأ وضع أصبح فيه الحكم الصارم ضرورياً . واقتنع كل أصحاب الأملاك أن الجيش فقط هو القادر على إعادة النظام ، وضمان حدّ أدنى من الاستقرار ، ولم يعد يهم ما إذا كان الحكام الجدد من الطبقات الدنيا أو وصلوا إلى السلطة بمساعدتهم ، وغالباً ما كانت العداوة بين الحضر والبدو أقوى من التوتر ضمن سكان المدن والفلاحين ، وأصبح أي شخص يستطيع إعادة الاستقرار موضع ترحيب ، ونظراً لأن سلطة الخلافة تضاءلت ، أصبح بإمكان أي قائد نشيط يرأس قوات مخلصة مدربة وحسنة التجهيز أن يقتطع إمارة لنفسه .

بقي الجيش قانعاً بالحكم من وراء الستار لفترة طويلة ، ولكن القواد الآن ناضلوا ليصبحوا مستقلين ، وأصبحت طموحاتهم كطموحات غيرهم من القواد عاملاً حاسماً على مرور الزمن ، وكان الجنود مرتبطين بهؤلاء القادة بالتبعية الفردية ، وأصبح الكثير من هؤلاء القادة العسكريين من الأتراك والبعض من الفرس والعرب أو الأمم الأخرى ، ورغم أن البعض منهم عمل على إقامة حكم فردي ، فإنهم كثيراً ما عبروا عن الطموحات القومية وأصبحت الخصوصية والرغبة

١٠٥٢ -(١) ما لا يقل عن ٢٠٠ صيرفي كما يروي الرحالة الفارسي ناصر خسرو . ومارس هؤلاء الصيارفة أيضاً النشاطات التجارية ، فتاجروا بالسبائك والبضائع الأخرى(٣٧) .

ولما كانت الضرائب تدفع بالعملات المختلفة (عند دفعها نقداً) أو تنقل بواسطة السفاتج ، فإن الحكومة نفسها اضطرت للاستفادة من خدمات الصيارفة ، ولذلك عينت صيارفة ملكيين (في بغداد اتخذ اسم جهبذ الحضرة) تشبه واجباتهم إلى حد كبير المصارف المركزية الحديثة ، ولا حاجة للقول أن الوزراء العاديين في الدولة وكبار وزراء الخلفاء اختاروا الصيارفة الذين يتعاملون معهم .

وإننا نعلم من حوليات تلك الفترة والوثائق العربية اليهودية الكثير عن الصيارفة اليهود الذين قاموا بهذه المهمة في بداية القرن العاشر وشغلوا دوراً كبيراً في الحياة الاقتصادية للعراق وخوزستان لعدة أجيال ، وفي الحقيقة لم يكن في وسع الحكومة الاسلامية الاستغناء عن خدمات الصيارفة اليهود والمسيحيين ، وعندما أعاد الخليفة المقتدر مجدداً في عام ٩٠٨ العمل بالقانون القديم القاضي بمنع استخدام الذميين في دوائر الدولة استثنى من ذلك الصيارفة والأطباء(٣٨) .

وفي عام ٨٩٢ بدأ التاجر والصيرفي نطيرة في خدمة الخليفة المعتضد ، كما استمر أيضاً في خدمة خلفائه حتى مات في عام ٩١٠ ، وقد ورث أحد ولديه سهل هذا المنصب . وفي السنوات الأخيرة من حكم المقتدر طغى على دور هذا الصيرفي اليهودي دور مؤسسة يهودية أخرى وهي مؤسسة يوسف بن فيناس وهارون بن عمران . والأول منهما هو جد سهل لأن نطيرة تزوج ابنة يوسف بن فيناس . وعملت هذه المؤسسة في خدمة الوزير ابن الفرات كمصرف خاص حتى أصبح مصرفاً ملكياً في كل من بغداد والأهواز عاصمة خوزستان . يذكر مسكويه وهلال الصابي نشاطاتها من عام ٩٠٨ حتى عام ٩٢٤ ووظف هؤلاء الصيارفة اليهود مبالغ كبيرة من المال أرسلها لهم ابن الفرات مثل الرشاوى والأموال التي حصل عليها من

---

(١) ناصر خسرو رحالة مسلم من أصل فارسي قام بزيارة للشرق الأوسط ودون مشاهداته بكتاب وأصفاً رحلته وهو المسمى سفر نامه (رحلة ناصر خسرو إلى لبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية في القرن الخامس الهجري) وقد نقله الى العربية الدكتور يحيى الخشاب وطبع في دار الكتاب الجديد في بيروت عام ١٩٨٣ (طبعة ثالثة) .

في الاستقلال الوطني هي السائدة ، وخلال تفاعل الاتجاهات المتعاكسة أصبح الطموح الفردي القوة المسيطرة ، وأصبح القادة يحولون ولاءهم من طرف إلى آخر وفي النهاية يعملون لحسابهم الخاص ، ولدى تعيين الخليفة لأحد القادة حاكماً على أحد الأقاليم سرعان ما كان يتمرد هذا القائد ضده ويعلن استقلاله ، حتى عندما يعترف مثل هذا الحاكم بسيادة الخليفة فإنه يصبح بالفعل أميراً مستقلاً . تمزقت الدولة العباسية إلى أقسام ولم تتوحد بعدها أبداً . ولكن الأمراء الجدد جلبوا الأمان لرعاياهم وقدموا لهم حكومة مستقرة وحسّنوا الوضع الاقتصادي واكتسبوا اعترافهم بالجميل .

وعندما اندلعت ثورة الزنج كانت المقاطعات المركزية والبلدان الفارسية من الدولة لاتزال تحت إدارة الخلفاء المباشرة ، أو تحت حكم الأتباع المخلصين لهم . وتغير أثناء ثورة العبيد كل شيء . وحكم في هذه الفترة الطاهريون ليس فقط خراسان كما كانوا سابقاً بل أيضاً المناطق الواقعة شرقها وشمالها حتى الحدود الهندية وحدود الأتراك الوثنيين ، ولقد بقوا مخلصين على الدوام للعباسيين ولكن محمد بن طاهر الثاني الذي أصبح حاكماً لفارس عام ٨٦٢ لم يتمتع بمواهب سابقيه ، وفي هذه الفترة نجح أحد الثوار في إقامة دولة مستقلة في سجستان وهي المقاطعة الواقعة في أقصى شرق إيران الجنوبية وقد تميز حكمه بالخصائص السائدة في ذلك العصر ، وانفصلت سجستان على يد الخوارج ، وعانى السكان كثيراً . وكان للخوارج قرى خاصة بهم ، أي أنهم كسبوا بعض الفلاحين إلى جانبهم ، وحاكم سجستان الجديد يعقوب بن يحيى من أصل متواضع إذ أنه ابن لأحد الفلاحين ، وقد عمل نحاساً بينما عمل أخوه عمرو بناءً أو مكارياً ، وبعدها أصبح قاطع طريق ، وعلى الأرجح من الخوارج ، وفي هذه الأيام تنحت الارستقراطية العربية - الفارسية لصالح المجموعات الأخرى ، ومنها البروليتاريا الفارسية ، وغادر الحاكم الطاهري البلاد بعد أن تم استبداله بالمتطوعين الذين يحاربون ضد الخوارج ، وانحاز يعقوب الصفار إلى جانبهم فعينّ من قبل قائدهم حاكماً لمدينة بست وسيطر عام ٨٦٧ على سجستان بكاملها بالاضافة إلى المناطق المجاورة ، وبدأ بمحاربة الطاهريين واستولى على هراة وكرمان ولبعض الوقت على فارس ، وأيدته الطبقات الدنيا من المجتمع وكان معاونوه المقربون من البروليتاريا ، ويسمى أحدهم «العبد التركي» وآخر

«العاري» وثالث «النساج» ، ولكي يحول دون تقدمه نحو مركز الامبراطورية عهد إليه الموفق بحكم بلخ وطخارستان وفي عام ٨٧٠ استولى على مناطق خراسان الأخرى ، وفي عام ٨٧٣ استولى على نيسابور عاصمة الطاهريين . وعندما رفض الخليفة الاعتراف به ملكاً على خراسان ، سار ضد بغداد ، ورغم انهزامه في عام ٨٧٦ احتفظ بفارس وخوزستان ، وهما المنطقتان الايرانيتان الأقرب إلى العراق .

ويسرد المؤرخون العرب أعمال يعقوب بن الليث العسكرية ، ولا يركزون على النواحي الأخرى من حكمه . ولكننا نعلم من بعض النصوص في كتاباتهم أنه أعاد السلام والأمان في كل مكان ، وأن جيشه تعلق به كثيراً ، ولذلك فليست قدرته وبسالته سبب نجاحه ، ولكن أيضاً رغبة رعاياه بالحصول على حكومة مستقرة ومقتدرة ويقول المؤرخون أنه دمر تحصينات الخوارج ، وأن سكان سجستان اعتبروه منقذاً لهم ، وسعدت البرجوازية الكبيرة بالأمان والاستقرار للنظام الجديد ، بينما احتفلت الطبقات الدنيا بسقوط الارستقراطيين .

يعتبر قيام حكم الصفاريين ثورة اجتماعية ، لأن الثورة الاجتماعية في العالم الشرقي لا تحمل نفس المعنى الذي تحمله في العالم المسيحي في العصور الوسطى ، أو في العصر الحديث ، وعندما نتحدث عن الثورة الاجتماعية فإننا نفكر بالمساواة وإلغاء الامتيازات لأننا مشبعون بالأفكار المسيحية ، وغالباً ما نعتبر الثروة رذيلة ، ولكن المسلمين يعتبرون إسقاط الطبقة الحاكمة ثورة اجتماعية [١] ، وقد أنشأ يعقوب بن ليث الكتائب التي اشتهرت بغناها وحملت قضبان الذهب والفضة لأن غرض يعقوب كان التأثير على الناس بمظهرها .

ولم يكن عمرو بن الليث ـ الذي خلف أخاه يعقوب بعد موته في عام ٨٧٩ ـ حاكماً مقتدراً ، فحسب ولكنه استمر في الصراع من أجل المناطق الايرانية لسنوات كثيرة . أما الصفاريون اللاحقون فلم يكونوا حكاماً موهوبين وشعروا بالسعادة لنجاحهم في الاحتفاظ بسجستان [٤]

---

١ ـ مزج الاسلام بين المفاهيم الدينية والدنيوية ، فكل عمل قد يكون مظهره دينياً والمحرض عليه اجتماعياً أو اقتصادياً . والعكس صحيح .

أقام الصفار سلطانه في سجستان بعد بضعة سنوات من ثورة الزنج ، وحقق انتصاراته عندما انشغل جيش الخليفة بالقتال ضد الزنج ، وأقامت في نفس الوقت تقريباً عائلة تدَّعي انتماءها إلى علي رضي الله عنه إمارة لها في طبرستان ، واستولت على منطقة جرجان المجاورة لها ، واحتفظت بهذه المناطق لمدة ٦٤ سنة (٨٦٤ - ٩٢٨) ، وصعود هذه الأسرة العلوية التي تنتسب إلى زيد بن علي إنما هو نتيجة للصراع بين الفلاحين المحليين والطاهريين ، وعندما حاول أحد هؤلاء الأمراء الاستيلاء على الأرض المشاع المستعملة كمراعي ، فثار الفلاحون واختاروا العلويين قادة لهم (*) ، ويبدو أن الحكام الجدد أعادوا توزيع الأراضي ، ولو لم يشغل الزنج قوات العباسيين لوجدوا على الأرجح الوسائل لاخضاعهم ، ولما كان جيشهم مشغولاً بالحرب ضد الزنج اضطروا للسكوت ، واستطاع العلويون التوسع والاستيلاء على منطقة الريّ التي احتفظوا بها لمدة (٢٠) عاماً .

في نهاية القرن التاسع وبداية القرن العاشر ، عندما هددت الثورات في المناطق الوسطى الخلفاء ، أصبح القائد التركي محمد بن أبي الساج أميراً مستقلاً تقريباً لمنطقة أذربيجان ، وبذل جهوداً جبارة ليضم إلى إمارته بعض مناطق فارس وأرمينيه ، وقد دام حكم هذه الأسرة من عام ٨٨٩ إلى عام ٩٣٠ .

والأسرة الأكثر قوة هي الأسرة السامانية أسرة النبلاء الفرس التي شغلت المناصب الرفيعة في إدارة المناطق الايرانية منذ بداية القرن التاسع فقد أضاف اسماعيل بن أحمد إلى منطقته الأصلية في فرغانة منطقة سمرقند وخراسان أيضاً التي استولى عليها من الصفاريين في عام ٩٠٠ ، واستولى بعدئذ على مناطق بحر الخزر وبعض أجزاء من فارس ، ووصلت قوة السامانيين أوجها في عهد حفيده نصر بن أحمد (٩١٤ - ٩٤٣) عندما ضمت مملكتهم تقريباً كل مناطق ما وراء النهر ، وما يسمى الآن ايران ، وامتدت من نهر سيحون إلى شواطىء المحيط الهندي ، ورغم أن السامانيين الذين جعلوا عاصمتهم بخارى اعترفوا بسيادة الخلفاء ودفعوا لهم الأتاوة ، فإنهم قطعوا صلات المناطق الشرقية ببغداد ، وكانوا ممثلي الأرستقراطية الفارسية القديمة ، وقد أعادوا الضياع التي أخلها العلويون في طبرستان من أصحابها الشرعيين وأعطوها للفلاحين ، ومن ناحية أخرى قام

السامانيون على بعث الثقافة الفارسية . وبقيت انجازاتهم بعد زوال حكمهم الذي لم يدم أكثر من ثلاثة أجيال كغيره من حكم الكثير من الأسر الحاكمة الاسلامية ، واحتفظوا ببخارى وماوراء النهر حتى عام ٩٩٩ ولكنهم فقدوا إيران الغربية في أواسط القرن العاشر ، وقد استقلت أسر جديدة مثل الزياريين في مناطق بحر الخزر وفارس .

وهكذا تتابعت الأسر التي دام حكمها فترات قصيرة في المناطق الايرانية من الدولة الاسلامية ، ولكن الحكم العربي انتهى وفقد الخلفاء سلطانهم ، ولم يبق سوى منطقتين في إيران حيث استطاع الخلفاء إبقاءها تحت حكمهم وهما خوزستان وفارس اللتان تطلان على الخليج العربي ، ومع ذلك اضطر الخلفاء لمحاربة الثوار المرة تلو الأخرى حتى في هاتين المنطقتين ، وفي نفس الوقت تداعت حكومتهم أيضاً في سورية ومصر التي كانت خسارتها ضربة مؤلمة للخلفاء لأسباب اقتصادية وسياسية ، فبينما تم التخلي عن إيران منذ وقت طويل وحكمتها أسرة الطاهريين التي تعترف بسيادة الخلفاء فإن مصر وسورية بقيتا تحت إدارة الخلفاء المباشرة ، وانفصل هذان القطران عن الخلافة أثناء ثورة الزنج ، ولم يكن ذلك مجرد صدفة .

كان أحمد بن طولون ـ الذي أصبح أول ملك مسلم مستقل يحكم مصر ـ ابناً لعبد تركي . أتى إلى مصر في عام ٨٦٨ كنائب للرجل الذي عينّ حاكماً على مصر ، ولكنه جهّز جيشاً قوياً بشراء عدد كبير من الجند العبيد ، وعندما اعتبر الموفق المبلغ الذي دفعه له أحمد لمساعدته في حرب الزنج ضئيلاً جداً ، نشأ صراع علني ، وتم إرسال جيش نظامي في عام ٨٧٧ لمحاربة حاكم مصر ، ولكن محاولة إخراج ابن طولون من مصر أخفقت وبدلاً من ذلك احتل سورية ، وعندما أمر الموفق بلعنه على منابر المساجد في عام ٨٨٢م ، رد ابن طولون باتخاذ نفس الاجراء ضد الموفق ، وبذلك أصبح الانفصال تاماً . واعترف الخليفة رسمياً بخمارويه بن أحمد بن طولون (٨٨٤ ـ ٨٩٦) ملكاً على مصر وسورية والمناطق المجاورة لها من أعالي ما بين النهرين وبرقة في الغرب ، وعينه الخليفة في عام ٨٩٣ حاكماً لهذه البلدان لمدة ٣٠ عاماً مقابل ٣٠٠,٠٠٠ دينار سنوياً ، ويعتبر هذا المبلغ بالمقارنة مع عائدة الضرائب في مصر أكثر بقليل من دفعة رمزية . وكانت هذه الاتفاقية هي ذروة قوة الطولونيين فبعد مقتل خمارويه المفجع ـ قتله عبيده ـ خلفه أخ وولدان لم يستطيعوا

المحافظة على الاستقلال وفي عام ٩٠٥ جددت مصر طاعتها للخليفة . كانت الدولة الطولونية صنيعة قائد كبير وحاكم موهوب واختفت بموته .

إن الوصف الذي نقرأه في مؤلفات المؤرخين العرب لعصر ابن طولون وولده يمكن اعتباره دليلاً على كفاءة النظام الجديد والخلاص الذي جلبه الحكام الجدد لرعاياهم الذين عانوا من مزعجات وابتزاز الحكام الذين عينهم الخلفاء ، وفي حين لم يكن الحكام الذين لم تطل فترة حكمهم مهتمين بازدهار رعاياهم أو بالتطوير الاقتصادي للمقاطعات التي حكموها ، فإن الحكام المستقلين الجدد قاموا بجهود جدية لتطوير الاقتصاد الوطني ، فحتى اعتلاء ابن طولون عرش مصر قدمت الخزانة المصرية كل عام إلى حكومة الخلافة مبلغاً ضخماً كواردات ضريبية ، ولكن هذا المبلغ بقي في البلاد بعد ذلك ، وصحيح أن نفقات الجيش قد زادت كثيراً وبلغت في عهد خمارويه مالايقل عن ٩٠٠,٠٠٠ دينار كل عام ، ومع ذلك فقد بلغ فائض الواردات الضريبية مبلغاً كبيراً .

وجلب النظام الطولوني قبل كل شيء الاستقرار ، ومعه المجرى الطبيعي للنشاط الاقتصادي ، واتخذ أحمد بن طولون مختلف الاجراءات لزيادة الانتاج الزراعي ، وأمر بإصلاح الأقنية التي تروي الحقول وحفر الجديد منها ، كما أصلح السدود الخربة كما منع أيضاً بعض ممارسات متعهدي الضرائب التي كانت عبئاً ثقيلاً على الفلاحين ، فمتعهدو الضرائب ـ بحجة أو بأخرى ـ اعتادوا أن يلغوا اتفاقياتهم مع الفلاحين ، وفرض ضرائب أعلى عليهم ، ومنع ابن طولون أيضاً الموظفين وجباة الضرائب من جمع الأموال المسماة «الهدايا» و«أموال المساعدة»[٦] .

وكما هي العادة عندما يأمل الفلاحون بالحصول على زيادة الأرباح فإنهم يزرعون مساحات أكبر ويزيدون الانتاج . وجدث ما يشبه ذلك في القطاعات الأخرى من اقتصاد مصر ، وبدأ عهد رخاء جديد . ووصلت أسعار الحبوب إلى أدنى مستوى منذ بداية القرن العاشر ، ويقول المؤرخون العرب أن المرء حصل في عهد ابن طولون مقابل دينار واحد على ١٠ أردبات من القمح عندئذ في العاصمة (٧٣,١٢٥ كغ) وفي عهد ولده خمارويه ٥ أردبات وبحساب ثمن ١٠٠ كغ من القمح في تلك الفترة ، ومقارنته بمعدل الأسعار في الفترات السابقة من الحكم الاسلامي في مصر

يصبح هبوط الأسعار أكثر وضوحاً [٧]

متوسط أسعار القمح في مصر
(القرنين الثامن والتاسع)

بداية القرن الثامن	٠,٠٧٥	دينار
النصف الأول من القرن التاسع	٠,٣	دينار
عصر ابن طولون (٨٦٨-٨٨٤)	٠,١٧٣	دينار
عصر خمارويه (٨٨٤-٨٩٦)	٠,٢٧٤	دينار

ووفقاً للمؤرخين العرب هبطت أيضاً أسعار المنتجات الأخرى ، ومن جهة أخرى فإن تجهيز الجيش الجديد وإمدادات الحملات على بلاد الشام ونفقات البلاط الطولوني الرائع ، وبناء العاصمة الجديدة القطائع كل ذلك قدم العمل للصناع الكثيرين ، والامكانيات الجديدة لرجال الأعمال المغامرين ، ولا حاجة للقول أن الشعب ابتهج لتحسين الأحوال الاقتصادية .

وهبطت الأسعار رغم أن مصر في عهد أحمد بن طولون على الأرجح أغنى بالذهب من الفترة السابقة لعهد الحكم الاسلامي . ويقص علينا الكتاب العرب قصة كنز دفين من العملات الذهبية وجده ابن طولون ـ وهذه طريقة العصور الوسطى لتقليل غنى هذا الحاكم ، ومستوى دنانيره الرفيع .

ولا شك أن لاستقرار العملة في الحقيقة وجه آخر للرفاه الاقتصادي الملحوظ ، والدنانير المسكوكة في عهد الطولونيين ذات مستوى رفيع جداً من النقاء ، وقد توصل أ. س. ايرينكر ويتز بعد وزن الدنانير الطولونية إلى النتائج التالية :

نقاء الدنانير الطولونية

نسبة الذهب المئوية	٨٨	٨٩	٩٠	٩١	٩٢	٩٣	٩٤	٩٥	٩٦	٩٧	٩٨	٩٩	١٠٠
أحمد بن طولون (٨٦٨-٨٨٤)	١										١	٢	١
خمارويه (٨٨٤-٨٩٦)							٤	١	٢	٤	٢	١	
جيش (٨٩٦)											١	٢	
هارون (٨٩٦-٩٠٤)								٥	١	٣	٢	٢	

وهذا الجدول مهم أيضاً لسبب آخر : إنه يرينا أن الأحوال تبدلت مباشرة بعد موت مؤسس العائلة ولم يستطع ورثته أن يحافظوا على نفس النقاء ، ومع ذلك بقيت نسبته عالية ، والدليل الآخر على الانتعاش الاقتصادي في مصر في عهد الطولونيين هو زيادة الواردات الضريبية ، فبينا تناقص مبلغ الخراج الاجمالي كثيراً منذ أن فتح العرب مصر ووصل على الأرجح إلى أدنى مستوى له قبل اعتلاء أحمد بن طولون عرش مصر ، فقد ازداد كثيراً في عهده ـ وحتى لو أخذنا بالاعتبار ازدياد كفاءة جباة الضرائب مع الظواهر الأخرى ، فإن ذلك يدل على الرفاهية الجديدة ، والتفاصيل المتناثرة في المصادر العربية تلخص في الجدول التالي : [٩]

واردات الضرائب من مصر

الزمن	الوارد الاجمالي	المبلغ المرسل إلى الخليفة
٨٢٧		٣ مليون دينار
٨٦٨		٨٠٠.٠٠٠ دينار
أحمد بن طولون (٨٦٨-٨٨٤)	٤,٣ مليون دينار	
خمارويه	٤ مليون دينار	

وعادت مصر بعد سقوط الطولونيين فيها في عام ٩٠٥ ثانية إلى حكم العباسيين وأدار شؤ ونها حكام تعينهم بغداد ، وبرهنت الحكومة الجديدة ليس فقط على عدم كفاءتها ، بل على أنها مدمرة . وكان يتم عزل الحكام عادة بعد فترة

قصيرة ، ولكنهم كانوا يحاولون الحصول على تعيين جديد ، وقد حصل أحدهم المسمى تكين على هذا المنصب ثلاث مرات ، وأدت الدسائس إلى صراعات مكشوفة وازدادت الخصومات بين وحدات الجيش المتنافرة وخاصت الوحدات التركية والبربرية معارك طاحنة ، كما قامت القوات المسرّحة بأعمال السلب والنهب ، وساءت الأحوال الاقتصادية وارتفعت الأسعار وانخفضت قيمة العملة الذهبية ، ونسبة نقاء الدنانير المسكوكة في مصر في تلك الفترة دليل واضح على هذه الأحوال (١٠)

نسبة نقاء الدنانير المصرية في الثلث الأول من القرن العاشر

نسبة الذهب المئوية	٨٨	٨٩	٩٠	٩١	٩٢	٩٣	٩٤	٩٥	٩٦	٩٧	٩٨	٩٩	١٠٠
المكتفي (٩٠٢-٩٠٨)	١								١			١	
المقتدر (٩٠٨-٩٣٢)	١	١	١	٢	١	٥	٦	٢	٤	١			
الراضي (٩٣٢-٩٣٤)	١٠	١											

ويرينا العدد الكبير للدنانير التي تبلغ نسبة ذهبها أقل من ٩٠٪ بوضوح مقدار فقر الخزينة في مصر في تلك الفترة .

ولكن إدارة حكومة الخليفة لمصر التي لم تعد مؤهلة للقيام بواجبها ، سرعان ماانتهت واستولت أسرة جديدة شبه مستقلة على ناصية الأمور ، فمحمد بن طفج الذي عينه الخليفة حاكماً على مصر في عام ٩٣٥ ينحدر من أحد أمراء فرغانة ، وسمي مثلهم بالأخشيد ، سار محمد على خطى أحمد بن طولون ، وبالتالي تم تجهيز جيش جديد مؤلف من المرتزقة والعبيد من بلدان مختلفة ، ولابد أن الأرقام التي يذكرها كتاب الحوليات مبالغ فيها كثيراً ، لأنها تذكر ٤٠٠,٠٠٠ جندي ، ولكن ليس هناك أي شك في أن هذا الجيش كان أقوى الجيوش في الشرق الأوسط في تلك الفترة (حكم محمد من عام ٩٣٥ إلى عام ٩٤٦) ، وكما فتح ابن طولون بلاد الشام من قبل ، قام محمد الأخشيدي في عام ٩٤٢ بضمها إلى إمارته ، وبعد ذلك بسنتين عهد إليه الخليفة بحكم الحجاز ، أما في المجال الاقتصادي فقد حققت حكومته الكثير كما حققت حكومة سلفه ، وجلب الاستقرار الجديد الازدهار إلى البلاد ، ومرة أخرى علينا تركيز الانتباه على العملة الذهبية كدليل أكيد ، فدنانير الأخشيد

وأتباعه تتميز بنسبتها الذهبية العالية [١١] .

وكما ضاعت مصر من أيدي الخلفاء كذلك ضاعت بلاد الشام رغم استعادتها مؤقتاً ، وبعد سقوط الطولونيين أدار البلاد حكام يعينهم الخليفة حتى احتل الأخشيد القسم الأعظم منها ، وفي نفس الوقت ظهرت أسرة مالكة جديدة في شمال بلاد الشام ، ونازعته على بلاد الشام الوسطى ، وهذه الأسرة هي الأسرة الحمدانية ، كان هؤلاء زعماء عشائريين من بني تغلب ، وكان انجازهم الوقوف في وجه البدو الذين ازدادت قوتهم ونهبهم وسلبهم في كل من شمال ما بين النهرين وبلاد الشام ، ونظراً لكونهم زعماء بدو فقد عرفوا كيف يتعاملون مع هذه القبائل الجسورة ورضي الخلفاء بحكمهم .

والجد الأكبر لهذه الأسرة هو حمدان بن حمدان زعيم قبيلة كانت تعيش في أعالي ما بين النهرين ، وخاض عدة معارك في العشرين سنة الأخيرة من القرن العاشر أحياناً لتأييد حكومة الخليفة ، وأحياناً إلى جانب الثوار حتى قبضت عليه القوات الحكومية في عام ٨٩٥ ، كما أن ابنه حسين كان لبعض الوقت قائداً في الجيش النظامي ، وفي عام ٩١١ عينّ حاكماً لاحدى مناطق أعالي ما بين النهرين ، ولكنه فيما بعد ثار ضد حكومة الخليفة وهزم وأعدم في عام ٩١٨ ، ورغم هذا عاد الخلفاء إلى الاستعانة بخدماتهم نظراً لاهتمامهم الكبير بالاستقرار في منطقة أعالي ما بين النهرين التي زودت العراق بكميات كبيرة من الحبوب ، وكان الحمدانيون قبيلة كبيرة قادرين على ضمان حد أدنى من الأمان ، ولذلك اضطر الخليفة لتعيينهم حكاماً مرة أخرى ، وهكذا فإن المؤسس الحقيقي للإمارة هو أبو الهيجا ، عبد الله الذي أصبح حاكماً على الموصل في عام ٩٠٥ ، ولكنه وأتباعه لم ينفصلوا عن الخلافة رغم أن الاعتراف بسيادة الخليفة كان اسمياً ، وكانوا في الواقع حكاماً مستقلين . وفي البداية خلفه في حكم الموصل ابنه ناصر الدولة الحسن ، في حين أصبح أخواه نصر وسعيد حاكمين على منطقتي ديار ربيعة وديار بكر ، وفيما بعد حكم حسن منطقة أعالي مابين النهرين بكاملها .

في عام ٩٤٣ بدأ الحمدانيون ببناء سلطانهم في شمال بلاد الشام حيث احتل سيف الدولة علي ـ أخو ناصر الدولة ـ شمال بلاد الشام حتى حمص وشنّ حرباً على

الأخشيد ، وانتهت الحرب بتقسيم بلاد الشام إلى جزء شمالي يحكمه سيف الدولة وجزء جنوبي يحكمه الأخشيد ، ويمجد كتاب حوليات العرب انجازات سيف الدولة في حروبه ضد البيزنطيين ، ولكن انجازاته على الجبهة الأخرى لم تكن أقل شأناً ، وأصبحت منطقة شمال الشام إحدى المناطق حيث تكررت غارات البدو ذات النتائج الضارة على الفلاحين وسكان المدن الصغرى ، وكان الوضع بحاجة ماسة إلى ساعد سيف الدولة القوي وقد تعهد المرة تلو المرة بالكفاح ضد هذه القبائل .

وفي عام ٩٤٩ طرد بعض قبائل بني عُقيل وقشير بن كعب من شمال الشام ، وفي عام ٩٥٤ قام بحملة قوية ضد بني كلاب ، وفي عام ٩٥٥ اضطر لمواجهة ثورة البدو التي شاركت فيها عشائر وقطاعات من القبائل المتنافرة التي غالباً ما كانت تتنافس بين بعضها بعضاً مثل كلب وطي وهم يمنيون ونمير بن عمر ، وكعب وكلاب بن ربيعة ، وهم قيسيون ، وخاض سيف الدولة في حزيران من عام ٩٥٥ معركة كبيرة قرب مدينة السلمية انتهت بنصر مؤزر لسيف الدولة ، وكانت لها نتائج بعيدة الأثر ، وكانت إحدى هذه النتائج هي سيادة بني كلاب الذين خانوا الثوار الآخرين ، وتمتعوا منذ ذلك الوقت بمركز ممتاز في شمال الشام ، ومع مرور الزمن أصبحوا سادتها ، ولكن الدولة الحمدانية في شمال الشام إنما هي إنجاز فارس عظيم هو سيف الدولة وعندما مات حكم عليها بالزوال .

إن تاريخ الشرق الأدنى في نهاية القرن التاسع والنصف الأول من القرن العاشر هو عصر القواد العظام ، ولكن إنجازاتهم لم تكن أكثر من فترة انتقال ، فالتطور الاجتماعي والاقتصادي للمقاطعات المركزية من الخلافة أوجدت ظروفاً جلبت معها بالضرورة تغيراً كاملاً في بنية الدول الاسلامية ، فالأزمة السياسية الكبرى التي أطلت مع ثورة الزنج عمّقت الشرخ بين الطبقات الاجتماعية . ونظام الثيوقراطية «القيصري البابوي» لم يعد يتلاءم مع الضرورات ولابد من زواله واستبداله بنظام اجتماعي واقتصادي جديد ، ولكن قبل حدوث هذا التغير الحتمي لجأ حكام بغداد إلى وسائل أخرى ، وبدأت فترة الانتقال المتميزة بالتوتر الاجتماعي والثورات والقلاقل الحادة .

ج ـ ذروة عصر ما قبل الرأسمالية الاسلامي :

في بداية القرن العاشر كان المدنيون لايزالون مسيطرين في العراق والمناطق الأخرى التي بقيت تحت سلطان العباسيين ، والبلاط الباهظ النفقات الذي ينفق مبالغ كبيرة من المال أصبح مركزاً للمؤامرات السياسية ونفقات الحرب الضرورية للحفاظ على المقاطعات الباقية ضد الثوار والغزاة بلغت الملايين من الدنانير . وبلغت رواتب الجيش العراقي في أيام السلم في أيام الخليفة المقتدر ٩٠٨ ـ ٩٣٢ ـ مليون دينار في السنة (١٢) ، واضطرت البيروقراطية التكنوقراطية (أهل الديوان: لتلبية مطالب وزارة المالية ، ولكنها لاقت مصاعب متزايدة ، فخلف الحكومة المدنية وقف جيش مُسيّس واسع النفوذ متزايد السلطان بدأ يشغل دور الحكم بين مجموعات الضغط المختلفة ، وبدا اليوم الذي يستولي فيه الجيش على السلطة قريباً .

وتألف الجيش من عناصر مختلفة ، غالباً ما ساد بينها التنافس الشديد ، فهناك المصافية والحجرية ، وهي وحدات المشاة التي تشكل حرس الخليفة الخاص ، وهناك وحدات الفرسان المسماة باسم القواد الذين جندوها ، وتألفت هذه الوحدات المختلفة من المرتزقة العبيد الذين تم شراؤهم للخدمة العسكرية ، والذين يسمون الغلمان الذين أتوا من أجزاء مختلفة في العالم الاسلامي والمناطق غير الاسلامية ، كان الأتراك ـ المرتزقة والعبيد ـ دائماً عنصراً قوياً في الجيش ، ولكن تواجدت إلى جانبهم وحدات كثيرة من الديلم القادمين من المناطق الحدودية الجبلية على الشواطىء الجنوبية لبحر قزوين والبربر القادمين من المغرب ، والعبيد من السودان ، كانت العناصر الديلمية كثيرة في جيش سيف الدولة ـ ملك البدو ـ الذي بعث تقاليد زعماء العشائر من بني جنسه ، إن بنية جيش الحكومة المركزية والجيوش الاقليمية على العموم واحدة . فحتى حكام الأقاليم جندوا المرتزقة واشتروا العبيد (١٣) ، ولكن عدد المغاربة في الجيش المصري كان كبيراً . كما تواجد في جيش أحمد بن طولون والأخشيد مرتزقة وعبيد قدموا من الأقطار المسيحية ـ المسمّون بالروم والصقالبة ـ وكثير من الزنوج ، وكان المماليك الأتراك على الأرجح هم أقوى العناصر في جيوشهم ، وقد ضم جيش أحمد بن طولون كثيراً من الديلم كما جنّد الحكام المصريون عناصر من البدو . وطغى في الجيش الطولوني العنصر التركي في

صفوف الضباط ، بينما تواجد في جيش الأخشيد ضباط كثيرون من أجناس أخرى [١٤] ، وطالما كانت هذه العناصر تأتمر بإمرة قائد عسكري عظيم فإن مشاعر العداء المتبادل والغيرة كانت تضعف لتبرز بدلاً منها مشاعر الحب والرهبة التي تشيعها شخصيته ، بينما كان يؤدي غياب مثل هذا القائد إلى تصعيد التنافس ليصل حد القتال .

أما طريقة دفع الأجور في ذلك العصر سواء للجيش العراقي أو الجيوش الاقليمية فقد كان نقداً ، إنها ميزة بارزة في النظام الاقتصادي والاجتماعي في عصر الخلافة الذي يتميز باقتصاده النقدي ، ولكن ماذا كان يدفع للجنود ؟ أي تأكيد على هذا الموضوع لابد أن يبقى افتراضياً ، لأن الدلائل التي يمكن العثور عليها في المصادر العربية يمكن أن تكون مضللة لأن الكتاب العرب يتحدثون عن «الشهر» أو النوبة (فترة الدفع) للجنود أو العناصر التي تتلقى المرتبات ، ولكن هذه «الأشهر» مختلفة . لأن الشهر بالنسبة لبعض الوحدات أو أصناف الجنود يبلغ ٥٠ يوماً وللبعض الآخر ٦٠ يوماً أو حتى ١٢٠ يوماً . لذلك علينا تجنب المقارنة . وتضم مؤلفات بعض المؤرخين العرب معلومات أكثر تحديداً .

يقول هلال الصابي إن المماليك حصلوا على ٧ ـ ١٢ دينار كل ٥٠ يوماً وفيما بعد ١٢ ـ ١٦ ديناراً وذلك في عهد المعتضد (٨٩٢ ـ ٩٠٢) والمكتفي (٩٠٢ ـ ٩٠٨) . وبالتالي فإن راتبهم الشهري بلغ ٤,٢ ـ ٧,٢ دينار وفيما بعد ٧,٢ ـ ٩,٦ دينار . ليس هناك أي شك في أنه بين هؤلاء المماليك فرسان ومجندون ، وجنود مدربون تختلف رواتبهم تبعاً لوضعهم ، ومن أقوال المؤرخ عريب يمكن أن نستخلص أن حرس الخليفة الخاص طلبوا في عام ٩٢٩ مبلغ ٣,٥ دينار في الشهر الهجري ، وحصل في نفس الوقت الفارس على ١٢,٥ ديناراً شهرياً . في عام ٩١٧ انقصت الرواتب بمقدار الثلثين ، ولكنها في عام ٩٢٩ بلغت تقريباً ٤٢ ديناراً ، وفي عام ٩٣٦ بلغ متوسط راتب الجندي في جيش القائد بجكم الديلمي ١٣,٥ ديناراً [١٥] وهذا يعني أن جندي المشاة الذي يعمل في حرس الخليفة الخاص طلب راتباً يبلغ ضعف أجر الصانع الماهر ، بينما كان راتب الفارس ٤ـ٦ أضعاف ذلك . هذا الوضع الممتاز للجنود في العالم الاسلامي أكثر وضوحاً لدى مقارنته برواتب الامبراطورية البيزنطية المجاورة ، حيث كانت الرواتب ـ حتى في تلك الفترة ـ على

ما يبدو لا تزيد عن ١-٢ نوميسمات (أي مايعادل ديناراً واحداً) [١٦] . وبالاضافة الى ذلك - وهذا ما يميز الوضع الاجتماعي للجنود في العالم الاسلامي - فإن رواتبهم ازدادت باستمرار على مر الأيام ، بينما لم ترتفع رواتب الجنود البيزنطيين .

ولكن الرواتب النظامية لم تكن سوى جزء من دخل الجنود في البلدان الاسلامية (كما في الامبراطورية البيزنطية) إذ أنهم تلقوا دفعات إضافية مثل دفعات اعتلاء العرش (البدعة) التي توجب على الخليفة ، دفعها في بداية حكمه ، وحصل الضباط على إقطاعات ، وهي ظاهرة عامة منذ نهاية القرن التاسع والجزء الأول من القرن العاشر في العراق والأماكن الأخرى كما هي كذلك في مصر في عهد أحمد بن طولون [١٧] .

وبالرغم من مرتباتهم العالية فإن الجنود المسلمين لم يكونوا راضين أبداً - صحيح أنه غالباً ما حدث بعض التأخير في الدفع ، ولكن المطالب ازدادت من الناحية الأخرى ، وعندما لم تتمكن الحكومة من تلبيتها قام الجنود بأعمال الشغب . ويسرد لنا كتاب الحوليات قصصاً كثيرة عن أعمال الشغب هذه . فقد هاجم الجنود الوزراء المرة تلو المرة ، كما هاجموا رؤساء الإدارة المالية ، وأحرقوا منازلهم ونهبوا القصور وعطّلوا تطبيق العدالة في بغداد نفسها وفي الأقاليم أيضاً ، واضطر الخلفاء ووزراؤهم للإذعان ، وقد اضطر المقتدر مرة إلى بيع أقمشته وسجاده والممتلكات الأخرى للحصول على المال اللازم كدفعة خاصة للجنود [١٨] .

وربما كان التأثير السياسي المتزايد للجيش ظاهرة أكثر خطورة ، فتأثير القواد المتزايد على سياسة الحكومة وتعيين كبار الموظفين من جهة ومنح الاقطاعات للضباط من جهة أخرى مهّد الطريق لإقامة نظام جديد ، تتركز فيه كل السلطة السياسية والاقتصادية في أيديهم .

وترينا القراءة المتأنية لحوليات النصف الأول من القرن العاشر أن معظم الوزراء تم تعيينهم بالاتفاق مع القواد ، وأنهم بقوا في السلطة طالما نالوا تأييدهم ، إن سلطة قائد كمؤنس بقيت قائمة لمدة طويلة ، والدور الذي شغله والقواد الآخرون دليل هام على التبدل القادم .

ولكن الضباط لم يحلّوا محل كبار الموظفين المدنيين على رأس الحكومة ، إذ أن الجنود الغرباء والرأسماليين المحليين تقاسموا السلطة ، وبقي المدنيون الغالبية ، فالوزراء يرأسون الحكومة والحقيقتان الأساسيتان اللتان حددتا دور الطبقات الحاكمة هما : الحاجة إلى مبالغ كبيرة لتدفع للجيش ، ومن جهة أخرى تداول كميات كبيرة من العملات الذهبية والفضية .

كثيراً ما تذكر حوليات ذلك العصر الثروات الطائلة بالعملات الذهبية والفضية ، فأفراد الطبقات العليا امتلكوا مبالغ ضخمة من الدنانير الذهبية والدراهم الفضية ، وكان الدفع يتم نقداً كما راجت تجارة السبائك (١٩) ، وتعتبر هذه الظواهر أهم ميزات أي اقتصاد نقدي ، ولكن الاقتصاد النقدي في الشرق الأوسط الاسلامي في القرنين التاسع والعاشر تميز بخصائص فريدة ، فلقد بقيت الأموال قيد التداول بسبب الغرامات المفروضة اعتباطياً على الأغنياء ، وهي وسيلة لجأت إليها كل الحكومات الاسلامية للحصول على الأموال التي تحتاجها للنفقات ، ومالت حكومة الخليفة أكثر من غيرها إلى استعمال هذه الطريقة لأن ميزانيتها كانت دائماً في عجز وارتباكها في ازدياد وبالتالي فإن اللجوء إلى فرض هذه الغرامات ـ المصادرة ـ أصبح مبدءاً ثابتاً في الدولة الاسلامية ، وكانت إحدى نتائجها أن المبالغ الضخمة من الأموال الموجودة في حوزة الأغنياء أعيدت للتداول ، وأهمية هذه الغرامات من الناحية الاقتصادية يمكن استخلاصها من نص من كتاب تاريخ الوزراء لصاحبه هلال الصابي ، يقول : إنه رأى وثيقة تحتوي على قائمة من الغرامات التي فرضها المحسن أثناء الوزارة الثالثة لأبيه ابن الفرات (٩٢٣ ـ ٩٢٤) والتي بلغ مجموعها :

٦٥٧٥٦٨٠ دينار

٥٣٠٠٠٠٠ درهم

٦٩٥٥٠٠٠ دينار

ويمكن تقدير أهمية هذه الغرامات من الحقيقة القائلة أن مجموع الواردات الضريبية لدولة الخلافة في عام ٩١٨ بلغ ١٤٥٠١٩٠٤ دينار ، وقد استعملت الحكومة ذرائع مختلفة لجباية هذه المبالغ سواء كانت حكومة حكام الأقاليم أو الخلفاء

الجدد ، وغالباً ما كان يعاقب أقارب وموظفو وخدم الرجل الغني معه ، وكلما كان الأخشيد بحاجة للمال من أجل حملة قادمة لجأ إلى فرض الغرامة على كاتبه وموظفيه الآخرين ، ونتيجة لاتباع نظام المصادرة وضعت مبالغ طائلة من المال في التداول ، ولكنه أدى إلى نتيجة عكسية . فتخوفاً من هذه الغرامات الاعتباطية لجأ الناس إلى كنز المال كعملات وسبائك ومجوهرات ومنتجات ثمينة ، مثل الأواني والأقمشة ، وإخفائها حيثما أمكن في الحظائر والاستراحات والأمكنة الأخرى [٢٠] ، ولكن إعادة مبالغ كبيرة من المال إلى التداول ظاهرة تفوق المصادرة في الأهمية .

والطريقة الأخرى التي استخدمتها الحكومات الاسلامية في هذه الأيام ، وأدت إلى نفس النتيجة هي مصادرة أموال الموتى ، فقد انشيء ديوان خاص لمصادرة المواريث ، ووضع اليد على ممتلكات الأموات اللذين لا ورثة لهم ، وألغي هذا الديوان المسمى بديوان المواريث الحشرية الذي أنشأه الخليفة المعتمد (٨٧٠ - ٨٩٢) في عام ٨٩٦ ، وأعيد في عام ٩٢٠ ، ثم ألغي ثانية في عام ٩٢٣ ، ولكنه بقي مؤسسة هامة أقامتها كل الدول الاسلامية تقريباً ، ومن الواضح أن هذا أفاد الحكام الجشعين بصورة كبيرة . واكتفوا بفرض ضرائب الوراثة واستخدموا أحياناً الذرائع لمصادرة ثروة المتوفى بصورة لا شرعية ، ولقد استخدم الأخشيد هذه الطريقة في مصر لمصادرة الثروات التي خلفها الموظفون والتجار ، وعينّ سيف الدولة قاضياً في حلب وأصبح مشهوراً بالخدع التي استخدمها لتحويل المواريث الى الحاكم [٢١] .

ومن بين إجراءات الادارة التي أعطت تداول النقد دافعاً جديداً لابد من ذكر بيع الوظائف وتحصيل الرسوم لاستمرار الوظيفة (الاستثبات) ، فلقد تقننت الرشوة : عندما أعيد تعيين ابن الفرات في عام ٩١٧ أقام ديوان المرافق الذي توجب على الموظفين المصروفين من الخدمة أن يعيدوا إليه جزءاً من الرشاوى التي تلقوها ، وبعد سقوطه اتهم بأنه تلقى مدة وزارته الأولى مبلغ ٤٠٠,٠٠٠ دينار «كأرباح سرية» من المناطق السورية ، وأن رشاواه بلغت ١,٢ مليون دينار . كما فرض الموظفون مبالغ كبيرة للاستثناء - وهو رسم لاسقاط الدعاوى القضائية أو لاسقاط الديون [٢٢] ، كما استخدمت العبارة نفسها لبيع أملاك الدولة المزدوج : فالمشتري مضطر لشرائها بسعر قليل لكي تباع ثانية نيابة عنه من قبل عملاء الحكومة ، وعلى

المشتري الأول دفع الثمن مباشرة إلى الحكومة التي حصلت في هذه الحالة على الأموال التي تحتاج إليها .

وجعلت هذه الطريقة في إدارة الدولة وضع الطبقات الحاكمة محفوفاً بالمخاطر ، فطالما بقي الموظف في منصبه توفرت لديه إمكانية الحصول على الثروة أو زيادتها ، ولكنه عندما كان يفقد منصبه كان يفقد معه جزءاً كبيراً من أملاكه ، وليست الثروة هي التي تمنح الشخص قوة بل إن المنصب هو الذي يغنيه ، وهي سمة منتظمة في الحياة الاجتماعية في الشرق ، ومتناقضة تماماً مع ما استخلصه بعض فلاسفة التاريخ الغربيين من الظروف التي يعرفونها ، ولقد أدركها ابن خلدون في نهاية القرن الرابع عشر .

ففوق قمة الهرم الاجتماعي والسياسي في الدولة الاسلامية في تلك الفترة تقاسمت طبقتان السلطة التي لم يستولِ عليها الجيش بعد ، فهناك ضامنو الضرائب ورؤساء الادارة ـ الوزراء والموظفون الكبار ، وفي الحقيقة لم تكن هاتان المجموعتان مختلفتين بالضرورة بل على العكس من ذلك فإن نفس الأشخاص ضمنوا الضرائب ، وشغلوا المناصب العليا في الادارة ، فعندما يتم تعيين متعهد للضرائب في منصب الوزارة فإنه يحتفظ بوظيفة ضامن الضرائب (٢٢) .

ويعتبر نظام ضمان الضرائب أقصر الطرق لتعادل موازنة الدولة ، والحصول على الأموال اللازمة لدفع رواتب الجنود في أوقاتها ، ولذلك شاعت في كل مكان : في العراق وإيران وسورية ومصر . فضامنو الضرائب الرئيسيون كان لهم ضامنون ثانويون تعهدوا الجباية في مناطق معينة . كان الهدف من معظم عقود الضمان هو جمع ضرائب الأرض ـ الخراج ـ الذي اعتبر المصدر الرئيسي للدخل في الدولة الاسلامية . ولكن غالباً مااشتمل العقد على إدارة الضياع الملكية ، وتم بنفس الطريقة ضمان الضرائب الأخرى كتلك التي تسمى المكوس وهي الضرائب المفروضة على مختلف أنواع التجارة ولم يتم في بعض الأحيان ضمان الضياع الملكية وضياع الخليفة الخاصة مع الخراج . بل ضمنها أشخاص آخرون ، وللحصول على العقد اضطر المرء للتفاهم مع الادارة ، ولتقديم الضمانات وهو نوع من الصفقات التي تتم عن طريق الوسطاء ، ويحدثنا أحد كتاب الحوليات أنه في أحد الأيام حصل

أحدهم على عقد ضمان الضرائب في خوزستان بعد أن دفع مبلغ ۲۰,۰۰۰ دينار لأحد الوسطاء [٢٤] .

وكان معظم ضامني الضرائب رجال أعمال أغنياء جمعوا ثرواتهم في حقول أخرى من النشاط الاقتصادي وكانت لديهم المقدرة على الوفاء بمثل هذه الالتزامات الكبيرة ، إنها من أعراض الظروف المتغيرة في فترة الانتقال أن يكون ضباط الجيش مهتمين بضمان الضرائب . لقد فرض الوزير علي بن عيسى الفيتو على محاولاتهم واستطاع احباطها ، ولكن لما كان بإمكان ضامن الضرائب أن يحجب دفع المبالغ المستحقة للحكومة ، وبهذه الطريقة يؤثر على سياستها ، وعلى هذا الأساس أصبح ضامنو الضرائب أقوياء جداً بحيث بدأوا يطمحون بالاستيلاء على هذه المهمة ، وغالباً ما توقفت الحملات العسكرية على حسن نواياهم ، ولو شاؤوا لجهزوا الجيوش بأنفسهم . ولكن الأهم من ذلك - والسمة المميزة لاتجاه التطور - هي أنهم أصبحوا حكاماً للمناطق التي ضمنوا ضرائبها في السابق وبالتالي اصبحوا الأسياد الفعليين لنظام الخلافة المتداعي ، فعلي بن أحمد الراسبي الذي توفي عام ٩١٣ ضمن ضرائب بعض مناطق جنوب شرق العراق وخوزستان التي جلبت للحكومة ١,٤ مليون دينار في السنة ، ويقول المؤلفون العرب أنه حكم هذه المناطق وكان تدخل حكومة الخلافة معها رسمياً وربما بدون تدخلها على الاطلاق ، والدور الذي شغله حامد بن العباس الذي ضمن ضرائب منطقة واسط وأصبح وزيراً فيما بعد هو مثال آخر ، كما أن الحمدانيين ضمنوا ضرائب منطقة الموصل ، وأبو الحسن علي بن خلف بن طيب الذي كان في السابق ضامن ضرائب عدة مناطق أصبح فيما بعد حاكماً لديار مضر ، والبريديون - أبناء رئيس بريد البصرة الذي لعب دوراً هاماً في سياسة العراق وسياسة جنوب غرب ايران في العقدين الثالث والرابع من القرن العاشر - كانوا ضامني ضرائب قبل أن يصبحوا حكاماً وقواداً عسكريين[٢٥] . وبما أن إدارة المنطقة أسندت عادة إلى الشخص الذي ضمن ضرائبها فإن هذا العمل أصبح خطوة في حياة القائد السياسي في المستقبل .

تحتوي الحوليات العربية على مختلف التفاصيل التي تخص الأرباح الهائلة لضامني الضرائب ، فالرجل الذي يهمه الحصول على عقد لا يتردد في تقديم بضع مئات الآلاف من الدنانير زيادة عما دفعه سلفه ، ففي عام ٩١٩ عرض حامد بن

العباس مبلغ ٤٠٠,٠٠٠ دينار في السنة أكثر من المبلغ المقدر لضرائب العراق الأسفل وفارس وأصفهان ، وأثناء سير المفاوضات أضاف مبلغ ٢٠٠,٠٠٠ دينار اخرى ، تم تضمين ضرائب منطقة أصفهان لوحدها في السابق لرجل عرض ١٠٠,٠٠٠ دينار أكثر مما دفع سلفة ، وعرض يعقوب بن أبي الساج في عام ٩١٦ مبلغ ٧٠٠,٠٠٠ دينار صافو لضمان ضرائب الريّ ، وألزم نفسه بتحمل نفقات موظفي المنطقة ونفقات أخرى ، ولكنه في عام ٩٢٢ عينّ حاكماً للريّ وبعض المناطق الأخرى مثل قزوين وأبهر وزنجان وأذربيجان مقابل مبلغ ٥٠٠,٠٠٠ دينار فقط ، ومن جهة أخرى نجد في الميزانية التي استخرجها علي بن عيسى لعام ٩١٨ الأرقام التالية لضرائب المناطق المذكورة :

الري وداماوند	٥٨٧٧٢٢	دينار
قزوين وزنجان وأبهر	١٧٤٠٠٠	دينار
أذربيجان وأرمينية	٢٢٦٣٧٠	دينار
المجموع	٩٨٨٠٩٢	

جلبت منطقة واسط بالاضافة الى الدخل من الضياع الملكية فيها ـ حسب أرقام نفس الميزانية السابقة ـ ٣١٠٧٢٠ ديناراً ومن جهة أخرى نقرأ في كتاب تاريخي أن ضمان المنطقة وصل في عام ٩٣٤ إلى مبلغ ١٣ مليون درهم أي حوالي مليون دينار ، والنموذج البارز لهذه العروض المقدمة هو مبلغ ضرائب فارس وكرمان في عام ٩١٠ ، حيث كان القاسم بن عبيد الله حاكماً لهاتين المنطقتين في عهد الخليفة المكتفي (٩٠٢ ـ ٩٠٨) مقابل ٤ مليون درهم في السنة ، وعرض خلفه ٧ مليون درهم . وعندما لم تكن الحكومة على استعداد للاكتفاء بهذا المبلغ عرض ٩ مليون درهم بالاضافة الى التعهد بتغطية نفقات الحامية العسكرية المتواجدة في هاتين المنطقتين . وأخيراً دفع ١٠ مليون درهم [٢٦] .

يمكن بسهولة شرح الفروق الكبيرة بين مبالغ ضمان هذه الضرائب ، فحصل الراغبون على عقود تقوم على تقديرات قديمة لا تتوافق مع المبالغ الفعلية ، فابتزوا من جهة أخرى مبالغ أكبر من المواطنين بفرض ضرائب أكبر عليهم ، فتضخمت ثروات متعهدي الضرائب لأنهم غالباً ماامتنعوا عن دفع المبالغ المستحقة للحكومة . فقرأ مثلاً في حوليات مسكويه أن حامد بن العباس أصبح مسؤولاً قانونياً عن أكثر

من مليون دينار إضافي مستحقة من منطقة واسط . ويقوط المؤلف نفسه أ يوسف بن أبي الساج لم يستطع دفع المبالغ التي تعهد بدفعها .

ورغم قدرة ضامني الضرائب ، إلا أنهم لم يتمتعوا بالطمأنينة ، فقد اعتقل بعضهم وفقدوا كل ثرواتهم وصودرت ممتلكات البعض الآخر بعد موتهم ، وبلغت قيمة ضياع حامد بن العباس التي صودرت في عام ٩٢٣ أكثر من ٢,٢ مليون دينار ، كما تغرم الأخوان أبو يوسف ، وأبو عبدالله البريدي مبلغ (١٢) مليون درهم في عام ٩٣٣ [٢٧]

وإلى جانب القادة ومتعهدي الضرائب كانت الفئة الصغيرة من رؤساء الدواوين (الوزارات) وعلى رأسهم الوزير هي الأكثر سلطة في الحكومة . فهم أيضاً أشخاص أغنياء لأن مركزية الإدارة في الامبراطورية جعلت من الممكن تكديس الثروات الكبيرة بين أيديهم ، وبينما خرج ضامنو الضرائب من صفوف رجال الأعمال فإن الوزراء خرجوا من بين صفوف الكتاب وكبار الموظفين ، وتنتمي أسرهم غالباً إلى طبقة ملاك الأراضي الأغنياء ، ويتميزون بمعرفتهم للغة والأدب ، اذ كان هذا هو شرط صعودهم .

إن وضع الكتاب الاجتماعي ينعكس في رواتبهم ، فالموظف الثانوي يحصل على مبلغ ٦ دينار في الشهر ، بينما يحصل الكاتب ذو المسؤوليات الأكبر على ٨ ـ ٢٠ ديناراً ، وتصل رواتب كبار الموظفين مثل رؤساء الدوائر إلى مبلغ ٢٠ ديناراً أو أكثر ، وهذا يعني أن رواتب الموظفين المتوسطين بلغت ٥ـ٦ أضعاف أجور العمال المهرة مثل البناء أو النجار ، ولذلك فإن التراتب الاقتصادي والاجتماعي للمجتمع الاسلامي شديد الشبه بتراتب المجتمع البيزنطي [٢٨]

وتحدر الكثير من الكتاب من عائلات كانت تشغل مناصب رفيعة في الادارات المختلفة عبر عدة أجيال وشكلوا عصبة حقيقية مع أصدقائهم وأقربائهم في كل دوائر الحكومة ، فمنذ تنصيب الخليفة المعتمد في عام ٨٧٠ وحتى موت الراضي تبدلت الوزارة ٣٧ مرة ، وبما أن ستة من الوزراء عينوا مرتين ، وأربعة شغلوا المنصب ثلاث مرات فإن عدد الذين شغلوا المنصب ٢٣ شخصاً . وكان نصيب بعض العائلات مذهلاً حقاً . لنلخص الآن المعلومات الواردة في الحوليات :

بنو وهب	٥	وزراء	أحدهم ٣ مرات
بنو خاقان	٣	وزراء	
بنو قرة	٦	وزراء	اثنان منهم ٣ مرات
بنو الفرات	٢	وزيران	أحدهم ٣ مرات

وهذا يعني أن ١٦ وزيراً من ٤ أسر شغلوا المنصب ٣٠ مرة من ٣٧ مرة ، كما أن الادارة في الأقاليم كانت محتكرة أيضاً بعصبات أوليغاركية إلى حد كبير : فعلى رأس الادارةالماليةفي مصر تربع موظفون ينتمون إلى عائلة من جنوب العراق طيلة هذه الفترة تقريباً ، كما أنهم شغلوا مناصب مماثلة في سورية ، وتم تعيين أحمد بن ابراهيم الأطرش المضري في عام ٨٨٠ رئيساً للادارة في مصر ، وبعد موته أصبح ابنه علي وزير مصر كما أن أبا بكر محمد بن علي هذا أصبح رئيس الادارة في مصر مع التقلبات المعتادة من الاقالة والعودة حتى عام ٩٤٧ ، وقد صرّف أمور الادارة لجزء من الوقت بالتعاون مع أخيه أبي الطيب ، ومنذ عام ٩٠٥ أصبح عمه أبو زنبر بن أحمد رئيس إدارة مصر والشام عدة مرات .

وكان قسم كبير من هؤلاء الوزراء والمستشارين للخزانة في الأقاليم مسلمين ، والبعض الآخر كان مسيحياً . حيث بقي هناك عدد كبير من الكتاب في خدمة الحكومة على الديانة المسيحية ، وقد عمل الكثير منهم كتّاباً للعظماء والقادة والحكام وشغلوا مناصب عالية في الادارة المالية . وهي ظاهرة عامة في كل من العراق والأقاليم الأخرى ، ومنذ خلافة المعتضد (٨٩٢ ـ ٩٠٢) ازداد عدد الموظفين المسيحيين إلى حد كبير . وعندما سئل الوزير عبيدالله بن سليمان حول هذا الموضوع ، أجاب مسوغاً تعيينهم ، وبالرغم من اعتراضات المسلمين المتعصبين نستطيع القول أن الكتاب المسيحيين شغلوا المناصب في الادارة العسكرية [٢٩]

واستطاع عدد كبيرمن هؤلاء الكتاب العيش المريح على دخله من ضياعه دون حاجة لشغل المناصب . فالوزير علي بن عيسى بلغ دخله ٨٠,٠٠٠ دينار من ضياعه أثناء فترة تركه لمنصب الوزارة ، وحسب روايات المؤرخين العرب بلغ دخل ابن الفرات السنوي مليون دينار قبل استلامه الوزارة وقدرت ثروته في المال والضياع والأثاث بحوالي ١٠ ملايين دينار ، والملاحظ أن الوزراء ورؤساء الدوائر والمفتشين

وكبار الموظفين الآخرين اثناء شغلهم للمناصب لم يكتفوا فقط بالرواتب العالية التي بلغت في أيام المقتدر ٥٠٠٠ ـ ٧٠٠٠ دينار شهرياً ، بل تلقوا أيضاً دخل ضياع الوزارات التي كانت تصل إلى مبالغ كبيرة ، فعندما شغل علي بن عيسى المنصب بلغ دخله من ضياعه ٧٠٠,٠٠٠ ديناراً في السنة ، وبلغ دخل ابن الفرات أثناء وزارته الثانية مبلغ ١,٢٠٠,٠٠٠ . ولكن معظم هذه الضياع آلت إلى الوزراء كملكية خاصة ولم تمنح لهم كجزء من مرتباتهم ، ولم تدر أراضي التاج التي أعطيت لابن الفرات لهذا الغرض عليه اكثر من بضعة عشرات من الآلاف ، وبالتالي فإن الوزراء حصلوا على الضياع الكبيرة باستخدام مناصبهم ، وحسب إحدى الروايات بلغ دخل ضياع ابن الفرات وأخيه أبي العباس ٢٠٠,٠٠٠ دينار قبل تعيينه الأول ، و ٨٠٠,٠٠٠ دينار بعد عزله . كما أن كبار الموظفين استعملوا مناصبهم للحصول على ضياع كبيرة ، واشترى أبو جعفر محمد بن شيراز من أراضي التاج ضياعاً بلغ دخلها مليون درهم في السنة .

وامتلك رؤساء الادارة المالية في مصر كابن المدبر والمضسر بيين ضياعاً ريفية كثيرة . وبالاضافة إلى ذلك فإن الوزراء وكبار الموظفين اشتغلوا بالنشاطات التجارية المتعددة مستغلين مناصبهم على الدوام . والقصة التي يسردها هلال الصابي عن أصل الثروة العظيمة لابن مقلة تعتبر نموذجية ، أثناء وزارة ابن الفرات الذي سمح له بكسب مبلغ كبير من بيع الحبوب التي في حوزة الحكومة (٣٠) ، وكان كبار الموظفين رجال أعمال وملاكين وتجاراً كباراً مارسوا هذه النشاطات باستمرار بالتعاون الوثيق مع بعض المجموعات من كبار القادة ، إذ أن أسر الوزراء أو رؤساء الادارات كانت تتحالف دائماً مع أحد القادة ومساعديه ، كما أن الوزراء وكبار الموظفين استغلوا مناصبهم أيضاً لاقتطاع جزء كبير من الغرامات والرشاوى وفي بعض الأحيان كانت المبالغ المخصصة لخزانة الدولة تدخل بدلاً من ذلك في حساب الوزير الخاص ، ويقول أعداء ابن الفرات أنه حصل من هذا المصدر على ١,٢ مليون في السنة أثناء وزارته الثانية (٣١)

وبالرغم مما تمتعت به هذه الفئة الحاكمة من مال وجاه وسلطة إلا أنها لم تنعم بالأمان بل على العكس من ذلك كان وضعها قلقاً جداً ، فالوزير مهدد بالعزل والاعتقال ومصادرة ممتلكاته ، إذا لم يستطع تلبية مطالب الجنود ، كما أن أسرته

وأقاربه معرضون لنفس المصير . وإذا رفض التوقيع على صك المصادرة لأن المبلغ يفوق امكاناته فإنه سيتعرض للجلد والتعذيب .

إن مقدار الغرامات المفروضة على الوزراء وكبار الموظفين كبير حقاً . وفيما يلي بعض منها :

الاسم	العام	المبلغ
أبو بكر محمد المضري	حوالي عام ٩٢٣	١,٢٠٠,٠٠٠ دينار
	حوالي عام ٩٣٥	١,٠٠٠,٠٠٠ دينار
أبو محمد الحسن المضري	٩٢٣	٢,٢٠٠,٠٠٠ دينار
أبو زنبر المضري	٩٢٣	١,٧٠٠.٠٠٠ دينار
ابن الفرات	٩١٢	٧,٠٠٠,٠٠٠ دينار (مصادرة)
	٩١٨ (العزل الثاني)	٧٠٠,٠٠٠ دينار (غرامة)
	٩٢٤ (العزل الثالث)	٣,٠٠٠,٠٠٠ دينار (مصادرة)
		٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار (صك)
رواية اخرى عن ابن الفرات وكتابه وأقاربه	٩١٢	٤,٤٠٠,٠٠٠ دينار
	٩١٨	٢,٣٠٠,٠٠٠ دينار
	٩٢٤	,٩٠٠,٠٠٠ دينار
أبو الخطاب ابن الفرات	٩٣٣	٣٠٠,٠٠٠ دينار
المحسن أحد أبناء ابن الفرات	٩٣٣	٣,٠٠٠,٠٠٠ دينار
ابن قرابة	٩٣٣	٩٠,٠٠٠ دينار
الكلوذاني	٩٣٣	٢٠٠,٠٠٠ دينار
عبد الرحمن بن عيسى	٩٣٦	٧٠,٠٠٠ دينار

ابن مقلة	٦٣٦	
محمد بن قلـه كاتب الأخشيد	٩٤٤	١,٠٠٠,٠٠٠ دينار
دينار		٣٠٠,٠٠٠

وحتى لو أخذنا بعين الاعتبار أن هذه المصادرات نفّذت جزئياً ، والسماح بها لاعتبارات المبالغة في تقدير ثروات هؤلاء البيروقراطيين علينا أن نستخلص أنهم جمعوا ثروات ضخمة ، ولا يمكن القول بأن الرواتب المدفوعة لهم هي بقصد إعالتهم مع أقاربهم ، لأن الكتاب العرب يشيرون صراحة إلى الرواتب المدفوعة للأبناء وحتى أبناء الوزراء القاصرين ، وهكذا علينا أن نقبل أقوال المؤرخين العرب كدليل واضح على أن الفوارق بين الطبقات في مجتمع الشرق الأوسط في هذه الفترة كبيرة جداً .

يبدو أن الموقع الاقتصادي والاجتماعي للبرجوازية الكبيرة كان عالياً وتحالفت هذه الطبقة مع العصب التي تسيطر على إدارة الخلافة وأصبحت غنية وقوية جداً ، ولكنها من الجانب الآخر كانت قليلة العدد وسريعة العطب . أما البرجوازية المتوسطة والصغيرة فهي مكبوتة بواسطة الأوليغاركية الحاكمة ، كما أن هناك فروقاً كبيرة بين الطبقات البرجوازية نفسها ، فالشرائح العليا مكونة من التجار والصناعيين إلى جانب أصحاب الأراضي . وشكل هؤلاء التجار الأغنياء طبقة صغيرة اشتغل معظمها بالتجارة بالبضائع الكمالية التي كانت تمتاز بحجمها المحدود .

كانت هناك بالطبع مجموعة من تجار الجملة الذين يتاجرون بالقمح والحبوب الأخرى والذين يتعاونون على الدوام مع متعهدي الضرائب وطلب تجارة القمح حرة في النظام ما قبل الرأسمالي في دولة الخلافة . لم تقع بعد في أيدي أمراء الاقطاع ، وتشير القرارات القضائية التي تعود لهذه الفترة الى تجارة القمح ، ويذكر كتاب الحوليات العرب تجار الحبوب والدقيق الأغنياء ، لكن كميات كبيرة من الحبوب أصبحت حينئذ في حوزة الحكومة أو ـ بدقة أكبر ـ في حوزة متعهدي الضرائب الذين استلموها كضرائب عينية ، وعلى هذا الأساس أصبح من غير الممكن القيام بالتجارة الكبيرة إلا بالتعاون مع جامعي الضرائب ومتعهديها وكبار الرأسماليين الذين يملكون ضياعاً كبيرة ، ولكن غالباً مايفضّل هؤلاء الاشتغال بهذه التجارة المربحة بأنفسهم ،

فالأمراء الملكيون ومتعهدو الضرائب احتفظوا بكميات كبيرة من القمح لأغراض المضاربات ، وأدت هذه المضاربات في عام ٩٢١ الى المجاعة في بغداد ، مما سبب أعمال الشغب ونهب الغوغاء للمخازن وأخيراً لتدخل الخليفة وإجبار الأمراء الملكيين وكبار التجار على بيع القمح بأسعار مخفضة (٣٣)

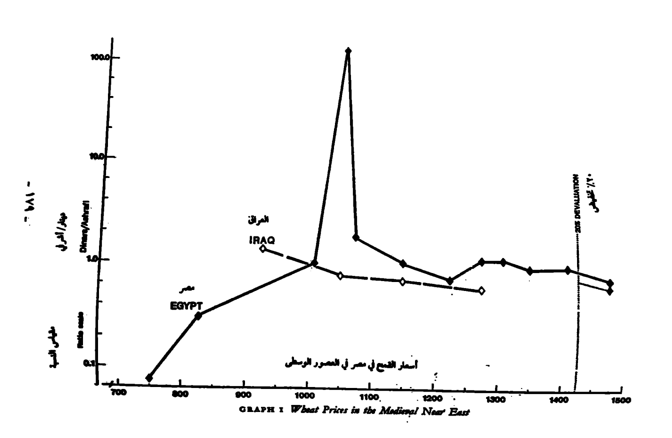
وهناك أسباب وجيهة للاعتقاد بسيطرة ظروف مشابهة في الفروع الأخرى من تجارة الأغذية مثل زيت الزيتون وهو فرع هام من التجارة في بلاد الشام ، وللحصول على طلبات لتوريد البضائع للجيش لابد من دفع الرشاوى أو إيداعها لدى الوسطاء ، وهي حصة كبار الموظفين وأصبح من المحتم التعاون وتقاسم الأرباح بين كبار رجال الأعمال والبيروقراطيين ، ولذلك كانت الأرباح التي يجنيها التجار من هذا الفرع محدودة .

أما تجارة الأقمشة فكانت أرباحها أكبر كما كان البزازون ـ تجار الأقمشة ـ أغنى مجموعة من التجار وأعلاها منزلة إذ اشتغلوا بتجارة الأقمشة الثمينة والغالية مثل الحرير والمطرزات الفارسية والبيزنطية أو الأقمشة المطرزة بالذهب ، وكانت هذه التجارة إلى حد كبير عالمية لأن الكثير من بضائعها كان مستورداً من البلدان الأخرى الاسلامية وغير الاسلامية ، وكان من الممكن استيراد منتجات الكتان المصري والأقمشة القطنية الفارسية في العراق لأن الدول الاسلامية الجديدة لم تضع أية عراقيل في وجه التجار الذين يعبرون حدودها ، طالما لم تغرهم الصراعات السياسية باتخاذ الاجراءات ضد تصدير منتجاتها ، فأصبحت ثروات البزازين اسطورية كما يظهر عندما يذكر كتاب الحوليات العرب موت تجار الأقمشة الأغنياء . فعندما مات عفّان بن سليمان البزاز ـ أغنى تجار مصر في عصره ـ في عام ٩٣٦ ، صادر الأخشيد ١٠٠,٠٠٠ دينار من ممتلكاته (٣٤) .

كانت تجارة الأحجار الكريمة والمجوهرات مرتبطة بتجارة الأقمشة ، فبضائعها غالية جداً وحجمها صغير جداً وأرباحها طائلة ، ودفع الوزراء والأمراء مبالغ كبيرة ثمناً للجواهر المستوردة في الهند ومصر العليا والأماكن الأخرى ، فلكل نوع من البهارات والأحجار الكريمة زبائنه وتحتوي كتب أدلة التجار [١] على قواعد

---

(١) اشتهر في الأدب العربي قولات كثيرة عن الجواهر وتمييزها منها على سبيل المثال الجوهرتين لابن الحائك الهمداني صاحب الاكليل ، وأزهار الأفكار للتيفاشي .



أسعار القمح في مصر في العصور الوسطى

GRAPH 1 *Wheat Prices in the Medieval Near East*

تمييزها ، واشتهر تجار المجوهرات بغناهم كما اشتهرت سهولة تجريدهم من هذه الثروات . ويركز الكتاب العرب على قضية أبي عبد الله حسين بن الجصاص وهو تاجر مجوهرات مصري استقر في بغداد واشتهر بغناه ، وفي عام ٩١٤ اعتقل حسين وفرض عليه دفع أموال ومجوهرات بقيمة (٤) ملايين أو حتى (٦) ملايين دينار ، ويذكر كتاب الحوليات أنه تفاخر بامتلاكه لأكثر من (٢٠) مليون دينار [٣٥]

والمجموعة الأخرى لرجال الأعمال الأغنياء هم أصحاب المصارف ، فالنشاطات المصرفية كانت بالفعل ناشطة في الأقطار الشرقية في تلك الفترة عندما توصل اقتصادها إلى وضع متقدم من مرحلة ما قبل الرأسمالية ، ولقد تم دفع مبالغ كبيرة من المال بواسطة الصكوك التي تضمنها الخطوط وتنقلها السفاتج ، ومكّن استعمال السفتجة من نقل الأموال للبلدان البعيدة دون التعرض للمخاطر الناجمة عن الظروف السياسية في ذلك العصر ، ويتحدث الجغرافي ابن حوقل عن حوالة بمبلغ ٤٢٠٠٠ دينار أرسلت من سجلماسة (في شرق المغرب) إلى تاجر في أودغشت (في غرب السودان) . وحتى دوائر الحكومة وجباة الضرائب استعملوا هذه الوسيلة أيضاً لنقل مبالغ كبيرة من المال بواسطة السفتجة [٣٦] ، كما أن تنوع العملات المصكوكة في مختلف مناطق امبراطورية الخلافة وتقلب أسعار العملات قدم حافزاً قوياً للمصارف ، ولكن تداول كميات كبيرة من المال على شكل عملات ذهبية وفضية في المقام الأول هو الذي شجّع الناس على اللجوء إلى الصيارفة ، إذ لم يحدث من قبل أن وضعت مثل هذه الكميات الكبيرة في التداول في هذا الجزء من العالم ، وتم إيداع مبالغ كبيرة لدى الصيارفة الذين استثمروها وقدموا القروض بالفائدة ، وكان الأغنياء زبائن لهم حيث أشرفوا على إدارة أموالهم وتلقوا الدفعات لحسابهم ودفعوا لهم الأموال . فالوجيه المعروف ابن شيراز كان له صيرفي يهودي ، هو علي بن هارون بن علاّن ، كما أن أبا عبدالله البريدي ضامن ضرائب وحاكم خوزستان كان له ثلاثة صيارفة إثنان منهم من اليهود ، والثالث مسيحي على الأرجح ، وكان وجود هؤلاء ضرورياً جداً لكبار الموظفين لأنهم كانوا يطلبون من أصحاب المصالح أن يدفعوا الرشاوى إلى صيارفتهم اللذين أمروا بعدم تسجيل حسابات هذه المبالغ ، ونشأت مؤسسات الصيرفة في كل مدينة كما نشأت شوارع الصيرفة في المدن الكبرى ، ففي بغداد نشأ شارع عون ، وتواجد في أصفهان في عام

المصادرات . واعترف في عام ٩١٨ ابن الفرات أنه أودع معهما ٧٠٠,٠٠٠ دينار ولدى تعينهما مصرفاً ملكياً نقلا الضرائب من خوزستان إلى بغداد وقدموا للحكومة مبالغ كبيرة . وفي روايات كتاب الحوليات حصل الوزير علي بن عيسى منهما على قروض مكّنته من تغطية نفقاته الشهرية العادية ، ولا ينسى المؤلفون العرب الاشارة الى معدل الفائدة ، ومن جهة أخرى يحدث ذكر سهل بن نظيرة من النصوص التي تشير للعقد الرابع من القرن العاشر ومن المرجح أنه سهل بن نطير نفسه الذي كان أحد صيارفة أبو عبدالله البريدي في الأهواز ، وتعرض للتعذيب في عام ٩٤١ . ويذكر نص يشير إلى عام ٩٢٨ «أبناء نطيرة» ، بينما تتحدث الوثائق العربية اليهودية من النصف الثاني من القرن العاشر عن «أبناء هارون» كصيارفة نشيطين . وهم من أبناء هارون بن عمران [٣٩] .

صيارفة البلاط اليهود

يوسف ـ منخاس ـ ابراهيم (٩٢٢) في دمشق ـ يوسف
هارون بن عمران ـ ابنة
نطيرة
ابراهام ـ بشر ـ اسحق ـ سهل
موسى (٩٥٣) هارون (٩٥٣) ـ نطيرة
ابراهام (٩٦٢ ـ ٩٩٠)
يوسف ـ سهل ـ يعقوب ـ اسحق

وبعد التركيز على نشاطات المؤسسة المصرفية اليهودية خلال أربعة أجيال ـ يمكن ذكر كثير من الصيارفة المسيحيين في العراق ومصر ـ ويبرز السؤال عما إذا كان هؤلاء الصيارفة الذين تركزت في أيديهم قوة مالية كبيرة أقوياء بما فيه الكفاية للتأثير في سير الأحداث السياسية ، وهل يمكن اعتبارهم مجموعة ضغط سياسي ؟ لابد أن يكون الجواب على هذا السؤال ظاهرياً بالنفي ، فلم تكن لديهم موارد متعهدي الضرائب ، ولم يكونوا يطمحون لأية سلطة سياسية ، كما فعل غيرهم من الصيارفة الكبار ، وأصبح متعهدو الضرائب رؤساء الادارات في مناطقهم ، وأصبح لهم حرّاس وأتباع والأهم من ذلك هو أن أرباحهم أكبر لأن الخراج كان

المصدر الرئيسي للثروة في الامبراطورية الاسلامية حتى في تلك المرحلة ما قبل الرأسمالية المزدهرة .

وتشير المعلومات التي نجدها في المصادر العربية المختلفة في نهاية القرن التاسع والنصف الأول من القرن العاشر إلى أن العلاقات التجارية مع الهند والشرق الأقصى كان لها نفس طابع علاقات الفترة السابقة فيما يختص بالبضائع ، فهي تألفت بشكل رئيسي من استيراد العطور - وهي البضائع الكمالية التي تخص الطبقات العليا ، وبالتالي فإن عدد التجار المشتغلين بها محدود نسبياً ، وكانت البضائع الهندية والصينية المذكورة في النصوص العربية في تلك الفترة هي المسك والعنبر التي شغف بها العظماء وملاكو الأراضي الأغنياء وكانوا على أتم الاستعداد لدفع مبالغ كبيرة ثمناً لها ، واقتنوا مقادير كبيرة منها وكدسوها كما كدسوا الذهب والفضة ، وحتى في النصوص التي تشير إلى المكوس المفروضة في موانيء الخليج العربي تدرج العطور كسلع غالية جداً ، والسلع الأخرى المستوردة من الهند والشرق الأقصى هي : الكافور ، وخشب الألوة ، والتوابل مثل الفلفل والقرنفل والكبابة ، وجوزة الطيب والهيل والأخشاب الهندية ، وخشب الصندل وغير ذلك [٤٠] .

وصحيح أن التجارة الهندية لدولة الخلافة كانت دائماً تجارة بالمتجات الثمينة ، وأن عدد التجار المشتغلين بها لم يكن كبيراً ، ولكن هناك أدلة للافتراض بأن حجمها تناقص في نهاية القرن التاسع ، ويسرد المؤلفون العرب كيف اندلعت ثورة في الصين في عام ٨٧٨ أدت إلى طغيان الفوضى في امبراطورية الشمس ، مما جعل التجار المسلمين يتوقفون عن السفر إلى الصين ، ومنذ ذلك الوقت سافر التجار العرب والفرس حتى مرفأ كالا في ملاقا واجتمعوا بالتجار الصينيين [٤١] ، والتبدل الآخر الذي حدث في تجارة الشرق الأقصى للدولة الاسلامية هو ازدياد الدور الذي شغلته فيها مدينة سيراف التي حلت محل البصرة كأهم ميناء في الخليج العربي ، ففي قصص البحارة والقصص الأخرى التي تعود إلى هذه الفترة نجد تكرار ذكر بحارة وتجار مدينة سيراف وسكانها المشهورين بغناهم العظيم . ومن المرجح أن يكون ظهور سيراف وانحطاط البصرة نتيجة للتبدلات السياسية كالثورات التي جعلت الميناء في البصرة أقل أمناً من ذي قبل [٤٢] ، وبقي ميناءا عُمان وعدن اللذين استخدما أيضاً كمركزين للتجارة مع شرق افريقيا ناشطين رغم أنهما

أقل أهمية من سيراف ، وظهرت حركة تجارية منتظمة بين هذه الموانىء والمدن التجارية في شمال غرب الهند مثل ديبل وسيمور وصوبارا ، الخ . وتشير قصص البحارة في تلك الفترة الى الرحلات التي كانت تذهب إلى سيلان وسومطره وجاوه ، ولكن قلما تذكر التجارة مع اقليم مالابار ، وهي المنطقة التي كانت تصدر الفلفل . وهذه سمة أخرى لتجارة المسلمين مع الهند في تلك الفترة : حيث كانت تجارة السلع الكمالية عموماً ، وفضلاً عن ذلك نقرأ في أحد كتب تاريخ الأخشيد أن الحصول على الكافور في دمشق (٤٣) كان صعباً حين وفاته (الأخشيد لقب ملوك فرغانة والرجل المسمى عادة بالأخشيد ينتسب إليهم ، وقد أصبح ملكاً على مصر في عام ٩٣٥ ومات في عام ٩٤٦) .

ولكن هناك فرع آخر من التجارة الدولية في القرن العاشر جنى منه التجار المسلمون على ما يبدو أرباحاً كبيرة حيث تم استيراد الفراء من روسيا والبلدان المجاورة، ومن خلال روايات الكتاب العرب التي تظهر أن في دولة الخلافة أنواعاً كثيرة من الفراء راجت في دولة الخلافة مثل فراء السمور والدلق والقاقم ، والثعلب والمنك ، والسنجاب الرمادي والقندس . وتشهد الكميات الكبيرة من العملات الاسلامية التي اكتشفت في عدة مناطق من روسيا والبلدان المطلة على بحر البلطيق على الحجم الكبير لهذه التجارة التي عظمت على الأرجح بعد البعثة التي أرسلها الخليفة المقتدر في عام ٩٢٢ إلى مملكة البلغار على نهر كاما ، ولكن ماهو الدور الذي شغله تجار الشرق الأوسط في هذه التجارة ؟ إن الكميات الكبيرة من العملات المستخرجة من شرق أوروبا وشمالها كانت تتألف في معظمها من الدراهم الفضية التي ضربها الملوك السامانيون في بخارى (٤٤) . وفي روايات الكتاب العرب نتبين أن معظم التجار كان من الخوارزميين والفرس تدل على ذلك الأسماء الفارسية التي أعطيت للسلع المستوردة من روسيا . حيث بقي الجزء الأكبر منها في خوارزم وماوراء النهر وإيران حيث شغف باقتنائها الأغنياء . أما الفراء التي وصلت إلى العراق وبلدان الشرق الأوسط الأخرى فلقد حملها على الأرجح التجار الخوارزميون والفرس . يقول الاصطخري أن الخوارزميين كانوا أعظم الرحّالين في شرق إيران ويذكر المقدسي قائمة طويلة من السلع المصدرة من بلادهم أيضاً وكانت تتجه إلى إيران والعراق . وأخيراً يجب لفت الانتباه إلى الأقوال المتعلقة بالأسعار العالية التي

بلغتها الفراء في الشرق الأدنى . يقول المسعودي أن ثمن جلد الثعلب الأسود كان بحوالي ١٠٠ دينار (٤٥) ، وبامكاننا أن نستخلص أن هذه التجارة كانت مهنة مجموعة قليلة من التجار الأغنياء ، غالبيتهم من الأجانب ، قدموا إلى الشرق الأوسط لبيع بضائعهم .

وعانى التجار بمجموعهم من الضرائب الاعتباطية ، والاجراءات الحكومية الأخرى المزعجة ، ومع أن المكوس نفسها لم تكن مرتفعة ، وإن كان المقدسي يشكو من المكوس في العراق ، والضرائب المفروضة على التجارة في الشام ، لكنها في الغالب لم تزد عن ١٠٪ (٤٦) ، إلا أن السلطات من جهة ثانية اعتادت أن تطلب من التجار قروضاً أحياناً إلزامية أو غرامات عالية وكذلك فعل الثوار ، والطريقة الأخرى التي اتبعت لابتزاز مبالغ كبيرة من المال هي البيع الإجباري للبضائع بأسعار عالية تحددها السلطات وفي بعض الأحيان كان الجيش يعمل على نهب مخازن التجار (٤٧) .

ويمكن تقدير آثار هذه الاجراءات من الحقيقة القائلة بعدم ظهور عائلات من البارونات التجار ـ في عالم الخلافة ما قبل الرأسمالي ـ واستمرار بقائها غنية وقوية لعدة أجيال حتى تستطيع التأثير في سياسة الطبقة الحاكمة ، وعلى العكس من ذلك ، غادر كثير من التجار العراق وهاجروا إلى البلدان الأخرى حيث أملوا أن يجدوا ظروفاً أفضل . وتشهد الكثير من النصوص في الحوليات العربية ومجموعات السير على هذه الهجرة المتجهة ـ بصورة رئيسية ـ نحو بلدان البحر المتوسط ـ كما غادر العراق أيضاً بعض أفراد العائلات اليهودية من صيارفة البلاط المذكورة فيما سبق ، ففي وثيقة مؤرخة في دمشق عام ٩٢٢ يظهر ابراهيم بن منخاس بن يوسف بمثابة مشتر لإحدى الضياع ومن المرجح أنه أخو صغير في البلاط يوسف بن منخاس ، كما هاجر أيضاً المثقفون الذين شغلوا المناصب في خدمة الدولة وآخرون غيرهم ، واستقر معظمهم في الشام ومصر ، بينما ذهب الآخرون إلى المغرب واسبانيا الاسلامية (٤٨) ، وفي الحقيقة كان وضعهم أقل أماناً واستقراراً من وضع التجار لأنهم لم يمتلكوا أية منظمات على الاطلاق بعكس المراحل اللاحقة من العصور الوسطى حيث ساندهم قاضي القضاة القوي ، وحصلوا على دخل الأوقاف الغنية ، ورغم انتمائهم الى الطبقات العليا من ناحية الدخل ـ المدرس المشهور

يحصل على مبلغ ٥٠ دينار في الشهر - [٤٩] فإنهم اعتمدوا كلياً على حسن نوايا العظماء ، واضطروا دائماً للتلاؤم مع رغباتهم .

وينتمي العدد الأكبر من التجار الصغار (باعة المفرق) الذين يسمون بالسوقة أو الباعة إلى الطبقات الدنيا من المجتمع . إنهم يتميزون بوضوح في المصادر العربية عن التجار الذين ينتمون إلى البرجوازية الكبيرة ، معظمهم صناع يبيعون منتجاتهم والآخرون عطارون أو تجار صغار يبيعون الملابس والأواني للفقراء وغالبيتها صناعات منزلية سيئة الصنع ، رأس مال مثل هؤلاء التجار محدود جداً يبلغ ١٠٠ - ٢٠٠ دينار . والآخرون باعة متجولون يبيعون بضائعهم في القرى والضياع . وعانى كل هؤلاء التجار الصغار من عبء مايسمى بالمكوس ، وهي الضرائب المفروضة على مختلف فروع التجارة والصناعة في الحقيقة سحقتهم هذه الضرائب ، واستطاع القليل جداً منهم أن يرقى إلى الطبقات العليا في المجتمع [٥٠] .

وتحليل المعلومات الوفيرة حول الصناعة في الشرق الأدنى أثناء هذه الفترة سيؤدي إلى استنتاجات مشابهة وإن كانت غير متطابقة ، وبما أن صناعة الأقمشة هي الأهم فإن مناقشة هذه المعطيات التي يقدمها المؤلفون العرب يجب بالضرورة أن تتركز على هذا الفرع .

في كل مكان شكلت المصانع الملكية قطاعاً هاماً من صناعة النسيج المزدهرة . وكانت هذه المصانع الملكية التي دعيت في هذه الفترة بالطراز الخاصة (سابقاً العامة) غالباً ما ضمنها كبار رجال الأعمال ، مما يعني أنها أديرت على أساس رأسمالي بحت ، وتواجدت في خوزستان مثل هذه المصانع في تستر والسوس وكركب وعلى الأرجح في منطقة فارس المجاورة واستخدمت نظام التصنيع المنزلي ، والقول يصح أيضاً على مصر حيث أدارت الحكومة نفسها مصانع الطراز العديدة لأن المقدسي يقول أن هذه المصانع تواجدت في القرى ، وتذكر المصادر التي تعود إلى تلك الفترة أن المصانع الملكية تواجدت في تنّيس ودمياط وشطا وعشمم وتونا في الدلتا وأنسينا والفيوم وأخميم في مصر العليا وأخيراً في بنشا التي نجهل موقعها الجغرافي ، وحقيقة تواجد المصانع الملكية في المدن الصغيرة والقرى ، بالاضافة إلى الروايات القائلة أن العمال اشتغلوا في غرف عمل مستأجرة ترينا بوضوح أن نظام التصنيع المنزلي هو

المتبع في كل قطاعات صناعة الأقمشة المصرية كما تظهر هذه المصادر أيضاً في بعض البلدان الاسلامية كان عمال المصانع الملكية عبيداً ، فقد فرض نظام السخرة على العمال الأحرار ، يقول كاتب فارسي يمجد الخلفاء الشيعة الحاكمين في مصر في القرن الحادي عشر ، أن كل العمال المستخدمين في الطراز في هذا البلد هم من الأحرار ويقبضون أجورهم مقابل أعمالهم (٥١) ، وباعت المصانع الملكية ـ كمشروع رأسمالي حقيقي ـ على الأقل أحياناً منتجاتها للزبائن العاديين . ويذكر مؤلف مصري ـ كتب في النصف الثاني من القرن العاشر ـ الأسعار المرتفعة المدفوعة للحصول على المنتجات المصنوعة في المصانع الملكية في تنّيس ودمياط . ولدى الحديث عن المصانع الملكية في منطقة الفيوم يقول ابن حوقل أنها تدار من قبل الموظفين ، وأن التجار من البلدان الكثيرة يأتون إليها لشراء الستائر الثمينة بأسعار عالية جداً ، وهكذا فإن ألبسة الشرف ذات الكلمات المطرزة التي أنتجتها المصانع الملكية للبلاط وعظمائه وصلت أيضاً إلى أيدي المواطنين العاديين ، ولا حاجة لتعليل ذلك بالافتراض أن هؤلاء العظماء باعوها في حالة فقرهم (٥٢) ، ولا تترك المصادر العربية مجالاً للشك في أن المصانع نفسها لجأت لذلك .

إلى جانب المصانع الملكية قامت صناعة خاصة مزدهرة في كل مكان ، وكانت حرية المشاريع الخاصة بحق ميزة بارزة في النظام الاقتصادي للشرق الأوسط الاسلامي في هذه الفترة . ويميز ابن حوقل لدى وصفه لصناعة النسيج في مصر العليا ، بين المصانع الملكية والمصانع الخاصة ويقدم لنا المقدسي التفصيلات حول تقسيم العمل والضرائب المدفوعة على إتمام مراحل الانتاج المختلفة والبيع وكلاهما تحت السيطرة الصارمة للوكلاء الذين تسمح لهم الحكومة بذلك أو تعطيهم هذا الحق ، ومن المرجح أن نفس الوسطاء زودوا النساجين بالمواد الأولية ، لقد سجلوا كل ما استعمله كل عامل بالفعل حتى لا يتمكن من بيع إنتاج عمله بنفسه ، ويقدم الكتاب العرب في هذه الفترة وصفاً هاماً لنطاق الصناعة الخاصة في جنوب العراق ، إنه يرد ضمن نصوص سيرة متعهد الضرائب علي الراسبي المذكور فيما سبق حيث نقرأ أنه امتلك ٨٠ مصنعاً لحياكة الملابس ، ولسوء الحظ أضاف بعض المؤلفين إلى هذا القول أن الملابس حيكت لاستعماله الخاص وبالتالي ضللوا الاختصاصيين المعاصرين . ولو افترضنا أن هذه المصانع صغيرة ، وأن الراسبي وزع كميات كبيرة

من الملابس لموظفيه ، فمن الصعب أن نفهم ما يستطيع أن يفعل بالانتاج الفائض إذا لم يقم ببيعها .

والصناعة الخاصة لم تكن معتبرة من حيث الحجم فقط ، بل توسعت على حساب المصانع الملكية ، والنص الهام في كتاب ابن حوقل يرينا بوضوح كيف استولى الرأسماليون الأفراد على إدارة المصانع الملكية . والاصطخري الذي كتب في أواسط القرن العاشر ذكر المصانع الملكية في مختلف مدن فارس مثل فسا وسنز وجنّابة وتوّج . وابن حوقل الذي راجع وبسّط كتابه يمدح انتاج المنطقة من الأقمشة ولكنه يقول أن الحكومة امتلكت مصانع [٥٣] لها في هذه المدن [١] ، وهكذا فإن المصانع الملكية بيعت أو ضمّنت للرأسماليين الأفراد .

ولتكوين فكرة واضحة عن اقتصاديات الشرق الأوسط في تلك الفترة من الضروري أن نعرف حجم الصناعات بالمقارنة مع القطاعات الأخرى للاقتصاد الوطني . ويمكن العثور على تلميحات في المصادر العربية تجعل من الممكن صياغة بعض الفرضيات . يقول مسكويه إن حكومة العراق في عام ٩٨٥ فكّرت في فرض ضريبة ١٠٪ على أسعار الأقمشة الحريرية والقطنية المصنوعة في بغداد على أمل الحصول على مليون درهم كل عام مما يعني أن حجم الانتاج من النسيج في بغداد يقدر بمبلغ ٦٠٠,٠٠٠ دينار . ومن جهة أخرى فإن ربع ضرائب العراق في النصف الأول من القرن العاشر ـ عندما يفترض أنه أكبر من الربع في النصف الثاني من القرن ـ بلغ ١,٥ مليون دينار . وتشير هذه الأرقام إلى الأهمية الكبرى لهذه الصناعة من حيث قيمة إنتاجها ، أما فيما يختص بانتاج صناعة الأقمشة في دلتا النيل فهناك نص ابن حوقل الموثوق في كتابته التي أساء البعض فهمها . إذ يقول هذا الجغرافي العربي أن تصدير المنتجات الكتانية إلى العراق أعطى واردات ضريبية قدرها ٢٠,٠٠٠ ـ ٣٠,٠٠٠ دينار في السنة قبل فرض الرسوم الباهظة في عام ٩٧١ . ولاشك أن النص الموجود في خطط المقريزي الذي يقول أن الواردات الضريبية من تنّيس ودمياط وأشميم بلغ أحياناً ٢٢٠,٠٠٠ دينار يومياً مبالغ فيه . والنص الذي يحتويه كتاب الثعالبي (المتوفي عام ١٠٣٨) أكثر ثقة . ويقول أن الضرائب المجموعة من إنتاج الكتاب الرقيق في مصر غالباً مابلغ ١٠٠,٠٠٠ دينار

(١) ابن حوقل جغرافي ورحالة عربي من اشهر كتبه صورة الأرض

(١) يقصد ما يسمى عادة بدار الطراز

في السنة . ويشير هذا الرقم إلى الحقيقة القائلة أن إنتاج صناعة الكتان المصرية بلغ تقريباً ١/ ٤ الدخل القومي ، ومن جهة أخرى أن هذا الاستنتاج يتوافق مع تقرير حول حجم صناعة الأقمشة المصرية في أهم مراكزها . تواجد في تنّيس ٥٠٠٠ نول نسيج (٥٤) ، ولا حاجة للقول بأنه لا يمكن استنتاج عدد العمال المستخدمين من قيمة الانتاج لأن منتجات هذه الصناعة التي كانت تنتج لصالح الأغنياء فقط غالية جداً .

كان بإمكان المشاريع الصناعية الكبرى - دار الطراز الملكية ، والمصانع الخاصة على السواء - إجراء التجارب والتجديدات التقنية لتصبح طرقاً حديثة تستخدم لاصلاح السلع القديمة ، وانتاج السلع الجديدة . فلقد بدأت حوالي منتصف القرن العاشر مصانع الأقمشة في دلتا النيل بإنتاج ما يسمى أبو قلمون وهي مادة تغيّر ألوانها ، كما يبدو أيضاً أن صناعة النسيج والصناعات الأخرى في الشرق الأوسط ما زالت تتوسع رغم انتهاء عصر الازدهار ، وهناك سبب وجيه يدعونا للاعتقاد بأن ما نتلقاه من معلومات مبالغ فيه خاصة حول حجمه خلال القرن العاشر وذلك من كتابات الجغرافيين غير الدقيقة ونصوص الكتاب الآخرين الذين عاشوا في تلك الفترة ، فصناعة نسج الأقمشة الحريرية المطرزة ، والأقمشة القرمزية نشأت في بغداد في القرن العاشر ، ومن المرجح أنها جاءت مع النساجين من تستر في خوزستان ، إلا أن كتّاب نهاية القرن العاشر يذكرون مصانع النسيج في المدن حيث لم تكن موجودة من قبل مثل أسيوط في مصر العليا . وازدهار مزارع أشجار النيلة في فلسطين التي يذكرها العديد من الكتاب في القرن العاشر تشهد على الأرجح على هذا التوسع ، لأن هذا الصباغ الذي تحتاجه صناعة النسيج يتم استيراده من البلدان البعيدة مثل أفغانستان ، ولكن التوسع الأكبر حدث في صناعة الورق في الشام ومصر حيث ظهرت المصانع الناشطة في مدن الأقاليم مثل طبرية وغيرها (٥٥) .

والأقمشة التي انتجتها هذه المعامل تم تصديرها للأقطار المجاورة والنائية . فزجاج وقماش بغداد الرائع اشتهر في كل مكان وصدر حتى إلى اسبانيا ، وصدرت فارس الأقمشة الحريرية والقطنية والكتانية واشتهرت خوزستان بأقمشتها الحريرية الثمينة ، ولقد زودت مصر بلداناً كثيرة بمنتجاتها الكتانية : الدبيقي المصنوع في دبيق وأماكن أخرى (٥٦) وقماش الشارب وغيرهما . .

لكن هذه كانت بضائع كمالية ، ورغم القيمة العالية لهذا الانتاج الصناعي ، فإن عدد العمال على الأرجح محدود ووضعهم الاجتماعي سيء. حسب المعلومات المتوفرة لدينا عن الأحوال في مصر في القرن العاشر ، وامتلك العمال أدواتهم ، ولكنهم لم يمتلكوا المواد الأولية ، ومن الخطأ مقارنتهم بالحرفيين في أوربا في العصور الوسطى ، إنهم متميزون عن الحرفيين ، لأنهم لم يعملوا لحسابهم الخاص ، فهم عمال تدفع لهم الأجور بالقطعة أو على أساس المياومة ، ومن الممكن صياغة جدول - من الدلالات الموجودة في المصادر العربية - يرينا الفارق الكبير بين الرواتب المدفوعة للطبقات المختلفة في هذه الفترة .

الرواتب الشهرية في النصف الأول من القرن العاشر

الموظف	العراق	مصر
الوزير أو رئيس الادارة المالية	٥٠٠٠-٧٠٠٠ دينار	٣٠٠٠
أبناء الوزير	٥٠٠	
القاضي/ رئيس شرطة السوق	١٠٠	٨٣
استاذ	٥٠	
موظف كبير	٣٠ وأكثر	
موظف حكومي متوسط	٨-٢٠	
الفارس	١٢-١٤	
موظف صغير/ قاضي مرتبة دنيا	٤ - ٧	٤-٧
حارس ملكي	٣,٥	
موظف خاص	٣	
حرفي بارع	٢	٢
عامل عادي	١,٥ (أو ٩١ كغ خبز)	١ (أو ٢٠٣ كغ خبز)

وجدولنا لا يشير فقط إلى الفرق الكبير بين الرواتب ، بل أيضاً إلى تناقص أجور العمال ، وكان باستطاعة العامل المصري في بداية القرن الثامن أن يشتري حوالي ٤٠٠ كغ من الخبز بأجره الشهري البالغ ٦,٠ دينار ، بينما كان العامل العادي

يشتري بديناره ٢٠٣ كغ فقط في أواسط القرن العاشر . وتناقص الرواتب ينعكس أيضاً في الفرق بين ارتفاع أسعار القمح وأسعار الخبز . فبينا ارتفعت أسعار القمح حوالي ٩٠٠٪ ارتفعت أسعار الخبز ٢٣٠٪ فقط . وكلفة الكيلوغرام من الخبز بلغت على الأرجح ٠,٠٠١٤٧ دينار في مصر (الفيوم) في عام ٧١٥ وفي القاهرة ٠,٠٠٤٩ دينار (٥٧) ومن المعقول أن نفترض أن انخفاض الأجور هو نتيجة لازدياد السكان وفائض اليد العاملة ، ومن جهة أخرى علينا أن نتذكر أن انخفاض الأجـور كان بطيئاً وتعود بداياته إلى قبل ذلك بوقت طويل .

وهو بالتأكيد أحد أسباب انعدام الروح الثورية بين الطبقة العاملة . ولكن العمال الفقراء والآخرين من الطبقات الدنيا ثاروا من وقت لآخر عندما ارتفعت الأسعار فجأة ، أو أن أسباباً أخرى أدت لاندلاع السخط الاجتماعي . ففي عام ٩١٧ ظهرت أعمال شغب في البصرة لأن الحكومة فرضت ضرائب جديدة على الأسواق ، وفي تلك الحالة من المرجح أن التجار الصغار كانوا الأنشط والأعلى صوتاً . وفي عام ٩٣١ ثارت الطبقات الدنيا في المجتمع (الزعار) في بغداد ولكن الحكومة اعترفت بأن لديهم أسباباً للتذمر وعملت على إرضائهم ، وعندما حدثت المجاعة في بغداد في عام ٩٤٢ ثار الناس وأحرقوا بيوت الأغنياء . وفي تاريخ لأحمد بن طولون يرد ذكر الشغب في طرسوس ، وفي غالب الأحيان يبدو السخط بشكل مستتر كما هي الحال في العصور الوسطى ـ على سبيل المثال كتطرف ديني ، لأن مؤيدي الفقهاء الحنابلة المتشددين كانوا في الغالبية من الفقراء ، بينا كان التجار في غرب بغداد والأمكنة الأخرى من الشيعة ، ويحدثنا كتاب الحوليات ان الحنابلة هاجموا التجار ، ونهبوا متاجرهم ، أو المصارف في شارع عون ببغداد (٥٨) .

والسمة المشتركة لكل هذا الشغب هي أنها جميعاً انفجار عفوي للسخط الشعبي ، ويبدو أنها لا يوجهها الثوريون بغرض إسقاط النظام الاجتماعي ، وإن كانت أهداف الثائرين هي إلغاء الضرائب والاجراءات الأخرى التي اتخذتها السلطات ، ولكن التوتر الاجتماعي كان في المدن كبيراً وربما كان أكبر في المناطق الريفية ، وكما هي الحال في أي اقتصاد ما قبل الرأسمالي ، حدثت تغييرات في الانتاج زادت من تراكم رأس المال ، وهذا يعني أن الأغنياء ازدادوا غنى والفقراء ازدادوا فقراً .

وكان الانتاج الزراعي وظروف الفلاحين في تلك الفترة محكومة إلى حد كبير بازدياد الضياع وحرية بيع وشراء الأراضي ، فالأمراء الملكيون والتجار الأغنياء وكبار الموظفين تملكوا الضياع الكبيرة . وكانت هذه الضياع من أصناف مختلفة : فبعضها ملكية خاصة يفرض عليها خراج مرتفع وبعضها الآخر إقطاع يفرض عليها العشر أو مؤجرة مقابل مبلغ محدد . فوضع هذه الأراضي كان لا يختلف فقط من حيث الضرائب بل أيضاً من نواحٍ أخرى ، فالاقطاعيون كان عليهم أن يتحملوا نفقات إصلاح السدود وصيانة أنظمة الري ، وبالرغم من ذلك أعطت الضياع الكبيرة أرباحاً كبيرة ، وبالتالي تركز اهتمام الأغنياء على الحصول عليها . واعتبر الاستثمار في المشاريع الزراعية مربحاً جداً ومأموناً . وشغف كبار الموظفين في شراء الضياع لأنهم لم يدفعوا الضرائب ، ومن جهة أخرى فإن الضياع الشامية والمصرية لمحمد بن علي الماذري أعطت ٤٠٠,٠٠٠ دينار في السنة (٥٩) .

وكان جزء كبير من الضياع تحت أيدي العظماء ، منحتهم إياه الحكومة كجزء من رواتبهم ، أو كإقطاعات بطرق لا شرعية في بعض الأحيان ، لقد نشأت أيضاً تجارة حرة في الضياع ، فالأشخاص الذين يتمون إلى البرجوازية المتوسطة ، حتى الفقراء من سكان المدن بدأوا يشترون الضياع في الريف التي باعتها حكومة الخلافة نفسها ، فخلال فترة أربع سنوات (٩٢٩ - ٩٣٢) باعت ضياعاً قيمتها ٩٠٠,٠٠٠ دينار ، وأنشأ الوزير الخصيبي دائرة خاصة لبيع أراضي التاج للزبائن الكثيرين ، فبيعت ضياع الخراج بصورة لا مشروعة كضياع عشر ، وأحياناً اضطر الخليفة لبيع الأراضي للجند بأسعار رخيصة كأراضي عشر ، وحتى الضياع الوقفية بيعت مخالفة للقانون ، ولكن بموافقة الفقهاء ، وكانت احدى الطرق الأخرى لاستثمار المال في المشاريع الزراعية هي بيع المطاحن وتأجيرها (٦٠) .

ومن بين البرجوازيين الذين حصلوا على الضياع الريفية نشأت طبقة من الاقطاعيين الأغنياء (التنّاء) الذين احتلوا أدنى من أصحاب الضياع ، فوق الفلاحين المتوسطين الذين يسميهم المؤلفون العرب أصحاب المزارع ، وحتى هؤلاء امتلكوا أنواعاً مختلفة من الأراضي مثل أراضي الخراج وأراضي العشر ، وحاولوا جهدهم زيادة ضياعهم . وشعروا بقوة كافية تمكّنهم من مخاطبة الحكومة ورفع الاحتجاجات ضد جامعي الضرائب ، كما حاولوا أيضاً التملص من دفع

الضرائب الكبيرة بأن يصبحوا ضامنين للضرائب [٦١] ، وهكذا فإن النظام الاقتصادي أحدث استقطاباً للطبقات الاجتماعية .

ولما كانت البيانات الكثيرة تدلّل على اهتمام الأغنياء الكبير في الاستثمار الزراعي فإن السؤال يبرز ، عما إذا ازدادت مساحة الأرض المزروعة أم لا ؟ فالنصوص المختلفة في كتابات المؤلفين العرب ترينا أن الفلاحين زرعوا فقط المساحة الضرورية لإعاشة عائلاتهم نظراً لارتفاع الضرائب ، وهكذا فإن بعض المناطق قرب بغداد أعطت في بداية القرن العاشر ١/ ٣٠ مما كانت تعطيه قبل مائة سنة ، ذلك أن اهمال الموظفين للسدود والأقنية ، اضافة إلى عمليات التهديم من قبل الجيوش المحاربة ، هي من جملة الاسباب لبوار كثير من الحقول . ويقول الجغرافي الاصطخري أن بعض المناطق في شمال العراق لم تعد تزرع في النصف الأول من القرن العاشر وأصبحت مراعي للبدو والأكراد . والاجراءات التي اتخذها وزير المقتدر البعيد النظر علي بن عيسى لحماية الفلاحين جلبت لهم بعض الخلاص وزادت في مساحة الأراضي المزروعة [٦٢] .

ومن جهة أخرى ، تعهد كبار ملاك الأراضي بتحويل المستنقعات إلى أراض صالحة للزراعة ، وزرع الأراضي البور، وقامت الحكومة نفسها بهذه النشاطات ، على الأرجح بواسطة العقود مع الرأسماليين وغالباً ما تشير المصادر العربية إلى الضياع المستحدثة التي تديرها وزارة خاصة في هذه الفترة ، وقد صادر المقتدر عندما كان ولياً للعهد في أيام المعتمد الأراضي قرب السّلح على نهر دجلة ، وأهمل نظام الري المؤلف من النواعير والأقنية التي حفرتها الخيزران أم هارون الرشيد ، وبقيت الحقول بوراً لسنوات عديدة حتى استثمر الموفق مبلغ ٣٠,٠٠٠ دينار لاعادة حفرها وتزويد الفلاحين بالبذار والحيوانات . واستأجر بعض الفلاحين من أبناء المنطقة الأراضي في الوقت الذي كان القسم الآخر فلاحين مستقلين . وتعهد مثل هذه النشاطات الملاكون الخاصون ، الذين توفر لهم رأس المال الكافي ، وتلقي إفادات بعض المؤلفين العرب الأضواء على أحوال الزراعة في القرن العاشر في العراق بقولها أن الضياع التي تملكتها سابقاً عائلة ابن الفرات ، وصودرت منها أهملت زراعتها نهائياً مع العلم أنه كان بإمكان ملاك الضياع زراعة الأراضي التي تهمل في الحالات الأخرى [٦٣] .

ولكن النصوص التي تشير إلى «التعمير الجديد» يجب ألا تضلّلنا ، فبالاضافة إلى الحكومة ، كان بامكان ملاكي أراضي العشر فقط تعهد مثل هذه المشاريع والاهتمام بها ، ولكن امتلاكهم للضياع لم يكن قوياً بما فيه الكفاية . فالتبدل المتكرر للملكية عن طريق المصادرة والطرق الأخرى عرقل نشاطات التعمير الجديدة التي تؤدي إلى زيادة الأرض المزروعة ، وجعل هذا النظام الزراعة تتدهـور في بعض المناطق . ويلغ عدد القرى في مصر عندما فتحها المسلمون ١٠,٠٠٠ قرية ، بينما تناقص حتى عام ٩٥٦ إلى ٢٣٩٥ قرية .

ولابد أن العدد الأول مبالغ فيه كثيراً ، ولكنه يرينا أن المؤلفين العرب ادركوا الحقيقة القائلة بأن المساحة المزروعة لم تزد بل تناقصت منذ الفتح الاسلامي لها ، ويركز الجغرافي الاصطخري في القرن العاشر على تدهـور الواحات غربي نهر النيل ، كما يركز المقريزي على الدمار الذي حلّ بالزراعة في مصر في تلك الفترة وتناقص واردات الخراج [٦٤] .

ومن جهة أخرى ، فإن الاتجاه الرأسمالي في الزراعة في القرن العاشر أدى إلى تبدلات كبيرة في بنيتها وتطور الفروع الجديدة ، فمالكو الضياع المغامرون وظّفوا مبالغ كبيرة من رؤوس الأموال للوصول إلى مزارع الرز والضياع التي تنتج الحبوب الأخرى ، وقد قاموا بذلك لتعاظم الطلب على الرز في المدن الكبرى ، ولأنهم وحدهم كانوا القادرين على القيام بهذا التغيير في الزراعة . بالاضافة إلى مناطق العراق الأدنى حيث زرع الرز في النصف الثاني من القرن التاسع وظهرت مزارع رز واسعة في بعض مناطق المستنقع الكبير في منطقة الجامدة وفي المناطق العليا فيما بين النهرين . وقامت في فلسطين زراعة الرز في بيسان وفي مرتفعات الجولان قرب بانياس ، كما تواجدت مزارع الرز أيضاً في المنطقة الحدودية الشمالية من سورية في طرسوس ، وتزايدت في مصر أيضاً مزارع الرز في النصف الثاني من القرن العاشر في الواحات ، وفي منطقة الفيوم حيث أصبح أهم الانتاج الزراعي فيها .

بدأت زراعة السكر بالازدهار في هذه الفترة أيضاً كعنصر أساسي آخر في الانتاج الزراعي لا يستطيع القيام بها إلا الملاكون الأغنياء لذا قامت مصانع السكر في ضياعهم ، ففي القرن العاشر كانت أفضل أنواع السكر لاتزال تنتج في خوزستان ، ولكن سكّر اليمن صدّر أيضاً إلى العراق والأماكن الأخرى ، وبدأت

زراعة قصب السكر في تلك الفترة في جنوب العراق ، وأصبحت إحدى أهم الحاصلات الزراعية في سورية أيضاً حيث زرعت على شواطىء البحر المتوسط من فلسطين إلى طرابلس في الشمال ، وفي الجليل ووادي الأردن . وفي مصر زرع السكر في الدلتا شرق فرع رشيد من النيل ، وأخيراً وسّع ملاكو الضياع الكبيرة مزارع القطن مثل الحمدانيين في منطقة مابين النهرين العليا (الجزيرة) (٦٦) .

وعانى ملاكو الضياع الذين عملوا في التعمير الجديد ، وإنشاء المزارع الجديدة من القلق وعدم ثبات الملكية ، بينما سحقت الضرائب الفلاحين المتوسطين والصغار ، فمعدل نسبة الخراج المجموع حسب تقديرات المخامسة وصل إلى ١/٣+ ١/ ١٠ في العراق في النصف الأول من القرن العاشر بينما جبى الحمدانيون ١/٢ أو حتى ٣/ ٥ المحاصيل . ودفعت معظم الضرائب على كل الحبوب مثل القمح والرز وكذلك الفواكه عينا . ولكن غالباً مافضل جامعو الضرائب تحصيلها نقداً ، وفي تلك الحالة قدّروا المحاصيل قبل موسم جمعها لابتزاز مبالغ أكبر من المبالغ المستحقة ، وكثيراً ما يردد كتاب الحوليات أصداء شكاوى الفلاحين في تحصيل الضرائب مقدماً ، وفي بعض الأحيان جمعت ثلاثة أضعاف ضريبة العشر ، كما تحولت هذه الضريبة في اليمن إلى مبلغ اجمالي . وغالباً ما فرض الضامنون ضرائب جديدة ، وصادروا المحاصيل حتى يدفع الفلاحون ما عليهم منها . وكثيراً ما علبوا لابتزاز المتأخر منها ، ولم تقتصر الضريبة على العشر وإنما توجب على الفلاحين دفع مكوس مختلفة منها استعمال المطاحن . وعلى المتوسطين منهم أيضاً شراء المحاصيل لتسليمها إلى الدولة بأسعار محددة اعتباطياً (٦٧) .

ولا تعود أزمات الفلاحين في فترة ضعف الخلافة فقط إلى الضرائب العالية وإساءة استخدامها وابتزازات الادارة خلال تلك المرحلة ، فلقد شهد النصف الأول من القرن العاشر توسعاً بدوياً جديداً في شمال ما بين النهرين ، وفي الشام وتعرض الفلاحون لعمليات السلب والنهب التي كان يقوم بها البدو وازدادت جرأتهم عندما ضعفت سلطة الخلافة كثيراً وفقدت هيبتها وادركوا عجزها عن معاقبتهم على اعمالهم هذه علماً انه لم يكن الكثير من هؤلاء البدو رحّلاً حقيقيين بل أقرب إلى الحضر إلى حد كبير ، أو انهم على الاقل زرعوا الحقول خلال جزء من السنة ثم عاشوا حياة التجوال في الجزء الآخر بحثاً عن المراعي الجيدة لقطعان

مواشيهم ، فاعتـدوا على أراضي الفلاحين المزروعة ، والأسوأ من ذلك أنهم حاولوا الحلول محلّهم ، وهكذا حدثت الصدامات المتكررة بين الفلاحين والبدو . ويذكر التنوخي الذي كتب في القـرن العاشر مجموعة من القصص التي تصف بصورة حية انتقال البدو من حياة الترحال إلى حياة الاستقرار ، ففي احدى قرى منطقة كوانا في جنوب العراق بدأ البدو في أوائل القرن العاشر بحراثة الأراضي على حدود الحقول التي زرعها الفلاحون ، وهي الأراضي التي تركت بوراً ، ولذا فإن جامعي الضرائب فرضوا على البدو جزءاً من الضرائب المستحقة ، وما أن فرضـت كامل الضريبة عليهم إلا وبدأ الشغب ، واستنجد هؤلاء بالعشائر البـدوية الأخرى للانضمام الى الثورة .

كما حافظوا رغم استقرارهم على النظام العشائري ولكنهم تميزوا عن البدو الحقيقيين ويقال أنه في عام ٩١٥ تشكل جيش حسين الحمداني من ٣٠,٠٠٠ رجل «من قبائل البدو والعشائر (القبائل المستقرة)» . وعندما ازداد استقرار هذه العشائر تناقضت مصالحهم مع مصالح إخوانهم الذين استمروا في حياة الترحال وأسفرت الخصومات بينهم على أعمال العنف .

بدأت عشائر كثيرة في احتلال مراع جديدة وحقول أفضل . والاتجاه الرئيسي لحركة هجرة البدو الجديدة هو تقدم القيسية من شمال ما بين النهرين إلى الشـام ، فقد رحلت مجموعة من بني كلاب من الصحراء السـورية بينما عانت كل من الجزيرة وشمال بلاد الشام من غارات عشائر عقيل ونمير وكشير وعجلان . وهذه القبائل حلّت محل مضر وربيعة المستقرين في مناطق حرّان وقرقسياء والرحبة ، وبعد الهزيمة الكبرى التي ألحقها سيف الدولة بالبدو في عام ٩٥٥ اضطرت عشائر عديدة من طي وكلب للهجرة من مضاربها القديمة إلى الجولان وتركها لبني كلاب . ومنـذ ذلك الوقت أصبحت ضباب وجعفر ـ من طي ـ أهم القبائل في منطقة حمص [٦٨] .

وفقد كثير من الفلاحين ممتلكاتهم وقد كانوا أكثر الطبقات معاناة من الضرائب ومن هجمات البدو ، أما صغار المزارعين الذين يسمون بالإكراء ، فقد اصبحـوا مستأجرين ، وتوجب عليهـم منـذ ذلك الوقـت الاعتماد على التسـليف من أجـل البذار ، ونتيجة أخرى لتردي اوضاع الفلاحين الصغار هي الرحيل عن القـرى نهائياً ، فالهروب من الأرض الذي كان مشكلة كبيرة أيام الخلفاء الأمويين أصبح من

جديد مشكلة مستفحلة سببت للحكومة الكثير من المخاوف ، فعندما فتح الصفاريون منطقة فارس زادوا الضرائب لدرجة جعلت كثيراً من الفلاحين المكلفين بالخراج يهجرون القرى ، وهذا هو الموقف الذي تبنّته الأسرة المالكة الجديدة تجاه الفلاحين ، وهي التي دانت بسيادتها لدعم الطبقات الدنيا من المجتمع ، وبعد أن سبّب الخراج الهروب الكبير من الأرض فرضت مقادير الخراج المطلوبة من المكلفين الهاربين على بقية الفلاحين المقيمين مما جعل وضعهم سيئاً للغاية [٦٩] .

وهذه الظروف المميزة التي خلقت التناقضات الداخلية للمجتمع ما قبل الرأسمالي هي الظروف الممهدة والتي تسبق الثورة ، هذه الجماهير الفقيرة المسحوقة من الحرفيين الصغار والتجار الصغار والعمال والفلاحين كانت على أتم الاستعداد لتلبية أية صرخة ثورية .

د ـ القرامطة :

بقي الدعاة الشيعة المتطرفون لفترة طويلة والذين ينتمون للفرع الاسماعيلي يثيرون السخط وينظمون المجموعات السرية ، فكافحوا من أجل إقامة حكم سلالة اسماعيل الذي يعتبر الوريث الشرعي السابع للخليفة علي بن أبي طالب ، وتوجهوا بنداءاتهم إلى كل الطبقات ولكن الكثير من الناس طابقوا بين الاسلام الصحيح وحكومة الأثرياء الأوليغاركية العسكرية ، بينما وجد القوميون من الفرس في هذه الحركة طريقة للتعبير عن كرههم للعرب . وهكذا فإن الاسماعيليين ـ وهم مذهب ديني في الأصل ـ أصبحوا حركة ثورية كبيرة تضم اتجاهات مختلفة ، إلا أنه من الخطأ الاعتقاد أن الهدف الأساسي لهذه الحركة الشيعية قد تم تحييده ، وأن إسقاط النظام الاجتماعي هو الهدف الحقيقي ، لكن العقيدة الشيعية تضمنت إعادة بناء العدالة الاجتماعية كما ارتآها المسلمون من جهة ، والفرس من الجهة الأخرى الذين كانوا مدركين للشيوعية المزدكية ، ومما لاشك فيه أن هناك بعض الفئات من الحركة الاسماعيلية شكلت الشيعية بالنسبة لهم بناء فوقياً ، بينما نرى في الخط الأساسي للغالبية العظمى عملية توحد لكل هذه الأفكار التي ينسخها جميعاً حلم الخلافة الحقيقية ، ولا نستطيع القول بأن اندماج الميول المختلفة كان كاملاً ، وهذا يفسر السبب في أن هناك مراحل في تطور هذه الحركة التي اتخذت طابعاً مختلفاً أو حتى متناقضاً .

ففي ذروة ثورة الزنج ، كان الدعاة الاسماعيليون قد بدأوا تحريضهم بين الفلاحين في جنوب العراق ، وبرهنت هذه الثورة على أنها ستكون نموذجاً لسواها من الثورات . ومن المرجح أن قائدها الأول كان فارسياً من عائلة عبدالله بن ميمون القداح ، ثم خلفه في منصب الزعامة حمدان قرمط الذي يقال إنه كان مكارياً ينقل الحبوب أو فلاحاً من قرية قرب الكوفة ، واليه نسبت الحركة القرمطية .

ذهب قرمط للعيش في كلواذا قرب بغداد ، ومن هناك أرسل دعاته إلى قرى أواسط وجنوب العراق . وكان الاتجاه الثوري الاجتماعي لتعاليمهم واضحاً : وقد وعدوا أتباعهم بممتلكات أسيادهم ، وكتب عبدان صهر حمدان قرمط كرّاسات كثيرة حول عقيدتهم ، ولاقت دعايتهم نجاحاً كبيراً بين الفلاحين ، وفي البداية فرض الدعاة بعض التبرعات للحركة ثم طلبوا خمس ممتلكات الشخص ، وفي النهاية أعلنوا الألفة : ونظموا القرى في كومونات فلاحية ، وسلّم الفلاحون ممتلكاتهم للزعيم المحلي ليتم استعمالها جماعياً ، واختار دعاة حمدان قرمط لهذه الغاية شخصاً موثوقاً يجمع الماشية والأثاث والمجوهرات ، ومن جهة أخرى يُزَوِّدُ الفلاحين بالقماش ويلبي حاجاتهم جميعها ، ويعترف كتاب الحوليات من المسلمين السنة المعادين لهذه الحركة باختفاء المحتاجين بين الفلاحين ، وأن نشاط الفرد وسلوكه مو موضع التقدير لديهم ، وسلمت النساء كل مااكتسبنه من الغزل ، كما الغيت الملكية الخاصة تماماً ، ويقول المؤرخون السنة أن النساء أصبحن ملكية جماعية وأن القرامطة ألغوا الصلوات الاسلامية وسمحوا بالأعمال اللا أخلاقية كالقتل ، ولكن هذه اتهامات باطلة كما تشهد بذلك الكتابات الأخرى القائلة بأنهم فرضوا على أتباعهم (٥٠) صلاة في اليوم .

ورغم أن عدد القرامطة تزايد في منطقة الكوفة في الفترة ٨٨٢ ـ ٨٨٨ فإن دولة الخلافة لم تقدر الحركة حق قدرها في البداية ، وانتشرت في الوقت نفسه في اليمن وفي رواية لأحد المؤلفين الذين كتبوا قبل عام ٨٩٩ أصبح للحركة ١٠٠,٠٠٠ من الأتباع ، وفي عام ٨٩٧ اندلعت الثورة القرمطية الأولى في منطقة الكوفة حيث تم إخمادها بسهولة ، ولكن الحكومة ذعرت لدى اكتشافها أن أحد قادة الحركة السريين كان موظفاً كبيراً في بغداد ، وبعد ثلاث سنوات ثار القرامطة في جنبلة بين الكوفة وواسط فأحرقوا بيوت الأغنياء وقتلوا نساءهم وأطفالهم ، لقد

كانت ثورة فلاحية نموذجية ، وانهزم الثوار للمرة الثانية ، ولكن الحكومة امتنعت عن الاعدامات الجماعية «لأنها خافت من خراب الريف حيث أن مجموع عناصر الحركة القرمطية هم من الفلاحين والعمال» في عام ٩٠١ اندلعت ثورة جديدة في منطقة الكوفة ، أعدم زعيمها في بغداد بقسوة متناهية بعد أن تم القضاء عليها (٧٠)

وتشير كتابات المؤرخين العرب التي استشهدنا بها بوضوح أن الثورات القرمطية لم تكن سوى ثورات منعزلة ، ولم تتطور إلى ثورة فلاحية عامة ، ولم يكن تسليح الثوار جيداً كما أن تفوق القوات التركية لدى الحكومة كان ساحقاً ، وأخفقت كل محاولات التحالف مع الزنج ، بينما كان لهم أتباع في المدن بين المثقفين وأفراد الطبقات العليا من المجتمع ، من الشيعة أيدوا القرامطة لقناعاتهم الدينية ، وكما حدث مع الزنج ، لم ينالوا تأييد بروليتاريا المدن لأنهم لم يشعروا أن ما يقاتل من أجله القرامطة يمس مصالحهم .

وفي الوقت الذي تداعت فيه الثورة في العراق وجد الدعاة القرامطة الباحثين في كل مكان عن الاتباع آذاناً صاغية بين البدو ، فلقد بدأوا بمخاطبة الذين يعيشون حياة بدوية حقيقية ، ويعادون الفلاحين ويتوقون للغنائم ، وطالما نجح القرامطة في تحريض القبائل المولعة بالحرب وبدأ هؤلاء ثورة خطيرة على النظام الاجتماعي القائم ولم تكن ثورتهم كغيرها من الثورات المنعزلة بل كانت ثورة متماسكة تهدف بكل جدية لاسقاط النظام .

توفر للثوار قواد أكفاء أشهرهم زكرويه بن مهرويه الفارسي ، الذي عاش فترة طويلة منعزلاً وقاد أبناؤه الحركة ، وادعى الجميع مواهب خارقة آمن بها البدو ، وكان أول المؤيدين بنو العُلَيص وهم عشيرة كلبية في منطقة السماوة بين الكوفة والصحراء السورية ، وأصبح يحيى بن زكرويه قائداً في عام ٩٠٢ ، وادعى بأنه من سلالة الإمام المنتظر اسماعيل ، وأخفى وجهه بقناع كالكثيرين من الدعاة في الشرق ، وأحرق الثوار مسجد الرصافة في شمال سورية ، ونهبوا المدينة الصغيرة والقرى المحيطة بها ولم يخرجوا عن إطارهم البدوي في هذا المجال ، وعندما انتشرت أخبار هذه الأعمال انضمت العشائر الأخرى إلى الحركة وفي عام ٩٠٣ أصبح القرامطة أقوياء بما فيه الكفاية لشن هجوم عام داخل الشام وهزمت القوات التي أرسلها حاكمها ضدهم ونهب الثوار معسكره وحاصروا دمشق ، وأرسل

الطولونيون الامدادات من مصر وبالرغم من أن هذه القوات كانت حسنة التدريب إلا أنها انهزمت أيضاً . وسقط يحيى في المعركة أمام دمشق وأصبح أخوه الحسين قائداً لهم ، وكان له شامة في وجهه ، وادعى بأنها علامة على نبوته (تشبهاً بشامة الرسول) ، وعندما انتصر على القوات المصرية انضمت إليه معظم عشائر البدو في بلاد الشام ، وقال بأنه المهدي الذي يأتي في آخر الزمان ليقيم حكم الله على الأرض ، والنجاح يجرّ النجاح ، واستولى القرامطة على منطقة حمص ونهبوا كل شيء واستسلمت المدينة نفسها كما استولوا أيضاً على حماة ومعرة النعمان وكثير من المدن الأخرى ، وقتلوا الكثير من الأهالي بما فيهم النساء والأطفال ، وفي بعلبك ذبحوا تقريباً كل سكانها وتكرر الشيء نفسه في السلمية وفي كل مكان أحرقوا القرى وقتلوا الفلاحين .

ولقد حارب سكان المدن بشكل عام حتى الطبقات الفقيرة منهم ضد الثوار رغم وجود مجموعات أنصار قرمطية سرية بينهم ، وكذلك فعل سكان حلب عندما حاصرها القرامطة عام ٩٠٣ وابدوا - بمساعدة قوات الخليفة - مقاومة شجاعة واضطروهم للتراجع ، وأرسل الخليفة ضدهم جيشاً جديداً يضم مجموعة قوية من بني شيبان فسحقهم في نهاية عام ٩٠٣ في معركة عظيمة قرب حماه وأسر قائدهم الحسين وأعدمه (٧٢) .

وظهر القائد الجديد في شخص علي - الابن الثالث لزكرويه الذي قام بغارة على فلسطين في عام ٩٠٦ - وعندما نجح دعاة زكرويه من جديد في تحريض القبائل التي عادت إلى حياة السلم قام القرامطة بهجمات جديدة على جنوب سورية وفلسطين ، وبعد عدة إخفاقات تولى زكرويه نفسه القيادة وأحرز انتصاراً على جيش الخليفة في غرب العراق ، ولكنه انهزم في المعركة الثانية قرب الكوفة ووقع في الأسر ، ومات بعد عدة أيام متأثراً بجراحه ، وكانت هذه آخر ثورة للبدو . ولكن لماذا أخفقت ؟ لقد حارب سكان المدن ضدها بضراوة شديدة ولأن عداوة الفلاحين للبدو قد تأصلت بصورة مشابهة ، والذين ألقوا القبض على الحسين صاحب الشامة وسلموه للسلطات أهالي مدينة صغيرة يعيشون على الزراعة (٧٣) ، ولم يؤيد كل البدو القرامطة ، وهكذا لم ينجحوا في توحيد كل القوى الثورية ولم يتمكنوا من اقامة تحالف قوي يستطيع وحده اسقاط النظام الرأسمالي ، فخصوصية الطبقات

المختلفة قوية جداً ، وعندما أصبحت القرمطية حركة بدوية غيّر الفلاحون موقفهم أو بكلام أدق ، تولى الملاكون قيادة الفلاحين .

وفي نفس الوقت لاقى الدعاة القرامطة النجاح في أجزاء أخرى من امبراطورية الخلافة ، حيث بدأوا نشاطهم في اليمن في عام ٨٨٠ هـ سيطروا على كل البلاد بحلول عام ٩٠٦ ، ولكن نجاحهم في البحرين بدا أخطر نظراً لقربها من مركز الامبراطورية ووقوعها على إحدى الطرق الرئيسية للتجارة الدولية .

وكان يسكن في مدن البحرين تجار نشيطون وفي كل مدينة اهتمت بزيادة نصيبها في تجارة الهند والخليج العربي العظيمة ، أما في الأرياف فالسكان بدو رحّل فقراء يحسدون السكان المستوطنين الأغنياء . وفي أحد الأوقات كانت المنطقة قلعة قوية للخوارج كما لاقى زعيم الزنج بعض النجاح وبقي في المدن حزب شيعي ، كما استحكم العداء بين هذه المنطقة وسكان البصرة السنّة .

وككثير من قادة القرامطة الآخرين ، فإن الرجل الذي بدأ الحركة في البحرين فارسي أيضاً اسمه أبو سعيد حسن بن بهرام الجنّابي ، وتقول بعض المصادر أنه كان تاجر دقيق ، بينما تقول المصادر الأخرى أنه كان وزّاناً في البصرة ، ولكن منشأه البروليتاري أكيد ، ونقرأ أن الناس سخروا منه لأنه عمل ذات مرة في تصليح الأكياس . فبدأ حياته في منطقة فارس حيث أثار عداء الفرس ضد العرب ، ثم نظّم هناك مجتمعاً شيوعياً أداره بنفسه ، وعندما قمعت الحكومة هذه الحركة أرسله حمدان قرمط إلى البحرين ، وهناك حاول كسب الشيعة المتطرفين إلى جانبه ، إلا أنه فشل ، واتصل فيما بعد بالبدو ، وفي عام ٨٩٩ هزم مدينة القطيف ، وبعد عام شنّ الغارات على ضواحي مدينة أخرى في البحرين وهي هجر ومنطقة البصرة حيث هزم قوات الخليفة . ثم استولى عليها القرامطة مرة أخرى واعتنق سكانها الباقون عقيدتهم ولكن أبا سعيد أقام مقر قيادته في الأحساء [٧٢] .

في السنوات التالية بقي قرامطة البحرين بدون أي نشاط ويعود ذلك على الأرجح للخلافات داخل الحركة الاسماعيلية ، وقاوم حمدان قرمط وعبدان سعيد بن عبيدالله الذي يعود بنسبه إلى القداح الفارسي عبد الله بن ميمون ، القائد السري للحركة الذي ادعى بأنه يعود بنسبه إلى إسماعيل والمهدي ، ولكن قرامطة البحرين اعترفوا به ، في عام ٩٠٩ أقام سعيد بن عبيدالله حكمه في تونس ، وأوجد

خلافة شيعية ، وعندما هاجم جيشه مصر في عام ٩١٣ هاجم القرامطة ـ الفرع الآخر من الحركة ـ مدينة البصرة ، وفي عام ٩١٩ هوجمت مصر والبصرة ثانية في نفس الوقت [٧٤] ، وهكذا وجدت الخلافة العباسية نفسها بين فكّي الكماشة اللذين يهددان بسحقها .

وفي هذه الأثناء قتل أبو سعيد في قصره ، وخلفه ابنه سعيد ولكنه حكم بالتعاون مع إخوته . وفيما بعد أزاحه أخوه الأصغر أبو طاهر وبدأ سياسة جديدة ، فبينما ساعد البدو أبا سعيد في بداية ثورته بدأ أبو طاهر ببناء دولة قوية ترعى مصالح التجار وهم أهم مجموعة من سكان المدن في البحرين ومنذ اللحظات الأولى أصبحت مصالحهم عاملاً حاسماً في سياسته محددة بذلك بنية الدولة القرمطية وسياساتها الخارجية ، والتغييرات المتتالية في سياساتها تشير إليها بوضوح أقوال كتاب الحوليات ، يقول ابن حوقل ـ الذي كتب في النصف الثاني من القرن العاشر ولكنه يشير بوضوح إلى أوائل القرن وأواسطه ـ أن زعماء القرامطة امتلكوا الضياع كإقطاعات مما يعني نهاية الشيوعية ، ولكن في حين أعطت هذه الضياع ٣٠,٠٠٠ دينار في السنة بلغت واردات الدولة من المكوس المفروضة على التجار والمصادر الأخرى ١,٢ ـ ١,٥ مليون دينار ، وخصص خمس هذا المبلغ ـ بعد اقتطاع خمس الامام أي خليفة الاسماعيليين ـ لعائلة أبي سعيد وخمس آخر لعائلة الوزير سنبر وجزءاً مساوياً له إلى الإقضانية وهم أعضاء مجلس الدولة، وأقامت الدولة القرمطية نظاماً ديمقراطياً فهناك مجلس أعلى يناقش الأمور الهامة ويتخذ القرارات ، ولقد ظهرت مؤسسات غريبة تماماً عن العالم الاسلامي التقليدي : وهناك دستور (على الأرجح غير مكتوب) وديمقراطية رغم أنها موجهة لأن الدولة القرمطية لم تكن جمهورية ، وأهم خصائص هذه المرحلة من تطور القرمطية هو وجود الملكية الخاصة [٧٥] .

السنوات العشر الأولى من حكم أبي طاهر الذي جعل الأحساء عاصمة له أوقفها لتطوير العلاقات التجارية مع المناطق الأخرى في الخليج العربي مثل مدينة سيراف ، ووافق على ذلك علي بن عيسى عندما كان على رأس حكومة الخلافة لأنه أمل ـ عن طريق السماح للقرامطة بتطوير تجارتهم ـ أن يتجنب خطر الهجمات الجديدة على جنوب العراق ، ولكن عندما قرر الخليفة الشيعي في تونس في عام ٩٢٣

مهاجمة مصر اضطر القرامطة من جديد للالتزام بأوامره ، وتغلب القرامطة على البصرة ونشروا الخراب والدمار في هذه المدينة الغنية ، وعادوا بالغنائم العظيمة إلا أن ذلك كان بعد تدمير الجامع الكبير . وعندها بدأ أبو طاهر بتدمير العراق بالنار والسيف ، واستطاعوا تدمير الكوفة في عام ٩٢٥ . وقصة هذه الحملة ـ كما يرويها كتاب الحوليات تلقي الضوء على إحدى دوافع سياسة أبي طاهر : طلب من الخليفة أن يتنازل له عن الأهواز والبصرة محاولاً بهذه الطريقة التمكن من تجارة الهند البحرية ، وصناعة خوزستان ، وعندما رفض الخليفة طلبه غزا العراق [٣٦] .

ولكن أهداف القرامطة الدينية لا تقل أهمية ، فقد قرر أبو طاهر ضرب الاسلام السنّي في أكثر نقاطه حساسية بقطع طريق الحجاج إلى مكة ، وبالتالي جعل من المستحيل تأدية أقدس الفرائض الاسلامية ، وتوقف الحج من العراق لعدة سنوات ، وطلبت حكومة الخلافة من حاكم أذربيجان يوسف ابن أبي الساج تجهيز جيش ليقوم بالقتال ضد القرامطة ، ولكن يوسف انهزم في عام ٩٢٧ عندما غزا أبو طاهر العراق مرة ثانية ، واحتل الكوفة وبدا الأمر ، وكأن العراق بكامله فريسة سهلة للقرامطة الشجعان ، ورغم مقاومة جيش الخليفة عبروا نهر الفرات ، واستولوا على مدينة الأنبار ، وفي الوقت الذي أصاب الهلع بغداد نجح الجيش في إيقاف القرامطة بتدمير جسر مما جعل أبا طاهر ينسحب إلى الضفة الغربية لنهر الفرات ، وأخيراً إلى البحرين ، وفي السنة التالية عاد القرامطة وفرضوا الأتاوة على القبائل البدوية في شمال مابين النهرين ، بينما اندلعت ثورة فلاحين جديدة في نفس الوقت ، وثار أكثر من ١٠,٠٠٠ فلاح في منطقة واسط ، واستولوا على محاصيل الملاكين الأغنياء ، وثار الآخرون في منطقة عين التمر ، ورفعت هاتان الثورتان الرايات البيضاء حاملة الآية الكريمة «ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين» [١] ٢٨ـ٥

في عام ٩٣٠ قام القرامطة بأعنف ضربة ضد الخلافة . ففي يوم العيد الكبير عندما تجمع آلاف الحجاج استولى القرامطة على مكة ونهبوها خلال الأيام الثمانية التالية ، وكعمل رمزي أخذوا الحجر الأسود ـ أقدس مقدسات الاسلام ، وفقدت

---

(١) ـ الآية ٢٨ ـ ٥ (القصص) .

شعائر الحج أهميتها ، ولم يتحرك العالم الاسلامي ولذلك تابع القرامطة هجومهم ، وفي نفس السنة تم الاستيلاء على عُمان ، وفي عام ٩٣١ استولوا على الكوفة ثانية ، وهجر سكان مدن العراق الأخرى منازلهم .

ولكن خلال السنوات التي تلت نهب مكة أصبحت مصالح القرامطة التجارية من جديد العامل الأول في سياستهم ، وتعرضت مدينتان فارسيتان ساحليتان لأعمال النهب : في عام ٩٣٣ وعام ٩٣٤ نهبت سينيز وتوّج ، وكان الهدف بوضوح تدمير هذه المراكز لصناعة النسيج التي نافست الأحساء ، وعندما تفاوضت حكومة الخليفة مع القرامطة من أجل إعادة الكعبة (الحجر الأسود) طالب القرامطة بحرية التجارة مع البصرة ، وهاجم القرامطة الكوفة ثانية ونهبوها ، ولكن تم توقيع معاهدة في عام ٩٣٩ فأصبح بموجبها الحج ممكناً وفي عام ٩٥٠ أعيد الحجر الأسود إلى مكة [٧٧] .

وفي هذه الأثناء طرأت تغيرات جديدة على الدولة القرمطية ، ولقد ترك لنا الرحالةناصر خسرو الذي زار البحرين في أواسط القرن الحادي عشر وصفاً ممتعاً للدولة القرمطية ، كما كانت عند موت أبي طاهر في عام ٩٤٤ ، وشكلت نوعاً من دولة الرفاهية حيث لا يدفع أحد الضرائب (بعكس الظروف التي يصفها ابن حوقل) ، فالدولة امتلكت ٣٠,٠٠٠ رقيق عملوا بالزراعة ، والمواطن المحتاج تساعده الدولة بالقروض التي حصل عليها وشملت القروض الأجانب حتى قامت مشاريعهم ، وهكذا كان بإمكان الحرفي الأجنبي الحصول على أدوات العمل التي يحتاجها ، وحَقٌ لكل فرد طلب المساعدة لدى اضطراره لاصلاح بيته أو طاحونته حيث ترسل الدولة العبيد للعمل لديه ، وكان القمح يطحن في طواحين الدولة بدون مقابل [٧٨] .

والنظام الذي وضعه ناصر خسرو هو المرحلة الأخيرة من تطور طويل ، إنه شيء مختلف تماماً عن كمونات الفلاحين الفقراء البدائية التي كانت المرحلة الأولى من الحركة القرمطية ، والمراحل التالية مثّلت صيغة من الاشتراكية كما تصورها الشرقيون الحقيقيون .

ومهما كان الأمر فإن الحركة القرمطية تعتبر أقوى الحركات الخلاقة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، ولقد خلقت دولة دامت عدة أجيال وكان بإمكانها أن

تصبح قوتها كافية لاسقاط النظام القائم ، وبناء نظام اجتماعي جديد لولا الخصوصية الكامنة في المجتمعات الشرقية ، وسبب آخر للاخفاق هو التعصب الديني الذي أوجده القرامطة ضدهم ، ففي كل مكان حارب المسلمون الأتقياء ضدهم بغض النظر عن مكانتهم الاجتماعية ، وأحياناً اعتبر الجيش النظام حماس المتطوعين زائداً ، وكان المدينون تواقين للقتال لدرجة جعلت الضباط عاجزين عن منعهم . [٧٩] .

الفصل الرابع

١ ـ ج . ووكر ـ قطعة نقـود نادرة من الزنـج ـ م.ج.س.م ـ ١٩٣٣ ص ٦٥١ ومابعدها

٢ ـ الطبري ـ ٣ ص ص ١٧٤٢ ومابعدها ١٨٣٤ ومابعدهـا المسعـودي ـ مروج الذهب ـ ٨ ص ٣١ ومابعدها

ت . نولدكه ـ حرب عبيد في الشرق ـ مشاهد من التاريخ الشرقي (لندن ١٨٩٢) ص ١٤٦ ومابعدها

انظر أيضاً H. WALM

A. POPOVIC

٣ ـ الطبري ـ ٣ ص ص ١٦٨٧ ، ٢٢٠٨ ومابعدهـا ، ٢٢٢٠ ومابعدهـا ابـن الأثير ـ ٧ ص ٣٦٤ ومابعدها

٤ ـ الاصطخري ص ٢٧٣ ومابعدها

المسعودي ـ ٨ ص ٤١ ومابعدها

ت . نولدكه ـ يعقوب الحداد وأسرته ـ مشاهد ص ١٧٦ ومابعدها

W. BARTHOLD

B. SPULER

٥ ـ الطبري ـ ٣ ص ١٥٢٣ ومابعدها

ا.س.ك. لامبتون ـ الاقطـاعيون والفلاحـون في ايران (لنـدن ١٩٦٩) ص ٤٨ حاشية ١

٦ ـ المقريزي ـ الخطط ـ ١ ص ص ٣١٣ ، ٣١٨

المقريزي ـ الخطط ـ ٢ ص ٢٦٨

ابن اياس ـ ١ ص ٣٧

BECKER

ASHTOR- ٧

٨ - ايرينكروتيز دراسات في تاريخ النقد في الشرق الأدنى في العصور الوسطى - م . ت . ق. ج. ش - ١١ (١٩٥٩) ص ٤٩

٩ - C.H. BECKER

الخطط - ١ ص ص ٩٩ ، ٣١٥

١٠ - ايرينكرويتز - دراسات - م.ت.ق.ج.ش - ١١ ص ١٥١

١١ - المرجع نفسه ص ١٥٣

١٢ - مسكويه - ١ ، ص ٢٥٥

١٣ - المرجع نفسه ص ص ١٦ ، ٣٨ ومابعدها ،

ابن الجوزي - المنتظم ٦ ص ٣٢٦

هلال الصابي (تحقيق امدروز - ليدن - ١٩٠٤) ص ١١

م. كانارد - سيف الدولة ص ٢٦٧ ومابعدها

١٤ - أبو المحاسن تحقيق جوينبول - ماينس (ليدن ١٨٥١ - ١٨٥٥)

- ٢ ص ص ١٥٥ ، ١٥٧

الخطط - ١ ص ص ٩٤ ، ٣١٤

ابن اياس - ١ ص ص ٣٧ ، ٤٣

البلاوي - أحمد بن طولون (دمشق ١٣٥٨) ص ٣٤٩

حول قواد جيش ابن طولون انظر البلاوي ص ص ٧٠ ، ٩٣، ١٠١، ١٠٣ ومابعدها ، ٢٤٤، ٢٦٧ ومابعدها ، ٣١٥، ٣٢٠ حول قواد جيوش الأخشيد انظر ابن سعيد - المغرب تحقيق تالكويست (النص الألماني) ص ٣٨

١٥ - هلال الصابي ص ١٧

ASHTOR

مسكويه - ١ ص ٢٦١

١٦ - S.H. ANTONIADIS-BIBICOU

١٧ - ARIB

مسكويه - ١ ص ٢٥٨

البلاوي ص ٢٩٤

قارن BECKER

١٨ ـ هـ . بوين ـ حياة علي بن عيسى وعصره (كمبرج ١٩٢٨) ص ص ٢٢٦١ ، ٢٧١
ابن سعيد ص ٢٨
١٩ ـ التنوخي ـ أحاديث قاض عراقي ـ الجزء الأول (ترجمة مارغوليوث) ص ١٩
ابن سعيد ص ٤٢
٢٠ ـ هلال الصابي ص ٢٢٣ ومابعدها
ابن سعيد ص ص ٣٨ ، ٣٩ ، ٥١
التنوخي ص ١٥ ومابعدها
٢١ ـ E.TYAN
التنوخي ص ٢٤
ابن سعيد ص ص ٢٥، ٣٦، ٦٦
ابن العديم ـ زبدة الحلب ـ ١ ص ١١٢
٢٢ ـ مسكويه ـ ص ص ٢٥، ٤٢، ٤٤، ٦١، ٦٤
هلال الصابي ص ٩٣
ابن سعيد ص ٢٩
بوين المرجع السابق ص ١٥٣
ارشاد الأريب ـ ٣ ص ١٨٤
آمدروز ـ م.ج.س.م ـ ١٩٠٨ ص ٤٢٩
٢٣ ـ مسكويه ـ ١ ص ٦٢
٢٤ ـ الطبري ـ ٣ ص ١٨٣٨
مسكويه ـ ١ ص ص ٥٢ ، ٥٩ ومابعدها ، ١٥٠ ، ١٥٨
مسكويه ـ ٢ ص ٢١٣
البلاوي ص ١٧٩
٢٥ ـ مسكويه ـ ١ ص ٧٥ ، ٥
ياقوت ـ ٢ ص ٦١٧
ARIB
CANARD
بوين ٣٣٥ ، ٣٤٢ ومابعدها

٢٦ ـ مسكويه ـ ١ ص ص ١٨ ومابعدهـا ، ٤٦ ، ٦٠، ٧٠، ٨٣، ٢٤٦
KREMER
بوين ـ الجزء الأول ـ ج
٢٧ ـ مسكويه ـ ١ ص ص ٢٥، ٣٢، ٦٢، ٦٥، ٢٤٩، ٢٧٣
(HISTOIRE) ASHTOR- ٢٨
هلال الصابي ص ١٤٠

(ISALARI) ASHTOR
D. SOURDEL- ٢٩

COTTSCHALK
هلال الصابي ص ص ٩٥، ١٤٠
مسكويه ـ ١ ص ص ٢٥٧، ٢٩٩
مسكويه ـ ٢ ص ١٥٨
CANARD
ابو المحاسن ـ ٢ ص ١٥٨
بوين ص ص ٢١٦ ، ٣٠٢
ASSEMANI
٣٠ ـ هلال الصابي ص ص ٢٣، ١٩٩، ١٣٩، ٣٢٢

BOWEN

ARIB
مسكويه ـ ١ ص ص ٦٤ ، ٢٥٠

BECKER
HISTOIRE ASHTOR

٣١ ـ مسكويه ـ ١ ص ٦٤
٣٢ ـ نفس المصدر ص ص ٦٦، ٢٤٦، ٢٥٠، ٣٣٧، ٣٣٨
هلال الصابي ص ص ٨، ٣٩ ومابعدها ، ٥٤، ٥٦، ١٠٣
ابن سعيد ص ٣٩
GOTTSCHALK

(Salonica 1792) Shaare sedek - ٣٣
مسكويه - ١ ص ٧٢ ومابعدها (قارن ARIB)
ابن الجوزي - ٦ ص ص ١٥٦ ، ٢٦٨

Teshubhot hageonim - ٣٤
ابن العديم - ١ ص ١٦٧ ومابعدها

BELLAT

BELLAT-
CANARD
(Histoire)-
التنوخي ص ٣١
ابن سعيد ص ٤٠
ابو المحاسن - ٢ ص ١٦٧
BECKER
٣٥ - مسكويه - ١ ص ٣٥
التنوخي ص ١٦ ومابعدها
G. WIET

N.LEVTZION - ٣٦
مسكويه - ١ ص ٤٣
(BANKING) ASHTOR
٣٧ - مسكويه - ١ ص ٢٤٧
سفرنامة (ترجمة شيفر) ص ٢٥٣
FISCHEL
هلال الصابي ص ٧٩ ومابعدها

Shaare
teshubhot

MANN
٣٨ - ابو المحاسن - ٢ ص ١٧٤

FISCHEL- ٣٩
ARIB
MANN
MANN

٤٠ ـ مسكويه ـ ١ ص ص ٦٦ ، ٢٤٤ ، ٢٩٥
التنوخي ص ١٨
ابن سعيد ص ص ٢٢، ٦٥ ومابعدها
ابو المحاسن ـ ٢ ص ١٦٦
المقري ـ مختارات ـ ١ ص ٢٢٩ ومابعدها
المسعودي ـ مروج الذهب ـ ١ ص ص ٣٣٤ ومابعدها ، ٣٤١
EHRENKREUTZ

Koheleth Shelomo
٤١ ـ المسعودي ـ ١ ص ٣٠٢ ومابعدها
HEYD
BOZORG- ٤٢
المسعودي ـ ٢ ص ٥٢
الاصطخري ص ص ١٢٧ ومابعدها

HEYD
STERN
BOZORG- ٤٣
travels
ابن سعيد ص ٥٩

JACOB- ٤٤
MARKOW
ARNE
LEWICKI
LEWIS

٤٥ ـ الاصطخري ص ٣٠٤ ومابعدها
JACOB
المسعودي ـ ٢ ص ١٤
نفس المؤلف ـ التنبيه ص ٦٣
المقدسي ص ٣٢٤ ومابعدها
ابن حوقل ص ٣٩٢
٤٦ ـ المقدسي ص ص ١٣٣ ومابعدها
EHRENKREUTZ
٤٧ ـ البلاوي ص ص ٦١ ، ٢٤٩
ابو المحاسن ـ ٢ ص ١٥٩
CANARD
مسكويه ـ ١ ص ٢٥٤ ومابعدها
ARIB

SOURDEL SOURDEL ـ ٤٨

(Mouvement) ASHTOR

(Histoire) ASHTOR ـ ٤٩
٥٠ ـ مسكويه ـ ١ ص ص ٢٨ ، ٧٤
هلال الصابي ص ٣٣٥
GINZBERG
٥١ ـ الاصطخري ص ٩٣
ابن حوقل ص ٢٥٦
المقدسي ص ص ٢٠٢ ، ٤١٠
ابن عبد ربه ـ العقد (بولاق ١٢٩٣)ـ ٣ ص ٣٦٢
الكندي ـ فضائل مصر
الخطط ـ ١ ص ص ١٨١ ، ٢٢٦ KARABACEK

GROHMANN
القزويني ـ وصف الكون (غوتنفن ١٨٤٨ ـ ١٨٤٩) ـ ٢ ص ٢٩

ناصري خسرو (ترجمة شيفر - باريس - ١٨٨١) ص ١١٣

BECKER

GOITEIN

٥٢ - ابن حوقل ص ١٥٩

٥٣ - المقدسي ص ٢١٣

BECKER

ARIB

مسكويه - ١ ص ١٩١

ابن الجوزي - ٦ ص ١٢٦

ابو المحاسن - ٢ ص ١٩٢

ياقوت - ٢ ص ٦١٦ ومابعدها

KREMER

الاصطخري ص ١٥٣

ابن حوقل ص ٢٩٩

٥٤ - مسكويه - ٣ ص ١١٧ ومابعدها

ابن حوقل ص ١٥٢

الخطط - ١ ص ١٧٧ (٣٦/ ٣٧)

الخوارزمي - مفاتيح العلوم (ترجمة فان فلوتن) ص ٦٢

مفاتيح العلوم - ٢ ص ٦٦

الثعالبي - لطائف المعارف (تحقيق فان يونغ) ص ٩٧

ترجمة بوروورث ص ، ١٢٠

BECKER

٥٥ - انظر المهلبي الذي كتب حوالي ٩٨٥ كما ينقل عنه ياقوت - ١ ص ٨٨٢ حدود العالم ص ١٣٨

لطائف المعارف ص ١٣٢

KARABACEK

ابن زلق (الحسن بن ابراهيم المتوفي ٩٩٨) حول أسيوط كما ينقل عنه ياقوت - ١ ص ٢٧٢

المقدسي ص ص ١٨٠ ، ١٨٦
٥٦ - المقدسي - ١ ص ٢٢٩ ومابعدها
حدود العالم ص ١٣٨
الاصطخري ص ١٥٣
SERJEANT
لطائف المعارف ص ٩٥ (ترجمة بوزوورث ص ١١٨) ١٣٢
التنوخي ص ١٩٠
٥٧ - قارن Histoire
٥٨ - ARIB
مسكويه - ٢ ص ٢٤
ابن الجوزي - ٦ ص ٣٢٦
البلاوي ص ٣١٢
الصولي - اخبار الراضي والمتقي (القاهرة ١٩٣٥) ص ١٩٨
٥٩ - ARIB
التنوخي ص ص ١٩، ٢٢
مسكويه - ١ ص ٢٥٤
هلال الصابي ص ص ٩٤ ، ٢٥٧
ابن سعيد ص ٣٦
٦٠ - MANN
مسكويه - ١ ص ص ١٩٩ ومابعدها ، ٢٤٠ ، ٢٤٥ ، ٢٧٣
التنوجي ص ٤٢ ومابعدها

SOURDEL

Teshubhot ha-geonim
٦١ - هلال الصابي ص ٣٣٧
٦٢ - BOWEN
مسكويه - ١ ص ٣٠ ومابعدها
مسكويه ٢ ص ٩
الاصطخري ص ٨٧

ابن الجوزي ـ ٦ ص ٣١٥ ومابعدها
ياقوت ـ ٤ ص ٨٤٩
ROGERS

HOURANI STERN
٦٣ ـ هلال الصابي ص ٣١٤
مسكويه ـ ١ ص ص ٥٩ ، ٧١، ٢٩٥
التنوخي (ترجمة مارغوليوث) في الثقافة الاسلامية ـ ٤ ص ٢٣٢ ومابعدها
التنوخي ـ ١ ص ٤٠
٦٤ ـ ابن عبد الحكم ـ فتوح مصر ص ١٥٦
الخطط ـ ١ ص ص ٧٣ ، ٩٨
ابن دقماق (تحقيق فوللرز) ـ ٥ ص ٤٣٥
الاصطخري ص ٥٢
٦٥ ـ ابن حوقل ص ٢١٣
المقدسي ص ص ١٦٢، ١٧٦، ١٨٠
التنوخي في الثقافة الاسلامية ـ ٤ ص ٢٣٥
MULLER-WODARC
٦٦ ـ الاصطخري ص ٩١
هلال الصابي ص ٣١٨
ابن رسته (ترجمة فييت) ص ١٢٥
CAHEN
المقدسي ص ص ١٤٥، ١٦٢، ١٨٠
ياقوت ـ ١ ص ٢٠١
ناصر خسرو ص ص ٤٠، ٤٦
MULLER-WODARG
ابن حوقل ص ص ٢١٣ ، ٢١٥
٦٧ ـ التنوخي في الثقافة الاسلامية ـ ٤ ص ص ٢٣٣ ، ٢٣٥
ابن حوقل ص ٢١٣

مسكويه - ١ ص ص ٣٠ ومابعدها ، ٧٠، ٧٤
مسكويه - ٢ ص ٢١٣ة
هلال الصابي ص ص ٧٢ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ومابعدها ، ٣٥٩
ابن رسته ترجمة فييت ص ١٢٦
٦٨ - الفرج بعد الشدة (القاهرة ١٩٣٨) - ١ ص ١١٢
مسكويه - ١ ص ٣٧
(Histoire) CANARD
٦٩ - انظر الثقافة الاسلامية - ٤ ص ص ٢٥ ، ٢٣٣ ، ٥٤٠
هلال الصابي ص ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ومابعدها
de GOEJE- ٧٠
الطبري - ٣ ص ص ٢١٢٤ ومابعدها ، ٢١٧٩ ، ٢١٩٨ ، ٢٢٠٢ ، ٢٢٠٦
ابن النديم - الفهرست ص ١٨٧
ابن خلدون - ٤ ص ٨٤ ومابعدها
de SACY
المسعودي - ٨ ص ٢٠٣ ومابعدها
٧١ - الطبري - ٣ ص ص ٢١٨٨ ، ٢١٩٢، ٢١٩٣، ٢١٩٦ ومابعدها
المسعودي - ٨ ص ص ١٩١، ١٩٣ ومابعدها

de SACY

de GOEJE
٧٢ - ابو المحاسن - ٢ ص ١١٥
٧٣ - نفس المصدر ص ١٢٦
ابن الأثير - ٧ ص ٣٤٠ ومابعدها ، ٣٤٤ ومابعدها
ابن خلدون - ٤ ص ٨٨
٧٤ - هناك اختلاف كبير بين المؤلفين العرب حول هجوم القرامطة على البصرة في عام ٩١٣
انظر المسعودي ٨ ص ٢٨٠
مسكويه - ١ ص ٣٣ ومابعدها ص ٢١٣ ومابعدها

ابن الأثير ـ ٨ ص ٤٩
ARIB
النصوص التي نشرها دي غوجة ص ٢١٣ ومابعدها وانظر ص ٦٩
في الحقيقة من المرجح أن الغارة لم تتزامن مع غزو مصر كما كان مخططا حول الحملة
في عام ٩١٩ انظر ابن الجوزي ـ ٦ ص ١٥٣
ابو المحاسن ـ ٢ ص ٢٠٧
MADELUNG- ٧٥
ابن حوقل ص ٢٥ ومابعدها
ARIB- ٧٦
ابن الأثير ـ ٨ ص ١١٤ ومابعدها
ابو المحاسن ـ ٢ ص ٢١٩ .
ومرة أخرى يعطي المؤ رخون العرب تواريخ مختلفة . يقول ابن الجوزي ـ ٤ ص ١٩٦ أن الاستيلاء على البصرة حدث بعد سنتين .
ARIB- ٧٧
ابن الأثير ـ ٨ ص ص ١٢٤ ومابعدها ، ١٣٢ ومابعدها ، ١٣٦ ومابعدها ، ٢٢٠ ومابعدها ، ٢٣٢ ، ٢٤٩ ومابعدها
ابن الجوزي ـ ٦ ص ص ٢٠٨ ومابعدها ، ٢١٥ ومابعدها
حمزة الاصفهاني (تحقيق غوتوالد) ص ٣١٣
مسكويه ـ ١ ص ٢٨٤
de GOEJE
٧٨ ـ ص ٢٢٧ ومابعدها
٧٩ ـ ابن العديم ـ ١ ص ٨٨ ومابعدها

الفصل الخامس

بدايات الاقطاع

رغم أن العباسيين فقدوا سيطرتهم في نهاية القرن التاسع وبداية القرن العاشر على كثير من المناطق ، فإن نظامهم استمر في البقاء ، كان العراق مايزال بلداً غنياً ومزدهراً ومركزاً للعالم الاسلامي ، ولكن في أواسط القرن العاشر تداعت الخلافة التي عاشت قروناً عديدة ليحل محلها نظام اجتماعي جديد ، ولم يقتصر الأمر على العرب بل إن المدنيين عموماً فقدوا موقعهم في قمة الهرم الاجتماعي ، وعندها بدأ عصر الاقطاع كما ارسته الجيوش الشرقية ، وترافق هذا الاضطراب مع تغير كبير في الأحوال الاقتصادية في العراق والبلدان المجاورة ، وهكذا كان أواسط القرن العاشر من كل النواحي نقطة تحول في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للامبراطورية القديمة .

ولم يكن هذا التغير مفاجئاً بل إن الانتقال كان بطيئاً ومرَّ وقت طويل قبل أن يحكم أمراء الاقطاع قبضتهم على قطاعات الاقتصاد المختلفة ، وقاومت البورجوازية إسقاط النظام القديم ، وفي النصف الثاني من القرن العاشر والنصف الأول من القرن الحادي عشر ازدادت قوة البدو عما قبل .

وتطورت الظروف الاجتماعية والاقتصادية في مصر على نفس الأسس ، رغم أن هذا التغير حدث فيما بعد إذ أن إقامة خلافة شيعية منافسة أخّرت إقامة النظام الجديد ، ولكنها لم تستطع منعه .

- التدهور الاقتصادي في المناطق المركزية :

إن الظاهرة الأكثر خصوصية في الاتجاهات الجديدة في الحياة الاجتماعية الاقتصادية الجديدة في العراق والمناطق المركزية المجاورة من امبراطورية الخلافة

هي بداية تناقص السكان ، والمؤرخ الذي يحاول تصوير التطور الديمغرافي في البلدان الشرقية في العصور الوسطى لا يمكنه الاستشهاد بالوثائق المحفوظة في أرشيف مدن جنوب أوروبا من نهاية القرن الثاني عشر ، ولذلك فنحن مضطرون لبناء الفرضيات . ولكن فيما يختص بالاتجاهات البعيدة المدى للتطور الديمغرافي فإن أرجحيتها تتعزز بالدليل المقنع .

وسجل أحد الجغرافيين العرب الذي كان مراقباً جيداً أنه في نهاية القرن العاشر ـ عندما ألف كتابه ـ أن ضواحي الكوفة والبصرة بدأت بالتدهور ، ويتحدث أيضاً عن تدهور المدن الصغيرة حول واسط مثل سامراء والأنبار وجرجرائيه [1] ، كما أن تناقص سكان بغداد لابد وأنه كان مخيفاً . ويقول كاتب عربي عاش في تلك الفترة أن سكانها في بداية القرن العاشر كانوا عشرة أضعاف ماوصلوا إليه في عام ٩٥٦ . ويقول الجغرافي ابن حوقل الذي كتب في نهاية القرن العاشر أن معظم مناطق بغداد قد تدهورت [2] ، وحسب أقوال هذا الجغرافي كان تناقص السكان سمة بارزة أيضاً في الحياة الاجتماعية في أعالي مابين النهرين ، كما أنه يركز أيضاً على التناقص المتزايد في كثير من المدن ويأسف لتدهور قرقيسياء والرحبة والسنّ والموصل وبلد وأذرما ودارا ورأس العين وأرزن وميافارقين ، فالمنازل في هذه المدن خاوية ولم يبق سوى الفقراء الذين لا يستطيعون الهجرة [3] . وأصبح تناقص السكان متزايداً . يقول مسافر فارسي زار البصرة في عام ١٠٥٢ أن معظم أحيائها خربة [4] .

ومن جهة أخرى ، ليس هناك أي شك في أن الفلاحين استمروا في مغادرة القرى والذهاب إلى المدن في نفس فترة تدهورها ، بالتأكيد تناقص عدد القرى وترك القرى القديمة لم يقابله انشاء قرى جديدة ، وإن تكاثر الضياع سبب هام بالتأكيد لهذه الظاهرة ، إنها لحقيقة بينة بالفعل التي تؤكد أن كثافة السكان في المناطق التي تسود فيها الزراعة الحرة هي أكبر من كثافة السكان في المناطق التي يزرعها المستأجرون ، والسبب في ذلك ثقل العبء المفروض على المستأجرين مما يجعلهم يزرعون مساحات أكبر .

ويمكن استنتاج براهين سلبية للافتراض القائل بتناقص السكان الذي بدأ في العراق في تلك الفترة . منها غياب أي وصف لتزايد مساحة المدن بتسوير

الضواحي ، كما أن الصمت بشأن بناء المدن الجديدة يمكن أن يكون سبباً آخر ، ولكن هناك حقائق أيضاً يعتبرها كل المؤرخين الاقتصاديين دليلاً واضحاً على تدهور عدد السكان ، ومنها الاتجاه المتعاكس في أسعار الحبوب والأجور ، فبينما وصل ثمن المائة كيلو غرام من القمح إلى ١,٣٦ دينار في العراق في بداية القرن العاشر ، وبلغ ١,٥١ دينار في عام ٩٦٩ في أعالي مابين النهرين ، فإنه تناقص حتى ٠,٧٥ دينار في أواسط العراق في القرن الحادي عشر ، والحديث عن متوسط الأسعار في قرن يمكن أن يبدو غريباً ، ولكن المصادر العربية تذكر أن الفترات الطويلة التي استقرت فيها الأسعار أو أنها كانت تتغير ببطء أصبحت سمة مميزة للاقتصاد الشرقي في العصور الوسطى ، يقابلها ارتفاع في الأجور المتدنية بشكل واسع ، ورغم أن الأجور الاسمية على الأرجح لم ترتفع عن ١,٥ دينار كما في السابق ، فإن العامل العادي الذي حصل على هذا الأجر استطاع في النصف الأول من القرن الحادي عشر أن يشتري ٣٠٠ رطل من الخبز مقابل ٢٢٧ رطلاً في أواسط القرن العاشر [٥] .

وهناك عدة أسباب لتناقص سكان العراق ، الارهاب المزمن بالتأكيد كان سبباً في تناقص السكان ، حيث قتل عدد كبير من الناس خلال الاضطرابات اللامتناهية ، والحروب الأهلية الكثيرة أو وقعوا فريسة للفقر ، أو أصبحوا بدون مأوى ، لقد كان عدم الاستقرار المستمر سبباً لعدم تزايد عدد السكان أو على الأقل ألغى الزيادة ، ويذكر كتاب الحوليات العرب في القرن العاشر المرة تلو المرة هجرة مجموعات من التجار وسكان المدن الآخرين إلى البلدان الأخرى هرباً من ظلم الضرائب الاعتباطية ، والتمتع بالأمان في ظل حكومات أكثر استقراراً [٦] ، وحتى لو لم تكن هذه المجموعات كبيرة العدد فإن هجرتهم حرمت الكثير من مواطنيهم من دخلهم ، إذ بقي الحرفيون ، وأصحاب الحوانيت والعمال والخدم بدون دخل . وترتبت على عدم الاستقرار نتائج أخرى ، وأصبحت ظروف نقل الحبوب والأغذية الرئيسية الأخرى صعبة جداً ، وأدت المجاعات المحلية إلى نتائج مدمرة كان بالامكان تجنبها ، وتفشي الجائحات كان نتيجة أخرى لعدم الاستقرار ، وتدهور الشروط الصحية ، ويتحدث كتاب الحوليات مطولاً عن خراب أقنية الماء في بغداد ، مما اضطر الكثير من السكان إلى شرب الماء الملوث من الآبار ، وبالتالي حدثت عدة جائحات من الطاعون في أواسط القرن العاشر أولها في عام ٩٤١ وعام

٩٤٣ . وحسب روايات المؤرخين العرب انتشرت الجائحات ثانية في البصرة في عام ٩٥٥ ، مما أدى إلى الوفيات بمعدل ١٠٠٠ - ١٢٠٠ شخص كل يوم ، وفي نفس الوقت فتك مرض بمناطق الأهواز ، وواسط والبصرة وبغداد من المرجح أنه داء اليرقان اللولبي النزفي ، كما انتشرت في عام ٩٥٧ في بغداد الأورام في الحنجرة وأمراض أخرى تسبب الموت ، وكانت تؤدي إلى الموت المفاجىء ، وبعد ٣ سنوات انتشر الطاعون في أهالي ما بين النهرين ، وفي النصف الأول من القرن الحادي عشر حدثت ٤ جائحات من الطاعون ، وفي عام ١٠١٥ - ١٠١٦ انتشر في البصرة والمناطق المجاورة ، وفي عام ١٠٣٢ اجتاح العراق بكامله ومابين النهرين وسورية والمناطق المجاورة في الشرق الأوسط ، وفي نفس الوقت انتشر الجدري في بغداد والموصل ، ومات آلاف من الأطفال والكبار . وبعد عامين أودى الخانوق الحاد بحياة عدد لا يحصى من أهالي خراسان وفارس والعراق ومابين النهرين وسورية ، ويقول المؤرخون أنه قضى على حياة الكثيرين في بغداد والموصل وأغلقت الكثير من البيوت لعدم نجاة أحد من أهلها ، وفي عام ١٠٤٨ حدثت مجاعة أعقبها طاعون [٧] ، ورغم أن الأوبئة أصبحت متكررة في تلك الفترة اكثر من قبل [٨] ، يبدو أن ضحايا الأمراض المستوطنة كانت أكثر عدداً ، ولكن من العبث أحياناً أن نميز بين الأمراض الوبائية والأمراض المستعصية ، ويقول كاتب الحوليات ابن الجوزي لدى حديثه عن طاعون ١٠٣٢ إنه كان أشد من المعتاد ، وعلى أية حال هناك سبب وجيه للاعتقاد بأن الحروب والمجاعة والظروف الصحية السيئة فاقمت من وضع الأمراض المستوطنة [١٠] ، والعلاقة المتبادلة بين فترات الحرب والتدهور الاقتصادي من جهة وارتفاع معدل الوفيات من جهة اخرى ظاهرة مشهورة في التاريخ الاجتماعي لمجتمعات العصور الوسطى .

وكثيراً ماتشير المصادر العربية إلى جانب تناقص السكان الكبير إلى تناقص المساحة المزروعة ، وأنه استخفاف كبير أن نقول فيه أنه حدث نتيجة الهجرة من الأرض . ومن ناحية أخرى من نواحي التدهور الاقتصادي وسوء الادارة ، وتناقص الانتاج الزراعي لتناقص الطلب ، ولم يبق هناك ضغط على السلطات للمحافظة على شبكات الري ، ونظراً لأن السدود على نهري دجلة والفرات لم تتم صيانتها بشكل جيد فقد هدمتها الفيضانات ، فالاشراف على السدود هام جداً لأن

الطرق المستخدمة في بنائها وإصلاحها كانت بدائية ، ويؤكد أحد كتاب الحوليات أنها صنعت من القش والتراب ، ومن جهة أخرى وفق كتاب يبحث في مشاكل الري ، كانت الفتحات تغلق بالقصب والأغصان والتراب ، وفضلاً عن ذلك لم تكن الأقنية عميقة : بعضها ٢/٣ - ١,٥ ذراعاً والبعض الآخر ٢/٣ - ١/١ - ١ قبضة فقط (مايعادل ٨,٣ - ٩ سم) ، ولذلك فإن أخطار التصدع والفيضانات بقيت قائمة وفي حال حدوثها غمرت المياه الحقول والقرى ، وعمد الأمراء المتحاربون أحياناً إلى كسر السدود ، كما أن قوات الثوار دمرت النواعير التي روت الحقول ، والأقنية الضرورية جداً لزراعة المناطق الواسعة مثل قناة النهروان التي أهملت لفترات طويلة مما جعلها تمتلىء بالطمي ، وتصبح عديمة الفائدة (١١) ، وبالتالي ليس هناك أي شك في أن المساحة المزروعة تناقصت . وأحياناً - كما حدث في عام ٩٧٤ - لم يزرع سوى القليل بسبب الفوضى السائدة (١٢) .

وحدث في هذه الفترة ازدياد مستمر في الضياع وساء وضع الفلاحين ، ويصور لنا ابن حوقل ببراعة مآسي الفلاحين في موطنه في المنطقة العليا لما بين النهرين ، ويسرد كيف صادر الأمراء الحمدانيون الضياع بإجبار الفلاحين على بيعها بأسعار مضحكة هرباً من الضرائب الباهظة المفروضة . كما أن النصيب من المحاصيل المتروك للفلاحين كان ضئيلاً لم يزد عن مستوى الكفاف والبذار ، وحتى لا يعتقد بأن ابن حوقل يتحامل على الأسر الحمدانية والتي عرف بكراهيته لها ، فإن مصدراً آخر يؤكد ذلك ، حيث يقول ر. هاي - رئيس الحاخامية في بغداد - الذي توفي عام ١٠٣٨ بأن بعض الناس يمتلكون ضياعاً ينال فلاحوها ١/ ٥ المحصول ، اما موضوع ازدياد مزارع الرز في العراق الأدنى في تلك الفترة تؤكده سيرة مهذب الدولة علي بن نصر حاكم منطقة المستنقعات الذي توفي عام ١٠١٨ بعد أن حكم مدة ٣٢ سنة ، ونقرأ في سيرته أنه تلقى وارداً سنوياً بلغ ١,٨ مليون درهم و ٩٦٠٠ كرّاً (الكرّ يساوي ٤٠ أردباً) من القمح و ١٣,٧٠٠ كراً من الشعير و ٨٠٠٠ كراً من الرز (١٣) ، ورغم أن ابن خردافبة في ذكره لايرادات مناطق العراق يذكر كميات الشعير والرز معاً ، يبدو أنه يشير إلى أن نصيب الرز أكبر من الشعير في منطقة واحدة فقط وهي كسكر وهي المنطقة التي تشمل منطقة واسعة شرق دجلة ، ومن جهة أخرى فإن زراعة الرز بقيت فرعاً هاماً من الزراعة في منطقة المستنقعات قرب

جوامد وغرب واسط حتى اليوم ، وهكذا نستنتج أن تطورها الكبير الذي رافق ازدياد الضياع يعود إلى تلك الفترة لأن مزارع الرز كانت بالضرورة مشاريع رأسمالية يقوم بها أصحاب الضياع .

إن تدهور الانتاج الزراعي كان بالتأكيد اتجاهاً رئيسياً في اقتصاد العراق في تلك الفترة ، وأحد أسباب تناقص عائدات الضرائب ، ورغم أن كفاءة جامعي الضرائب المتفاوتة شغلت دوراً كبيراً في تأرجح إيرادات الضرائب ، فعلينا ألا نغفل حجم الانتاج الزراعي ، والمعلومات التي يذكرها المؤلفون العرب منقولة في غالبيتها عن الوثائق الأصلية ويمكن اعتبارها موثوقة وهي تشير بوضوح إلى التدهور المتزايد .

ايرادات الضرائب في العراق

السنة	المقدار		
٨١٩	٥,٠٠٠,٠٠٠	دينار	
٨٧٠	٥,١٢٠,٠٠٠	دينار	(١٠٨,٤٥٧,٦٥٠ درهم)
٨٩٢	٢,٥٢٠,٠٠٠	دينار	(٧٨,٣٠٩,٣٤٠ درهم)
٩١٨	١,٥٤٧,٧٣٤	دينار	
٩٦٩	٢,٨٠٠,٠٠٠	دينار	(٤٢,٠٠٠,٠٠٠ درهم)
٩٨٣-٩٧٧	٢,٠٠٠,٠٠٠	دينار	(٣٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم)

وتبرهن هذه الأرقام [١٤] على أن الادارة القديرة لم يكن بمقدورها جباية ٣ ملايين دينار في نهاية القرن العاشر كما فعل الخلفاء في القرن التاسع ، ويبدو التدهور أكثر وضوحاً إذا أخذنا في الاعتبار أن المبلغ المذكور في عام ٨٩٢ لا يشمل كل العراق ، ومن جهة أخرى إن الأرقام التي يذكرها ابن حوقل لعام ٩٦٩ غير موثوقة .

وتؤكد بعض أرقام الايرادات لبعض المناطق والبلدان المجاورة فرضية التدهور العام المتزايد ، ففي عام ٩١٨ قدمت منطقة البصرة ١٢١,٠٩٥ دينار منها ٢٢,٥٧٥ دينار من الرسوم المفروضة على الميناء . في عام ١٠٤٠ تناقص هذا المبلغ إلى ٧٠,٠٠٠ دينار ، [١٥] كما أن حسابات الايرادات من مناطق مابين النهرين العليا مفيدة جداً [١٦] .

ايرادات الضرائب من منطقة مابين النهرين العليا

السنة	المنطقة	المقدار	
٨٧٠	الموصل، ديار مضر، ديار ربيعة	٦٩٢,٠٠٠ دينار	(١٧,٣٠٠,٠٠٠ درهم)
حوالي ٩٠٠/٩٠٥	ديار مضر، ديار ربيعة، ديار بكر	٧٠٠,٠٠٠	٩,٧١٥,٠٠٠
٩١٨	ديار مضر، ديار ربيعة	١,٠٩٤,٢٩٥	
٩٥٩	الموصل، ديار ربيعة، الرحبة	٢٠٠,٠٠٠	٢,٩٠٠,٠٠٠
٤٦٨/٩٦٤	الموصل، ديار ربيعة، الرحبة	٨٠,٠٠٠	١,٢٠٠,٠٠٠
٩٦٧ .	الموصل، ديار ربيعة، الرحبة	٨٠,٠٠٠	١,٢٠٠,٠٠٠

١,٢٠٠,٠٠٠

نفس الاتجاه يظهر في حسابات إيرادات الضرائب في بلاد الشام . وحتى هنا تناقصت الضرائب المجموعة من بعض المناطق كثيراً في هذه الفترة .

إيرادات الضرائب في بلاد الشام

كل المبالغ بالدينار

	دمشق	فلسطين	الأردن	حمص	قنسرين
٦٨٥/ ٧٠٥			١٨٠,٠٠٠		
٧٨٦/ ٨٠٩	٤٢٠,٠٠٠	٣١٠,٠٠٠	٩٦,٠٠٠	٣٢٠,٠٠٠	٤٠٠,٠٠٠
٩١٨	١١٠,٠٠٠	١٥٩,٠٠٠	١٠٩,٠٠٠	١٠٨,٠٠٠	٣٦٠,٠٠٠
٨٥٥ أقل من	١٤٠,٠٠٠	١٧٥,٠٠٠	١٧٥,٠٠٠	١٨٠,٠٠٠	
٨٧٠	٤٠٠,٠٠٠	٥٠٠,٠٠٠	٣٥٠,٠٠٠	٣٤٠,٠٠٠	٤٠٠,٠٠٠
حوالي ٨٩٠	٣٠٠,٠٠٠	٣٠٠,٠٠٠	١٠٠,٠٠٠	٢٢٠,٠٠٠	
٩١٨	٤٢٨,٣٥٧	٣١١,٣٥٧	١٤٢,٣٩٧	٣١٥,٥٧٤	٤٨٥,٦٦٧

وتشير هذه الأرقام من جهة إلى الاستقرار النسبي للضرائب من منطقة دمشق ، ومن جهة أخرى إلى التدهور الكبير في منطقتي فلسطين والأردن ، وبينا نجد أحوال خوزستان وفارس ـ المنطقتين الفارسيتين جنوب شرق العراق ـ مختلفة إذ أن المعلومات التي نجدها في المصادر ترينا أنهما ازدهرتا كما في السابق [١٨] .

إيرادات الضرائب في جنوب غرب فارس

	خوزستان		فارس	
٧٨٦/ ٨٠٩	١,٢٥	مليوندينار	(٢٥	مليوندرهم)
	١,٣٥	مليوندينار	(٢٧	مليوندرهم)
٨١٩	١,٢	١٨	١,٦	٢٤
٨٧٠	٢	٤٩	١,٣٢	٣٣
٨٧٩/ ٩٠٠			٤	٦٠
٩١٨	١,٢٦٠٩٢٢			+١,٦٣٤٥٢٠ ٠,٢٥٣٠٠٠ مكوس
حوالي ٩٦٩	٢	٣٠	٢,٠١٠٢٠٠	
٩٤٩/ ٩٨٣			٢,١٥٠٠٠٠	

ولم تكن حكومة بغداد قادرة على كبح اتجاه التدهور في اقتصاد العـراق . وعلى العكس من ذلك أصبح التدهور - مع مرور الزمن - أكثر وضوحاً ، وكانت الغرامات المفروضة على كبار رجال الدولة أقل بكثير في هذه الفترة مما كانت عليه في النصف الأول من القرن العاشر ، فالوزير يغرّم ١٠٠,٠٠٠ أو ٢٠٠,٠٠٠ دينار أو أقل وكبار الموظفين ٢٠٠٠٠ - ٤٠٠٠٠ دينـار . ويبـدو أن مخزونـات الذهـب والفضة تحت تصرف دور السك والموضوعة في التداول محـدودة جداً رغـم وجـود تغييرات كبيرة في هذا المجال ، وعلى أية حال تدهورت أيضاً الأحوال النقدية . ولا يدع كتاب الحوليات أي شك حول نقص العملات الذهبية في النصف الثاني من القرن العاشر ، إذ تذكر رواياتهم أن المبالغ الكبيرة دفعت بالعمـلات الفضية أي بالدرهم في العراق وجنوب غرب إيران ، وكل مدفوعات الضرائب المستحقة من مختلف المناطق ومدفوعات متعهدي الضرائب اخذت بالدرهـم [٢٠] كما أن الجيش استلم الرواتب بالفضة كما حسبت الموازنات بالدرهم ، ومن المرجح أن الظروف النقدية في بلاد الشام في النصف الثاني من القرن العاشر لم تكن مختلفة عن ذلك ، لأن خزائن سيف الدولة ملئت بالدراهم أيضاً ودفع العطاءات للبـدو من الفضـة أيضـاً [٢١] ، أمـا استخـدام الدينـار في تلك الفتـرة كان قليلاً واقتصر على هدايا الزفاف [٢٢]

إلا أن الفضة أصبحت عملة نادرة مع نهايات القرن العاشر ، واختفت تقريباً بمرور الزمن ، وإننا نجد غياث الأمة بهاء الدولة ، الذي حكم العراق في أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر يضرب درهماً مغشوشاً ، مما سبب ارتفاعاً في الأسعار ، وبالتالي ثورة في الجيش . واضطرت الحكومة لسحب هذه الدراهم واصدار أفضل منها ، ولكن لما كان مخـزون الفضـة [٢٣] بتنـاقص مستمـر ، فإن عمليات الغش في الدراهم المسكوكة في بداية القرن الحادي عشر عادت من جديد ، وأصبح النقص الكبير في الدراهم سمة مميزة للأحوال النقدية في كل بلدان الشرق الأدنى ، وقـد أدى إلى ذلك إمـا سحـب الفضـة إلى الهنـد أثنـاء حروب محمـود الغزنوي [٢٤] ، أو تصديرها إلى روسيا ثمناً للفراء . وحاول حكام بغداد والمناطق الأخرى من حين لآخر إعادة سك الدراهم الفضية ، ولكنهم واجهوا عقبات كأداء إذا حكمنا من خلال القطع المحفوظة في المجموعات النقـدية ، وتـذكر نصـوص

الحوليات في هذه الفترة ـ بعكس حوليات الفترة السابقة ـ المدفوعات الذهبية بالكامل تقريباً ، فالضرائب والغرامات تدفع بالدينار ، كما قبض الجيش رواتبه بالذهب [٢٥] ، ولكن من الخطأ الاعتقاد بأن الاستقرار النقدي قد عاد من جديد مع وجود النقص في الفضة .

إن تغيراً كبيراً قد حدث في النظام النقدي في العراق في أواسط القرن العاشر ، فبينما كان استقرار العملة الذهبية في كل الأوقات ميزة بارزة في اقتصاد الدولة الاسلامية ، وبالاضافة إلى ذلك أساس ازدهاره ، حدث في أواسط القرن العاشر تخفيض إجباري للدينار . ويخبرنا مؤرخو الحوليات أنه عندما طالب الجيش بالرواتب اضطر الأمراء لكسر أوانيهم الذهبية والفضية وإرسال المعدن إلى دور سك العملة [٢٦] ، ولكن هذه الدور عانت من نقص احتياطها ، ولم تفلح كل الجهود في المحافظة على مستوى العملة ، وحتى أواسط القرن العاشر بقي مستوى نقاء الدينار المسكوك في العراق ٩٤ ـ ٩٥٪ وسطياً ، أما في النصف الثاني من القرن العاشر والنصف الأول من القرن الحادي عشر فقد وجد عدد كبير من الدنانير تقل درجة نقائها عن ٩٠٪ .

توصل أ. س. ايرينكر وتيز إلى الاستنتاجات التالية [٢٧] :

مستوى نقاء الدنانير العراقية قبل أواسط القرن العاشر

المعتمد	عام ٨٧٢	٩٤٪
	٨٧٥	٩٦٪
	٨٧٧	٩٦٪
المعتضد	٩٠١	٩٠٪
المقتدر	٩١٧	٨٥٪
	٩١٩	٩٠٪
الراضي	٩٣٨	٩٧٪
	٩٤٠	٩٤٪
ناصر الدولة	٩٤٢	٩٧٪
	٩٤٢	٩٤٪
	٩٤٢	٩٥٪

ويصبح انخفاض نقاء الدنانير العراقية في النصف الثاني من القرن العاشر أكثر وضوحاً أيضاً إذا قورنت معدلات نقائها مع معدلات نقاء الدنانير المسكوكة في بلاد الشام في القرن العاشر .

مستوى نقاء الدنانير العراقية الشامية

	أقل من ٩٠٪	٩٠٪	٩١٪	٩٢٪	٩٣٪	٩٤٪	٩٥٪	٩٦٪	٩٧٪
العراقية بعد ٩٤٦	٧	١			١				
الشام ٨٩١/ ٩٦٩	٢	١	١	٢	٤	١	٢	٢	١

والفترات التي تعود إليها هذه الدنانير العراقية الشامية ليست متوافقة ، ولكن ذلك لا يؤثر على أهمية المقارنة لأن مستوى نقاء العملات الذهبية المسكوكة في سورية بعد ٩٦٩ كان بالتأكيد أعلى من العراقية ، لأن دور السك فيها توفرت لها كميات أكبر من الذهب السوداني ، ويعزو الكتاب العرب انخفاض نقاء الدنانير الذي بدأ في أواسط القرن العاشر في العراق وجنوب غرب إيران إلى عدم أمانة المسؤولين عن سك العملة مثل ابن كردم ضامن دار السك في الأهواز [٢٨] ، ولكن هذه هي طريقة العصور الوسطى في تعليل ظاهرة من ظواهر الحياة الاقتصادية ، التي أوجدتها أسباب موضوعية ، وكانت لها نتائج بالغة الأهمية .

ب ـ الاقطاع البويهي :

عندما وصل نظام الخلفاء إلى حافة الهاوية ، بذلت محاولة أخيرة لانقاذه بتعيين أمير أمراء الجيش رئيساً للادارة المدنية . حتى تمتد صلاحياته إلى الضرائب والإدارة في كل المناطق . ولكن التنافس على هذا المنصب سرعان ما أدى إلى حرب أهلية ، وبعد عشر سنوات من تعيين أول أمير للأمراء احتلت المرتزقة الفرس القادمة من الديلم ـ المنطقة المجاورة لبحر قزوين ـ بغداد في عام ٩٤٦ ، وأقامت حكم أسرتها على مناطق الخلافة المركزية ، واستمر حكم الأسرة البويهية ١١٠ سنوات ، وشمل العراق والجزيرة وخوزستان وفارس وكرمان وعُمان ، ولم تتوحد خلال فترة حكمهم هذه البلدان تحت سلطان أمير واحد رغم أن حكام المناطق المختلفة ـ على الأقل في

القرن العاشر - اعترفوا بسيادة أكبر أفراد العائلة وأقواهم ، ولم يقسم البويهيون البلدان التي استولوا عليها حتى تحكم بعض فروع العائلة أجزاء من مملكتهم بل قسموها المرة تلو المرة حسب الظروف السياسية مما جعل تاريخ الأسرة المالكة في العراق وجنوب غرب إيران في تلك الفترة معقداً جداً ، وكان البويهيون شيعة أصلاً ولكنهم حكموا باسم الخلفاء السنة ، وحاولوا الحفاظ على امبراطوريتهم .

ابان المرحلة البويهية كانت السيطرة الرئيسية والمطلقة للجيش قابله انحطاط البورجوازية ، فلقد مارس أمراء هذه العائلة - وأولهم معز الدولة ٩٤٦ - ٩٦٧ سلطة كاملة على كل فروع الإدارة ، وبدأوا بالاعتداء على النشاطات التي مارستها البرجوازية بحرية تامة ولأجيال عديدة ، إلا أنها هنا لم تعد تمتلك المجال الواسع للتجارة والصناعة ، فعانى التجار من ابتزاز الحكام وعناصر الجيش . بمجموعها فأدت الضرائب الجديدة والأتاوات الاعتباطية إلى انقاص أرباحهم ، والويل للصيرفي أو التاجر الذي كان يرفض منح قرض لأي من الأمراء . والأسوأ من ذلك كله هو أن رجال الجيش أنفسهم بدأوا بممارسة الأعمال التجارية ، فوظفوا فيها رواتبهم التي فرضوها على بعض المناطق (٢٩) ، وتمتعوا بامتياز نقل بضائعهم على الطرقات بدون رسوم ، ولا حاجة للقول بأن ذلك أعاق نشاط التجار ، وقام أعظم أمراء البويهيين عضد الدولة (الذي حكم في فارس منذ عام ٩٤٩ ، كما حكم في خوزستان والعراق من عام ٩٧٨ وحتى عام ٩٨٣) بمحاولة تعتبر أهم ميزات الاتجاهات الجديدة التي أصبحت مبادىء أساسية لأمراء الاقطاع في الشرق الأدنى ، ويحدثنا أحد المؤرخين العرب كيف أقام هذا الأمير احتكارات الصناعات مثل الحرير «الذي كانت صناعته والاتجار فيه حراً لكل الناس» (٣٠) ، وحتى الحكومة البويهية اضطرت فيما بعد لالغاء هذا الاحتكار ، لأن الاجراءات التي اتخذها عضد الدولة استثنائية ، فلقد بدأ سياسة جديدة معاكسة للمبادىء التي التزم بها الحكام السابقون .

أما عساكر البويهيين الأوائل الذين اشتهروا في إيران كقادة عظام ، فهم من أبناء الديلم ومنشأهم واحد إلا أن معز الدولة اعتمد على الأتراك فجند منهم الكثيرين ، وجعل أمير جنده التركي سبكتكين . وبالرغم من أن السيادة بقيت للديالمة في ظل حكم عضد الدولة ، إلا أن قوة الجنود الأتراك ازدادت باستمرار

وأصبحوا عماد النظام ، تحت حكم البويهيين المتأخرين بحيث لا يمكن الاستغناء عنهم لأنهم شكلوا وحدات الفرسان بينما شكل الديالمة المشاة عموماً . لا حاجة للقول بأن التنافس بين الديالمة والأتراك سبب الكثير من المتاعب للبويهيين ، إذ كثيراً ما أدت إلى الشجار ، وأحياناً قادت إلى الحروب الأهلية [٣١] ، وكثيراً ما وقف الجند بثبات ضد أمرائهم وطالبوا بزيادة مرتباتهم ، وبتعويضات إضافية ، وتتألف حوليات العصر البويهي من قائمة لا متناهية تقريباً من الثورات التي سببتها مطالب الجند ، اللذين ثاروا أحياناً أثناء الحملات كما أنهم نهبوا العاصمة أحياناً أخرى ، ولم يتورعوا حتى عن نهب قصر أميرهم .

ونتيجة لتمزق الدولة البويهية في العراق ، وغرب فارس بالحروب الأهلية ، والثورات اللا متناهية ، فإن عشائر البدو ، وزعماء الأسر العربية ، والكردية القوية ، وحتى المرتزقة نجحوا في تنصيب أنفسهم أمراء على أجزاء مختلفة في مناطق بين النهرين ، ومايجاورها [٣٢] ، وأصبح زعماء بنو عُقيل ـ القبيلة العربية القوية ـ في نهاية القرن العاشر حكاماً على أعالي مابين النهرين ، وجزء كبير من شمال العراق ، كما حكم فرع من هذه الأسرة في مناطق الموصل ونصيبين والرحبة وعانة وحديثة وهيت ، والأنبار وعكبراء ودكوكا وأحياناً الكوفة ، والمدائن وقصر ابن هبيرة ، كما اتخذ فرع آخر مقره في تكريت . وكان بنو عُقيل لا يزالون بدواً حقيقيين يعيشون في الخيام ، لكنهم عندما أصبحوا أمراء ، جندوا الديالمة والمرتزقة الآخرين في خدمتهم ، كذلك زعماء بني نُمير اللذين حكموا في حرّان والرُّها والرَّقة وهم أسرة حاكمة بدوية أخرى ، ولكن المروانيين الأكراد كانوا الأقوى ، إذ بسطوا سلطانهم في نهاية القرن العاشر على ديار بكر وميّا فارقين . وحكم في مناطق أواسط الفرات بنو خفاجة وهم قبيلة بدوية قوية كانت لها علاقة طيبة مع الحكومة البويهية في بعض الأحيان وينال زعماؤها مناصب حكومية فيها ، ومع هذا كانت أحياناً تقوم بنهب مدن المنطقة ، كما قام بنو مزيد إلى الجنوب من بني خفاجة وهم زعماء بني أسد اللذين سادوا على المنطقة التي امتدت إلى الكوفة ، وجعلوا الحلّة في جنوب العراق عاصمة لهم ، كما وأصبح بنو دبيس على حدود خوزستان مستقلين فعلياً في منطقة المستنقعات التي غطت في تلك الفترة قسماً كبيراً من العراق الأسفل جنوب وغرب واسط .

وتناقصت قوة البويهيين في العراق أكثر فأكثر ، وتقلصت بالتالي مملكتهم ، مما جعل التنافس بين أمراء الأسرة المالكة يقف حائلاً دون العمل المجدي ضد الغاصبين ، كما أن تمرد الجيش وفهمه وميله للثورة ، هدد حتى وجود حكومتهم أكثر فأكثر .

ونظراً لعجز البويهيين الأوائل عن معالجة هذه المشاكل باستخدامهم للطرق القديمة ، فإنهم اضطروا لتبني سياسة جديدة ، وما نتج عن الظروف التي أوجدتها إجراءاتهم هو نظام اجتماعي جديد ألا وهو نظام الاقطاع ، فعندما واجه البويهيون صعوبات كبيرة في تلبية حاجات جنودهم ، لجأوا إلى منحهم الضياع مقابل خدماتهم بدلاً من الدفع النقدي كما وكان من عادة الخلفاء إقطاع أراض وضياع العشر مقابل مبلغ محدد يدفع كل سنة بغض النظر عن المساحة أو حجم المحصول ، أما البويهيون فقد أقطعوا الضياع لفترة محددة لتأمين معيشة الجنود وجعلهم يتمكنون من استلام مرتباتهم من خزينة الدولة ، وبالرغم من أن هذه الضياع لم تكن أراضي عشر ، فقد سميت «إقطاعات» ، كالمنح الأخرى من أراضي العشر التي منحت للأبد ، ويميز الفقهاء المسلمون بين الاقطاعات القديمة والجديدة ، بتسمية الأولى إقطاع تمليك ، والثانية إقطاع استغلال ، وفي الحقيقة لم تمنح ملكية الضياع ، بل حقوق الدولة المالية على الأراضي الخاضعة للخراج ، ولم تترتب على الممنوح أية التزامات مالية نحو الدولة ، ولم يكن لموظفي الدولة أية مسؤوليات أو رقابة محلية ، والميزة البارزة لنظام امتلاك الأرض الجديد هو التغير المتكرر في الضياع الممنوحة للعسكريين ، وكان الغرض الأساسي من هذه التغييرات هو الحيلولة دون نشوء علاقة صميمية بين المقطع وضياعه [٣٣] ، وهو في الحقيقة الفكرة أساسية لنظام الاقطاع التركي ، والأتراك هم في الحقيقة الذين جاءوا بنظام الاقطاع إلى الشرق الأوسط ، ففي ظل سلطانهم نشأ النظام الجديد في كل مكان ، إن فكرة الجيش المرتزق غريبة عنهم كما يظهر بوضوح من نصوص المؤرخ الكبير المسعودي ، حيث يقول أن الخزر وحدهم يملكون جيشاً مأجوراً [٣٤] بين الأسر الشرقية المالكة ، ومن المرجح أنه يعني بذلك خاقانات الخزر فهم وحدهم لم يقيموا نظاماً اقطاعياً لأن المرتزقة في أيامه شكلوا جزءاً أساسياً من جيوش الشرق الأوسط .

ولا حاجة للقول أن التغيرات المتكررة في الضياع أدت إلى نتائج مدمرة في الزراعة ، فالمقطعون الذين عاشوا في المدن ، وأدركوا أن الضياع ستؤخذ منهم بعد وقت قصير ، أو أنهم سيطلبون التغيير بأنفسهم ، فلم يكلفوا أنفسهم عناء صيانتها ، فأهملوا شبكة الري والسدود والأقنية ، وجلبوا الخراب للضياع ، وليس هناك أي شك في أن هذا المبدأ الأساسي للاقطاع الشرقي هو احد الأسباب الرئيسية للتدهور الاقتصادي في الشرق الأوسط ، فالاحتفاظ بمساحة كبيرة كملكية مشتركة للقبيلة أو العشيرة ، وهو مبدأ ثبت ضرره بالنسبة للزراعة في الشرق الأوسط التي توقفت إنتاجيتها في الحفاظ على نظام ري معقد ، ولكن الاقطاعي التركي لم يتلاءم مع الظروف المحلية .

وأصبحت النتائج المدمرة للنظام الجديد في ملكية الأراضي واضحة منذ اليوم الأول لإنشائه . لقد ترك لنا كاتب الحوليات مسكويه وصفاً حياً لهذه الظاهرة ، وهو يسرد لنا كيف زرع الاقطاعيون الضياع باستخدامهم العبيد والعمال ، ولم يرصدوا حسابات الأرباح والخسائر ، ولم يفعلوا أي شيء لرفع الانتاجية والتحسينات ، فتدهور نظام الري ، وترك الفلاحون القرى ، وعندما تناقص ريع الضياع إلى حد كبير ، طلب الاقطاعيون من الحكومة الحصول على غيرها ، وتخلت السلطات المسؤولة عن تحسين الزراعة عن مهمتها عندما وزعت معظم الضياع في مناطقها كإقطاعات للجنود ، وحصرت واجباتها في حسابات ما يحتاجه هذا الهدف وفرضت تنفيذه على الاقطاعيين الذين رفضوا الدفع [٣٥] ، ولم يكن في مقدور حكومة البويهيين تجاهل الضرر الناتج . وأرسل أحياناً الأمراء تعليمات خاصة للحكام للاهتمام بأحوال الزراعة ، كما أنهم في أغلب الأحيان أصدروا أوامرهم الشخصية لإصلاح الأقنية المهملة [٣٦] .

وتبدل الاقطاعية هو أهم السمات التي تميز الاقطاع الشرقي عن الغربي ، كما أن الأهمية المحدودة للولاء سمة أخرى ، ومن المؤكد أن أصول النظامين مختلفة تماماً ، وهذا الاختلاف الأساسي كان له أثر حاسم على تطورهما اللاحق ، فبينما نشأ الاقطاع بشكل عام على الاعتماد الشخصي والخضوع نشأت صيغة الاقطاع الشرقي كوسيلة لتأمين رواتب الجند المنتظمة ، في أوروبا الغربية يعتبر منح الاقطاعة ظاهرة ثانوية لاحقة ، بينما يعتبر في الشرق الأوسط ظاهرة أساسية ، ولذلك فإن فرسان

الشرق دانوا بالولاء للسلطان نفسه ، وبالتالي تم تجنب اللامركزية وانحلال الدولة ، وهذا هو بالتأكيد هدف رجال الدولة المسلمين الذين أوجدوا مبادىء الاقطاع الشرقي ، ويمكن القول بأن الهدف تحقق إلى حد بعيد ، وفي المرحلة الأولى من الاقطاع الشرقي لم تترتب على الاقطاعيين - الذين استلموا الضياع من الحكومة مباشرة - أية واجبات تجاه أمراء إقطاعيين آخرين أعلى منهم مرتبة ، وبالرغم من أن الفرسان من المراتب الدنيا أسندوا إقطاعاتهم للأمراء المتنفذين مقابل رسم يقتطع من الدخل ، فإن ذلك لم يتطور إلى نهاية الهرم الذي يميز الاقطاع الغربي .

إن الدور الذي شغله النظام الاقطاعي في الشرق الأوسط مختلف في النواحي الأخرى عن دور الاقطاع الغربي ، فبينما كان النظام الاقطاعي في أوروبا الغربية ملازماً لاقتصاد منكمش انخفض إلى أدنى مستوى من الوحدات الاقتصادية البدائية ذات الاكتفاء الذاتي ، ظهر النظام الاقطاعي في الشرق الأوسط في مرحلة من المجتمع ما قبل الرأسمالي المتدهور ، ولكنه متطور جداً ويتسم هذا المجتمع بتقسيم دقيق للعمل . وبقي في بعض البلدان الاقتصاد مزدهراً . وبالاضافة إلى ذلك فإن النظام الجديد في الشرق الأوسط استقدم من الخارج ، ويقول ماركس وانجلز أن الاقطاع صاغته القوى المنتجة في البلدان التي ظهر فيها ، ولكن لدينا هنا مثال لنظام تم فرضه على الاقتصاد ماقبل الرأسمالي الذي كانت له نتائج مدمرة له .

وعلى الرغم من الاختلاف الكبير ، فإن تطور الاقطاع الشرقي مماثل لتطور الاقطاع الغربي في نواح متعددة ، فالاقطاعيون هم أيضاً حكام المناطق التي كانت فيها إقطاعاتهم (أو بالعكس يمنح حاكم المنطقة إقطاعات فيها) ، وهكذا توحدت السلطات المالية والقضائية ، وفضلاً عن ذلك فإن التمييز الواضح بين منصب الحاكم والادارة المالية أو بصورة أصح ضمان الضرائب قد زال رغم أنه مبدأ أساسي لحكومة الخلافة ، فالمنصبان يشغلهما نفس الشخص إذ أن الضباط الكبار في معظم المناطق يشغلون منصب الحاكم ومتعهد الضرائب [٣٧] ، وهكذا تم إبعاد المدنيين عن هذا الحقل من النشاط الاقتصادي ، الذي كان سابقاً أكثر الحقول ربحاً بالنسبة للبورجوازية الكبيرة .

وحصل الضباط الكبار على إقطاعيات جلبت لهم واردات ضخمة جداً ، منح معز الدولة اقطاعيات بلغت وارداتها ٥٠,٠٠٠ دينار كل عام ، ويبلغ الدخل

الوسطي للفارس ١٠٠٠ - ١٢٥٠ دينار في السنة ، والقائد ١٣٠٠ - ٢٠٠٠ دينار سنوياً ، وابتاع الاقطاعيون الأغنياء الضياع أيضاً ، وبهذه الطريقة كوّنوا إقطاعات واسعة ، وحصلت الفئات الدنيا على اقطاعات ففي عام ٩٩٧ لم تعطهم أكثر من ١٠ دنانير في الشهر ، ولكن هؤلاء أقلية لأن الجنود الأتراك في رعاية معز الدولة الذين أرسلوا في عام ٩٥٨ لجمع الضرائب من مختلف المناطق المخصصة لهم حصلوا على أعطيات مؤقتة مقدارها ٢٠ - ٤٠ دينار شهرياً [٣٨] ، وهكذا ظهرت أرستقراطية إقطاعية اقتطعت لنفسها أكبر نصيب من الدخل القومي [٣٩] .

ولكن انتصار النظام الاقطاعي لم يكن كاملاً . فالأراضي الزراعية لم تعط كلها للجنود كإقطاعيات وبالمقابل لم يحصل جميع الجنود على إقطاعيات ، فخلال الحكم البويهي تلقى قسم كبير من الجند مرتباتهم نقداً [٤٠] ، ومن جهة أخرى أصبح النظام الاقطاعي الذي أقامه البويهيون نموذجاً لمعظم دول الشرق الأدنى ، ومع مرور الزمن وصل إلى كل مكان تقريباً - أولاً في الامارات المجاورة لما بين النهرين الأعلى ، فنقرأ في الحوليات أن زعماء عشيرة بني عُقيل حصلوا على الاقطاعات [٤١] .

وأصبحت ظروف الفلاحين في الشرق مشابهة لظروف أمثالهم الأوروبيين ، نظراً لما يتمتع الاقطاعي من سلطات قضائية على الفلاحين ، ولكن منصبه في الحقيقة جعله السيد في كل النواحي . ولذا أصبح الفلاحون بحاجة إلى الحماية أكثر من ذي قبل نظراً لتعاظم ضغط البدو المتعطشين للأرض والمتشوقين للحصول على الأراضي الزراعية [٤٢] ، والخراج الذي دمج مع الايجار وتم جمعه من قبل الاقطاعي . وتنازل الكثير من الفلاحين عن أراضيهم للاقطاعيين لانقاذ أنفسهم من الابتزاز والضرائب الجديدة ، وأصبحوا مجرد مستأجرين لها ، كما أن أراضي الفلاحين الآخرين الذين عجزوا عن دفع الضرائب استولي عليها من قبل الاقطاع [٤٣] ، وهكذا انحدر الفلاحون - باستثناء المالكين المطلقي التصرف في المناطق المحيطة بالمدن الكبيرة - إلى نفس الوضع العبودي ، كما أصاب الفلاحين في أوروبا في العصور الوسطى . لقد أقيم صرح نظام أمراء الاقطاع .

ج - الاضطرابات الاجتماعية :

وواجه النظام الجديد مقاومة قوية من قطاعات مختلفة من السكان ، واتجهت المعارضة ضد كل الأمراء الذين حلّوا محل الخلفاء ، وجسّدوا النظام الجديد ، والأمراء الذين حكموا في النصف الثاني من القرن العاشر والنصف الأول من القرن الحادي عشر العراق ومابين النهرين الأعلى وسورية الشمالية ، امتلكوا جيوشاً مؤلفة جزئياً أو كلياً من الأجانب أو على الأقل من البدو ، وهناك خصومة حادة بين الرعية وهذه الجيوش ، فالجنود مكروهون لأسباب قومية ، وزاد من العداء المتصاعد أن الجزء الأكبر من الضرائب المأخوذة من الشعب مخصص للإبقاء عليهم .

واتخذت البورجوازية التي بدا أنها تفقد مواقعها موقفاً عدائياً تجاه الحكام الجدد ، وعندما بدت الظروف مواتية مالت نحو الثورة باستمرار ، أما قواتها الضاربة في كل مكان فتألفت من ميليشيات الشباب الذين يسمون بالأحداث (١١) ، وتُلقي الأوصاف التي يقدمها كتاب الحوليات حول حوادث الشغب والثورات المتكررة في بعض المدن الضوء على التناقض بين الطبقات العليا والدنيا من سكان المدن أيضاً . فالتجار في الغالب مالوا إلى الخضوع للأمراء رغم الضرائب الكثيرة والابتزازات بدلاً من تحملهم إرهاب الثورة البروليتارية .

واندلعت الثورات في النصف الثاني من القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر في عدة مدن في ما بين النهرين وسورية الشمالية ، واستولت فيها الطبقات العليا من البورجوازية على زمام القيادة . وفي عام ٩٦٣ ثار سكان حرّان ضد هبة الله بن ناصر الدولة الحمداني الذي أوصل ضباطه الأهالي إلى حافة اليأس بطغيانهم وخصوصاً بإجبارهم على شراء مخزونات الحكومة بأسعار باهظة ، وغير خاضعة للقانون ، وعندما حاصر هبة الله المدينة دافع السكان عن أنفسهم ببسالة ، ولكنهم فيما بعد صالحوا سيف الدولة أمير الدولة الحمداني الذي قام ببعض التنازلات ، وكاتب الحوليات الذي يسرد لنا هذه القصة يتابع قائلاً أن مجموعة من الثوار البروليتاريين غادروا المدينة بعدئذ .

ويظهر هذا الوصف بوضوح التناقض بين مختلف الطبقات ، عندما حصل التجار الأغنياء على التنازلات من سيف الدولة خضعوا له ، ولم يحسبوا أي حساب

للبروليتاريين الذين حاربوا معهم ، ولكنهم بعد عدة أشهر أيدوا هبة الله ضد سيف الدولة ، واضطروا للتكفير عن ذلك بدفع مبالغ كبيرة ، وغالباً مابقيت المدينة بدون حاكم ، ويضيف هذا الكاتب أن الثوار البروليتاريين عادوا واستولوا على السلطة [٤٥] .

أما الثورة التي اندلعت في عام ٩٦٥ في أنطاكية فلقد قامت بها بالتأكيد البورجوازية العليا ، وقائدها متعهد ضرائب غني يدعى محمد بن أحمد (أو حسن) الأهوازي ، الذي قام بمساعدة القائد رشيق النسيمي ضد حاكم المنطقة ، عندما أصيب سيف الدولة بالفالج ، وكان مقيماً في ميافارقين بعيداً عن عاصمته . ووقفت إلى جانب الثائر الطبقات العليا من سكان المدينة ، فنجحت الثورة واضطر الحاكم لمغادرة المدينة ، وعندها جنّد ابن الأهوازي بضعة مئات من المرتزقة ، واتصل بالبيزنطيين عارضاً عليهم دفع أتاوة سنوية إذا ما منحوا حمايتهم للمدينة الثائرة ، وأيدت الأسر البورجوازية القوية في المدينة مثل ابن مانك وابن دياما وابن محمد ثورة ابن الأهوازي بدون تردد ، بينما وقفت الطبقات الدنيا في المدينة موقفاً عدائياً وأعلنت تذمرها لأنها اعتبرت هذه الحركة معادية لخيانة الاسلام . وحاول ابن الأهوازي إرضاءهم وقد زور رسالة من الخليفة تحتوي على تعيين رشيق بحكم سورية الشمالية . وعندها سار المتمردون لاخضاع حلب عاصمة سيف الدولة ، وهربت القوات التي أرسلت لصدهم فدخل الثوار في نهاية تشرين الأول من عام ٩٦٥ حلب ، عدا القلعة التي تحصن بها حاكم المدينة وبعد حصار ثلاثة أشهر اضطر الثوار للتراجع وقتل قائدهم رشيق ، ولكنهم سرعان مااستعادوا قوتهم وجمعوا - بالضغط على الطبقات الوسطى والدنيا - مالاً كافياً لتجهيز حملة أخرى ، وتم تنصيب قائد آخر هو الديلمي الدزبري واعترف ابن الأهوازي بأحد العلويين كأمير ، والمهم بالنسبة لقادة الثورة هو إقامة حكم الأوليغاركية البورجوازية ، بينما اعتبروا قسم الولاء للأمير مسألة ثانوية : وقد يكون الامبراطور البيزنطي ، أو الخليفة العباسي ، أو حتى مدعياً علوياً . واستولى الثوار في مايس ٩٦٦ على حلب مرة أخرى ، ولكنهم اضطروا للتخلي عنها بعد معارك طاحنة ، ومع ذلك كانوا يأملون أن يفرضوا حكمهم على سورية الشمالية بكاملها باستخدام مساعدة القبائل البدوية ، وقد انضم إليهم بنو كلاب فعلاً وأهالي بعض المدن - ومنها حمص - حيث

دفعت لهم الأتاوة . وفي هذه الأثناء عاد سيف الدولة ، وهزمهم في معركة قرب حلب ، وعوقب أنصار ابن الأهوازي بقسوة فأعدم الكثير منهم وفرضت غرامات كبيرة على البعض الآخر ، (٤٦) ، وبالرغم من هزيمتهم وسحق ثوار أنطاكية ، فإن سكان مدن سورية الشمالية سرعان ما حاولوا الثورة ضد حكامهم من جديد . ويبدو أن سكان طرابلس ثاروا ثانية ضد حاكمهم عام ٩٦٧ ، أو أوائل عام ٩٦٨ بسبب طغيانه واستطاعوا طرده من المدينة ، وعندما مات سيف الدولة القوي النشيط في شباط ٩٦٧ ظن الساخطون أن الأوضاع مواتية لهم ، فثار أهالي أنطاكية مرة أخرى ، واتخذوا القرار الخطير ألا يسمحوا لأي حمداني بدخول المدينة ، وعينوا من قبلهم حاكماً (٤٧) .

وانتشرت الثورة إلى مدن أهالي مابين النهرين حيث اقتتلت الأسر الحاكمة المختلفة من أجل كل منطقة ومدينة . وفي عام ٩٨٢ ثار أهالي نصيبين ضد الحاكم وقتلوه ، وتُلقي ثورة الرحبة في عام ١٠٠٩ التي شملت عدة حكام ، الضوء على موقف وأساليب الطبقات العليا ، وشهدت هذه المدينة خلافات عظيمة بين العقيليين في الموصل والمصريين . فابن محكان الذي يستند إلى تأييد حزب قوي استولى على السلطة هناك في عام ١٠٠٩ بعد أن تحالف مع صالح بن مرداس زعيم بني كلاب ، يقول أحد المؤرخين العرب أن ابن محكان تودد إلى الزعيم البدوي «لحاجته لدعمه» ، وبعد مضي بعض الوقت انفجر الخلاف بينهما وحاصر بنو كلاب الرحبة وأخيراً تم الصلح بينهما ، وبعد ذلك أخضع ابن محكان عانة وهي مدينة أخرى على الفرات ، وعندما ثار أهالي عانة ضده قام ابن محكان ـ بالتعاون مع صالح بن مرداس ـ بحملة ضد المدينة ، ولكن الزعيم البدوي اغتنم الفرصة لقتله غدراً ، ثم احتل الرحبة ، وصادر ثروات ابن محكان (٤٨) ، وهكذا ثبت أن تحالف البورجوازي الغني مع الزعيم البدوي في النتيجة مأساوياً .

وكانت الثورات البورجوازية مجرد ثورات سخط متفرقة ولكنها هددت حكم الأسر المالكة الجديدة في عدة مناطق ، أما النشاطات الهدامة للطبقة الأخرى فإنها مستمرة ومقلقة رغم أنها أقل خطراً . وتحتوي حوليات القرنين العاشر والحادي عشر نصوصاً طويلة حول نشاطات مايعرف بالعيارين ، وهي مجموعات بروليتارية

أرهبت مدن العراق في عهد البويهيين ، فهم الذين يطلق عليهم اسم قطاع الطرق أو الصعاليك [٤٩] ويعتبرون ظاهرة في الحياة الاجتماعية أكثر من كونهم حركة ثورية ، إنهم بروليتاريون ليس لديهم أي عمل أو دخل منتظم ، ويعيشون خارج المجتمع ، ولكن هل كان بمجموعهم مجرد قطاع طرق كما يصفهم مؤرخو البلاط العرب ، أو حتى العلماء الحديثون المتأثرون بهم ؟ صحيح أن الكثيرين منهم لم يكن لديهم أي هدف آخر ، ولكن يجب أن نحترس من اعتبار العيارين مجموعة متجانسة ، أو حتى حركة منظمة ، فهناك بدون شك عناصر متباينة وغير متجانسة داخل هذه المجموعة من الصعاليك البروليتاريين ، فالقسم الكبير منهم كانوا يتوقون لكسب أي شيء وقبلوا بخدمة من يدفع لهم ومنهم من خدم في صفوف السنة والشيعة ، الحزبين الدينيين اللذين خاضا صراعاً مستمراً في بغداد والمدن العراقية الأخرى ، بينما سرّ الآخرون عندما كان يتم تجنيدهم من قبل السلطات في الشرطة أو حراساً في قصر الخليفة ولقّب هؤلاء «بالعيارين التائبين» ، ولا حاجة للقول بأن العيارين كانوا دائماً على أهبة الاستعداد للخدمة كقوات احتياطية كلما اندلعت الحرب الأهلية ، كما حدث في عام ٩٤٥ وفي عام ٩٧٥ [٥٠] . وكسبوا في الغالب عيشهم من اللصوصية ، وتحتوي صفحات الحوليات نصوصاً طويلة عن أذاهم ، المناطق السكنية هي محط عمليات نهبهم وكانوا يدخلون مستودعات تجار الأقمشة الأغنياء عنوة ثم يحرقونها ، ولما كانت السرقة وقطع الطريق هما نشاطهم الرئيسي فإنهم كانوا يخوضون قتالاً عنيداً ضد الشرطة ، ويهاجمون قوادها ويطلبون من الحكومة التنكر لضباط الشرطة الذين يلاحقونهم بلا رحمة ، ويصبحون أحياناً خطراً حتى أنهم ينسحبون [٥١] أو يهربون من بغداد . وقمع الشرطة للعيارين كان قاسياً جداً : فتعرضوا للشنق والتشريد .

ولكن بين المجموعات المختلفة من العيارين نجد البعض المتأثرين بفكرة الفتيان ، وهي نوادي فرسان من الذين يرعون الصداقة والغيرة ، ويبدو أن بعض زعمائهم تصور فكرة إقامة مجتمع جديد . وتنكروا لنظام الدولة المنافق وعارضوا ظلمها الاجتماعي وابتزازها وتغنوا بفضائل الأبطال الذين يدافعون عن الفقراء والمظلومين ضد الدولة . وكان هدفهم مجتمع أكثر أخلاقية لا تثقل عليه الأكاذيب التقليدية للنظام القديم ، ولما كانوا يتحدون أخلاقية الدولة وحتى يحتقرونها ولا

يعترفون بالقواعد التي وضعتها وقدستها التقاليد القديمة ، كما أنهم تحدوا تعاليم الاسلام وهو العمود الفقري للمجتمع ، فشربوا الخمر علانية في شهر رمضان ، ولما كان معظمهم أميين فإنهم لم يسجلوا أفكارهم ، ومالم نعزُ مثل هذه الأفكار إلى بعض جماعات العيارين فمن الصعب أن نفهم لماذا أيدتهم طبقات المجتمع العليا ، ولماذا كان للعباسيين الذي وصل بعض منهم إلى الخلافة والأمراء والحكام صلة بهم [٥٢] ، ويصف كتاب الحوليات بعض زعمائهم بالرجل الكامل لأنه لم يسلب الفقراء ، وهذا ماوصف به ابن حمدي من قبلهم والذي أصبح زعيمهم في العقد الخامس من القرن العاشر ، وأسود الزباد ، الذي تزعم العيارين بعد ثلاثين سنة والبرجومي الذي اكتسب شهرة واسعة خلال الفترة ١٠٢٩ ـ ١٠٣٤ صديقاً للحاكم في عكبر ، أي أنه على علاقة جيدة بالدوائر الحاكمة ، وبينما نجد المؤرخين العرب يحطون عادة من قدر العيارين ، فإنهم يمجدون شجاعة وإخلاص البرجومي . هاتان هما الفضيلتان النموذجيتان للفتيان ، ولذلك يسمى بالفتى .

ويقال أن العيارين على هذه الشاكلة أعلنوا أسفهم لاضطرارهم للسرقة وانتقاد ظلم الحكومة التي أصبح ابتزازها ـ من وجهة نظرهم ـ أسوأ من اللصوصية ، وأكثر لا أخلاقية ، ولم يهاجم هؤلاء اللصوص الأشراف امرأة ، واشتهروا بفروسيتهم [٥٣] .

والقصص التي يذكرها الكتاب العرب عن زعماء العيارين تذكر المرء بقصص روبن هود وكانديلاس . ولم يقنع بعض زعماء العيارين بهذا الدور ، فعندما بدت الظروف مواتية حاولوا تنصيب أنفسهم كمسؤولين في بعض قطاعات التجارة ، ووعدت مجموعة من العيارين بالحماية والأمان وطالبت بالخفارة من السكان الذين يقطنون في حي من الأحياء أو من تجار سوق من الأسواق . واتخذ بعض الزعماء خطوة أخرى نحو إقامة سلطتهم بجمع الضرائب المفروضة عادة على تجار بعض الأسواق كما فعل زعيمهم عزيز في عام ٩٩٤ ، وكما فعل البرجومي بعد ٤٠ سنة [٥٤] . وهكذا أصبح هدفهم الحصول على جزء من الضرائب المفروضة من قبل الحكومة حتى يحصل الفقراء الذين يمثلونهم على نصيبهم من الثروة التي تجمعها إلى بعض جماعات العيارين فمن الصعب أن نفهم[1] لماذاأيدتهم طبقات المجتمع

(١) في هذا تطرق في التفسير يناقض النصوص حول الفترة والفتيان ، خاصة كتاب الفتوة لابن المعمار الحنبلي

الطبقات الحاكمة . وهذا هو حقاً هدف الثورات الاجتماعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى .

ويود المرء أن يعرف أولاً ما إذا هدف العيارون إلى إسقاط النظام ، وثانياً ما إذا توفرت لديهم أية فرصة لتحقيق ذلك ؟ وتوحي معلومات عن نشاطاتهم عموماً إجابة سلبية على كل من السؤالين ، فبحسب هذه الأوصاف لم يتجاوز عدد هذه العصابات من العيارين ٣٠ ـ ٥٠ شخصاً ، وقلما هاجموا حياً بأكمله أو اشتبكوا مع قوات الجيش (٥٥) ، ولم يصبحوا قوة يحسب حسابها إلا عندما كانت تضعف الحكومة وتنتشر الفوضى ، لقد نشطوا في السنوات السابقة لإقامة الحكم البويهي ، ثم في فترة ٩٧٢ـ ٩٧٥في ظل حكم الأمير بختيار العاجز، وفيما بعد عندما أدى الصراع بين السنة والشيعة في بغداد إلى قتال الشوارع ، والمعارك بين الأحياء المتعددة ، كما حدث في أعوام : ٩٩٠ ـ ٩٩١ و ١٠٠٢ ـ ١٠٠٣ و ١٠٠٧ و ١٠١٧ و ١٠٢٥ ـ ١٠٣٧ و ١٠٤٩ ـ ١٠٥٣ عندما ثار الأهالي ضد الجيش ، أو في أوقات المجاعات الاستثنائية ، ولكن عندما استعادت الحكومة سلطتها غادر العيارون المدن الكبيرة ، ولجأوا إلى المخابيء .

ونقطة ضعفهم الكبرى هي أنهم لم يحظوا على الاطلاق على دعم أية طبقة من السكان . وقد توجهت نشاطاتهم في العادة ضد الأغنياء والفقراء بدون تمييز ، كما يمكن الاستنتاج من الحقيقة القائلة بأن معظمهم مجرد مجرمين ، ولذلك اعترض الناس على تراخي الحكومة أو حتى هاجموهم كما حاربوا ضد المرتزقة الأجانب والبدو ، وأراد التجار والحرفيون التخلص من هذه العناصر المزعجة (٥٦) .

وهناك سبب وجيه للاعتقاد أن التجار والحرفيين الذين قاوموا العيارين لم يكونوا كتلة غير منظمة ، من المرجح أنهم شكلوا الجمعيات ، إذا لم نقل الاتحادات أو النقابات . وارتبط تطور هذه المنظمات مع دعاية القرامطة ، ونظراً لسكوت كتاب الحوليات التام حول حياة هذه الطبقات من السكان ، والاكتفاء بتفاصيل الحروب بين القواد الأتراك والديالمة ، فإننا مضطرون للتخمين الذي يؤدي بسهولة إلى الاعتراض (٥٧) ، ولكن الحقيقة التي لا يمكن إنكارها هي أن مثل هذه المنظمات وجدت في أواخر العصور الوسطى رغم التغيرات التي طرأت عليها ، فبينما بقيت على الأرجح لفترة طويلة مسيطرة على الحرف أو على الأقل مارست سلطة واسعة على نشاطاتها ، تحولت فيما بعد ـ عندما أقام أمراء الاقطاع حكمهم فوق كل قطاعات

الحياة العامة ـ مجرد نواد للصناع تهتم بالنشاط الاجتماعي ، أو المساعدة المتبادلة .
وللملك فمن المرجح ـ قبلياً ـ أن سلطة اتحادات الحرفيين بلغت ذروتها عندما وصلت سلطة الحكومة المركزية إلى أدنى مستوياتها ، ومن جهة أخرى حدث تغير واضح في طبيعة الحركة القرمطية في النصف الثاني من القرن العاشر ، إذ لم تعد تتسم بالحقد المتطرف على الاسلام السني ، بل إن حكام البحرين توصلوا إلى سلام مع حكومة بغداد (٥٨) ، وبالتالي يمكننا أن نفترض أن الدعاية التي بثوها بين الحرفيين ، لم تعد تواجه المعارضة التي أثارها من قبل التطرف الاسماعيلي ، وتحالفهم مع البدو .

ومن المرجح أن مجموعات الحرفيين والصناع التي وقفت إلى جانبهم في مدن العراق ازدادت كثيراً في ظل البويهيين ، فالموقف الذي اتخذه الاسماعيليون من المهن كان موقفاً مؤيداً ، بعكس الريبة واحتقار العمل اليدوي الذي أظهره فقهاء السنة ، وتمجد رسائل إخوان الصفا ـ الموسوعة التي ألفتها الدوائر الاسماعيلية في البصرة وبغداد في القرن العاشر ـ فضائل المهن ، وقد وضع مؤلفو هذه الموسوعة بحثاً خاصاً عن المهن شرحوا فيه أهميتها لرفاهية المجتمع الانساني ، ومن بين المهن التي يمجدونها مهنة النسّاجين والدباغين ، وحافري الآبار ، وهي المهن التي احتقرها العالم الشرقي من قديم الأزل ، وهنا نجد دليلاً غير مباشر على العلاقة بين الدعاية الاسماعيلية وتطور اتحادات العمال في الشرق الأوسط ، وأعطيت التعليمات لدعاة المذهب الاسماعيلي للتركيز على المهن بسبب الايمان المخلص لزعماء هذه الحركة ، ولكسب تأييد المهنيين .

ومهما كان الأمر ، فإن نمو النقابات المهنية اختلفت منذ البداية في الشرق الأوسط عن مثيلاتها في أوروبا ، ونظراً لأن أمراء الاقطاع عاشوا في المدن فإن احتمال استيلائهم على السلطة كان بالتأكيد محدوداً .

د ـ صعود البورجوازية في ظل الفاطميين :

وفي الوقت الذي أضاع فيه العراق سيطرته على العالم الاسلامي ، أصبحت مصر في النصف الثاني من القرن العاشر مقر أسرة مالكة قوية وطموحة من الخلفاء الشيعة ، فرضت حكمها على كل شمال أفريقيا ، وادعت هذه الأسرة المالكة المسماة بالفاطميين بأنها الوريثة الشرعية للنبي محمد ﷺ ، لأنها من سلالة ابنته فاطمة ،

وإقامة حكمهم هو نتيجة الدعاية التي قام بها الدعاة الاسماعيليون خلال عدة أجيال ، إنه انجاز حركة دينية ، ولكن الكثير من العلماء ضللهم تفسير كتاب العصور الوسطى لها . لا يمكن لنشاطات الدعاة الاسماعيليين وحدها أن تعلل كيف استولت هذه الأسرة المالكة على نصف العالم الاسلامي ، وبناء امبراطورية قوية ، فدعاية الفاطميين الاسماعيلية هي البنية الفوقية لأن قوتهم الحقيقية اعتمدت على تحالفهم مع قطاع قوي من السكان المصريين الذين ارتبطت مصالحهم بهذا الحكم ، ولايمكن لأحد أن ينكر أهمية الدعاية الاسماعيلية في محيط متدين في الأعماق كما كان الشرق الأوسط في ذلك العصر ، ومن الخطأ تجاهل الأهداف الحقيقية للفاطميين ، ولكن يبدو أن قوتهم نبعت من تأييد البورجوازية .

وبعد الاستيلاء على مصر في عام ٩٦٩ نجح الفاطميون في نفس العام بضم بلاد الشام إلى دولتهم ، وبقيت سورية الشمالية تحت نفوذهم حتى عام ١٠٢٣ ، وسورية الجنوبية حتى العقد الثامن من القرن الحادي عشر ، وفلسطين حتى الحملة الصليبية الأولى ، وبعد وقت قصير من استيلائهم على مصر ، نشر الفاطميون سلطانهم على المناطق المجاورة للبحر الأحمر ، وأحياناً اعترف لهم بالسيادة حتى أمراء أعالي مابين النهرين ، استمر العصر الذهبي لحكمهم حوالي ٨٠ عاماً ـ حتى منتصف القرن الحادي عشر ، وفي عام ١٠٤٧ قام الزيديون ـ الذين عينهم الفاطميون حكاماً لهم على تونس ـ بخلع سيادتهم ، ولم يفقد الخلفاء في القاهرة شمال أفريقيا وحده بل فقدوا صقلية أيضاً ، ولكنهم احتفظوا بوجودهم في مصر لمدة قرنين .

وكما هي الحال في الأسر الحاكمة الاسلامية جميعاً ، اعتمد الحكم الفاطمي على جيش قوي . ويقال أن الجيش الذي غزا مصر وصل تعداده إلى ١٠٠,٠٠٠ رجل ، وحتى في المراحل اللاحقة استطاع الفاطميون أن يجهزوا جيوشاً يبلغ عدد أفرادها عشرات الآلاف . والمشاكل التي واجهوها في تجنيد جيشهم ، والحفاظ عليه ، هي نفس مشاكل الخلفاء العباسيين ، وكان الجيش الذي استولى على مصر مؤلفاً من البربر الكتاميين والمصامدة ، ولكن في عهد الخليفة العزيز (٩٧٥ - ٩٩٦) وجند في الجيش أيضاً الكثير من الأتراك والديالمة والعرب من برقة والمناطق الأخرى ، والصقالبة والزنوج ، وفي عهد الحاكم (٩٩٦ ـ ١٠٢١) كان البربر

أقوى القوميات المختلفة المتواجدة في الجيش ، ولكن الأتراك حلوا محلهم في عهد خلفه الظاهر . وعندما انفصلت تونس عن الخلافة ، أصبح تجنيد البربر صعباً ، وأصبح الزنوج ـ باستثناء الأتراك ـ أقوى العناصر في الجيش ، وكانوا يشكلون جنود المشاة ، بينما شكل البربر والأتراك جنود الفرسان ، وكالمعتاد اشتد التنافس بين الوحدات المختلفة ، ومنذ نهاية القرن العاشر حصلت الصدامات بين الوحدات المغربية والتركية ، وتم الدفع للجيش الفاطمي نقداً وعن طريق الاقطاع ، مما جعل الضباط يجمعون ثروات طائلة ، بينما لم يحصل بقية الجند على كفايتهم ، مما جعلهم يكسبون عيشهم في أيام الشدة من الزراعة [٥٩] .

ولمواجهة النفقات الباهظة للبلاط الفخم والجيش اضطر الفاطميون لزيادة الضرائب اكثر مما كانت عليه أيام سابقيهم ، كما اضطروا لفرض ضرائب أخرى جديدة ، واختص الأقباط بإدارة الشؤون المالية نظراً لتمتعهم بمحاباة الخلفاء ، واحتكر هؤلاء الموظفون المسيحيون تقريباً مختلف الدواوين ، ووصل بعضهم إلى أعلى المراتب مثل عيسى بن نسطور الذي أصبح وزيراً في عهد العزيز ، وليس هنالك أي شك في أن موقف الخلفاء الشيعة المحابي للأقباط نابع من عدم ثقتهم برعاياهم المسلمين السنيين ، ولكن الموظفين المسيحيين مثلوا أيضاً قطاعاً هاماً من البورجوازية المصرية .

وهناك أيضاً مجموعات بورجوازية أخرى حصلت على منافع كبيرة من النظام الذي أقام عليه الفاطميون حكمهم ، كما فعل العباسيون في السابق ، فقد ضمّن الخلفاء الشيعة في القاهرة الخراج والضرائب الأخرى مقابل مبالغ محددة ، بينما اعتبر الفائض أرباحاً للضامنين ، والمؤسسة الموازية هي منحُ الاقطاعات التي آلت إلى المتعهدين الصادين بمزاد علني مقابل دفع مبلغ مؤلف من الايجار والضرائب ، ومنحت في ظل الفاطميين الأوائل هذه الاقطاعات لمدة أربع سنوات ، وكان بإمكان أي فرد تقديم عرضه في المزاد العلني [٦٠] ، والميزة البارزة للنظام الفاطمي هي حرية المشاريع إذ كانت كل قطاعات الحياة الاقتصادية حرة المهن والصناعة والتجارة ، وتدخلت الحكومة في تجارة المواد الغذائية عند الحاجة لتأمين تموين المدن الكبرى بالقمح .

وتمتعت البورجوازية المصرية أيضاً بالرفاه العام الذي يعود - مع أسباب أخرى - إلى التضخم العام في الاقتصاد الفاطمي ، وليس هناك أي سبب للشك في صحة أقوال الكتاب العرب عن كميات الذهب الكبيرة التي جلبها الفاطميون إلى مصر ، ويقول هؤلاء الكتاب أن الفاطميين امتلكوا كميات من الدنانير الذهبية لم يسمع بها أحد ، وحصلوا على ثروات خرافية ، ولما كان الفاطميون الأوائل مسيطرين على كل الطرق التجارية إلى غانا - آلاسكا العصور الوسطى . فيمكن أن نصدق القول بأن المُعزّ أول الخلفاء الفاطميين في مصر أتى ومعه (٥٠٠) جمل محمّلة بالذهب والثروات الأخرى [٦١] ، ولكن حتى في الوقت الذي فقدوا فيه السيطرة على ساحل شمال أفريقيا ، امتلكت دور سك النقود كميات كبيرة من الذهب ، وتمكنت من سك الدنانير التي تبلغ درجة نقائها ١٠٠٪ تقريباً ، لأن طرق التجارة عبر الصحراء بقيت مفتوحة لهم ، وأدى الضغط الكبير على خلفاء القاهرة في أوائل القرن الثاني عشر إلى تخفيض العملة الذهبية ، ولكن الخليفة الآمر (١١٠١ - ١١٣٠) تغلب على مشكلة نقص الذهب ، ورفع درجة نقاوة الدينار مرة أخرى إلى مستواها القديم ، وبالتالي فإن نقاء الدينار يعتبر إحدى الخصائص المميزة لاقتصاد مصر حتى نهاية الحكم الفاطمي ، ولربما توجب علينا ألا نقبل بسهولة أن تداول الدنانير تم بالعدد لا بالوزن ، وهي فرضية تناقضها وثائق الجنيزا ، كما أن النماذج المحفوظة تدلل على المحافظة على مستويات وزن محددة . ولقد وجد إيرينكر وتيز - الذي تفحص عدداً كبيراً من الدنانير الفاطمية ، أن حوالي ٧٠٪ منها تزن ٤,٠٦ - ٤,٣ غرام ، ويبدو أن مستوى الوزن تحدد في عهد العزيز بمقدار ٤,١٢٨ غ وفي عهد الحاكم بمقدار ٤,١٨٨ غ ، وفي عهد المستنصر بمقدار ٤,٢٢٩ غ . أما دنانير الآمر فتشير إلى مستوى قدره ٤,١٨٦ غ [٦٢] .

نقاء دنانير الفاطميين المتأخرين

	أقل من ٩٠٪	٩٠٪	٩١٪	٩٢٪	٩٣٪	٩٤٪	٩٥٪	٩٦٪	٩٧٪	٩٨٪	٩٩٪	١٠٠٪
										١		٤
المستعلي (١٠٩٤-١١٠١)		١			١	٣		٨	٣	٩	٨	٤٠
الآمر	١٠	١	٢							١	٢	٢٢
الحافظ (١١٣٠-١١٤٩)												٨
الظافر (١١٤٩-١١٥٤)												٢
الفائز (١١٥٤-١١٦٠)												١
العاضد	١						١					

وزن الدنانير الفاطمية النظامية بالغرام

	٣,٦-٣,٥	٣,٧-٣,٦	٣,٨-٣,٧	٣,٩-٣,٨	٤,٠-٣,٩	٤,١-٤	٤,٢-٤,١	٤,٢٥-٤,٢
المعز				٢	٤	١٠	١٦	١
العزيز			١		٢	٤	٣١	
الحاكم		٢			٢	٣	٣٦	٥
المستنصر		١	٢	٩	١٢	١٨	٣٨	٢٤
المستعلي					٤	٢	٢	٢
الآمر	٢	٣	١	٨	٧	١١	٢٨	١٣
الحافظ		١	١	٣	٥	٣	٩	٥
الظافر	١	١				١	٤	
الفائز					١	٣	١	١
العاضد		١			٢		٢	١

وأمكن المحافظة على الدينار بصورة نقية تقريباً ، ووزن كامل لأن مصر تلقت بانتظام كميات لا بأس بها من الذهب من غرب السودان ، مما أصبح باعثاً قوياً للاقتصاد المتوسع وارتفاع أسعار مختلف البضائع وإقامة المشاريع الخاصة الجديدة ، ولم يتسبب في عرقلة هذا الاتجاه نقص الدراهم الفضية النقية الملموس في العصر الفاطمي كما هو الحال أيضاً في أقطار الشرق الأوسط الأخرى .

والسبب الآخر في الازدهار المعتبر لاقتصاد مصر في عهد الفاطميين واغتناء البورجوازية هو التطور العظيم في التجارة العالمية .

وحل في عهد الفاطميين البحر الأحمر محل الخليج العربي ، كطريق رئيسي للتجارة من الهند إلى البحر المتوسط . وحدث هذا التغير نتيجة عوامل عديدة ، تدهورت مدينة سيراف ـ المرفأ العظيم على الخليج ـ بعد أن دمرتها الزلازل كما أن نهب شبنقره ودع التجار عن زيارة شواطئها وأدى ابتزاز حكام جزيرة كيشKISH إلى نفس النتيجة . وفي نفس الوقت أزيح الستار الحديدي بين العالم الاسلامي وجنوب أوروبا على يد جمهوريات ايطاليا التجارية المغامرة والموثوقة التي أقامت اقتصادها على تجارة ماوراء البحار ، وفضّل التجار الايطاليون الحصول على المنتجات الهندية من المراكز التجارية في مصر وسورية بدلاً من زيارة شواطىء الخليج العربي البعيدة والخطيرة ، وأدرك الفاطميون الفوائد العظيمة لزيادة نصيب بلدانهم من التجارة الخارجية ، فبذلوا جهوداً كبيرة للتأثير في تغيير طرق التجارة أي لتحويل التجارة الهندية من الخليج العربي إلى البحر الأحمر ، ولم يكن ذلك يمثل مصلحة اقتصادية للخلفاء الشيعة فحسب ولكن نظراً لأنهم كانوا يهدفون إلى إقامة سلطانهم فوق كل العالم الاسلامي أملوا أيضاً بدعم دعاياتهم الدينية والسياسية بعلاقاتهم الاقتصادية ، وسار الدعاة وراء التجار ، ومن المؤكد أن تسمية أتباع المذهب الاسماعيلي بالتجار (بهره) ليس مجرد صدفة .

ولكن ازدهار تجارة مصر الهندية متعلق أيضاً بالتقدم العلمي الهام وهو استعمال الابرة المغناطيسية ، وحسب وضع الأبحاث الحالي هناك سبب وجيه للاعتقاد بأن البحارة العرب بدؤ وا باستعمالها في القرن الحادي عشر (٦٣) .

وأصبحت عيذاب ـ المدينة الصغيرة على البحر الأحمر ـ ميناءاً تجارياً هاماً في ظل الفاطميين ـ كما أن قوص بدأت بالازدهار على النيل حيث وصلت القوافل من البحر الأحمر ، وزار التجار الايطاليون بانتظام الاسكندرية ودمياط وطرابلس وأنطاكية (٦٤) وبدأت علاقات تجارية وثيقة بين تجار جنوب أوروبا المسيحيين وبلدان الشرق الأوسط والتي بقيت لمدة ٤٠٠ سنة الشريان الرئيسي للتجارة العالمية .

كان تجار أمالفي والبندقية وجنوا الأوائل بين التجار المسيحيين الذين أتوا إلى موانىء مصر وسورية ، ووفقاً لأقوال كاتب عربي مسيحي زاد عدد الأمالفيين عن ١٦٠ شخص في القاهرة في عام ٩٩٦ ، وحتى لو خلط كاتب العصور الوسطى بين الأمالفيين والايطاليين الآخرين فإن العدد كبير ، وتشهد على علاقات الأمالفيين

التجارية مع بلاد الشام نشاطاتهم في القدس في العقد السابع من القرن الحادي عشر حيث أعادوا بناء مشفى وكنيسة لاتينية ، وأرسلت البندقية مبعوثيها إلى حكام كل الأقطار الاسلامية المطلة على البحر المتوسط . ونشط أهل البندقية في التجارة بين الاسكندرية والقسطنطينية وفي القرن الثاني عشر بين موانىء سورية وفلسطين التي استولى عليها الصليبيون وموانىء مصر البحرية . كما أن جنوا نشطت أيضاً في تجارة شرق المتوسط في القرن الذي سبق الحملة الصليبية الأولى . ويسرد حاج انكليزي في عام ١٠٦٥ كيف وصل أسطول من جنوى إلى يافا بعد أن توقف في الموانىء السورية وبادل البضائع التي جلبها من الغرب . كما تحتوي بقايا مخطوطات (الجنيزا) العربية على إشارات مختلفة لزيارات التجارة الجنويين إلى الاسكندرية والقاهرة في نفس الفترة . وفي نهاية القرن العاشر زار التجار من باري وصقلية مراكز الشرق الأدنى التجارية بينما أصبح أهالي بيزا بارزين في تجارة شرق المتوسط في القرن الثاني عشر . وازدادت هذه العلاقات التجارية بين إيطاليا والفاطميين باستمرار . وتشير أعمال النبيل جيوفاني سكريبا إلى أن مئات من مواطنيه انخرطوا في التجارة مع الاسكندرية في الفترة ١١٥٦ ـ ١١٦٤ [٦٥] .

نعرف من المصادر الأوروبية والعربية السلع التي استوردها التجار المسيحيون من مصر وبلاد الشام . لقد جلبوا الأقمشة والفراء والأخشاب والمعادن مثل الحديد والنحاس والرصاص والقصدير التي يحتاجها الشرق الأوسط بصورة عامة وحتى الأسلحة والدزوع والعبيد [٦٦] .

ركز مؤرخو تجارة شرق المتوسط على سياسة الفاطميين وخلفائهم الذين بذلوا ما في وسعهم لتشجيع التجار الأوروبيين وزيادة استيراد السلع التي يعرضونها .

ولقد مكنتنا الوثائق اليهودية العربية التي اكتشفت في كنيس القاهرة في نفس الوقت من قياس التحول الكبير الذي طرأ على تجارة مصر الهندية في العصر الفاطمي من حيث مضمونها وطبيعتها . وترينا مئات الوثائق التي تشير إلى هذه التجارة والعائدة في معظمها للقرن الحادي عشر بوضوح أن التوابل ـ الفلفل والزنجبيل والأهليلج والقرفة والقرنفل وغيرها ـ وثانياً الأصبغة مثل العندم وصمغ اللّك حلّت محل العطورات الثمينة التي كانت السلع الرئيسية للتجارة الهندية أيام الخلفاء

العباسيين . فالتوابل تؤ ول إلى الاستهلاك الجماهيري وبالتالي فهي أرخص وذلك يعني أن حجم التجارة قد ازداد . كما بدأ الأوروبيون أيضاً بالحصول على منتجات الشرق الأوسط التي احتاجوا إليها لتطوير صناعاتهم مثل القطن السوري والشب المصري .

بالاضافة إلى ذلك ، تثبت وثائق كنيس القاهرة بصورة مقنعة أن كثيراً من التجار من الطبقة الوسطى نشطوا في التجارة الهندية في العهد الفاطمي . أما التجار الذين توفرت لهم رؤ وس الأموال الصغيرة فقد شاركوا الآخرين أي أنهم وظفوا بعض المبالغ بعقود الضمان . وتم تصدير النحاس والرصاص والأقمشة إلى الهند (٦٧) لمقايضتها بالتوابل والمنتجات الأخرى (٦٨) . وبما أن الحكومة لم تحتكر تجارة الهند العظيمة بصورة مباشرة أو غير مباشرة وسادت حرية المشاريع وأصبح بإمكان مختلف طبقات البورجوازية ـ تماماً كما في حالة جمهوريات إيطاليا التجارية ـ أن يساهموا في التجارة الدولية ويجنوا الثروات الطائلة . وهكذا تعتبر الفترة الفاطمية من وجهة النظر الاقتصادية العصر الذهبي للبورجوازية . وفي الحقيقة احتكرت الحكومة فقط تلك السلع التي يعتبر الحصول عليها ضرورياً للنشاط الحربي ـ مثل الحديد والخشب والقار . وتوجب تسليم هذه السلع بعد استيرادها إلى مصر لمندوب الحكومة .

ويمكن استخلاص نفس النتائج من مئات وربما آلاف الوثائق في كنيس القاهرة المتعلقة بالتجارة البحرية بين مصر والغرب الاسلامي . وحتى هذه التجارة الحيوية بقيت حرة ولم تحتكرها الدولة والشركات الكبرى التي يمتلكها كبار الرأسماليين . ورغم أن الخلفاء الفاطميين والحكام الآخرين شاركوا في تجارة البحر المتوسط وبناء وامتلاك السفن (٦٩) فإن مئات بل وآلاف صغار التجار تنقلوا بين موانىء تونس وصقلية ومصر . استنتج س. د. غوتلين من آلاف الوثائق التي درسها في كنيس القاهرة أن قيمة البضائع المتبادلة بين تجار ماوراء البحار في أي فصل لم تتجاوز وسطياً بضع مئات من الدنانير (٧٠) .

والطرق التجارية الرئيسية بين أقطار العالم الاسلامي في حوض المتوسط هي تلك التي تصل مصر بصقلية وتونس وتصل اسبانيا بصقلية وتونس . وهكذا أصبحت صقلية وتونس كمركز لشبكة عظيمة من العلاقات التجارية . كما صدرت

صقلية بضائعها الخاصة مثل الحرير والمنسوجات الحريرية . واستوردت مصر من تونس واسبانيا الحرير النفيس [٧١] ومن تونس زيت الزيتون والصابون . أما السلع التي صدرتها مصر إلى الغرب الاسلامي فأهمها التوابل والمنتجات الهندية الأخرى أولاً والكتان الخام ثانياً [٧٢] .

ويعبر النجاح العظيم لهؤلاء التجار العاملين في كل هذه الفروع من التجارة الدولية عن نفسه بإدراكهم القوي بأنهم مجموعة هامة . ولدى قراءة كتاب محاسن التجارة الذي ألفه أبو الفضل الدمشقي في أواسط القرن الحادي عشر يدرك المرء قوة مركز التجار في عهد الفاطميين [٧٣] .

أما ازدهار مختلف فروع الصناعة فإنه أحد أهم المظاهر الاقتصادية في مصر الفاطمية ، فالرفاهية العالية للبلاط واحتياجات الجيش الكبير وبناء الأسطول الحربي وأخيراً التطور العظيم في تجارة مصر الدولية مع افتتاح الأسواق الجديدة ـ كل هذه العوامل ساعدت على توسع الصناعات . فالصناعات القديمة القائمة في مصر ازداد حجمها وأوجدت فروعاً جديدة بينما ظهرت صناعات أخرى في هذه الفترة . واخترعت طرق جديدة كما تحسنت الطرق القديمة أو تم تقليد الطرق المستعملة في المراكز الأخرى بنجاح وغالباً كان بجذب العمال الأجانب هذا الازدهار الذي لا بد من تفسيره ولو جزئياً بالسياسة الاقتصادية للخلفاء الفاطميين الذين تمسكوا بمبدأ حرية المشاريع ، ورغم أنهم أقاموا مصانع ملكية فإنهم امتنعوا عن إقامة احتكارات صناعية [٧٤] . وبالرغم من الضرائب الثقيلة نجحت طبقة غنية من الصناعيين في انشاء مشاريع جديدة وافتتاح أسواق جديدة لمنتجاتهم .

تمتعت صناعة النسيج بازدهار واضح . ففي وثائق الجنيزا تظهر مراكز جديدة لصناعة الكتان مثل قطا ومنية (منية الخصيب ـ منية الغمر ـ أو منية الزفتا) [٧٥] وبدأت المراكز الصناعية في مصر بإنتاج سلع كانت من اختصاص مناطق ومدن أخرى . فتنيس ودبيق انتجتا قماش البروكال القطني وصدرت المنيه انتاجها الديبقي ، وبدأت مصر بإنتاج القماش الحريري مثل الأقمشة المطرزة والمقصبة التي هي تقليد للأقمشة البيزنطية في تنيس ودمياط[٧٦] . كما تم تقليد الأقمشة الطبرستانية في القاهرة والرملة (في فلسطين) بينما قامت أسيوط [٧٧] بممارسة إنتاج

المصنوعات الأرمينية . وقلدت دمشق [٧٨] قماش العتابي البغدادي . وكانت الأزياء الجديدة التي ابتدعها البلاط الفاطمي حافزاً قوياً لصناعة النسيج . ويذكر المؤلفون العرب كيف بدأت في نهاية القرن العاشر في المراكز الصناعية في مصر السفلى صناعة العمائم من الشارب وهو النسيج الكتاني الثمين المطرز بخيطان الذهب التي يساوي ثمن كل منها ٥٠٠ دينار . والسبب الآخر لتوسع الصناعة هو توفر المواد الأولية من المناطق الأخرى ، لأن الدول التي قامت مقام الخلافة العباسية لم تمنع تصديرها . وقد استوردت الخيوط الذهبية جزئياً على الأقل من العراق والأصباغ من إيران مثل الزعفران الغالي الثمن المزروع في فارس أو القرمز من أرمينيا . لابد أن ازدهار صناعة النسيج في مصر أيام الفاطميين كان واضحاً إذا علمنا أن الجغرافي المقدسي - وهو المراقب الذكي - يسمي تنيس «بغداد الصغرى» [٧٩] .

ويركز معظم كتاب العصور الوسطى على الحالة المزدهرة لصناعة النسيج في مصر في ظل الفاطميين ، ولكن تطور الصناعات الأخرى لم يقل عنها رغم أن منتجاتها لم تكن غالية مثلها . ولاريب في أن صناعة السكر أصبحت قطاعاً هاماً في الاقتصاد المصري في القرن الحادي عشر . وهناك سبب وجيه يدعونا للاعتقاد بأن طرق تكرير عصير قصب السكر تحسّنت في مصانع القصب العديدة القائمة في تلك الفترة في مدن وقرى كثيرة من مصر ، واستخدام النطرون والشب - وهما العنصران النادران الموجودان في ذلك البلد - لتنقية المواد المختلفة مثل العسل وهو معروف لدى المصريين منذ القدم ، وعندما شاعت زراعة قصب السكر في وادي النيل ، استعملوا على مايبدو هذه الطرق لانتاج السكاكر وتعلموا تكرير السكر بدلاً من الغلي المتكرر باستخلاص قلوي الأساس المتبقي بين البلورات أو حتى بفصلها اصطناعياً (مايسمى «بالغطاء») ، والحقيقة القائلة ان بلورات السكر عرفت في الشرق الأقصى باسم «مصري» ، وشهادة ماركو بولو الصريحة حول استعمال قلوي الخضار في مصافي السكر المصرية لا يتركان مجالاً للشك بخصوص هذا الانجاز . واستخدام قلويات التنقية ، هو الاختراع الكبير الذي تم في مصانع القصب المصرية ، وطالما بقي الحليب وحده المستعمل في تكرير السكر كما ورد في وصف النويري الطويل لم يزد الانتاج عن ١٢/٥ بينما الباقي مجرد دبس سكر ، وإن طرق

تكرير عصير السكر هي بالتأكيد نتيجة تجارب طويلة متأنية في مصانع السكر التي أدارها الصناعيون الأغنياء . وان صناعة السكر في مصر والشام في ظل الفاطميين ذات طابع رأسمالي بالتأكيد . والطرق المعقدة لتكرير عصير قصب السكر لايمكن استعمالها إلا في المصانع الكبيرة . ووثائق الجنيزا التي تشير إلى سعر مصانع السكر تشير إلى وجود مصانع كبرى ، إذ توجب على الصناعيين المغامرين الأغنياء أن يبذلوا جهوداً مكلفة لتحسين الطرق والدافع للملك هو الأرباح المتوقعة ، وتمتع إنتاج السكر بالحرية المشروعة أيضاً لأن محاولة الاحتكار التي قام بها الخليفة الحاكم الغريب الأطوار لم تتكرر ، وهذا يصح أيضاً في حالة صناعة الورق التي بدأت بالازدهار بعد انقراض إنتاج البردي في كل من مصر والشام . وانتج الورق من النوع الممتاز في دمشق وطرابلس وطبرية والفسطاط والمدن الأخرى تم انتاجه في المشاريع الرأسمالية (٨١) .

ولم تلب كل هذه الصناعات فقط حاجات السوق المحلية المتزايدة باستمرار ولكنها أنتجت إلى حد كبير للتصدير للبلدان الأخرى ، ولابد أن أرباح الصناعيين كانت كبيرة . ولكن الأوصاف الزاهية للازدهار الاقتصادي في مصر الفاطمية التي يذكرها كتّاب العصور الوسطى يجب ألا تخدعنا ، فالمعلومات الخاصة بمستوى الأسعار التي تجسدها وثائق الجنيزا تشير إلى أن المنتجات ماتزال غالية الثمن ، بينما كان الدخل الحقيقي للعمال منخفضاً جداً ، وفيما يختص بالوضع الاقتصادي للجماهير العاملة ، تناقض هذه الوثائق مؤلفي العصور الوسطى والحديثين الذين يضعون الحكم الفاطمي كفترة سعيدة من تاريخ مصر ، إنها العصر الذهبي للطبقات البورجوازية ، بينما كانت أوضاع العمال أسوأ من أي وقت سابق (أو لاحق) ، وهذا استنتاج مدهش لابد من استخلاصه من الأرقام في وثائق الجنيزا وبيانات الكتاب العرب

	الأسعار بالدينار
ملابس الرجال :	
عباءة الفقراء	
جاكيت صوف	١/٢-١/٣
معطف صوفي	٠,٤-٠,٥
العمامة المتوسطة	٠,٥-١
ملابس النساء :	٢,٥-٣
ثوب بسيط	١-٢
ثوب أنيق	٣-٤
ثوب غلالة بسيط	١,٥
ثوب غلالة أنيق	٤
معطف جوكانية بسيط	١/٢
معطف جوكانية أنيق	١-٣
عباءة بسيطة (مالة)	١
عباءة أنيقة	٣-٤
التربان	٢-٣
الأجور بالدينار :	
خادم في دار حكمه الحاكم (١٠٠٥)	١-١,٢٥
خادم في الأزهر (١٠١٠)	١-١,٢٩
السقا (١٠٤٠)	٠,٧٢
السقا (١١٠٠)	١,٤
السقا - بدون تاريخ	١,٠٤
بناء متجول	٢,٥
بناء ماهر	٣-٥

يلخص هذا الجدول لنا المعلومات الخاصة بأسعار الأقمشة في مصر الفاطمية المقابلة لأجور العمال المهرة والعادين [٨٢] .

وتشير مئات السجلات للمهور التي تم العثور عليها في وثائق الجنيزا أن سيدات الطبقة البورجوازية الدنيا والمتوسطة امتلكن الكثير من الملابس الفاخرة ، ومن جهة أخرى يرينا الجدول السابق أن العمال لم يكن باستطاعتهم امتلاك الأقمشة الجيدة .

كما أن وضع العمال ازداد سوءاً فيما يتعلق بالأطعمة أيضاً ، فالكمية الأساسية التي تمكن العمال من شرائها في القرن العاشر كانت أقل بكثير من الكميات التي تمكن أجدادهم من شرائها أيام الخلفاء . أما أوضاعهم في القرن الحادي عشر فهي أسوأ بكثير ، والجدول التالي يتضمن المعلومات الخاصة بالأجور الاسمية والحقيقية للعمال العاديين في مصر [٨٣] .

	الأجور الاسمية	الأجور الحقيقية		
		الخبز	لحم الضأن	زيت الزيتون
بداية القرن الثامن	٠,٦ دينار	٨٨٨ رطل	١٧,٣ كغ	٣٠ كغ
بداية القرن التاسع	٠,٧٥ دينار			
بداية القرن العاشر	١,٠٠ دينار	٤٥٤ رطل		
بداية القرن الحادي عشر	١,٢ دينار	٣٢٤ رطل	٢٦,٦ كغ	٤٣ كغ

ورغم أن كميات لحم الضأن وزيت الزيتون التي تمكن هؤلاء العمال من شرائها ازدادت بسبب الازدياد الطفيف في أسعارها ، فإن نظام تغذيتهم ازداد سوءاً عن السابق لأن كميات اللحوم التي تمكنوا من شرائها محدودة جداً لأنه تجب عليهم أن ينفقوا على الخبز أعظم جزء من نفقاتهم من أجل الطعام [٨٤] . كان العمال المهرة أحسن حالاً من العاديين ، ولكنهم عانوا من العمل الالزامي . فالرحالة الفارسي ناصر خسرو - الذي كان معجباً بالخلفاء الشيعة في القاهرة - بالغ بكل تأكيد عندما قابل حرية العمال في الدولة الفاطمية بالعمل الالزامي المستخدم في المصانع الملكية في البلدان الاسلامية الأخرى ، ومرة أخرى تناقض وثائق الجنيزا المصادر الأدبية وتظهر إحدى رسائل الكنيس المكتوبة في دمشق عن أواخر القرن العاشر وأوائل القرن

الحادي عشر أن النساجين ملامون بالعمل في مصانع الخليفة ، وهناك دائرة خاصة لتجنيد الصناع لهذا الغرض ، وفضلاً عن ذلك يمكننا أن نستنتج من هذه الوثيقة ان العمل في هذه المصانع كان شاقاً جداً (٨٥) .

ولجوء السلطات الفاطمية إلى الاستخدام الاجباري يمكن تفسيره بسهولة وذلك بصعوبة تأمين حاجات البلاط ، ومن جهة أخرى فإن تدهور وضع العمال العاديين الاقتصادي هو نتيجة لفائض العمل . واستمر عدد سكان مصر في التزايد في نهاية القرن العاشر والنصف الأول من القرن الحادي عشر . ومن المرجح أن ازدياد السكان أكثر وضوحاً في تلك الفترة مما هو عليه في الفترة السابقة . فالحفاظ على جيش كبير وتلبية حاجات البلاط أوجد فرص العمل لآلاف كثيرة من العمال والصناع وفرصاً مربحة لمختلف أنواع رجال الأعمال . وقد ازداد عدد المستهلكين المستوجب تلبية طلباتهم وإطعامهم . واستنتج أحد العلماء الذين قاموا بأبحاث شاملة في تاريخ القاهرة أن سكانها لم يزيدوا عن ١٠٠,٠٠٠ نسمة قبل وصول الفاطميين ، وتبعاً لحساباته وصل عدد السكان في القرن الحادي عشر ٣٠٠,٠٠٠ نسمة (٨٦) ، ومن المرجح أن التطور الكبير في التجارة الدولية زاد في عدد سكان المدن الساحلية مثل الاسكندرية ودمياط ، كما جذب الازدهار الاقتصادي قبائل البدو ـ وبعضها كثير العدد ـ للاستيطان في وادي النيل ، وأجبرت قبائل أخرى مثل بني هلال وبني سُلَيم على الاستيطان في مصر على يد الخلفاء الفاطميين ليحرموا أعداءهم في سورية من حلفائهم الأقوياء . ولكن ماهو أهم من الهجرة بالتأكيد هو تزايد السكان الطبيعي كنتيجة للازدهار العام ، وتنعكس الزيادة في عدد السكان في الارتفاع المنتظم لأسعار الحبوب . ولايمكن أن يكون ذلك مجرد ظاهرة متضخمة ـ أي نتيجة تدفق كميات كبيرة من الذهب السوداني الذي وضعه الفاطميون الأوائل في التداول ، ويمكن البرهنة على ذلك بتقلبها منذ نهاية القرن الحادي عشر عندما كانت مصر ماتزال تمتلك نقداً ذهبياً مستقراً ، واستمر ارتفاع متوسط سعر القمح في نهاية القرن العاشر والنصف الأول من القرن الحادي عشر . وبينما بلغت كلفة ١٠٠ كغ على مايبدو ٠,٧ ـ ٠,٨ دينار في بداية حكم الفاطميين ، ارتفع هذا السعر إلى دينار واحد في بداية القرن الحادي عشر (٨٧) . وتدل حركة أسعار الحبوب والأجور الدنيا المتناقضة بوضوح على التدهور المستمر في وضع العمال العاديين .

وعبّرت رفاهية الطبقات البورجوازية وبؤس الطبقات العمالية عن نفسها بحركات سياسية متعددة ـ كالعصيان المدني والمقاومة والثورات والحروب الأهلية ، وأقوال كتاب العصور الوسطى ـ رغم الشك فيها وانحيازها ـ لا تترك مجالاً للشك في أن البورجوازية أثناء فترة ازدهار الامبراطورية الفاطمية ـ انحازت دائماً وفي كل مكان إلى جانب حكومة الخلافة ، بينما عارضتها الطبقات الأخرى في كل من مصر وبلاد الشام .

وتعرض قصة فتح الفاطميين لمصر موقف الطبقات المختلفة . فلقد حدث الهجوم الأخير للفاطميين على مصر ـ بعد موت الحاكم الأخشيدي القدير كافور ـ أثناء ذلك توقف الفلاحون عن دفع الخراج ، وبدأوا بمهاجمة وحدات الجيش ، ويقول أحد كتاب الحوليات العرب أن النتيجة هي أن أشراف الفسطاط ـ أي زعماء البورجوازية ـ كاتبوا الفاطميين وطلبوا منهم احتلال مصر [٨٨] .

ولكن الاتجاهات الثورية في الشام كانت هي الأقوى ، ويمكن أن يعزى هذا الاختلاف إلى مرونة المصريين الكبيرة ، ولكن تلك التحركات اعتبرت أيضاً رد فعل على التدهور الاقتصادي في مصر في ظل الفاطميين .

وكان نصيب الشام من الازدهار الاقتصادي أقل من نصيب مصر في عهد الفاطميين ،نتيجة تحول الطرق التجارية ، وتدهورت فيه صناعة الحرير على مايبدو ، وبالتالي لابد من وجود البطالة والسخط الكبير ، ومال الأحداث ـ وهم ميليشيات المدن ـ في كل مكان إلى الثورة ضد الحكام الفاطميين وتأييد الثوار الآخرين .

فالثورة التي اندلعت في صور في عام ٩٩٧ ، كانت حركة ثورية للطبقات الدنيا نظراً لأن قائدها هو الملاح العلاقة ، وكان الوضع السياسي مناسباً فهناك ثورة بدوية في فلسطين وهجوم بيزنطي على شمال بلاد الشام ، وهكذا فإن أحداث صور بزعامة العلاقة ثاروا ضد الفاطميين وأعلنت المدينة نفسها جمهورية مستقلة وسكت نقودها الخاصة . طلب الثوار العون من البيزنطيين لكن الأسطول الصغير الذي أرسله الامبراطور انهزم أمام البحرية الفاطمية ، وتوجهت قوات الخلافة التي حاصرت المدينة إلى الطبقات العليا من سكان المدينة التي تخلت عن العلاقة ، وسقطت صور في حزيران ٩٩٨ وأخذ العلاقة وأتباعه إلى القاهرة واعدموا هناك[٨٩] .

وتلقي أوصاف كتاب الحوليات للتقلبات في دمشق في الثلث الأخير من القرن العاشر الضوء على الدور الكبير الذي شغله الأحداث الذين قاتلوا بعناد ضد الحكام الفاطميين ، ولاشك في أنهم يمثلون الطبقات الدنيا من سكان المدينة - من الحرفيين وصغار التجار - المعادين بشدة للفاطميين . والطبقات العليا المسماة «المشايخ» (أو «الأعيان» أو «الأشراف» أو «الشيوخ») وكلها تسميات تقابلها تسميات الرؤساء والرجال الصالحين في الغرب المسيحي ، وعانت أيضاً من غطرسة وابتزاز السلطات المغربية ، وأحياناً اتحدت مع الأحداث ، ولكنها كانت في الغالب على استعداد للتصالح مع الحكام الفاطميين ، وبالرغم من الضرائب الباهظة التي اضطروا لدفعها فإنهم فضلوا الأمان والسير الطبيعي للتجارة وللصناعة على التجاوزات الجامحة لحرس المدينة البروليتاري .

ويدأ الصراع المرير بين الأحداث والجيش الفاطمي مباشرة بعد فتح بلاد الشام الجنوبية على يد المغاربة . في عام ٩٦٩ حارب الأحداث ضد الجيش الفاطمي ، لكن البورجوازية خانتهم وتصالحت مع الفاتحين ، وثار الأحداث ثانية ضد الحامية المغربية التي ارتكبت أعمال السلب والعنف . واستمر القتال بين الأحداث والمغاربة خلال عام ٩٧٤ ، وتمزقت المدينة بفعل الحقد والخوف المتبادل بين الأحداث والبورجوازية والقوات الفاطمية ، والتهمت النيران أحياء بكاملها .

وعندما جاء القائد التركي ألبتكين إلى بلاد الشام عرضت عليه البورجوازية حكم دمشق حتى يحميهم من المصريين من جهة ويحميهم من جهة أخرى من الأحداث الذين اخافوهم أكثر . وحقق ألبتكين آمالهم وأعاد النظام ولكنه هزم في عام ٩٧٧ على يد المصريين ووقع في الأسر فخلفه أحد ضباطه المسمى قسام الحارثي الذي كان يشتغل في السابق عاملاً يحفر الأقنية وينقل أتربتها على ظهر حميره ، وفيما بعد أصبح قائد الأحداث في دمشق ويسميه كتاب الحوليات العرب «التراب» . وعندما أخضع الفاطميون البدو في فلسطين ، قضوا على حكمه في دمشق ، وعندما اقتربت قواتهم من المدينة انشق زعماء الطبقات العليا عن الحزب الحاكم وتصالحوا مع المصريين ، ومرة اخرى سيطر المصريون في تموز من عام ٩٨٢ على دمشق التي بقيت مستقلة لمدة سبع سنوات ، وانتشت البورجوازية ، ولكنها سرعان ماجنت تلك النشوة تحت وطأة الضرائب الباهظة المفروضة على المدينة والاجراءات الأخرى التي

اتخذتها السلطات الفاطمية ، وبعد سنة من ذلك ثار الأحداث من جديد واستعادوا سلطتهم . فهاجمهم حاكم جديد يسمى بكجور ، وقتل منهم الكثيرين وبسط سلطانه على المنطقة ، فاضطر الأحداث للخضوع والسكينة حتى نهاية حكم الخليفة العزيز ، فثار سكان دمشق من جديد في عام ٩٩٧ بعد موت الخليفة واضطر الوالي للهرب . ولقد ساهمت الطبقات العليا في البداية في الثورة ولكن سرعان مانحاهم الأحداث بقيادة الدهيقين ، وهو لقب يدل على أصله البروليتاري . ومع هذا فإن نشاطات الأحداث الثورية انتهت - ولو إلى حين عندما قتل الحاكم جيش بن الصمصامه ١٢٠٠ منهم (وبعض المصادر الأخرى تقول ٣٠٠٠) وفرض على المدينة أتاوة كبيرة [٩٠] .

اضطر الفاطميون الأوائل أيضاً لمحاربة مجموعة أخرى من الثوار الذين تحدوا بجسارة سلطة الطبقات الحاكمة وكان هؤلاء من القبائل البدوية في مصر والشام . ويبدو أن معظمها بدو رحل كسبوا عيشهم من تربية الماشية ونقل البضائع أو حماية القوافل والخدمة كقوات مساعدة في جيش الخلافة . وهي عشائر غنية حاول زعماؤها الأذكياء الطامحون فرض حكمهم بدلاً من حكم الخلافة الفاطمية . ولم تكن ثوراتهم كثورات البروليتاريا المستغلة ، بل مثلت صراعاً بين الطبقات التي تنتمي إلى الشرائح العليا في المجتمع . كانت منطقة البحيرة والصعيد حصون هؤلاء البدو في مصر أما في بلاد الشام تمركزوا في منطقة حلب وفي فلسطين حيث بنوا قصوراً خاصة بهم .

في العقد الثامن من القرن العاشر كان الحاكم الفعلي لجنوب فلسطين المفرج بن دغفل بن الجراح زعيم بني طيء حيث سيطر على عاصمتها الرملة واستطاع رجاله إلحاق الأذى بالناس دون عقاب . ولكن الخليفة الفاطمي العزيز أرسل جيشه في عام ٩٨٠ فوضع حداً لتسلطه . ولكن المفرج الذي هرب إلى شمال سورية عاد بعد بضعة سنوات ليقود ثورة أخرى فأحرق القرى في جنوب فلسطين وحاصر الرملة ولكنه اضطر للاستسلام بعد أن تم إخماد ثورة صور [٩١] .

كان حكم كل من الخليفة الحاكم والخليفة الظاهر قاسياً جداً ، ومع هذا قامت في مصر وبلاد الشام ثورات بدوية أوصلت الخلافة الفاطمية إلى حافة الدمار . في عام ١٠٠٥ أقام أبو ركوه الدعيّ الأجنبي تحالفاً قوياً بين البربر والقبائل

في نفس الوقت تقريباً ـ في أواسط القرن الحادي عشر ـ انتهت فترة ازدهار الخلافة الفاطمية . في عهد المستنصر الضعيف (١٠٣٦ ـ ١٠٩٤) وأدى التنافس بين القوات التركية والسودانية إلى القتال . وتم طرد السودانيين من القاهرة عدة أيام ، فنشروا الذعر والرعب في مصر العليا ، كما أن الأتراك ابتزوا الأموال من الخليفة ونهبوا العاصمة ، واستولى بربر لواته على الساحل . ثم حدثت مجاعة كبيرة دامت عدة أعوام (١٠٦٦ ـ ١٠٧٢) نظراً لانخفاض النيل . وشكلت كارثة اقتصادية واجتماعية وتلا ذلك عودة السلطة عندما تم تعيين القائد الأرمني بدر الجمالي وزيراً وقائداً عاماً في سنة ١٠٧٣ ، ولكن الأزمة في ظل المستنصر أدت إلى نتائج بعيدة الأثر .

وغادر خلال سنوات المجاعة الطويلة والحرب الأهلية كثير من الفلاحين قراهم وذهبوا للعيش في المدن [٩٥] ، ومن المرجح أن معظمهم وقع ضحية المجاعة وتناقص الانتاج الزراعي بسبب هجر الزراعة . يبدو أن هذه الأزمة هي نقطة تحول في تاريخ مصر الديمغرافي ، فبعد سنوات كثيرة من التزايد ، بدأ اتجاه معاكس أصبح فيما بعد أهم ظاهرة في تاريخها الاجتماعي ، ألا وهي تناقص السكان . وكانت في الثلث الأخير من القرن الحادي عشر أسعار الحبوب ماتزال مرتفعة إذ بلغ ثمن ١٠٠ كغ من القمح ١,٧٩ دينار وسطياً مقابل دينار واحد في بداية القرن ، ولابد أن ذلك يعني أن أرباح التجار كانت كبيرة كالسابق ، وأن ازدهار الطبقات البرجوازية بقي مستمراً ، بل وأن حجم تجارة الهند العظيمة ازداد بعد نهاية القرن الحادي عشر عندما توثقت العلاقات التجارية مع جمهوريات ايطاليا التجارية بسبب اقامة كثير من التجار الايطاليين في المدن التي استولى عليها الصليبيون . ولكن أسعار الحبوب انخفضت في القرن الثاني عشر . وفي عام ١١١١ أودت جائحة أخرى بحياة الكثيرين من سكان مصر . وعاد متوسط سعر ١٠٠ كغ من القمح إلى دينار واحد في بداية القرن الحادي عشر وبينما بدأت الأجور الدنيا بالارتفاع ، فالعامل العادي على الأرجح كسب ١,٥ دينار في الشهر وهذا يعني ٤٠٥ رطل من الخبز [٩٦] . وهذه المعلومات ـ رغم أنها فرضيات فهي تشير إلى سيادة اتجاه تناقصي في تطور مصر الديمغرافي .

ولكن خصوبة تربة مصر الطبيعية ، وازدهار صناعة النسيج وتجارتها الخارجية مكّنت البدر الجمالي وابنه ووريثه الأفضل من إعادة بناء إدارة قديرة ،

وتشهد على ذلك المعلومات التي نجدها في مختلف المصادر حول إيرادات الضرائب في أواخر العصر الفاطمي .

ويبقى إيراد الخراج مستقراً بشكل ملحوظ حيث وصل إلى ٣ ملايين دينار في المتوسط ، وتشير المبالغ الأعلى في عهد الأفضل على الأرجح إلى قيمة الإقطاعات العسكرية المحسوبة بوحدات خيالية ، لأن الدخل الحقيقي أقل من ذلك بمقدار ٢٠٪ [٩٨] .

ايرادات الضرائب في مصر في عهد الفاطميين * [٩٧]

٩٦٩	٣,٤ *	مليون دينار
٩٧١	٣,٢ *	مليون دينار
٩٧٢	٤	مليون دينار
٩٩٦ - ١٠٢١	٣,٤	مليون دينار
١٠٧٤	٢,٨ *	مليون دينار
١٠٩٠	٣,١ *	مليون دينار
١٠٩٤ - ١١٢١	٥	مليون دينار

وبالرغم من ذلك حدث تغير كبير ، أصبح تناقص السكان ملحوظاً لدرجة أن الحكومة ضمت وحدات إدارية وأوجدت مناطق أكبر ، فبدلاً من ٥٠ ـ ٧٠ قرية انقسمت البلاد إلى ٢٦ عمل ، كما أن بنية حكومة الفاطميين نفسها تغيرت بشكل جعل السيطرة العسكرية أقوى ، لقد استبدلوا متعهدي الضرائب المدنيين وماحدث في العراق قبل ١٠٠ عام حدث الآن في مصر ، وأصبحت القرى التي ضمنها العسكريون إقطاعات وتناقصت المبالغ شيئاً فشيئاً حتى أن الحكومة تخلت عن محاولة تحصيل المبالغ المستحقة ، وقدمت لهم الضياع كإقطاعات عسكرية ، وبينما ضمنت القرى في السابق لسبع سنوات ازدادت المدة إلى ٣٠ سنة في أواخر العصر الفاطمي [٩٩] . وساءت أحوال الفلاحين أكثر فأكثر إذ سحقتهم الضرائب ، وازدادت ضريبة الخراج كثيراً (أو حتى تضاعفت) من قبل الفاطميين الأوائل ، وأصبحت أشد وطأة في عهد الفاطميين المتأخرين ، لأن كثيراً من الفلاحين هجروا قراهم [١٠٠] ، ولقد تمهدت الطريق لاقامة النظام الاقطاعي .

الفصل الخامس

١ ـ المقدسي ص ص ١١٧ ومابعدها ص ١٢٢ ومابعدها
٢ ـ التنوخي ـ أحاديث الجزء الأول (ترجمة مرغوليوث) لندن ١٩٢٢) ص ٧١ ابن حوقل ص ٢٤١ ومابعدها
٣ ـ ابن حوقل ص ٢١٦ ـ ٢٢٠ ومابعدها ٢٢٥ ، ٢٢٧
٤ ـ ناصر خسرو ص ٢٣٥ ومابعدها
٥ ـ Histoire
٦ ـ ASHTOR (Mouvement)
٧ ـ ابن الأثير ٨ ص ٢٨٢ ، ٣٨٤ ، ٣٨٩ ، ٣٩٧
ابن الأثير ـ ٩٠ ص ص ١٨٤ ، ٢٩٠ ، ٢٩٩ ، ٣٧٠
حمزة الاصفهاني ص ١٩٥ وما بعدها
مسكويه ـ ٢ ص ص ١٦٧ ، ٤٠٦
ابن الجوزي ـ ٦ ص ٣٣١ ، ٣٨٤
ابن الجوزي ـ ٧ ص ٢٧٦
ابن الجوزي ـ ٨ ص ص ٦٢ ، ٦٩ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ١٣٢
السيوطي KREMER apud
٨ ـ KREMER
٩ ـ ابن الجوزي ـ ٨ ص ٧٩

١٠ ـ ابن الجوزي ـ ٦ ص ٣١٩ وقارن ص ٣٢٦
١١ ـ مسكويه ـ ٢ ص ص ٢٩٦ ومابعدها ، ٤٠٦
ابن الجوزي ـ ٦ ص ٣١٥ ومابعدها
ابن الجوزي ـ ٨ ص ص ١١٤ ، ٢٥٢
ابن الجوزي ـ ٨ ص ١٠٥

ابن الأثير - ٨ ص ٥١٨
ابن الأثير ٩ ص ١٥٩
LE STRANGE

CAHEN
BUSSE

١٢ - مسكويه - ٢ ص ٢٠١
١٣ - ابن حوقل ص ٢١٠ ومابعدها
MANN
ابن الجوزي - ٧ ص ٢٩٠
١٤ - المصادر هي
قدامة بن جعفر ص ٢٣٩
ابن خرداذبة كما لخصه كريمر
هلال الصابي ص ١١
KREMER
ابن حوقل ص ٢٤٧
MEZ
قول المقدسي ص ١٣٣ مبني على أساس الدراهم التي لا تعرف قيمتها
١٥ -KREMER
ابن الأثير - ٩ ص ٣١٨
١٦ - المعلومات التالية مأخوذة من :
ابن خرداذبه ص ٧٣ ومابعدها ، ٩٤ ، ٩٥
ابن الفقيه ص ١٣٥ ومابعدها
KREMER
مسكويه ٢ - ص ١٧٤ ، ٢٠٦ (حيث يجب تصحيح الرقم ٦,٢ مليون إلى ١,٢ مليون) ٢٣٩
حسب أقوال ابن حوقل ص ٢١٧ بلغت واردات ديار ربيعة ١,٠٨٦,٠٠٠ دينار في عام ٩٦٩ ولكن من المؤكد أن هذا الرقم مبالغ فيه

١٧ ـ البلاذري ص ١٩٣
KREMER
ابن خرداذبة ص ٧٥ ومابعدها
اليعقوبي ص ٣٢٧ ومابعدها
KREMER
المعلومات التي يقدمها المقدسي ص ١٨٩ بدون فائدة نظراً لاقتباسها من المصـادر القديمة
LE STRANGE
KREMER - ١٨
قدامة ص ٢٤٢
ابن خرداذبة ص ص ٤٢ ومابعدها ، ٤٨
KREMER ابن حوقل ص ص ٢٥٩ ، ٣٠٤
ابن البلخي ـ وصف منطقة فارس م.ج.س.م ١٩١٢ ص ٨٨٩
التنوخي في الثقافة الاسلامية ـ ٤ (١٩٣٠) ص ٥٤٠
١٩ ـ مسكويه ـ ٢ ص ص ١٥٧ ومابعدها ، ١٨٥ ومابعدها ، ٢٦٣
ابن الجوزي ـ ٧ ص ٢٢٢
ابن الأثير ـ ٩ ص ٤١٢
٢٠ ـ مسـكويه ـ ٢ ص ص ١٤٣ ومابعدها، ١٧٠ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤٤ ، ٢٦٥ ، ٣٢١
الرذرواري (امدروز ـ مرغوليوث ـ خسوف الخلافة العباسية ـ ٣)
ص ١١ ، ٤٥ ، ٧١ ، ٢٠٢
٢١ ـ ابن العديم ـ ١ ص ١٣٨
مسكويه ـ ٢ ص ٢١٥
٢٢ ـ مسكويه ـ ٢ ص ص ٢٧٤ ، ٢٨٣
الرذرواري ص ٢٥٤
٢٣ ـ الرذرواري ص ص ٢٥٠ ومابعدها ، ٢٥٤ ، ٢٩٣
ابن الجوزي ٧ ص ١٧٢

هلال الصابي ص ٤٦٨ ، ٤٨٤

BLAKE- ٢٤

٢٥ - ابن الأثير - ٩ ص ١٥٧، ٢٣٣، ٢٧٣ ومابعدها ، ٣١٨، ٤١٢

ابن الجوزي - ٧ ص ٢٢٢

ابن الجوزي ٨ ص ٢٥

٢٦ - الرفراواري ص ١٥١ ، ٢٥٣

ابن الجوزي - ٨ ص ٣٥

ابن الأثير - ٩ ص ٢٥٧ ومابعدها

EHRENKREUTZ- ٢٧

٢٨ - التنوخي - ١ ص ٧٨

٢٩ - مسكويه - ٢ ص ص ١٥٢ ، ١٥٨ ، ١٧٣ ومابعدها ، ٢٩٤ ، ٣٠٨

ومابعدها الرفرواري ص ص ٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٨٢

ابن الأثير - ٩ ص ٢٣٣

٣٠ - الرفرواري ص ٧١

٣١ - مسكويه - ٢ ص ١٣٨ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٢ ومابعدها ، ١٦٦ ، ٢٣٦ ، ٣١١ ، ٣٢٩

الرفرواري ص ٤١

ابن الجوزي - ٨ ص ص ٥١ ، ١٠٤ ، ١١٩ ، ١٢٨

ابن الأثير ٩ ص ٢٥٤، ٢٥٧ ومابعدها

قارن BOSWORTH

٣٢ - الرفرواري ص ص ٢٨٠ ، ٣٠٠

CAHEN- ٣٣

٣٤ - مروج الذهب - ٢ ص ١١

AMEDROZ- ٣٥

٣٦ - مسكويه - ٢ ص ١٦٥

الرفرواري ص ٦٩ ، ١٧٧

ابن الجوزي - ٧ ص ٢٦٠

ابن الأثير - ٩ ص ١٣٠
ابن البلخي - وصف منطقة فارس - م.ج.س.م ١٩١٢ص ٨٨٩
٣٧ - مسكويه - ٢ ص ص ٢٩٣ ، ٢٩٤
٣٨ - مسكويه - ٢ ص ١٥٠ ، ٢٤١
الرذرواري ص ١٧٣

CAHEN

Histoire

٣٩ - انظر مسكويه - ٢ ص ٢٤٢
ابن الأثير - ٩ ص ٢٣٥
BOSWORTH - ٤٠
مسكويه - ٢ص ص ١١٤، ١٧٣ ومابعدها ، ٢٣٦ (كثير من الاقطاعيين وخصوصا القواد يحصلون على دفعات اضافية نقدية . انظر مسكويه - ٢ ص ١٧٥ ومابعدها . وبالاضافة الى ذلك يحصل الجنود على جرايات تستبدل أحيانا بدفعات نقدية . انظر الرذرواري ص ٢٨٣) .
٤١ - الرذرواري ص ٣٠ ومابعدها
٤٢ - نفس المصدر ص ٢١٣
AMEDROZ - ٤٣
مسكويه - ٢ ص ص ١٧٣ ومابعدها ، ١٧٥ ومابعدها
الرذرواري ص ص ٤٧ ومابعدها ، ٧١ ، ١٧٤
٤٤ - انظر ابن الجوزي - ٧ ص ٢٣٧ ومابعدها ،
ابن الجوزي - ٨ ص ٨٩
٤٥ - ابن الأثير - ٨ ص ٤٠٥ ومابعدها ، الثوار البروليتاريون يسمون العيارين
٤٦ - اكثر الأوصاف كمالا يقدمه ابن العديم - ١ ص ١٤٨ ومابعدها . ووصف آخر يقدمه مسكويه - ٢ ص ٢١٤ ومابعدها ثم ابن الأثير - ٨ ص ٤١٥ انظر ايضا يحيى بن سعيد (بيروت ١٩٠٦ص ص ١٢٣ومابعدها، ١٢٦ ومابعدها
CANARD
ابن كثير - البداية والنهاية - ٢ ص ٢٥٥

٤٧ ـ يحيى بن سعيد ص ص ١٢٧ ، ١٣١
٤٨ ـ الرذرواري ص ٨٣
ابن الأثير ، ٩ ص ١٤٨
٤٩ ـ ابن الجوزي ـ ٧ ص ص ٢١٩ ، ٢٣٧
ابن الأثير ، ٨ ص ٣١١
٥٠ ـ ابن الجوزي ـ ٧ ص ٢٨٧
ابن الجوزي ـ ٨ ص ص ٥٩ ومابعدها ، ٦٢ ، ٧٣ ، ٧٨ ومابعدها
مسكويه ـ ٢ ص ٩١
ابن الأثير ـ ٨ ص ٤٧٧
٥١ ـ ابن الجوزي ـ ٧ ص ص ١٧٤ ، ٢٣٧ ، ٢٥٢ ومابعدها
ابن الجوزي ـ ٨ ص ٢٢، ٥٦، ٧٥، ٧٩، ٨٢، ٨٨
٥٢ ـ ابن الجوزي ـ ٧ ص ٢٢٠
ابن الجوزي ـ ٨ ص ٨٣
التنوخي ـ احاديث ـ ١ ص ٥٣
الهمداني ـ تكملة تاريخ الطبري ـ مجلة المشرق ٥١ (١٩٥٧) ص ٤٠٨
الصولي ـ اخبار الراضي والمتقي ص ٢٦٢
٥٣ ـ ابن الأثير ـ ٨ ص ٣١١
ابن الأثير ـ ٩ ص ٢٩٨ ومابعدها
DOZY
الصولي ص ٢٤٣
ابن الجوزي ـ ٧ ص ٧٤ ومابعدها
ابن الجوزي ـ ٨ ص ٧٢
النجوم الزاهرة (طبعة القاهرة) ـ ٤ ص ١٠٧ ومابعدها
٥٤ ـ ابن الجوزي ـ ٧ ص ٧٤ ومابعدها ، ٧٨ ، ١٧٤
ابن الجوزي ـ ٨ ص ٧٦ ومابعدها
٥٥ ـ ابن الجوزي ـ ٨ ص ص ٢٤ ومابعدها ، ٤٧ ، ٥٧ ، ٨٨ (إنهم ١٠٠ من حيث المجموع مع الأكراد والبدو) ، ١٥٤

٥٦ ـ ابن الجوزي ـ ٨ ص ٤٤ ومابعدها ، ٥٤ ، ٧٥ ومابعدها ، ٨٢ ، ٩١
٥٧ ـ انظر LEWIS
قارن STERN
CAHEN
٥٨ ـ LEWIS
٥٩ ـ ابن تغري بردي ـ النجوم الزاهرة (طبعة القاهرة) ـ ٤ ص ١١٨ ، ١١٩ ،

WUSTENFELD

WUSTENFELD

BECKER

٦٠ ـ الخطط ـ ١ ص ٨٢

٦١ ـ النجوم الزاهرة ـ ٤ ص ٧١

٦٢ ـ EHRENKREUTZ

EHRENKREUTZ

وثائق الجنيز، كمبرج أ السلسلة الجديدة ج ـ ٢٧ تعود إلى سنة ١١٤٠ وانظر ASHTOR

٦٣ ـ AUBIN

LEWIS

MIELI

٦٤ ـ ابن خلكان ـ وفيات الأعيان (القاهرة ١٢٩٩) ـ ٢ ص ١٥٨

ابن الأثير ـ ٢ ص ١٨٤

سبط ابن الجوزي ـ مرآة الزمان (تحقيق جيويت) ص ٢٣٥

ـ ناصري خسرو ص ٤١ ، ١١٢ ، ١٧٧ ومابعدها ، ٢٨٥ ومابعدها ،

HEYD

LOMBARDO« ROCCA

٦٥ ـ انظر CAHEN

SCHAUBE

LOMBARDO-ROCCA
LANFRANCHI
GOITEIN
AMARI
ALLMENDINGER
BYRNE
٦٦ - ابن ابي اصيبعة - ٢ ص ٥٣ (استيراد النحاس)

STERN
BYRNE
BYRNE
LOMBARDO« ROCCA- ٦٧
BYRNE
٦٨ -T.-S18j51 وغيرها
٦٩ - - ناصري خسرو ص ص ٤١ ، ١١٢

STRAUSS
GOITEIN
GOITEIN
GOITEIN- ٧٠
GOITEIN

٧١ - ناصري خسرو ص ١٢٢
GOITEIN- ٧٢
CAHEN- ٧٣
٧٤ - انظر على سبيل المثال الادريسي وصف افريقيا واسبانيا (تحقيق ساسي/ دي غوجه - ليدن ١٨٦٦/ ص ٥٠

وصف بنية مصانع الطراز يجب قبولها مع قبضة ملح . من الخطأ ان نستنتج منها أن المصانع الملكية كانت تعمل للبلاط فقط . فوثائق الجنيزا التي تعود الى العصر الفاطمي تثبت أن لديها زبائن خاصين أيضاً GOITEIN

٧٥ ـ T.-S 12.41 وغيرها

٧٦ ـ T.-S 12.12 وغيرها

SERJENT

البـراوي ـ الظـروف التـاريخية في مصر في العصر الفاطمـي (بالعـربية ـ القاهـرة ١٩٤٨) ص ١٣٦

٧٧ ـ الخطط ـ ١ ص ١٠٤ ومابعدها

JESHO

SERJEANT

٧٨ ـ OXFORD MS

٧٩ ـ الخطط ـ ١ ص ص ٢٢٦ ، ٤٦٩

الاصطخري ص ١٩٩ ومابعدها

SERJEANT

أحسن التقاسيم ص ٢٠١

٨٠ ـ انظر MEZ

البراوي ص ١٧٨

النويري ـ نهاية الأرب ـ ٩ ص ٢٦٤ ومابعدها

WIEDEMANN

LIPMANN

حول صناعة السكر في سورية انظر النويري ص ٢٧١ وناصري خسـروص ٤٠

٨١ ـ انظر Histoire

GOITEIN

٨٢ ـ HISTOIRE

٨٣ ـ Histoire الرطل المصري يعادل ٤٥٠ غراماً .

٨٤ ـ ASHTOR

٨٥ ـ GOITEIN

٨٦ ـ CLERGET

٨٧ ـ Histoire

٨٨ ـ ابن اياس ـ ١ ٤٤

٨٩ ـ ابن القلانسي (ليدن ١٩٠٨) ص ٥٠ ومابعدها

يحيى بن سعيد ص ١٨١ ومابعدها

ابن الأثير ـ ٩ ص ٨٤

الرذرواري ص ٢٢٦

ابن خلدون ـ ٤ ص ٥٦ ومابعدها

٩٠ ـ ابن القلانسي ص ص ٥ ومابعدها ١٠٢ ، ١١ ومابعدها ، ٢١ ومابعدها ، ٢٥ ومابعدها ، ٤٩ ومابعدها ، ٥٣ ومابعدها

الرذرواري ص ٢٠٩

ابن الأثير ـ ٨ ص ص ٤٧٢ ، ٤٨٣ ومابعدها ، ١٥٢ ومابعدها .

ابن الأثير ـ ٩ ص ص ٥ ومابعدها ، ١٢

ابن خلدون ـ ٣ ص ٤٣٠

ابن خلدون ـ ٤ ص ٥٦

ابن تغري بردي ـ النجوم الزاهرة ـ ٤ ص ١١٤ ومابعدها

WUSTENFELD

٩١ ـ ابن الأثير ـ ٩ ص ٥

ابن القلانسي ص ٥٠ ومابعدها

WUSTENFELD

٩٢ ـ WUSTENFELD

٩٣ ـ ابن الأثير ـ ٩ ص ص ٨٦ ومابعدها

حول التواريخ انظر الذهبي في ابن القلانسي ص ٦٤

ابن الأثير ـ ٩ ص ٨٦ ومابعدها

ابن الأثير (٩ ص ٨٦ ومابعدها) يخلط بين ثورتين الأولى في ٩٩٧ (اعلاه) والثانية في ١٠١٠ قارن WUSTENFELD ص ١٩٦

٩٤ ـ ابن الأثير ـ ٩ ص ١٦٢ ومابعدها

WUSTENFELD

٩٥ ـ المقريزي ـ كتاب المجاعات (ترجمة فييت ـ ليدن ١٩٦٢) ص ٢٣
٩٦ ـ ابن الدوادري ـ ٦ (القاهرة ١٩٦١) ص ٤٧٦
Histoire
٩٧ ـ بشأن المصادر انظر عمر طوسون ـ مذكرات حول مالية مصر (القاهرة ١٩٢٤)
ص ٢٨
ASHTOR ـ ٩٨
٩٩ ـ الخطط ـ ١ ص ٧٢ ، ٨٢
البراوي ص ٣٢٦
١٠٠ ـ البراوي ص ٣٣٢ ومابعدها . المعلومات التي ينقلها العلامة المصري عن ابن مماتي تعود الى الفترة الأيوبية عندما انقص الخراج . انظر ادناه . وبالتالي بإمكاننا الافتراض أن العبء الضريبي كان اثقل كثيراً في عهد الفاطميين .



الفصل السادس

فرسان الاقطاع والبورجوازية

كانت خارطة الشرق الأدنى في فترة الحملات الصليبية كرقعة الشطرنج ، فتنوع الأسر المالكة ـ سواء حكمت ممالك أم إمارات صغيرة ـ مذهل جداً، ويركز كتاب الحوليات العرب أكثر من أي وقت مضى على الصراعات وتقلبات هؤلاء الأمراء ، بينما يشيرون بالكاد إلى الدور الذي شغله سكان المدن والأرياف . وبامكاننا استنتاجه من النصوص الطويلة للمؤرخين الشرقيين وهذه مهمة الدارس المعاصر ، ومثل هذا التحليل سيعدّل إلى حد ما الفكرة السائدة والقائلة بأن الغزوات المتعاقبة للهلال الخصيب على أيدي الشعوب البدوية من أواسط آسيا هي الأساس لانحطاطه ، وفضلاً عن ذلك يمكن أن يساعدنا على إيجاد الحل للمشكلة الأساسية في التاريخ الشرقي في العصور الوسطى ، وهي تحديد سبب انحطاط السلطة الاسلامية والحضارة العربية القديمة الرائعة .

أ ـ دولة السلاجقة :

حركة هجرة الأتراك واستيطانهم في الأراضي المحيطة بالهلال الخصيب وداخله هي بالتأكيد حدث رئيسي في تاريخ غرب آسيا ، ففي الموجات المتلاحقة غزت عشرات الآلاف من رجال القبائل التركية بلاد فارس ، ومن ثم العراق وآسيا الصغرى وبلاد الشام ، وهي إحدى أعظم الهجرات في التاريخ ومن بين نتائجها أنها أدت إلى إقامة دولة اسلامية جديدة هي دولة السلاجقة .

وبدأت هجرة قبائل الغُزّ إلى شرق فارس في العقد الثالث من القرن الحادي عشر ، عندما عبرت مجموعات كثيرة من هؤلاء الأتراك المحاربين نهر جيحون ، وبعد ذلك بفترة قصيرة بدأوا يغيرون على كل مناطق فارس وحتى أذربيجان في منطقة مابين النهرين العليا ، وعندما شاعت أخبار مغامراتهم في آسيا الوسطى انضمت إليهم قبائل جديدة مما أدى إلى احتلال مناطق متعددة من العراق خلال بضع سنوات ، والموجة الثانية من الهجرة التركية متصلة بظهور زعامة الأخوين

طغرل بك وجغري بك في خراسان ، وهما من أحفاد سلجوق بن دُقَاق زعيم قبيلة الكنك الغُزِّية التي عاشت حوالي نهاية القرن العاشر في منطقة جند إلى الشرق من خوارزم واعتنقت الاسلام ، وصل طغرل وجغري إلى خراسان في عام ١٠٣٥ واستوطنوا قرب نسا ومرو ، وأخفقت المفاوضات بينهم وبين السلطان مسعود الغزنوي لاستيطان القبائل التركية السلمي في شمال شرق إيران ، وتلا ذلك قتال عنيف وبدأ السلاجقة بغزو كل جزء من إيران والبلدان المجاورة ، إنها سلسلة من الانتصارات الرائعة . في عام ١٠٣٧ استولوا على مرو ، وفي عام ١٠٣٨ على نيسابور ، وسحق جيش الغزنويين الامبراطوري في عام ١٠٣٦ وفي عام ١٠٤٠ انهزم مسعود نفسه في دندانقان ، وبعد هذه المعركة استولى السلاجقة على خراسان وبعد ذلك تم غزو جرجان وطبرستان والعراق الأعلى .

ورغم تفاصيل البيانات حول حركة هذه الهجرة الكبرى ، فإن المعلومات الموجودة في المصادر العربية حول تركيب الغزاة الأتراك قليلة جداً . ويذكر كتاب الحوليات الدوغز الذين استقروا في مناطق حلوان وديار بكر والصلفار الذين عاشوا فيما بعد في فارس وأذربيجان وكردستان . كما استوطنت قبائل الايفاي في أذربيجان وأرمينيا والعراق الأعلى . كما أن الياروفيه الذين لعبوا فيما بعد دوراً كبيراً في سورية الشمالية هم إحدى هذه القبائل التركمانية ، واستقر الأفشار في آسيا الصغرى وكذلك فعل الناوكية الذين غزوا بعض أجزاء بلاد الشام [1] . ولا حاجة للقول بأن المعلومات المتوفرة حول استقرار القبائل التركية أقل من ذلك . ويصف كتاب العصور الوسطى غارات الحشود الكبيرة ولكن هناك في نفس الوقت على الأرجح تسرب بطيء ومستمر لمجموعات صغيرة .

لم تكن حملات الأخوين طغرل وجغري مجرد غزوات ، وإنما هي موجات فتح حقيقية ، وخلال بضعة سنوات غيّرت الخريطة السياسية لغرب آسيا ، في عام ١٠٤٢ - ١٠٤٣ فتحا كل ما تبقى من خراسان ثم استولى طغرل بك على معظم مناطق فارس وفي عام ١٠٤٧ جاء دور كرمان ، وفي عام ١٠٥٤ أذربيجان ، وهناك سبب وجيه للاعتقاد أن نجاحات السلاجقة العظيمة تعود جزئياً إلى الموقف المؤيد بل وحتى المساعدة الفعالة لفقهاء السنة والمؤيدين الأقوياء الآخرين للاسلام السني ، فمنذ بداية بروز السلاجقة ظهروا كمؤيدين للسنة والخلافة العباسية التي

لم يكن بمقدورها منافسة قوة حركة الشيعة والاسماعيلية ، وعندما دخل طغرل بك بغداد في عام ١٠٥٥ أظهر الخليفة - المتحرر من حماية البويهيين الشيعة - ارتياحاً واعترف به رسمياً حاكماً دنيوياً لكل الأقطار الاسلامية ، وهذا العمل الجليل ذو أهمية تاريخية عظيمة : ولقد أقام حلفا بين الخليفة العربي والسلطان التركي الذي مثّل طبقتين : -الفقهاء المحليين والضباط الأتراك ، وقامت الدولة السلجوقية التي بدأت عام ١٠٥٥ على التعاون بين هاتين الطبقتين كما هي حال كل الدول الاسلامية التي لحقتها في الشرق الأوسط .

وإقامة الحكم السلجوقي هو النجاح الأخير للجيش التركي في الصراع على السلطة في الشرق الأدنى . وأصبحت جيوش السلاجقة الأوائل أعظم من جيوش سابقيهم إذبلغ عددجيشهم الدائم ٤٠,٠٠٠ رجل بينما تكاثرت القوات المجتمعة للحملات إلى أكثر من ١٠٠,٠٠٠ رجل معظمهم من الأتراك ، ولابد أن ضباطهم كانوا على جانب كبير من الكفاءة ، وهكذا شكل حكم السلاجقة الأوائل سلسلة من الانجازات العسكرية العظيمة ، وبعد وفاة طغرل بك في عام ١٠٦٣ أصبح ابن أخيه ألب أرسلان السلطان الأعظم وفي عهده بدأ غزو بلاد الشام وأرمينيا وآسيا الصغرى . في عام ١٠٧١ حقق ألب أرسلان انتصاراً عظيماً على البيزنطيين في معركة مناكرد ، وأسر الامبراطور البيزنطي . وكانت هذه المعركة بداية الحكم التركي في آسيا الصغرى ، وفي الحقيقة تمكن الأتراك من تلك البلاد التي عرفت منذ ذلك اليوم بتركيا ، وكان حكم ملكشاه بن ألب أرسلان وخليفته (١٠٧٢ - ١٠٩٢) قمة السلطة السلجوقية ، وبينما قام ملكشاه بحملات كبيرة في بلاد ما وراء النهر ، حقق الاستيلاء على بلدان الشرق الأدنى تقدماً كبيراً ، في عام ١٠٧٦ استولى السلاجقة على دمشق ، وفي عام ١٠٨٢ استولوا على حلب التي ألحقت نهائياً بالامبراطورية في عام ١٠٨٥ ، وفي آسيا الصغرى سقطت بين أيديهم مقاطعة إثر مقاطعة ، وفي عام ١٠٨٩ اعترف بسلطانهم جنوب الجزيرة العربية ، وهكذا امتدت الامبراطورية السلجوقية عند موت ملكشاه من جوار القسطنطينية إلى حدود الصين ، ومن عدن إلى نهر سيحون ، ولم تكن هذه الانتصارات العظيمة فقط إنجازات الجيش وقواده ، لقد أمكن تحقيقها إلى حد كبير بفضل الادارة القديرة التي أقامها الوزير الفارسي العظيم نظام الملك ، ويبدو أن سلاطين السلاجقة الأوائل وصلت إلى

أيديهم إيرادات كبيرة ، فأنفقوا مبالغ كبيرة منها نقداً [٢] ، ولكن امبراطوريتهم من ناحية أخرى بقيت الحاداً ضعيفاً أو ممالك شبه مستقلة وقبائل مشتقلة ، وفي بعض مناطق الشرق الأوسط ترك السلاجقة الأمراء الحاكمين في مناصبهم كأتباع لهم مثل المزيديين في جنوب العراق وبعض فروع العقيليين في العراق الأعلى . وفي بعض المناطق نصّب القواد الذين استولوا عليها أنفسهم كأمراء مستقلين عملياً ، وفي النهاية كان هناك صراع مستمر داخل الأسرة المالكة التي تنافس أفرادها على العرش ، وهكذا فإن هذه الدولة القوية حملت في داخلها بذور التفكك .

وبعد وفاة ملكشاه مباشرة بدأت سلسلة طويلة من الحروب والثورات أدت إلى تفكك الامبراطورية ، ولدى قراءة قصة هذه الحروب في الفصول الطويلة كانت مطامح الأمراء والقواد الشخصية القوة الدافعة لتفكك الدولة السلجوقية وكانت كذلك بالفعل ، وشعر كل أمراء الأسر المالكية بأحقيتهم في العرش كما نجح الكثير من القواد باقتطاع إمارات لهم ، فالثورة وإقامة الامارات الجديدة سهلة نسبياً في هذه الفترة ، لأن الهجرة التركية زودت أقطار آسيا الغربية بأعداد كبيرة من الشبان المحاربين الذين انضموا إلى جيوش من يدفع لهم ، كما أن أسواق العبيد امتلأت أيضاً ، والدليل على ذلك موجود في وصف الحوليات العربية للجيوش التي تزايد عددها كثيراً خلال فترة قصيرة جداً [٣] ، وكان باستطاعة الأمراء الأتراك تجنيد المرتزقة وشراء الجند العبيد ، ولم يتورعوا عن انتزاع مبالغ كبيرة من المال من رعاياهم ، ولكن علينا ألا نغفل الدور الذي شغلته البورجوازية في كثير من الثورات ، ومن المرجح أن البورجوازية الكبيرة فضلت حكم الأمراء الضعفاء الذين يسيطرون على منطقة صغيرة ، ويتمتعون بموارد محدودة ، لأنهم اعتقدوا بحق أن هؤلاء الحكام الصغار سيلجأون للتعاون معهم ، وسيعتمدون على حسن نواياهم ، وبالتالي سيرعون مصالحهم .

وتبع بعد وقت قصير انهيار الدولة السلجوقية في أيام أبناء ملكشاه ، وقد برز ابنه محمد من حروب الخلافة أقوى الأمراء وأقدرهم ، ولكن الدولة انهارت بعد وفاته في عام ١١١٨ ، فخلفاء محمد الذي كانت عاصمته في همذان حكم العراق وفارس الغربية حتى عام ١١٩٤ وانقرضت العائلات المالكة السلجوقية في بلاد الشام في بداية القرن الثاني عشر رغم أن سنجر أخو محمد وأمير خراسان احتفظ

بسيادة السلطان الأعظم حتى مات في عام ١١٥٧ ، والأسرة السلجوقية في كرمان حكمت حتى نهاية القرن الثاني عشر وحكمت الأسرة المالكة في آسيا الصغرى مائة عام بعد ذلك .

والأمراء السلاجقة اللاحقون أمراء أصحاب موارد متواضعة : فالجيوش التي جمعوها لم تزد في العادة عن ١٠٠٠٠ ـ ١٥٠٠٠ فارس [٤] ، وبالتالي اضطروا للسكوت عن إقامة إمارات جديدة ظهرت في كل أنحاء الهلال الخصيب والبلدان المجاورة . وحكم الأمراء الأكراد مناطق شرق العراق وحكم الآراتقة الأتراك ديار بكر وحكم بنو منقذ العرب شيزر في شمال سورية ، وأقوى هؤلاء الأمراء هم الأتابكة وهم الحكام الذين تم تعيينهم عادة كمعلمين للأمراء الصغار ، والذين في العادة حلّوا محلهم ، وإحدى الأسر المالكة من الأتابكة هي التي أسسها زنكي الذي حكم العراق الأعلى ، وشمال سورية منذ عام ١١٢٧ وحتى ١١٤٦ .

ورغم تفكك الدولة السلجوقية استمرت الهجرات التركية ، في النصف الأول من القرن الثاني عشر . استوطنت عشائر تركمانية كثيرة في سورية ، وعاشت قرب حلب وعيتاب وفي سهل العمق قرب أنطاكية ، وفي حارم وطرابلس ، وأماكن أخرى على حدود الامارات الصليبية . وأثناء انتشار السلام عاشت هذه القبائل من تربية الأغنام ، وعندما بدأ الأمراء الاستعداد للنشاطات العسكرية أمدتهم هذه القبائل بالقوة البشرية الضرورية [٥] ، وفي نهاية القرن الثاني عشر بدأت هجرة قوية من التركمان إلى آسيا الصغرى وقدم بعض عناصرها من العراق الأعلى ، في هذه الفترة أصبحت بعض مناطق من آسيا الصغرى تركية مثل كبادوكيا .

والنتيجة الرئيسية الأخرى للانتصارات التركية هي تدعيم الاقطاع الشرقي ، وإن وزير السلاجقة العظيم نظام الملك هو الذي أعطى النظام شكله النهائي ، وأقامه في مناطق لم يوجد فيها من قبل . ولكن أخبار إدارة نظام الملك في الحوليات الشرقية ليس واضحاً بينما تمثل القواعد التي وصفها في كتاب السياسة (سياسة نامة) برنامجاً محدداً . وعلى أية حال من المرجح جداً إنه أنجز دمج الاقطاع ـ تحديد إيرادات بعض الضياع ـ مع إدارة نفس المنطقة وهذه بالتأكيد الخطوة النهائية نحو إقامة النظام الاقطاعي . ولكن لم تصبح كل الاقطاعات وحدات إدارية ،

وخصص نظام الملك للفرسان من الرتب الدنيا الاقطاعات المؤلفة من الضياع في مناطق مختلفة . وبالاضافة إلى ذلك لم تتخل الحكومة عن إشراف الادارة على الاقطاعات ، ولكن الاقطاعات الكبيرة منحت مقابل التعهد بتقديم عدد معين من الفرسان ، (٦) وبسبب هذه الخصائص المختلفة فمن غير المدهش أن يعبر العلماء عن آراء متناقضة حول طبيعة الاقطاع الشرقي - بعضهم يشبّهه بالاقطاع الغربي والآخرون يتجنبون بحذر تسميته بنفس الاسم ، ولكن من المؤكد أن علينا التمييز بين أنواع مختلفة من الاقطاع الشرقي بعضها قريب من الاقطاع الغربي وبعضها يختلف عنه .

وهناك ظاهرتان تميزان النظام الاقطاعي في بعض عصور التاريخ الشرقي عن نظيره الأوروبي : فالاقطاعات ليست وراثية ، وليس هناك هرم إقطاعي . يسجل نظام الملك في كتابه(سياسة نامة) أن الاقطاعات يجب أن تبدل كل سنتين أو ثلاث سنوات «حتى لا يتمكن الاقطاعيون من الاستقرار ويبلؤ ون بإثارة الشغب» . فالمبدأ الأساسي في الاقطاع الشرقي هو أن الأرض المقطعة ليست سوى حق بدخل معين ويجب الحؤ ول دون تحوّلها إلى ضيعة موروثة بكل الوسائل الممكنة . ولا حاجة للقول بأن هذا النظام أثبت أنه شؤم على الاقتصاد الشرقي . لم تكن للاقطاعيين مصلحة في الحفاظ على ضياعهم وازدهارها . ولكن الاتجاه الآخر - تحويل الاقطاعات إلى وراثية - كان الأقوى في بعض الفترات ، وبالرغم من توصيات نظام الملك فإن الاقطاعات الكبيرة أصبحت وراثية في الدولة السلجوقية والدول التي أتت بعدها . وهذا يعلل بعض نصوص المؤلفين العرب الذين يقولون أن النظام الذي أوجده نظام الملك جلب الازدهار للزراعة ، فالضياع التي أهملت لفترةطويلةأصبح مردودها جيداً لأن الاقطاعيين اتخذوا الاجراءات المناسبةلتحسين الزراعة ، وبالاضافة إلى ذلك يبدو من النصوص المختلفة نتبين أن العلاقات بين الاقطاعيين وأتباعهم من جهة وبينهم، وبين السلطان من جهة أخرى في الدولة السلجوقية تشبه إلى حد كبير الهرم الاقطاعي في أوروبا في العصور الوسطى ، فأمراء الاقطاع الكبار منحوا إقطاعات لفرسانهم الذين يدينون لهم بالولاء ، ورغم أن حقوق وواجبات الاقطاعيين محددة بوضوح في النظام الاقطاعي فلقد أصبحوا وسطاء بين السلطان والاقطاعيين الصغار ، وفي عهود الأمراء الضعفاء أصبح الاقطاعيون الكبار شبه مستقلين (٧) .

ولقد أدى تدعيم النظام الاقطاعي في عهد السلاجقة الأوائل إلى نتائج بعيدة الأثر ، ورغم أنه لم يتم توزيع كل ضياع الخراج على قواد الجيش وبقيت ضياع كثيرة ملكية حرة ، واستمر متعهدو الضرائب مناطق كثيرة ، فإن الحكومة تخلت عن جزء كبير من إيراداتها مما زاد في متاعبها المالية واضطرت للجوء إلى أنواع مختلفة من الابتزاز ، وأصبح أمراء الاقطاع الذين تسلطوا على أتباعهم طبقة غنية وقوية . ولم يكتفوا بإيرادات ضياعهم والضرائب المختلفة ، بل اشتغلوا بالصناعة والتجارة ، واحتكروها . يسرد مؤرخ غربي أن طفتكين أمير اليمن جعل تجارة الهند حكراً للدولة ، واستمر وضع الفلاحين بالتردي المتزايد ، وأدرك نظام الملك ذلك ، إذ يعترف في كتابه (سياسة نامة) أن الفلاحين قد أصابهم الدمار والتشتت بعد أن أفقرتهم الضرائب الباهظة والابتزاز[٨] ، وليس هناك سبب يدعونا للشك في صحة أقواله .

ب ـ الطبقات المدنية في عهد السلاجقة :

ليس هناك أي شك في أن نظام السلاجقة الاقطاعي زاد الفرق بين الطبقات البورجوازية ، ففي كل مكان من أراضي الهلال الخصيب تواجدت طبقة صغيرة من التجار والمصرفيين الأغنياء الذين أصبحوا وكلاء الوزراء ، وقدموا لهم خدمات مختلفة ، فمتعهد ضرائب البصرة اليهودي ابن علاّن المعروف بثرواته الضخمة ، قدم لنظام الملك قرضاً قدره ١٠٠,٠٠٠ دينار . كما أن ابن سعد ابن سمحا اليهودي أيضاً قام لبعض الوقت بوظيفة صيرفي نظام الملك وأصبح مستشاره المالي ، وكذلك قام «الريّس» أبو طاهر ابن الأسبقي بنفس الدور لدى منافسه تاج الملك ، ولم يكن باستطاعة الوزراء وحكام المناطق تدبر الأمور بدون مثل هؤلاء الممولين لأنهم لجأوا لطلب مساعدتهم في كل مكان ، ولكن كتاب الحوليات العرب لا يذكرونهم إلا عرضياً . نقرأ ـ على سبيل المثال ـ في حوليات ابن الأثير العظيمة أن أبا طالب ابن كسيرات المتوفى عام ١١٠٧ هو المستشار المالي لجكرمش حاكم الموصل ، ولاينسى الكاتب العربي التأكيد على أن أبا طالب ـ الرجل الغني ـ ينتمي إلى عائلة ذات نفوذ لا تزال تحتل مركزاً بارزاً في أيامه[٩] . ومن المؤكد أننا لسنا مخطئين في الافتراض أن هؤلاء الممولين يمثلون غالباً مجموعات من الصيارفة والتجار الذين شاركوهم نشاطاتهم ، ومن جهة أخرى، قدمت حروب السلاجقة الأوائل لهؤلاء الممولين

فرصاً لم تعرف أثناء حكم سابقيهم ، فحروب طغرل بك وألب أرسلان وملكشاه هي في الحقيقة حملات واسعة على نطاق كبير ولايمكن مقارنة كميات المؤ ن اللازمة لها بمتطلبات حروب البويهيين ، وبالتالي ليس هناك أي شك في أن طبقة من المقاولين اغتنت إلى حد بعيد في النصف الثاني من القرن الحادي عشر .

ولكن من خلال التقدير الدقيق للامكانيات المتاحة للبورجوازية الغنية في تلك الفترة يستنتج المرء أنها أكثر محدودية من فرص الفتهرات السابقة ، وعندما أصبح اقطاع الخراج للعسكريين الطريقة المعتادة للدفع أصبح ضمان الخراج أكثر محدودية من السابق ، وبالاضافة إلى ذلك يبدو أن الحكومة الاقطاعية قامت بمحاولات جديدة للحد من حرية المشاريع الصناعية ، فأصبح انتاج أنواع الحرير الثمينة مثل السقلاطون من جديد احتكاراً ألغي في عام ١١١٨ ، ولكنه أعيد من جديد بعد ثلاث سنوات ، ورغم أن هذا الاحتكار كان من الناحية العملية نوعاً من الضريبة فهو عبء ثقيل على المنتجين [١٠] ، ومن الجهة الأخرى فإن من المرجح أن الصيرفة تدهورت بسبب نقص الأموال الفضية ، وهي ظاهرة بقيت خاصة مميزة لاقتصاديات الشرق الأوسط خلال القرن الثاني عشر وبالتالي قلّت الحاجة لتمويل الأموال ، وقلّت إمكانية المضاربة في تبدل أسعار التحويل . والافتراض بأن الأعمال التجارية الواسعة النطاق في العصر السلجوقي أصبحت أكثر محدودية عما قبل تؤيده سجلات الغرامات التي فرضتها الحكومة من وقت لآخر على كبار الأعيان . فالمبالغ أقل من المصادرات التي تم تحصيلها من الوزراء وكبار الموظفين في القرن العاشر . وبلغت مثل هذه الغرامة أو المبلغ المصادر من المواريث ٣٠٠٠٠ - ٤٠٠٠٠ دينار وقلما تجاوزت ١٠٠٠٠٠ دينار [١١] .

وإن تدهور الوضع الاقتصادي للبرجوازية الصغيرة والمتوسطة هو بالتأكيد إحدى النتائج الملموسة للنظام الاقطاعي السلجوقي ، وكثير من نصوص الحوليات تشير إلى ذلك . وإحدى الطرق التي استخدمتها الحكومة للحصول على المال عندما تخلّت عن إيرادات الخراج (أو بالأحرى قدمتها للعسكريين) هي فرض ضرائب جديدة جمعتها من الفروع المختلفة للصناعة والتجارة أو زيادة الضرائب القديمة .

ولما كانت الضرائب المسماة المكوس التي لم ينص عليها القرآن تعتبر لا شرعية من قبل الفقهاء المسلمين فإن الكثير من الأمراء ألغوهـا في بعض المناسبـات وتـم معظمها بمناسبة اعتلائهم العرش . ولكنها أعيدت فيما بعد وهي حقيقة تشير إليها كتابات مؤلفي الحوليات الذين يذكرون إلغاءها مرات عديدة ، ولاشـك أن هذه الضرائب قلّلت إلى حد كبير أرباح صغـار التجـار والصنـاع . وجلـب الغاؤهـا الخلاص المؤقت لهم .

وفي عام ١٠٨٧ ألغى ملكشاه كل المكوس ورسوم الطرق والجسور والرسوم الأخرى في العراق وخراسان وكل مناطق امبراطوريته الأخرى والتي بلغت إيراداتها ٦٠٠٠٠٠ دينار في السنة . كما أن الخليفة الذي تقاسم مع السلطان الحكومـة في بغداد انضم إليه في الإعلان أن المكوس يجب ألا تجبى بعد ذلك ، ولكن يبدو أنها أعيدت بعد فترة قصيرة لأننا نقرأ في إحدى الحوليات أن السلطان محمد اتخذ نفس الاجراءات من جديد في عام ١١٠٨ . أعلن الغاء المكوس والرسوم في كل انحاء مملكته . وكل هذه الاعلانات هي مجرد مهزلة ، فالسلطات ظلمت الشعب بنفس القسوة السابقة بضرائبها الباهظة ويشهد على ذلك سلسلة طويلة من فرض المكوس اللاحقة وإلغاءاتها : فحسب شهـادة كتـاب الحوليات أعيد فرضهـا ثانية في عام ١١٢٠ من قبل السلطان محمود ، وفي عام ١١٢١ عندما دفع الوسطاء مبلغاً كبيراً بدلاً من رسم الوساطة بلغت ٢/٣ أرباحهم ، ولكنها ألغيت من جديد بعد عدة أشهر . وما لبثت أن اعيدت من جديد ثم ألغيت في عام ١١٣٨ وفي عام ١١٤٧ اضطر أحد الخطباء لحث السلطان في خطبته على إلغاء الضرائب التجارية الباهظة ، ولدى اعتلائه العرش في عام ١١٦٠ ألغى الخليفة المستنجد الرسوم على بيع الحيول والجمال والأغنام والأسماك والجلود والسلع الأخـرى . وبعـد ذلك بفتـرة قصـيرة فرضت من جديد لأن نقرأ أن خليفته اضطر لالغائها عند اعتلائه العـرش في عام ١١٧٠ . وتشير معظم هذه البيانات إلى المكوس في بغداد ، ولكن بعضها يشير إلى الضرائب في كل انحاء الامبراطورية ، ولكن هناك ضرائب محلية جرى إلغاؤهـا وإعادة فرضها على فترات في عام ١١٠٢ في البصرة وفي عام ١١٧٠ وعام ١١٧١ في الموصل . وألغى نور الدين (١١٤٦ ـ ١١٧٣) ملك العراق الأعلى وشمال سورية التقي كل الضرائب في دولته رغم أن بعضها وصل إلى مقدار مبلغ العشر [١٢] ، وإن

العدد الكبير من النصوص الـذي يشـير إلى المكوس يشهـد على أهميتهـا في حياة البورجوازية الصغيرة . ومن المرجح أنها كانت في هذه الفترة أثقـل من الفتـرات السـابقة .

وإلى جانب المكوس عانى التجار والصناع بشـدة من الابتـزازات الأخـرى والنهب اللاحق على يد الجيش التركي ، فجيوش الأمراء السلاجقة المتحاربـة ، وبدو الحكام المزيديين في جنوب العراق وحتى أتباع الحكام السلاجقة نهبـوا المدن ولاحاجة للقول بأن قوة العسكريين غالباً ما كانت مدمـرة ، فالنصـوص الكثيـرة حيث يتحدث كتاب الحوليات عن طغيان وقسوة الأمراء الأتراك لا تدع مجالاً للشك في الوضع المذري لسكان المدن الشرقية في العصر السلجوقي ، ومن المؤكد وجود تدهور عام في الازدهار .

ونتيجة سوء الحكومة والفقر كانت تناقص السكان ، والبيانـات الكثيـرة في النصوص العربية تجعل من المرجح جداً زيادة التناقص الديمغرافي في هذه الفترة عن سابقتها . ولـم يكن حتـى انحـداراً منتـظماً لكنـه اختلف في الفتـرات والمناطـق المختلفة . فغزوات الغُزّ وحروب التوسع السلجوقية جلبت الدمار على الكثير من مناطـق فارس والهـلال الخصيب ، إنهـا في كل مكان فتـرة من القلاقـل والحـرب الدائمة . يقول المؤلفون العرب أن سكان دمشق في عام ١٠٧٦ تناقصوا من نصف مليون إلى ٣,٠٠٠ ، ومن المؤكد أن هذه الأرقام مبالغ فيها كثيراً ولكنهـا توحـي بالكثير ، كما أن حكم السلاجقة الأوائل ـ ألب أرسلان وملكشاه ـ لم يجلب أي خلاص ، وبناء القصور على يد الحكام الجدد لم يتعادل مع دمار المناطق السكنية ، وفي النصف الأول من القـرن الثاني عشر ساءت الأحـوال كثيراً وعـاد تنـاقص السكان ، فالدسكرة إلى الشرق من بغداد التي كانت في السابـق مدينـة مزدهـرة أصبحت في هذه الفترة مجرد قرية ، وبيانات الكتاب العرب بليغة جداً ، إنها تسرد كيف هجر السكان مدنهم بسبب طغيان الحكام وكيف حل الخراب في مدن العراق الأعلى وشمال سورية وتناقص سكانها قبل حكم زنكي ، ولابد أن تناقص سكان مدن شمال سورية في بداية القرن الثاني عشر كبير . وبسبب الخطر الداهم لاحتلال الافرنج وغارات الجيوش المتحاربة المتكررة غادر الكثير من السكان مدنهم وقراهم التي بقيت في أيدي المسلمين ، ويبدو أنه لـم يبـقَ في مدينـة حلـب سوى بضعـة

آلاف ، وأدرك الأمراء أنفسهم هذه الحقائق . اتهم سنجر آخر السلاجقة العظام أمير فارس والعراق السلجوقي مسعود بتدمير بلاده ، كما أن بعض الأمراء اتخذوا الاجراءات لوقف تناقص السكان ، فأمير حلب رضوان باع مناطق غير مأهولة بأسعار منخفضة حتى يبني الناس مساكن فيها ويبقوا في المدينة (١٣) .

والمعلومات الوفيرة التي يقدمها كتاب الحوليات العرب تمكننا من إدراك العوامل المختلفة التي سببت تناقص السكان ودمار المدن ، كما أن الكثير من الدمار سببته الزلازل التي حدثت في أراضي الهلال الخصيب في تلك الفترة . ويبدو أن الطبيعة تعاونت مع الانسان في جلب الدمار . حدثت الزلازل في العراق في الأعوام ١١١٨ ، ١١٣٥ ، ١١٣٧ ، ١١٤٣ ، ١١٥٠ ، ١١٥٦ ، ١١٧٨ ، ١١٩٤، ١٢٠١، و ١٢٠٤ كما حدثت في سورية في ١٠٩٤ ، ١١١٤ ، ١١٣٧ ، ١١٥٧ ، ١١٧٠ ، ١٢٠١ و ١٢٠٤ وأدى بعض هذه الزلازل إلى وفاة الآلاف من السكان . في نهاية القرن الحادي عشر ، وفي بداية القرن الثاني عشر حدثت المجاعات في العراق في عامي ١٠٩٩و١١٠٨ كماحدثت مجاعات أخرى في الأعوام ١١١٨ ، ١١٢٤ ، ١١٤٨ ، و ١١٩٤ ، ولكن السبب الرئيسي لدمار المدن وتناقص السكان هو سوء ادارة الحكومة وإهمال الخدمات العامة مثل إطفاء الحرائق ومد مياه الشرب والنظافة ، وكانت النتائج سيئة جداً . تذكر حوليات هذه الفترة عدداً كبيراً من الحرائق التي دمرت بغداد ولاشك أن الشيء نفسه حدث في المدن الأخرى .

ولكن الجائحات والأمراض المستوطنة التي انتشرت أكثر من السابق هي أكبر أسباب تناقص السكان ، وإن بيانات الحوليات غالباً ماتكون غامضة ولا تقدم إلا التفاصيل القليلة عن المرض ولكن بالامكان استخلاص بعض النتائج منها .

ويبدو أنه لم تظهر جائحات من الطاعون الدمّلي أو على الأقل لا تذكر ذلك بيانات المؤرخين العرب ، فالطاعون الدملي هو الذي يسمى في اللغة العربية الطاعون ، بينما يعني الوباء أية جائحة ، ولكن كتاب الحوليات في هذه الفترة يذكرون ظهور الطاعون ويقولون أن السكان عانوا من الأمراض الأخرى ، وبالتالي لابد من الاستنتاج أن معظم الجائحات لم تكن طاعوناً رغم إمكانية كون

بعضها كذلك . من المرجح أن المؤلفين العرب الذين يتحدثون عن الطاعون دون ذكر الدمامل ربما يعنون الطاعون الرئوي أو أمراضاً أخرى لأنهم على مايبدو يميلون إلى ذكر أورام والتهابات كثيرة مثل التهاب السحايا في الأوبئة ، ويذكر بعض الأطباء العرب في الحقيقة أن هناك أنواعاً مختلفة من الطاعون ، كما أن من المعروف في علم الأوبئة أن الجائحة غالباً ما تبدأ بأمراض بسيطة نسبياً وفي قمة الجائحة يظهر طاعون فعلي يتبعه في النهاية أمراض قابلة للشفاء ، ولكنها طويلة الأجل (١٤) .

وغالباً ما تأتي الجائحات في إثر المجاعات ، ففي عام ١٠٥٦ - ١٠٥٧ حدثت مجاعة وجائحة خطيرة في العراق وسورية ومصر ، وفي عام ١٠٧٥ - ١٠٧٦ حدث فيضان كبير في جنوب العراق تبعته جائحة وفي السنة التالية انتشر الوباء في سورية ، وفي نهاية القرن الحادي عشر حلت بالعراق سلسلة من الأوبئة ، وفي رواية ابن تعزي بردي حدثت جائحة طاعون في عام ١٠٨٢ ، وفي عام ١٠٨٥ انتشر في بغداد والمناطق المجاورة مرض الصفراء الذي يسبب الرجفة والسقوط على الوجه ، وتصلب الرقبة ، وذات الجنب والصداع ، وقال الأطباء - حسب رواية كتاب الحوليات العرب - أنهم لم يسمعوا قط بهذا المرض (على اعتبار أن كل هذه الأعراض مردها إلى مرض واحد) . يتألم المريض ٥-٦ أيام وبعدها يموت - ومات كل السكان في أحد أحياء بغداد ، وفي قرى بكاملها لم يبقَ منها أحد من سكانها . هذه الجائحة - المسماة بالطاعون - انتشرت أيضاً في خراسان وسورية والحجاز ، وفي نفس الوقت انتشرت أمراض أخرى مثل الجدري الذي يصيب الأطفال والعاذور والأورام وأمراض الكبد والموت المفاجيء ، وفي عام ١٠٨٦ سجل المؤرخون ثانية انتشار الطاعون ولكن مؤلفاً معاصراً تقريباً يقول أنه حمى الربع التي تنتهي إلى الموت ، ولكن الحمى المتقطعة تظهر أحياناً في أول الطاعون ، وهناك جائحات أخرى في عام ١٠٩٧ حدثت في شمال سورية ، وفي عام ١١٠٠ في العراق وفي إثر مجاعة في عام ١١٠٥ حين انتشر الجدري أيضاً في كل مناطق العراق والبلدان الأخرى ، وفي عام ١١٢٤ ثانية بعد مجاعة في بغداد وبلاد مابين النهرين السفلى وفي عام ١١٣٧ في بغداد ، وفي عام ١١٤٢ في سورية الوسطى وفي عام ١١٤٦ - ١١٤٧ في بغداد عندما أصيب الناس بورم في الحنجرة وكثرت الضحايا بحيث تم رمي الجثث العديدة في الأقنية ، وفي عام ١١٤٩ انتشرت في بغداد ذات الجنب وذات

السحايا (المرسام) القاتلة في العادة ، وفي عام ١١٠٥ يسجل ابن الأثير ثانية انتشار «أمراض كثيرة» وفي عام ١١٥٧ انتشرت أمراض مختلفة في بغداد كنتيجة للحصار وانتشر الجدري بين الأطفال ، وظهر الطاعون ثانية في عام ١١٦٣ في العراق وسورية بينما أودى وباء التهاب السحايا في عام ١١٧٩ بحياة الكثيرين في سورية والعراق وما بين النهرين[١٥] .

والأقوال التي استشهدنا بها لا تترك مجالاً للشك أن هذه الجائحات كانت أشد خطراً وأكثر تكراراً أيام السلاجقة عما سبقهم ، ومن المرجح أن إهمال أقنية المياه وقنوات الري التي أصبحت مرتعاً للجراثيم الحاملة للأمراض والأوساخ العامة كانت من الأسباب الرئيسية لسوء الصحة العامة . ففي كل الأوقات أتت الجائحات في أعقاب المجاعات والحروب ، وفي هذه الفترة أتت بتواتر أكبر ، كما أن سوء التغذية كان بالتأكيد عاملاً هاماً وخصوصاً من الممكن عدم التوازن بين كميات السكر الكبيرة التي حصلت عليها حتى الطبقات الدنيا من التمر ، وكميات البروتين القليلة التي حصلت عليها من كميات اللحوم القليلة المتوفرة ، ولربما أضعفت قلة بروتينات الدم مقاومة الأجسام ، وخصوصاً بين الأطفال ، وبحساب كميات الخبز واللحم التي استطاع صغار المأجورين ابتياعها بأجورهم الشهرية في تلك الفترة نتوصل إلى النتائج التالية : [١٦]

الزمن	الأجر الشهري	نسبة الخبز	نسبة اللحوم	النفقات الأخرى
القرن الحادي عشر	١,٢ دينار	٦٠ كغ/٠,٥ دينار	٨ كغ/٠,٣٦٨ دينار	٠,٣٣ دينار
القرن الثاني عشر	٢ دينار	٩٠ كغ/٠,٨٥٥ دينار	١٥ كغ/٠,٦٦ دينار	٠,٤٨٥ دينار

وإذا كان على مثل هذا العامل أن يعيل امرأة وثلاثة أولاد فبإمكانهم يومياً أن يحصلوا على مايلي :

	حريرات	بروتينات	كاربوهيدرات	دسم
القرن الحادي عشر	١٠٨٧	٤١	١٩٦	١٤,٨٧
القرن الثالث عشر	١٦٨٢	٦٥	٢٩٤	٢٦,٢

فنقص التغـذية (اقـل من الفـين حريرة) وفقـدان التـوازن بـين الكاربـوهيدرات والبروتينات جعل الناس على الارجح فريسة سهلة للجائحات ، ولكن من المرجح جداً ان الجائحات الفتاكة نفسها كانت امراضاً مستوطنة . واليها على ما يبدو يشير كتاب الحوليات عندما يقولون ان «امراضاً كثيرة انتشرت» في سنة معينة .

وتناقص السكان لم يكن فقط كمياً ، بل كان مزيفاً دائماً في الحقيقة جلب التدمير الذاتي للطبقة الحاكمة . ولـدى قراءة المصـادر العـربية بعنـاية يدرك المرء النتائج المدمرة لإدمـان الخمـور في صفـوف العسـاكر التـركية . فهنـاك نصـوص لا تحصى تعالج موضوع السكر المفرط لدى الامراء وحاشيتهم ، تطالعنا المرة تلـو المرة ان اميراً مات من الافراط في الشراب او قتل اثناء سكرته .

فالامـير الـذي يمتنـع عن الشراب يعتبـر شاذاً . واحيانـاً سكرت جيوش بكاملها[١٧] . من المؤكد ان بعض الخلفاء والحكام المسلمـين الآخـرين السابقـين تعاطوا المسكرات ايضاً ، ولكنها اصبحت ظاهرة عامة في هذه الفترة تفشت بـين الطبقات العليا وطبقة النخبة ايضاً . ومما لا شك فيه ان الاتراك جلبوا عادة الشرب من اوطانهم في المناطق الباردة في اواسط آسيا . واحدى النتائج لها على الارجح هي قلة الانجاب الى حد ما .

يبدو ان اختفاء الاتراك ـ الكثير في وقـت من الاوقـات في مناطـق الهـلال الخصيب ـ يبرهن على ان فرضية التدمير الذاتي ليست مجرد افتـراض ، والـدليل الواضح في الاتجاه العـام لتناقص السكان . فكتابـات المؤلفـين العـرب والرحالـة والجغرافيين يمكـن الاستشهاد بها . فهي تتحدث المرة تلـو الاخـرى عن المدن في العراق وما بين النهرين التي خربت بكاملها . يقول الاندلسي ابن جبير ـ الـذي تجول في العراق في عام ١١٨٤ ـ ان الجزء الاعظم من بغداد الغربية والكوفة وسامراء كان مهجوراً . ويشير ياقوت ـ الذي كتب في العقد الثالث من القرن الثالث عشر ـ من تدهور بغداد الشرقية حيث اختفت فيها تماماً احياء بكاملها . كما تحولت في ايامه كل من قصر ابن هبيرة في جنوب العراق وجرجرائية والجبول على دجلة وكفر توثا وبرقعيد في منطقة ما بين النهرين العليا الى قرى بينما كانت في السابق مدناً عامرة بالسكان . كما ان كاتباً عربياً كان في خدمة امير سوريا الشمالية وما بين النهرين ذهب في عام ١٢٤٠ ـ ١٢٤١ في جولة تفتيشية في بعض مناطق ما بين النهرين فقال

ان ٢٠٠ من اصل ٨٠٠ قرية في منطقة حران هجرت تماماً[١٨] .

ان تدهور اسعار الحبوب البطيء والمستمر هو بالتاكيد دليل مقنع آخر على هذه الظاهرة . فمتوسط سعر الكر الواحد ـ هو مكيال الحبوب المعتاد في العراق ويزن ٢٩٢٥ كغ ـ في القرن الحادي عشر على ما يبدو ٢٢ ديناراً وفي القرن الثاني عشر ١٨ ـ ٢٠ ديناراً ، وثمن كل ١٠٠ كغ من القمح في القرن الحادي عشر بلغ ٠,٧٥ دينار وفي القرن الثاني عشر ٠,٦٨ دينار . وبمعنى آخر تناقص الثمن من القرن العاشر الى منتصف القرن الحادي عشر بمقدار ٤٥٪ كما تناقص ١٠٪ اخرى في المئة السنة التالية[١٩] ، ويميل المرء الى ربط تناقص اسعار الحبوب بندرة الدراهم الفضية ، ولكن اقوال الجغرافيين المذكورين اعلاه تجعل المرء يعلّل هذه الظاهرة بنقص الطلب الذي هو بدوره نتيجة لتناقص السكان . ويذكر كاتب الحوليات ابن الجوزي المعاصر لتلك المرحلة والمؤلفون الآخرون عدة مرات ان اسعار الحبوب كانت منخفضة ـ في الاعوام التالية ١٠٦٦ ، ١٠٨٣ ، ١٠٩١ ، ١١٠٢ ، ١١٦١ ، ١١٦٣ ، ١١٦٥ ، ١١٦٦ . [٢٠]التي تعتبر مثالاً لها .

لم يكن هبوط اسعار الحبوب بالتاكيد نتيجة التزايد في العرض فقط . وبعد تدعيم النظام الاقطاعي ساءت احوال الفلاحين الى حد بعيد ، ويذكر كتاب الحوليات في العراق انهم توجهواالى الحكومةبالشكاوى ضداضطهاد الاقطاعيين، وذلك لاسباب وجيهة ، فحكومة السلاجقة فرضت ضرائب جديدة على الضياع ، وفي بعض المناطق تغيرت طرق تقدير حجومها : فبدلاً من النصيب المعين في المحصول (المقاسمة) تمت جباية مبالغ ثابتة مرة اخرى (وهو ما سمي بنظام المساحة) ، ومن جهة اخرى استحدث السلاجقة في جنوب الشام نظام المقاسمة ، ولكنهم جبوا ضرائب اعلى من السابق وفق تقدير الخراج القديم ، وغالباً ما اخذ الفرسان الاتراك الضياع من اصحابها الشرعيين بالاغتصاب[٢١] . وفي فترات المجاعة غادر الفلاحون القرى ، ومات القسم الكبير منهم جوعاً نظراً لعدم وجود مخزون لديهم ، حدث ذلك في عام ١١٤٨ عندما وقع الفلاحون ضحايا الجوع . وفي اعالي ما بين النهرين هجر كثير منهم قراهم في عهد زنكي (١١٢٧-١١٤٦) لانهم لم يستطيعوا دفع الضرائب ، وفي عام ١١٢٦ شكا الخليفة في رسالة الى السلطان مسعود ندرة المواد الغذائية التي كانت نتيجة لهجر الفلاحين قراهم[٢٢] .

ولكن الهروب من الاراضي لم يكن السبب الوحيد لتناقص المساحات المزروعة ، فبسبب الاهمال او الصيانة السيئة ، تدهور نظام الري في اجزاء كثيرة من العراق ، وعلى الارجح في اماكن اخرى ايضاً ، ويذكر كتاب الحوليات ان انفجار سدّ قرب الفلوجة ترك قناة النيل بدون ماء لمدة اربع سنوات ، حتى تم اصلاحه ، في حين كان الكثير من الفلاحين قد غادر قراهم . وقناةالهمزان ـ التي كانت تروي منطقة واسعة شرق نهر دجلة ـ انفجرت ايضاً في عام ١١٥١بسبب الفيضان ، ولما كانت النواعير مصنوعة من الخشب ، فقد اعطبها بسهولة المطر والطين ، خصوصاً عندما لم يتعهد احد صيانتها . هذا ما يقوله ابن الاثير في عام ١١٢٥ ، ولم يكن تدمير نظام الري بسبب الصيانة السيئة احياناً ، وانما قامت به الجيوش عن عمد في حملاتها ، لقد دمروا السدود ، وحطموا النواعير ، غير ان الحكام البعيدي النظر راقبوا نظام الري ، وقاموا بجولات تفتيشية وتعهدوا بحفر الاقنية الجديدة ، ولكنهم لم يستطيعوا وقف التدهور العام . ماذا كان باستطاعتهم ان يفعلوا عندما تقطع جيوش الحملات الاشجار المثمرة ، وتحرق المحاصيل وتدمر الطواحين[٢٣] . فلقد اصبحت وخلال الحروب الطويلة بين الصليبيين ، وامراء

المسلمين في الشام واعالي ما بين النهرين العادة المتبعة حرق قرى الاعداء ، ومصادرة مواشيها . وسبب تدمير الريف احياناً مجاعة مباشرة[٢٤] ، وندرة في المواد الغذائية ، لكن ذلك لم يكن شيئاً في نظر قادة الحرب . فبين وقت وآخر اتخذ الامراء ووزراؤهم الاجراءات لاعادة بناء القرى المتداعية ، أو المهجورة ، واعادة الفلاحين اليها ،وقام ذلك السفر السلجوقي الذي استولى على سورية الجنوبية في عام ١٠٧٦ . كما فعل مثل ذلك طغتكين مؤسس عائلة الاتابكة في دمشق في بداية القرن الثاني عشر ، فلقد باع الأراضي المهجورةكي تزرع مرة اخرى ، كما ان حاكم بغداد السلجوقي في اواسط القرن الثاني عشر ، بنى قرية في منطقة ترويها قناة نهاوند ، التي تعهد باصلاحها ووظف مبلغ ٧٠,٠٠٠ دينار في هذا المشروع للاستيطان الجديد[٢٥] ، ولما كانت هذه المشاريع مجرد محاولات متفرقة ، فليس هناك اي شك في ان المساحة المزروعة لم تتسع لكنها في الحقيقة تناقصت ، فهجرة القبائل التركمانية الى الهلال الخصيب في ركب الفاتحين السلاجقة ، احدث في بعض المناطق تغييراً فتحولت من الزراعة الى مناطق

عهد الايوبيين اللاحقين ، على الارجح ٠,٠٠٤٣ دينار ، وهذه نتيجة لارتفاع الاجور العام . وليست لدينا معلومات حول اجور الخبازين ، لكن الادلة من وصف النشاطات العمرانية واضحة جداً ، فالعامل الذي كسب في العصر الفاطمي اقل من ٢ دينار في الشهر (عندما يعمل ٢٥ يوماً في الشهر) حصل على ٣ دنانير في النصف الاول من القرن الثالث عشر[٥٨] ، وتظهر هذه المعطيات بالتاكيد ان الطلب على الحبوب تناقص ، والاجور تزايدت بسبب نقص العمال .

وكان العصر الايوبي فترة رخاء للتجار والعمال ، وهذا عائد جزئياً الى انبعاث نظام النقد الثنائي المعدن ، فدور السك توافرت لديها مخزونات كبيرة من الفضة ، التي جزء منها من اواسط آسيا ، وجزء آخر من اوروبا ، اثناء حكم صلاح الدين عانى النظام النقدي في مصر ازمة بسبب التكاليف الباهظة للحروب ضد الصليبيين ، لقد تم تخفيض قيمة الدنانير التي اصدرها واحتوت الدراهم (باستثناء بعض النماذج القليلة) ٥٠٪ فقط من الفضة ، ولكن خلفاء صلاح الدين سكّوا دنانير جديدة ، وسك الملك الكامل في عام ١٢٢٥ الدرهم «الكاملي» المسمى باسمه والذي احتوى على ٦٦٪ من الفضة ، والدراهم التي طرحها الايوبيون للتداول وصلت حداً كبيراً من الجودة، لدرجة يمكن معها تسمية القرن الثالث عشر بعصر الفضة في تاريخ مصر في العصور الوسطى . وفي الوثائق العربية اليهودية التي تعود للعصر الفاطمي والتي وجدت في كنيس القاهرة[١] ، حسبت القيم والاسعار بالدينار ، بينما حسبت القيم والاسعار في العصر الايوبي بالدرهم ، وتشير بعض بيانات الكتاب العرب ايضاً الى الكميات الكبيرة من العملات الفضية التي امتلكها حكام مصر والشام في هذه الفترة ، فسورية الاسلامية امتلكت فضة اكثر من مصر ، لقربها من مناطق فارس وآسيا الوسطى ، حيث جاء المعدن الابيض ، وبسبب صلاتها مع الصليبيين الذين استوردوها من اوروبا ، ووجد في مصر نقص مؤقت من الدراهم في تلك الفترة ، بينما وصلت النقود الفضية التي سكتها الدور الايوبية في الشام الى مستوى ممتاز حتى اواسط القرن الثالث عشر[٥٩] .

بالاضافة الى التغير في النظام النقدي ، هناك اسباب اخرى لازدهار تجارة مصر والشام المحلية والدولية في العصر الايوبي ، فعصر نور الدين وحكم الايوبيين يعني بالنسبة للشام واهالي ما بين النهرين العافية والتوسع ، فهناك زيادة ديمغرافية

١ ـ وثائق الجنيزا

للمراعي ، حدث ذلك في بلاد ما بين النهرين والمناطق الأخرى .

وهكذا فان هبوط اسعار الحبوب لم تكن نتيجة لتزايد العرض ، وبالاضافة الى ذلك علينا ان ناخذ بالاعتبار ، ان مزارع القطن على الارجح ازدادت الى حد كبير ، في هذه الفترة وخصوصاً في بلاد الشام ، وتشير الى هذه الحقيقة نصوص كثيرة في المصادر العربية[٢٦] .

وسبّب الاضطهاد واستغلال الفلاحين ويأسهم وغضبهم بعض الثورات ولكنها قليلة وقليلة الاهمية ، واتسمت في معظمها بالصبغة الدينية اي مذاهب الهرطقة ، مثل هذه الثورة حدثت في بلاد الشام عام ١١٧٥ عندما حرّض احد مدّعي النبوة الفلاحين على الثورة ضد الحكومة ، اولاً في منطقة دمشق ، وفيما بعد في منطقة حلب ، والمذهب الاسماعيلي المتطرف المسمى بالباطنية ، الذي اسسه الحسن الصباح ، هو من اكثر مجموعات المحرضين قدرة على القيام بالدعاية الفعالة بين الطبقات الدنيا ، حيث انشأوا في العقد الثالث من القرن الثاني عشر حركة ثورية قوية بين الفلاحين في الشام ، وألّبوهم ضد الحكام الاغنياء في المدن الكبرى ، ولكن الباطنية لم تكن حركة فلاحية ولا حتى حركة للطبقات الدنيا عموماً ، رغم ان الحسن الصباح ، ودعاته كثيراً ما توجهوا الى الفقراء ، وبالرغم من الحقيقة القائلة ان بعض الصناع البسطاء مثل صانعي الاحذية والنجارين وغيرهم ، ظهروا ، احياناً ، كقيادات باطنية ، الا ان محاولاتهم لتحريض الطبقات الدنيا كانت تهدف فقط اسقاط حكومة الاسلام السنّي واطاره الاجتماعي - الدولة السلجوقية ، ففي نفس الوقت توجهوا أيضاً إلى الطبقات الأخرى ، وتمتعوا بمساندة الوزراء والأمراء . إن معتقداتهم الدينية وأعمالهم الارهابية مثل احراق المساجد أثارت كراهية الجماهير السنية ، التي قامت بمقاتلتهم بين آن وآخر[٢٧] .

لم يكن العداء الطبقي والسخط في المدن أقل وضوحاً . إذ أن السلطات حاولت توجيهه والسيطرة عليه من خلال النقابات التي كانت قائمة في الدولة السلجوقية والدول اللاحقة تحت رقابة المحتسب - رئيس شرطة الأسواق - لكن مرارة وغضب الطبقات الدنيا ، أدت أحياناً الى النهب والصدام مع الجيش . وأعنف تعبير على حالة القلق الاجتماعي ظهرت على أيدي العيارين الذين لم تنقطع تماماً نشاطاتهم التخريبية ، فحتى في ظل الحكم الصارم للسلاجقة الأوائل جمعوا

أحياناً «الحوة» في أسـواق بغـداد . وأصبحـوا أكثـر جرأة من السابـق بعـد موت ملكشاه ، وعادة في أوقات الصدام بين أحياء بغداد فغالباً ما كانت الشرطة عاجزة إلا أن نشاطاتهم كانت في الغالب إجـرامية إذ أنهـم سلبـوا الأغنياء والفقـراء على السـواء ، ونجح السلطان محمد القوي خلال حكمه في الحفاظ على النظام ، وبعد موته سبب العيارون قلاقل خطيرة لقيامهم بأعمال النهب في المدن الصغيرة ، وقرى العراق ومحاربة الشرطة . وبلغت نشاطاتهم ذروة جديدة في أواسط القرن الثانـي عشر ، ويبدو أنه من خلال ضعف الطبقة الوسطى طغى الشعور بقسـوة العـداء الطبقي ، ومن المرجح أن الكثيرين من الرجال القادرين واليائسين ، انضموا إليهم لكسب عيشهم والتعبير عن شعورهم في المرارة والإحباط ، يذكر كتاب الحوليات بإسهاب نشاطاتهم في الفترة ١١٣٦ ـ ١١٤٣ ، وهي فترة الحرب الأهلية التي حوّلها العيارون الى مصلحتهـم ، وتمرسـوا بأعمال السرقـة والنهـب ومهاجمـة الأغنياء والفقراء ، ووقف الى جانبهم سكان بغداد الغربية الذين كرهوا الأتراك ، وفي أوج نشاطاتهم هذه ظهرت من جديد الاتجاهـات الثـورية لدى بعض المجموعـات . وانضم إليهم أو على الأقل حماهم أشخاص من المراتـب العليا ، مثـل ابـن أحـد الوزراء وصهر السلطان ، إما لكسب الأتباع أو للتعبير عن سخطهم الخاص على النظام الاجتماعي . وأصبـح العيارون قوة يحسـب حسابهـا في العـراق ، وصمـم قائدهم ابن بكر على أن يسك النقود في مدينة الأنبار وهذا يعني الإعلان عن دولة العيارين . ولكنهم لم يكونوا نداً لقوى الإقطاع التركية ، ومرة أخرى فقدت حركة العيارين قوتها رغم استمرار ذكرهم في حوليات النصف الثاني من القـرن الثانـي عشر .

جـ ـ مقاومة البرجوازية :

بينما كانت ثورات الفلاحين وصعاليك البروليتاريا (كما هي حال العيارين) انفجارات متفرقة من السخط ، ومحكوم عليها بالإخفاق ، فإن طبقات البرجوازية العليا ، أصبحت في بعض الفترات عنصراً قوياً في السياسات الشرقية ، وعندما تدهور النظام الإقطاعي ، فحاولـت البورجـوازية الغنية احتـلال مكانـه وإقامـة سلطتها ، وكانت هذه الطبقات ـ ومعظمها تجار وأصحـاب أراض أغنياء ـ ذات مصالح اقتصادية متعارضة مع مصالح الإقطاعيين النبلاء ، وعندما أدركوا ضعف

الأمراء لم يترددوا في اغتنام الفرصة للثورة ضدهم ، وحدثت معظم الثورات في الشام ، لكن البورجوازية سيطرت على الحكومة لبعض الوقت في كثير من مدن ما بين النهرين ، والمناطق المجاورة في آسيا الصغرى ، ولكي نشرح سبب عدم وجود محاولات مشابهة في العراق ومصر ، يقال أن الشاميين أكثر ثورية ، ولكن يبدو أن هناك سبباً آخر ، وهو أن تقسيم البلاد بين السلطات المختلفة وإقامة إمارات صغيرة ، جعلت الثورة هنا أسهل من أي مكان آخر .

ومهما كان الأمر فإن البرجوازية في الشام وأعالي ما بين النهرين في النصف الثاني من القرن الحادي عشر والنصف الأول من القرن الثاني عشر تطلعت نحو الاستقلال ، محاولة إقامة جمهوريات مدينية ، أو التستر على حكمها بترك الأمراء الضعاف في مناصبهم كالدمى . واختلفت طبيعة الحركة باختلاف المناطق . في الساحل السوري ، حيث بدأت في عام ١٠٧٠ إثر تدهور السلطة الفاطمية . كان رؤساؤها من القضاة ، أو رؤساء البلديات الذين أقاموا حكمهم «كقناصل» في الجمهوريات المدينية . وبدأت الحركة في أواسط بلاد الشام وأعالي ما بين النهرين في نهاية القرن الحادي عشر بتفكيك الدولة الفاطمية ، هنا كان رؤساء البلديات الذين يسمون «الرئيس» والذين أصبحوا قادة الميليشيات في المدن ـ الأحداث ـ سيطروا على الإدارة في كل مكان تقريباً ، فهم قواد البرجوازية الكبيرة وخوفاً من ثورات الطبقات الدنيا ، فضلوا الإبقاء على الأمراء ، الذين أصبحوا مجرد مرتزقة ، يشنون الحرب ضدّ الصليبيين وسواهم عن الأعداء الآخرين .

وفي النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، بدأ تجديد العلاقات التجارية بين الموانىء السورية والتجار الايطاليين ، ففي بعض المدن تواجدت البرجوازية القوية نسبياً التي شعرت أن الفاطميين استغلوها بفرض الضرائب الباهظة ، لخدمة أهدافهم السياسية . وكانت هذه البورجوازية الغنية هي صاحبة المصلحة في تجديد التجارة الدولية في شرق المتوسط[٣١] ، ولكن هناك مجموعات في تلك المدن وقفت موقفاً مغايراً ، لقد تواجد ضرب قوي مؤيد للفاطميين ، لإدراكه فوائد الحماية عن طريق الأسطول الفاطمي ، أو للعداء الاجتماعي ضد التجار الأغنياء ، وهكذا مزقت الصراعات الحزبية هذه المدن التجارية والصناعية ، وبالإضافة الى ذلك كان هناك

تعاطف قوي مع المعتقدات الشيعية ، ولذلك ترتبت على الثوار وأعوانهم مهمة صعبة ، ولكن المصالح الاقتصادية كانت من القوة بحيث اندلعت الثورات ، وسقط النظام الفاطمي قبل وقت طويل[٣٢] .

وفي عام ١٠٧٠ ثار عين الدولة ابن أبي عقيل قاضي صور ضد الفاطميين ، وأقام سلطانه . وحاصر القائد الفاطمي القوي بدر الجمالي المدينة ، لكنه أخفق ، وبقيت صور وصيدا لحوالي ٢٠ سنة جمهورية مستقلة يحكمها ابن أبي عقيل وأولاده ، حتى نجح الفاطميون في فرض حكمهم ثانية في عام ١٠٨٩ ، ويتحدث كتاب حوليات العصور الوسطى عن ثورة ابن أبي عقيل ، لكنه يظهر لنا من بياناتهم أنه قائد حزب قوي من سكان المدينة الأغنياء ، الذين رعى مصالحهم . وفي نفس الوقت خلعت بعض المدن الواقعة جنوب وشمال صور النير الفاطمي ، لأننا نقرأ في حوليات ابن الأثير أن الجيش الفاطمي هزم أيضاً مدينة عكا وجبيل في عام ١٠٨٩ .

لكنه يظهر في كتابات المؤرخين العرب ، أن الحركة الثورية في مدن فلسطين ولبنــان لم تسحــق بعــد . فهــم يذكرون ثورات جديدة في صور عام ١٠٩٤ وعام ١٠٩٧ ، ومرة أخرى يتحدث هؤلاء الكتاب عن ثورات بعض الحكام المحليين ، التي سحقت بمساعدة الأهالي ، ولكن بياناتهم عن الغرامات المفروضة على المدينة بعد إخماد الثورات ، ترينا أن الثوار تمتعوا بتأييد قوي من السكان الذين عوقبوا بهذه الطريقة[٣٣] .

وثارت مدينة طرابلس ـ المرفأ الرئيسي في أواسط وشمال الشام ـ في نفس الوقت الذي ثارت فيه صور ، وهنا أيضاً قاد الثورة قاضي المدينة أمين الدولة الحسن بن عمار ، الذي ينتمي الى عائلة غنية محترمة ، ويتمتع بتأييد البورجوازية العليا ، وحرر في عام ١٠٧٠ طرابلس من حكم الفاطميين ومنذ ذلك الحين أصبحت جمهورية مستقلة «قناصلها» من بني عمار ، بعد وفاة الحسن خلفه ابن أخيه جلال الملك علي الذي حكم لمدة ٣٠ سنة تقريباً (١٠٧٢ ـ ١٠٩٩) ، ونجح علي في فرض حكمه على قسم كبير من الساحل السوري ومرتفعاته الجبلية الداخلية ، وعندما استولى على جبلة من البيزنطيين في عام ١٠٨١ ، تحرر كامل الساحل السوري من الحكم الأجنبي ، وقامت الجمهوريات المدنية في كل مكان ، وتملق حكامها الفاطميين والسلاجقة على السواء بتقديم الهدايا ، وكما يقول أحد كتاب

الحوليات المعاصرين ناوروا بين الطرفين قدر الإمكان ، وكان اعترافهم بالسيادة الفاطمية أسمياً ، ومن جهة أخرى جندوا المرتزقة من غير الأتراك حتى لا يخونوهم عند محاربتهم السلاجقة وفي عام ١٠٩٢ حاصر تتش الأمير السلجوقي على بلاد الشام الوسطى مدينة طرابلس ، ولكن جلال الملك ابن عمار نجح في بذر الشقاق بين القادة السلاجقة ، وقدم الرشوة لبعضهم مما أدى الى رفع الحصار ، وخاض حاكم طرابلس الثالث فخر الملك ابن عمار (١٠٩٩ - ١١٠٩) حرباً طاحنة ضد الصليبيين ، في عام ١١٠٨ غادر المدينة قاصداً بغداد لكسب تأييد الخليفة ، وأمراء العراق ، وعندها استدعى حزب من أهالي طرابلس الفاطميين ، وفي عام ١١٠٩ تهاوت المدينة أمام قوات الصليبيين الأكثر قوة[٢٤] .

أما مدينة جبلة فقد انفصلت عن جمهورية ابن عمار المدينية ، قبل ذلك بوقت طويل ، حيث ثار قاضي المدينة عبيد الله بن منصور بن صليحة ضد حاكم طرابلس ، وجعل من جبلة جمهورية مستقلة وعندما تزايد ضغط الصليبيين ، قرر في عام ١١٠١ تسليم المدينة الى طغتكين حاكم دمشق الأتابكي ، لكن حزباً من سكان المدينة استدعى ابن عمار لتسلم حكومة المدينة ، وبعد ٨ سنوات سقطت المدينة في أيدي الصليبيين[٢٥] .

ويحتوي تاريخ ابن القلانسي والحوليات الأخرى بيانات مفصلة عن الصراع الطويل والعنيد ، الذي أبداه رؤساء دمشق ضد أميرها لمدة حوالي نصف قرن ، ورغم أن كتّاب حوليات العصور الوسطى يصورونه وكأنه نتيجة طموحات شخصية ، فليس هناك أي شك في أنه صراع بين البورجوازية الغنية لمحاصرة الشام ، التي قادها بنو الصوفي والأمراء الضعفاء من عائلة طغتكين ، وطالما تمتع رؤساء المدينة الناشطون والمقتدرون من عائلة بني الصوفي بتأييد ميليشيات المدينة ، المسماة بالأحداث ، وهي القوة الضاربة للطبقات الدنيا ، فإنهم برهنوا على أنهم أنداد للأمراء .

والرئيس الأول من هذه العائلة ، هو أمين الدولة الحسن بن الصوفي ، الذي شغل هذا المنصب في نهاية القرن الحادي عشر ، وبسبب الصراع مع أمير دمشق سجن مرتين (في عام ١١٠١ وفي عام ١١٠٣) ومات في عام ١١٠٤[٢٦] ، وخلفه ولداه

أبو المجلي سيف وأبو الذواد المفرج . وشغل الأخير دوراً كبيراً في سياسات دمشق ، وشغل منصب الرئيس حتى عام ١١٣٠ وتسبب في سقوط الوزير المزدكاني الذي أيد الباطنية ، وخلق حركة من القلاقل الاجتماعية بين الطبقات الدنيا ، ولا شك في أن المفرج تصرف في هذا الصراع كقائد للطبقات العليا لسكان المدينة ، التي خشيت النشاطات الهدامة للباطنية ، وبعد ذلك بوقت قصير - في عام ١١٣٠ - أقاله أمير دمشق وسجنه ، لكنه عينّ في نفس المنصب بعد عام واحد ، واستمر فيه لمدة خمس سنوات . في عام ١١٣٦ قتله أحد أبناء الأمير ، وبعد ذلك أصبح ابن عمه المسيّب ابن الصوفي رئيساً على المدينة ، وحسب رواية أحد كتاب الحوليات العرب ألزم المسيّب نفسه بدفعات منتظمة لإعاشة الجيش ، وهكذا دخلت البورجوازية في حلف مع الأمير ، وأصبح في عام ١١٤٤ المسيّب وزيراً أيضاً وتقاسم السلطة مع القائد أنر ، وبعد موت الأخير في عام ١١٤٩ حرّض أفراد البلاط الأمير على التخلص من المسيّب والانفراد بالحكم ، وبالتالي جمع الرئيس القوات ، وحاصر الأمير في القلعة . وانتهت هذه الثورة بانتصار ابن الصوفي وكانت ثورة بورجوازية ، واضطر الأمير للاستسلام ، والتنازل للصوفي عن منصبي الرئيس والوزير . ويبدو أن البورجوازية حققت أهدافها : إذ سيطرت على إدارة الإمارة واتبعت - بالتعاون مع الأمير - سياسة المقاومة ضد خطة نور الدين لإلحاق بلاد الشام الجنوبية بدولة إسلامية موحدة عظيمة .

عائلة (بنو الصوفي)
الرئيس تحته خط)

علي	الحسين	
	أمين الدولة الحسن (توفي ١١٠٤)	
	أبو الزواد المفرج (توفي ١١٣٦)	أبو المجلي سيف
عز الدولة	زين الدولة حيدرة توفي (١١٥٤)	المسيّب (توفي ١١٥٤)

إن وجود إمارة دمشق الضعيفة حمى مصالح البورجوازية ، ولكن في عام ١١٥٣ ظهر الخلاف في عائلة بني الصوفي ، فتم نفي المسيّب وخلفه في مناصبه أخوه زين الدولة حيدرة . وبعد عام قتل زين الدولة بأمر من الأمير ، ونهب سكان المدينة منزله ، ولا يترك ابن القلانسي مجالاً للشك حول أسباب سقوط بني

الصوفي ، ويقول بوضوح أن الطبقات الدنيا غيرت موقفها ، ويقول أن بني الصوفي فكروا في شيء واحد فقط ، هو أن يصبحوا أغنياء فباعوا المناصب ، ولم تعد أملاك سكان المدينة مصانة ، ولذلك سحبت الطبقات الدنيا تأييدها للبورجوازية الكبيرة التي حولت النصر الذي أحرزته بمساعدة الأحداث لمصلحتها .

اتبعت بورجوازية حلب سياسة مشابهة لسياسة بورجوازية دمشق : فلم تهدف الى إسقاط النظام ، ولكنها حاولت استخدام الأمراء كقواد في الوقت الذي يسيطر فيه قوادها على الإدارة كرؤساء ، وكانت بالفعل سياسة ذكية وخطة ملائمة للظروف ، فحلب في خطر كبير لكونها محاطة تقريباً بالإمارات الصليبية ، وهكذا عاملت بورجوازية حلب الأمراء كمرتزقة ، ففي داخل المدينة تواجدت فئات متعددة ، رؤساؤهم هم رؤساء العائلات المتنفذة ، فبنو الخشاب زعماء الشيعة وابن بديع زعيم السنة ، ولمدة أربعين سنة تقريباً ، استدعى هؤلاء الرؤساء أمراء مختلفين لحكم إمارة حلب ، آملين أن يكونوا مجرد دمى ، وأن يستمر الرؤساء في السيطرة الفعلية . ولكنهم في الغالب خاب فألهم ، لأن الأمراء لم يقنعوا بالدور المحدد لهم .

فقد سلّم ابن الحتيتي رئيس حلب المدينة في عام ١٠٨٠ الى الأمير العقيلي مسلم بن قريش ، وبعد موت مسلم أصبح هو الحاكم الفعلي ، فبنى لنفسه قلعة واستدعى تُتُش للإمارة ، ثم غير رأيه واستدعى ملكشاه نفسه ، وأتى السلطان الأعظم الى حلب فخلع ابن الحتيتي بسبب تذمر الأهالي من إدارته . فخلعه بركات بن فارس المسمى المجهر من النبلاء الأقوياء ، أعدم كثيراً من الأعيان وثار ضد الأمير السلجوقي رضوان ، وحاصره في القلعة ولكن هزم وعذّب حتى الموت في عام ١٠٠٧ ، ودبّر صاعد بن بديع رئيس حلب الذي جاء بعد بركات مذبحة للباطنيين في عام ١٠١٣ ، وصادر أملاكهم ، ويروي كتاب الحوليات أن فعل ذلك لأنه كان سنياً متحمساً ، ولكننا لن نكون مخطئين إذا طابقنا سياسته بسياسة البورجوازية العليا عدوة هذا المذهب اللدودة .

في تلك الفترة العاصفة من تاريخ حلب حدثت تغيرات متعددة في الحكومة . فبعد مذبحة الباطنية ، نفي صاعد بن بديع من حلب ، وسيطر أعداؤه بنو الخشاب

على المدينة ، التي مزقتها الصراعات الفئوية . وفي عام ١١١٨ سلموا المدينة الى الأمير الأرتقي ايلغازي ، الذي عين مكّي بن قرناص كرئيس لها . وعندما غادر الأرتقي المدينة عهد بحكومتها للرئيس ، بالإضافة الى ابنه سليمان ، وثاروا ضده مباشرة ، مما اضطره للعودة وقتل الرئيس الخائن . في عام ١١٢٣ أصبح ارتقي آخر يدعى ابلق أميراً لحلب ، بناء ، على دعوة فئة بني الخشاب ، نفى الأمير زعماء الأحزاب المتصارعة من أجل حكم المدينة . وبعد موته في عام ١١٢٤ خلف ايلغازي ابن له ، وسلّم إدارة المدينة الى ابن بديع وعينّ

فضيل بن صاعد بن بديع رئيساً ، وشغل فضيل المنصب لبعض الوقت رغم تغير الامراء المتكرر ، كما ان البُرسقي ، الذي استدعاه بنوالخشاب تركه في منصب الرئاسة ، وعندما احتل ختلغ آبه عرش حلب المتأرجح ، فان مركزه اصبح اقوى بفضل دعم فئته له . في عام ١١٢٧ خلع ختلغ آبه ، ورشحت كل فئة مرشحها على العرش ، اذ أن فئة ابن بديع ، استدعت سليمان الارتقي ، بينما استدعى بنو الخشاب ابراهيم بن رضوان السلجوقي ، وبعد وقت قصير الحق الاتابك زنكي حلب بدولته ، ووضع حداً لهذا الصراع الفئوي الطويل الذي يذكرنا كثيراً بسياسات «دول» المدينة الايطالية في القرن الثالث عشر [٣٨] .

وكانت الاحوال في مدن اعالي ما بين النهرين ، مشابهة جداً لظروف مدن الشام الوسطى ، فالرؤساء الذين ينتمون الى العائلات المتنفذة من الاعيان ، الذين سيطروا على الحكومة في كثير من المدن .

وفي عام ١١٢٣ يجري الحديث عن رئيس حرّان بركات بن ابي الفهم ، الذي سجنه الارتقي بلق . وفي آمد ـ المسماة ديار بكر الآن ـ كان الرؤساء اقوياء جداً في اواسط القرن الثاني عشر ، لدرجة ان علاقاتهم مع امراء المدينة اصبحت علاقات وصاية ، فالمنصب شغلته عائلة ابن نيسان بحيث يرثه الابن عن ابيه ، عندما توفي مريد الدين بن نيسان في عام ١١٥٦ خلفه ابنه كمال الدين . كان رئيس آمد شخصية عظيمة لدرجة مكنّته من التدخل لدى امير الموصل نيابة عن وزيره ، ولكنه كان ايضاً طاغية صغيراً اضطهد مواطنيه ، واجبر الكثيرين من الناس على ترك المدينة حسب رواية كاتب معاصر لتلك الفترة ، وفي مدينة سنجار الصغيرة شغل

منصب الرئاسة عائلة بني يعقوب لفترة طويلة ، كما أنه كان للموصل عاصمة أعالي ما بين النهرين ولها رئيسها ايضاً . ويرد ذكر احد رؤسائها بمناسبة الاستيلاء عليها من قبل سلطان آسيا الصغرى السلجوقي في عام ١١٠٧[٣٩] .

والتقارير العديدة التي استشهدنا بها من المصادر العربية تشير الى تزامن ملحوظ في كل مكان من بلدان الهلال الخصيب . ففي نهاية القرن الثاني عشر حصلت البورجوازية على نصيبها في الحكومة ، وظهرت الجمهوريات المدينية الى الوجود ، ولكن حركة المد انحسرت . في بعض المناطق واسترد بعض امراء الاقطاع قوتهم ، بينما نشأ في البعض الآخر نظام جديد .

د ـ انبعاث ثيوقراطية الخلافة في العراق :

في العراق استبدلت سلطة السلجوقيين المتضائلة بدولة خلافة جديدة ، فبدءاً بحكم المسترشد (١١١٨ ـ ١١٣٥) ، اعاد الخلفاء بناء حكومتهم خطوة خطوة ، ولكن بينما كان طموح الخلفاء القوة الدافعة في التطور الجديد ، تطابق اسقاط النظام الاقطاعي مع رغبات البورجوازية . فالطبقات الدنيا المعادية للعسكرية التركية ، التي اعتبرتهم حكاماً اجانب لا هدف لهم سوى استغلال هذه الطبقات ، لذلك انضموا بيسر الى جيش الخليفة الجديد ، وحتى البرجوازية الغنية بالعراق ـ التي ما زالت تنشط في حقل التجارة الدولية مع بلدان اواسط آسيا مثل بخارى وافغانستان ومدن شاطىء البحر الاسود وسورية في الغرب ـ فضلت حكم الخليفة على حكم الامراء السلاجقة المحبين للحرب والاقتتال ، لقد رفضت تدخل الامراء في نشاطاتهم التجارية والصناعية ، ولم تتحمل الازمات السياسية المتكررة الناتجة عن صراعاتهم ، التي تخللت السير الطبيعي للحياة الاقتصادية ، وهكذا فانها ساعدت الخليفة ايضاً .

فالخليفة المسترشد الذي جند القوات لحماية بغداد من ملك جنوب العراق البدوي ، وحماها فيما بعد من الامراء السلاجقة ، تم الاعتراف رسميا في عام ١١٣٢ بالاتفاقية المعقودة مع السلطان مسعود كحاكم لبغداد والمناطق المحيطة بها ، وسار من اتوا بعده على نفس السياسة ، التي جلبت المكافآت المتزايدة . واعاد المكتفي (١١٣٦ ـ ١١٦٠) سلطة الخليفة على معظم مناطق العراق . وفي عهد

الناصر (١١٨٠ - ١٢٢٥) وصلت سلطة ونفوذ دولة الخلافة الجديدة الى الاوج . واختفت العائلة المالكة السلجوقية التي تحكم غرب فارس والعراق ، ولكن محاولات الخليفة لفرض سلطته على فارس اثبتت اخفاقها رغم انه نجح في الاستيلاء على خوزستان .

ان بعث دولة الخلافة لم يصن الانهيار التام في التقاليد السلجوقية ، فجيش الخلافة ضم عدداً كبيراً من العبيد الاتراك ، الذين اشتراهم الخلفاء وسموهم باسمائهم : مماليك الناصر ، مماليك الظاهر ، الخ . وكان معظم الضباط في جيش الخلافة من الاتراك ، ولكن تواجد بينهم بعض العراقيين ، وكان للامراء (القادة) حرسهم الخاص من العبيد ، كما حدث في ايام السلاجقة[٤٠] . ومن جهة اخرى تم تعيين المدنيين (العراقيين) احياناً قواداً للشرطة ، او حكاماً للمدن الكبيرة وتملكوا مع غيرهم من المدنيين المماليك الاتراك[٤١] ولم يتم الغاء تخصيص الاقطاعات كرواتب للعسكريين . كان للاتراك اقطاعاتهم كالسابق ، ولكن يبدو ان ضمان الضرائب شغل دوراً اكبر من الدور الذي شغله في عهد السلاجقة ، او بمعنى آخر سيطرت الخزانة على اراض اكثر ، اما متعهدو الضرائب منهم اما اتراك ، او عراقيون[٤٢] .

وبينما تشير هذه الحقائق الى سياسة معتدلة ومحافظة وحذرة من قبل الخلفاء ، فان هناك معطيات أخرى ترينا ان الخليفة الناصر ارتأى فكرة ثيوقراطية جديدة ، متلائمة مع ظروف العصر ، وانه بذل جهوداً عظيمة لتحقيق خطته ، ويبدو ان ما خطط له هو دولة الرفاه الثيوقراطية ، فألغى المكوس (الضرائب التجارية) من جديد ، يقول احد كتاب الحوليات العرب ان ايرادات المكوس التي الغاها الخليفة في عام ١٢٠٨ بلغت ٢٠٠,٠٠٠ دينار ، ويشير هذا الرقم الى ان الاجراء الذي اتخذه الناصر كان فيه تخفيف كبير للعبء الضريبي ، وفي عهد خلفائه يبدو ان المكوس جبيت من جديد ، حتى الغاها الخليفة المستعصم مع الاقساط ، (وهي على الارجح المبالغ المدفوعة من اجل بعض الخدمات الحكومية) لدى اعتلائه العرش في عام ١٢٤٢ ، عندما ضمت مناطق جديدة الى دولته الغيت المكوس والضرائب المحلية كما في المناطق القديمة[٤٣] .

قام الناصر ايضاً بخطوات اخرى لتعزيز الرفاه الاجتماعي ، وفي رأي

المفكرين المسلمين بانه ليس لزاماً على الدولة العناية بالفقراء[1] . فواجبات الدولة ـ كما يتصورونها ـ محددة بالامان العام ، وحماية الدين ، والخطوات التي اتخذها الامراء في حقول التعليم العام ، ومساعدة الفقراءتعتبر اعمالاً مجيدة ، لكنها ليست واجبات اساسية ، ولذلك فان نشاطات الناصر تعتبر بدعًا . صحيح ان خلفاء آخرين قاموا بمثل هذه النشاطات ولكن يبدو ان اعمال الناصر لا يمكن اعتبارها ، لانها كانت بالنسبة له جزءاً اساسياً من الادارة العامة ، وثانياً شكلت نشاطاته جزءاً من خطة عامة .

امر الناصر بتوزيع كميات من الخبز واللحم ، والزكاة على الفقراء ، كما تلقى هؤلاء مبالغ اضافية في شهر رجب . وامر الخليفة ايضاًبفتح مطابخ حساء في شهر رمضان ، عندما يصوم المسلمون عن الطعام أثناء النهار ، ويحتاجون الى وجبات كافية اثناء الليل ، للحفاظ على قوتهم الجسمانية ، وبالاضافة إلى ذلك ، قدم الناصر الطعام والكساء والزكاة للحجاج الذاهبين الى مكة ، او العائدين منها [44] .

ومن خصائص نوايا الناصر البعيدة الاثر ، وسياسته الجريئة هو اصلاح حركة الفتوة ، فبينما كانت نوادي الفتيان في فترة ازدهار دولة الخلافة روابط للشبان المحبين للمسرات ، فقد نقلت إلى مثالياتهم في القرنين الحادي عشر والثاني عشر اتجهات دينية وثورية ، وحاربت بعض هذه الروابط إلى جانب الشيعة ، بينما تحالف البعض الآخر مع العيارين الراغبين في اسقاط النظام الاجتماعي القائم ، وبناء نظام جديد قائم على العدالة الاجتماعية وفكرة المساعدة المتبادلة ، وحتى عندما لم يتورطوا في نشاطات العيارين ، فإنهم شكلوا خطراً على فرض النظام العام ، وان استعدادهم للدفاع عن سمعتهم وفورية ردودهم عندما تهان شخصياتهم أو عائلاتهم غالباً ما أدى ذلك إلى أعمال العنف ، قرر الناصر اصلاح حركة الفتوة هذه وجعلها اداة لسياسته ، وأصبح هو نفسه عضواً في احدى روابطهم ، وأعلن نفسه فيما بعد قائداً للفتيان ، ومن جهة أخرى أرسل مبعوثيه إلى كل الامراء المسلمين ، يحثهم على الاعتراف بهذه الصفة وذكر اسمه أثناء تدريبات الفروسية والنشاطات الرياضية التي يحرص عليها الفتيان ، بينما اصدر قوانين تمنع الفتيان من ارتكاب أعمال العنف ،

١ ـ كذا وهذا غير مقبول ابداً .

وهكذا حقق هدفين : حاول أولاً استخدام الفتوة كنظام فرسان يوحد النبلاء المسلمين ، ويفرض سيادته على امراء العالم الاسلامي ، وثانياً ـ عن طريق قمع العناصر الميالة للنشاطات الثورية والتخريبية ـ استخدام الفتوة كاداة لتنفيذ خطته الثيوقراطية الجديدة في المناطق التي كان يحكمها بنفسه[٥٥] .

وكان الناصر ـ كغيره من رجال الدولة المصلحين والخياليين ـ اوتوقراطياً مستبداً ، ولكن ليس هناك ادنى شك في ان رعاياه استمتعوا بقدر كبير من الرفاهية ، ولم يكن ذلك النجاح الوحيد لسياسته . فالاحوال السياسية والاقتصادية كانت ملائمة لمحاولاته ، فبعد فترة طويلة من عدم توفر الفضة ، اصبح لدى دور السك في العراق والبلدان المجاورة من جديد كميات منها كافية لسك اعداد كبيرة من الدراهم . وبدأ من جديد تدفقها من آسيا الوسطى ، نحو شواطيء البحر المتوسط في نهاية القرن الثاني عشر ربما في ركب الجيوش الخوارزمية المتجهة غرب فارس ، ومكن تزايدها المنتظم الخليفة المستنصر من اصدار قطع نقدية فضية اكثر من السابق ، ومنع في عام ١٢٣٤ استعمال قطع العملات الذهبية التي حلت محل الدراهم منذ وقت طويل ، وبمرور الوقت اصبحت الدراهم كثيرة جداً ، حتى ان معدل صرفها انخفض وتوجب رفعه بامر من الخليفة[٥٦] ، وتشهد نصوص متعددة في الحوليات المعاصرة على أن الخزانة امتلكت اموالاً طائلة . كان بامكان الخليفة ان ينفق مبالغ كبيرة على حفلاته ويقدم الهدايا الثمينة ، كما استطاع هو ورجال حاشيته بناء المساجد الجديدة والابنية الاخرى ، ويبدو ان سكان مدن العراق ازدادوا من جديد ، لان احياء جديدة بنيت في بغداد وعلى الارجح في المدن الاخرى ، وعمل بعض الارستقراطيين المغامرين في مشاريع استيطانية ، فاوجدوا قرى حديثة ، واتخذ الناصر وخلفاؤه الاجراءات لتحسين احوال الزراعة ، ولقد حفر الخليفة المستنصر ـ على سبيل المثال ـ الاقنية ، وفي عهد الناصر المستقر ازدهرت تجارة العراق الدولية من جديد ، وظهرت طبقة من الراسماليين التجار الاغنياء مثل عائلة ابن خرداذبة في بغداد ، وابن السويد من تكريت ، واصيل الدين عباس الاربلي ـ الذين اثارت ثرواتهم الاسطورية ، ووضعهم الاجتماعي حقد الفقراء[٥٧] .

ورغم نية الناصر في اقامة ثيوقراطية اسلامية جديدة ، فانه اهتم بالحصول

على تعاون كل الطبقات من السكان ، واستخدم هو وخلفاؤه برحابة صدر الموظفين المسيحيين واليهود ، وتحتوي الحوليات العربية في هذه الفترة والديوان العبري لشاعر عراقي معاصر تفاصيل كثيرة حول هؤلاء الموظفين[48] .

لكن نجاح الناصر لم يكن ناجحاً تماماً ، فالعداء الطبقي بقي قوياً لدرجة حرضت الناس من الطبقات الدنيا على مهاجمة التجار الاغنياء ، ومحاربة الشرطة ، واحياناً خاف الوزير من الطبقات الدنيا كثيراً ، حتى انه وضع حراسة على منزله ، وتجنب السير في شوارع بغداد بدون مرافقة ، وفي السنوات الاخيرة من دولة الخلافة حوالي منتصف القرن الثالث عشر بدأ الازدهار في التدهور الى حد كبير ، ورمى تقدم الحشود المغولية بظله على بلدان الهلال الخصيب ، وكان لانتصاراتهم في فارس بالتاكيد نتائجها في العراق ، ومن جديد تعثرت التجارة الدولية ، وظهرت الصعوبات الاقتصادية ، وتجددت نشاطات العيارين - وهي الظاهرة المميزة لاوقات الازمات - وقدم الاقتتال بين احياء بغداد الفرصة للانخراط في اعمال السلب والنهب ، والجرائم الاخرى[49] .

ه - النظام الاقطاعي الايوبي :

كانت مملكة نور الدين ابن وخليفة الاتابك زنكي في الشام ومابين النهرين، ومملكة الايوبيين في سورية ومصر فرعين من الامبراطورية السلجوقية المندثرة ، وصورتين عنها ، فنور الدين(١١٤٦ -١١٧٣) - بعد توحيد كل المناطق الاسلامية في الشام - هو الذي أرسل صلاح الدين للدفاع عن مصر ضد الصليبيين[1] ، والقضاء على الخلافة الفاطمية المريضة . والدولة الايوبية التي بناها صلاح الدين (١١٦٩ - ١١٩٣) بعد القضاء على سلالة نور الدين كانت كالامبراطورية السلجوقية اتحاد امارات شبه مستقلة ، ونظامها الاقطاعي شبيه بالنظام السلجوقي . وكان سند الامراء الايوبيين جيشاً حسن التدريب ، تتالف نواته من الفرسان الاتراك والاكراد ، بينما كانت القطعات العربية (البدوية) قوات مساعدة ، ورغم ان الايوبيين انفسهم كانوا اكراداً فان الاتراك كانوا اكثر عدداً في جيوش

١ - كذا ، وهذا التعميم فيه وهم ، فنور الدين ارسل شيركوه عم صلاح الدين ، وكان صلاح الدين مع عمه .

صلاح الدين وخلفائه ، ومن المرجح ان عدد الجيش النظامي الايوبي في مصر وسورية واعالي ما بين النهرين بلغ حوالي ٢٠,٠٠٠ فارس ، في ايام الحرب استطاع صلاح الدين تعبئة ١٢,٠٠٠ فارس تقريباً ، عندما خرج للاستيلاء على الشام بعد موت نور الدين وخرج معه ٧٠٠٠ فارس فقط ، وفي الايام الاخيرة من العصر الايوبي استطاع أمير حلب تعبئة ١,٥٠٠ فارس فقط للحملات الهامة ، بينما بلغ عدد افراد الجيش القومي في مملكة الشام وما بين النهرين ٨,٠٠٠ فارس . لكن القوات العسكرية لهذه الامارات ازدادت كثيراً عندما انضم اليها بقايا الجيش الخوارزمي ، الذي كان قوياً في الماضي لان عدد هؤلاء المرتزقة زاد عن ١٠,٠٠٠ رجل[٥٠] ، وبعد تفكك الدول السلجوقية اصبحت مثل هذه الجيوش قوات كبيرة نسبياً .

وكان فرسان الايوبيين الاتراك والاكراد فرساناً اقطاعيين ، يتمتعون بالاقطاعات ويتلقون الرواتب بالاضافة الى ذلك ، في ظل الفاطميين اللاحقين اصبح نظام الملكية اقرب الى النظام الاقطاعي ، واصبح ضمان الضرائب وراثياً ، كما تعددت الاقطاعات ، ولذلك فان اقامة صلاح الدين للنظام الاقطاعي لم يكن خروجاً تاماً عن النظام الاجتماعي القائم ، غير ان اعتلاءه العرش اعطى هذا التطور دفعة قوية الى الامام ، ويقول المؤرخ المصري المقريزي ان كل الاراضي المزروعة في ايامه خصصت كإقطاعات للجيش ضمن قطع مختلفة المساحات، وتواجد عدد كبير من اصحاب الاقطاعات الصغيرة الذين لم يكونوا تابعين للقواد (الامراء) . وكان هؤلاء الفرسان هم الذين يدعون الحلقة الخاصة وقد حاربوا في وسط خط المعركة باعتبارهم نواة الجيش ، اما الامراء ومماليكهم فهم القسم الثاني من الجيش ، ودرّت عليهم اقطاعاتهم ايرادات كبيرة قدموا نصيباً منها لمماليكهم ، او دفعوا لهم الرواتب المنتظمة ، في حين ان مماليك السلطان شكلوا الجزء الثالث من الجيش ، وقلما امتلك هؤلاء اقطاعات تضم قرى بكاملها ، لكن هذه الاقطاعات كانت اكثر انتاجية من اقطاعات الحلقة ، وبالنظر لاخلاصهم للمبادىء التي اوجدها مؤسس الاقطاع الشرقي ، خصص الايوبيون غالباً لجيشهم الاقطاعات التي تتألف من اجزاء من الضياع القائمة في مناطق مختلفة لمنع الاقطاعيين من تكوين الاتباع في مناطقهم ، وليس من السهل التكهن بالدخل الحقيقي للفارس الايوبي لانه محسوب

بوحدات اعتباطية ، مؤلفة من الدفعات النقدية والنوعية . ويتحدث ابن مماتي - وهو مؤلف كتاب معاصر في الادارة[1] - عن الاقطاعات التي تنتج ٦٠٠ - ١٠٠٠ دينار في السنة ، ولما كان يتصور الدنانير «الاعتبارية» المسماة «الدينار العسكري» فان هذه المبالغ تعادل تقريباً ٤٨٠ - ٨٠٠ دينار ، ومن جهة اخرى يمكننا ان نستخلص من اشارات كاتب ديوان صلاح الدين ، ان معدل الدخل للفارس في عام ١١٨١ هو مبلغ ٤٢٩ دينار في السنة ، ورغم ضآلة المعلومات فان بامكاننا استخلاص نتيجتين من المعطيات المتناثرة : ان راتب الفارس الايوبي اعلى من راتب الفارس البويهي والسلجوقي ، وهذا يعني ان ايرادات الجيوش الاسلامية بمرور الوقت ازدادت بانتظام ، وثانياً ان المعلومات التي يقدمها المؤلفون العرب ترينا ان الجزء الاعظم من دخل الدولة خصص لدفع رواتب الجند . فحسب رواية كاتب ديوان صلاح الدين ، خصصت الخزانة المصرية في عام ١١٨٩ من النفقات البالغة ٤,٦٥٣,٠١٩ دينار ما لا يقل عن ٣,٤٦٢,٠٩٦ دينار لرواتب الجند . كان الضغط على الخزينة قوياً ، لدرجة ان الحكومة اضطرت الى مختلف الوسائل من آن لآخر - فمرة الى تخفيض قيمة العملة واخرى الى انقاص رواتب الجند . واستعمل صلاح الدين الوسيلة الاولى بينما استعمل خلفاؤه الثانية[51] .

والى جانب الزيادة في رواتب الجند تميز النظام الاقطاعي الايوبي بخاصتين : توريث الاقطاعات وطبيعتها الانتقالية . واعتاد نور الدين ان يترك اقطاع الفارس لولده ، ويؤكد كتّاب الحوليات العرب انه فعل ذلك في حالة موت الفارس في المعركة وولده ما زال طفلاً ، وفي مثل هذه الحالة يعين وصياً ليرعى مصالحه حتى يكبر ، يقول كتاب الحوليات انه نظراً لتوريث الاقطاعات حارب الفرسان بشجاعة ، لانهم يدافعون عن حقوقهم المطلقة . واتبع صلاح الدين نفس المبدأ ، حتى انه جعل الاقطاعات وراثية[52] ، يتضح من المعطيات المختلفة ان العصر الايوبي شكل فترة انتقالية . فلا يزال المدنيون قادرين على الالتحاق بالجندية والوصول الى مرتبة القادة والحصول على المماليك الخاصين بهم ، كما وان موظفي

---

١ - قوانين الدواوين لابن مماتي

١ - انظر كتاب «الافادة والاعتبار» وهو رحلة عبداللطيف البغدادي الى مصر تحقيق احمد غسان سبانو .

الحكومة منحوا اقطاعات كمرتبات لهم ولم يتم توزيع كامل الارض المزروعة على الجنود في مصر والشام ، اذ بقي جزء كبير منها في ايدي الافراد(٥٣) .

وكان نظام الايوبيين اقل عرقلة للزراعة في الشام ومصر من الانظمة الاخرى في الشرق ، فالاقطاعي مسؤ ول عن صيانة السدود ، واقنية الري والجسور والطرق وعليه ان يضمن الاقطاعة المخصصة له ، مزروعة بشكل مناسب ، وترينا النصوص العديدة في المصادر العربية ان الاقطاعيين اشرفوا على الحصاد ، وقضوا بعض الوقت في ضياعهم لرعي الخيول في الربيع ، بالاضافة الى ذلك ، لم يتحول الفلاحون الى ارقاء كما حدث في العصور اللاحقة ، ولا زالت الحكومة تحميهم بفعالية وما زالت الايجارات محددة بدقة حتى لا تكون باهظة . وبذل السلطان الملك الكامل (١٢١٨ - ١٢٣٦) جهوداً كبيرة لزيادة الانتاج الزراعي في مصر ، فاشرف شخصياً على صيانة السدود ، وفرض نفس الواجبات على امرائه وعاقبهم في حال اهمالهم ، ويقول مؤ رخ عربي ان انتاج مصر الزراعي ازداد كثيراً في عهده ، لكن تغيراً طرأ بعد وفاته ، فأهملت سدود كثيرة ، وتهدمت ، كما تناقصت الاراضي المزروعة من جديد ومن جهة اخرى يبدو انه بمعزل عن الجهود التي بذلتها الحكومة ، تواجدت حركة استيطان عفوية ادت الى زيادة الاراضي المزروعة ، ويشير بيان في عام ١١٨١ الى مصادرة حصاد البدو في مناطق الشرقية والبحيرة ، وعلى العموم يبدو انه من المرجح ان عهد الايوبيين شهد فترة ازدهار في زراعة مصر ، فقد تم تصدير القمح الى الحجاز ، واحياناً الى الشام ، وكانت مشكلة القبائل البدوية في هذه الفترة اقل خطورة من السابق بالنسبة للزراعة في مصر وفي الشام الأيوبية ، اذ ان افراد القبائل البدوية التي هاجرت الى اواسط فلسطين في نهاية العصر الايوبي ، اصبحوا فلاحين(٥٤) .

ولكن مصر عانت في نفس الوقت من نتائج المجاعة المريعة ، والجائحة التي خلّفت نتائج بعيدة المدى على التطور الديمغرافي ، ففي النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، قلما يذكر كتاب الحوليات انتشار الوباء ، فالى جانب الوباء ، في دمياط يتحدثون عن جائحة في القاهرة في عام ١١٧٩(٥٥) . وكانت هذه الجائحات القليلة على ما يبدو اوبئة محلية ، ولكن الجائحة التي عمت كل مناطق مصر في عام ١٢٠١ وعام ١٢٠٢ ، هي بالتاكيد كارثة كبيرة ، ففي اعقاب مجاعة رهيبة انتشر

الطاعون وماتت اعداد لا تحصى من الناس[1] ، ولربما كانت الروايات القائلة ان ثلاثة ارباع سكان مصر ماتوا ، مبالغاً فيها ، ولكن رواية شاهد عيان ـ الطبيب العربي عبد اللطيف البغدادي ـ شهادة بالغة القيمة على عدد الضحايا الرهيب . اذ لم يبقَ في كثير من القرى سوى البيوت الخالية . وفي بعض احياء القاهرة مات كل السكان تقريباً . وهذا الوباء هو الكارثة الديمغرافية الثانية في تاريخ مصر في العصور الوسطى ، فقد كانت مجاعة ايام المستنصر نقطة تحول في تطورها الديمغرافي ، عندما توقف التوسع المديد . وعندما تم انتعاش البلاد ، جزئياً ، خلال القرن الثاني عشر انت الضربة الثانية التي انقصت السكان مرة اخرى . ومن المؤكد ان تناقص السكان لم يكن متساوياً في كل مكان ، فمن المرجح ان تدهور الفيوم ، كان اسرع بكثير من تدهور المناطق الاخرى . وقامت فيها ١١٨ مستوطنة في العصر البيزنطي و ١٠٠ مستوطنة فقط في عام ١٣١٥ [٥٦] .

ويبدو ان قانون لوفاسور لم يطبق بعد المجاعة والطاعون في عام ١٢٠١ ـ ١٢٠٢ ، فسوء التغذية ، وانعدام التوازن بين السكر والبروتينات في طعام الطبقات الفقيرة ، كان عاملاً هاماً في مصر ، كما في غيرها من الاماكن ، ويؤكد كل من عبد اللطيف البغدادي والمقريزي على سوء التغذية بين المصريين ، فعبد اللطيف ـ الملاحظ الممتاز[1] ـ يصف كيف اكل الفقراء الجثث والزواحف ، بينما كان المقريزي مدركاً الى حد عجيب للنظام الغذائي اللامتوازن ، وكان يعرف ان سكان مصر العليا توفر لديهم الكثير من السكر من التمور وقصب السكر ، وسكان مصر السفلى من القلقاس ولا شيء غير ذلك[٥٧] .

كما يرينا تطور الاسعار والاجور في النصف الاول من القرن الثالث عشر بوضوح الى اي حد تناقص السكان ، حيث انخفضت اسعار الحبوب الى حد كبير ، وارتفعت الاجور الحقيقية للعمال . فثمن ١٠٠ كغ من القمح ، الذي كان ديناراً واحداً في المتوسط من القرن الثاني عشر ، وصل الى ٠,٧ دينار بعد المجاعة الكبيرة ، ولكن اسعار الخبز ارتفعت ، فرطل الخبز المصري يكلف ٠,٠٠٣٥ ـ ٠,٠٠٤ دينار (اسعار القاهرة) في القرن الحادي عشر ، واصبح متوسط سعره في

١ ـ بصفته طبيب وعالم .

كبيرة، وخصوصاً في المدن الكبرى وعلى الارجح في الاماكن الاخرى ايضاً ، فخارج بوابات الموصل ودمشق والمدن الاخرى بنيت احياء جديدة ، وبنى الامراء الاسواق والخانات والمدارس والمساجد الجديدة في كل مكان ، ويقول ناسخ مجهول عاش في القرن الثاني عشر ان سكان ماردين ايضاً تزايدوا كثيراً في هذه الفترة(٦٠) ، وهكذا عمل في الحياة الاقتصادية باعث جديد ، وتكثفت النشاطات التجارية .

وازداد حجم التجارة بسبب ازدياد المبادلات مع الدويلات الفارسية ، وكثّفت نشاطات التجار الايطاليين المتواجدين في مدن بلاد الشام الواقعة في ايدي الصليبيين العلاقات التجارية للشرق الادنى مع الغرب المسيحي ، وادت الى طلب متزايد باستمرار على التوابل والمنتجات الاخرى التي حصل عليها التجار المسلمون من الجزيرة العربية والهند ، وصدّر التجار الايطاليون من شمال الشام كميات كبيرة من القطن ، الذي اعتبر المادة الاولية للصناعات المزدهرة في لومبارديا. ومنح الامراء الايوبيون الذين احتاجوا للخشب والحديد ، والمواد الاخرى من اجل حروبهم الكثيرة بيسر الامتيازات «لدول المدن التجارية» الايطالية ومنحتهم هذه الامتيازات او في بعض الاحيان المعاهدات التجارية حرية التجارة ، وتخفيض الضرائب والرسوم والحق في تملك فندق (خان) (نزل فيه حيز كبير للتخزين) وتسهيلات اخرى ، عقدت بيزا اتفاقية مع صلاح الدين في عام ١١٧٣ متعهدة بالتصريح استيراد الحديد والخشب والزفت الى مصر وهي السلع التي فرضت الكنيسة الحظر عليها ، كما تم عقد اتفاقية جديدة في عام ١٢١٥ . ارسلت البندقية المبعوثين الى سلطان مصر في عام ١٢٠٨ ، وعام ١٢١٧ ، وعام ١٢٣٨ ، وعام ١٣٤٤ ، وحصلت على امتيازات متعددة ، كما عقد اهالي البندقية معاهدات مع امراء حلب في عام ١٢٠٨ ، وعام ١٢٢٥ ، وعام ١٢٢٩ ، وعام ١٢٥٤ . وتكاثر باستمرار عدد التجار الاوروبيين الذين زاروا موانىء مصر الاسلامية ـ الاسكندرية ودمياط ـ ونفذوا من مدن الشام الساحلية الباقية في ايدي المسيحيين الى المراكز التجارية في الاراضي الداخلية الاسلامية(٦١) .

ولكن الازدهار في التجارة المحلية والدولية رافقه تغير في بنيتها كانت له نتائج بعيدة الاثر على الهيكل الاجتماعي في مصر والشام ، ففي المقام الاول مارس اسياد

مصر والشام الجدد سياسة مشابهة لسياسة السلاجقة ، اوعلى الاصح اضطروا لاتخاذ اجراءات مشابهة ، فالحاجة للحصول على اموال اضافية بعد ان خصصت الحكومة جزءاً كبيراً من الخراج كاقطاعات للجند اضطرتهم للابتزاز ، وفرض ضرائب جديدة . ويذكر كتاب الحوليات في هذه الفترة بعض حالات التجار الاغنياء الذين سلبوا بقسوة . ولكن نتائج نظام المكوس كانت اكثر اهمية . فرغم ان صلاح الدين الغى المكوس فقد اعيد فرضها على يد ابنه وخليفته الاول على عرش مصر - الملك العزيز - كما زيدت نسبتها ايضاً ، ويروي المؤلفون العرب ان الملك الكامل فرض ضرائب جديدة لم يسمع بها احد تسمى الحقوق . وخفض خليفته العادل الثاني نسبة المكوس عند اعتلائه العرش، ولكنه لم يلغها، وفي الشام ايضاً كانت هذه الضرائب التجارية عبئاً ثقيلاً في كل مكان، احياناً يلغيها امير جديد وبعد ذلك بقليل يفرضها ثانية ، كما فعل الملك الجواد عندما اصبح ملكاً على دمشق في عام ١٢٣٨ . لا حاجة للقول بان جباية المكوس قلّلت كثيراً ارباح التجار الصغار[٦٢] الذين لا بد وانهم شعروا بها اكثر من تجار الجملة .

وفي تجارة التوابل العظيمة اصبحت مجموعة من التجار الاغنياء قوية جدا في هذه الفترة ، حتى انها استطاعت ان تحتكرها الى حد كبير ، وصحيح ان تجار «الكارم» بدؤ وا نشاطاتهم في العصر الفاطمي ، ولكن تجارة مصر الهندية آنذاك كانت ما تزال متاحة للعديد من تجار الطبقة الوسطى . وكان تجار الكارم في تلك الفترة اصحاب السفن ، الذين حملوا التوابل الهندية الى الشرق الادنى ، واصبحوا خلال القرن الثالث عشر تجار جملة ، ويبدو انهم كانوا شركة من التجار الاغنياء تعاونوا من وقت لآخر ، او تشاركوا لبعض الوقت او في الاعمال ، وتوفرت لديهم المخازن الكبيرة في مراكز اليمن ومصر التجارية وتمتعوا بحماية الحكومة . واصبحت عائلات تجار التوابل الاغنياء مثل السامرائي والتكريتي ، التي اتت من العراق واستقرت في الشام ارستقراطية تجارية حقيقية ، لقد راسلوا الخلفاء والسلاطين والامراء المسيحيين الذين لجؤ وا لخدماتهم[٦٣] . ولكن تجار الطبقة الوسطى انسحقوا وتنحوا جانباً ، وعليه تسبب النظام الاقطاعي في الاستقطاب الاجتماعي اذ اصبح الاغنياء اكثر غنى والفقراء اشد فقراً .

و ـ الركود التكنولوجي :

جلب العصر السلجوقي والايوبي تغيراً كبيراً في بنية وانتاج الصناعات في الشرق الادنى ، ففي ايام الانتصارات السلجوقية كانت صناعات العراق والشام ومصر ما تزال مزدهرة ، ومنتجاتها متميزة بنوعيتها الممتازة ، ولم يكن باستطاعة الصناعات في غرب وجنوب اوروبا ـ في حال وجودها ـ ان تنافسها. وتغير في اواسط القرن الثالث عشر كل ذلك تماماً ، واغلق العديد من المصانع في الشرق الاوسط وتقلصت بعض الصناعات او اختفت نهائياً ، بينما ارتفع مستوى الانتاج الصناعي في الغرب ، حتى ان تصريف منتجاته في الشرق بدأ بالفعل ، وان هذا التطور يمكن ان يعتبر كمدخل لحل بعض القضايا الرئيسية في التاريخ الشرقي .

تشهد كثير من النصوص في المصادر العربية على تصدير الاقمشة من العراق خلال العصر السلجوقي . في بغداد على الارجح وفي المدن الاخرى انتجت اقمشة العتابي والسفلاطون وانواع الحرير الاخرى في العصور السابقة ، وكما في الماضي انتجت مصانع الكتان الشهيرة في تنيس ودمياط والمدن المجاورة في مصر السفلى تلك المنتجات الممتازة المرغوبة جداً في كل انحاء الشرق الادنى ، والمناطق الاخرى وترينا مئات قوائم المهور الموجودة في مستودع كنيس القاهرة ان العريسين لا بد وان يحصلا على بعض قطع اقمشة التنيسي والدبيقي حتى آخر العهد الفاطمي . يذكر المؤلفون العرب تصدير والدبيقي والدمياطي والاقمشة المصرية الاخرى إلى العراق وتشير معظم النصوص الى منتجات المراكز الرئيسية لصناعة الاقمشة المصرية ، وكانت هناك ايضاً مراكز ثانوية ينتج بعضها الصناعات المنزلية ، ففي المدينة الصغيرة في شمال سورية ـ الباب ـ انتج السجاد ، وانتجت الثياب في بعض قرى حوران .

وكانت صناعة السكر في خوزستان ومناطق فارس الاخرى ما تزال مزدهرة ، ومنتجاتها هدف لتجارة التصدير الناشطة ، كما تشير بيانات كميات السكر الكبيرة المستهلكة في العراق . ويبدو أن السكر انتج أيضاً في أعالي ما بين النهرين ، وان ذكر رخص السكر في العراق في بعض التواريخ دليل آخر على ضخامة هذه الصناعة في بعض البلدان المجاورة له ، وازداد حجم صناعة السكر كثيراً في الشام

ومصر خلال العصر الفاطمي ، ونظراً لشهرة نوعية انتاجها كثر الطلب عليه في كل مكان . ومع مرور الزمن ظهرت أنواع كثيرة من السكر تميزت عن بعضها بدقة . اشتهر سكر الصعيد (مصر العليا) بنقائه لعدة قرون وعرف بالقفطي ، وجرى تصدير كميات كبيرة من السكر الشامي والمصري إلى البلدان الاخرى . تشهد بعض الروايات التي يذكرها مؤلف عربي على تصدير السكر المصري إلى العراق في أواسط القرن الثالث عشر .

وهناك فرع مزدهر آخر من صناعة الشرق الادنى ، هو صناعة الزجاج في سورية وفلسطين . حيث كانت الاواني الزجاجية المنتجة في المدن الساحلية في لبنان ودمشق وحلب ومدن سورية الاخرى وايضاً في الرقة في شمال ما بين النهرين ذات شهرة عالمية ، وبدأ في القرن الثاني عشر صناع الزجاج في بلاد الشام الشمالية بانتاج كميات كبيرة من الاواني المطلية بالميناء والذهب التي اكتسبت شهرة واسعة في كل انحاء العالم ، وهناك سبب وجيه للاعتقاد بان ذوق وطلبات الامراء السلاجقة شغل دوراً كبيراً في تطور هذه الصناعة ، والقصة التي تتضمنها احدى الحوليات العربية ترينا ان الاواني الزجاجية من حلب جرى تصديرها الى آسيا الوسطى في بداية القرن الثالث عشر ، وهناك اثارت الاعجاب(٦٤) .

وهناك دليل آخر ـ في النصوص والآثار ـ على التقدم التقني في العصر السلجوقي فبعض النصوص في الحوليات في العراق تذكر ان الطواحين كانت لا تدار بالماء ، من المعروف جيداً ان طواحين الهواء استعملت في سجستان في القرن العاشر (وربما قبل ذلك) . ويتحدث كاتب الحوليات العراقي ابن الجوزي عن الطواحين التي تدور ، وتطحن الحبوب على الارض ، دون ان يعرف احد كيف تدار وترجع هذه البيانات الى عام ١٠٨٨ ، وعام ١١٥٢ ، فلو استعملت قوة الحرارة او الجاذبية لادرك الانسان هذه الوسائل ، وهكذا يمكن ان تكون القوة المغناطيسية هي المستعملة او ان الاشارة هي الى الطواحين الهوائية ، ومهما كان الامر ، يبدو ان طواحين الهواء لم تستعمل في الشرق الاوسط(٦٥) .

والنماذج الجديدة من الفخار والاواني المعدنية اللذي انتشر في القرن الثاني عشر هي اختراعات تقنية ذات اهمية كبيرة ، فصانعو الفخار في الشرق الادنى ، تعلموا

تقليد البورسلين الصيني الشفاف باستعمال عجينة صناعية ، وقد قلدوها لفترة طويلة بوضع طلاء لماع فوق فخار عادي أولي ، ومن ثم استخدموا فيما بعد تركيبة من حصى الكوارتز والبوتاس المصهور لكي يتكون الطلاء اللماع والجسم من نفس المادة ، استخدم الاسلوب الجديد في الري وقاشان والرحبة وفي مصر ايضاً ، وفي النصف الاول من القرن الثالث عشر ، تطورت صناعة الاواني المعدنية الى حد كبير في اعالي ما بين النهرين ، وامكنة اخرى من حيث نوعية وكمية المتنجات . واصبحت صناعة الاواني المعدنية المرصعة (المطعمة) صناعة مزدهرة في بعض المدن كالموصل . وكان استعمال التطعيم الفضي على الاقل نادراً قبل هذه الفترة ، نظراً لندرة الفضة لفترة طويلة في ايران ، وبلدان غرب آسيا الاخرى . . وبدأ في النصف الثاني من القرن الثاني عشر انتاج الاواني المطعمة بالفضة في شرق ايران ، بينما اشتهرت في عصر الايوبيين الاباريق والطسوت والصحون والاواني المطعمة الاخرى المصنوعة في الموصل ، وفيما بعد في الشام ومصر على يد الصناع الذين هاجروا من الموصل ، ونالت اعجاب الاغنياء ، وجرى تصديرها الى كل مكان[٦٦] ..

ومقابل استقدام طراز جديد في بعض الحرف الفنية ، ظهر في هذه الفترة تدهور ملحوظ في بعض فروع التقنية ، بينما لم تظهر اختراعات جديدة في الصناعات التي لم ينلها التدهور .

ويدرك القارىء المدقق للحوليات العربية في العصر السلجوقي هذه الحقائق ، لانه يقرأ من وقت لآخرعن الجسور المنهارةوالسدود المتفجرة ، لان كاتب الحوليات غالباً ما يكشف ان ذلك لم يكن نتيجة الاهمال ، بل البناء السيء والاصلاحات اللامجدية ، ويذكر ابن الجوزي ان الجسور فوق قناة نهر ابن عيسى الكبرى تهدمت في عام ١٠٣٦ ، وان الجسر العائم فوق الدجلة جرفته المياه المرتفعة في عام ١٠٤٠ ، كما ان تقارير انفجار السدود عديدة جداً . ففي عام ١٠٦٢ انفجر سد قناة تمره الى الشرق من بغداد ، كما حدث ذلك لسدود نهر دجلة نتيجة لفيضان عام ١٠٦٩ ، ويلقي وصف الابنية الهيدروليكية لبهروز حاكم بغداد السلجوقي الضوء على هذه الاحوال . لقد اعاد بناء سد النهروان الكبير ثلاث مرات ، واستمرت الاعمال سبع سنوات من ١١٤٠ حتى وفاته في عام ١١٤٦ . تعهد

مهندسوه بتجفيف القاع القديم لقناة النهروان لتعميقها ، ومن ثم اعادة الماء له ببناء سد مرتفع جداً . بالاضافة الى ذلك ، حفروا قناة فرعية لجلب الماء من قناة ديالى . ولكن ثبت ان المشروع اخفق اخفاقاً كبيراً ، وانحرف مجرى الماء ، وبقي السد الكبير وسط الارض الجافة ، وضاعت المعرفة التقنية التي تملكها المهندسون الفرس والبابليون في السابق ، وبدا ان مشروع بهروز اكبر من مهندسي القرن الثاني عشر ، في النصف الثاني من القرن الثاني عشر حدثت تفجرات اخرى في السدود ، وفي عام ١١٥٩ تهدم سد قرب بغداد وغطى الماء بعض احياء المدينة ، وحدث الشيء نفسه في عام ١١٧٤ ، وفي نهاية عصر الخلفاء حدثت سلسلة اخرى من الكوارث ، وفي عام ١٢٤٨ جرف نهر دجلة السدود قرب بغداد ، وفي عام ١٢٥٤ تكسرت سدود كثيرة على الفرات ودجلة وفاضت الحقول ، وفي عام ١٢٥٦ تسبب الماء المرتفع في اغراق الحقول على ضفتي دجلة ، ويقول كاتب حوليات عربي معاصر صراحة بان الدوائر الحكومية عاجزة عن اصلاح الاضرار[٦٧] . قلّل اهمال المشاريع المائية المعرفة التقنية لان الناس نسوا اصلاح السدود لندرة تفقدها واصلاحها .

ان تنفيذ الابنية العظيمة في مصر في نهاية القرن الثاني عشر لا يناقض فرضية التدهور التقني لان قلعة وجدران القاهرة الجديدة التي اقيمت بناء على اوامر صلاح الدين بناها الاسرى المسيحيون ، والدليل على ذلك افادة شاهد عيان مسلم وهو الرحالة الاندلسي ابن جبير ، الذي يقول ان كلاً من العمال والمراقبين من الافرنج . انه ينقل ما يرى ، ولكنه لم يعلم ان المهندسين المعماريين ايضاً من الافرنج ، كما يكشف ذلك الطراز السوري الفرنسي ، ولكن تخطيط الاجانب لبناء عسكري كبير في مصر لم يكن ظاهرة جديدة ، لان الابنية التي اقيمت باوامر بدر الجمالي قبل مائة سنة صممها ثلاثة من الارمن من الرُّها تقليداً للتحصينات البيزنطية[٦٨] .

وهناك ادلة قوية على الركود التقني في الزراعة . فالنواعير هي نفس النواعير المستعملة للري قبل قرون ، وعندما تسبب الطقس البارد بتجميد الانهار ، لم

---

*ـ في هذا تحامل شديد وتجاهل لجميع اعمال التحصينات في البلدان الاسلامية وخاصة الشام، يضاف الى هذا ان الفترة المتحدث عنها شهدت تقدماً كبيراً في الصناعات الحربية فقد وصلنا عدد كبير من المصنفات في هذا الباب ، كما وصلتنا مؤلفات اخرى ، اهمها مؤلفات الجزري .

تتمكن النواعير من العمل ، ومن المرجح ان محاولات التحسين اقترحها المهندسون وعلماء الرياضيات ، ولكن اما انها كانت مخفقة او انها لم تجرب قط ، ولم تستمر صيانة اقنية الري في العراق ، مما جعل الطمي يقلل كمية الماء التي يمكن تزويد الفروع بها ، والتناقض كبير بين الركود التقني وحتى التدهور ، وبين التقدم العظيم الذي حققته الزراعة الاوروبية في نفس الفترة(٦٩) .

إن تدهور صناعة النسيج في الشرق الأدنى في النصف الأول من القرن الثالث عشر معروف للجميع من خلال أوصاف المؤلفين العرب ، وقد كررها المختصون المعاصرون دون تحليل الأسباب الحقيقية لهذه الظاهرة ، فقد دمِّرت تنيس - المركز العظيم لصناعة الأقمشة الكتانية في مصر - بأمر من السلطان الملك الكامل في عام ١٢٢٧ ، خوفاً من وقوعها في أيدي الصليبيين ، وبقيت خرائب بعد ذلك وحيث يذكرها المقريزي في كتابه عن خطط مصر يتحدث عن مدينة غير موجودة ، وبصيغة الماضي(٧٠) ، ويفعل الشيء نفسه عندما يتحدث عن بعض المدن الصناعية الأخرى في مصر السفلى ، مثل تونا والقيس ، وأغلقت المصانع في دبيق وشطا أيضاً ، وحسب شهادة المؤلفين العرب في أواخر العصور الوسطى كانت خراباً ، يبدو أن دبيق دمرت في نهاية القرن الثاني عشر ، لأن ياقوت يستعمل صيغة الماضي عندما يتحدث عن هذه المدنية ، وفي نص آخر يقول أنها خراب في أيامه . حتى في القاهرة استخدمت مصانع النسيج القديمة كمدارس للفقهاء في العصر الأيوبي(٧١) .

ولكن على المرء ألا يضلل بكتابات مؤلفي العصور الوسطى ، فلا يمكن أن يكون إخلاء تنيس وتدهورها إللاحق مع المدن الأخرى في مصر السفلى السبب الوحيد لتدهور صناعة النسيج المصرية ، فلو جلبت مصانعها أرباحاً مناسبة لأعيد افتتاحها في أمكنة أخرى ، لقد اختفت لأنها لم تعد مربحة بما يكفي لإغراء رجال الأعمال بإعادة بنائها ، وفضّل المتعهدون استيراد الأقمشة الأوربية الأرخص والاجود .

لم تستطع صناعات الأقمشة في الشرق الأدنى منافسة المنتجات المستوردة من غرب وجنوب أوروبا ، لظهور ابتكارين هامين في الغرب المسيحي ، أولهما استعمال المدوس [اللباد] فهذه الأداة التي لم يعرفها اليونان والرومان من قبل ، استعملت في شمال فرنسا في القرن الحادي عشر ، واستعملها النساجون الانجليز

في نهاية القرن الثاني عشر ، وظهرت أنوال المدوس مراراً في زخارف كتب القرن الثالث عشر ، والابتكار الآخر هو آلات عدك القماش الآلية ، فالآلات المدارة بالماء استخدمت لعدك المواد الصوفية في إيطاليا في نهاية القرن العاشر ، وعرفت في بعض مناطق فرنسا في القرن الحادي عشر ، ثم استقدمت إلى ألمانيا وانكلترا ، واستخدام آلات العدك يعني «الثورة الصناعية» الحقيقية لصناعة الصوف الانكليزية[72] ، ولا حاجة للقول بأن معرفة استخدام الماء لإدارة الآلات (بالاضافة إلى طواحين الحبوب) مكّنت من استخدامها ليس فقط في العدك بل وفي كثير من النشاطات الصناعية الأخرىٰ ، ويبدو أن كلاً من أنوال المدوس ، وهذه الآلة لم يعرفا في الشرق الأوسط ، أو بصورة أدق لم يستخدما في الصناعة ، وحتىٰ الآلات المدارة بالماء الجاري والمستخدمة لطحن الحبوب تلاشت في القرن العاشر ، ويستخدم ابن حوقل صيغة الماضي لدى الحديث عن هذه الآلات في بعض مدن العراق وأعالي بلاد ما بين النهرين . فيقول إن مطاحن بلد وبغداد توقفت عن العمل ، بينما لا زال بعضها يعمل في الموصل والحديثة على نهر دجلة ، وبالاضافة إلى ذلك يتحدث عن وجود مثل هذه المطاحن في تكريت وعقبراة وتفليس جورجيا ، ويقول الجغرافي العربي : لا يمكن مقارنة الطواحين المقامة على الفرات في قلعة جعبر والرقة بطواحين أعالي ما بين النهرين والمدن الواقعة على دجلة[73] ، وهكذا أتىٰ الركود التقني في الشرق الأوسط عقب فترة من التقدم الكبير . ومهما كانت أسباب هذه الظاهرة فإنها جلبت التدهور لصناعات كثيرة ، حيث أغلقت مصانع تنيس والمدن المجاورة ، ليس بسبب خطر الغزو الصليبي ، بل لأنها أصبحت فنياً أدنىٰ من الصناعات في بلاد الفلاندز وإيطاليا .

ولكن لماذا تخلفت صناعات الشرق الأدنىٰ ؟ لماذا لم تحرز التقدم كما في السابق ؟ يبدو أن أحد الأسباب الأساسية هو تغير البنية الصناعية . فالتقدم الصناعي العظيم تحقق عندما سادت حرية المشاريع وازدهار نظام دور الطراز - المصانع التي هي في الواقع مشاريع صناعية كبرىٰ . فهذه المشاريع الكبيرة استطاعت القيام بالتجارب التي أدت إلى الابتكارات التقنية .

لكن في العصر السلجوقي ، والعصر الأيوبي عرقل الأمراء حرية المشاريع ، وأقاموا الاحتكارات وفرضوا الضرائب الباهظة على المصانع ، وهذا جلب التدهور

البطيء للصناعة الخاصة .

كما أن نظام دور الطراز تدهور أيضاً ، ولا زالت مصانع الطراز قائمة في كل مكان ، ولكنها لم تعد تتوفر لها الأموال التي توفرت في عهد العباسيين والفاطميين الأوائل . ويلقي أحد النصوص في خطط مصر للمقريزي الضوء على تدهور نظام دور الطراز هناك . يقول : أن قيمة الانتاج السنوي لمصانع دور الطراز المصري للبلاط الملكي ١٠,٠٠٠ دينار بينما تشهد النصوص الأخرى في نفس الكتاب أن مبالغ أكبر خصصت لها في الأيام السابقة[٧٤] . هذا الرقم بالتأكيد يعود إلى الفترة الفاطمية المتأخرة ويظهر التدهور الكبير في إنتاج دور الطراز . كان التدهور في العراق بدون شك أكثر وضوحاً . ومن المؤكد أن التجارب في هذه الظروف أصبحت أكبر من إمكانيات دور الطراز .

إن التدهور التقني هو نتيجة للحكم العسكري الاقطاعي ، بينما تعرضت الصناعة الخاصة للعرقلة ، وحتىْ للقمع ، ولم تعد الصناعة الملكية تجهد من أجل الابتكارات التقنية ، وهذا عامل حاسم بالتأكيد في التدهور الصناعي .



الفصل السابع

العراق في ظل أمراء الإقطاع المغول والتركمان

منذ أواسط القرن الثالث عشر أصبح العراق تحت حكم طبقة عسكرية أجنبية من المغول والتركمان لمدة ثمانين عاماً ، ووصلت الإقطاعية الى الذروة وتدنت أحوال الطبقة العاملة الى الحضيض ، وعاش سكان العراق في ظل نظام مصمم فقط على الاستغلال الظالم ، وعلى المؤرخ الذي يصف نتائج هذا النظام أن يستخدم تعابير «التدهور» و «الانحلال» المرة تلو المرة ، ولكن المادة الرئيسية في تاريخ العراق في الجزء الأخير من العصور الوسطى هو بالفعل كذلك .

آ ـ حكم الايلخانات :

كان تجدد حكم الخليفة في العراق نوعاً من الصيف الهندي ، ففي أواسط القرن الثالث عشر اكتسحت الشرق الأدنى موجة من القبائل الرحل في أواسط آسيا ، ولم يستطع حكامها المتصارعون القيام بالمقاومة القوية ، وكان معظم الغزاة من الأتراك ولكن زعماءهم من المغول القساة الذين لم يتصلوا قط بالحضارة الإسلامية الرفيعة ، أو أن اتصالهم بها كان سطحياً ، ارتكب الخليفة الناصر الذكي خطيئة فظيعة ، عندما حرّض المغول ضد شاه خوارزم الذي كان بإمكانه وحده حماية ايران من الغزاة ، وعندما سقطت مملكته القوية اكتسح المغول البلاد ، ومعها كل الشرق الأدنى تقريباً ، فجيوشهم كانت أقوى من جيوش أمراء الشرق الأوسط إذ أن جيش هولاكو الذي غزا ايران والعراق وسوريا في عام ١٢٥٦ بلغ ٧٠,٠٠٠ رجل ، كما أن نظامهم العسكري كان أفضل من نظام المسلمين . وأخيراً استخدموا المجانيق الصينية التي كانت متفوقة على أسلحة الشرق الأوسط .

وبعد حملة قصيرة في عام ١٢٥٨ اقتحم هولاكو بغداد مركز الخلافة ، وعاصمة العالم الإسلامي . فأصبح العراق مقاطعة من امبراطورية المغول ، أو

بالأحرى مملكة المغول الايرانية التي كانت جزءاً منها . في المقاطعات المختلفة وترك الفاتحـون الأمـراء على عروشهـم ـ السلغـريون في فارس والهازاراسـبيون في لورستان ، والأراتقة في بعض مناطق أعالي ما بين النهرين ، ولكن العراق اندمج في مملكتهم التي ضمت أيضاً أفغانستان وأذربيجان وآسيا الصغرى حتى نهر قيزيل إيرماق ، ولم تعد بغداد مركز الحكومة لأن ملـوك ايران المغـول الـذين يسمون الايلخانـات جعلـوا عاصمتهـم تبـريز ، وفيا بعـد السلطـانية ، وعجـان والمدن الأخرى في أذربيجان .

وكان لسقوط العراق تحت حكم المغـول نتيجة هامـة ، لأن إقامـة الحـكم الايلخاني معناه تغير كامل في نظام الحكومة ، فالحكام الجدد بدو رحـل حقيقيون غريبون عن حياة الاستقرار ، تواقون لاستغلال الفلاحين وسكان المدن الى أقصى الحدود ، ولمدة نصف قرن احتفظت الطبقة الحاكمة بهويتها القومية ولغتها ووثنيتها ولباسها الغريب ، ولا حاجة للقول بأن الجيش المغـولي اعتـاد أن ينهـب القـرى ويسوق المواشي وصادر الحكام الجدد أيضاً حقول الحبوب لاستخدامها كمراعي .

وأصبح العبء الضريبي أثقل من السابق ، فالى جانب ضريبة الخراج جبى المغول من السكان المستوطنين ضريبة الرؤوس (كُبشُر)، وضرائب متعـددة أخـرى لسـدّ نفقات الإدارة (إخراجات، عوارض) وضرائب استثنائية (شلتكات ، شناكيس) ، ولما كانت هذه الضرائب تضمن عادة فلا بد من تغطية أرباح الضامنين على حساب دافعي الضرائب ، كما أنها جبيت بطرق اعتباطية ـ مقدماً وعدة مرات في السنة ـ وبالتالي فإن وضع السـكان ، وخصوصـاً الفلاحـين أصبـح أحيانـاً لا يحتمـل ، وتعرض سكان المدن لخسائر فادحة بسبب الشراء الإجباري (الطرح) ، واضطروا لدفع الضرائب التجارية (دفعة) ، ولكن الأسوأ من العبء الضرائبي هو نظام إيواء الجنود ، ولو استطعنا أن نصـدق شهـادة مؤرخ ايرانـي معـاصر ، فإن السرقـات والنهب المرتبط بهذا النظام كانت ذات آثار مدمرة على رعايا الايلخانات ، وإن دفع ديون الحكومة بإصدار السندات على إحدى المناطق عادة قديمة في الامبراطوريات الشرقية ، ولكنه أصبح في عصر الايلخانات أشد وطأة ، كما أن ضرائـب سكان المدن أصبحت أيضاً استغلالاً قاسياً ، ويصف كاتب الحوليات العربي المعاصر ابن الفوطي كيف جرى ابتـزاز المبالـغ الكبـيرة مراراً من سكان بغـداد وبمختلف الطرق . [1]

وكان غازان (١٢٩٥ ـ ١٣٠٤) ـ أعظم الايلخانات ـ فقد كان حاكماً بعيد النظر ، حاول تحسين نظام الحكومة ، وقرر أن ضريبة الخراج يجب أن تُجبى وفق نسبة محددة ، وألغى نظام إيواء الجنود والموظفين في المنازل الخاصة ، ومنع استخدام العنف في جباية الضرائب ، وتغيير آخر هام أحدثه غازان هو إنشاء النظام الإقطاعي في ملكية الأراضي ، كان قبل حكمه قد منح الحكام العسكريين الإقطاعات ولكنه وزعها عليهم جميعاً دون استثناء ، وثانياً جعل الإقطاعات وراثية رغم أنها لم تكن بالضرورة موروثة من قبل أبناء مالكيها السابقين . [٣]

وإقامة النظام الإقطاعي متصل بالتأكيد بالانحطاط الإقطاعي ، لأن اقتصاديات العراق والبلدان المجاورة أصبحت بعد الانتصار المغولي اقتصاديات طبيعية في غالبيتها ، فمعظم الضرائب الزراعية في العراق دفعت عيناً ، وكذلك الرواتب والأجور . [٤]

ولكن أهم ظاهرة في تاريخ العراق الاجتماعي في تلك الفترة هي تناقص السكان ، ورغم أنه لم تصلنا حوليات تفصيلية من تلك الفترة من تاريخ العراق ، فليس هناك أي شك في ذلك .

إن الخراب الذي جلبته قسوة الفاتحين المغول ، هي بالتأكيد لا تقارن بنتائج أي غزو سابق ، فالاستيلاء على عدة مدن في العراق ، وأعالي ما بين النهرين تبعته مجازر رهيبة ، فعدد الأشخاص الذين قتلوا في بغداد بعد الاستيلاء عليها في عام ١٢٥٨ يبلغ حوالي ١٠٠,٠٠٠ شخص ، كما ارتكبت عدة مجازر أيضاً في واسط وإربيل ونصيبين ودنسير وحران وأورفا والرقة وسروج ومنبج وبيرة وبالس وقلعة جعبر . ففي الموصل التي نجت من مذابح عام ١٢٥٨ ، تعرضت لمجزرة مماثلة في عام ١٢٦٢ ، ربما بالغ الكتاب الشرقيون المعاصرون في أوصافهم للغزو المغولي ، لأن الكثيرين من سكان مدن العراق وأعالي ما بين النهرين هربوا قبل وصول المغول وعادوا بعد رحيلهم ، ولكن من المؤكد أن استيلاء المغول على العراق كان كارثة ديمغرافية ، فكثير من المدن بقيت مهجورة ، كما حدثت المجازر في الريف أيضاً ، ويقول رشيد الدين : ـ المدافع عن الايلخانيين ـ أن سكان المناطق الحدودية جرى تهجيرهم وبقيت الأراضي يباباً ، كما يقول : أن الشيء نفسه حدث في بعض

مناطق ديار بكر مثل حران وأورفا والرقة وسروج وأبلستين ، ولكنه يقسم أن معظم المدن على ضفتي الفرات كانت أيضاً منهوبة ومهجورة . (٥)

وفي أعقاب سفك الدماء الذي رافق الاحتلال المغولي ، أتى بعض الانتعاش . فإدارة العراق من قبل عطاء الملك الجويني الذي شغل منصبه لمدة ٢٤ عاماً (١٢٥٨ ـ ١٢٨٢) ، جلبت بعض الانفراج لهذا البلد الجريح ، وكانت بغداد المقر الشتوي للايلخانات ، ويدل وجود دور السك في واسط والحلة والبصرة وسنجار على أن المدن الأخرى انتعشت الى حد ما ، ومن جهة أخرى شهد النصف الثاني من القرن الثالث عشر فترات متعددة من المجاعات التي تعود لعدة أسباب من بينها انعدام المطر وأوبئة الجراد ، وأصبحت أحياناً المواد الغذائية نادرة ليس بسبب المواسم الرديئة بل بسبب تلاعب التجار المخادع أو التغيرات في النظام النقدي ، ومهما كانت أسباب هذه الأزمات فقد اختفى الخبز ، وعانى الفقراء من نقص التغذية ، وبالتالي الأمراض كما حدث في الأعوام ١٢٧٠ ، ١٢٧٩ ، ١٢٨٥ ، ١٢٨٦ ، وحسب شهادة كاتب حوليات معاصر باع الفقراء أولادهم في عام ١٢٨٥ ، وفي عام ١٢٨٦ انتشرت مختلف الأمراض في بغداد ، وفي النصف الأول من القرن الرابع عشر عادت المجاعة ثانية ، وفي عام ١٣١٨ حدثت الندرة في كل مناطق أعالي ما بين النهرين ، وفي بعض المناطق المحيطة ببغداد أيضاً ، ويقول أحد كتاب الحوليات أن الكثيرين من الناس غادروا البلاد ، بينما اضطر الآخرون لبيع أولادهم أو الى أكل الجثث ، وفي عام ١٢٣٨ حدثت الندرة في نفس المناطق . (٦)

إن أوصاف ابن بطوطة الذي جاب العالم ، وزار العراق في عام ١٣٢٧ ، وزاره مرة ثانية ١٣٤٨ ، والكاتب الفارسي حمدالله القزويني الذي كتب في عام ١٣٣٩ ، تقدم لنا معلومات قيمة عن تطور العراق الديمغرافي في ظل الايلخانات ، فبغداد كما يصفها القزويني لا تزال شبيهة بالمدينة ، كما وصفها ابن جبير في ثمانينات القرن الثاني عشر ، وحسب عائدات المكوس التجارية كما يذكرها نفس المؤلف ، لا تزال بغداد المدينة الثانية في مملكة الايلخانات (تبريز هي الأولى في الايرادات) ، بينما احتلت واسط المركز الرابع ، ومن الناحية الأخرى يتحدث كل من ابن بطوطة والقزويني عن خراب مدن عديدة في العراق وأعالي ما بين

النهرين ، مثل عبدان والمدائن وحلوان وخانقين والنهروان والكوفة وكربلاء والقادسية وعقبراء ، ودارا وحصن كيفا ، وبالإمكان إضافة مدن أخرى الى القائمة . فالرقة ـ على سبيل المثال ـ التي كانت مدينة مزدهرة حتى القرن الرابع الرابع عشر ، ويقول أيضاً أن ثلث الموصل قد أصبح خرائب ، ولكن مقارنة أوصاف كتاب القرن الرابع عشر مع الفترة الأقدم مثل ابن جبير وياقوت تقترح أن التدهور كان بطيئاً ومستمراً ، لقد بدأ قبل الغزو المغولي بوقت طويل . وليس دائماً سوء الحكم هو الذي جلب الخراب إلى المدن ، فبعض المدن مثل كربلاء تدهورت بسبب الصراع الطائفي ، ومدن أخرى بسبب تغير طرق التجارة البرية ، وهكذا تدهورت النهروان وبدأت بصعوبة بالازدهار عندما انتقل طريق القوافل إلى ايران نحو الشمال (وهو المسمى طريق خراسان) ، وحسب رواية حمدالله القزويني تنامت بعض المدن كثيراً في تلك الفترة مثل جزيرة ابن عمر وسرت في أعالي ما بين النهرين[7] ، كما يمكن الإشارة أيضاً إلى بعض البيانات التي تشهد على تعافي بعض المناطق الريفية في العراق الغربي ، ويقدم رشيد الدين وصفاً حماسياً لمنطقة عانه في أيام غازان ، كما يتحدث ابن بطوطة أيضاً بعبارات براقة عن منطقة الفرات التي تجول فيها في عام ١٣٤٨[8] .

ولكن الصورة العامة التي تظهر من هذه الأوصاف ، هي تدهور سكان العراق العام والمستمر في ظل الايلخانات ، فتناقص السكان الذي بدأ بعد تفكك الخلافة بوقت قصير تسارع بعد الغزو المغولي ، وهذا الاستنتاج القائم على الشهادات الأدبية تسانده بشكل مقنع التحريات الأثرية القائمة على الاكتشافات السطحية والتي قام بها ر . ماك آدامز ، وجد أن المنطقة المعمورة في منطقة ديالي شرق العراق تقلصت من ٤١٤ هكتار ، قبل الغزو المغولي للعراق إلى ١٩٠ هكتار بعده ، بسبب التناقص في السكان في العراق ، وكانت نتائج الغزو المغولي مدمرة لدرجة أن مراقباً جيداً مثل حمدالله القزويني الذي قام بمشاهدتها وتسجيلها ، يقول حرفياً : «وليس هناك أي شك في أنه إذا لم يحل في ذلك البلد أي شرّ لمدة ١٠٠٠ عام فلن يكون بالإمكان إصلاح الضرر كاملاً ، وإعادة الأراضي إلى تلك الحالة التي كانت عليها سابقاً .»[9]

لقد أثبتت أبحاث ماك آدامز أن عدداً كبيراً من المستوطنات الريفية قد اختفى

أثناء حكم الايلخانات ، وفي حالات كثيرة كان ذلك نتيجة للصيانة غير المناسبة لأنظمة الري ، وفي حالات أخرى فمن المرجح أنه نتيجة لتناقص السكان وأحياناً كلاهما معاً ، وعندما أصبح عدد سكان القرية قليلاً جداً ، لم يعد بالإمكان صيانة أقنية الري ، وتناقصت المحاصيل وأخيراً اضطروا لهجر المستوطنة ، والجدول التالي يلخص نتائج ماك آدامز :

الأماكن العباسية المتأخرة المستمرة او التي
اعيد استيطانها في عهد الايلخانات

المدن الكبيرة ٢ (٢٨ هكتار)
المدن الصغيرة ١٢ (٥٨ هكتار)
القرى ٣٥ (٦١ هكتار)

الأماكن المستوطنة حديثا في عهد الايلخانات	الاماكن المهجورة في عهد الايلخانات او بعده بقليل
المدن الكبيرة ١ (٢٠ هكتار)	المدن الكبيرة ٣ (٤٨ هكتار)
المدن الصغيرة ١ (٧,٥ هكتار)	الأماكن الأخرى ٥١ (١٢٣ هكتار)
القرى ١٣ (١٦ هكتار)	
المجموع ٦٤ مكان (١٩٠ هكتار)	المجموع ٥٤ مكان (١٧١ هكتار)

وهكذا نرى ان ٤٧,٥٪ من المناطق المأهولة في ديالى هجرت خلال هذه الفترة . ونتائج تحريات آدامز اكثر وضوحا في أن المستوطنات الرئيسية لا يتضمنها الجدول اعلاه ، لأن تدهورها لم يكن أقل حدة . ويعتقد آدامز أن هناك تناقصاً كبيراً في عدد السكان في هذه المنطقة في ظل الحكم الاسلامي . انه يقدر الأرقام التالية :

سكان مقاطعة ديالى (ومن ضمنها بغداد)

عام ٨٠٠ ميلادية	٨٧٠٠٠٠ نسمة
١١٠٠	٤٠٠٠٠٠ نسمة
بعد عام ١٢٥٨	٦٠٠٠٠ نسمة

الفصل السادس

١ - CAHEN

٢ - ابن الجوزي - ٩ ص ص ٦٣ ، ١٥٠ ، ٢٢٨ .

LAMBTON

٣ - ابن الاثير - ١٠ ص ٤٦١ .

ابن الجوزي - ١٠ ص ٢٥٢

٤ - ابن الجوزي - ٩ ص ١٣٤ .

ابن الجوزي - ١٠ ص ص ٢٥ ، ٤٥ ، ١٢٤

ابن الاثير - ١٠ ص ص ٢١٠ ، ٢٢٧ ، ٣٨٤ ، ٣٩٦ .

٥ - ابن القلانسي ص ص ١١٤ ، ٢٠٣ ، ٢١٣ ، ٢٤٢ .

كمال الدين في ROL - ٣ ص ٢١٧

كمال الدين في ROL - ٥ ص ص ٤٢ ، ٩٥ .

ابو شامة - كتاب الروضيتين - ١ ص ٤٣ وما بعدها .

ابو شامة ذيل الروضتين (دمشق ١٩٤٧) ص ص ٨١ ، ٨٩

القلقشندي - صبح الأعشى ١٣ ، ٣٦ .

CAHEN

٦ - LAMBTON

عماد الدين كما ينقل عنه البندري (تحقيق هوتسما) نصوص خاصة بالتاريخ السلجوقي - ٢ ص ٥٨ .

النصوص الموجودة في (تاريخ اتابكة الموصل) ينقلها CHHEN

٧ - نظام الملك سياسة نامة (ترجمة دارله - لندن ١٩٦٠) ص ٤٣ .

CAHEN

البندري

حول هذا الجدل انظر CAHEN

٨ ـ ابن الأثير ـ ١٢ ص ٥١
نظام الملك ـ سياسة نامة ص ١٣٢ .
٩ ـ ابن الجوزي ـ ٩ ص ص ٦١ ، ٦٣
ابن الأثير ـ ١٠ص ص ١٤ ، ٢٣ وما بعدها ، ٧٩ ، ٢٩٣ وما بعدها .
١٠ ـ ابن الأثير ـ ١٠ ص ٣٨٢ .
ابن الجوزي ـ ٩ ص ٢٢٨ .
حول صناعة الحرير في بغداد انظر SERJEANT

١١ ـ ابن الجوزي ـ ٩ ص ص ١١٢ ، ٢٥٠ .
ابن الجوزي ١٠ ص ص ٢٧ ، ٢٢٧ .
ابن الأثير ـ ١٠ ص ٢٠٣ .
١٢ ـ ابن القلانسي ص ص ١١٨ ، ٢٣٥ ، ٣٢٩ .
ابن الأثير ١٠ ص ص ١٠٥ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٩ ، ٢٦٦ ، ٢٩٥ ، ٣١٧ ، ٣٦٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢٥ .
ابن الجوزي ـ ٩ ص ص ٣٥ ، ٧٢ ، ٢١٨ ، ٢٢٨ ، ٢٣٢ .
ابن الجوزي ١٠ ص ص ٧٨ وما بعدها ، ١٢٠ ، ١٩٤ ، ٢٣٣ .
أبو شامة ـ كتاب الروضتين ـ ١ ، ص ص ٥ ، ٧ ، ١٦
LAMBTON

١٣ ـ سبط ابن الجوزي كما ينقل عنه امدروز في ملاحظاته عن ابن القلانسي ص ١١١ .
LASSNER
ياقوت ـ ٢ ص ٥٧٥ .
ابن رسته (ترجمة فييت) ص ١٩٠ .
وانظر ايضا (حول اسكاف بني جنيد) ياقوت ـ ١ ، ص ٢٥٢ .
ابن الأثير ـ ٢ ص ص ٤٠ ، ٧٢ وما بعدها .
ابن الجوزي ـ ١٠ ص ١٣٨ .
كمال الدين في Recueil- SAUVAGET

١٤ ـ ابن سينا ـ القانون (روما ١٥٩٣) ـ ٤ ص ٦٧ .
ثابت بن قرة ـ الذخيرة (القاهرة ١٩٢٨) ص ٧ .

STICKER

ابن حجر apud ابن اياس ـ ١ ص ٣٤٨

SUBLET

١٥ ـ ابن الجوزي ـ ٩ ص ص ١٤ وما بعدها ، ٢٧ ، ١١٣ ، ٢٤٩ ،
ابن الجوزي ١٠ ص ص ٦٨ ، ١٢٠ ، ١٣٨ ، ١٧٦ .
ابن الأثير ـ ٩ ص ٤٣٤
ابن الأثير ١٠ ص ص ٦٩ ، ٢٠٤ ، ٢٧٣ ، ٤٣٥ .
ابن تغردي بردي ـ النجوم الزاهرة (تحقيق بوبر) ـ ٢ ص ٢٧٢

KREMER

STICKER

ابن سينا ـ القانون ـ ٢ ص ٣٠٢
ابن هبل ـ كتاب المختارات في الطب (حيدر آباد ١٣٦٢ ـ ٣٦٣) ـ ٣
ص ٢٣ وما بعدها .

١٦ ـ diet

هذه الاحصاءات تعود الى العمال المصريين ولكن غذاء اخوانهم العراقيين والسوريين كانت مشابهة أو أكثر فقراً .

١٧ ـ diet

ابن الاثير ١٢ ص ص ٤٨ ، ٣١٤ ، ٣٤١
سبط بن الجوزي ـ مرآة الزمان (تحقيق جيويت) ص ص ٣٢ ، ٢٣٠ ، ٣٠٧ .
أسامة بن منقذ ـ سيرة اسامة (تحقيق ديرينبورغ) ص ٨٨
ابو شامة ـ كتاب الروضتين ـ ٢ ص ٢٢٩
ابو شامة ذيل الروضتين ص ص ٢٢٠ ، ٢٢٩
ابن خلكان ـ كتاب الوفيات ـ ٢ ص ٣٨٩
ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ١٣ ص ١٦٤

١٨ ـ ابن جبير ـ الرحلة (ليدن ١٩٠٧) ص ص ٢١١ ، ٢٢٥ ، ٢٣٢
ياقوت ـ ٢ ، ص ص ٢٣ ، ٥٤
LE STRANGE

CAHEN

Histoire - ١٩ :
٢٠ ـ ابن الجوزي ـ ٨ ص ٢٤١
ابن الجوزي ٩ ص ص ٤٩ ، ١٣٢ ، ٢٠٠ ، ٢٠٥ ، ٢١٢ ، ٢١٨
ابن الأثير ـ ١٠ ص ٨٥
٢١ ـ ابن الجوزي ـ ٩ ص ١٣٢
ابن الأثير ـ ١٠ ص ٣٨٢
ابن القلانسي ص ٢١٩
حول المقاسمة التي اوجدها الاقطاعيون انظر CAHEN
٢٢ ـ ابن الأثير ـ ١٠ ص ٤٤٨
ابن الجوزي ـ ١٠ ص ١٣٤
٢٣ ـ ابن الجوزي ـ ١٠ ص ص ١٤٥ ، ١٦٩
ابن الأثير ـ ١٠ ص ص ٦٩ ، ٤٤٢
٢٤ ـ ابن الجوزي ـ ١٠ ص ص ٧٨ ، ٩٥ ، ١٤٥ ، ١٦٥ ، ١٧٦ ، ٨١
ابن الأثير ـ ١٠ ص ٢٠٧
٢٥ ـ ابن القلانسي ص ص ١٠٩ ، ٢١٩ .
ابن الجوزي ـ ١٠ ص ٩٥
٢٦ ـ كمال الدين Recueil
اسامة بن منقذ ص ١١٢
بستان الجامي (تحقيق كاهين) نشرة الدراسات الاستشراقية ٧ ـ ٨ (١٩٣٧ ـ ١٩٣٨) ص ١٥٣ .
٢٧ ـ ابو شامة ـ كتاب الروضتين ـ ١ ص ٢٥١ وما بعدها .
كمال الدين في ROL ـ ٤ ص ١٤٧ وما بعدها .
ابن القلانسي ص ص ٢١٥ ، ٢٢١ وما بعدها .

ابن الاثير- ١٠ ص ٤٤٥ وما بعدها .

٢٨ - انظر ابن الغواتي - الحوادث الجامعة (بغداد ١٣٥١) ص ص ٨ ، ٢١٦
ابن الأثير- ١٠ ص ٢٣٢

٢٩ - ابن الجوزي - ٩ ص ص ١٠٣، ١١٣ ، ١٣٧ وما بعدها ، ٢١٦ وما بعدها ، ٢٢٤

ابن الجوزي ١٠ ص ص ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٧ وما بعدها ، ٨٦ ، ٩٥ وما بعدها ، ١٠٥ وما بعدها ٢٢٦ وما بعدها ، ٢٣٠ ، ٢٧٥ .

ابن الأثير ١٠ ص ص ٢٠٤ ، ٢٣٢ ، ٢٥٩ ، ٣٨٣ ،

٣٠ - حول الريس انظر ASHTOR

ASHTOR - ٣١

٣٢ - ابن القلانسي ص ص ٩٦ ، ٩٨ ، ١١٢ ، ١٢٠
ابن الأثير- ١٠ ص ٤٠
ناصري خسرو ص ٤٧

٣٣ - ابن القلانسي ص ص ١٢٤ ، ١٣٣ وما بعدها .
ابن الأثير- ١٠ ص ١٨٠

٣٤ - ابن تغري بردي (تحقيق بوبر) - ٢ ص ص ٢٦٧ ، ٢٧١ ،
ابن القلانسي ص ص ٩٧ وما بعدها (حاشية) ١٣٩ ، ١٦٠ وما بعدها ،
ابن الأثير- ١٠ ص ص ٤٨ ، ١٣٦ ، ٣٢٨ .
WIET

٣٥ - ابن الاثير- ١٠ ص ٢١١ وما بعدها .
ابن القلانسي ص ١٣٩
CAHEN

٣٦ - ابن القلانسي ص ١٤٠
CAHEN

ASHTOR - administration - ٣٦

٣٧ - =

٣٨ - =

٣٩ -
اضافات الناسخ الى ابن حوقل ص ٢٢٣
ابن الأثير - ١٠ ص ٢٩٥ وما بعدها .
٤٠ - ابن الساعي - الجامع المختصر (بغداد ١٩٣٤) ص ص ٨٢ ، ١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٤٩ .
ابن الغواتي ص ص ١٦ وما بعدها ، ٢٣ ، ٢٧ ٣٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٧٢ ، ١٦٨ وما بعدها ، ١٨٩
٤١ - ابن الساعي ص ص ١١٦ وما بعدها ، ٢٢٦ ، ٢٦٥ .
٤٢ - ابن الساعي ص ص ٢٢ ، ٤٦ وما بعدها ، ١٥٠ ، ٢٠٠ وما بعدها ، ٢١٥ وما بعدها ، ٢١٩ وما بعدها .
ابن الغواتي ص ١٧
٤٣ - ابن الساعي ٢٢٧
ابن الغواتي ص ص ١٦٢ وما بعدها ، ١٨٢
٤٤ - ابن الساعي ص ص ٢٣٠ ، ٢٥٨ وما بعدها .
ابن الغواتي ص ص ٢ ، ١٤ وما بعدها ، ٤٤
أبو شامة - ذيل الروضتين - ص ٦٤
٤٥ - ابن الساعي ص ٢٢١ وما بعدها
SALINGER
CAHEN
٤٦ - ابن الغواتي ص ص ٧١ ، ٢٢٣ وما بعدها .
٤٧ - ابن الغواتي ص ص ١٢٩ ، ٢٣٠ وما بعدها .
LE STRANGE
ابن الغواتي ص ٢٥٩
ابن الغواتي - تلخيص مجمع الأدب - ٤ (دمشق ١٩٦٢ - ١٩٦٣) ص ٣٦٤
ابن كثير - ١٣ ص ٢٦٢
م . جواد - مجلة غرفة تجارة بغداد - ٦ (١٩٤٣) ص ص ٤٣٩ وما بعدها ، ٦٠١ وما بعدها .

٤٨ ـ ابن الساعي ص ص ١٦١ ، ٢١٩ ، ٢٢٩
ابن الغواتي ص ص ١١ ، ٤٨ ، ٩٤ ، ١٩٨
ديوان اليسار بن يعقوب هابلي (تحقيق برودي ـ القدس ١٩٣٥)
رقم ١ ، ٨ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٧ ، ٢٢٣ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣١٩

٤٩ ـ ابن الساعي ص ٢٢٨
ابن الغواتي ص ص ١٦٢ وما بعدها ، ٢٥٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٩٨ ، ٣٠٤

٥٠ ـ GIBB
كمال الدين ROL ٨ ـ ٣ ص ٥٦٠
سبط بن الجوزي ص ٤٨٦
المقريزي في ROL ـ ١٠ ص ص ٢٥٧ ، ٢٨٥ وما بعدها ، ٢٩٧

٥١ ـ POLIAK
الخطط ـ ١ ص ١٣٩٧
GIBB
RABIE
Salari
CAHEN
بُستان الجامع ـ نفس المصدر ص ١٥٥

٥٢ ـ سبط بن الجوزي ص ص ١٥١ ، ١٩٤ .
ابو شامة ـ كتاب الروضتين ـ ١ ص ٨
كمال الدين ROL ـ ٣ ص ٥٣٥
الخطط ـ ٢ ص ٢١٦ ٢٤ ـ ٢٦

٥٣ ـ المقريزي ROL ـ ١٠ ص ص ٢٩٣ وما بعدها ، ٢٩٩
ابو شامة ـ كتاب الروضتين ـ ٢ ص ص ٥٨ ، ١٩٥ .
ابو شامة ذيل الروضتين ص ص ٢٩ ، ١١٧ ، ١٧٢
ابن ابي اصيبعة ـ ٢ ص ١٧٦

٥٤ - ابن مماتي - كتاب قوانين الـدواوين (تحقيق عطية) ص ٣٤٣
ابن الأثير - ١٢ ص ١٠٢

POLIAK

المقريزي ROL - ٨ ص ٥٣٧
المقريزي ROL ١٠ ص ص ٢٩٣ ، ٢٩٨
سبط بن الجوزي ص ٢١٤
ابن كثير - ١٢ ص ٢٩٩
عماد الدين الاصفهاني - الفتح القسي (القاهـرة ١٣٢٢) ص ص ٣٤٦ ، ٣٥٧

POLIAK

٥٥ - ابن القلانسي ص ٣١٦
المقريزي ROL - ٨ ص ٥٣٥
٥٦ - انظر المصادر المذكورة في ROL ٤ ص ٢٢١
عبد اللطيف - علاقة مصر (ترجمة سامي - باريس ١٨١٠) ص ص ٣٦٠ ، ٤١٢
المقريزي ROL - ١٠ ص ص ٢٧٧ ، ٢٨٤
السيوطي apud كريمير

PLANHOL

٥٧ - عبد اللطيف - علاقة مصر - ص ٣١٤
الخطط - ١ ص ٤٤
٥٨ - Histoire
٥٩ - EHRENKREUTZ

EHRENKREUTZ

المقريزي Rol - ١٠ ص ص ٢٥٢ ، ٢٧٧ ، ٢٩٠

BALOG

٦٠ - ابن حوقل ص ص ٢١٦ ، ٢٣٤
سيرة عبد اللطيف البغدادي apud ابن أبي اصيبعة - ٢ ص ٢٠٧ Répertoire

ابو شامة - كتاب الروضتين - ١ صص ٥٣٠ - ٥٣٦

ابو شامة - المصدر السابق - ٢ ص ٦٤

الخطط - ١ ص ١٠٤ وما بعدها .

المقريزي - السلوك - ١ ص ٨٥ وما بعدها .

المقريزي - السلوك - ١ ص ٨٥ وما بعدها .

المقريزي ROL ٨ ١٠ ص ص ٢٩٣ ، ٢٩٦ ، ٣٠١

٦٣ - Karimi

GOITEIN

السلوك - ١ ص ٧٣٥ وما بعدها .

ابن كثير - ١٣ ص ص ٢٦٢ ، ٣٥١

٦٤ - ابن الجوزي - ٩ ص ص ٨٥ ، ١٨٤ ، ٢١٦ ، ٢٨٨

ابن الجوزي ١٠ ص ص ٤ ، ٢٤ ، ٣٠ ، ٣٧ ، ٤٥ ، ١٧٠ ، ٢١٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٤٤ .

ابن الساعي ص ١٤٤

ياقوت - ١ ص ص ٣١٦ ، ٤٣٧

ابن الحاج العبدري - المدخل (القاهرة ١٩٢٩) - ٤ ص ١٥٤

سبط بن الجوزي ص ٥٢٣

ابن كثير - ١٣ ص ١٢٠

KÜHNEL

٦٥ - ابن الجوزي - ٩ ص ٣٨

ابن الجوزي ١٠ ص ١٤٩ .

WIEDMANN

WHITE

LANE - ٦٦

BARRET

٦٧ - ابن الجوزي - ٧ ص ٢٨٩ .

ابن الجوزي - ٨ ص ص ٨٨ ، ١٠٤ ، ١٠٨ ، ٢٢٥ ، ٢٥٤ .

ابن الجوزي - ١٠ ص ص٨٤، ٩٥ ، ١٨٩ وما بعدها ، ٢٤٤ وما بعدها ،

ابن الأثير - ١١ ص ص ٤٣ ، ٥١

ابن الغواتي ص ٢٣٢ ، ٢٢٩ وما بعدها ، ٢٧٣ ، ٣١٧

٦٨ - ابن جبير - الرحلة - ص ٥١

LANE-POOLE

CRESWELL

٦٩ - ابن الجوزي - ٨ ص ص ٢٥ ، ٣١ :

JACOBSEN-ADAMS

IMBERCIADORI

٧٠ - الخطط - ١ ص ١٨١[٢٠] (ولكن ليس في ١١٩٢ كما يقول سارجنت في الفن الاسلامي ١٣/ ١٤ ص ٩٧ وما بعدها ، لاساءة فهم النص في سلوك المقريزي . ولكن انظر بحثه ص ١٠٠ ؟) وقارن ص ١٧٧ وما بعدها .

السلوك - ١ ص ٢٢٤

٧١ - الخطط - ١ ، ص ص ١٨١[٢٠] ، ٣١ ف ، ١٨٢[٢] ف ، ٢٢٦[١٣] ، ٤٦٤ ،

الخطط - ٢ ، ص ١٠٤

ابن دقماق - الانتصار (القاهرة ١٨٩٣) - ٥ ص ٧٩

ياقوت - ٢ ص ٥٤٨ قارن ٥٤٦

WHITE - ٧٢

CARUS-WILSON

CARUS-WILSON

٧٣ - ابن حوقل ص ٢١٩ وما بعدها .

حول استعمال المطاحن الفارسية التي يديرها الماء في موناسيتر في القرن الحادي عشر انظر البكري - وصف أفريقيا الشمالية (النص الفرنسي) ص ٧٩ .

٧٤ - الخطط - ٢ ص ص٣٩٨، قارن ٣٦١ ، ٤٥٢ .

الأماكن العباسية المتأخرة المستمرة او التي
اعيد استيطانها في عهد الايلخانات

الأماكن المستوطنة حديثا في عهد الايلخانات	الاماكن المهجورة في عهد الايلخانات او بعده بقليل
المدن الكبيرة ٢ (٢٨ هكتار)	
المدن الصغيرة ١٢ (٥٨ هكتار)	
القرى ٣٥ (٦١ هكتار)	
الأماكن المستوطنة حديثا في عهد الايلخانات	
المدن الكبيرة ١ (٢٠ هكتار)	المدن الكبيرة ٣ (٤٨ هكتار)
المدن الصغيرة ١ (٧,٥ هكتار)	الأماكن الأخرى ٥١ (١٢٣ هكتار)
القرى ١٣ (١٦ هكتار)	
المجموع ٦٤ مكان (١٩٠ هكتار)	المجموع ٥٤ مكان (١٧١ هكتار)

وهكذا نرى ان ٤٧,٥٪ من المناطق المأهولة في ديالى هجرت خلال هذه الفترة . ونتائج تحريات آدامز اكثر وضوحا في أن المستوطنات الرئيسية لا يتضمنها الجدول اعلاه ، لأن تدهورها لم يكن أقل حدة . ويعتقد آدامز إن هناك تناقصاً كبيراً في عدد السكان في هذه المنطقة في ظل الحكم الاسلامي . انه يقدر الأرقام التالية :

سكان مقاطعة ديالى (ومن ضمنها بغداد)

عام ٨٠٠ ميلادية	٨٧٠ ٠٠٠ نسمة
١١٠٠	٤٠٠ ٠٠٠ نسمة
بعد عام ١٢٥٨	٦٠ ٠٠٠ نسمة

ويمكن ان تكون نتيجة تناقص السكان هي أن عدد سكان حوض ديالى تناقص في هذه الفترة الى عددهم في العصر الكاسيتي او البابلي القديم أوحتى الى اقل من ذلك[١٠] .

ولا بد أنه ترتبت على التدهور الديمغرافي نتائج خطيرة بالنسبة لاقتصاد العراق ، أنه أحد أهم أسباب التدهور الاقتصادي وقد رافقه تغير في النظام النقدي ، وبعد ان هزم المغول ايران والعراق واذربيجان وشرق الأناضول ،

توافرت لدى دور السك في هذه البلدان كميات كبيرة من الفضة الآتية من أواسط آسيا ، ويضم حمد الله القزويني في كتابه لائحة بمناجم الفضة الغنية في تركستان وفرغانه وبخارى والمناطق الأخرى من أمبراطورية المغول العظيمة ، ومكّن انتاج هذه المناجم كل الدور من سك كميات كبيرة من العملات الفضية . ولكن تواجدت مناجم فضة أيضا في مناطق آسيا الصغرى الواقعة تحت حكم الايلخانات مثل لولو وقومس[11] .

ومن جهة أخرى استقبلت دور السك في العراق وايران كميات من الذهب أقل مما حصلت عليه في الفترة السابقة للغزوات المغولية ، وهذا يرجع الى انقطاع التجارة المنتظمة مع مصر التي حصل منها العراق وايران في السابق على نصيبيهما من الذهب السوداني . ووصل النقص في مخزون الذهب في دور سك الايلخانات درجة توجب معها تغيير النظام النقدي كلية ، وبينما استمرت العملة في العراق وايران منذ نهاية القرن التاسع ثنائية المعدن ، قائمة على الدينار الذهبي البالغ ٤,٢٥ غ والدرهم الفضي البالغ ٢,٩٧ غ أصبح نظام نقد الايلخانات أحادي المعدن ، والوحدة الأساسية للعملة هي الدينار الفضي الذي يزن ١٢,٩ غ ويسمى دينار رائج . وبلغت قيمة هذا الدينار الفضي الثقيل ما يعادل قيمة ٦ دراهم مخفضة تزن - كما هي الحال في أيام الخلفاء العباسيين المتأخرين - ٢,١٥ غ ، ولكن هذا النظام النقدي لم يكن موحدا في كل مناطق المملكة الايلخانية .

وأصدرت دور السك في العراق الدنانير التي تبلغ قيمتها ١٠ دراهم (الدينار المسمى الموصل) أو ١٢ درهم (الدينار المسمى الأول) ، ولكن الايلخانات سكوا أيضاً دنانير ذهبية التي كانت وحدتها - المثقال - على ما يبدو ٤,٣ غ ، وبلغت قيمة المثقال ٤ دنانير فضية[12] . وكان في الأيام الأولى من حكم الايلخانات تزايد الدراهم الفضية الجيدة أهم ظاهرة في التطور النقدي ، ويقول كاتب الحوليات ابن الفوطي في عام ١٢٦١ أن «الدراهم السوداء» التي تعادل $\frac{1}{10}$ من الدينار الذهبي سحبت من التداول في الموصل ، وسكت الدراهم الجديدة أي الفضية الخالصة ، ويقول نفس المؤلف أنه جرت محاولة في عام ١٢٨٣ لاستبدال القطع النقدية النحاسية الصغيرة («الفلوس») بقطع فضية . وصدر في ظل حكم الايلخانات المتأخرين عدد متزايد من الدراهم الخفيفة على الأرجح لطرح القطع المعدنية لمواجهة الطلب الناتج عن

ازدياد التجارة[١٣] ، في العصور اللاحقة ـ عندما بدأت تجارة مملكة الايلخانات بالازدهار ـ لم يكن الذهب نادراً على الاطلاق ، واضطر غازان لمنع إقراض الذهب لأنه متناقض مع تعاليم الاسلام لأنه رأى أن عليه أن يكون مسلماً وتمكنت في تلك الفترة دور السك من إصدار الدنانير الذهبية الثقيلة ، وتتضح زيادة مخزونها من الذهب من نتائج الأبحاث التي أجراها ج.م سميث وف.بلنكت التي نلخص نتائجها كما هو مبين في ص ١٩٣ .

وزن قطع العملات الذهبية الايلخانية (بالغرام)

١	١,٢٥-١,٠١	٢,٢٥-٢,٠١	٢,٧٥-٢,٥١	٣,٢٥-٣,٠١
غازان (١٢٩٥-١٣٠٤)			١	
أولجيتو (١٣٠٤-١٣١٦)	١			
أبو سعيد (١٣١٦-١٣٣٥)	٣	٢		٢
	٥,٥-٥,٢٦	٥,٧٥-٥,٥١	٦,٢٥-٦,٠١	٦,٥-٦,٢٦
غازان				
أولجيتو				
أبو سعيد	٢	٥	٤	٢
	٧,٧٥-٧,٥١	٨-٧,٧٦	٨,٢٥-٨,٠١	٨,٥-٨,٢٦
غازان				
أولجيتو		٣	١	
أبو سعيد	٢	٣	٧	١٠
	٩,٧٥-٩,٥١	١٠-٩,٧٦	١٠,٢٥-١٠,٠١	١٠,٥-١٠,٢٦
غازان				
أولجيتو				
أبو سعيد	١	١	١	١

٤-٣,٧٦	٤,٢٥-٤,٠١	٤,٥-٤,٢٦	٤,٧-٤,٥١
[illegible]	١	٣	١
	٢		
٢	٣	١	
٦,٧٥-٦,٥١	٧-٦,٧٦	٧,٢٥-٧,٠١	٧,٥-٧,٢٦
١			
	١	٢	٤

٨,٥١-٨,٧٥	٨,٧٦-٩	٩,٠١-٩,٢٥	٩,٢٦-٩,٥
٢	١		
٣	١	١	
١٢	٣	٤	١

١٢,٧٦-١٣
١

يرينا الجدول تنوع العملات الذهبية التي أصدرتها دور السك الايلخانية ، ورغم أن القطع التي تزن مثقالاً واحداً (٤,٣ غ) ، ومثقالين (٨,٦ غ) ملحوظ ، فهناك عدد كبير منها وزنها لا يتوافق مع المقياس النموذجي . لكن المبدأ الأساسي يذكره تقرير ابن الفوطي حول الاصلاح النقدي في عام ١٢٩٨ إبان حكم غازان . نقرأ في التقرير أن الملك حدد معدل الصرف التالي : مثقال ذهب = ١٢ مثقال فضة ، وبالتالي فإن مثقالاً واحداً من الذهب (٤,٣ غ) يساوي (٤) دنانير فضة (كل منها وزنة ١٢,٩ غ) ، أو ٢٤ درهم فضي (وزن كل منها ٢,١٥غ)[١٤]، ويظهر هذا المعدل لنا التغير الكبير في نسبة الذهب إلى الفضة ، وبينما كان هذا المعدل في النصف الأول من القرن الثالث عشر ١/٦ (الدينار الواحد الذي يزن ٤,٣ غ ذهب يساوي ١٢ درهماً تزن ٢٥,٨ غ فضة) ، أصبح في ظل الايلخانات ١/١٢ ، وأصبح العراق وإيران ثانية «بلاد الفضة» ، كما كانا قبل ٥٠٠ سنة .

وتعرض خلال حكم الايلخانات الطويل نظامهم النقدي إلى عدة تبدلات وأزمات، ولتلافي النقص في بيت المال ، أصدر وزير الايلخان كيخاتو في عام ١٢٩٤ نقداً ورقياً على غرار النقد الورقي الصيني . وأثبتت التجربة الاخفاق التام ، لأن السكان رفضوا قبول النقود الورقية ، وتجمدت النشاطات الاقتصادية تماماً ، ويتحدث المؤرخ الفارسي رشيد الدين حتى عن «خراب البصرة» الذي أعقب إصدار النقد الجديد[١٥] ، والوصف الذي نجده في مؤلفات كتاب القرون الوسطى ، ذو أهمية تاريخية بالغة ، يقولون أن النقد الورقي «التشاو» مغطى بألقاب الايلخانات والشهادة الاسلامية ، وكلمات صينية أيضاً ، مما يثبت أن الصناع الصينيين جلبوا طباعة القوالب معهم إلى مملكة الايلخانات ، وليس من شك في أن إصدار النقد الورقي قد توقف بعد الضجة التي أثارتها . وكذلك طباعة القوالب أيضاً ، ولذلك فإن اخفاق وزير كيخاو معناه أن شعبه رفض ابتكاراً تقنياً

يمكن أن تكون له أهمية بالغة في حضارة الشرق الأوسط .

والمعلومات المتعلقة بالأسعار في السجلات التاريخية في العراق إبان عصر الايلخانات فقيرة جداً ، ورغم أن التخمينات القائمة على هذه المعطيات المتناثرة والمنعزلة ، هي بالتالي تخمينات تنطوي على المخاطرة ، فإنها تتوافق مع صورة التقهقر الاقتصادي العام ، فالطلب المتناقص على الأطعمة ـ نتيجة لتناقص السكان ـ واستبدال النقد الذهبي بالفضي ، لا بد وأنه ناتج عن تخفيض الأسعار .

ويقول شهاب الدين بن فضل الله العمري ـ الذي كتب حوالي عام ١٣٤٠ أن السعر العادي لكرّ القمح في أيامه في العراق بلغ ٣٩,٥ دينار أولي ، وكرّ الشعير ١٥ دينار ، ولو حسبنا القيمة الفضية لهذه الأسعار ، وحولناها إلى دنانير ذهبية قويمة لوجدنا أن ثمن ١٠٠ كغ قمح بلغ ٠,٥٨ دينار ، و ١٠٠ كغ شعير ٠,٢٦ دينار ، وهذا يعني أن أسعار القمح انخفضت من النصف الأول للقرن الثاني عشر مقدار ١٥٪ ، أما بخصوص أسعار الخبز ، فيمكننا أن نستشهد بقصة ذكرها ابن بطوطة ، يقول أنه اشترى في بغداد خبزاً بمقدار ١ قيراط أي $\frac{١}{١٢}$ درهم . فلو افترضنا أن وزن الرغيف رطل واحد (باوند انكليزي ٤٥٠ غ) فيمكن للمرء أن يستنتج أن الثمن بلغ ٠,٠٠٣ دينار قويم مقابل ٠,٠٠٣٥ ـ ٠,٠٠٤ في النصف الأول من القرن الثالث عشر ، ويبدو أن بعض الملاحظات حول أثمان التمر تؤيد الافتراض القائل بانخفاض الأسعار المتزايد ، يقول الراهب الايطالي أودوريكودابوردنيون : إن المرء يستطيع في الأبلة أن يشتري ٤٢ رطلاً بقرش واحد من قروش البندقية ، وحسب رواية ابن بطوطة يكلف كل ١٤ رطلاً درهماً واحداً (بالدرهم القديم) ، وذلك عندما زار البصرة في عام ١٣٢٧ . وتشير هذه التقارير إلى أن الثمن العادي لرطل التمر هو ٠,٠٠١١ دينار قويم ، وقبل ذلك بمائة سنة بلغت كلفته ٠,٠٠١٥ دينار وقبل ٢٠٠ سنة بلغت ٠,٠٠٢ دينار[١٦] .

ويتضح من الأوصاف المتعددة للأحوال الزراعية بشكل مقنع ، أن اتجاه الأسعار لم ينجم عن زيادة الانتاج الزراعي ، على الأقل فيما يخص الحبوب ، ولدى معالجة وضع الفلاحين في الفترات المتعاقبة في العصور الوسطى ، على مؤرخ الشرق الأدنى أن يؤكد المرة تلو المرة تدهوره المتزايد ، ولكن فلاحي العراق كانوا بالتأكيد مظلومين في أيام الايلخانات أكثر من السابق ، ولم تكن نسب الخراج

متساوية في مختلف مناطق ممالك الايلخانات التي حافظت على عاداتها القديمة ، ففي بعض المناطق بلغت النسبة $\frac{1}{4}$ أو $\frac{1}{3}$ المحصول ، ولكن في المناطق الأخرى مثل خوزستان والعراق اضطر الفلاحون لدفع ٦٠٪ أو حتى ٦٦٪ ، وفي معظم المناطق كان الخراج نسبة من المحصول وجرى دفعه عينا (تقدير المقاسمة) ، ولكنه في بعض المناطق حول المدن الكبيرة مثل بغداد جرى دفعه نقداً ، وتم تقديره على الأراضي المزروعة بنسبة محددة (المساحة) ، أما مالكو الأراضي الحرة فدفعوا ضريبة العشر فقط ، وأما مالكو الضياع شرطياً فدفعوا $\frac{1}{3}$ المحصول فقط ، ولكنهم جمعوا من المستأجرين على الأقل ثلث آخر بالاضافة إلى ذلك[١٧] ، ولما كانت نسبة الضرائب ليست متساوية في كل مكان فإن وضع الفلاحين وصيانة الضياع اختلفت كثيراً . كان استغلال الفلاحين في أراضي الضياع والاقطاعات أسوأ بكثير من الضياع الخاصة ، وهذا نتيجة جزئية للفكرة المغولية عن التبعية الشخصية ، وبما أن حكام ايران والعراق الجدد عاملوا أسرى الحرب وحتى المستأجرين والأتباع كعبيد لهم ، فإن الفلاحين انخفض وضعهم إلى الاقنان المرتبطين بقراهم ، والمعرضين للسخرة ، وما كان عادة في السابق ، أصبح في ظل الايلخانات قانوناً ، وقد منع السادة الاقطاعيون حتى من نقل الفلاحين من قرية إلى أخرى ، ووفقاً لقانون غازان فإن الفلاح الذي هرب من ضيعة اقطاعية حتى قبل ٣٠ سنة القي القبض عليه وأعيد ، واستخدم الفلاحون لزراعة الأراضي البور ، والأغراض الأخرى ، ولكن استرقاق الفلاحين كان أيضاً نتيجة لنقص العمال الذي نتج بدوره عن نقص السكان ، وبالتالي حدث هناك تغير كبير نحو الأسوأ في وضع الفلاحين ، ويبدو أن الصراع بين الطبقة الحاكمة والفلاحين في هذه الفترة أكثر مدّة من السابق[١٨] .

لا حاجة للقول ان ظلم الفلاحين جلب شراً آخر : اصبح هجر الاراضي سمة للظروف الزراعية في كل المملكة الايلخانية وبالتالي حصل نقص كبير في المساحة المزروعة، ولكن للذلك سبب آخر هو اعتداء القبائل الرحل على نشاطات السكان المستقرين ، فلقد تملك رؤساء الطبقة المسئولية الحاكمة ، ووزرائهم ، والاعيان الآخرون ، قطعاناً كبيرة ، وتعود زيادة اراضي المراعي على حساب الاراضي الزراعية ايضاً ، الى ان القبائل المغولية والتركية اعتادت تغذية قطعانها بالحشائش طيلة العام ، وبالتالي رحلت من المرابع الصيفية الى الشتوية .

ولم يكن تناقص المساحة المزروعة متساوياً في مختلف انحاء العراق ، فارقام عائدات الخراج لعام ١٣٣٦ كما يذكرها حمدالله القزويني تلقي الضوء على الاختلاف الكبير ، فبينما دفع عدد كبير من القرى مبلغاً صغيراً ، فان اقل من مائة مستوطنة في منطقة اخرى دفعت مبالغ كبيرة .

عائدات الخراج في العراق في عام ١٣٣٦

المنطقة	عدد القرى	عائدات الخراج (بالدرهم الفضي)
حلوان	٣٠	٦١٠٠
خانقين	٢٠	١٢٠٠٠
خالص	٣٠	٧٣٠٠٠
طارق خراسان	٨٠	١٦٤٠٠٠
دجيل	١٠٠	٣٥٠٠٠
نهر عيسى	٧٠	٨٧٦٥٠٥
نهر الملك	٣٠٠	٥٠٠٠٠

وتشكل هذه الارقام برهاناً قوياً على التدهور الهائل في بعض مناطق شرقي العراق وجنوب بغداد (نهر الملك)[١٩] .

وقامت حكومة الايلخانات بالمحاولات لاصلاح انظمة الري والسيطرة على هجر القرى ، فلقد حفر عطاء الملك الجويني حاكم العراق في ظل الايلخانات الاوائل قناة روت المناطق الواقعة بين الانبار والنجف ، يقول المؤلفون العرب انه اوجد هناك ١٥٠ قرية جديدة ، وجلب المستوطنين بتخفيف العبء الضريبي ، ولكن هذه النشاطات لا يمكن ان تلقى اي نشاط ملحوظ لان رشيد الدين ـ المؤرخ الذي اصبح وزير غازان ـ يقول ان ما لا يزيد عن ١/ ١٠ اراضي المملكة خاضع للزراعة ، وبالفعل اتخذ غازان بعض الاجراءات لاحداث التغيير ، فلكي يشجع زراعة الاراضي المهجورة منح اراضي الدولة على الاشخاص المستعدين للاستيطان فيها ، ومنحهم تخفيضات في الضرائب كحوافز لهم ، كما انه عمل على حفر قناة في منطقة كربلاء في غرب العراق حملت اسمه ، وصمم رشيد الدين المشروعات لسدود واقنية الري في منطقة الموصل حيث يتوجب بناء القرى الجديدة ، ولتنفيذ

مشروعه في منطقة الموصل امرت السلطات في اعالي ما بين النهرين لتقديم ٢٠,٠٠٠ عامل ، وجرى بناء ١٠ قرى في سهل ملطية وتم التخطيط لجلب الفلاحين من المناطق المجاورة ، ووزعت عليهم البذور والآلات الزراعية والسلف الضرورية ، وتضمّنت الرسائل التي كتبها رشيد الدين الى الحكام المحليين رسوماً للاقنية والقرى .

وفي نهاية القرن الثالث عشر وبداية الرابع عشر لا بد وان الزراعة في العراق ، شهدت انبعاثاً جزئياً فسياسة غازان اتبعها خليفته اولجيتو ، واتبعها ايضاً الوزير غياث الدين بن رشيد الدين وزير ابو سعيد (١٣١٦ - ١٣٣٥) في اواخر عهده ، يتحدث حمدالله القزويني عن وفرة المواد الغذائية في عدة مناطق من العراق واسعارها المنخفضة وتصدير الحبوب ، ولكن اجمالي عائدات الضرائب - كما يذكرها هذا المؤلف - لا تترك مجالاً للشك في ان سياسة غازان وخلفائه لم تلق سوى نجاحاً جزئياً ، إذ لا يمكن أن يكون التحسن في أحوال الفلاحين كبيراً ، ويتحدث القزويني نفسه عن بداية اتجاه جديد في تدهور الانتاج الزراعي بعد عهد غازان ، ولكي يدل على هذا التدهور العام ، يزود القزويني قُرّاءه أيضاً بالمعلومات عن المبالغ التي جبيت من المناطق نفسها قبل مائة عام . إننا نعيد معطياته مع ما يعادلها من الدنانير القويمة :

عهد الناصر (١١٨٠ - ١٢٢٥) حوالي ١٣٣٦ .

العراق ، ٢,٥ مليون (٣٠ مليون درهم) ١٣٠٤٣٤٨ (٣ مليون دينار رائج)

ديار بكر وديار ربيعة ٨٣٣٣٣٣ (١٠ مليون درهم) ٨٣٦٩٥٦ (١٩٢٥٠٠٠ دينار رائج)

وتوضح هذه الارقام لنا نتائج الغزو المغولي ، وكان تدهور رجنوب العراق كبيراً ، كما ان منطقتي اعالي ما بين النهرين - التي كانت معاناتها اقل من جراء نهب الفاتحين - اعطت نفس الايرادات كالسابق . ولا يذكر القزويني اية معلومات حول ايرادات الضرائب في المنطقة الثالثة من اعالي ما بين النهرين ، وهي ديار مضر التي تعرضت للخراب الكامل [٢٠] .

ولكن عصر الايلخانات لم يشهد فقط التدهور في زراعة العراق فحسب بل انه احدث تغييراً كبيراً في بنيتها ، فبعد استيلاء المغول على العراق ازدادت اراضي الدولة كثيراً كنتيجة للقضاء على المالكين او للمصادرة ، وصادر الحكام الجدد حتى

الاوقاف ، ولكن الحكومة منحت فيما بعد كثيراً من الضياع كاقطاعات وبدأت في بيع الاراضي ، ادت هذه المبيعات التي بدأت منذ ثمانينات القرن الثالث عشر الى التوسع في الملكية الخاصة ، وكما يبدو ايضاً ان الاوقاف الدينية ازدادت من جديد ، ولكن اراضي الملك اصبحت قطاعاً كبيراً من زراعة العراق ، ونظراً لان مشتري اراضي الدولة كانوا غالباً من الاقطاعيين او كبار رجال الدولة ظهرت طبقة جديدة من اصحاب الضياع . فلقد ترك رشيد الدين لورثته ٣٤٠٠ فدان (٢,١٦٥ هكتار) من اراضي الحبوب ، بالاضافة الى بساتين التمور في العراق ، كما انه تملك ضياعاً كبيرة في مناطق مملكة الايلخانات الاخرى . والى جانب الاقطاعيين ورجال الدولة يبدو ان العلماء اصبحوا مجموعة هامة من الملاكين ، وبالتالي ارتبطت مصالحهم بمصالح الطبقة الحاكمة .

ولما كانت الضياع الخاصة افضل من اراضي الدولة (الديواني) فقد تولت مركز القيادة في زراعة العراق ، من حيث الانتاج وطرق الزراعة . وانخفض الطلب على الحبوب نتيجة لتناقص السكان ، ووظف اصحاب الضياع رساميلهم في مزارع القطن او في زراعة اشجار الفاكهة وهناك سبب وجيه للاعتقاد ان زراعة الشعير توسعت على حساب زراعة القمح ، لان الشعير يمكن زراعته في الاراضي المالحة نتيجة الاهمال ، وبينما انتجت اراضي اعالي ما بين النهرين القطن ، بالاضافة الى القمح والشعير فان العراق انتج كميات كبيرة من التمور التي صدرت الى الاقطار الاخرى وكذلك ليمون الجنة وفي جنوب العراق وفي منطقة بصرى والحلة ، وما حول بغداد التي اصبحت غنية بالتمور ، وكذلك بعض مناطق شرق العراق مثل خراسان في الفواكه المثمرة[٢١] .

كما تناقص الناتج الاجمالي لزراعة العراق في ظل الايلخانات ، حدث بالتاكيد تدهور كبير في صناعاته ، وفيما يختص بعدد العاملين ، لم يكونوا ابداً قطاعاً هاماً في الاقتصاد الوطني حتى لو قارناه ببلدان الشرق الاوسط الاخرى ، واسباب التدهور في العصر الايلخاني واضحة : مذابح العمال اثناء الغزو ، وضياع الاسواق في بلدان البحر المتوسط ، واخيراً السياسة المالية الجشعة للحكام الجدد .

واصيبت صناعة الحرير خصوصاً بضربة قوية لمنافسة منتجات ايران التي

توحدت حينئذ مع العراق تحت صولجان عائلة مالكة واحدة ، وبعد ذلك بالمستوردات المتزايدة للحرير الصيني في تلك الفترة ، ومع ذلك استمرت بغداد بانتاج مختلف الاقمشة والديباج الحريري مثل الكمخا وهذه المنتجات صدرت الى آسيا الصغرى والمناطق الاخرى ، كما جرت صناعة الحرير ايضاً في مدن العراق الاخرى واعالي ما بين النهرين ، مثل الكرخ شمال بغداد والموصل ، ومن المرجح ان بغداد استمرت بانتاج اقمشة العتابي المشهورة والتي كثر الطلب عليها في النصف الثاني من القرن الثالث عشر في الاقطار الاخرى . والصناعة القطنية - وهي بالتاكيد صناعة محلية - ازدهرت في كثير من المدن الصغيرة والقرى في العراق واعالي ما بين النهرين ، وتثير عدة نصوص في الاعمال الجغرافية في هذه الفترة الشك لانها على ما يبدو منسوخة من كتاب سابقين ، وربما كان النص الذي يشير الى انتاج القطن الخشن في الحاضرة شمال بغداد موثوقاً اكثر . وانتجت الاقمشة القطنية الناعمة في ماردين ، وموش في منطقة اعالي ما بين النهرين ، كما جرى تصنيع القطن في ارغاني واورفا وعرب كيز وارزنجان ، كما تشهد بذلك الضرائب المجبية في هذه المدن ، والمسجلة في الوثائق العائدة لنهاية العصور الوسطى .

وانتجت بغداد والمدن الاخرى في العراق الورق من النوعية الجيدة ، واعتُبر افضل من الورق السوري والمصري ، ولذلك استعمل في بلاط السلطان في القاهرة للمراسلة مع الملوك العظماء ، وكانت الصناعة الاخرى في العراق التي تصدر منتجاتها الى البلدان الاخرى هي صناعة الزجاج . فالاواني الزجاجية النفيسة من العراق يبعث في آسيا الصغرى وخوارزم في النصف الاول من القرن الرابع عشر ، واخيراً يجب ان نذكر انتاج الفاكهة المحفوظة التي توسعت من التطور الكبير في زراعة اشجار الفاكهة ، ويركز سفير البندقية الذي تجول في الشرق الادنى في سبعينات القرن الخامس عشر على تصدير الفواكه المحفوظة من بغداد الى فارس[22] .

ولكن كل هذه النصوص لا تنقض فرضية التدهور الكبير في صناعات العراق في هذه الفترة ، وهذا يلائم الصورة العامة لتقلص المدن وتناقص السكان ، كما ان الركود التقني في بلدان الشرق الاوسط بالتاكيد سبب آخر في التدهور الصناعي ، وكانت اهم صناعات العراق هي صناعة الحرير ، ولكن

صناعة الحرير في لوكا (ايطالية) اصبحت مشهورة في القرن الثالث عشر واصبح الاوروبيون يقصدون الشرق الاوسط لشراء الحرير الخام .

وارتبط تطور التجارة المحلية والدولية في العراق في تلك الفترة ارتباطاً وثيقاً بالتغير السياسي والاقتصادي الذي أحدثه الغزو المغولي فبعد فظائع الغزو المغولي بوقت قصير عاد النشاط التجاري الواسع في كل مكان ، إذ بقي على قيد الحياة مجموعة من التجار الاغنياء المشتغلين بالتجارة الدولية ، لقد اقاموا الصلات مع المغول حتى قبل استيلاء المغول على بغداد ، وتابعوا نشاطاتهم التجارية والمصرفية بعده ، وكان الايلخانات مهتمين بالحفاظ على التجارة المنتظمة ، واتخذوا الاجراءات لتعزيزها ، بذل غازان الجهود لحماية التجار المسافرين على الطرق البرية الكبرى في المملكة ، كما أنه أقام رقابة على النشاطات التجارية ونظاماً موحداً من الاوزان والمكاييل ، واستغل تجار بغداد والمدن الاخرى في العراق موقف الحكومة الجديد ، ويتحدث مؤ رخ معاصر عن علي بغداد ، وتابعوا نشاطاتهم التجارية والمصرفية
بعده ، وكان الايلخانات مهتمين بالحفاظ على التجارة المنتظمة ، واتخذوا الاجراءات لتعزيزها ، بذل غازان الجهود لحماية التجار المسافرين على الطرق البرية الكبرى في المملكة ، كما أنه أقام رقابة على النشاطات التجارية ونظاماً موحداً من الاوزان والمكاييل ، واستغل تجار بغداد والمدن الاخرى في العراق موقف الحكومة الجديد ،
ويتحدث مؤ رخ معاصر عن عماد الدين علي بن الحسن العذري ، التاجر الغني الذي قام باقراض رجال الدولة بالفائدة[٢٢] ، ولكنّ المعطيات التي نعرفها لا تساعد على اتخاذ موقف معين من عدد هؤلاء التجار الأغنياء والقوة الاقتصادية لهذه الطبقة ، ومن المؤكد أن حجم هذه التجارة قد تقلص ، لأن اقتصاد العراق غيّر من طبيعته ، فأصبح اقتصاداً ريفياً بصورة عامة ، ولذلك تقلص مجال النشاطات التجارية ، وأصبح العراق الآن مقاطعة في مملكة كبيرة ، ولم تعد بغداد مركز الحكومة حيث يتم تنظيم الحملات العسكرية وتزويد البلاط الفخم .

كما ان تجارة العراق الدولية ساءت الى درجة اكبر ، لمدة نصف قرن بعد دخول المغول لم تقم تجارة منتظمة مع سورية ومصر ، لان حكام تبريز والقاهرة خافوا من استخدام العلاقات التجارية لاغراض التجسس ، ولكن التجارة لم تتوقف تماماً مع هذه البلدان ، وفي بعض الاحيان ـ عندما عارضت حكومة

الايلخانات ـ سافر تجار العراق الى المملكة المسيحية في ارمينية الصغرى ، ومن هناك الى سورية ، واقترح بعض الايلخانات على سلاطين القاهرة اعادة التجارة المتنظمة ، ولكن التجارة المتنظمة لم تعد بين الدولتين الا في بداية القرن الرابع عشر . في نهاية عقده الاول تحدد رسم خاص بالضرائب في تبريز يتوجب على «التجار من الاسكندرية» دفعه . ومن الطبيعي ان يكون تاجر الرقيق مجد الدين السلمي ـ الذي سافر لعدة سنوات بين مصر وايران ـ هو الواسطة لاقامة السلام بين هذين القطرين في عام ١٣٢٠ ، وتم الاتفاق على حرية التجارة . وفي العقدين الثالث والرابع قام التجار السوريون والمصريون برحلات متعددة لايران وما وراءها ـ ما وراء النهر ـ وزار التجار العراقيون بلدان سلطان القاهرة[٢٤] .

وتكشفت من جهة اخرى تجارة العراق مع ايران وبلاد اواسط آسيا الاخرى الى حد كبير بعد الغزو المغولي ، وبدأ التجار العراقيون بانتظام بزيارة خوارزم والسفر عبر تركستان الى الصين . واستغل الآخرون السلام المغولي للمتاجرة مع مملكة المغول العظيمة ـ القبجاق ـ شمال القفقاس ، ويروي ابن بطوطة انه قابل تاجراً من كربلاء مسافراً على طرق القوافل العظيمة من خوارزم الى الصين ، كما قابل تجاراً عراقيين آخرين في سراي عاصمة القبجاق[٢٥] .

ولكن هذا التطور الجديد قابله التدهور في نصيب العراق في تجارة الهند العظيمة ، التي كانت في السابق مصدر غناه ، فحتى استيلاء المغول عليه ، شحنت معظم التوابل والبضائع الهندية الاخرى الى البصرة ، ومن ثم حملت عبر بغداد وانطاكية الى شواطىء المتوسط ، وبعد اقامة الحكم المغولي ، اصبحت تبريز ليس فقط عاصمة الايلخانات ، بل ومركزاً هاماً للتجارة العالمية ايضاً . وهناك وجد التجار الاجانب كلاً من التوابل الهندية ومنتجات الصناعات الايرانية ، وانتجت تبريز نفسها الاقمشة الحريرية النفيسة مثل السقلاطون والاطلس والعتابي ايضاً ، بعد عشر سنوات من سقوط بغداد ، استولى سلطان القاهرة على انطاكية التي كانت المدينة التجارية الهامة عند الطرف الآخر من الطريق البري الذي نقل البضائع الهندية من الخليج العربي الى البحر المتوسط ، وكانت العداوة بين حكام تبريز والقاهرة ، او بالاحرى حالة الحرب الدائمة تقريباً بينهما سبباً آخر لتبدل هذا الطريق البري ، فمنذ ذلك الوقت أرسل جزء كبير من البضائع الهندية التي وصلت

شواطىء الخليج العربي الى تبريز ثم على الطرق شمال بحيرة وان عبر ارزنجان الى ارمينية الصغرى ، ولما كانت المكوس التي يتوجب على التجار الاجانب دفعها في مملكة الايلخانات اقل بكثير من الرسوم التي يفرضها سلطان القاهرة فقد بدأت تجارة ايران الهندية بالازدهار ، وجذبت تبريز عدداً متزايداً من التجار الايطاليين ، نمت تجارة تبريز بالضرورة على حساب بغداد ، ولكن تدهور نصيب العراق من التجارة الهندية كان بطيئاً ، وتوصل و . هايد الى هذا الاستنتاج قبل مائة سنة ونتائجه تؤيدها المادة التي وجدت منذ ذلك الوقت(٢٦) .

وماركو بولو الذي سافر في عام ١٢٧٢ من طرابزون الى الخليج العربي يصف بغداد كمدينة تجارية ، قيل له انها تاجرت مع جزيرة قيس ، وان البضائع الهندية ارسلت من الخليج العربي عبر بغداد الى تبريز ، ولكنه اختار ان يسافر الى الخليج العربي عبر الطريق الجديد اي تبريز ـ قاشان ـ يزد ـ كرمان ـ هرمز . ولا يزال الكتّاب الاوروبيون والشرقيون الآخرون ، الذين يشيرون الى النصف الثاني من القرن الثالث عشر يتحدثون عن طريق التجارة القديم . فالجغرافيان العربيان ـ الدمشقي وابو الفداء ـ وكاتب البندقية مارينو سانوتو تورسيللو يصفون البصرة كميناء تفرغ فيه السلع الهندية . ووفقاً لنصوص عديدة في الحوليات العربية في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، حملت البضائع في دجلة من البصرة حتى واسط ، ونقرأ في عام ١٢٧٢ ان حاكم العراق بنى خاناً في واسط لخدمة التجار العاملين في التجارة مع البصرة ، ويبدأ ذكر السفن التجارية الآتية من البصرة الى واسط في المصادر من عام ١٢٩٤ وعام ١٢٩٩ ، وتحتوي معاجم التراجم العربية على سير تجار من بغداد ومن مدن اخرى من الهلال الخصيب سافروا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الى الهند والصين . يقول المؤلفون العرب احياناً صراحة ان هؤلاء التجار ركبوا السفن في البصرة ، واحياناً نستطيع استنتاج ذلك من السياق ، ومن جهة اخرى هناك النصوص في رحلة ابن بطوطة ، التي تذكر التجار العراقيين الذين قابلهم في دلهي ، ولا بد ان تجار الموصل كانوا ناشطين ايضاً في التجارة الهندية ، ولقد اشتهروا كتجار توابل ولآلىء وحرير ، وغالباً ما تواجد التجار العراقيون عند الطرف الآخر من الطريق البري .

في لاجازو ، وهي المرفأ العظيم في أرمينيا الصغرى ، يتحدث أبو الفضل عن تواجد عدد كبير من التجار البغداديين في لاجازو ، عندما استولت عليها الحملة التي قامت بها قوة من الجيش الشامي في عام ١٣٣٥ . نستطيع التخمين بكل اطمئنان أنهم انخرطوا في تجارة التوابل ، وتدل مسجلات أحد الكتاب بالعدل من البندقية أن كثيراً من تجار البندقية وجنوا وراغوسا وكريت وقبرص أقاموا هناك في ذلك الوقت[٢٧] .

ولكن لا بد من وجود تناقص كبير في تجارة العراق الهندية في النصف الأول من القرن الرابع عشر ، متوافقاً ، مع زيادة النشاطات التجارية التي قام بها التجار الايطاليون في تبريز والمدن الأخرى في أذربيجان وإيران ، وتبنى الايلخانات موقفاً ملائماً تجاه التجار الأوربيين فسمحوا لهم بالسفر إلى أي مكان و ـ بعكس سلاطين القاهرة ـ سمحوا لهم بإكمال رحلاتهم إلى الهند ، وفي عام ١٣٢٠ عقدت البندقية معاهدة تجارية مع الايلخان ، ولكن تجار جنوا وفلورنسا وحتى مسينا أيضاً ساهموا بنصيب في التجارة مع فارس .

ويمكن الاستخلاص من بعض الوثائق أنها كانت تجارة جلة ، رغم أن السلع التي حصل عليها الايطاليون في تبريز والأمكنة الأخرى هي التوابل الخفيفة والحساسة واللآلىء من الخليج العربي ومختلف أنواع الأقمشة الحريرية ، وقد وضع بعض تجار جنوا الخطط ، حتى لمقاطعة تجارة مصر الهندية البحرية كلية لتحويلها إلى الخليج العربي ، وفي أيام الايلخان أرغون (١٢٨٤ ـ ١٢٩١) وتحت رعاية وزير المالية اليهودي سعد الدولة ، أرسلوا المهندسين إلى بغداد حيث بنوا سفينتين حربيتين لإرسالهما إلى عدن .

وأخفقت هذه الخطط ، ولكن هرمز المركز التجاري العظيم في الخليج العربي أصبح وجهة السفن الهندية في بداية القرن الرابع عشر ، ولقد سبق ، وأصبح ميناء هاماً في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، ولكن في ذلك الوقت كانت جزيرة قيش (قشم) مركز التجارة الدولية في الخليج العربي[٢٨] وإمارة هرمز الخاضعة لها ، في نهاية القرن الثالث عشر أصبح التاجر الغني إبراهيم السوالمي سيد قيش ، وربما كان أعظم تاجر في الشرق الأوسط في ذلك العصر ، فالقوة التي جمعها بين يديه

كانت عظيمة جداً فقد أصبح ضامن ضرائب فارس ، وبعدها العراق أيضاً ، بينما أصبح أخوه (أو ابنه) وزيراً للملك في جنوب الهند ، أصبحت قيش - وهي مركز مشروعات السوالمي - جمهورية تجارية حقيقية في أيامه ، ولكنها بعكس الجمهوريات التجارية الايطالية لم يمارس السلطة فيها الرأسماليون - التجار بمفردهم ، بل اضطروا لتقاسمها مع الجند .

وساعد السوالمي الضابط التركي آياز ، الذي يعمل في خدمة أمير هرمز على الثورة ضده . أصبح آياز حاكم الإمارة ، وفي عام ١٣٠٠ نقل العاصمة إلى جزيرة الخليج العربي . وسرعان ما أصبحت هرمز الجديدة مرفأ ناشطاً ، وبعد موت السوالمي في عام ١٣٠٦ أدت المنافسة إلى الحرب بين ابنه عز الدين الذي سيطر أيضاً على البحرين والبصرة وبين أمير هرمز الذي بسط سلطانه على جزء من عُمان ، واستمرت الحرب بين الدولتين التجاريتين لبضع سنوات حتى سقطت قيش في عام ١٣٢٧ وبذلك احتكرت هرمز الجديدة التجارة الدولية في الخليج العربي وأصبح طريق القوافل الذي يربطها بتبريز الطريق الرئيسي للتجارة الهندية في إيران[٢٩] .

وكانت بعض البضائع الهندية التي وصلت الى هرمز ما تزال تشحن إلى بغداد ، ولكن معظمها شحن إلى تبريز وبالتالي تدهورت البصرة وبغداد ، إن بيغولوتي الفلورنسي الذي ألف في العقد الرابع من القرن الرابع عشر كتابه الشهير (كتاب التجارة) لا يذكر بغداد على الاطلاق ، كما أن نصيبين الواقعة على الطريق التجاري الذي يصل العراق بشمال سورية تدهورت أيضاً في هذه الفترة إلى حد كبير[٣٠] .

ب - عصر الأسر المالكة التركمانية : كان أبو سعيد (١٣١٦ - ١٣٣٥) آخر ايلخان يحكم كل مناطق إيران وأذربيجان والعراق ، وبعد موته نصب كبار القواد الدمىٰ على العرش ، وتبع ذلك حروب أهلية وخلال بضع سنوات تمزقت دولة الايلخانات القوية ، وقامت الأسر الجديدة باقتطاع إمارات لها على أنقاض المملكة ، فظهر الكاريتون والسربدا ريون في خراسان والمظفريون في فارس وكرمان وكردستان . بدأ عصر من الاضطرابات في غرب إيران والعراق وأذربيجان ، وتعددت التقلبات السياسية ، وخلف الأمراء والأسر كل منهم الآخر بسرعة ،

ودامت فترة الحروب ١٥٠ عاماً ، وانتهت عندما ضمت بلدان الهلال الخصيب إلى الدول الجديدة على التخوم الشمالية والشرقية ، والتي أصبحت قوى عظمى .

وبعد انهيار مملكة الايلخانات انبعثت دول الشرق الأوسط من جديد ، وظهرت الوحدات الجغرافية القديمة كدول جديدة ، واستمرت الادارة العربية الفارسية كالسابق تحت سلطان طبقة عسكرية مغولية تركية تعيش من الاقطاعات ، وأصبح العراق وأعالي ما بين النهرين جزءاً من دولة تضم أذربيجان والمناطق المجاورة ، وكان الحكم أسوأ من أي وقت مضى وأصبح استغلال الفلاحين وسكان المدن قاسياً .

وتقسم هذه الفترة في تاريخ العراق والمناطق المجاورة إلى حكم ثلاث أسر حاكمة متعاقبة . الأول هو حكم العائلة الجلائرية المغولية ، أسسها حسن «الطويل» ، وحاول عبثاً إعادة حكم الايلخانات ، بتتويج أحد أفراد أسرتهم ، ولكن ابنه أويس استلم السلطة في عام ١٣٥٦ ، وبالتالي ضم أذربيجان إلى مملكته السابقة في العراق ، كان أويس حاكماً مقتدراً بذل الجهود لتخفيف أعباء الضرائب عن كاهل رعاياه ، وألغى نظام إيواء الجنود ، ولكن التغيير الذي أدت إليه إصلاحاته لا يمكن أن يكون كبيراً ، لأن الضرائب القديمة سرعان ما جبيت من جديد تحت أسماء جديدة [٣] ، وفي هذه الأثناء أقام تيمورلنك امبراطورية مغولية جديدة ، ولم يستطع أمراء إيران والأسرة الجلائرية الوقوف في وجهه ، واضطر أحمد بن أويس (١٣٨٢-١٤١٠) للتخلي عن العراق والهروب إلى مصر ، ومنذ ذلك الوقت ألقت جيوش تيمور بظلالها على سياسات العراق ، فكلما اقتربت من حدودهم غادر حكامها الخائفون عاصمتهم باتجاه أقصى أقطار الشرق الأوسط الغربية ، واستولى الامبراطور المغولي العظيم على بغداد مرتين في عام ١٣٩٣ ، وفي عام ١٤٠١ ، ولكن أحمد بن أويس احتل العراق ثانية بعد موت الامبراطور في عام ١٤٠٥ .

وسقط الجلائريون في عام ١٤١٠ على يد قرا يوسف زعيم القرا قونيلو (الشاة السوداء) . وهو تحالف قبائل تركمانية تسكن شمال بحيرة وان في عام ١٤١١ استولوا أيضاً على بغداد ، وحكموا لمدة أكثر من نصف قرن في العراق ، وأعالي ما بين النهرين وأذربيجان وبعض مناطق فارس ، بقيت عاصمتهم تبريز ، بينما أصبحت

بغداد مقر نائب الحاكم الذي هو في العادة ابن الأمير الحاكم . ويتفق الكتاب المعاصرون على أن مصير العراق لم يكن أسوأ مما كان عليه في ظل هذه العائلة ، ويجد ابن تغري بردي أن جميع أبناء قرا يوسف أكثر مخلوقات الله وحشية ، ففي أيامهم حلّ الدمار بالعراق وإيران ومدينة بغداد[٢٢] .

في عام ١٤٦٧ حلّت مجموعة اخرى من القبائل التركمانية المسماةآق قونيلو (الشاة البيضاء) محل هذه الأسرة الحاكمة . وفي اواسط القرن الرابع عشر اشتركت الشاة البيضاء في كل حروب شرق الاناضول شبه الدائمة ، وكانت آمد عاصمة زعمائهم الذين ينتمون الى عشيرة بايوندور ، في خمسينات القرن الخامس عشر اصبح اميرهم اوزون حسن امير حرب قوي ، بعد انتصاره على آخر الشاة السوداء ، استولى على بغداد في عام ١٤٦٩ ، وبعدها على كل ايران تقريباً (باستثناء خراسان) ، وهكذا اصبح ملكاً قوياً ، وامل اهالي البندقية ان يقف في وجه تقدم قوة العثمانيين المتزايدة التي تضغط عليهم ، ومنذ عام ١٤٦٣ جرى تبادل بعثات متكرر بين البندقية وملك ايران ، ولكن حكام نابولي وهنغاريا وبولندا ارسلوا اليه البعثات ايضاً ، ومن المرجح ان عدد جيشه فاق ١٠٠,٠٠٠ رجل ، ولكنه لم يكن مجهزاً بالاسلحة النارية الحديثة ، وقرر أهالي البندقية تزويده بالمدفعية ، وفي عام ١٤٧٣ ارسلوا اليه ٥٢ مدفعاً هاوناً (٦ منها كبيرة) و ٥٠٠ قربينة (بندقية) ، وبنادق فتيل ، والذخائر الضرورية ايضاً ، وطلبوا من ٢٠٠ من حملة بنادق المسكيت تدريب الجيش الايراني على استعمال الاسلحة الحديثة ، ولكن الشحنة لم تصل في الوقت المناسب ، ففي تموز ١٤٧٣ حلّت باوزون حسن هزيمة ساحقة بسبب تدني مستوى جيشه التقني ، ولم يستطع جيشه الصمود في وجه هجوم المدافع العثمانية التي استعملت مدافع الهاون وبنادق الفتيل بنجاح[٢٣] ، لكن هذه الهزيمة لم تؤد الى خسارة اوزون حسن لأراضٍ واسعة وحتى ابن اوزون حسن وخليفته يعقوب شاه (١٤٧٨ - ١٤٩٠) كان ملكاً قوياً . وكانت نهاية القرن الرابع عشر وفترة القرن الخامس عشر قمة الاقطاعية في تاريخ العراق ، ورغم أن الجيش مازال يتلقى بعض المرتبات النقدية ، فإن سلطة الجند على الضياع الاقطاعية لم تكن في الماضي بمثل هذا الإحكام ، ولكن الفلاحين وسكان المدن أيضاً عانوا ما لا يقل عن ذلك على يد البدو ، والقبائل الرحل ، ونصف الرحل التي اصبحت

قوية في عهد الفوضى الاقطاعية ، ونهبت قبيلة خفاجة مدينة الحلة احدى مدن العراق الهامة في عام ١٤٢١ ، واحتلت قبيلة المنتفق مدينة البصرة في بداية القرن الخامس عشر ، وبقيت تحت سيطرتها حتى عام ١٤١٧ ، كما استولى عليها هؤلاء البدو ثانية في نهاية القرن ، وجلب الخراب والابتزاز إلى العراق حكم امراء الاقطاع التركمان والعشائر البدوية والكردية في منطقة الحدود الشمالية الشرقية وجرى نهب القرى واشعال النار فيها ، واضطر أهالي المدن لدفع الاتاوات لينقذوا انفسهم من التعذيب(٣٤) .

وكان العبء على سكان المدن اقل وطأة منه على الفلاحين . في بعض المناطق دفع سكان المدن الضرائب على ضياعهم الريفية اقل من الفلاحين ، ومع ذلك فان نظام الامراء الاقطاعي اصبح قاسياً لدرجة ان السكان اصبحوا يتطلعون الى غزو القوى الاجنبية لتحريرهم مهما كانت هذه القوى ، وعندما استولى تيمور على بغداد في عام ١٣٩٣ ، باركه الاهالي الذين حقدوا على احمد بن اويس ، وفيما بعد تعاونوا مع الادارة الجديدة ، وفي شيراز ايضاً حيث عانى الاهالي كثيراً من المظفرين استقبلوا تيمور كمحرر .

ولكن اهالي المدن كانوا عاجزين عن القيام بمقاومة قوية لامراء الاقطاع المغول الاتراك ، اذ لم يكونوا بارعين بالحرب ، وليس باستطاعتهم الوقوف في وجه هجمات الفرسان ، والشيء نفسه يصح في حالة الفلاحين ، وبالتالي لم يكن هناك سوى طبقة واحدة تستطيع الدخول في صراع مع امراء الاقطاع الا وهي البدو ، شهد عهد قراقونيا بالفعل ولادة حركة ثورية بين القبائل البدوية في جنوب العراق ، اصبحت عاملاً يحسب حسابه في الحياة السياسية لمنطقة الخليج العربي .

ولم تنضم كل القبائل البدوية في جنوب العراق للثوار، حتى أن عشائر كثيرة قاتلت ضدها ، من المرجح ان القبائل الفقيرة اصبحت عماد الثورة ، وساندها ايضاً بعض المجموعات من الفلاحين ، ويصف الكتاب العرب الثوار بالملحدين او الشيعة المتطرفين الذين آمنوا ان روح علي قد تجسدت في زعمائهم ، نظراً لان معظم هؤلاء الكتاب من الفقهاء او الاتقياء ، تلك كانت في الحقيقة معتقدات «الحلولية» ، والمجموعات الشيعية المتعصبة الاخرى . انما البنية الفوقية ـ الايديولوجية الدينية التي كانت في العصور الوسطى وراء كثير من الحركات الثورية

الاجتماعية ، كما اتهم كثير من زعماء الثورة ايضاً بالسحرة الذين حققوا نجاحاتهم عن طريق السحر ، ومهما كان الامر فان دعاياتهم لاقت الكثير من النجاح بين البدو في جنوب العراق على ضفاف دجلة الادنى في منطقة المستنقعات ، وعلى حدود خوزستان . هذه المناطق هي نفسها التي شهدت ثورة الزنج والقرامطة ، وتحمل الثورة الجديدة الكثير من اوجه الشبه بالحركات الثورية السابقة وقد ادرك المؤلفون المعاصرون هذه الحقيقة . والقائد الاول لهذه الثورة يسمى «الخبيث» كما سمي امير الزنج من قبله ، كما قورن الثوار ايضاً بالقرامطة على يد ابن تعزي بردي ، وكالقرامطة نادراً ما نجحوا في الاستيلاء على المدن الكبرى ، وعندما استولوا على احداها ، اعملوا فيها السلب والنهب ثم هجروها ، ولكنهم اوجدوا جمهورية صغيرة عاشت لفترة طويلة ، وفي اوج قوتها كونت دولة حقيقية تبادلت البعثات مع الحكام الاقوياء .

ومؤسس هذه الحركة هو محمد بن فلاح سوري الاصل على ما يبدو ومن واد التيم ، ومن المرجح انه اتى الى واسط كطفل وربما استقر ابواه هناك قبل ولادته ، درس في الحلة باشراف معلم شيعي متصوف وانصرف لدراسة علوم السحر ، وبدأ محمد بن فلاح حياته في عام ١٤٢٠ مدعياً بانه علوي ، وبممارسة الشعوذة والسحر اكتسب اتباعاً بين البدو على ضفاف دجلة الاسفل ، واصبح يعرف «بالمشعشع» ، وفيما بعد ادعى بأنه المهدي الذي يأتي في آخر الزمان حسب بعض المعتقدات الاسلامية ، في عام ١٤٤٠ بدأ بممارسة النشاطات العسكرية بالهجوم على واسط ، وبعد عامين قام بهجوم آخر على هذه المدينة ، ولكنه صُدَّ عنها مرة اخرى وهُزم في المناوشات مع قوات الحكومة . وكذلك اخفق ايضاً في محاولاته بالاستيلاء على البصرة والمدن والحصون الاخرى ، ورغم ذلك انضم اليه البدو باعداد متزايدة ، ونظراً لان الثوار استمروا في نهب القرى والحصول على الغنائم الكثيرة فان نشاطاتهم داعبت غرائز البدو الفقراء ، وبين الذين اعترفوا بالمشعشع كقائد لهم عشائر بنوليث وبنو حطيط وبنو سعد وبنو سلمة (وهي قبيلة تنتمي الى بني مواضي) وبنو رزنان وبنو طي .

وعندما نجح المشعشع في اثارة الكثيرين من البدو ، اعتزل وعين ابنه مولى علي قائداً للحركة ، واثبتت قيادته نجاحها ، ففي عام ١٤٥٣ استولى على واسط

وعين حاكماً لها ، وفي نفس السنة هاجم قافلة حجاج العراق وهي في طريقها الى مكة ، واستولى الثوار على الكثير من الغنائم ، وعندما انزلوا هذه الضربة القوية بالعالم الاسلامي سار اليهم جيش من بغداد وهزمهم ، وبعدها نهب مدينة الحلة ، في عام ١٤٥٦ اعمل مولى علي السلب والنهب في شرق العراق في منطقة طريق خراسان فنهب القرى والمدن الصغيرة واحرقها ، وحمل معه النساء والاطفال ، وعندما ارسلت حكومة العراق في نهاية عام ١٤٥٧ بعثة الى القاهرة لاعلام السلطان بالانتصار على الثوار ، والتاكيد له على ان طريق الحج الى مكة آمن ، لم يكن ذلك سوى نوع من الغرور ، لانه لم يحج احد من العراق لسنوات كثيرة ، عندما ارسل القراقونيلو جيشاً ضد الثوار ، تراجع قائدهم الى الحويطة ، وهي مركز اقامته قرب حدود خوزستان . كما توافرت لديه السفن ونقاط الدعم في جزر الخليج العربي ، في عام ١٤٥٧ قتل مولى علي ، ومن ثم عاد ابوه المشعشع الى القيادة ، والتوازي هنا مع تاريخ القرامطة واضح جداً .

ووصلت قوة الثوار في ذلك الحين الى الاوج وبعد موت ابنه بوقت قصير احرز المشعشع انتصاراً باهراً على جيش الحكومة الذي ساندته عشائر بدوية كثيرة ، وفي عام ١٤٦٢ مات المشعشع وخلفه ابن آخر له هو المحسن الذي كان مقتدراً ومقداماً كسابقيه ، وصحيح ان الثوار تعرضوا احياناً للنكسات ، وارسل امير القراقونيلو القوي جانشاه جيشاً قوياً ضدهم ، وامّن مرور الحجاج على الطريق التقليدي الى مكة ، وهكذا تمكن حجاج العراق من اداء الفريضة من جديد بعد انقطاع دام سنوات كثيرة ، ولكن المحسن ـ من جهة اخرى ـ نجح في نفس الوقت تقريباً في احتلال الحلة ، واصبحت قوته اكبر من قوة ابيه واخيه ، فلقد حكم ليس فقط مناطق حدود العراق وخوزستان ومنطقة المستنقعات بل ايضاً الجزء الأعظم من منطقة بغداد وبعض الجزر في الخليج العربي ، وكانت هناك أيضاً بعض القبائل الكردية القاطنة على الحدود الشرقية للعراق والتي اعترفت به اميراً لها ، واصبحت جمهوريته دولة بكل الامتيازات بما في ذلك سك العملة(٣٥) .

وفي عهد اوزون حسن القوي يبدو ان المحسن امتنع عن شن الغارات داخل المناطق الخاضعة لسيطرة ضباطه ، ولكن بعد موته مباشرة في عام ١٤٧٨ قام بعدة حملات جديدة في مناطق كثيرة من العراق : الحلّة ـ بغداد ـ ديالى وخالص . وفي عام

١٤٨٤ اجاب ابن اوزون حسن وخليفته يعقوب شاه بارسال جيش قوي ضد اتباع المشعشع ، ولاقى نجاحاً تاماً اذ احرز جيشه انتصاراً هاماً ، ومن الطبيعي جداً ان يقول كاتب حوليات معاصر ان يعقوب شاه قام بهذه الحملة بتحريض من سلطان القاهرة ، وهكذا فان ثورة البدو في جنوب العراق أخافت حتى الطبقة الحاكمة في مصر ، واعتبر ملوك العراق ـ ايران ومصر الذين كانوا ـ باستثناء ذلك ـ اعداء ألداء ، أن الكفاح ضد هؤلاء الثوار تقتضيه مصلحة مشتركة ، ومهما كان الامر فان قوة هؤلاء الثوار لم تضعف بعد ، لانهم قاموا في عام ١٤٨٧ بالاستعدادات لحملة ضد تستر وهي مدينة كبيرة في خوزستان ، ولكي يُطَمئنوا يعقوب شاه ارسلوا اليه بعثة تقول : ان الاستعدادات هي لتحرير البصرة من البدو الذين احتلوها ، وحسب رواية كاتب حوليات معاصر ، اتت في عام ١٤٩٢ بعثة الى سلطان القاهرة من المحسن «امير منطقة البصرة» ، وهكذا ربما احتل اتباع المشعشع مدينة البصرة لبعض الوقت .

ومات المحسن في عام ١٥٠٨ وحكمت سلالته لبعض الوقت البدو في المناطق الحدودية من العراق وخوزستان ، كما أنهم سكوا النقود ، وبهذه الطريقة أعلنوا استقلالهم[٣٦] .

وكان الحقد الذي أثاره أتباع المشعشع لدىٰ الفقهاء ـ السنة والشيعة على السواء ـ قوياً جداً ، فلم يقطعوا فقط طريق قوافل الحجاج المتنظم إلى مكة ، بل إنهم أيضاً دنّسوا المقام المقدس في النجف عند قبر علي وفي كربلاء مكان استشهاد الحسين ، وادعىٰ أعداؤهم أنهم خالفوا تعاليم الاسلام بتحليل ما حرمه القرآن ، لقد اتهموا بالإلحاد ، وتحليل زواج الرجل من ابنته أو أخته ، وتهمة الفسق وجهت الى مختلف الحركات الالحادية في العصور الوسطىٰ ، وكل من الشرق الأوسط المسلم والعالم المسيحي ، وغالباً ما كانت سلاحاً ضد أولئك الملحدين الذين امتزجت أفكارهم ببرنامج ثوري .

يبدو أن غالبية فلاحي العراق لم تنتقل إليها عدوىٰ أفكار هؤلاء الثوار والملحدين . فالجماهير الفلاحية الفقيرة رزحت تحت نير سادة الاقطاع التركمان يائسين من أي تغير في وضعهم ، حقاً أن ظروف حياتهم في تلك الفترة كانت أسوأ

من ذي قبل ، إذ تمت إقامة النظام الاقطاعي في حيازة الأراضي .

واختلفت الضرائب التي اضطر الفلاحون لدفعها باختلاف المناطق ، التي حكمتها القراقونيلو والآق قونيلو ، وتعهد أوزون حسن بتقنين الممارسة المحلية في كل منطقة بفرض حماية الفلاحين ، من فرض الضرائب الاعتباطي ، ويبدو أنه أيضاً قرر تخفيضاً عاماً في الخراج ، ونظراً لأن العثمانيين استخدموا قوانينه المالية ، ولأن الوثائق الخاصة بذلك قد حفظت في مناطق شرق الأناضول فقد عرفت نسب الضرائب المختلفة، ففي منطقة ديار بكر اضطر الفلاحون مثلاً لتسليم ١/٥ محاصيلهم ، واضطروا للقيام بأعمال السخرة (غير المسلمين أكثر من المسلمين) ، واضطروا لدفع ضرائب كثيرة أخرى(٣٧) .

وجرىٰ استكمال النظام الاقطاعي لحيازة الأراضي في العراق في ظل التركمان ، ولكن المرحلة الأولىٰ في هذا التطور بدأت في عهد الجلائريين ، واختفىٰ تعبير الاقطاع وحل محله التعبير المغولي «سويور غال» . إنه ليس مجرد تغيير في الاسم ، بل اعترىٰ النظام نفسه تغير كبير ، فبينما كان الاقطاع في العصر الايلخاني منحة مشروطة تسحب عند إخفاق الاقطاعي في تنفيذ التزاماته ، أصبحت السويور غال وراثية حتىٰ لو نصٌ على ذلك صراحة في وثيقة المنحة ، اعتبرت المنحة «دائمة» رغم وجوب تأكيدها من قبل خليفة الأمير الذي منحها ، وثانياً حصل الاقطاعيون على حصانة إدارية وقضائية ، ويقرأ المرء في وثائق الاقطاعات في هذه الفترة أن «أرجل الموظفين قد أزيلت وأقلامهم قد رفعت» . وتذكرنا هذه التعابير بصياغة وثائق الاقطاعات في أوربا في العصور الوسطىٰ «بدون تدخل القضاء» .

ومنح كل من الأمراء الجلائريين والتركمان في العراق وأذربيجان جندهم والمدنيين أيضاً إقطاعات كبيرة وصغيرة ، وحصل زعماء القبائل القوية على مناطق بكاملها ، بينما حصل الفرسان من المراتب الدنيا على قرية أو قريتين ، ونظراً لأن «السويور غال» مؤسسة أيضاً في الدول التيمورية ، أصبحت في القرن الخامس عشر الصيغة الشائعة لحيازة الأراضي في العراق وأذربيجان ، ومنح أوزون حسن ـ الذي حاول كسب دعم رجال الدين ـ كثيراً من الاقطاعات لأفراد هذه الطبقة رغم أن الخدمة العسكرية ما زالت مطلوبة من الاقطاعيين ، وكذلك فعل خليفتاه يعقوب شاه ورستم(٣٨) .

وأدى تزايد الضياع الاقطاعية الى التفكك ، وازداد الخطر حتىٰ على مجرد بقاء السلطة المركزية ، لأن الجند حصلوا على إقطاعات كثيرة ، مما جعلهم غالبية مالكي الأراضي الحرة ، ولذلك قام آخر أمراء الآق قونيلو بمحاولات لاستعادة الاقطاعات والأراضي الأخرى الممنوحة للأغراض الدينية ، أو على الأقل جزءاً منها . وجرت هذه المحاولة في آخر عهد يعقوب شاه ، ولكنها لاقت معارضة أمراء الاقطاع والفقهاء أيضاً ، وتبع موت يعقوب شاه سقوط الموظفين الذين كانوا يقومون بهذه الاصلاحات ، أما آخر حكام هذه السلالة ـ أحمد ـ فقد اتخذ موقفاً متطرفاً من النظام الاقطاعي ، ولم يكن هذا الموقف خطراً على النظام نفسه فقط بل إنه أدىٰ إلى تدهور الزراعة بظلم الفلاحين ، فقد التزم أحمد بتخفيف العبء الضريبي فألغىٰ «الاخراجات» و«والشلتكات» وهما الضريبتان الاستثنائيتان المقدرتان اعتباطياً ، وفي نفس الوقت رفض تأكيد السويو رغال التي منحها أسلافه مما يعني النية في إلغاء منح الاقطاعات ، ومرة أخرىٰ عارض أمراء الإقطاع نوايا الأمير الحسنة ، وأسقطوه خلال بضعة أشهر[٣٩] .

لا يوجد أي شك في أن النظام الاقطاعي ، الذي أقامه خلفاء الايلخانات ، أثبت أنه عقبة في وجه الانتاج الزراعي ، وأدىٰ إلى تسارع تناقص المحاصيل .

كما أن حكم الجلائريين والتركمان أدىٰ أيضاً إلى تدهور تجارة العراق الداخلية والدولية ، هناك عدة أسباب لهذا التقهقر ، أحدها بالتأكيد طغيان اقتصاد المقايضة ، فلم يحدث قبلاً ـ منذ أن فتح المسلمون العراق ـ تراجع البلاد إلى اقتصاد طبيعي ذي مستوىً منخفض ، كما حدث في عهد التركمان ، ثانياً لا بد أن فقر السكان العام أدىٰ إلى تقلص النشاطات التجارية ، وهكذا فإن التناقص البطيء ، والمستمر في حجم التجارة ، كان عنصراً في التدهور الاقتصادي العام ، ويشهد على هذه الأحوال العدد القليل من النقود العراقية ، الذي وصل إلينا من هذه الفترة ، ومع ذلك استمر الجلائريون في سك النقود الفضية والذهبية ، مثل الدنانير القديمة والرائجة والدراهم ، وتواجدت دور السك في عهدهم في بغداد والبصرة والحلة وواسط وأربيل والعمادية والموصل ، ولكن عدد قطع النقود المحفوظة من أيام القرا قوينلو، والآق قونيلو محدوداً جداً[٤٠]، وهذه المحدودية دليل واضح على التدهور الاقتصادي ، فجشع أمراء الاقطاع الذين حكموا العراق وآذربيجان في

هذه الفترة ، خفّف وتيرة النشاطات التجارية ، وبدلاً من اتخاذ الاجراءات لوقف الاتجاه التنازلي لمعظم فروع التجارة المحلية والدولية ، زاد الحكام التركمان الضرائب على التجارة ، فحسب رواية نصير الدين الطوسي مستشار هولاكو أن نسبة الدفعة هي $\frac{1}{240}$ ، ولكن النسبة التي جبيت في تبريز في عهد اوليجيتو (١٣٠٤ - ١٣١٦) بلغت ٥٪ ، يقول بيغولوتي - الذي كتب بعد ٣٠ سنة - إنها بلغت ٤,٥٪ ، أما الجلائريون الأولون الذين كانت سياستهم أكثر ليناً ، فقد جمعوا ٢,٥٪ ، أما في القرن الخامس عشر فقد ارتفعت الدفعة حتى وصلت ١٠٪ في النصف الثاني منه ، وأراد أوزون حسن أن يلغيها بالكامل ولكن مستشاريه أقنعوه بأن يحددها بمقدار ٥٪ ، ولكن إعفاء موظفي حاكم بغداد (ومن المرجح موظفي الحكام الآخرين وأمراء الإقطاع) من دفع «التمغة» كان سمة بارزة في النظام الاقطاعي ، إنها بالتأكيد معرقلة لنشاطات التجار الخاصة . ومن جهة أخرى فإن آخر أمراء أسرة الأق قونيلو واتباعهم استغلوا التجار بمختلف الطرق ، أو أنهم بكل بساطة سلبوهم بضائعهم[٤١] .

وتدهورت تجارة العراق الدولية في عصر الجلائريين والتركمان مع تجارة الأقطار الأخرى التي كانت سابقاً تنتمي إلى مملكة الايلخانات ، ولكن الروابط التجارية بين العراق والشام هي على الأرجح أقوى من السابق ، وفي النصف الثاني من القرن الرابع عشر زار التجار من بغداد والبصرة مصر أيضاً ، حيث صدروا الأقمشة من العراق ، ولكن نصيب العراق وأذربيجان من تجارة الترانزيت الهندية تناقص كثيراً على الأخص كنتيجة لفقدان الأمان العام السائد في هذه الأقطار بعد موت الايلخان أبو سعيد ، وفي عام ١٣٤٤ أرسل حكام تبريز بعثة إلى جنوا وأقنعوا تجارها باستئناف نشاطاتهم في مملكة الايلخانات ، ولكنهم تعرضوا لخسائر فادحة ، بينما اتخذ تجار البندقية موقفاً حذراً منذ البداية ، ولم يستجيبوا لتلك الدعوة . وكرر أويس الجلائري الدعوة في عام ١٣٧٢ ، وتوجه بالدعوة إلى تجار البندقية للعودة إلى مملكته ووعد «عميدهم البيلو» في طرابزون أنه سيعوض أية أضرار تلحق بهم ، ولكن سوء الأحوال في دولة الايلخانات السابقة كان فقط أحد الأسباب لتدهور تجارتها مع الجمهوريات الايطالية ، والسبب الآخر هو التدهور المستمر لتجارة إيران البرية مع الشرق الأقصى ، في عصر الايلخانات كانت هذه البلاد نقطة البداية

لتجار أوربا والشرق الأوسط في أسفارهم الى الصين ، ولكن بعد وصول أسرة المينغ إلى عرش «الامبراطورية السماوية» طرأ تغير كبير على تجارتها وتناقص باستمرار عدد التجار الأجانب المسافرين عبر أواسط آسيا[٤٢] .

ولكن التجار الايطاليين لم يقطعوا كل علاقاتهم التجارية مع أذربيجان والبلدان المجاورة ، وفي عام ١٣٦٤ تواجدت دائرتان للدمغة في تبريز ، إحداهما للحرير والتوابل الصينية والفراء ، والأخرىٰ للأقمشة الايرانية والأوربية والمصرية ، وتدل وثائق البندقية على السفر إلى تبريز في بداية القرن الخامس عشر ، وحتى بعد ذلك حتى النصف الأول من القرن السادس عشر تقريباً ، وتشير الوثائق الأخرىٰ في أرشيف البندقية إلى رحلات التجار في أواسط آسيا في ستينات القرن الرابع عشر ، ولكن تبريز والسلطانية بقيتا وجهة معظم هذه الأسفار ، فهناك حصل تجار جنوا والبندقية على السلع الهندية التي نقلت براً وبالاضافة إلى اللآلىء من الخليج العربي حصلوا على الأحجار والحرير (الخام من مناطق بحر قزوين والأقمشة الحريرية النفيسة من الهند وإيران) ، وعلى الطرف الآخر من الطريق البري عبر إيران كانت هرمز ما تزال مرفأ مزدهراً ، ويؤكد المسافرون الأوربيون والشرقيون على الحجم الكبير لتجارتها مع الهند ، ومن بين هؤلاء المسافرين عبد الرزاق بن اسحق الذي زار الجزيرة في عام ١٤٤٢ ، والتاجر الروسي أفانا سيج نيكيتين الذي كان هناك في عام ١٤٦٩ ، وجيوسافات باربارو في سبعينات القرن الخامس عشر ولود وفيكودي فارثيا في بداية القرن السادس عشر، ازدادت حركة النقل في مرفأ هرمز باستمرار ، وفي النصف الأول من القرن الخامس عشر بدأت الأساطيل التجارية الصينية بزيارته وأرسل أمراؤه البعثات إلى امبراطور الصين ، كانت هرمز في هذه الفترة بالفعل دولة تحكمها الارستقراطية التجارية والجند[٤٣] .

وأدى الازدهار العظيم في تجارة هرمز ، وتجدد التجارة بين العراق والشام إلى شحن بعض البضائع الهندية القادمة إلى الخليج العربي نحو البصرة ، ومنها إلى بغداد ، وزار التجارالفرس هذه المدن وبقي بعضهم هناك لوقت طويل ، وقام دراكوني زينو البندقي برحلة برية عظيمة في آسيا في عام ١٤٢٥ وعاش لبضع سنوات في البصرة[٤٤] ، واشترك تجار بغداد بالتجارةالهندية ، وتواجدوا في المراكز التجارية في

هرمز وتبريز ، واستمرت الطرق الرئيسية للتجارة بين أذربيجان وموانىء شرق المتوسط هي نفسها التي عبرت أرمينيا وشرق الأناضول الى الشمال من حدود العراق ، ولقد وصلت تبريز عبر أخلاط وتفليس وأورفا أو عبر آمد وشمال سورية ، كانت وجهة كل القوافل تقريباً حلب ، حيث يتم تسليم الحرير الايراني الخام إلى تجار البندقية. وتلقي تقديرات المكوس في مجموعات القوانين العثمانية العائدة لعام ١٥١٨ الضوء على الحركة التجارية الكثيفة على هذه الطرق التجارية ، ففي ماردين تم تحصيل المكوس على تجارة الحرير الترانزيت من يزد ، والأقمشة القطنية من بعلبك ، والأقمشة من دمشق ومصر والبلدان الأوربية ، وفي آمد على الأقمشة من حلب والاسكندرية ، وفي خربوط على الحرير والأقمشة الأوربية ، وليس هناك أي ذكر للتوابل في هذه الأنظمة . والمرء مضطر للاستنتاج أن حرير إيران نقل إلى شواطىء المتوسط عبر طرق القوافل في أعالي ما بين النهرين وأرمينيا ، بينما نقلت التوابل بالطرق الأخرى ، التي وصلت بغداد وحلب إلى جنوب مرتفعات أعالي ما بين النهرين ، ويشهد على أن تجارة الترانزيت في أعالي ما بين النهرين مازالت مزدهرة في نهاية هذه الفترة الحقيقة القائلة أن ١٥٠ تاجراً من التجار الأوربيين كانوا يقيمون في آمد في عام ١٥١٨(٥٥) .

وهكذا ترينا مختلف التقارير والوثائق انتقال طرق التجارة من الخليج العربي إلى البحر المتوسط الذي كان نتيجة للغزو المغولي غيّر العلاقات التجارية بين العراق وبلدان البحر المتوسط ، خلال القرون المتأخرة من العصور الوسطى ؛ فالطرق الرئيسية للتجارة البرية بين إيران وأذربيجان لم تعد تعبر العراق في العصور اللاحقة للغزو المغولي ، وهذا تبدّل كان له أثر هائل على تطور بغداد ، ومدن العراق الأخرى . وأدى التناقص المستمر في نصيب العراق من تجارة الترانزيت في الشرق الأدنى بالضرورة إلى تقلص مدنه .

ولكن تدهور التجارة لم يكن سوى أحد أسباب تناقص السكان في نهاية العصور الوسطى ، وكانت هناك أسباب أخرى عديدة ، وفي بداية عصر الجلائريين (في عام ١٣٤٢ - ١٣٤٣) حدثت مجاعة أخرى في العراق وأعالي ما بين النهرين ، ويضمّن مؤلف عربي في سيرة حسن الطويل - مؤسس السلالة - وصفاً لمجاعة كبيرة ، فحسب روايته اجبرت هذه المجاعة الكثيرين من سكان بغداد على

مغادرتها باتجاه المناطق الأخرى ، ربما كان الكاتب يتحدث عن مجاعة ١٣٤٢ ـ ١٣٤٣[٤٦] .

وبعد عدة سنوات شهد العراق وباء عرف بالموت الأسود ، وكما حدث في كل أقطار الشرق الأوسط كان الطاعون كارثة ديمغرافية حقيقية ، وأدت هذه الجائحه من الطاعون الدملي إلى موت الكثيرين في مدن وقرى العراق وأعالي ما بين النهرين ، بدأ الوباء في منطقة بغداد في صيف عام ١٣٤٧ وبلغ ذروته في كل من العراق وأعالي ما بين النهرين في عام ١٣٤٩ [٤٧] ، وأوصاف الجائحة في العراق التي وصلت إلينا ليست عديدة ولا تفصيلية ، ولكن أثرها على تطور العراق الديمغرافي لا بد وأنه هائل .

ويذكر كتاب الحوليات أوبئة أخرى لاحقة كانت بالتأكيد عاملاً هاماً في تطور العراق الديمغرافي . في عام ١٣٩٤ ظهر الوباء وتبعته مجاعة في منطقة بغداد ، في النصف الأول من القرن الخامس عشر تكررت هذه الجائحات التي يسمى بعضها بالطاعون ، وفي عام ١٤١٦ ، عندما حل الطاعون بمعظم بلدان الشرق الأدنى الأخرى ، فتك أيضاً بمختلف مناطق العراق وأعالي ما بين النهرين باستثناء الموصل ، وفي عام ١٤٢٥ ظهر الطاعون ثانية في أعالي ما بين النهرين ، وفي عام ١٤٣١ وكنتيجة للحرب بين القرا قونيلو وشاه رخ بن تيمور لنك حلت بالعراق الندرة والمجاعة والأوبئة ، وانتشرت أيضاً في معظم مناطق أعالي ما بين النهرين ، وفي عام ١٤٣٦ فتكت معظم الأمراض بالبصرة بعد الطوفان ، كما أن عام ١٤٣٨ شهد طاعوناً دملياً حقيقياً انتشر في نفس الوقت في معظم مناطق الشرق الأوسط ، لقد جلب الخراب على العراق ، ووصل عدد الضحايا إلى أرقام كبيرة وفي بعض الأماكن لم ينجُ سوى القليل من السكان ، وتقول إحدى الحوليات أنه لم يبق في مدينة الحديثة سوى ٧٠ شخصاً ، وفي عام ١٤٧٠ حدث انتشار آخر لمرض الطاعون ، وبلغ عدد الضحايا في بغداد ١٥٠٠ شخصاً في يوم واحد ، وانتشر الطاعون أيضاً إلى تكريت وشهر زور وإربيل والموصل ، وأودى بحياة الكثيرين في كل مكان[٤٨] .

بالاضافة إلى التدهور الاقتصادي والأوبئة هناك سببان آخران لتناقص السكان : الحروب المتكررة ، وسوء الحكم . فحصار المدن والاستيلاء عليها من

قبل الجيوش المختلفة كثيراً ما أدىٰ إلىٰ المذابح ، وأسوأها مذبحة عام ١٤٠١ ، التي تلت الاستيلاء الثاني على بغداد على يد تيمورلنك ، الذي ذبح عشرات الآلاف من السكان بوحشية ، وفي خلال القرن الخامس عشر حوصرت بغداد عدة مرات ، ولن نكون مخطئين على الأرجح إذا افترضنا أنها سارعت في تناقص السكان ، وحوصرت المدينة في عام ١٤١٠ - ١٤١١ وعام ١٤٤٦ وعام ١٤٦٥ وعام ١٤٦٧ ، وبعد محاصرة المدينة والاستيلاء عليها في عام ١٤٤٦ ، تدمر جزء منها ودام حصار سنة ١٤٦٥ (عاماً كاملاً) وتلته مجزرة كبيرة .

وأحياناً فضل سكان المدينة هجرها عندما يئسوا من الوقوف في وجه الجيش الزاحف ، كما حدث في واسط والحلة عام ١٤٥٣ ، دمر أهالي واسط المدينة وهجروها بعد أن شعروا بعجزهم عن مقاومة بدو المشعشع . كان الخروج من الحلة كارثة حقيقية حيث مات الكثير من الهاربين من الجوع والعطش والانهاك ، عندها أشعل مولى علي النار في المدينة المهجورة .

ولكن يبدو أن سوء الحكم ليس أقل من العناصر التي سببت تناقص السكان أهمية ، ويقول كتاب الحوليات أن هجرة السكان من بغداد أصبحت ظاهرة رئيسية في أيام شاه محمد حاكم بغداد من عام ١٤١١ وحتى عام ١٤٣٨ ، ولكن سكان مدن العراق الأخرى أيضاً غادروها الى سورية والبلدان الأخرىٰ ، ولقد كان خراب المدن الكبيرة واضحاً جعل المسافرين الأوربيين يدركونه ، ويكتب سفير البندقية جيوسافات باربارو في كتاب رحلاته أن بغداد «التي كانت في الماضي مدينة مشهورة هي الآن خربة إلى حد كبير[٩]» .

وهكذا فإن حكم العسكريين الطويل جلب على العراق الدمار والتدهور الاقتصادي وتناقص السكان ، ففي بداية القرن السادس عشر وصل رفاه وحضارة أراضي دجلة والفرات مهد الحضارات الرائعة إلى أدنىٰ مستوى له ، وإن استيلاء اسماعيل شاه على بغداد في عام ١٥٠١ وضم العراق اللاحق إلى الدولة الايرانية الجديدة وضع نهاية لمصير الحضارة التي آلت إلى الدمار قبل ذلك بوقت طويل .

العربية في برقة ومصر السفلى . فتحتَ قيادته سيطرت القبائل البربرية من لواته وبنو قرة العرب على معظم مناطق مصر وحسب إحدى الروايات التي تعكس مخططاتهم بصدق اتفقوا على اقتسام الدولة الفاطمية بعد انتصارهم بحيث يحكم بنو قرة مصر ويحكم حلفاؤهم بلاد الشام لكن ثورتهم قمعت في عام ١٠٠٦ على يد الحاكم (٩٢)

وفي هذه الأثناء ثار بنو طيء مرةأخرى في فلسطين واحتلوا الرملة التي كانت حينئذ مدينة تجارية غنية . وفي عام ١٠٠٠ طرد حاكم دمشق الفاطمي حسان بن المفرج من الرملة ، واستولى على قصور القبيلة في منطقة الشراة . لكن حسان الطموح الذي هدف إلى إقامة حكم مستقل في فلسطين ثار ثانية واحتل الرملة مرة أخرى . ولإضفاء الشرعية على حكمه نصبٌ في عام ١٠١٠ شريف مكة (سليل الرسول الحاكم في مدن الحجاز) أبو الفتوح الحسن خليفة ، ودعاه للعيش في فلسطين حيث اعترفت به معظم مناطق الشام ، وهزم بنوطي الفاطميين وأسروا القائد المصري ، وفي نفس الوقت استولى بنو كلاب ـ وهم أقوى القبائل في شمال الشام ـ على حلب . ولكن حسان غيرّ رأيه بعد سنتين ، وقبل عرض الحاكم لمبلغ كبير من المال وأعاد خليفة الحجاز إلى مكة [1]

وفي عهد الظاهر قام زعماء البدو في الشام بأعظم هجماتهم على الخلافة الفاطمية . وكانت ثورة عامة حسنة التدبير تهدف إلى إسقاط الحكم الفاطمي في الشام . ففي عام ١٠٢٣ أقامت القبائل القوية تحالفاً بينها واقتسموا المناطق الواجب الاستيلاء عليها وحكمها : فبنوطي يحكمون فلسطين وبنو كلاب، شمال سورية والزعيم الكلبي سنان بن عليان منطقة دمشق في أواسط سورية ، واستولى بالفعل حسان بن المفرج زعيم بني طي على الرملة وصالح بن مرداس زعيم بني كلاب على حلب وكل شمال سورية من بعلبك إلى عانة على الفرات . واحتفظ ورثته بحلب حتى عام ١٠٧٩ مع بعض الاستثناءات . كانت إعادة الحكم الفاطمي مخفقة لأن الأحداث وقفوا إلى جانب المرداسيين وصمدت حلب في وجه القوات المصرية ، وحتى في فلسطين أعاد حسان بن المفرج سلطانه بعد الهزيمة الساحقة التي نزلت به في عام ١٠٢٩ . وذلك عام ١٠٤٢ (٩٤)

---

١ ـ عرض الأخبار هنا متداخل في أخطاء شنيعة وينصح القارىء هنا بالعودة إلى تاريخ دمشق لابن القلانسي ، وزبدة الحلب لابن العديم ، واتعاظ الحنفا للمقريزي .

حواشي الفصل السابع

١ ـ ابن الطقطقي ـ الفخري (تحقيق الوارث) ص ٣١

PETRUSHEVSKY

HINZ

BARTHOLD

LAMBTON

ابن الفواتي ص ص ٣٩٨ ، ٤٢٤ ، ٤٣٠ ، ٤٥٤ ، ٤٨٢ وما بعدها

رشيد الدين ـ تاريخي مباركي غازاني (تحقيق يان) ص ٣٤٨ وما بعدها .

٢ ـ PETRUSHEVSKY

٣ ـ رشيد الدين ـ المصدر السابق ـ ص ٣٠٣ وما بعدها .

SPULER

٤ ـ رشيد الدين ـ المرجع السابق ص ٢٦٤

رشيد الدين ـ مكاتباتي رشيدي (لاهور ١٩٤٥) ص ٣٧ وما بعدها .

PETRUSHEVSKY

٥ ـ عبد العزيز الدوري ـ بغداد ـ الموسوعة الاسلامية ـ ١ ص ٩٠٢

رشيد الدين ـ تاريخ مغول ايران (ترجمة كاترمير ـ باريس ـ ١٨٣٦) ص ٣١٠ ، ٣٣٠ وما بعدها ، ٣٨٨ .

رشيد الدين ـ تاريخي مباركي غازاني ـ ص ٣٥٠

BARHEBRAEUS

حول المبالغات انظر ASHTOR

٦ ـ ابن الفواتي ص ص ٣٦٦ ، ٤٠٨ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٩

العزاوي ـ تاريخ العراق بين احتلالين (بغداد ١٩٣٥ وما بعدها) ـ ١ ص ٣٣٥

العزاوي ـ تاريخ العراق ـ ٢ ص ٢٨

ابن الوردي ـ تاريخ (القاهرة ١٢٨٥) ـ ٢ ص ٢٦٦

٧ ـ LE STRANGE

القسم الجغرافي من نزهة القلوب (ترجمة لوسترانج ـ ليدن ١٩١٩)

ص ٤٣ ، ٤٧ وما بعدها ، ٥٢ ، ١٠٣ وما بعدها
رحلات ابن بطوطة (ترجمة جب - كمبرج ١٩٦٢) ص ص ٢٨١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٦ ، ٣٥٢
جغرافية ابو الفداء (ترجمة رينود) - ٢ القسم الثاني ص ص ٥٤ ، ٦١ ، رحلات ابن جبير ص ٢١١
ياقوت - ٢ ص ص ٧٩ ، ٢٧٧ ، ٣١٧ ، ٣٩٣ ، ٥١٦
ياقوت - ٣ ص ٧٠٥
ياقوت - ٤ ص ٤٤٧
LE STRANGE
ADAMS
٨ - تاريخي مباركي غازاني ص ١٤٤ وما بعدها
ابن بطوطة (ترجمة ديفريمري - سانغونياتي) - ٤ ص ٣١٤
ADAMS - ٩
نزهة القلوب ص ٣٤
ADAMS - ١٠
١١ - نزهة القلوب ص ١٩٣ ومابعدها
ابن بطوطة (ترجمة جب) ص ٤٣٦
١٢ - ابن فضل الله العمري كما نقله القلقشندي - صبح الأعشى - ٤ ، ص ٤٢٢
VALIDI
HINZ
١٣ - ابن الفواتي ص ٣٤٨، ٤٣٠
SMITH
١٤ - تاريخي مباركي غازاني ص ٣١٢ وما بعدها
SMITH
ابن الفواتي ص ٤٩٨
JAHN - ١٥
Histoire - ١٦
Yule
حتى لو افترضنا ان الـ ـهم اللذي يذكر فيه ابن بطوطة - عندما يذكر ثمن الخبز - أيضا مقفض فإن قيمته قليلة الى حد غير معقول
١٧ - نزهة القلوب ص ٣١
رشيد الدين - تاريخي ص ص ٢٦٢ ، ٣٤٦

رشيد الدين - مكاتباتي ص ص ٣٣ وما بعدها ، ١٢١ وما بعدها
PETRUSHEVSKY
PETRUSEVSKY
١٨ - رشيد الدين - تاريخ مغول فارس (ترجمة كاترمير) ص ١٣٠ وما بعدها
رشيد الدين - تاريخي ص ص ٣٠٥ ومابعدها ٣٥٥
جامع التواريخ (تحقيق اليزاد - باكو ١٩٥٧) - ص ٥٥٨
١٩ - تاريخي ص ص ٢٤٩ ، ٣٠٦
نزهة القلوب ص ٣٣
PETRUSHEVSKY
PETRUSHEVSKY
٢٠ - اليونيني - ذيل مرآة الزمان (حيدر آباد ١٩٥٤ - ١٩٦١) - ٤ ص ٢٢٥
تاريخي ص ص ٢٠٣ ، ٣٤٩ وما بعدها
LAMBTON
مكاتباتي ص ٢٤٤
PETRUSHEVSKY
نزهة القلوب ص ص ٣٣ ، ٣٦ ، ٤١ ، ٤٧ ، ١٠٢ (في النص الفارسي لا تذكر مبالغ الفترة السابقة على الغزو المغولي بالدنانير الذهبية . ولذلك لم يكن هناك تناقص كبير في الايرادات كما استنتج بعض العلماء من ارقام هذا المؤلف . وبالاضافة الى ذلك فان كثيرا من المعلومات السابقة على العصر المغولي اسيء فهمها وأخطأ القزويني في نقلها)
BARTHOLD
٢١ - مكاتباتي ص ٢٢٥ وما بعدها ، ٢٣٣ وما بعدها
PETRUSHEVSKY
نزهة القلوب ص ص ٤٦ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٣ ، ١٠٢ وما بعدها
PETRUSHEVSKY
PETRUSHEVSKY
LAMBTON
WITTH
٢٢ - ماركو بولو (تحقيق يول / كوردير - لندن ١٩٢١) - ١ ص ٦٠ وما بعدها ، ٦٣
ابن بطوطة (ترجمة جب) ص ٣٣٥ ، ٤٢٠ ، ٤٤٦
ابن بطوطة (تحقيق ديفريمري / سانغوينتي) - ٣ ص ص ٨ ، ١١
القزويني - آثار البلاد - ٢ ص ٢٤٨
اليونيني - ٤ ص ١٤٥

مراصد الاطلاع (تحقيق جوينبول) - ١ ص ٣٠٩

HINZ

السلوك - ١ ص ٤٩٧

صبح الأعشى - ٢ ص ٤٧٦

العزاوي - ٢ ص ٨٨

BARBARO

٢٣ - تاريخي ص ٢٢٥ وما بعدها، ٢٨٦ وما بعدها .

ابن الفوا‌تي - تلخيص مجمع الأدب - ٤ ص ٧٧٩

٢٤ - اليونيني - ٣ ص ٢٥٤

اليونيني - ٤ ص ١٢١

جواد - تجارة العراق في عصور الحكم المغولي - مجلة غرفة تجارة بغداد - ٦ (١٩٤٣) ص ٤٤٠

جواد - ٧ (١٩٤٤) ص ٦٤، ٢٦٣

ابن كثير - ١٤ ص ١٤٢ وما بعدها : التجار العراقيون الذين يلجئون الى سورية في النصف الثاني من القرن الثالث عشر .

العزاوي - ١ ص ٤٦٥

ابن الفوطي ص ٤٢٤ وما بعدها .

النجوم الزاهرة (طبعة القاهرة) - ٨ ص ١٣٨ وما بعدها .

HINZ

الدرر الكامنة (حيدر آباد ١٣٤٨ - ١٣٥٠) - ١ ص ٣٨١ وما بعدها

السلوك - ٢ ص ١٢٨، ١٧٥، ٢٠٩، ٢١١، ٣٦٦

شهاب الدين بن فضل الله العمري - تعليقات ونصوص ١٣ (١٨٣٨) .

جواد - المصدر السابق - المجلة - ٧ ص ٢٥٩

٢٥ - ابن بطوطة (ترجمة جب) ص ٥١٦

ابن بطوطة (تحقيق ديفوميري/ سانفونياتي) - ٣ ص ١٦ وما بعدها

MEGLIO

جواد - المصدر السابق - المجلة - ٧ ص ٢٥٩ وما بعدها .

٢٦ - القزويني - آثار البلاد - ٢ ص ٣٣٩ وما بعدها .

HEYD

BAUTIER

La Persia

٢٧ - ماركو بولو - ١ ص ٦٠، ٦٣، ٧٥

الدمشقي ـ نخبة الدهر في عجائب البر والبحر (ترجمة ميرين ـ امستردام ١٩٦٤) ص ١١٣
جغرافية ابو الفداء (ترجمة رينود) ص ٧٢

SANUTO

ابن الفواتي ص ٣٧٢ ، ٤٧٦
المفضل بن أبي الفضائل (تحقيق بلوخت) ص ٤٦٠
ابن رافع السلامي ـ تاريخ علماء بغداد (بغداد ١٩٣٨) ص ١٦٥ وما بعدها .
ابن حجر ـ الدرر الكامنة ـ ١ ص ٣٣٨ وما بعدها .

ASHTOR

LANE

ابن بطوطة (تحقيق ديفريمري / سانئونياتي) ـ ٣ ، ص ٤٠٤ وما بعدها ، ٤٢٥ ،
ابو الفدا ـ المختصر (استنبول ١٢٨٦) ـ ٤ ص ١١٩

Felice

THOMAS ـ ٢٨

ROCCA

FERRAND

BRATIANO

PETCH

ADA

BAUTIER

٢٩ ـ ماركو بولو ـ ١ ص ١٠٧
الدرر الكامنة ـ ١ ص ٥٩ وما بعدها .
جواد ـ المجلة ـ ٧ ص ٦٦ وما بعدها ، ٢٦٤ وما بعدها

AUBIN

YULE

الدمشقي (ترجمة ميرين) ص ٢١٥ ، ٢٣٩
ابن بطوطة (ترجمة جب) ص ٤٠٠

٣٠ ـ ابن بطوطة (ترجمة جب) ص ٢٧٥
حول الابلله انظر نفس المصدر السابق ص ٢٨١ ، ٣٥١
ياقوت ـ ٤ ص ٧٨٧

PETRUSHEVSKY ـ ٣١

٣٢ ـ المنهل الصافي مخطوط ـ القاهرة ١١١٣ مجلد ـ ٣ ورقة ٥٣٥

MINORSKY - ٣٣

BARBARO

ANGIOLELLO

BERCHET

٣٤ ـ الغزاوي ـ تاريخ العراق ـ ٣ ص ص ٤٣ ، ٦٥ ، ٢٧٢ ومابعدها

HINZ

ابن عربشة ـ عجائب المقدور (القاهرة ١٣٠٥) ص ٤٧

نظام الدين شامي ـ ظفر نامة (تحقيق تادر ـ بيروت ١٩٣٧)

ص ص ١٣٥ ، ١٤١

٣٥ ـ العزاوي ـ تاريخ النقد العراقي بعد العصر العباسي (بالعربية ـ بغداد ١٩٥٨) ص ٨٧

٣٦ ـ ابن تغري بردي ـ حوادث (باركلي ١٩٣٠ ـ ١٩٤٢) ص ١٩٩ ، ٢٤٩ وما بعدها ، ٣٠٥ وما بعدها ، ٥٢٤ ، ٥٤٩ ، ٥٩٢ وما بعدها

ابن اياس ـ ٢ ص ٤٥ ، ٥٤ ، ٦٠

العزاوي ـ تاريخ العراق ـ ٣ ص ١٠٧ وما بعدها ، ١١١ ، ١٤٢ وما بعدها ، ١٤٧ ، ١٤٩ وما بعدها ، ١٦٠ ، ١٧٤ ، وما بعدها ، ١٨٦ ، ٢٥٠ ، ٢٥٨ وما بعدها ، ٢٦١ ، ٢٦٨ ، ٤٧٢ وما بعدها

السخاوي ـ الضوء اللامع (القاهرة ١٣٥٣ ـ ١٣٥٥) ٨ ص ٢٨٠

السخاوي ـ ذيل دول الاسلام ـ مخطوط ـ مكتبة بودليان ٨٥٣ ورقة ١٩٤ ب

عبد الباسط بن خليل ـ نيل الأمل ـ مخطوط ـ مكتبة بودليان ٨١٢ ورقة ٣٣٦ آ

CASKEL

٣٧ ـ العزاوي ـ نفس المصدر ـ ٣ ص ٢٥٤

HINZ

LAMBTON

PETRUSHEVSKY - ٣٨

PETRUSHEVSKY

MINORSKY

LAMBTON

MINORSKY

٤٠ ـ العزاوي ـ تاريخ النقد العراقي ص ٥٨ وما بعدها ٨١ وما بعدها

HINZ ـ ٤١

HINZ

MINORSKY

SANUTO

٤٢ ـ م . جواد . المصدر السابق ـ المجلة ـ ٧ ، ص ٢٦٢ وما بعدها

HEYD

THOMAS

MEGLIO

HINZ ـ ٤٣

ASV

LUCCHETTA

LOPEZ

Narrative

Relation

NIKITIN

Viaggio

Itinerary

Sommario

MILLS

AUBIN

Arab

Lettera

RAU

Relation

Viaggio

BERECHT

Itienerary ـ ٤٥

SANUTO

BARKAN

HINZ

٤٦ ـ السلوك ـ ٢ ص ص ٦٢٢ ، ٦٥٧
ابن الفهاد ـ شذرات الذهب (القاهرة ١٩٥٠ ـ ١٩٥١) ـ ٦ ص ١٨٣
٤٧ ـ السلوك ـ ٢ ص ٧٧٤
النجوم الزاهرة (تحقيق بوبر) ـ ٥ ص ٦٤
العزاوي ـ تاريخ العراق ـ ٢ ص ٥٣ وما بعدها ، ٥٦ ، ٦٠
٤٨ ـ ابناء الغمر ـ ١ ص ٤٨٨
ابناء الغمر ـ ٣ ص ٤٨١
السلوك ـ ٤ ص ١٠٣ وما بعدها .
العزاوي ـ ٢ ص ٢٢٤
العزاوي ـ ٣ ص ٤٢ ، ٧٢ ، ٨٠ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ٢٣٩
٤٩ ـ AUBIN
السلوك ـ ٤ ص ١٠٢٩
ابن تغري بردي ـ حوادث ص ٥٢٣
العزاوي ـ ٢ ص ٣٠٩ وما بعدها
العزاوي ـ ٣ ص ٩١ ، ١٠٠ ، ١٣٥ ، ١٤٣ وما بعدها ، ١٧٠ ، ١٨٦
BARBARO



الفصل الثامن

الاقطاع المملوكي

كان للغزو المغولي للعراق نتائج بعيدة الأثر أيضاً فيما يخص بلدان الشرق الأدنى الأخرى . وإحدى هذه النتائج هي إقامة حكم المماليك في مصر وسورية ، فجموع الجنود العبيد التي نجحت في طرد الغزاة المغول أقامت حكومتها الخاصة واستأصلت المدنيين، فرجال الدولة المدنيون تقاسموا الحكومة مع القواد الأتراك لقرون طويلة ، ولكن عندمااستولى المماليك على السلطة عينوا ضباطاً لرئاسة كل الدوائر. وتلقى إقطاع العصور الوسطى شكله النهائي من العبيد السابقين .

وكان المماليك أجانب يحكمون ملايين الناس الذين استبعدوا عن المراتب العليا في الهرم الاقطاعي . ولم تكن لهم مصلحة في تطور القوى الاقتصادية لبلدانهم ، وبالتالي تدنى حكمهم إلى الاستغلال الشرس الذي خرب الاقطار المزدهرة سابقاً .

آ ـ النظام المملوكي : بعد الانتصارات المغولية في النصف الأول من القرن الثالث عشر وغزوهم لشرق أوروبا وحروبهم الطويلة مع خوارزم ـ شاه تعاظمت امدادات أسواق العبيد في غرب آسيا أكثر من ذي قبل وعرضت أعداد لا تحصى من أسرى الحرب للتاجر الذي يدفع ثمناً أعلى وكان أحد الأمراء المسلمين الذين حصلوا على أعداد كبيرة من العبيد الأتراك الأقوياء لجيشه هو سلطان مصر الأيوبي الملك الصالح أيوب (١٢٤٠ ـ ١٢٤٩) . وخلعت قوات العبيد ـ التي سماها العرب المماليك ـ بعد موته / الأيوبيين/ واختاروا أحد قوادهم ليكون سلطاناً ، تلك هي بداية الحكم المملوكي الذي دام أكثر من / ٢٥٠/ سنة من أواسط القرن الثالث عشر وحتى عام ١٥١٧ ، فبعد انتصارهم الكبير على المغول في معركة عين جالوت في عام ١٢٦٠ ضموا سورية إلى حكمهم ، وفيما بعد بسطوا سيادتهم على برقة في الغرب

والحجاز واليمن وبعض مناطق آسيا الصغرى شمال الحدود السورية ، وتتألف السلسلة الطويلة من سلاطين المماليك على عرش القاهرة من مجموعتين متميزتين بوضوح : البحرية الذين حكموا حتى عام ١٣٨٢ والجركس الذين أتوا بعدهم ، وحافظ المماليك البحرية الذين كانت غالبيتهم من الأتراك على مبدأ السلالة بحيث تركوا عائلة واحدة على العرش لأكثر من ١٠٠ سنة ، ولكن خلفاءهم لم يحافظوا عليه ، ومهما كان الفرق بين السلاطين المختلفة فإن معظمهم كان أمراء يحبون الحرب وأحرزوا النجاحات العظيمة في حملاتهم المتعددة ، وأخرجوا الصليبيين من سواحل بلاد الشام فحرروا طرابلس في عام ١٢٨٩ وعكا في عام ١٢٩١ .

وكان النظام الذي أقامه المماليك جديداً كل الجدة ـ ظاهرة فريدة : حكومة بريتورية لعبيد سابقين ، وانها نهاية تطور طويل بدأ في القرن التاسع عندما جند الخليفة المعتصم العبيد الأتراك في جيشه[١] .

وأولئك الفرسان الذين قدموا الى سورية ومصر كعبيد ، هم فقط الذين انتموا إلى الطبقة الحاكمة ، لأنهم هم وحدهم القادرون على الوصول الى المراتب العليا في الجيش ، وكثيرون منهم لم يتعلموا قط اللغة العربية واستمروا طبقة متميزة تماماً عن السكان المحليين ، واستخدموا كلغة مشتركة لهجة تركية ، أو اللغة التركية التي تحدث بها سكان مملكة القبائل الذهبية ، بعض السلاطين طلبوا أن تقرأ على مسامعهم القصص التركية ، في القرن الخامس عشر كتب العلماء الأتراك كتباً في مصر عن اللغة التي يتحدث بها المماليك ، واعتبر ذراريهم مواطنين من الدرجة الثانية كالسكان الاصليين الذين سرعان ما امتزجوا بهم ، ولما كانت ذراريهم من المدنيين اضطر السلاطين لاملاء الرتب بالشراء المستمر للعبيد الجدد ، ولربما ابتاع سلاطين المماليك الأوائل / ٨٠٠/ عبد في السنة ، بينما اتباع اللاحقين اقل من ذلك ، وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر لم يتجاوز اقتناء السلاطين من المماليك ٢٠٠ ـ ٣٠٠ في السنة . وتألف الجيش المملوكي خلال حكمهم الطويل من عناصر متنافرة ، ونظراً لأن تجار العبيد ـ الذين أمدوا جيش السلطان ـ استوردوا الشباب الوسيمين الاقوياء بغض النظر عن جنسيتهم ، ونظراً لالتحاق الكثير من المغامرين

(١) بدأت تجربة المماليك في الأندلس ، وظهرت واضحة بعد سقوط الدولة الاموية وقيام حكم دول الطوائف .

بالجيش ثانياً ، فبالامكان ان نجد في قطعات الجيش أشخاصاً من مختلف جنسيات آسياواوروبا، فالسلطان كتبغامغولي الأصل، بينما خليفته لاجين فارس جرماني والسلطان خشقدم من أصل ألباني ، والرحالة الأوربيون الذين زاروا القاهرة في القرن الخامس عشر قابلوا هناك مماليك من أصول المانية وهنغارية وايطالية .

وكان مماليك السلطان المعسكرون في القاهرة نواة الجيش ، وازدادت مراتبهم بمماليك أسلافه ومماليك الأمراء المعزولين او المتوفين ، ولكن الارتباط الشخصي للمماليك الذين اشتراهم هو دعامة السلطان. وكان المماليك السلطانية افضل عناصر قوات الجيش تدريباً ، ومنهم كان ينتقى حرس السلطان الشخصي وكبار الضباط ورجالات البلاط ، كما أن للأمراء الذين تولوا مناصب حكام الأقاليم مماليك خاصة بهم ، وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر والنصف الأول من القرن الرابع عشر امتلك الأمير الغني القوي ما بين ٣٠٠ و٦٠٠ وأحياناً ٨٠٠ مملوك ، وفي القرن الخامس عشر لم يمتلك الامراء اكثر من ٢٠٠ ـ ٣٠٠ مملوك ، وتألفت الفرقة الثالثة من الجيش النظامي ، وهي الحلقة من أبناء المماليك والمواطنين الاصليين الذين التحقوا بالجيش وزعماء البدو والتركمان ، وفي أيام سلاطين البحرية الأولين واعتبرت هذه الوحدات من غير المماليك جزءاً هاماً من الجيش ، ومنذ بداية القرن الرابع عشر بدأت بالتهور[1] ، وفيما بعد فقدوا كل قيمة عسكرية ، وعلى وجه الاجمال كان باستطاعة سلاطين المماليك الأولين تعبئة ٤٠,٠٠٠ ـ ٥٠,٠٠٠ فارس ، بالاضافة الى القوات المساعدة التي كانت في غالبيتها من المشاة .

وكالجيوش الاقطاعية التي سبقتهم ، عاش المماليك على اقطاعاتهم التي توافقت مع رتبتهم العسكرية ، ولكن هذا النظام الاقطاعي طرأ عليه تحول كبير بعد ظهوره الى الوجود بجيل واحد .

وكانت الاقطاعات في ظل سلاطين البحرية الأوائل وراثية ، ولكن هذا النظام ألغي فيما بعد[2] ، ومنذ ذلك التاريخ اتبع المماليك النظام الاقطاعي كما تصوره نظام الملك مستخلصين النتائج المنطقية من مبادئه ، وتألف اقطاع الأمير عادة من بعض القرى ، واقطاع المملوك السلطاني من قرية واحدة أو أقل ، ولكن الاقطاعات لم تتشكل من ضياع متلاصقة ، ولمنع نشوء ارستقراطية اقطاعية قائمة

على ضياعها واتباعها في منطقة ما ، منح سلاطين المماليك فرسانهم ضياعاً مبعثرة في مناطق مختلفة ، وبالاضافة الى ذلك ، عندما انتقل المملوك أثناء حياته من منطقة الى أخرى تغير اقطاعه[٣] ، وحققت هذه السياسة أهدافها ولكن كان لها مساوىء أيضاً ، فالفرسان الذين احتفظوا بالاقطاعات لمدة محدودة فقط لم تكن لهم أية مصلحة حقيقية في الحفاظ عليها او تحسينها او تطويرها ، وهكذا برهن النظام الاقطاعي المملوكي على المدى الطويل على انه مدمر لاقتصاد الشرق الأوسط .

فالعبيد الغرباء الذين أصبحوا سادة مصر وسورية فعلوا ما بوسعهم لاغناء أنفسهم بأسرع ما يمكن ، فإيرادات اقطاعاتهم ومصادر الدخل الأخرى فاقت مداخيل الجند الذين حكموا قبلهم ، وفي بداية حكم المماليك منح المملوك السلطاني أو فارس الحلقة إقطاع يدر ٨٣ - ١٢٥ دينار في الشهر ، ولكن في منتصف القرن الرابع عشر حصل المملوك البالغ على ٤٠ -٦٠ دينار ، وبالاضافة الى ذلك على دفعات نقدية ومخصصات عينية وكان اقطاع الضابط الذي يقود ١٠ مماليك يعطيه ٤٥ - ١٣٥ دينار ، وحتى مماليك الأمراء الذين كان دخلهم أقل ، بلغ ١٠ - ٣٠ دينار ، وفي نفس الوقت بلغ راتب الموظف البسيط ٢ -٣ دينار في الشهر كما بلغ راتب الموظف المتوسط ٦ -٧ دينار[٤] .

وكان التفوق الاقتصادي والسياسي للجند السمة الرئيسية لنظام المماليك ، وبينما ترك الايوبيون للبرجوازية بعض الظلال من الحكم الذاتي بتعيين رؤساء المدن في سورية ألغى المماليك آخر بقايا الادارة الذاتية ، وآخر رئيس (ملك) لمدينة حلب ورد ذكره في عام ١٢٦٠ قبل احتلال المماليك لشمال سورية مباشرة ، وعندما استولوا على الحكومة تغيرت ادارة المدينة قدراً كبيراً . وعاش فرسان المماليك دائماً في المدن ، وهناك مارسوا السلطة كاملة ، وقام بادارة المدينة رئيس الشرطة (الوالي) الذي كان مملوكاً ومفتش الأسواق (المحتسب) ، وعينّ هذا الموظف الأخير العرفاء ورؤساء نقابات الصناع ، وفقدت نقابات الحرفيين كثيراً من تأثيرها ، ولم تكن نقابات حقيقية بل مؤسسات اجتماعية ، ولم تكن نقابات الاطباء والمهندسين التي عين السلطان رؤساءها منظمات مستقلة وخدمت هذه المؤسسات مصالح الحكومة الاقطاعية بالاشراف على نشاطات أعضائها[٥] .

وكان تدهور البرجوازية في الشرق الاوسط في ظل المماليك البحرية قد ارتبط

بوضوح باعتمادها اقتصادياً على الارستقراطية الاقطاعية ، ولما كان الدخل من ضياع الارياف المصدر الرئيسي للثروة فان استقطاع جزء كبير منها للجند والانتقال من ضمان الضرائب الى امتلاك الاقطاعات هبط بالبرجوازية الى مركز متدن . وباع الفرسان الاقطاعيون معظم محاصيل الحبوب بأنفسهم ، وأصبحوا او أصبح وكلاؤهم تجار المواد الغذائية الرئيسيون ، كما انهم نشطوا في الحياة الاقتصادية بتوظيف مبالغ كبيرة في بناء قاعات الاسواق وتأجير المتاجر[٦] ، كما أصبح الفقهاء أكثر اعتماداً على المماليك بعد أن كانوا طبقة قوية ، وسواء تم تعيينهم في منصب القاضي ، ام قاموا بالتدريس في المدارس التي أنفق عليها المماليك ، فقد اضطروا الى التعاون معهم ، والاعتراضات التي أبدوها من حين لآخر ضد ابتزاز الحكومة لم تكن أكثر من إيماءة ، ومن جهة أخرى فان الجند خطبوا ودهم بالانتصار للدين ، أي بسن القوانين ضد المسيحيين واليهود .

وتحط التقارير المفصلة لكتاب الحوليات العرب حول سوء حكومة المماليك كثيراً من محاسنهم الأكيدة ، وكان حكمهم هو حكم النخبة تجدد نفسها باستمرار بالقادمين الجدد . وفضلاً عن ذلك ، وفي تسلسلهم الهرمي العسكري ، استطاع كل فرد من الطبقة الحاكمة الوصول الى أعلى المراتب ، وبالتالي فان نظامهم اعتمد على الانتقاء الطبيعي : الأقدر والأكثر تجرداً من المبادىء الخلقية اغتصب السلطة ، وهذا يعلل كيف استطاعوا الحفاظ على الوضع لفترة طويلة وكيف استطاعوا ضمان قدر كبير من الطمأنينة لرعاياهم .

وبقي في دولة المماليك طبقة واحدة فقط لم تستسلم لهم وثارت باستمرار ضد حكمهم ، وبدت ثورات البدو شبه الدائمة احياناً خطيرة ولكن المماليك استطاعوا دائماً التغلب عليها ، أحد الأسباب لاخفاق هذه الثورات هو الطبيعة المتنافرة ، ومصالحها المتناقضة الى حد ما ، فبعضهم ما زال في طور التنقل بينما كان البعض الآخر نصف مستوطن ، ومجموعة ثالثة مؤلفة من الفلاحين الذين أبقوا على تنظيمات أسلافهم العشائرية .

وكانت أقوى القبائل البدوية في الشام في أواخر القرون الوسطى قبيلة الفضل اليمنية . وعاش هؤلاء قرب السلمية وبالس (مسكنة) والأماكن الأخرى في منطقة

حمص وحماة وحلب ، وقد منح سلاطين القاهرة الاقطاعـات الكبـيرة مثـل تدمـر وسرمين ومعرة النعمان لزعمائها الذين سموا انفسهم «ملوك العرب في المناطق الشرقية والشمالية» وانحازوا احياناً الى الايلخانات ، ولكنهم قبل مضي وقت طويل توصلوا الى سلام مع المماليك ، وعادوا الى الشام ، ونظراً لأنهم رحّل حقيقيون فقد عاشوا في كل مكان كمربي أغنام على أطراف الاراضي المزروعة ، وفي رواية لاحد المؤلفين العرب بلغ عددهم ٢٤,٠٠٠ محارب في أواسط القرن الخامس عشر ، بينما لم يبلغ عدد محاربي القبائل السورية الأخرى أكثر من ١٠٠٠ - ٢٠٠٠ شخص ، ولكن تواجدت قبائل أخرى في شمال سورية اضطر المماليك للتعامل معها ، واحدى هذه القبائل بنو كلب ، الذين تمتعوا بقوة كبيرة طوال القرن الرابع عشر ، وقبيلة أخرى هي بنو خالد ، اتت الفضل الى شمال سورية من حـوران ، وعندما غادروا هذه المنطقة حلّت محلهم قبائل عنية أخرى، وأصبحت المرة أقوى قبيلـة في حوران، والمُرّة علي في المناطق المحيطة بدمشق، كما عاش الزبيديون في كلا المنطقتين، وفي شرقي الأردن تنقلت قبيلة العقبة من الكرك الى حدود الحجاز ، كما عاش في هذه المنطقة بنو لام وبنو صقر ، وأقوى قبيلة في فلسطين غرب الأردن هي الجرم التي عاشت في منطقة غزة ومرتفعات الخليل ، واستمـرت كل هذه القبائـل ، في حياة الترحـال العربية السابقة تربي المواشي ، وتهاجم الفلاحين المسالمين أو القوافل[٧] .

ومن جهة أخرى فان احفاد البدو الذين أصبحوا مزارعين ، كانوا في بعض مناطق سورية وفلسطين جزءاً هاماً من الفلاحين ، وعاش هؤلاء الفلاحون الأحرار (العشير) الذين حافظوا على تنظيمهم العشائري ، والـذين عينـت لهـم الحكومـة الزعماء (المقدمين) في قرى متعددة في مناطق المرج والزبداني والبقاع ووادي التيم وأواسط فلسطين ، وفي أيام الحرب جرى استدعاؤهم للخدمة كقوات مساعدة .

وكان معظم البدو في مصر في طور الانتقال من حياة التنقل الى حياة الاستقرار ، عاشوا في الكفور خارج القرى يزرعون القليل من الحبوب ويميلون اكثر الى تربية المواشي ، ولايجاد المراعي الجيدة تنقلوا لجزء من السنة ، وزعماؤهم الذين عاشوا في المدن الصغيرة او القرى مسؤولين عن الامن في بعض المناطق . وكان بعض هذه العشائر البدوية غنية لأنها تمتلك آلافاً كثيرة من الاغنـام والجمال، بينما كانت القبائل

الاخرى تعيش عند حدود مصر الجنوبية وتزاول تجارة رائجة مع النوبة تغتني من ورائها ، ولكن الكثير منها فقير وتواق للاستيلاء على محاصيل الحبوب ، ولكن مهما كانت احوالهم الاقتصادية ، فكلهم كانوا معادين جداً للمماليك الذين اعتبروهم مغتصبين ، وكانت عداوة البدو في مصر حيث التناقض الاجتماعي اشد ـ اعظم من عداوتهم في سورية[٩] .

وعندما خلع المماليك اسيادهم الايوبيين ثار ضدهم حصن الدين ثعلب ـ زعيم عشيرة قوية في مصر العليا ـ وانضم اليه البدو في جميع انحاء مصر ، واعلن نفسه حاكماً على مصر وقاوم هجمات المماليك لعدة سنوات[١٠] . وكانت اخطر ثورات البدو التي لم ينسها المماليك ابداً ، وكانوا يعاقبون البدو بطريقة قاسية جداً كلما حاولوا التخلص من نيرهم ، فكل بدوي ثائر او حتى مجرد قاطع طريق جرى تعذيبه بسادية قبل اعدامه ، واحياناً سلخوا جلودهم ، واحياناً قطعوا رؤوسهم وعلقوها حول اعناق نسائهم اللواتي اجبرن على المسير في المدن ، ولا شك ان المماليك استخدموا هذه الطرق الوحشية لارهاب البدو ، الذين بقوا عنصراً يحسب حسابه حتى بعد هزيمة حصن الدين ، وقد دفعتهم ظروفهم الاقتصادية الصعبة وروحهم العسكرية على الثورة من جديد المرة تلو الاخرى . وانضم اليهم احياناً الفلاحون ، ولكنهم في الغالب عاملوهم كاعداء لهم ، ولكن السمة البارزة لهذه الثورات هي عزلتها ، وجرت العادة ان تثور قبيلة واحدة ضد حكومة المماليك ، دون مساندة القبائل الاخرى ، وبالتالي لم يكونوا نداً للمماليك الذين تمتعوا بتفوق عسكري مطلق .

ومن الممل ان نذكر كل الاوصاف التي لا تحصى لثورات البدو ضد المماليك بدأت مع قيام حكم المماليك ، واستمرت حتى سقوط سلاطين القاهرة ، وفي عام ١٢٦٢ ثار البدو ثانية في مصر العليا ، وقتلوا حاكم قوص وفي عام ١٢٨١ نهب العشير غزة ونابلس ، وخلال حكم الملك الناصر محمد الصارم (١٣٠٩ ـ ١٣٤١) لم تحدث اية ثورات رئيسية ، ولكن في اواسط القرن الرابع عشر حدثت ثورة كبيرة ، وفي عام ١٣٤٩ ثار العشير في فلسطين وجنوب سورية ، وبعد اربع سنوات ثار البدو في مصر العليا تحت قيادة ابن الاحدب زعيم العرق ، وفي عام ١٣٦٨ ثار الفضل وهزموا نائب حلب[١١] وقتلوه .

في نهاية القرن الرابع عشر اصبحت البحيرة في مصر الغربية بؤ رة للمقاومة البدوية ، في هذه المنطقة عاشت بعض القبائل التي عاشت حياة نصف مستقرة مثل بنو غزالة وهم مربو المواشي الاغنياء ، كما عاش هناك ايضاً بنو لبيد وهي قبيلة قوية عاش معظمها في منطقة برقة المجاورة ، ولكنها غالباً ما اجتازت الحدود ، ويسجل كتاب الحوليات قائمة طويلة من الحملات التي قام بها المماليك في البحيرة ضد بني لبيد الذين انضمت اليهم احياناً القبائل الاخرى التي تعيش في المنطقة ، في عام ١٣٧٩ استولى البدو على دمنهور عاصمة الاقليم ، وحدثت ثورات اخرى في عام ١٣٨١ ، وعام١٤٠١ . خلال القرن الخامس عشر ازداد عدد الثورات ، حتى ان كتّاب الحوليات ذكروا في كل سنة تقريباً حملة ضد الثوار في منطقة او اخرى ، وشدة حركات العصيان متماشية مع تدهور قوة المماليك ، لان الثوار كانوا في الغالب قبائل غنية وقوية ، في مصر العليا كانت بعض القبائل قوية ، لدرجة ان حكومة المماليك حرصت على البقاء على علاقات ودية معها . من هذه القبائل قبيلة هوارة التي اتت من البحيرة في نهاية القرن الرابع عشر ، وبنو محارب والفرادة والعرق في منطقة الشرقية تميزت قبيلة بني وائل وبني حرّام وفي الغربية قبيلة الضبية سنبس وفي المنوفية قبيلة مواته ، في نهاية عصر المماليك ناضل البدو المصريون من اجل السلطة العليا ، بعد ان ادركوا ضعف المماليك المتزايد ، وفي سورية ايضاً بدأت سلسلة طويلة من الثورات البدوية في اواسط القرن الخامس عشر ، ففي عام ١٤٤٩ ثار العشير في فلسطين ، وقتلوا حاكم غزة ، كما ثار الفضل في عام ١٤٧٨ وعام ١٤٨٠ في شمال سورية وفي عام ١٥٠١ اضطر حاكم دمشق لاعلان حرب مقدسة ضد البدو[١٣] .

ان اوصاف صراع المماليك الطويل ضد البدو ، هي دليل عدم الاستقرار الاجتماعي ، ومحاولات الارستقراطية العشائرية المخففة لاسقاط حكم الغرباء ، لان السمة الاساسية لحكم المماليك هي الامان رغم الثورات البدوية المتكررة .

ب ـ الازدهار الاقتصادي : ان احدى نتائج النظام المستقر والقوة العسكرية لسلاطين المماليك الاوائل ، هي النمو السكاني الجديد ، الذي اصبح ملحوظاً في كل من مصر وسورية ، رغم ان التزايد السكاني في الاخيرةابطأ .

ففي مصر كان التزايد فوق كل شيء نتيجة لفترة السلام الطويلة ، بينما

تعرضت معظم بلدان الشرق الاوسط لعدة غزوات على يد المغول ، الذين ذبحوا كافة السكان في كثير من المدن الصغيرة والكبيرة ، في حين نجح المماليك في صدّهم قبل ان يصلوا الى حدود مصر ، وجلبت الحكومة القوية المقتدرة للمماليك الاوائل لكل من مصر وسورية قرناً كاملاً من الازدهار العظيم ، وهكذا فان الانجاب الطبيعي الخالي من العوائق ادى الى تزايد سكاني كبير .

ولكن هناك ظاهرتان تعللان الميل المتصاعد في التطور السكاني . احداهما هي هجرة الكثير من سكان العراق والبلدان الاخرى الى سورية ومصر ، فعندما تقدمت جيوش المغول في العراق وبعدها في سورية ، وانتشرت اخبار فظائعهم في كل مكان ، تملك الفزع الكثير من الناس ، فغادروا المدن والقرى ، وهربوا غرباً إلى سورية ومصر ، ويقول مؤلف عربي - على سبيل المثال - ان سكان مدينةبالس الواقعة قرب الحدود السورية العراقية هجروها تماماً[١٣] ، ولكن حركة الهجرة هذه استمرت فيما بعد ذلك ، فكثير من المسلمين الاتقياء الراغبين في العيش في ظل الحكم الاسلامي غادروا العراق لهذا السبب ، وذهب الفقهاء الى سورية ومصر لانها اصبحت مركز الاسلام الثقافي ، كما ان الازدهار الذي نعمت به سورية ومصر في ظل المماليك البحرية جلب الكثيرين من الناس ، وغالباً ما هاجر الافراد والجماعات من مملكة الايلخانات الى سلطنة المماليك عند تورطهم بالصراعات السياسية ، وخافوا من انتقام اعدائهم ، وهكذا شهد النصف الثاني من القرن الثالث عشر سيلاً متدفقاً من الهجرة العراقية الى مصر وسورية .

يذكر المؤرخون العرب الفقهاء الذين قدموا من العراق الى بلدان المتوسط ، وذلك نظراً لقلة اهتمامهم بالطبقات الاخرى ، وبالاضافة الى ذلك فان اوصافهم مختصرة الى حد ما ، ومع ذلك فانها تحمل بعض التلميحات القيمة بخصوص ظروف هذه الحركة المهاجرة ، وتذكر بعض النصوص صراحة ان الرجل هرب من العراق في فترة الغزو المغولي ، ويقول البعض الآخر أن المهاجر من العراق نجح في أن يحمل معه أملاكه المنقولة أو أن البعض عاد ليحضر ما دفنه في الأرض .

ومن اخبار المؤلفين العرب نعلم ايضاً ان الناس من كل الطبقات غادرت العراق إلى سورية ومصر : التجار الذين اصبح بعضهم وكلاء او حتى وزراء لحكام

المماليك والاطباء والفقهاء الذين اصبحوا قضاة واساتذة في المدارس ، ومن هؤلاء الفقيه المشهور ابن تيمية الذي هرب والده من حرّان الى دمشق في عام ١٢٦٨ ، وقدم المهاجرون من مختلف مدن العراق وأعالي ما بين النهرين : من بغداد وتكريت واربيل والموصل ، ودينسر وبالس وايضاً من مدن البلدان المجاورة للعراق مثل تبريز وتفليس[١٤] .

ومن الطبيعي الا يقول المؤلفون العرب شيئاً عن هجرة الصناع ، ولكن التحف الفنية الاسلامية المحفوظة في المجموعات المختلفة تدل على هجرة كثير من الصناع من الموصل ، ففي الفترة التي سبقت الغزو المغولي اصبحت هذه المدينة مشهورة كمركز للمتخصصين في تطعيم المعادن ، وبما ان الكثير من التحف المصنوعة في سورية ومصر في ظل المماليك الاوائل تتميز بنفس الاسلوب في تطعيم الذهب والفضة ، فليس هنالك اي شك حول هجرة الفنانين من الموصل[١٥] .

ومن جهة اخرى فان حوليات عصر المماليك البحرية تحتوي على بيانات كثيرة حول هجرة مجموعات من المغول والاقوام الاخرى التي تنتمي الى الطبقات العليا في مجتمع الايلخانات ، ومجموعات الجند والبيروقراطية وفي عام ١٢٥٨ عبرت الحدود السورية بقايا جيش آخر خليفة عباسي ، واستقرت بعدها في مصر . وبعد ذلك ظهرت مجموعة من حوالي ٣,٠٠٠ فارس كردي واستقروا في منطقة غزة ، وفي ستينات القرن الثالث عشر اتت مجموعات مغولية لتعيش في سلطنة المماليك يصل عدد بعضها الى مئات العائلات ، وتبعهم اناس من بغداد وشيراز وفرسان اتراك ، واهم مجموعة من هؤلاء المهاجرين من ناحية العدد هي العيارات (القلامقة) التي اتت في عام ١٢٩٦ ويبلغ عددها ١٠٠٠٠او١٨٠٠٠ عائلة حسب تقديرات البعض ، وزعيم هذه المجموعة هو طرغاي - صهر او زوج حفيدة هولاكو . كما دخلت سورية ومصر مجموعات صغيرة من التتر في عهد الملك الناصر محمد . واستقر بعض هؤلاء الجنود الاجانب في عاصمة مصر والبعض الآخر في مختلف مناطق سورية وفلسطين[١٦] .

ومن المؤكد ان ازدياد السكان في سورية كان ابطأ من ازديادهم في مصر . فسورية تعرضت لغزوات التتر المتكررة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ودمرت بعض المدن الساحلية في لبنان وفلسطين بعد استيلاء المماليك عليها كما ان

بكثير من القرى المجاورة على الارجح تدهورت نتيجة لضياع الاسواق ، وبالاضافة الى ذلك فقدت سورية الكثير من سكانها في تلك الفترة عن طريق الهجرة الى مصر ، فكلما غزا المغول سورية بدأت هجرة جماعية ، وذهب الكثير من الناس إلى مصر ، وأحياناً قاموا بذلك بناء على اوامر السلطات واحياناً ضد رغباتهم ، وحدثت مثل هذه الهجرات الجماعية في عام ١٢٥٩ وعام ١٢٦٠ وعام ١٢٦١ وعام ١٢٩٩ . وليس هنالك اي شك في ان الكثير من هؤلاء اللاجئين بقوا في مصر . والحادث الذي يسرده احد اليهود القادمين من اسبانيا الى القدس في عام ١٢٦٧ يلقي بعض الاضواء على تلك الظروف ، يقول ان سكان المدينة المقدسة هربوا في كل الاتجاهات عندما اقترب منها المغول ، ولم يعودوا مما اوصل عدد السكان بعد ٧ سنوات الى ٢,٠٠٠ نسمة فقط ، وفضلاً عن ذلك ، ذهب كثير من الصناع والمغامرين الى مصر آملين بحق ، ان يجدوا هناك مجالاً اوسع لنشاطاتهم[١٧] .

والى جانب هذه الحركة المهاجرة ، كان هناك سبب آخر للازدياد السكاني في مصر وسورية في هذه الفترة ، ويبدو ان هناك تحسناً كبيراً في الصحة العامة ، هذا الافتراض يؤيده تسجيل عدد قليل من الجائحات في تواريخ المماليك البحرية ، فحوليات النصف الثاني من القرن الثالث عشر تذكر فقط جائحتين في سورية وفلسطين في عامي ١٢٥٨ و ١٢٧٤ ، وجائحتين في مصر في عامي ١٢٧٤ و ١٢٩٦ ، والجائحة الاخيرة التي اعقبت مجاعة ، هي الانتشار الرئيسي للوباء في تلك الفترة[١٨] ، واعقب ذلك نصف قرن آخر لم يسجل فيه اي وباء ، ولكن يبدو ان تزايد السكان ـ كما في اوروبا ـ تباطأ في النصف الاول من القرن الرابع عشر ، او ان عدد السكان بقي مستقراً .

ومهما كان الامر فان عدد سكان مصر وسورية تزايد في عهد المماليك البحرية خلال فترة طويلة ، بعد ان تناقص في السابق لمدة ٢٠٠ سنة ، ويبدو ان افتراضات ج . ن . بولياك بشأن عدد السكان في اواسط القرن الرابع عشر على الارجح صحيحة ، لقد افترض انه يوجد ٣ ملايين نسمة في مصر ، و ٩٠٠,٠٠٠ نسمة في سورية[١٩] ، ويمكن قياس تنامي المدن الكبرى من تطور الضواحي ، ويتحدث كتاب المعاصرون عن التطور الكبير في القاهرة في ايام السلطان بيبرس ويقدر علماء المعاصرون سكانها في النصف الاول من القرن الرابع عشر بمقدار

٦٠٠,٠٠٠ وازداد سكان دمشق ايضاً نظراً ، لظهور ضواحٍ سكنية جديدة ، مثل السويقة في الجنوب الشرقي ، وسويقة صاروجة في شمال المدينة[٢٠] .

والعنصر الملازم الآخر لقوة المماليك البحرية ، هو استقرار النظام النقدي لمكتهم ، فخلال فترة ١٣٠ سنة لم تحدث أزمة نقدية تؤدي الى زيادة مفاجئة في الاسعار ، اوعرقلة التجارة ، فدور السك كان لديها مؤ ونتها من المعادن الثمينة ، وباستطاعتها سك كميات كافية من الدنانير والدراهم باستعمال سبائك ذات نوعية ممتازة .

وأتى مخزون الذهب ، بصورة رئيسية من البلاد التي لا يزال العرب يسمونها غانة وتكرور ، والتي تسمى اليوم مالي ، فالعلاقات بين مصر والمناطق الغنية بالذهب في السودان الغربي وثيقة جداً ، والمسلمون الأتقياء يأتون الى مصر من هذه البلدان لمتابعة دراستهم ، والتجار المصريون يذهبون الى هناك لبيع منتجات صناعة الأقمشة المصرية والملح والودع ، ويذكر كتاب الحوليات بكثيرمن الاطناب رحلات حج ملوك الزنوج ، الذين مروا في مصر في طريقهم الى مكة ، ولكنهم قلما يذكرون أسفار التجار ، ولكن الرحالة ابن بطوطة ، والمؤ رخ الاجتماعي ابن خلدون يركز ان على العلاقات التجارية بين مصر وغرب السودان ، ويتحدث ابن بطوطة عن المصريين الذين يعيشون هناك ، وعن رحلات سكان تكيدة (بلدة في مالي) الى مصر ، ويذكر ابن خلدون قافلة كبيرة يصل عددها الى آلاف الجمال تأتي كل سنة ـ في طريقها الى مالي ـ الى مدينة تادمكا في جنوب غرب ورقلة الجزائرية ، ويبدو ان ذهب مالي نقل في هذه الفترة عبر هذه الطرق الثلاثة بصورة رئيسية . فالأول هو الطريق الذي يعبر للسودان من نياني الى تغازا ، ثم الى توات. وهو الطريق الذي اختاره الملك منسى موسى ، الذي حج الى مكة في عام ١٣٢٤ ، والطريق الأخر يقود من جاوا الى تاكيدة ، ومن هناك الى شمال فالى غات ، والطريق الثالث جنوب الصحراء يقود من جاد الى الشاطىء الشمالي لبحيرة تشاد وعبر منطقة كانم الى مصر العليا[٢١] .

اما تدفق الفضة على دور السك المصرية والسورية فكان اقل انتظاماً ولكنه كاف ، وأتت الفضة اما من اوروبا ، أو من اسيا الوسطى، وفي منتصف القرن

الثالث عشر - قبل أن يصبح المماليك حكاماً على مصر - حدث نقص في الفضة في الشرق الاوسط ، واضطر اخر سلاطين الايوبيين في سورية الملك الناصر يوسف لسك دراهم قليلة الفضة . وفي مصر لم يتواجد في التداول على الأكثر سوى «الدراهم السوداء» التي تحتوي على ٣/٢ وزنها نحاساً، ولكن الصليبيين الفرنسيين الذين أتوا مع لويس التاسع جلبوا كميات كبيرة من النقود الفضية معهم ، وبعد عشر سنوات - في ظل الغزوات المغولية - بدأ سيل من الفضة من اسيا الوسطى يصب في سورية ومصر وأقطار الشرق الأوسط الأخرى - واستطاع السلطان بيبرس - باني عظمة المماليك - ان يرفع سبيكة الدرهم الى ٧٠٪ من الفضة ، ومن جهة أخرى يتحدث المؤلفون العرب عن هبوط سعر صرف الدرهم في ايامه ، حتى وصل الى ٢٨,٥ درهم مقابل كل دينار ، مما يعني أن نسبة الذهب الى الفضة هبطت من ١/ ٦ في العصر الأيوبي، الى ١/ ١٣,٤ وتشهد أخبار هدايا الاعيان الكبار على وفرة الفضة في الشرق الأدنى ، وكلها تتألف من آلاف الدراهم .«٢٢» .

وصحيح أن مستوى الدرهم تناقص من جديد الى ٦٦٪ في حوالي عام ١٢٩٠ ، ولكن امدادات الفضة لدور السك المصرية والسورية بقيت كافية ، وبما ان انتاج الفضة في بعض الأقطار الاوروبية قد ازداد كثيراً ، فان قيمتها تناقصت ، مما ادى الى تصدير كميات كبيرة منها الى الشرق الأدنى ، فمنذ عام ١٣٢٣ اضطرت مملكة أرمينية الصغرى ، لأن تدفع لسلطان القاهرة جزية كبيرة مؤلفة من النقود الفضية ، ويمكن ان تعزى مجاعات الفضة الى تكديس الدراهم ، الذي قام به ارستقراطيو المماليك وتحويلها الى اواني ومجوهرات . ولكن عندما ازداد الطلب على الفضة ، وارتفعت قيمتها ، استورد التجار الايطاليون من جديد أكداساً عظيمة من سبائك ونقود الفضة ، التي برهنت على انها تجارة مربحة ، لأن نسبة الذهب الى الفضة هي وسطياً ١/ ١١ في اوروبا بينما هي ١/ ٩,٤ في مصر في أيام المماليك البحرية«٢٣» ، وهكذا امكن سك عدد كبير من الدراهم الجيدة ، التي استقرت قيمتها بنسبة ١/ ٢٠ دينار ، وبالوزن النظامي تقريبا ٢,٩غ (لو أخذنا بالاعتبار عدم صحة السك في العصور الوسطى) .

وتدل على الزيادة السكانية واستقرار النظام النقدي بوضوح ، حركة الاسعار والاجور اثناءفترة ١٣٠ سنة من حكم المماليك البحرية، وفي أواسط القرن الثالث

عشر ، وخلال نصفه الثاني ظهر ارتفاع كبير وتزايد في أسعار الحبوب ، وتناقص في الأجور الاسمية .

الوزن الوسطي للدراهم في عهد المماليك البحرية[٢٤]

	الوزن	عدد النماذج
ايبك	٢,٧٥غ	١٨
بيبرس	٢,٧٦	٩١
بركة خان	٢,٧٧	٢١
قلاوون	٢,٨٢	٤٦
خليل	٢,٨٧	١٥
الملك الناصر محمد	٢,٩٣	٤٣
الملك الصالح اسماعيل	٢,٦٣	٢٧
الملك المظفر حاجي	٢,٦٣	١١

يقول ابن فضل الله العمري ، الذي كتب في عام ١٣٤٠ ، أن ثمن اردب القمح في أيامه ٠,٧٥ دينار وسطياً (١٥ درهم) وثمن نفس الكمية من الشعير ٠,٥ دينار ، وحسب روايته لم يكن هناك أي فرق بين أسعار الحبوب في مصر وفي سورية[٢٥] . وبالتالي فان ثمن ١٠٠ كغ من القمح بلغ ١,٠٧ دينار .

وتؤكد أقوال كتاب الحوليات هذا التصريح الذي يشير بالتأكيد الى أسعار الحبوب في المدن الكبرى في الخريف (بعد معرفة مقدار المحاصيل) . وبالاضافة الى ذلك ليس هناك أي شك تقريباً في أن ابن فضل الله يشير الى النصف الثاني من القرن الثالث عشر .

أسعار الحبوب (بالأردب) في مصر في عهد المماليك البحرية

التاريخ	القمح	الشعير
تموز ١٢٦٤	٢,٢٥ دينار	
تموز ١٢٧٧	كساد ٠,٢٥	٠,١٥ دينار
١٢٧٧ - ١٢٧٩	كساد ٠,٢٥ - ٠,٣٠	٠,١٥ - ٠,٢٠
١٢٧٨ - ١٢٧٩		٠,٢

نيسان ١٢٨٣ ١,٧٥ ارتفاع . السلطان يأمر الأمراء ببيع القمح بسعر ١,٢٥ . الأسعار تهبط إلى ١,٠٠ دينار ثم إلى ٠,٩ دينار اللذي يبقى السعر الجاري حتى موسم الحصاد .

كانون أول١٢٩٣	٠,٦٥ دينار	
كانون أول١٢٩٦	٠,٨ - ٠,٩	١,٥ ثم ٠,٥
كانون ثاني ١٣٠٠	٠,٦ - ٠,٧٨	٠,٦ ثم ٠,٤٨ - ٠,
٠,٦		
ربيع ١٣٠٠	١,٣٥	
صيف ١٣٠٠	١	
خريف ١٣٠٠	٠,٧٥	
خريف ١٣٠٣	٢ ثم ١,٢٥ فيضان غير كافٍ	
١٣٠٥-١٣٠٦	ارتفاع من ١ إلى ٢	
ربيع ١٣٠٨	ارتفاع ٢,٥	
خريف ١٣٠٩	٢,٥ فيضان غير كافي	١
كانون ثاني ١٣٢٤	ارتفاع من ٠,٤ إلى ٠,٦٨	
١٣٢٦	كساد في مصر العليا	٠,١٣٥ - ٠,١٨
	٠,٣٦ أو ٠,٢٢٥ - ٠,٢٧	
أوائل ١٣٢٨	ارتفاع من ٠,٦٥ إلى ١	
شباط ١٣٣٦	ارتفاع من ٠,٧٥ إلى ٢,٥ ثم ٣,٥	
٢,٥		
كانون ثاني ١٣٣٦	١,٨	
شتاء ١٣٣٧	في مصر العليا ٠,٥٠	
	في مصر السفلى ٠,٤	
صيف ١٣٣٨	النيل يهبط قبل الأوان ١	
مايس ـ حزيران ١٣٤١	ارتفاع من ٠,٧٥ إلى ١,٥	
كانون ثاني ١٣٤٢	كساد ٠,٥٤	
خريف ١٣٤٣	فيضان زائد .	

	ارتفاع من ٠,٥ إلى ١	
مايس ١٣٤٦	ارتفاع ٢,٧٥	١,١
نهاية حزيران ١٣٤٦	ارتفاع ١,٥	
ايلول ١٣٤٦	١,٧٥ ثم ٢,٧٥	
آب ١٣٤٧	ارتفاع ٣ ثم ١	
تشرين ثاني ١٣٤٧	ارتفاع من ٢ إلى ٢,٥	
١٣٤٨	٠,٩٩	
خريف ١٣٥٠	فيضانات غير منتظمة	
	ارتفاع من ٠,٧٥ إلى ١	
أوائل ١٣٥٢	ارتفاع من ١ إلى ١,٨٥	
خريف ١٣٥٨	كساد ٠,٥ - ٠,٧٥	
١٣٦٤	ارتفاع ٢	
تموز - آب ١٣٧٣	النيل يهبط قبل الأوان	
	١,٨ - ٢	
ايلول ١٣٧٣	١,٥	
تشرين الأول - كانون الأول ١٣٧٣	٢,٥ - ٤,٥	١,٢٥
آب ١٣٧٤	ارتفاع ٥	٣
تشرين الثاني ١٣٧٤	٥,٥	٣
كانون اول ١٣٧٤		
كانون ثاني ١٣٧٥	٦,٥	٤,٥
كانون ثاني ١٣٧٥	٢,٢٥ - ٥,٥	حتى ٤
نيسان ١٣٧٥	٢,٥	٠,٨٣
١٣٧٥	بعد الموسم ١,٢٥	
اواخر ١٣٨١	ارتفاع ١,٦	
اوائل ١٣٨٢	٢,٤	
نيسان ١٣٨٢	١,٦	٠,٨٨

وترينا هذه الارقام أيضاً ، ان الاسعار هبطت في عهد الملك الناصر محمد ، وارتفعت ثانية في عهد خلفائه . وهكذا فان متوسط اسعار الحبوب في عهد المماليك البحرية اعلى بمقدار ٥٠٪ من الاسعار في النصف الاول من القرن الثالث عشر[٢٦] .

وكان متوسط سعر رطل لحم الخروف في مصر (او بالاصح في القاهرة) في النصف الاول من القرن الرابع عشر ٠,٠٢٥ ـ ٠,٠٣ دينار ، اي انه ارتفع منذ العهد الفاطمي بحوالي ٢٥ ـ ٥٠٪ ، وتشير التقارير الخاصة باسعار السكر الى زيادة ملحوظة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، بالمقارنة مع الاسعار في العهد الفاطمي ، وهبوط متزايد حتى نهاية القرن الرابع عشر .

فالقنطار (الجروي ٩٦ كغ) الذي كلّف في العصر الفاطمي ٦ ـ ٧ دينار ، اصبح ثمنه ١٢,٥ في النصف الثاني من القرن الثالث عشر . ومن جهة اخرى كان هناك تناقص مستمر في اسعار الخبز منذ بداية العصر المملوكي ، فثمن الرطل من الخبز في عهد اواخر الايوبيين كان ٠,٠٠٤٣ دينار ، وفي نهاية القرن الثالث عشر ٠,٠٠٤١ دينار ، وفي النصف الاول من القرن الرابع عشر ٠,٠٠٣ ـ ٠,٠٠٣٣ دينار[٢٧] .

ثمن الخبز في القاهرة في عهد المماليك البحرية

التاريخ	ثمن الرطل
اوائل ١٢٦٤	ارتفاع ٠,٠٠١٦٦ دينار
١٢٧٣	ارتفاع ٠,٠٠٧١
حزيران ١٣٠٣	ارتفاع ٠,٠٠١٢٥
١٣٢٦	كساد ٠,٠٠٢٥ اوحتى ٠,٠٠٠٧
شباط ١٣٣٦	٠,٠٠٠٩
شتاء ١٣٧٣	ارتفاع . خبز اسمر ٠,٢
مايس ـ حزيران ١٣٧٤	ارتفاع ٠,٠١٢٥ ، وقبلاً ٠,٠١
تشرين الاول ١٣٧٤	ارتفاع ٠,٠١٦ ـ ٠,٠٢٥ دينار ، السعر الرسمي ٠,٠١٢٥

شتاء ١٣٧٤	ارتفاع ٠,٠٣٣
كانون ثاني ١٣٧٥	ارتفاع ـ خبز اسود ٠,٠٢٣٤ ـ ٠,٠٢٧٢
نيسان ١٣٧٥	٠,٠١
مايس ١٣٧٥	٠,٠٠٧١ السعر الرسمي ٠,٠٠٥
آذار ١٣٧٨	خبز جاف ٠,٠٠٢
آذار ـ نيسان ١٣٨٢	ارتفاع ٠,٠٢

وهكذا يوجد دليل واضح على الاتجاه العام الصاعد في اسعار المواد الغذائية ، فمنحنى سعر الخبز ـ الذي يبدو انه يشير الى اتجاه مضاد ـ يلقي الضوء على السبب الاولي لحركة الاسعار في ظل المماليك البحرية .

ارتفعت اسعار الاغذية لزيادة الطلب عليها ، فالحركة الصاعدة لاسعار الحبوب هي الى حد كبير نتيجة للتزايد السكاني ، ولكن هذه الظاهرة ايضاً جعلت اجور العمل تهبط ، وعندما تزايد عدد الايدي العاملة تناقصت الاجور الاسمية ، وهبط ثمن الخبز لان اجور الخبازين ـ وهم عنصر هام فيه ـ نقصت ، وتشهد على ذلك هبات مؤسسات الوقف المصرية والسورية ، التي تثبت رواتب العمال ، وعلى المرء ان يفترض ١ ـ ٥,١ دينار في الشهر للحمّال ، او السقّا (وهما عملان كاملان) في عصر المماليك البحرية ، وهذا الاجر يقل عما كان عليه في نهاية القرن الثاني عشر ، وهذه هي أجور العمال العاديين ، أما أجور العمال المهرة فقد تناقصت إلى درجة أقل ، كما أن أجور صغار رجال الدين المسلمين تناقصت أيضاً في كل من مصر وسورية ، ولو حسبنا أجور العمال على أساس الخبز نرى انها ارتفعت ، لكن كمية اللحم التي كان العامل العادي يستطيع شراءها تناقصت بمقدار ٥٠٪[٢٨] ، واضطر صغار الكسبة إلى معاناة نتائج زيادة السكان ، بينما تمتعت الطبقات الاخرى بمنافع الازدهار الاقتصادي .

ولولا استمرار التجارة مع جنوب اوروبا لكان ازدهار الاقتصاد السوري والمصري شبه مستحيل، لان التجار المسيحيين زودوا الشرق الاوسط بكميات كبيرة من العملة الصعبة ، وهيأت هذه العلاقات التجارية ايضاً سوقاً لمنتجات الزراعة والصناعة ، وكان حكام سورية ومصر هم وحدهم المهتمون بتعزيزها ، ولم يكن

التجار الايطاليون اقل رغبة في زيارة المراكز التجارية في الشرق الاوسط للحصول على التوابل الهندية، التي تزايد الطلب عليها في كل اوروبا ، وهكذا فان التجارة الدولية في الحوض الشرقي من البحر المتوسط استمرت رغم الصعاب الكثيرة .

وكان فتح عكا على يد المماليك في عام ١٢٩١ ضربة قوية اثارت المسيحية اللاتينية ، ضد سلاطين القاهرة ، واصبح من الواضح لكل فرد ان الاستيلاء على هذه المدينة ، معناه انتهاء ممتلكات الصليبيين في الاراضي المقدسة ، وبالتالي بذل البابا جهوداً جبارة لوضع حد للعلاقات التجارية الوثيقة بين امم جنوب اوروبا التجارية ودولة المماليك ، ولقد قام بذلك ليس فقط لقطع امدادها بالاسلحة والخشب والحديد والسلع الاخرى التي يحتاجها بصورة ماسة جيش السلطان واسطوله ، ولكنه ايضاً لاضعاف الاقتصاد المملوكي ، لان مستشاري الباباوات اقنعوهم بالفوائد الكثيرة التي جنتها مصر وسورية من الاتجار مع جنوب اوروبا ، بعد سقوط عكا مباشرة ، حرّم البابا نيقولا الرابع بيع الاسلحة والخشب والسلع المشابهة للمسلمين ، وتكرر هذا التحريم على ايدي خلفائه عدة مرات ، واضطرت جمهوريات ايطاليا المدنية التي تاجرت مع مصر وسورية لعدة قرون ان تسنّ القوانين التي تمنع رعاياها من مخالفة التحريم البابوي ، وفي عام ١٢٩١ منعت جنوا كل عمليات التجارة مع اراضي السلطان ، كما فعل مثل ذلك جاكوب الثاني ملك اراغون وكتالونيا في عام ١٣٠٢ . ومنعت بيزا بقانوني عامي ١٣٠٢ و ١٣٢٢ بيع الاسلحة والمواد الحربية فقط ، ولكن فيليب الجميل ملك فرنسا في عام ١٣١٢ ، اتخذ موقفاً اشد صرامة ثم تبعته البندقية عام ١٣٢٣ فمنعا أي اتجار مع مصر وسورية ، ولم تكتفِ الكنيسة بسنّ هذه التحريمات ، ولكنها ارسلت السفن لاسر المخالفين ، ومصادرة السفن والبضائع ، وثبت استحالة منع التجارة التي كانت مربحة لكل من المسيحيين والمسلمين ، لم يستطع الاوروبيون التخلي عن التوابل الهندية ، كما كان سكان الشرق الاوسط بحاجة الى المواد الحربية والعملات الذهبية الاوروبية ، فالخبراء مثل مارينو سانوتو تورسيللو الذي ألّف في عام ١٣٠٦ كتابه (اسرار حماة الصليب) حاول اقناع الكنيسة وامراء اوروبا بضرورة قطع التجارة مع الشرق الاوسط الاسلامي ، ولكن نداء «الثروة القبيحة» كان قوياً جداً واضطر البابا للاستسلام فمنح اذوناً مؤقتة للتجارة ، باستثناء بيع المواد الحربية ، ولكن ليس

أنقاض ، وحتى في دمشق فإن الجزء الذي تعرض للدمار أثناء غزو تيمورلنك لم يجدد بناؤه حتى أواسط القرن الخامس عشر . صحيح أن حلب استعادت حالتها السابقة في تلك الفترة ، كما ظهرت ضواحٍ جديدة لها خارج الأسوار . أما في عام ١٤٢٨ فقد تم توسيع المنطقة ضمن الأسوار ، رغم أن الأحياء التي جرى توسيعها لم تسكن إلا بشكل جزئي ، وكانت حلب حالة شاذة بين المدن الكبيرة في سورية ومصر، نظراً لتجارتها المزدهرة، والكتاب العرب المعاصرون أيضاً يركزون على انحطاط المدن في مصر وفي سورية ، ويذكر المقريزي في كتابه كثيراً من المطاحن التي بنيت في القاهرة في النصف الأول من القرن الرابع عشر ، ومن جهة أخرى يتحدث عن تدميرها في أيامه ، فحسب روايته دمرت ٨٠ مطحنة في منطقة واحدة ، إذ لم تعد هناك حاجة لمثل هذا العدد الكبير من المطاحن ، ويتحدث كاتب عربي آخر هو ابن زهيرة الذي كتب في عام ١٤٣٨ عن انكماش القاهرة إلى ١/٢٤ مما كانت عليه سابقاً(٣٧) .

إن استنتاجات كلير جيه - الذي يقدر تناقص سكان القاهرة من ٦٠٠,٠٠٠ نسمة في بداية القرن الرابع عشر الى ٤٣٠,٠٠٠ نسمة في أواسط القرن السادس عشر - معرَّضة للنقاش . ولكن المعلومات الموجودة في السجلات التركية التي تضم نتائج إحصاء جرى في عهد سليم الأول ، وآخر في عهد سليمان القانوني هي معلومات موثوقة ، فحسب هذه الوثائق كان سكان حلب أقل من ٧٠,٠٠٠ نسمة في عام ١٥١٩ ، وكان سكان دمشق على ما يبدو بنفس العدد ، وحسب ما قال المؤرخ التركي و . ل . باركان نستنتج من هذه السجلات أن إجمالي سكان سورية (بما في ذلك فلسطين ومنطقة أذنه) في عشرينات القرن السادس عشر بلغ ٥٧١,٣٦٠ نسمة (٣٨) - بينما بلغ قبل الفتح الإسلامي عدد سكان سورية ٤ ملايين نسمة .

وبالتالي ليس هناك أي شك بخصوص تناقص السكان الكبير في الشرق الأوسط خلال أواخر العصور الوسطى ، فبينما بدأ تناقص السكان في أوروبا قبل الموت الأسود ، واستمر لمدة ١٣٠ عاماً ، فإنه شكل ظاهرة رئيسية في تاريخ الشرق في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، واستمر لفترة أطول حتى نهاية العصور الوسطى ، وإن الفقر المدقع لطبقات المجتمع الدنيا ، والأحوال الصحية ساعدت

بالتأكيد على ذلك ، ولكنها لا تعلل لوحدها عدم تعويض الإنجاب الطبيعي للخسائر التي سببتها الجائحات ، ولربما شكل هذا عاملاً نفسياً - وهو يأس الطبقات الدنيا العريضة في مجتمع الشرق الأوسط - وهو الذي أنقص الإنجاب الطبيعي .

وكان الموت الأسود نقطة تحول في التاريخ الديمغرافي للشرق الأوسط في بداية القرن الخامس عشر ، تبعته أزمة أخرى أدت إلى تسارع في نقص السكان ، وفي التدهور الاقتصادي ، ويقدم لنا الكتاب العرب المعاصرون تفاصيل حول هذه الأزمة الاقتصادية ، وليس علينا سوى أن نضعها في سياق العلاقات الاقتصادية الأوسع .

إن الظاهرة البارزة في الحياة الاقتصادية في مصر وسورية في آخر القرن الرابع عشر هي اختفاء العملات الفضية ، فمخزون الفضة في دور السك تناقص باستمرار منذ حوالي عام ١٣٨٠ ، وبالتالي توجب إنقاص المحتوى الفضي للدرهم ، فبينما بقي معدل صرف الدرهم $\frac{١}{٢٠}$ دينار لمدة ١٣٠ سنة ، أصبح معدل صرف الدرهم المخفض $\frac{١}{٢٥}$ ، وفيما بعد $\frac{١}{٣٠}$ دينار ، ويعلل الكتاب العرب نقص الفضة الكبير بقولهم أن الفضة أذيبت لتصنع منها المجوهرات والأواني ، ولكن السبب الأساسي في الحقيقة هو الطلب الشديد في ايطاليا عليها ، حيث ارتفعت قيمة الفضة كثيراً في نهاية القرن الرابع عشر ، فالمقريزي - الذي كتب كتاباً خاصاً حول هذه الأزمة - يقول أن التجار المسيحيين (أي الايطاليين) نقلوا الفضة من الشرق الأوسط الى أوربا ، ومن جهة أخرى تم استيراد كميات كبيرة من النحاس ، وحسب رواية المقريزي تم ذلك على يد أحد الأعيان في بلاط القاهرة ، الذي دفعه جشعه لإغناء نفسه بسك العملات النحاسية ، ولكن هذه بساطة عقل العصور الوسطى ، فزيادة استيراد النحاس للشرق الأدنى هي نتيجة لارتفاع إنتاج المناجم في معظم مناطق أوروبا ، فقد كان بإمكان أهل البندقية عرض النحاس من الأراضي المنخفضة وهنغاريا وصربيا والبوسنة[٣٩] ، وتوقف في بداية القرن الخامس عشر صك الدراهم الفضية نهائياً ، واستعيض عنها بالفلوس والدراهم النحاسية ، ومنذ ذلك الحين بدأ تحديد الأثمان والقيم بالعملات النحاسية ، كما تم الدفع أيضاً بالدراهم النحاسية ، حتى ولو حددت بالدنانير والدراهم الفضية ، وهكذا بدأ عصر

النحاس في التاريخ النقدي في مصر وسورية .

ورافقت التغيير الكبير في النظام النقدي أزمة اجتماعية ، هي نتيجة للقلة التي سببها فيضان النيل غير الكافي ، والحرب الأهلية الطويلة ، فحسب رواية الكتاب العرب إن القلة التي حدثت في عامي ١٤٠٣ و ١٤٠٤ ، هي كارثة حقيقية لم تستطع مصر التغلب عليها قبل وقت طويل ، ويقولون أن نصف السكان ماتوا أثناء المجاعة ، وأن قرى كثيرة هجرت وبقي جزء كبير من الأراضي الزراعية بوراً ، في نفس الوقت تمزقت سلطنة المماليك بالحرب بين السلطان الجركسي الثاني الملك الناصر فرج ، وأمرائه الذين ثاروا عليه عدة مرات ، ولكي يجهز جيوشه اضطر السلطان لجباية ضرائب عالية من السكان المتناقصين والمعدمين . وبين سطور الأوراق الصفراء للحوليات المخطوطة ، يمكن قراءة مدى الشقاء واليأس ، اللذين فتكا بكل الطبقات ، وفي نفس الوقت عانت سورية من غزو الجيش المغولي بقيادة تيمورلنك ، الذي جلب الخراب والدمار لمدن وقرى كثيرة في ١٤٠٠ - ١٤٠١ .

فأزمة حكم السلطان فرج لم تحدث فقط تبدلاً في النظام النقدي ، بل إنها سارعت بتناقص السكان ، وكانت نتائجها عظيمة لدرجة أنها أحدثت تغييراً في طرق الحياة ، فلما كانت أسعار المواد الغذائية تحدد بالدراهم التي تخفض باستمرار ، وبسبب وضع كميات كبيرة من النحاس في التداول حدث تضخم خطير أدى الى ارتفاع عام في الأسعار . واستخدمه التجار لرفع الأسعار ليس فقط بالنسبة للدراهم (أي الدراهم المخفضة) ، بل بالنسبة للدينار أيضاً ، وأصبحت كل السلع الصناعية أغلى من السابق ، وبالتالي فإن الكثير من الناس لم يتمكنوا من شراء السلع التي اعتادوا على استعمالها ، فالأشخاص المعتادون على ارتداء الحرير والأقمشة النفيسة الأخرى اضطروا لاستبدالها بالأقمشة الصوفية الخشنة ، والصناع الذين أنتجوا الحلي والطرائف فقدوا زبائنهم ، ويذكر المقريزي في كتابه قائمة طويلة من الأسواق في القاهرة التي أغلقت نهائياً أو لم يبق فيها سوى بضعة محلات ، ويحسب روايته حتى تجار الشمع أغلقوا محلاتهم .[٤١]

لكن افتقار المصريين كان سبباً واحداً لهذا التغيير ، فلقد نتج ايضاً عن ظاهرة ذات اثر اوسع الا وهي تدهور الصناعات الشرقية ، فرغم ان كمية انتاجها ونوعيته

تدنت كثيراً ، فان الصناعات في مصر وسورية بقيت قطاعاً هاماً في اقتصادهما في القرن الرابع عشر ، فما زالت صناعة الاقمشة في مصر تنتج كميات كبيرة من الاقمشة الممتازة التي صدرت الى مختلف مناطق شمال افريقيا ، وكانت الاسكندرية في تلك الفترة المركز الرئيسي لصناعة الكتان والحرير في مصر ، ويقول الكتّاب العرب انه ما زال فيها ١٢٠٠٠ ـ ١٤٠٠٠ نولاً عاملة . كما صدرت دمشق وحمص اقمشتها الحريرية[٤٢] . كما بقيت في مصر وسورية صناعة سكر مزدهرة ويشهد على ذلك اقوال المؤلفين العرب حول كميات السكر الكبيرة المستهلكة في الاحتفالات ، وفواتير الشحنات التي تقدم الدليل على شحن السكر السوري والمصري الى البندقية وجنوا وايجمورت ومرسيليا وبرشلونة . ويتحدث كتاب الحوليات عن القوافل التي صدرت السكر المصري الى العراق ، ووظّف الاعيان والتجار الاعيان والتجار الاغنياء رؤوس اموالهم في مصانع السكر ، وقد امتلك بعضهم عشرين مصنعاً او اكثر ، وبالتالي فان حجم هذه الصناعة ازداد ، ولكن اسعار منتجاتها (مختلف انواع السكر) انخفض[٤٣] ، وتتواجد في سورية وفلسطين مصانع صابون كثيرة صدرت منتجاتها الى البلدان الاخرى ، وبالاضافة الى ذلك يجب ان نذكر مصانع الورق في القاهرة ودمشق وحماه ومصانع الزجاج في حلب ودمشق ، وهذه الصناعات ايضاً سوّقت منتجاتها في كثير من البلدان الاخرى[٤٤] .

وفي بداية القرن الخامس عشر تهاوت معظم هذه الصناعات ، يذكر المقريزي ان الناس بعد ازمة ١٤٠٤ الاقتصادية اضطروا لارتداء الاقمشة الصوفية ، التي جلبها التجار الاوروبيون ، ولكن استيراد الاقمشة الاوروبية لم يكن بالتاكيد نتيجة لهذه الازمة ، فقبل ذلك امر السلطان برقوق (١٣٨٢ ـ ١٣٩٩) رجال بلاطه استبدال ارتداء الحرير المعتاد بالاقمشة الاخرى ، وفي الحقيقة ارتفعت اسعار الاقمشة الشرقية كثيراً بسبب ارتفاع الاجور ، الذي كان بدوره نتيجة نقص العمال المهرة ، ويشكو المقريزي بمرارة صعوبة ايجاد العمال وارتفاع اجورهم .

وتقلص حجم صناعة النسيج كثيراً ، وحسب المصادر العربية لم تكن في الاسكندرية في عام ١٤٣٤ اكثر من ٨٠٠ نول عاملة ، وفي القاهرة اختفى كثير من مصانع النسيج ، كما ان تدهور صناعة السكر لم يكن اقل منها وضوحاً ، يذكر الكاتب المعاصر ابن دقماق ٦٦ مصنعاً للسكر في القاهرة وحدها في عام ١٣٢٥ ،

هناك اي شك في ان جهود الكنيسة الحثيثة لاقت بعض النجاح ، ولا بد انها ثنت بعض التجار المسيحيين عن زيارة موانىء مصر وسورية .

ولكن هناك سبباً آخر ، فالطرق التجارية في شرقي المتوسط ، وتلك التي ربطتها بالخليج العربي والمناطق المجاورة ، تغيرت كثيراً في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، فبعد سقوط عكا ، والضغط الذي مارسته الكنيسة على الامم المتاجرة اصبحت المنطقتان اللتان بقيتا في ايدي المسيحيين في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، وهما قبرص وارمينيا الصغرى ، مركزين هامين للتجارة الدولية ، في فاما غوستا ولاجازو ، وكان باستطاعة التجار الأوروبيين شراء تلك السلع الهندية ، التي اعتادوا ان يحصلوا عليها من الاسكندرية ودمشق ، واتى التجار المسلمون الى هناك لعرض التوابل ومنتجات الشرق الاوسط ، كما ان ظهور لازاجو هو ايضاً نتيجة استيلاء التتر على العراق ، واصبح نهاية احد طرق التجارة الذي وصل الخليج العربي بالبحر المتوسط ، واصبحت طرابزون نهاية طريق آخر ، كما كان لاقامة المستعمرات التجارية الايطالية المزدهرة في بعض المدن في القرم وعلى بحر آزوف ـ وأهمها كافا وتانا ـ تأثير كبير أيضاً على التجارةفي غرب آسيا، في مراكز البحر الاسود التجارية المتصلة بطرق القوافل مع آسيا الوسطى وافغانستان ، واستطاع الايطاليون الحصول على سلع الهند والشرق الاقصى الى جانب العبيد والمنتجات الاخرى من جنوب روسيا .

ولكن رغم تحريم الكنيسة وتطور طرق تجارية اخرى ، فان العلاقات التجارية رغم تناقصها ، لم تنقطع بين امم جنوب اوروبا وسلطنة المماليك ، ويقدم مارينو سانوتو في كتابه قائمةمن السلع التي استوردها التجار المسيحيون من مصر ، وتتضمن تلك التي وضعت الكنيسة حظراً عليها(٢٦) . ونعلم من المصادر الاخرى ان نزل (خانات) الامم المتاجرة في الاسكندرية ، نادراً ، ما اغلقت ، لقد احتفظت البندقية وجنوا وبيزا ومارسيليا بنُزلها هناك ، وعينت قناصلها ، وحتى بعد سقوط عكا ارسلت الامم المتاجرة بعثاتها الى السلطان وابرمت الاتفاقيات التجارية الجديدة ، التي تخفّض الرسوم ، وتحصل على حقوق جديدة ، فسكان البندقية الذين مارسوا تجارتهم في الاسكندرية ودمياط وتونس حصلوا في عام ١٣٠٢ على امتيازات جديدة من السلطان ، الى جانب التاكيد على التنازلات التي قام بها

سلفه ، وخلال ممارسة نشاطاتهم التجارية في كل من مصر وسورية ، اقاموا ايضاً اتصالات مع حكام الاقاليم مثل حاكم صفد الذي ارسلوا له بعثة في عام ١٣٠٤ ، وبسبب الاجراءات التي اتخذها البابا توقفت التجارة المباشرة مع مصر وسورية منذ ١٣٢٣ الى ١٣٤٤ ، ولكن ذلك لم يَعْنِ سوى ان تبادل البضائع قد انتقل الى قبرص وكريت ، وفي عام ١٣٤٥ استؤنفت التجارة المباشرة واعيدت الخدمات الملاحية ، وعُيِّنَ قنصل جديد في الاسكندرية ، ثم ابرمت البندقية في عام ١٣٥٥ ، وعام ١٣٦١ اتفاقات جديدة مع السلطان ، وصحيح ان اهالي جنوا الذين قاموا بتجارة واسعة في مستعمراتهم على شواطىء البحر الاسود ، كانوا اقل نشاطاً في مصر في تلك الفترة ، ولكن امم جنوب اوروبا من جهة اخرى كثفت نشاطها التجاري في مصر ، وفي عام ١٣٥٠ حصل اهالي قطالونية من السلطان على امتياز يخفّض المكوس ، التي يجب عليهم ان يدفعوها ، اما مارسيليا التي قامت بتجارة غير منتظمة منذ عام ١٣٥٠ مع موانىء مصر ، فقد زادتها كثيراً منذ اواسط القرن الرابع عشر . وفي نفس الوقت بدأ تجار راغوسا بارسال سفنهم بانتظام الى الاسكندرية ، ولكن هجوم بطرس الاول ملك قبرص على الاسكندرية في عام ١٣٦٥ عرقل ـ لبضع سنوات ـ التجارة المزدهرة بين جنوب اوروبا وسلطنة المماليك ، وفي عام ١٣٧٠ ساد السلام وتبع ذلك فترة جديدة من النشاطات التجارية العظيمة ، وحتى راغوسا عندئذ حصلت على امتياز لتجارها .

ولا تترك الوثائق التي تقدم المعلومات حول تجارة شرق المتوسط في هذه الفترة اي شك في ان التجار المسيحيين كانوا اكثر نشاطاً في مصر وسورية ، ورغم ان دمشق حصلت على السلع الهندية ليس فقط من موانىء البحر الاحمر ، بل ايضاً من الخليج العربي ، ورغم ان المصادر المعاصرة دعت مدينة حلب «الهند الصغيرة» ، فان تجارة سورية مع الامم الاوروبية بقيت محدودة . فالاجراءات التي اتخذتها الكنيسة ، وتدمير الموانىء البحرية على الشاطىء الفلسطيني اللبناني كانت ضربة عنيفة ، واضطر التجار السوريون للذهاب الى فاماغوستا ولاجازو ليبيع بضائعهم ، ولكن في نهاية هذه الفترة جدد التجار المسيحيون رحلاتهم المتكررة الى طرابلس وبيروت وعكا وحتى دمشق والرملة ، حيث اشتروا التوابل الهندية ، واقمشة الشرق الاوسط وكميات كبيرة من القطن ، وهو انتاج رئيسي في سورية

وفلسطين[٣٠] .

وهكذا نرى ان التجارة مع جنوب اوروبا ، اغنت مصر وسورية وزودتهما بكميات كبيرة من العملات الذهبية والفضية الجيدة ، ولكن اللذين افادوا مباشرة من هذه التجارة هم تجار الجملة الاغنياء (الكارم)[١] الى جانب الخزانة المملوكية ، ومارس هؤلاء التجار تجارة التوابل في اليمن ومصر وسورية ، ولكنهم مارسوا ايضاً نشاطات تجارية اخرى ومارسوا ـ اخيراً الصيرفة ، ويبدو انهم شكلوا شبه احتكار يستثني بالكامل تقريباً كل التجار الآخرين ، او على الاقل يعرقل مصالحهم الى حد كبير ، فحسب رواية احد كتاب الحوليات العرب تواجد ٢٠٠ تاجر كارم في مصر في النصف الاول من القرن الرابع عشر ، ونعرف من المصادر الاخرى انهم ضموا اناساً من كل الاديان : مسلمين ومسيحيين ويهوداً ، ونظراً لتقديمهم القروض لسلطان القاهرة والامراء الآخرين ، فان وضعهم كان رفيعاً جداً ، وكانت بينهم العائلات ـ مثل الخروبي وابن قويق وابن مسلّم ـ المعروفة بانها كانت اغنى الناس في عصرها ، ولكن النظام النقدي للمماليك جعل نمو العائلات التجارية الحاكمة مستحيلاً ، فقد كان باستطاعة الحكومة دائماً مصادرة املاكهم بفرض الغرامات الكبيرة ، ولم تبق عائلات الكارم وعائلات التجار الاغنياء الآخرين ـ الذين مارسوا التجارة مع آسيا الصغرى ـ على غناها لاكثر من ثلاثة اجيال[٣١] .

ج ـ الانحطاط في ظل المماليك الجراكسة : ويركز كل من كتاب الحوليات في العصور الوسطى والعلماء الحديثين على الفارق الكبير بين عهد المماليك البحرية ، وعهد المماليك الجراكسة . فبينما تمتعت مصر وسورية بالازدهار الاقتصادي في عهد الاسر المالكة الاولى ، فان عهد الجراكسة شهد تدهور الاقتصاد وانحطاط الحضارة الاسلامية في الشرق الادنى ، ولكن هذه الظواهر برزت قبل وصول الجراكسة الى

---

(١) تجار الكارم ويقال ايضاً الكارمية والاكارم ومفرده كارمي ، المقصود بهذا اللفظ فئة التجار اللذين كانت بيدهم تجارة البهار الوارد الى مصر من الهند عن طريق ثغور اليمن ، وكان معظمهم في الاصل من اهل بلاد الكانم الاسلامية ـ التي تقع بين بحر الغزال وبحيرة تشاد بالسودان الغربي ـ فنسبوا الى اصلهم الجغرافي بعد تحريفه الى «الكارم» ثم اطلق ذلك اللفظ على جميع من مارس تلك التجارة بمصر .

المقريزي ـ السلوك ١/ ٣ ص ٨٩٩

عرش القاهرة .

ان الحقيقة الرئيسية في تاريخ الشرق الاوسط الاجتماعي في هذه الفترة هي تناقص السكان ، فلقد بدأت في اواسط القرن الرابع عشر ، لان الموت الاسود (الطاعون) فتح الباب للتناقص السكاني في النصف الثاني من العصور الوسطى ، وكما حدث في مناطق كثيرة اخرى من العالم القديم اودى هذا الوباء الرهيب بحياة جزء كبير من سكان سورية ومصر ، ولا شك في ان معدل الوفيات المرتفع عائد الى حد كبير لنقص التغذية لدى قطاعات كبيرة من سكان الشرق الاوسط تماماً ، كما تم تعليل عدد الوفيات الكبير الذي سببه الموت الاسود في اوروبا بنفس الظاهرة ، ويصف كتاب الحوليات العرب اعراض الطاعون الدبلي الحقيقي من بثور ودمامل وبصق للدم ، والموت بعد بضعة أيام، ومن قراءة هذه التقارير التفصيلية ندرك الهلع الذي اصاب الناس العاجزين عن عمل اي شيء ، بدأت الجائحة في مصر في خريف ١٣٤٧ ، وبحلول نيسان ١٣٤٨ انتشر في كل البلاد ، وبلغ اوجه في نهاية العام ، وتسلل الى جنوب سورية في ربيع ١٣٤٨ ، ولكنه في نفس الوقت زحف ايضاً من الشمال ، ولما بدأ الوباء متاخراً في سورية ،فقد انتهى متاخراً . فبينما انتهى في مصر في شباط ١٣٤٩ ، كان لايزال يحصد الكثيرين في سورية في اوائل ربيع ذلك العام .

ويتحدث الكتاب العرب المعاصرون عن الآلاف ، وعشرات الآلاف الذين ماتوا كل يوم في المدن الكبرى ، ولاحاجة للقول بأن العالم الحديث سينظر إلى هذه الأرقام بتحفظ كبير ، ومن المؤكد أن عدد الموتى ، الذي بلغ ٩٠٠,٠٠٠ شخص في القاهرة خلال شهرين حسب رواية ابن اياس ، رقم مبالغ فيه ، ولكن تقدير الكاتب المعاصر ابن حبيب ، يبدو معقولاً فهو يذكر بأن الموت الأسود أنقص سكان مصر وسورية بمقدار الثلث .

ونعلم أيضاً من البيانات الطويلة للمؤرخين العرب ، أن أعداداً لا تحصى من المواشي قد هلكت أثناء الطاعون ، وهكذا فإن رفاهية الباقين على قيد الحياة أصبحت وهمية ، وفي الحقيقة فقد اقتصاد دولة المماليك جزءاً كبيراً من إمكاناته .

وكما حدث في أوروبا ، كان الموت الأسود في الشرق الأدنى بداية فترة طويلة

من التناقص السكاني ، والخسائر التي تحملها بسبب الطاعون الرهيب لم يتم تعويضها بالانجاب المكثف ، وقانون ليفاسور لم يعمل ، بل على العكس من ذلك تبع ذلك سلسلة من الجائحات ، والكثير منها يسميه كتاب الحوليات الطاعون ، وهو الأسم الذي يطلق على الطاعون الدبلي ، ولما كان من النادر أن يصفوا أعراض المرض ، فلا نستطيع التأكد ما إذا كانت حقاً جائحات طاعون جديدة ، ولكن عددها ـ كما استنتج كريمر قبل ٩٠ سنة ـ في أواخر العصور الوسطى ، أكبر بالتأكيد من عددها في الفترات السابقة ، والتقارير الموجودة في الحوليات غير المنشورة تزيد كثيراً قائمة الجائحات التي جمعها كريمر ، فهناك جائحات رئيسية في مصر في الأعوام ١٣٦٣ ـ ١٣٦٧ ـ ١٣٨١ ـ ١٤١٦ ـ ١٤٣٠ ـ ١٤٣٨ ـ ١٤٤٤ ـ ١٤٤٩ ـ ١٤٥٩ / ١٤٦٠ ـ ١٤٦٨ ـ ١٤٦٩ ـ ١٤٧٦/ ١٤٧٧ ـ ١٤٩٢ ـ ١٤٩٨ ـ ١٥٠٥ ـ ١٥١٣ ـ وفي سورية وفلسطين في عام ١٣٦٣ ـ ١٣٦٩/ ١٣٧٠ ـ ١٣٧٣ ـ ١٣٨١ ـ ١٣٨٥ ـ ١٤١١ ـ ١٤٣٧/١٤٣٨ ـ ١٤٥٩ ـ ١٤٦٠ ـ ١٤٦٨ ـ ١٤٦٩ ـ ١٤٧٦/١٤٧٧ ـ ١٤٩٢ ـ ١٤٩٧ ـ ١٥١٣[٣٣] . وترينا بيانات كتاب الحوليات أن سورية عانت من الجائحات أكثر من مصر في النصف الثاني من القرن الرابع عشر ، أما في مصر فقد تكررت الجائحات في العقد الثاني من القرن الخامس عشر ، وفيما بعد في عقديه السابع والثامن ، وفي حوالي عام ١٥٠٠ تكررت الجائحات في كلا البلدين ، وقد تكرر ظهور الجائحات حتى أن الأجانب الذين زاروا مصر قيل لهم انها تكررت كل سبع سنوات ، ونظراً لأن الطاعون والأوبئة الأخرى تفشت في الشرق الأوسط بصورة متكررة ، فقد عالج الكتاب العرب أسباب انتشارها ، أو كتبوا أطروحات خاصة حول هذا الموضوع ، استنتج المقريزي أن سكان مصر لديهم قابلية للإصابة بالأمراض بسهولة بسبب سوء التغذية ، يقول المقريزي أن الفلاحين عاشوا على الخبز السيء منه فقط ، وهناك سبب وجيه يجعلنا نؤمن بأن كاتب العصور الوسطى على حق ، فالأوبئة هي في العادة نتيجة للفقر والبؤس . ومن جهة أخرى صحيح أن جائحات كثيرة أنتشرت بصورة رئيسية بين الأطفال والعبيد والغرباء الآخرين (مثل المماليك) ولكن ليس هناك أي شك في أنها أدت إلى تناقص سكان الشرق الأدنى إلى حد كبير .

وتزودنا مصادر العصور الوسطى ببعض المعلومات عن التقديرات الاحصائية

للتناقص السكاني . ويعطينا بعض الكتاب العرب إجمالي أعداد القرى في مصر ، كما أثبتتها أعمال المساحة في تواريخ مختلفة ، ورغم أن البيانات أحياناً متناقضة (أو أنها منقولة خطأ على يد النسّاخين المهملين) فإنها لاتترك مجالاً للشك حول تناقصها في القسم الأخير من العصور الوسطى ، وهذه المعلومات مختصرة في الجدول التالي :

عدد القرى في مصر

التاريخ	العدد
٩٥٦	٢٣٩٥
عهد الحاكم (٩٩٦ - ١٠٢٠)	٢٣٩٠
عهد المستنصر (١٠٣٥ - ١٠٩٤)	٢١٨٦
١٢١٠	٢٠٧١
١٣١٥	٢٤٥٤
١٤٣٤	٢١٢٢

تعكس هذه المعلومات بوضوح التغيرات في تاريخ مصر الديمغرافي في العصور الوسطى : بعد فترة طويلة من الازدهار في ظل الفاطميين الأوائل ، بدأ اتجاه نحو الانحدار في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، حيث نقص وبعد مجاعة ١٢٠١ -١٢٠٢ الرهيبة عدد القرى كثيراً ، وأحدثت الحكومة المستقرة للمماليك الأوائل ازدياداً جديداً في عدد السكان ، فأنشئت القرى الجديدة ، أو أعيد بناء القديمة منها ، بينما في ظل الجراكسة أصبح عدد قرى مصر أقل مما كان عليه قبل ٥٠٠ سنة ، وربما كان التطور السكاني للريف السوري مشابهاً لتطور قرى مصر ، ويقول مسافر برغندي الذي زار سورية في عام ١٤٣٢ أن هناك مناطق غير مأهولة قرب حماة وأنطاكية ، وحسب رواية المؤلفين العرب كانت مئات من هذه القرى مهجورة في بعض المناطق في نهاية القرن الخامس عشر ، ومن جهة أخرى فإن الموظفين الأتراك المسؤولين عن إحصاء ١٥١٩ - ١٥٢٠ وجدوا أن سكان بعض القرى تقلص من ٣٠٠٠ الى ٨٠٠ كما في منطقة طرابلس .(٣٦)

أما بشأن التطور الديمغرافي لمدن الشرق الأوسط في تلك الفترة ، فبإمكاننا الإشارة الى نصوص كثيرة في كتب رحلات الأوروبيين، والحجاج والمسافرين الآخرين ، فلدى زيارتهم للقاهرة والأسكندرية شاهدوا أن أحياء كاملة تحولت الى

وفي بداية القرن الخامس عشر تم اغلاق حوالي ثلاثين منها وبعضها تحول الى متاجر، او بيوت للسكن والاخرى فقد اصبحت خرائب، ويصف المقريزي تدهور مزارع السكر في مصر العليا وخراب مصانعها ، ولكن تدهور صناعة السكر بدأ في هذا الجزء من مصر قبل منتصف القرن الرابع عشر ، لان الدفوي (توفي ١٣٤٧) يتحدث عن مصانع كثيرة اغلقت في بعض المدن(٥٥) .

ويجب ان نحذر المبالغات ، فصناعات مصر وسورية لم تختفِ تماماً ، ففي دمشق والاسكندرية تواجدت حتى نهاية القرن الخامس عشر صناعة الحرير والمطرزات والمقصبات ، التي صدرت الى شمال افريقيا والبلدان الاوروبية(٥٦) ، وبالرغم من ذلك فان تدهور الصناعات الشرقية واضح ، من حيث حجم الانتاج ونوعيته فما هو السبب ؟

ومن المؤكد انه لم يكن مجرد نتيجة نقص اليد العاملة ، ولا السياسة الخاطئة لحكومة المماليك ، ولا عدم توفر الاموال الكافية لدى المماليك لشراء الاقمشة النفيسة ، وحتى التهجير الاجباري لكثير من الصناع المهرة من دمشق ، الذين اخذهم تيمورلنك الى سمرقند لا يمكن ان يكون عاملاً حاسماً في تدهور صناعات الشرق الاوسط ، ومن المؤكد ان لمنافسة الصناعات الاوروبية أثراً كبيراً في ذلك .

وان تفوق صناعة الاقمشة الاوروبية ، مثل صناعة الصوف الفلمنكية والفلورنسية ناتج الى حد بعيد عن استيراد مواد اولية ممتازة النوعية مثل الصوف الانكليزي ، وبالاضافة الى ذلك استخدمت هذه الصناعات اصبغة مصنوعة في البلدان المجاورة ، ومن جهة اخرى ، استخدمت صناعة الشرق الاوسط الصوف القليل الجودة ، كما ان تامين الاصبغة اصبح مشكلة صعبة . وبعد استيلاء المغول على غرب ايران والعراق ، لم يعد من السهل الحصول على القرمز والزعفران من ارمينيا وفارس ، ومن المؤكد ان تدهور صناعة الاقمشة الصوفية في الاشمونين في مصر العليا ، نتيجة لهذا التغيير لان منتجاتها اشتهرت بلونها القرمزي ، وتوجب الآن استيراد الزعفران من ايطاليا الوسطى وقطالونيا ، ولما كانت غالية الثمن فقد ادى استعمالها الى رفع اسعار اقمشة الشرق الادنى كثيراً ، ومن جهة اخرى فان مزارع الزعفران التي استقدمها العرب الى جنوب اوروبا توسعت هناك كثيراً في تلك

الفترة من جعله متوفراً بسهولة، وبالتالي اصبحت الاقمشة الاوروبية ارخص من المنتجات الشرقية سواء الرخيصة او النفيسة .

وساعدت الابتكارات التقنية ايضاً على دعم تفوق الاقمشة الاوروبية ، ان المطحنة الآلية ـ وهذا ابتكار اوروبي عظيم ـ لم تكن مجهولة تماماً في الشرق الاوسط ، تحتوي سيرة احد نبلاء المماليك الذي توفي عام ١٤٨١ على نص يقول انه اقام في قريته في منطقة الفيوم «مطحنة ايرانية تدار بالماء بدون حيوانات» ، ويمكن ان نستخلص من هذا الوصف ان مثل هذه المطاحن كانت في مصر شيئاً غريباً . يقول رحالة فرنسي زار مصر في عام ١٥١٢ بكل وضوح انه لا توجد في هذه البلاد طواحين ماء ولا طواحين هواء ، وجلب الصليبيون الالمان طواحين الهواء الى فلسطين ، ولكنها لم تستخدم في اي مكان آخر ، كما هي الحال في الابتكارات الاخرى ، ولم يستخدمها الفلاحون المحافظون ، وبالاضافة الى المطحنة الآلية ونول المدوس ، كان استقدام دولاب الغزل ابتكاراً هاماً جداً ، استعمل في المانيا وشمال فرنسا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، وفي انكلترا على الأقل منذ القرن الرابع عشر وفي قطالونيا في النصف الثاني من نفس القرن ويبدو انه لم يعرف في الشرق الاوسط .

ان اسباب التدهور التقني لصناعة الشرق الاوسط في هذه الفترة واضحة ، وكان دور المصانع الملكية في كل فروع الصناعة بارزاً ، وحصلت على المواد الاولية باسعار ارخص وجزء منها من انتاج الضياع الملكية ، فمصانع السكر العديدة التي يملكها ابناء السلاطين وكبار الامراء تمتعت بامتيازات جعلت المنافسة للصناعيين الآخرين صعبة ، واستخدم السلاطين والامراء سلطاتهم لعرقلة نشاطات منافسيهم بالضرائب او بانشاء الاحتكارات ، فاحتكار زراعة السكر وتصنيعه التي اقامها السلطان بيبرس في عام ١٤٢٣ ، هي احدى اوجه هذا التطور ، وعندما خنقت المنافسة لم يبقَ أي حافز على الابتكار ، والمصانع الملكية نفسها دمرها المديرون الفاسدون الذين دفع سوء ادارتهم السلاطين مع مرور الوقت إلى الغاء نظام الطراز كلية[٤٧] ، وتناقص الانتاج الصناعي إلى مستوى الورشات الصغيرة التي لا تستطيع الانفاق على الاختبارات المكلفة .

ولكن من غير المعقول الادعاء بان هذا التغير في البنيات الصناعية تعليل مقنع

للتدهور التقني فاحياناً يقوم بالابتكارات العظيمة افراد بدون مساعدة من مؤسسة قوية، وهناك في الحقيقة اسئلة تاريخية يمكن للمؤرخ توجيهها ، ولكنه لا يستطيع الاجابة عليها .

ومهما كانت اسباب التدهور التقني ، فان الظاهرة نفسها تتضح باعراض كثيرة ، يتلمر ابن خلدون (توفي ١٤٠٦) بان فنّ بناء السفن تدهور في الشرق الاوسط لدرجة ان الحكومة تضطر للجوء الى المساعدة الاجنبية عند الحاجة ، وحتى البناؤ ون المهرة مثل بنائي السقوف الحديدية يجب احضارهم من الخارج مثل الاناضول لاصلاح ما دمرته النيران في المسجد الاموي في دمشق عام ١٤٧٩ ، ويسرد مؤلف لبناني عجز مهندسي المماليك عن بناء جسر فوق نهر ، إذ ثبت اخفاق محاولتين للملك ، وادى تدهور بعض الصناعات الى اغراق الشرق الاوسط بالبضائع الاوروبية واصبح من الواجب الآن استيراد السلع الصناعية التي صدرتها مصانع الشرق الاوسط إلى أوروبا والهند لعدة قرون مثل الأواني الزجاجية وأشغال التطعيم والورق والصابون ، وتعلّم أهالي البندقية إنتاج الأواني الزجاجية الفنية وأعمال التطعيم في صور على يد الصناع اليهود ، وتدهورت خلال القرن الخامس عشر صناعة الزجاج في الشرق الاوسط لدرجة أنه جرى استيراده من ايطاليا اذ أمر السلطان قايتباي (١٤٦٨ - ١٤٩٦) باستيراد المصابيح الزجاجية من مورانو ، وبينما يشجب المقريزي تدهور فن التطعيم بالفضة ، يصبح فرعاً مزدهراً من فنون البندقية ، ويشهد اسمه أن صناع البندقية تعلموه من اليهود في سورية ، إذ أطلقوا عليه «أعمال اليهود أو عمل السليمانيين» يقول الشاعر تشوسر عن السير توباس :

وفوق ذلك hawberk رائع
مصنوع كله من اعمال اليهود

وحتى الورق جلب من فرنسا وايطاليا ، حيث اصبحت مدينة فابريانو الصغيرة في منطقة انكونا في القرن الرابع عشر مركزاً لهذه الصناعة ذا شهرة عالمية ، واستورد الصابون من جنوب ايطاليا ومدينة خيوس ، والفرع الآخر من صناعات الشرق الادنى الذي تدهور في هذه الفترة هو الخزف ، فالاكتشافات الاثرية تدل على موجة الاستيراد والتقليد العظيمة للبورسلان الصيني . فالخزافون المصريون

عجزوا عن تقليد طينة الاصل الرائعة ، كما لم يستطيعوا انتاج البريق الشفاف[٤٨] .

اصبح تكديس الاقمشة الاوروبية حقيقة رئيسية في الحياة الاقتصادية للشرق الاوسط . وفي الحقيقة بدأ ذلك في بداية العصر المملوكي . فحسب شهادة المؤرخ المعاصر ابن واصل تواجد الكثير من أقمشة البندقية الرائعة في الاسكندرية في عام ١٢٦٣ ، وفي بداية القرن الرابع عشر استورد الحرير الاوروبي الى مصر وفي نهاية ذلك القرن ازداد حجم مستوردات الاقمشة إلى مصر وسورية بانتظام ، يقول الحاج الفلورنسي ليوناردو فريسكو بالدي ان الاقمشة من لومبارديا حملت على السفينة التي ابحر بها في عام ١٣٤٨ الى الاسكندرية ، وتشهد الوثائق في ارشيف بوش دي رون على تصدير اقمشة لانجدوق الصوفية الى مصر وكذلك اقمشة مالين ، ويقدم لنا الارشيف الفتى لفرانشسكو داتيني - التاجر الشهيد من براتو - الكثير من المعلومات حول الاسعار التي وصلتها في مصر وسورية اقمشة بربنيان وريمس وفلورنسا وفلاندرز وبرابانت ، واصبح تصدير اقمشة كاتالان إلى الشرق الاوسط تجارة حيوية في نهاية القرن الرابع عشر ، واستمرت طوال القرن الخامس عشر ، وترينا مؤلفات التجار والمطبوعات الاخرى العائدة للنصف الاول من هذا القرن ان البندقية ايضاً صدرت كميات كبيرة من منتجاتها النسيجية الى شرق المتوسط . وتلقى المعاهدات المعقودة في اواسط ونهاية القرن ، بين البندقية وفلورنسا من جهة ، وسلطان القاهرة من جهة اخرى ، وكتب الرحالة الاوروبيين وبيانات كتاب الحوليات في البندقية ، تلقي الاضواء على هذه التجارة ، نقرأ على سبيل المثال ان سفينة من سفن جنوه وصلت الاسكندرية في عام ١٥٠٠ ، وهي تحمل ٤٦٠٠ قطعة من الاقمشة الاوروبية وثلاث سفن فرنسية تحمل ١٣,٠٠٠ قطعة[٤٩] .

وتنعكس آثار التناقص في السكان والتدهور الصناعي بوضوح بحركة الاسعار ، كما ينقلها كتاب الحوليات العرب في اواخر القرن الرابع عشر ، وخلال القرن الخامس عشر .

يضم الجدول التالي المعلومات التي تشير الى «الاسعار العادية» او الى اوقات القلة (او الكساد) التي لم تكن شديدة[٥٠] .

اسعار الحبوب بالاردب في مصر في ظل المماليك الجراكسة

التاريخ	القمح	الشعير
شتاء١٣٨٣/ ١٣٨٤	سعـــرمنخفض ٢٤,٠ - ٥,٠دينار	
٢,٠ - ٢٦,٠ دينار		
١٣٨٥	ندرة٦٦,١ دينار	
١٣٨٨	سعر منخفض جداً ٢٤,٠	
ايلول ١٣٩٤	فيضانات غير كافية ١,٦	٠,٨
كانون ـ شباط ١٣٩٥	٢,٦٤	١,٣٢
تشرين اول ١٣٩٥	٢,٤	٢
آذار ١٣٩٦	٢	١,٢
تشرين اول ١٣٩٦	٢ - ٢,٤	١,٢
حزيران ١٣٩٩	١ - ١,٣	
بداية ١٤٠٠	١,١٦ - ١,٣٣	٠,٨
١٤٠٢	٠,٧٧	٠,٣٨
شباط١٤٠٣	ارتفاع ١,٦	١,١٦
آب ١٤٠٤	٢	١,١
حزيران ١٤٠٨	كـساد٥,٠	٠,٣٥
بداية ١٤١٠	٠,٧٥ ثم ٠,٣	٠,٥٧
كانون اول ١٤١٠	٠,٥٤ - ٠,٦٤	٠,١٨ - ٠,٢٧
تشرين اول ١٤١١	٠,٣٣	
نيسان ١٤١٢	٠,٦٢	ارتفاع ٠,٥٤
نيسان ١٤١٣	٠,٦٦	٠,٤١
تشرين ثاني ١٤١٣	٠,٥	

لقد أثبتت أبحاث ماك آدامز أن عدداً كبيراً من المستوطنات الريفية قد اختفى أثناء حكم الايلخانات ، وفي حالات كثيرة كان ذلك نتيجة للصيانة غير المناسبة لأنظمة الري ، وفي حالات أخرى فمن المرجح أنه نتيجة لتناقص السكان وأحياناً

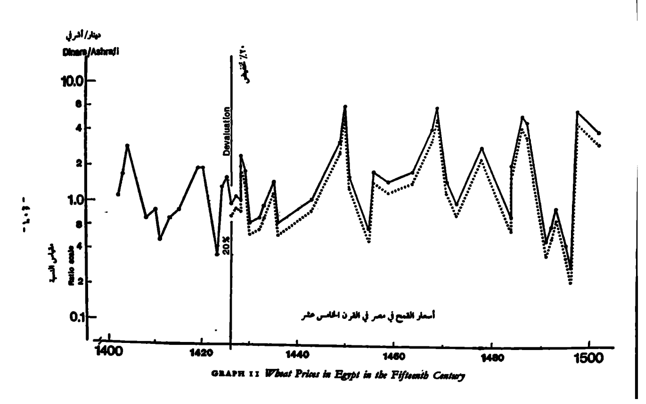
كلاهما معاً ، وعندما أصبح عدد سكان القرية قليلاً جداً ، لم يعد بالإمكان صيانة أقنية الري ، وتناقصت المحاصيل وأخيراً اضطروا لهجر المستوطنة ، والجدول التالي يلخص نتائج ماك آدامز :

آذار ١٤١٤	٠,٥٦ ثم أقل من ١	
آذار ١٤١٥	٠,٥	
نيسان ١٤١٥	كساد ٠,٣٣ ـ ٠,٥	٠,٢٧
تشرين أول ١٤١٥	٠,٥٨	٠,٥
مايس ١٤١٦	٠,٧ ـ ٠,٨	
حزيران ١٤١٧	ارتفاع من ٠,٧٢ إلى ٠,٨	
كانون ثاني ١٤١٨	٠,٨٦	٠,٧
شباط ١٤١٩	١,٣	١,١
تشرين أول ١٤١٩	ارتفاع ١,٣	
آب ١٤٢٠	١,٣	١,٢
كانون ثاني ١٤٢٣	٠,٢٥ ـ ٠,٣٧	٠,٢٥ ـ ٠,٢٧
آذار ١٤٢٣	سعر منخفض جدا ٠,٢٥	
آذار ١٤٢٤	٠,٩	
نهاية ١٣٢٤	٠,٩	٠,٤٨
أيلول ـ تشرين أول ١٤٢٥	ارتفاع ١,١	١,٢٤
آذار ١٤٢٦	١,٣٣ ثم ٠,٩ (دينار) أشرفي	
تشرين ثاني ١٤٢٦	٠,٦٦ أشرفي وأقل	٠,٤٤ أشرفي
مايس ١٤٢٧	سعــر منخفض جداً ٠,٣٥ ـ ٠,٥٣	٠,٢٨
تشرين ثاني ١٤٢٧	٠,٧٥	٠,٥٨
آذار ـ نيسان ١٤٢٨	٠,٧١	٠,٤
أيلول ١٤٢٨	١,٧٧ ثم ١,٥٥	١,٣٣
آذار ١٤٢٩	١	٠,٤٨
آب ١٤٢٩	ارتفاع من ١,١٧ إلى ١,٣	

تشرين أول ١٤٣٠	سعر منخفض جداً ٠,٤٦	٠,٢١
أيلول ١٤٣٢	كساد ٠,٥	٠,٣
ربيع ١٤٣٣	كساد ٠,٦٦	٠,٣٣
أيلول - تشرين أول ١٤٣٣	ارتفاع ٠,٦٣	٠,٤٩
مايس ١٤٣٤	٠,٥٢ ثم ٠,٦	
تشرين أول ١٤٣٥	لا هبوط في النيل ١	
كانون أول ١٤٣٦	كساد ٠,٣٨ - ٠,٥٣	
آذار ١٤٤٠	٠,٨٧ ثم ٠,٧	
خريف ١٤٤٣	١,٠٥ ثم ٠,٧	
نيسان ١٤٤٤	٠,٧	
تشرين أول ١٤٤٩	٢,١	
شباط ١٤٥٠	٢,٨	
تشرين أول ١٤٥٠	٤,٢	٢,٨
نيسان ١٤٥١	٢,٨ - ٣,٥	٢,٤
مايس ١٤٥٢	١,٤	٠,٧
تشرين ثاني ١٤٥٢	١,١	٠,٨
أواخر ١٤٥٥	٠,٤	
آذار ١٤٥٦	٠,٦٦	٠,٥ وأقل
كانون أول ١٤٥٦	١,٢	
تشرين ثاني ١٤٥٩	١	
نيسان ١٤٦٠	٢	
آذار ١٤٦٤	ارتفاع ١,٢	١,٠٦
آذار - نيسان ١٤٦٦	١,٨ ثم ٢	
مايس ١٤٦٨	٢	٠,٨
تشرين أول ١٤٦٨	٢,٦٦	١ ثم ١,٥
نيسان ١٤٦٩	٢	أقل من ١
حزيران ١٤٧٣	أكثر من ٠,٦٦ بقليل	

حزيران ١٤٨٤	كساد ٠,٥
حزيران ١٤٩١	كساد ٠,٣٣
١٤٩٢	٠,٥ - ٠,٣٣
نيسان ١٤٩٥	٠,٣
أوائل ١٤٩٦	٠,٢
تشرين ثاني ١٤٩٧	ندرة ٣
كانون ثاني ١٥٠٢	ندرة ٢,٥
صيف ١٥١٢	١

ويرينا هذا الجدول أن أسعار الحبوب بعد التضخم في بداية القرن الخامس عشر ، وتخفيض الدينـار الناتـج عن ذلك ، كانـت أقـل مما كانـت عليه في عهد المماليك البحرية . ومعلومات النصف الأول من القرن الخامس عشر تشير إلى أن ٠,٥ - ٠,٧ دينار أشرفي هو السعر «العادي» أثناء الانخفاض ، ولما كان تخفيض الدينار لم يسبب ارتفاعاً في أسعار الحبوب ، فإن ذلك يعني انخفاضاً قدره ٢٠٪ ، وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر هبطت الأسعار مرة أخرىٰ وإن مؤلف «جواهر السلوك» المجهول ، يقول أن السعر العادي لأردب القمح في أيام قايتباي هو ½ أشرفي (انظر ص ٣٢٤)[٥١] وهكذا فإن أسعـار الحبـوب استمـرت في الانخفاض لفترة طويلة . والاتجاهات الدنيوية تظهر في الجدول التالي :



GRAPH 11 *Wheat Prices in Egypt in the Fifteenth Century*

سعر ١٠٠ كغ قمح في مصر

١٢٥٠ ـ ١٣٠٠	١,٠٧ دينار قانوني
١٣٠٠ ـ ١٣٥٠	٠,٨٥
١٤٠٠ ـ ١٤٥٠ (بعد ١٤٢٥)	٠,٧٤
١٤٥٠ ـ ١٥٠٠	٠,٥٧

ولما كان المماليك تجاراً كباراً للحبوب ، واقتضت مصالحهم إبقاء الأسعار مرتفعة ، فليس هناك أدنىٰ شك في أن اتجاه هبوط الأسعار توافق مع الطلب المتناقص ، وأنه نتيجة لتناقص السكان .

أما سعر رطل لحم الخروف ـ وهو اللحم الرئيسي ـ فقد ارتفع أثناء الأزمة في بداية القرن الخامس عشر إلى ٠,٠٣ ـ ٠,٠٤ دينار ، ولكنه لم يتغير بعد التخفيض ، ولما كانت الأسعار بالدينار القانوني (٠,٠٢٤ ـ ٠,٠٣٢) فإن الارتفاع طفيف ، ولم يرتفع سعر اللحم ، لأن القليل من الناس كانوا يستطيعون شراءه . وفي سورية تناقص سعره أيضاً[٥٢] .

ومن جهة أخرى فإن منحنىٰ أسعار السكر ، يعكس الارتفاع الكبير في أسعار السلع الصناعية . فسياسة الحكومة الاحتكارية ، وتدهور الصناعة الخاصة وارتفاع الأجور (وبصورة رئيسية العمال العاديين) أدت إلىٰ ارتفاع هائل في أسعار السكر قدره ٢٠٠ ـ ٣٠٠٪ ، ففي مصر كلف القنطار (الجروي ٩٦ كغ) ٥٥ دينار في عام ١٣٩٦ و ٤٠ دينار في عام ١٤١٤ و ٣٥ دينار في ثلاثينات القرن . وفي سورية أيضاً كان الارتفاع كبيراً ، إذ بدأ في العقد الثامن من القرن الرابع عشر واشتد في بداية القرن الخامس عشر ، وفي أواسط القرن كلف القنطار الدمشقي (١٨٥ كغ) ٥٠ «دوكات» ، ومن المرجح أن اختلاف أسعار السكر في مصر وسورية يشير إلى أن الأجور في سورية ارتفعت أقل من ارتفاعها في مصر .

لكن ارتفاع سعر الخبز كان أقل ، لأن سعر القمح ـ عنصره الرئيسي ـ انخفض . ارتفع في مصر في نهاية القرن الرابع عشر إلى ٠,٠٠٤ ـ ٠,٠٠٤٤ دينار للرطل ، وفي بداية القرن الخامس عشر إلى ٠,٠٠٥ دينار ، وهذا يعني ارتفاعاً قدره ٠,٦٦٪ . لكن تخفيض الدينار لم يؤدِ إلى ارتفاع آخر ، ففي أواسط القرن

كلف رطل الخبز ٠,٠٠٥ أشرفي ، وفي سورية كان سعر الخبز في نهاية القرن الرابع عشر يساوي تقريباً سعره في مصر ولكنه قلّ عنه في نهاية العصر المملوكي[٥٣] .

لم يكن اتجاه هبوط أسعار الحبوب نتيجة زيادة الانتاج بل على العكس من ذلك ، يشكو المؤلفون العرب في أواخر العصور الوسطى بمرارة من تدهور الزراعة ، وتناقص المساحات المزروعة وحتىٰ أوصاف الفترة الذهبية من الحكم المملوكي تحتوي على مثل هذه الشكاوىٰ ، ويكرر كتاب الحوليات القول أن المساحة المزروعة نقصت لأن السلطات أهملت صيانة أقنية وسدود الري ـ وأمراء الاقطاع جمعوا الضرائب بدلاً من إجبار الفلاحين على إصلاح السدود، وهكذا فإن خراب الضياع الاقطاعية في كل مكان تقريباً أكثر وضوحاً من خراب الضياع الأخرىٰ إذ خربت الفيوم بسبب تدمير السد الكبير ، وفي عام ١٣٨٩ لم يزرع في الأقصر سوى ١٠٠٠ فدان من مجموع ٢٤٠٠٠ فدان في أيدي الفلاحين ، وكما هي الحال في الفترات الأخرىٰ من تاريخ العصور الوسطىٰ كان نهب القوات وسلبها مسؤ ولاً عن خراب كثير من القرى ، من وقت لآخر اتخذت الحكومة الاجراءات لاصلاح الأضرار ، وقام بيبرس أول سلاطين المماليك العظماء والملك الناصر محمد بحفر بعض الأقنية ، وتعريض بعضها الآخر ، وفي عهد بارسباي بذلت السلطات جهوداً جديدة لإصلاح السدود في مصر ، وأقنية الري في سورية ، ويسجل كتاب الحوليات في النصف الثاني من القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر هذه النشاطات ، كما هي الحال في عام ١٤٦٩ و ١٤٨٠ و ١٤٨٧ و ١٤٩١ و ١٥٠٧ و ١٥١١ و ١٥١٣ ، ولكنهم يذكرون أيضاً أن أمراء الاقطاع قاوموا ذلك[٥٤] .

إن أوضاع الفلاحين الذين عاشوا في الضياع الاقطاعية كأقنان كانت بالتأكيد في تلك الفترة أسوأ من أوضاعهم في الفترات السابقة ، ولقد جعلت الضرائب الجديدة وأعمال السخرة حياتهم لا تطاق . وكما هي الحال دائماً ، كانت النتيجة الهروب من الأرض بسبب الاضطهاد . وهرب كل من استطاع من القرى التي أضحت معسكرات سخرة ، وتشهد كثير من النصوص في المؤلفات العربية العائدة للعهد المملوكي على هذه الظاهرة ، وتقول النصوص أنها أصبحت مشكلة اضطرت السلطات لمعالجتها مرات ومرات ففي بداية العصر المملوكي ظهر موظفون واجبهم القبض على الأقنان الهاربين وإعادتهم إلى أسيادهم ، وفي سورية في أواسط القرن

الرابع عشر أعادت السلطات الفلاحين ، الذين ألقت القبض عليهم خلال ثلاث سنوات من هروبهم[٥٥] .

ولم يكتف سلاطين البحرية الأوائل بالاصلاح العرضي لنظام الري ، بل حاولوا إصلاح الأضرار الملمة بالمشاريع الاستيطانية ، وترافقت هذه النشاطات مع الازدياد الديمغرافي في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، والنصف الأول من القرن الرابع عشر ، فأمروا بتوطين الفلاحين المعدمين لزيادة الأراضي المزروعة وإنقاص عدد الأقنان الهاربين الذين عاشوا حياة بائسة في المدن الكبيرة ، وبنىٰ بيبرس قرية جديدة في مصر ، وفي الجليل أعاد الضياع المهجورة منذ أيام استيلاء الافرنج على صفد إلى أصحابها السابقين ، وأعيدت زراعة هذه الضياع . وأمر السلطان قلاوون (١٢٧٩ ـ ١٢٩٠) بإصلاح قناة في منطقة البحيرة ، وبذلك أعيد استثمار كثير من الضياع البور ، أما السلطان كتبغا الذي حكم من ١٢٩٤ إلى ١٢٩٦ فقد بنىٰ قرية في سورية ، وشرع الملك الناصر محمد بتنفيذ مشاريع أكبر : في عام ١٣١٠ أصلح قناة قرب الاسكندرية مستخدماً ٤٠٠٠٠ رجل ، وحسب رواية المقريزي تمت زراعة ١٠٠,٠٠٠ فدان وبناء ٤٠ قرية نتيجة للملك ، أما تنكز نائبه على سورية فأنجز تجفيف منطقة البقاع في وسط سورية ، وبنىٰ ٢٠ قرية في منطقة كانت مستنقعات من قبل ، وتجددت هذه النشاطات في أواسط القرن الرابع عشر ، ويقال على سبيل المثال أن الأمير صرغيتمش أعاد بناء عمان في الأردن ، ووطّن الفلاحين هناك[٥٦] .

وقام بكل هذه النشاطات السلاطين وأمراؤهم ، نظراً لأن الغالبية العظمىٰ من الضياع الريفية ، كانت في حوزة الأمراء الاقطاعيين ، ولكن تغيراً هاماً في نظام حيازة الأراضي حدث في ظل أواخر عهد المماليك . فبينما كان عدد وحجم الأملاك الحرة في معظم المناطق محدوداً في بداية العصر المملوكي ، فإنها ازدادت كثيراً منذ أواسط القرن الرابع عشر ، إذ أن كثيراً من ضياع فرسان الحلقة بيعت للمدنيين ، فالخزانة باعت عن طيب خاطر الضياع الاقطاعية التي شغرت والضياع الأخرىٰ ، وفي وسط وشمال سورية كانت الأملاك الحرة كثيرة في بداية العصر المملوكي ، وعندئذ اشترى السلاطين أنفسهم الأراضي من الخزانة ، مثل كثير من القرى في الغوطة الخصيبة التي اشتراها الملك الناصر حسن في عام ١٣٥٩ ، وبالاضافة إلى

ذلك هناك زيادة كبيرة في أراضي الوقف التي كان معظمها في السابق ضياعاً إقطاعية ، ولكن هناك أيضاً ضياعاً كثيرة تحولت إلى أوقاف عائلية ، كما كانت وهناك قيود كثيرة في سجلات مساحة الأملاك العامة التي نسخها ابن جيان تقول أن الضيعة أصبحت وقفاً وهذا يؤكد هذا التغير الكبير ، وتزايد الوقف أصبح ظاهرة ملحوظة لدرجة أثارت غضب المماليك ، وجعلت أحد المتنافسين على العرش يعد بإلغائها ، ولا حاجة للقول بأن ملاّك الأراضي كانوا أكثر اهتماماً بضياعهم ، ولا ينسى المؤلفون العرب في القرن الخامس عشر التركيز على ذلك[٥٧] .

وتعني خصوبة تربة مصر الطبيعية ـ مثل بعض المناطق في سورية ـ وزيادة عدد ملاّك الأراضي أن كلا القطرين استطاع حتى نهاية حكم المماليك تصدير كميات كبيرة من المنتجات الزراعية ، فإذا تناقصت المساحة المزروعة الاجمالية ، كذلك تناقص طلب الأسواق المحلية ، وهكذا صدرت مصر القمح إلى الحجاز وكريت وقبرص ودا لماشيا ، وفي أوقات القلة إلى سورية ، وحتى في سورية كان القمح عادة وفيراً ، لدرجة أنها استطاعت تصديره إلى قبرص وأمكنة أخرى ، ومع هذا فإن سلع التصدير الزراعي هي القطن السوري والكتان المصري .

وتشير الوثائق في الأرشيف الايطالي ، التي تحوي معلومات تتعلق بالصادرات من مصر وسورية ، بكل وضوح إلى التغيرات في زراعة هذين القطرين خلال النصف الثاني من العصور الوسطى ، وتكمل المصادر العربية هذه المعلومات ، والتبدلان الرئيسيان في عصر المماليك البحرية ، هما توسع زراعة قصب السكر والقطن ، فزرع قصب السكر في مصر في مناطق كثيرة لم يزرع فيها سابقاً ، مثل منطقة الاسكندرية والفيوم ، ولا بد أن زيادة زراعة القطن كانت ملحوظة في كل مناطق سورية وفلسطين ، وتشهد على ذلك نصوص كثيرة في كتب الرحالة الأوربيين والأدلة الموجودة في مصادر أخرى[٥٩] .

وحدث في القرن الخامس تبدل آخر ذو أهمية بالغة في التاريخ الاقتصادي للشرق الأوسط وهو تراجع زراعة القمح بالمقارنة مع الشعير والحبوب الأخرى ، فخلال عهد المماليك البحرية بقي القمح الغذاء الرئيسي ، وقد وزع بيبرس وبرقوق القمح على الفقراء ، ولكن حوالي عام ١٤٩٠ بدأ الناس في القاهرة بأكل

خبز الدُخن والذرة ، في دمشق أخذ المدينـون يخزنـون الشعـير ، وحتى الحـاكم والأمراء قاموا بذلك ، ويكمل هذه التقارير التي يذكرها كتاب الحوليات العـرب المعلومات في التحريات المالية التركية التي جرت بعد استيلائهم على سورية . ففي كثير من مناطق فلسطين كانت محاصيل الشعير تساوي محاصيل القمح ، بل وحتى تزيد عنها : في بيت لحم ـ في إحدى قرىٰ سنجق غزة ـ في منطقة يافا ـ وفي خمس مناطق من سنجق صفد[٦٠] ، وهذا برهان واضح على الفقر ، إذ ليس هنـاك أي دليل على أن هذا التغـير حدث عبـر ازدياد تربية المواشي ، ويستـطيع المؤرخ الاقتصادي أيضاً تقديم سجلات أخرى تلقي الضوء على تدهور الزراعة في الشرق الأوسط في نهاية العصور الوسطىٰ ، خصوصاً سجلات استيراد زيت الزيتون من جنوب أوربا ، فبينما كانت سورية مصدرة لزيت الزيتون ، لم يعـد إنتاجهـا في أواخر العصر المملوكي يسد حاجاتها الخاصة ، وبالتأكيد لم يعـد يسـدّ حاجـات مصر ، وهكذا بدأ استيراد زيت الزيتون إلى مصر وسورية من دالماشيا وأبوليا وبرو فانس وقطالونيا[٦١] .

ه ـ الانهيار : وتشير كل هذه المعطيات إلى الحقيقة القائلة أن الفقر هو الظاهرة الرئيسية في اقتصاد الشرق الأوسط في نهاية العصور الوسطىٰ ، وباختصار توصـل أوصاف أوضاع العمال والبرجوازية إلى نفس النتيجة .

وكنتيجـة للهـروب من الأرض حدث تكدس بروليتـاري حقيقـي في المدن الكبرى ـ ألوف البروليتاريا المعدمة كانت بدون عمل دائـم ـ مستعـدون لتأجـير أنفسهم للثوار والانضمام إلى الأطراف المتحاربة ، وأضحى هؤلاء الفقراء فريسة سهلة للجائحات ، وقد عانىٰ كثير منهم من الأمراض المزمنة ، وأدنىٰ شريحة في هذه الطبقـة هي المسماة الحـرافيش ـ المتسولـون المتواجـدون قرب المسـاجـد والأمكنـة الأخرىٰ ، والذين تحالفوا مع بعض المجموعات من الدراويش ، ومن جهة أخرى تحسَّن وضع العمال المهرة بعد الموت الأسود والجائحـات اللاحقـة عندمـا تنـاقص عددهم كثيراً ، وكما هي العادة دائماً أدىٰ نقص القوىٰ العاملة إلى زيادة الأجور ، وحتى العامل الذي يكسب الأجر الأدنىٰ أصبح بإمكانه شراء ٣٠ كغ من اللحـم (بالاضافة إلى ٩٠ كغ من الخبز) شهرياً ، والصانع الماهر الذي كسب ـ ٦ أشرفي أصبح بإمكانه أن يقـدم لعائلتـه ٣٠ كغ من اللحـم (بالاضافـة إلى ١٢٠ كغ من

الخبز) ، ويوفر أكثر من ٣ أشرفيات للنفقات الأخرىٰ[٦٢] . ولكن الشريحة التي تتألف من هؤلاء الصناع كانت ضيقة جداً .

أما أوضاع البرجوازية الصغيرة فقد تدهورت كثيراً ، فقد أفقرتها السياسة المالية لحكومة المماليك ، لأنها تحملت في جميع الأوقات عبء الضرائب التجارية ، أو عانت منها أكثر من الطبقات الأخرىٰ ، ولكن المماليك استخدموا طرقاً أخرى لابتزاز الأموال منها ، وأكثر هذه الطرق إرهاقاً هي «الطرح» ـ الشراء الاجباري للمنتجات التي تمتلكها أو تصنعها الحكومة ، فقد أجبر التجار على شراء القمح والرز واللحم والغنم والماعز وزيت الزيتون والتمر والسكر والعسل والتوابل والصابون والأقمشة وحتى الجمال التي غنمتها الحكومة من البدو بأسعار عالية جداً. وهذه طريقة لجأت إليها كثير من الحكومات الاسلامية ، وأحياناً ألغيت هذه الصفقات التي دمرت التجار . ولكن سلطات المماليك استخدمت هذه الطريقة في الابتزاز المرة تلو المرة ، وحتى أنها حصلت على البضائع بالبيع الاجباري بأسعار رخيصة ، فحسب القانون الاسلامي كان يحق للسلطان تحديد الأسعار في حالات الطوارىء فقط ، ولكن المماليك قاموا بذلك في الأوقات الأخرىٰ أيضاً ، وغالباً ما تحمل التجار خسائر كبيرة عبر التحديد الاعتباطي للأسعار ، وكانت الطريقة الأخرىٰ لعرقلة حرية المشاريع التجارية هي احتكار السوق من قبل وكلاء الحكومة[٦٣] .

وحتىٰ البرجوازية الكبرىٰ أصبحت أقل غنىٰ مما كانت عليه في عهد المماليك البحرية ، فالسياسة الاحتكارية للسلاطين الجراكسة ، ومساهمة أمراء المماليك في النشاطات الصناعية والتجارية أدت إلى تدهور البرجوازية الكبرىٰ وأصبح بعض تجار الكارم وكلاء للسلطان بينما تعاون التجار الأغنياء الآخرون مع الأمراء ، الذين سيطروا على تجارة القمح ، وجلبت شحنات قمح كبيرة من الصعيد ـ أهراء مصر ـ إلى «شاطىء القمح» في بولاق إحدىٰ ضواحي القاهرة ووضعت في مخازن الأمراء[٦٤] وبالتالي أصبح مجال مشاريع التجار المدنيين أكثر محدودية من ذي قبل. ففي حوليات القرن الخامس عشر لا يقرأ المرء ـ كما يقرأ في حوليات عصر المماليك البحرية ـ عن تجار الكارم الذين كانوا رأسماليين كباراً باستطاعتهم إقراض مبالغ كبيرة للسلطان والأمراء الآخرين .

ولكن بدلاً من المجموعة الصغيرة من الرأسماليين الكبار ، ظهرت شريحة عريضة نسبياً من البرجوازية الغنية ، هذا هو التغيير الكبير في التباين الاجتماعي الذي حدث في مصر وسورية في النصف الثاني من القرن الرابع عشر ، والنصف الأول من القرن الخامس عشر ، ولم تحتكر حكومة المماليك تجارة الترانزيت العظيمة للتوابل الهندية ، كما لا يزال بعض العلماء يعتقد ، فرغم بذل المحاولات لاحتكار تجارة الفلفل ، ورغبة الحكومة في تحديد سعره ، فإنها بقيت حرة ، كما تشهد بذلك الوثائق الكثيرة في الأرشيف الإيطالي ، وبالاضافة إلى ذلك يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أن التجار الايطاليين أيضاً اشتروا كميات كبيرة من القطن في سورية ، حيث لم يوجد هناك أي احتكار ، وشكل تجار الأقمشة (البزا زون) ، وتجار الرقيق ، ومعهم تجار القمح ، طبقة من البرجوازية الغنية ذات النفوذ . وتاجروا أيضاً مع تركيا وبلدان الشرق الأوسط الأخرىٰ . ولكن ثروة البرجوازية أتت على الأرجح ، وبنفس المقدار من الأملاك العقارية . فالانحلال المستمر للنظام الاقطاعي مكّن البرجوازية الغنية من الحصول على جزء كبير من الضياع الريفية التي كانت إقطاعات ؛ وربما كان الدخل الذي حصلت عليه البرجوازية من ضياعها الريفية أكبر من دخلها من نشاطاتها التجارية[65] .

هناك الكثير من الأدلة على ظهور برجوازية جديدة كبيرة النفوذ . ففي المصادر العربية العائدة للقرن الخامس عشر يبدو التجار الأغنياء كإحدىٰ الطبقات الحاكمة ، لهم منظماتهم التعاونية وعلى رأسها شخص يسمىٰ شيخ التجار ، رغم أن هذه المنظمة كانت متراخية على النمط الشرقي . ومن الطبيعي أن لقب «الخواجة» أو «الخواجكي» الفخري الذي أطلق عليهم لا يرد له ذكر في كتاب إدارة الدولة الذي جمعه القلقشندي في عام ١٤١٠ ، رغم ظهوره في كتاب مشابه كتب أواخر عصر المماليك ، وهذا يرينا بوضوح التغير في الوضع الاجتماعي للبرجوازية الجديدة المتسلقة لسلّم الهرم الاجتماعي للدولة الاقطاعية المتدهورة فقد اقتنى هؤلاء البرجوازيون المماليك وأنشأوا المدارس (الكليات الشرعية) ، وفي بعض الأحيان عملوا بمثابة سفراء لحكومة المماليك[66] .

إلى جانب الارستقراطية الاقطاعية والتجار الأغنياء ، وجدت طبقة ثالثة كبيرة النفوذ في دولة المماليك المتدهورة هي الفقهاء. ففي نهاية العصور الوسطىٰ أصبحت

هذه الطبقة ـ التي جندت منها الحكومة القضاة والمدرسين وكبار الموظفين ـ أقوىٰ من السابق ، نظراً لأن المدارس المتعددة دربت أعداداً متزايدة من صغار المثقفين ، وهذه الطبقة من العلماء متميزة بوضوح عن شرائح المجتمع الأخرى ، نظراً لأن بعض المناصب صار وقفاً على نفس العائلة من جيل إلى جيل ، ثم إن هذه العائلات من القضاة والمدرسين كانت أرستقراطية ثقافية حقيقية . مكّنت الضباط المماليك الجهلاء من القيام بواجباتهم الحكومية ، ولكنهم كانوا بحاجة للمماليك أكثر مما كان المماليك بحاجة إليهم ، فرواتب الفقهاء سواء أكانوا قضاة أم مدرسين أتت في معظمها من الأموال التي قدمها المماليك[٦٧] .

وهكذا فإن الظروف للحركات الثورية في المدن لم تكن مواتية ، رغم أن كل السكان أصبحوا أشد فقراً نتيجة لسياسة حكومة المماليك ، وإن بروز برجوازية جديدة ـ رغم أنها أقل غنىً وقوة من البرجوازية القديمة ـ وتحسّن أوضاع الصناع المهرة عمل ضد الاتجاهات الثورية ، فالبرجوازية العليا والمثقفون كانوا بالضرورة معادين لأية محاولة لاسقاط النظام الاجتماعي القائم ، وبالاضافة إلى ذلك ، على المرء أن يتذكر أن كل طبقات المجتمع مشبعة بروح السنّة التي جعلت الثورة الاجتماعية المتحالفة مع الاتجاهات الطائفية أمراً لا يمكن التفكير به .

إن مرارة سكان المدن الذين عانوا من اضطهاد الجنود الأجانب ، وابتزاز البيروقراطية الفاسدة عبّرت عن نفسها بأعمال الشغب الجماهيرية ، والانفجارات الهامشية للمقاومة الشعبية ، ولكن لم تكن هناك أية حركات ثورية حقيقية .

وتحتوي حوليات المماليك الجراكسة كثيراً من الأخبار عن نشاطات ما يسمىٰ الزعار ، وهم البروليتاريون الذين شكّلوا عصابات حقيقية مشابهة لعصابات العيارين السابقة ، لقد طالبوا حتىٰ «بأموال الحماية» من التجار ، وأحياناً تمتعوا بتأييد أناس ينتمون إلى أعلى طبقات المجتمع ، ولكنهم بعكس العيارين لم تكن لديهم أية ايديولوجية ، إنهم ببساطة فقراء همهم الأول الحصول على أسباب الحياة بأية وسيلة ، وغالباً ما أجّروا أنفسهم لفئات المماليك التجارية ، أو حتىٰ تجندوا في قوات الحملات المرسلة ضد الثوار (كالبدو) ، ولكنهم عادة انغمسوا في النشاطات الاجرامية العادية ، أما البرجوازية أبغضتهم بشدة[٦٨] .

وفي الغالب تقدمت الطبقات الوسطى بالاحتجاجات ضد الضرائب الباهظة ، والاجراءات الأخرى التي اتخذتها سلطات المماليك ، وتظاهر أفرادها في المساجد أو هاجموا الموظفين ، ولكن المرء يجد أيضاً في الحوليات العربية أخباراً كثيرة عن الثورات في المدن السورية ، التي ساهمت فيها غالبيّة السكان . فمثل هذه الثورات اندلعت في عام ١٣٩٧ في الكرك ، وفي عام ١٣٩٩ وفي ١٤٠٠ في طرابلس وفي عام ١٤٠٨ في حماة ، وفي عام ١٤١٣ في حلب ، وفي عام ١٤١٨ في طرابلس من جديد وفي عام ١٤٣٩ في دمشق وفي عام ١٤٤٤ - ١٤٤٥ في حماة ، وفي الأعوام ١٤٤٨ و ١٤٨٠ و ١٤٨٤ و ١٤٩١ في حلب ، وفي عام ١٤٩٢ - ١٤٩٣ في دمشق ، أدت الثورات أحياناً إلى طرد الحاكم أو حتى قتله ، ولكن أقوال المؤرخين المعاصرين لا تترك مجالاً للشك في أن البرجوازية الغنية ابتعدت بنفسها عادة عن الجماهير الثائرة[٦٦] .

ونظراً لغياب جماهير عمال الصناعة عن المدن الكبيرة في سورية ومصر ، فإن هذه الثورات على العموم انفجارات متفرقة تعبيراً عن السخط الشعبي ، ولكن الطبقات البرجوازية التي قاومتهم عانت أيضاً من جشع المماليك ، وكانت على أتم الاستعداد لتأييد أسرة مالكة أخرى يمكن أن تحل محل الأولى ، وأن مصالحهم تكمن في النظام الاجتماعي القائم دون أن يكونوا مخلصين لحكومة المماليك ، وكلما هاجم أي جيش قوي المماليك ، كانت البرجوازية على أتم الاستعداد لنجدته .

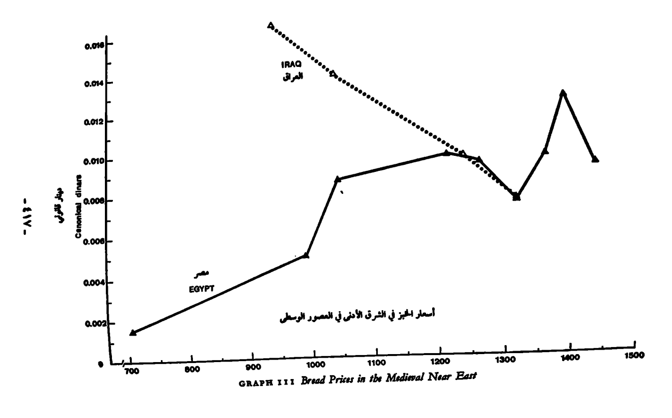
وفي الوقت نفسه تناقصت موارد حكومة المماليك باستمرار ، وبدأت المصاعب المالية بزعزعة قوة سلطان القاهرة العسكرية ، ففي بداية القرن الخامس عشر لم تستطع دور السك في مصر وسورية سك الدراهم الفضية . في عام ١٤١٢ سك نوروز حاكم سورية دراهم تحتوي ٥٠٪ فضة ونصف درهم من الفضة الخالصة ، ومن المرجح أنه استخدم فضة أواسط آسيا المتدفقة على الشرق الأدنى في أعقاب جيوش تيمورلنك ، أو عبر تقوية الروابط التجارية بعد فتوحاته ، وبعد ثلاث سنوات عاد السلطان المؤيد شيخ إلى القاهرة بعد قمع ثورة الأمراء ومعه كميات كبيرة من الفضة ، فسك قطع نصف الدرهم التي تحتوي أكثر من ٩٠٪ فضة . وسمى نصف الدرهم هذا بلقبه الفخري «المؤيدي» واستمر في كونه النقد الفضي في مصر وسورية ، كما سك كل خلفائه مثل هذه الدراهم ، وبقيت

نسبة صرف المؤيدي (المسمىٰ أيضاً النصف) ثابتة : ٢٣ ـ ٢٥ من أنصاف الدرهم تساوي ديناراً واحداً ، وأصدرت دور السك في سورية باستمرار النقود الفضية ، رغم أن معظمها من فئة الربع درهم ، ومن الواضح أن دور السك المملوكية حصلت بانتظام على الفضة من مناجم التيرول وسيبريا والبوسنة على أيدي تجار البندقية ، وأصبح ذلك ممكناً بعد التقدم الذي أحرزه التعدين الأوروبي في كل من حقل فصل المعادن المختلفة المختلطة بالفضة ، ومنع إغراق المناجم بالمياه الجوفية[٧٠] ، ولكن سك أنصاف وأرباع الدرهم بدلاً من الدرهم الكامل الوزن ، لا يدع مجالاً للشك في أن مخزون دور السك لم يكن غنياً ، كما كان في العصور السابقة .

هناك أعراض أخرى للفقر العام ، وتقلص مستوردات المعادن الثمينة ، والابطاء في تداولها . ومقارنة الضرائب المفروضة على الأعيان في النصف الثاني من القرن الرابع عشر بتلك المفروضة بعد مائة عام ، يقدم لنا دليلاً واضحاً على التغير العظيم الذي طرأ ، فحتىٰ في ظل أواخر السلاطين البحرية يغرم أحد الأعيان غالباً مبلغ ٢٠٠٠٠٠ ـ ٣٠٠٠٠٠ دينار ، أما في القرن الخامس عشر فلم تتجاوز المصادرات ٤٠٠٠٠ ـ ٦٠٠٠٠ دينار .

وارتفاع نسبة الفائدة أحد أعراض نقص النقد المتزايد ، فبينما تمكن المرء في أيام الصليبيين من الحصول في مصر على قرض مقابل فائدة ٤ ـ ٨٪ ، ارتفعت نسبة الفائدة في مصر وسورية في القرن الخامس عشر إلى ١٨ ـ ٢٤٪ .

ولم تتوقف إمدادات الذهب لدور السك المملوكية من غرب السودان ، ومع ذلك أجرى السلطان بارسباي إصلاحاًللدينار في عام ١٤٢٥ ، فلأول مرةفي تاريخ الشرق الأوسط الاسلامي جرىٰ تخفيض الدينار ، فبدلاً من الدينار القانوني الذي يزن ٤,٢٥ غرام جرىٰ سك دينار أقل وزناً (٣,٤٥ غ) كدوقاتية البندقية . وبقي هذا الدينار الجديد المسمىٰ «الأشرفي» حسب لقب بارسباي «الملك الأشرف» العملة الذهبية في مصر وسورية حتى نهاية عهد المماليك ، وقيل أن نية بارسباي كانت استبدال الدوقاتية ـ العملة المسيحية ـ التي أصبحت سائدة في كل أقطار الشرق الأدنىٰ بنقد إسلامي له نفس الوزن ، ومهما يكن الأمر ، يشير تخفيض الدينار إلى أن مخزونَ الذهب في دور السك المصرية قد تناقص ، وفي الحقيقة ليس هناك أي



GRAPH III *Bread Prices in the Medieval Near East*

شك في أن جزءاً كبيراً من ذهب غرب السودان في تلك الفترة انتقل إلى الأوربيين والجنوبيين والبرتغاليين ، ويقول الرحالة البندقي ألفيس دي كا دا موستو الذي جاب غرب السودان في عام ١٤٥٥ ـ ١٤٥٦ أن ذهب مالي يقسم إلى ثلاثة أقسام : قسم تنقله القوافل إلى مصر وسورية ، وقسم ثان يذهب عبر تمبكتو وتوات إلى تونس ، والقسم الثالث عبر وهران وفاس ومراكش إلى أرزيلا Arzila حيث يحصل عليه الايطاليون(٧١) . ونظراً لعدم وجود أي دليل على ازدياد إنتاج الذهب في غرب السودان ، فإن الكميات المتزايدة التي حصل عليها الأوربيون ، لا بد وأنها بالضرورة قللت مؤ ونة الشرق الأدنى ، وأضعفت سلطان القاهرة .

وازدادت كمية العملات النحاسية الموضوعة في التداول في مصر وسورية أثناء القرن الخامس عشر نتيجة لتناقص مخزونات الذهب والفضة في دور السك ، وتزايد إنتاج النحاس في بعض الأقطار الأوربية ، وفي عام ١٤٠٩ اكتشفت مناجم نحاس جديدة في شفاز وهال في التيرول ، وفي نهاية القرن الخامس عشر بدأت مناجم سلوفاكيا بتقديم كميات كبيرة من النحاس ، وقد بيع جزء كبير من إنتاج كل هذه المناجم ـ عبر البندقية ـ إلى دور السك المملوكية ، وأصبح البارونات التجار الألمان العظام (الفوغرز) وسطاء . وتحتوي حوليات أواخر العصر المملوكي على أخبار الصعوبات التي واجهتها حكومة المماليك في الحفاظ على معدل صرف العملات المعدنية في جو من التضخم ، وبينما حاولت الحكومات الأوربية الحفاظ على معدل صرف عملاتها الفضية ، اتخذ المماليك الاجراءات لإنقاذ عملتهم النحاسية ، وغالباً ما حددت الحكومة معدل صرف أعلى بكثير من القيمة الفعلية «للفلوس» أو أعطت أوامرها بصرف حسب الوزن بدلاً من العدد والعكس بالعكس ، وأدت هذه الاجراءات في الغالب إلى الأزمات الاقتصادية ، وأثبتت اخفاقها ، ويذكر كتاب الحوليات نقص الفضة وظاهرة التضخم التي سببتها وفرة العملات النحاسية .

ومن جهة أخرى ظهرت من وقت لآخر مجاعة عملات حقيقية ، ففي نهاية العقد الثالث من القرن الخامس عشر اختفت الدنانير (الاشرفية) نهائياً ، وحتى الدراهم قلما وجدت وبدلاً من النقود استعمل الناس القمح ، ومنذئذ أصبح اختفاء الدراهم ظاهرة متكررة ، وبالتالي كثيراً ما عجز السلطان عن تأدية الدفعات

بالذهب كما فعل سابقوه ، وحتى النقود النحاسية أصبحت أحياناً نادرة ، لأنها صدرت إلى الهند حيث كانت قيمتها أكبر[٧٢] .

وتبدو الصعوبات النقدية الكبيرة لسلطنة المماليك المتدهورة ـ للوهلة الأولى ـ مدهشة لأن ميزان المدفوعات في مصر وسورية ، لا بد وأنه بقي إيجابياً ، وهناك في الحقيقة أدلة واضحة على الزيادة الكبيرة في حجم تجارة الترانزيت الهندية خلال عهد السلاطين الجراكسة .

وفي نهاية القرن الرابع عشر جعلت بعض التغيرات في الظروف السياسية البحر الأحمر من جديد طريق التجارة الرئيسي بين الهند وجنوب أوروبا، ولا شك أن تدهور الأوضاع في إيران هو السبب الرئيسي لهذا التغيير ، ولكنه لم يكن السبب الوحيد ، وفي عام ١٤٣٤ استولى اهالي جنوه على فاماغوستا ، ولذلك اضطر البنادقة لمغادرة قبرص ، وفي عام ١٣٧٥ هزم المماليك مملكة أرمينية الصغرى ، ووضعوا حدا لتجارة لازاجو المزدهرة ، وفي تسعينات القرن الرابع عشر دمر تيمورلنك سراي واستراخان ، وهما المركزان التجاريان على الطريق البري العظيم من أواسط آسيا إلى البحر الأسود ، وهكذا اضطر البنادقه الأكثر نشاطاً في تجارة التوابل إلى العودة إلى موانىء مصر وسورية ، ومنذ ذلك الحين أصبحت الاسكندرية وبيروت المركزين الرئيسيين لهذه التجارة ، ومرة أخرى تقدم البنادقه و «الأمم التجارية» الأوروبية الأخرى من سلطان القاهرة طالبين الامتيازات التجارية ، ووقعوا معه المعاهدات المجزية ، وحصلت البندقية على مثل هذه الامتيازات في عام ١٤١٥ وعام ١٤٢٢ وعام ١٤٤٢ ، واشتدت كثافة ملاحة البندقية في شرق المتوسط . منذ عام ١٤٢٢ أصبح للسير بنيسيما Serenissima ثلاثة خطوط سفن شراعية مجدافية إلى شرق المتوسط : منذ ١٤٦١ الخط المسمى دي ترافيكو وصل تونس مع الاسكندرية ، أما فلورنسا التي اتصلت بالمماليك في بداية القرن الخامس عشر ، فقد حصلت في عام ١٤٢٢ على حق تعيين قناصل لها في الاسكندرية ودمشق ، وحصلت على امتيازات جديدة في عام ١٤٨٩ ، وعام ١٤٩٦ وعام ١٤٩٧ ، ولكن المدن الإيطالية الأخرى حصلت على نصيبها في تجارة شرق المتوسط العظيمة . عينت حكومة جنوه قناصل لها وافتتحت نزلاً في الاسكندرية وبيروت ودمشق ، وأرسلت بانتظام سفناً شراعية مجدافية وسفناً دائرية

round ships إلى مصر وسورية ، وأقامت أنكونا ونابولي جاليات وقناصل في الاسكندرية في نهاية القرن الرابع عشر والنصف الأول من القرن الخامس عشر . أما النشاطات التجارية للأمم الأخرىٰ فهي أقل انتظاماً ، في نهاية القرن الرابع عشر أرسل القطالاينون ٣ ـ ٥ سفن شراعية مجدافية كل سنة إلى مصر وسورية ، ولكن علاقاتهم مع سلطنة المماليك تدهورت فيما بعد ، ونشط تجار مرسيليا أيضاً في التجارة مع مصر وسورية في ثمانينات القرن الرابع عشر ، وبعد بعض الانقطاع في بداية القرن الخامس عشر ، وفي عقده الرابع ، ولكن حركة «سفن فرنسا الشراعية المجدافية» أصبحت منتظمة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر . وحتى تجارة راغوسا في شرق المتوسط تزايدت بانتظام ، فتجار المركز التجاري الدلماشي صدروا إلى الاسكندرية وبيروت الفضة والرصاص والأقمشة والمرجان والعسل والسلع الأخرى(٧٣) .

والمعلومات التي نجدها في مصادر البندقية ، حول تجارة السير ينيسيا مع سورية ومصر توضح الازدياد الكبير في حجمها . قال الدوتش توماسو موسينيغو (١٤١٤ ـ ١٤٢٣) في خطاب ألقاه قبل موته أن البندقية أرسلت ٣٠٠,٠٠٠ دوقات نقداً كل عام إلى شرق المتوسط . وفي الكرونيكا مورو سيني يجد المرء مبلغاً أكبر (٤٦٠٠٠٠ دوقات) يعود إلى عام ١٤٣٣ . ولكن في تلك السنة تجددت تجارة شرق المتوسط بعد انقطاع بسبب الصراع العسكري . وتذكر إحصائيات نهاية القرن الخامس عشر مبلغ ٣٠٠,٠٠٠ دوقات (٧٤) . ولكن البنادقة دفعوا نقداً لجزء فقط من التوابل والقطن الذي اشتروه من مصر وسورية ، بينما حصلوا على جزء كبير منها بالمقايضة . ومن المعطيات الخاصة بأهم السلع التي صدروها من مصر وسورية يظهر نموذج أكثر وضوحاً ، فالحسابات التالية مبنية على المعطيات التي تحتويها الوثائق في أرشيف فرانشيسكو دايتني ، الذي نظَّم جهاز استخبارات رائع في نهاية القرن الرابع عشر في تقرير لقنصلية البندقية في الاسكندرية ، وفي «المذكرات» البندقية في أواخر القرن الرابع عشر .

قيمة مشتريات البندقيين في الاسكندرية وبيروت

١٣٨٢	فلفل	الاسكندرية	٤٠٨٠٠	دينار
	زنجبيل	الاسكندرية	٧٠٨٠	دينار
		المجموع :	٤٧٨٨٠	دينار

١٣٩٦	فلفل	الاسكندرية		٩٤٣٥٠	دينار
		بيروت		٤٢٠٩٠	دينار
	زنجبيل	الاسكندرية		٢٤٠٠٠	دينار
		بيروت		٣٠٩٠٠	دينار
			المجموع :	١٩١٣٤٠	دينار
١٤٠٤	فلفل	الاسكندرية		٩٠٧٢٠	دينار
		بيروت		٥٦٨٩٢	دينار
	زنجبيل	الاسكندرية		١٤٨٠٠	دينار
		بيروت		٤٦٠٠٠	دينار
			المجموع :	٢٠٨٤١٢	دينار
١٤٠٨	فلفل	الاسكندرية		٥٣٠٢٥	
	زنجبيل	الاسكندرية		١٠٠	
			المجموع :	٥٥١٢٥	دينار
١٤١٩	فلفل	الاسكندرية		١١٤٧٧٠	دينار
١٤٩٦	فلفل	الاسكندرية		١٠١٨٤٠	دوقات
		بيروت		٧٢١٥٠	دوقات
	زنجبيل	الاسكندرية		٦٠٠٠٠	دوقات
		بيروت		١٤٩٨٧	دوقات
			المجموع :	٢٤٨٩٧٧	دوقات
١٤٩٧	فلفل	الاسكندرية		١٤٩٠٠٠	دوقات
		بيروت		٣٢١٧٥	دوقات
	زنجبيل	الاسكندرية		٩٠٠١٦	دوقات
		بيروت		٢٧٧٠٠	دوقات
			المجموع :	٢٩٨٣٩١	دوقات
١٤٩٨	فلفل	الاسكندرية		١٣٠٢١٨	دوقات
	زنجبيل	الاسكندرية		٧٤٢٢٠	دوقات
			المجموع :	٢٠٤٤٣٨	دوقات

والمعطيات الخاصة بكميات الفلفل والزنجبيل ـ وهما أهم التوابل ـ ترينا بوضوح أكبر الاختلاف الكبير بين التجارة في نهاية القرن الرابع عشر والتجارة بعد مائة عام .

صادرات الفلفل والزنجبيل من الاسكندرية

التاريخ	الفلفل	الزنجبيل
١٣٨٢	٦٧٩ سبورتا (٢٢٥ كغ)	٤٧٢ قنطار فلفل (٤٥ كغ)
١٣٩٦	١٢٥٨	٨٠٠
١٤٠٤	١٤٤٠	٧٠٤
١٤٠٨	٧٠٧	٢٠
١٤٩٦	١٥٢٠	٤٨٠٠
١٤٩٧	٢٠٠٠	٦٢٠٨
١٤٩٨	١٥٨٨	٥٦٧٢

ونظراً لأن أثمان هذه الكميات الكبيرة من التوابل فاقت مبالغ المال التي جلبها البنادقة إلى موانىء مصر وسورية ، فعلينا أن نستنتج أن الواردات أيضاً ازدادت كثيراً خلال القرن الرابع عشر . وتحتوي حوليات البندقيةالمكتبية في بداية القرن السادس عشر على معلومات قيمة حول تصدير سلعة معينة واحدة ـ النحاس ـ ونحن نسجلها في الجدول التالي بعد إضافة القيمة[٧٥] :

استيراد البنادقة للنحاس

١٤٩٥	الاسكندرية	٥٥٠٠ قنطار جروي	٣٥٧٥٠	دوقات
١٤٩٦	الاسكندرية	١٠٠٠٠	٦٥٠٠٠	
	بيروت	١٥٠٠	٩٧٥٠	
١٥٠١	الاسكندرية	٤٠٠٠	٢٦٠٠٠	

تظهر حساباتنا[٧٦]ـ التي لا تتضمن مشتريات القطن السوري ـ وبصورة مقنعة أن ميزان المدفوعات لتجارة شرق المتوسط ، لا بد وأنها كانت إيجابية لصالح سلطنة المماليك ، رغم أنها أقل إيجابية مما يعتقد الكثيرمن المختصين ، ولكن صحيح أيضاً أن سلطنة المماليك أنفقت في كل سنة مبلغاً كبيراً من العملات الذهبية لشراء الأرقاء للجندية ، من البلدان المحيطة بالبحر الأسود ، وأمكنة أخرىٰ ، واستوردت التوابل للسوق المحلية ، لكن الحصول على الذهب ـ مقابل المنتجات الرخيصة في غرب السودان مثل الملح والودع ـ بدّل الميزان التجاري لسلطنة المماليك لدرجة جعلته إيجابياً على الدوام .

ولكن بالرغم من الامدادات الدائمة من الذهب السوداني ، وميزان المدفوعات الايجابي ، فإن اقتصاد سلطنة المماليك تهاوى في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، وحدث الانهيار عندما كانت قوة عسكرية نشيطة تتوسع باستمرار في الشرق الأوسط وجنوب أوروبا، وتهدد عرش سلطان القاهرة ، وكان الانهيار الاقتصادي أحد الأسباب الرئيسية للسقوط السياسي والعسكري .

إن التدهور البطيء للصناعة المصرية، وتكديس منتجات أوروبا والشرق الأقصى بالتأكيد شغل دوره في هذا الانهيار ، كما أن بذخ الطبقة الاقطاعية الحاكمة المسرف هو سبب آخر . وترينا الروايات الكثيرة في حوليات القرن الخامس عشر أن الأمراء أنفقوا بسخاء مبالغ كبيرة من المال على أسرهم رغم الصعوبات الاقتصادية الكبيرة ، وكان تكديس الذهب والفضة دائماً نتيجة لنظام المصادرة في الحكومات الاسلامية ، وهناك سبب وجيه للاعتقاد أن أفراد الطبقات الغنية ـ في ظل نظام المماليك الجشع ـ كانوا ميالين لإخفاء ثرواتهم ، وتشهد على ذلك . حوادث المصادرة[٧٧] .

وسبب رئيسي آخر للسقوط ، هو ميزانية سلاطين القاهرة العسكرية، حيث ترينا روايات المؤرخين العرب أن المبالغ التي توجب على السلاطين الجراكسة دفعها لجندهم ـ بالإضافة إلى دخلهم من ضياعهم الاقطاعية ـ تزايدت باستمرار ، فالمبالغ الكبيرة المدفوعة للمماليك في المناسبات المختلفة كانت في القرن الخامس عشر أكبر بكثير من السابق ، ففي النصف الأول من هذا القرن توجب على السلطان أن يدفع ـ قبل أية حملة عسكرية ـ ٠٠٠ , ٤٠٠ ـ ٠٠٠ , ٦٠٠ دينار إلى مماليكه . وأنفق السلطان جقمق (١٤٣٨ ـ ١٤٥٣) ٣ ملايين دينار على حروبه ورواتب جنده خلال السنوات الثلاثة الأولى من حكمه .

وفي هذه الأثناء وصل البرتغاليون إلى جزيرة أرجوين في عام ١٤٤٥ ، ونفذوا إلى السنغال ووصلوا الى الرأس الأخضر وغامبيا . وبعد منتصف القرن الخامس عشر بوقت قصير بدأوا بالاستيلاء على كميات كبيرة من الذهب السوداني . وأحست مصر بالعواقب ، إذ أن عدة نصوص في حوليات تلك الفترة تذكر فقدان الذهب من الخزانة المصرية .

وفي نفس الوقت بدأت الخصومة بين العثمانيين والمماليك ترمي بظلها على بلاط السلطان ، وعاشت القوتان المسلمتان بوفاق تام لفترة طويلة ، وعندما بدأ العثمانيون بتوسيع سلطانهم إلى المناطق الجنوبية من آسيا الصغرىٰ ـ ساندوا إمارة البستان التركمانية . فشنّ أمير البستان الميال للحرب سوار شاه الحرب ضد المماليك ، وفي نهاية ستينات وبداية سبعينات القرن اضطر المماليك لإرسال الجيوش ضده من مصر المرة تلو الأخرىٰ ، يقول كاتب سيرة السلطان قايتباي العربي (١٤٦٨ ـ ١٤٩٦) أنه أنفق منذ اعتلائه العرش حتى نهاية كانون الثاني ١٤٧٣ مبلغ ٣,٧٧٦,٠٠٠ دينار على الحروب المنح للجيش وإقامة الابنية المختلفة ، وهذا المبلغ لا يتضمن المرتبات النظامية للجيش ، وفي عام ١٤٧٢ اضطر قايتباي لاتخاذ اجراءات جذرية للحفاظ على توازن ميزانيته ، فقد دعا كبار أعيان مملكته إلى اجتماع ، وأخبرهم بأنه لا يستطيع الاستمرار في تلبية مطالب الجيش . ونظراً لمضاعفة موازنة الجيش قال : أنه ليس لديه أي خيار سوىٰ إلغاء دفع التقاعد لمجموعات عديدةمن الجنود والمدنيين. وفي ثمانينات القرن اضطر السلطان ثانية لإرسال القوات ضد تركمان البستان ، اللذين يساندهم العثمانيون ، وأخيراً لم يعد العثمانيون والمماليك يتحاربون عبر الدول الحليفة ، لكنهم شنوا الحرب على بعضهم بعضاً ، في عهد قايتباي حدثت أربع حروب بين القوتين المسلمتين ـ ١٤٨٣ ، ١٤٨٥ ، ١٤٨٨ ، ١٤٩٠ ، ورغم أن المماليك أحرزوا انتصارات كبيرة في هذه الحروب ، فإن ذلك شكل عبئاً كبيراً على اقتصادهم ، ويقول مؤ رخ عربي موثوق : إن قايتباي أنفق ٧٠٦٥٠٠٠ دينار على حروبه الستة عشرة ، ولتغطية هذه النفقات الهائلة لجأت حكومته إلى مختلف الوسائل ، فقبل تسيير حتى الحملات الصغيرة فرضت الحكومة الغرامات على بعض الطبقات من السكان ، أو على بعض أحياء المدن الكبرى ، وغالباً ما جمعت ضرائب كبيرة من الملكيات الخاصة ، والأوقاف ، وغالباً ما خفضّت تقاعد المدرسين والأرامل والآخرين[٧٨] .

إن اكتشاف الطريق البحري إلى الهند كان بدون شك ضربة مروعة لاقتصاد دولة المماليك ، فالذي خافه سلاطين القاهرة لعدة قرون وحاولوا تجنبه ، تم انجازه على يد البرتغاليين الجسورين الاكفاء . عندما أصبحت التوابل نادرة في أسواق الاسكندرية وبيروت ، واضطر البنادقة للذهاب إلى لشبونة لشرائه ، وبدا أن

ناقوس الموت يقرع لسلطان المماليك ، وجهودهم لشن حرب ضد البرتغاليين في المحيط الهندي أضافت عبئاً آخر على اقتصاد مصر وسورية المتداعي ، وتوجب على الطبقات المدنية تحمل الأعباء . وهكذا فإن دعاة العثمانيين واجهوا مهمة سهلة عندما أتوا لتحريض سكان سورية ضد المماليك، وأمسى السوريون منهكين من حكمهم وأصغوا بلهفة لهذه الاقتراحات ، وعندما دخل الجيش العثماني إلى سورية في عام ١٥١٦ ، وبعدها الى مصر لم يواجه مقاومة عنيفة ، وربح العثمانيون المعركة الحاسمة قرب حلب نظراً لتفوقهم التقني ، وإذ توفرت لديهم المدفعية الكثيرة الحسنة التنظيم ، بينما مارس المماليك أساليب حربية تركية عتيقة مع الرماة والكره لاستعمال الأسلحة النارية ، وعبثا حاولوا فيما بعد الحصول من البندقية على المدفعية ، التي يحتاجون إليها حاجة ماسة لمحاربة البرتغاليين في المحيط الهندي ، ولكن بغض النظر عن ذلك لم يتمكن أسطولهم من مقاومة السفن البرتغالية ، لأنه كان في مرتبة أدنىٰ من الناحية التقنية ، وسرعان ماغرقت سفنه بسهولة[٣٩] .

وتطلع سكان المدن السورية والمصرية نحو مستقبل أفضل بعد أن أدركوا عجز المماليك ، استولىٰ العثمانيون على القاهرة ، وأصبحت مصر وسورية ولايات في امبراطوريتهم ، وتم نقل آخر خليفة عباسي إلى القسطنطينية .

تلك هي نهاية ما كان في يوم من الأيام زهرة الحضارة في غرب آسيا وعالم البحر المتوسط ، وتدمر اقتصاد الشرق الأوسط المزدهر على يد العسكرية الجشعة ، وتحطمت انجازاتها الحضارية العظيمة ، بسبب العجز عن تبني طرق جديدة في الإنتاج ، وطرق جديدة في الحياة .

الفصل الثامن

ATALAY- ١

AYALON

AYALON

٢ - المقريزي - السلوك - ١ ص ٥٠٩

المقريزي - السلوك - ٢ ص ٢١٦

ابن فضل الله العمري - التعريف (القاهرة ١٣١٢) ص ٩٣ ٢٠٦

POLIAK- ٣

POLIAK- ٤

AYALON

ASHTOR

ASHTOR- ٥

عبد الباسط بن خليل - نيل الأمل - مخطوط مكتبة أوكسفورد ٨١٢ ورقة ٢٢٠ ب

عبد الباسط بن خليل - الرد من الباسم - مخطوط - مكتبة الفاتيكان ٧٢٩ ورقة ٢٤٩ ب .

وهكذا لا يمكن إنكار وجود مثل هذه النقابات كما فعل بعض العلماء .

LAPIDUS- ٦

ابن الوردي - تاريخ (القسطنطينية ١٣٢٥) ٤ - ص ١٤٠ خليل بن شاهين الظاهري - زبدة كشف الممالك (تحقيق رافيز) ص ١٠٥ ابن خلدون - العبر - ٥ ص ص ٤٣٦ - ٤٤٠

ابن خلدون - العبر - ٦ ص ٦ - ١١

نيل الأمل ٨١٢ ورقة ٣٣٥ آ ، ٣٥٠ ب

ابن طولون - مفاكهة الخلان - ١ (القاهرة ١٩٦٢) ص ص ٩٨ ، ١٠٤ ، ٢٢٥ ومابعدها ، ٢٦٤ ، ٣٤٤ ، ٣٨٥

مجير الدين العليمي - تكملة تاريخ القدس - مخطوط مكتبة بودليان ٨٥٣ ورقة ٢١٩ آ وما بعدها

GAUDEFROY

TRITTON

٨ - ابن كثير - ١٤ ، ص ١٩٥

ابن طولون المصدر السابق ص ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ١١٠ ، ٢٠٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٢٥٦ ، ٣٣٧

POLIAK

العليمي - تاريخ - مخطوط - المتحف البريطاني - الملحق ٤٨٨ ورقة ١٤٣ آ

٩ - حول عشائر بدو مصر انظر القلقشندي - صبح الأعشى - ٤ ص ٦٧ ومابعدها

POLIAK

١٠ - السلوك ١ - ص ٣٨٦ ومابعدها صبح الأعشى ٤ - ص ٦٨

١١ - السلوك ١٠ ص ص ٤٧١ ، ٦٨٩ ومابعدها ، ٦٩٩

الكتبي - عيون التاريخ - مخطوط - كمبرج ٦٩٩ ورقة ١٠٩ ب ، ١١٠ ب ، ١١١ ب

ابن اياس - ١ ص ٢٠٠

ابن خلدون - ٦ ص ١٠

١٢ - نيل الأمل ٨١٢ ورقة ٦٧ ب ، ١٢٤ آ ، ١٦٧ آ ، ٢٣٦ آ ، ٢٧٠ آ

أحمد البيروتي مخطوط - بودليان ٧١٢ ورقة ١٢٣ ب ، ابن اياس - ١ ص ص ٢٤٩ ، ٢٥٦ ، ٣٤٨ .

ابن اياس - ٢ ص ٣٤٦

ابن تغري بردي - النجوم الزاهرة (تحقيق بوبر) - ٧ ص ١٤٢

ابن طولون - ١ ص ٢٤٠

ابن الشحنة - الدر المنتخب (بيروت ١٩٠٩) ص ١٥٩

١٤ - الكتبي - فوات الوفيات (القاهرة ١٢٨٣) - ١ ص ٨٣

النجوم الزاهرة (طبعة القاهرة) - ٧ ص ١٨١

BROCKELMANN

اليونيني - ذيل مرآة الزمان - ٣ ص ٤٣٤

السلوك - ١ ص ص ٦١٣ ، ٧٣٩ ، ٨١٨

الخطط - ٢ ص ٢٢

ابن حجر - الدرر الكامنة - ٢ ص ٤٠٦ ، ٤١٠

الدرر الكامنة - ٣ ص ٣٢٧ ومابعدها

الدرر الكامنة - ٤ ص ص ١٢ ومابعدها ، ٢٣ ، ٢٥٧

السبكي - طبقات الشافعية (القاهرة ١٣٢٤) - ٦ ص ٢٣

الصفدي الوافي (استنبول ١٩٣١ ومابعدها) - ٤ ص ص ١٨٧ ، ٢٦٢ ، ابن كثير - البداية - ١٣ ص ٣١٠

ابن العماد - شذرات الذهب - ٥ ص ص ٣٣٢ ، ٣٥٩ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٤١

KUHNEL - ١٥
بالتأكيد أنه من الممكن أن بعض هؤلاء الصناع أتوا الى سورية ومصر قبل غزو التتار للعراق

RICE

١٦ - اليونيني - ٣ ص ٣٠ ، ،
ابن الفرات - تاريخ الدول والملوك (بيروت ١٩٣٦ - ١٩٤٢) - ٧ ص ٢٠٣ وما بعدها
السلوك - ١ ص ٤٠٧ ، ٤١١ ، ٤٦٨ ، ٤٧٣ وما بعدها ، ٤٧٧ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥١١ ، ٥١٥

الخطط - ٢ ص ٢٢ وما بعدها ، ١١٧
أبو الفداء - المختصر (القاهرة ١٣٢٥) - ٤ ص ٣٣

ZETTERS TEEN

POLIAK

AYALON

١٧ - السلوك - ١ ص ص ٤١٦ ، ٤٢٣ ، ٤٧٣
المفضل بن أبي الفضائل - النهج السديد (تحقيق بلوخت) ص ص ٥٣٧ ومابعدها ، ٥٣٩ ومابعدها ٥٤٣ ومابعدها .
النجوم الزاهرة (طبعة القاهرة) - ٨ ص ١٣١ وما بعدها

YAARI

السلوك - ١ ص ٤١٠ ، ٦١٢ ، ٨١٤
اليونيني - ١ ص ٩١
ابن الوردي - ٢ ص ١٩٩
ابن الفرات - ٧ ص ١٠
الذهبي - تاريخ الإسلام مخطوط - المتحف البريطاني - الملحق ٤٦٨ ورقة ١١٧ آوما بعدها
ابن كثير - ١٣ ص ٢٠٤

KREMER ما يقوله كريمر (الأوبئة ص ص ٦٢ - ٦٧ ومابعدها) خاطيء . ففي رأيه كان هناك وباء في مصر في عام ١٢٥٨ بينما لا يذكر أن سكان فلسطين في عام ١٢٧٤ ماتوا من أمراض مختلفة .

Demographic - ١٩
لدى الحساب تبعاً لعدد الأفدنة المزروعة في بداية القرن الرابع عشر يصل وسل الى تقديرات الى أعلى - بالتحديد ٤ - ٤,٥ مليون Population

٢٠ - اليونيني - ٣ ص ٢٦١

CLERGET

SAUVAGET

ASHTOR - ٢١

٢٢ ـ نفس المصدر

٢٣ ـ نفس المصدر . التجارب التي قام بها بالوغ أن دراهم بيبرس تتراوح بين ٦٥,٢ ٪ و ٧٨ ٪

History

ولكن بالوغ يشير في مكان آخر الى سبيكة فضية أعلى لدراهم بيبرس بالتحديد ٦٦ - ٧٧ ٪ مقابل ٦٨ - ٧٢,٥ ٪ لدراهم الملك الناصر محمد

Coinage

النتائج التي توصل إليها باشاراش - غوردس مختلفة . إنهما يشيران الى سبيكة فضية أقل وبالتحديد ٥٦,٢ ٪ لدراهم بيبرس و ٦٦,٥ ٪ لدراهم سلامس و ٦٦ ٪ لدراهم قلاوون و ٦٥,٤ ٪ لدراهم الملك الأشرف خليل

Studies

لا شك أن الاختلاف في هذه النتائج يعود الى أن هؤلاء العلماء فحصوا عدداً محدوداً من الدراهم .

BALOG - ٢٤

٢٥ ـ صبح الأعشى ـ ٣ ص ٤٤٧

٢٦ ـ ASHTOR . الجدول وما يليه لا يشير الى أسعار غالية جداً كما في حالة المجاعات

ASHTOR - ٢٧

ASHTOR - ٢٨

Salari

Secreta - ٢٩

HEYD - ٣٠

Histoire

KREKIC

WIET - ٣١

Letter

ASHTOR

STRAUSS

ابن الوردي ـ ٤ ص ١٤٦

الكتبي - عيون التواريخ - مخطط كمبرج ٦٩٩ ورقة ٥٩ أ ب ومابعدها .
٣٢ - انظر النصوص العربية التي ترجمها فييت في أمكنة مختلفة .

Grand

Orientalia

DOLS

KREMER - ٣٣

عبد الباسط بن خليل - نيل الأمل - مخطوط - بودليان ٨٠٣ ورقة ٧١ آ ، ٨٦ ب ، ١٣٩ آ بودليان ٨١٢ ورقة ١٢٥ ب ،١٢٨ آ وما بعدها ، ٢٠٢ ب ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ آ ، ومابعدها، ٢١٠آ وما بعدها ، ٢١٥ ب ، ٢٧٤ ب ، ٢٧٥ ب ، ٢٧٦ ب وما بعدها

نفس المؤلفات - الروض الباسم - مخطوط الفاتيكان ٧٢٩ ورقة ٢٠ آ وما بعدها ، ٢٠٢ آ وما بعدها ، ٢٠٨ ب .

ابن حبيب - درة الأسلاك - مخطوط - بودليان ٧٣٩ ورقة ١٧ ب ، ٦٠ آ ، ١٨١ آ وما بعدها ، ٢١٤ ب .

البيروتي - مخطوط - بودليان ٧١٢ ورقة ٣٧ آ

منتخبات ابن قاضي شهبة - مخطوط المتحف البريطاني ١٢٤٠ ورقة ٧٥ ب

ابن حجر - ابناء الغمر - ٢ ص ٤٨٢

المقريزي - السلوك - ٤ ص ص ١٠٢٥ ، ١٠٢٧ ومابعدها ، ١٠٣١ ، ١٠٤١ ، ١٠٤٦ ، ١٠٤٨ ومابعدها

ELIYAHU

السخاوي - ذيل دول الاسلام - مخطوط - بودليان ٨٥٣ ورقة ١٢ آ ، ٣٦ ب ، ١٩٨ ب وما بعدها .

مجير الدين العليمي - تاريخ - مخطوط - المتحف البريطاني - الملحق ٤٨٨ ورقة ١٣٨ ب

نفس المؤلف - مخطوط الفاتيكان (عربي) ٢٧٣ ورقة ٤٨ ب ، ٧٩ آ وما بعدها ، ١٠٢ ب وما بعدها .

SANUTO

FABRI

Cosmographia - ٣٤

الخطط - ١ ص ٤٤

٣٥ - الخطط - ١ ص ٧٣

ابن تغري بردي - حوادث ص ٣٢٣

عمر طوسون - مذكرات ص ١٢٩ وما بعدها .

ابن مماتي - قوانين الدواوين ص ٣٠
مجموع الأرقام التي يذكرها ابن جيان (التحفة السنية - القاهرة - ١٨٩٨) لكل مناطق مصر .
المصدر السابق ص ٣ (لعام ١٣٧٥)
النجوم الزاهرة (تحقيق بوبر) - ٦ ص ٧١٧

٣٦ - Bertrandon
LAPIDUS
MANTRAN
٣٧ - Voyages
Bertrandon
GUMPENBERG
BREYDENBACH
FABRI
GUGGLINGEN
ADLER
HARFF
Voyage

الخطط - ٢ ص ص ٢٨، ٣٥ وما بعدها، ٥٣ ، ٧٧ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٦١ ، ١٩٧ ، ٢٦٩ ، ٣٤٦
وما بعدها ، ٤٢٥ ، ٤٤٤
DARRAG
٣٨ - CLERGET
BARKAN
٣٩ - Traité
ASHTOR
٤٠ - المقريزي - المصدر السابق ص ٤٥ وما بعدها .
عبد الباسط - النيل - مخطوط - بو دليان ٨٠٣ ورقة ١٩٥ ب ، ١٩٦ ب ، ١٩٩ آ ، ٢٠٢ آ
٤١ - الخطط - ١ ص ٩٦
٤٢ - الاسكندرية - الجزري - جواهر السلوك - مخطوط - باريس ٦٧٣٩
ورقة ١٧١ ب وانظر ايضا ادناه رقم ٤٥ . الأرقام التي يذكرها بيولوتي (٨٠٠٠٠) مبالغ فيها .
Traité

دمشق ـ حمص : GAUDEFROY

FRESCOBALDI

KREKIC

٤٣ ـ الخطط ٢ ـ ص ٦١ ، ٢٣١ ، ٣٦٩

HEERS

Histoire

السلوك ـ ١ ص ٣٨٣ وما بعدها .

ASHTOR

٤٤ ـ الصابون : الدمشقي ـ نخبة الدهر (تحقيق ميرين) ص ٢٠٠

ابن بطوطة ـ ١ ص ١٤٥

LAPIDUS

الخطط ـ ١ ص ٣٦٧

ASHTOR

صبح الأعشى ـ ٢ ص ٤٧٦

الزجاج : HEYD

LAMM

٤٥ ـ الخطط ـ ٢ ص ص ٣٢ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٦٧ ، ٢٢٨

Traité

النجوم الزاهرة ـ ٦ ص ٧١٤

ابن دقماق ـ الانتصار ـ ٤ ص ٤١ وما بعدها (قارن الخطط ـ ١ ص ٣٤٤)

العدفوي ـ الطالع السعيد (القاهرة ١٩٦٦) ص ص١٣، ١٨، ٣٩ (قارن الخطط ـ ١ ص ٢٣٢)

٤٦ ـ يحيى العش ـ مذكرات ـ مجلة المجمع العربي ـ ١٨ (١٩٤٣) ص ١٥٢

ابن طولون ـ مفاكهة الخلان ـ ١ ص ١٤٦

PILOTI

KREKIC

السلوك ـ ٤ ص ١٢١١

٤٧ ـ السخاوي ـ الضوء اللامع ـ ٣ (من المرجح ان الطاحونة سميت فارسية لوجود مثل هذه الطواحين في اذربيجان والمناطق المجاورة ـ انظر WIEDERMANN)

THENAUD

WHITE

الخطط ـ ١ ص ٢٣٩

الخطط - ٢ ص ص ٣٢ ، ٩٨ ومابعدها .

صبح الأعشى - ٤ ص ١٨٣

حول الطراز في الاسكندرية في القرن الرابع عشر انظر السلوك - ٢ ص ٢٨٥

Histoire

PETION

WHITE

LIPSON

CARRERE

SOBERNHEIM

ASHTOR

ابن خلدون - المقدمة (ترجمة روزنتال) - ٢ ص ٦٦ وما بعدها .

ASHTOR

ASHTOR

٤٨ - المقدمة (ترجمة روزنتال) - ٢ ص ٤٦

LAPIDUS

صالح بن يحيى - تاريخ بيروت (بيروت ١٩٢٧) ص ١٠٧ وما بعدها

BRASCA

WEIT

SANUTO

HEERS

SCANLON

٤٩ - QUATREMÈRE

SANUTO FRESCOBALDI CARRÈRE

PILOT

GUMMPEN BERG

UZZANO

Libro

CASOLA

WANSBROUGH

WANSBROUGH

SANUTO

٥٠ - Histoire

عبد الباسط ـ النيل ـ مخطوط ـ بودليان ٨١٢ ورقة ٢٤٥ آ
السخاوي ـ ذيل ـ مخطوط ـ بودليان ٨٥٣ ورقة ٢٠٧ آ
بقدر الامكان يحتوي الجدول على معلومة تعود الى الربيع وأخرى الى الخريف والشتاء
٥١ ـ مخطوط ـ المتحف البريطاني ـ شرقي ٦٨٥٤ ورقة ٣٩٧ آ
٥٢ ـ Histoire
٥٣ ـ نفس المصدر
ASHTOR
٥٤ ـ الدمشقي ص ١٠٩
عبد الباسط ـ النيل ـ مخطوط ـ بودليان ٨٠٣ ورقة ٣١ آ ، ١١٩ ب ،
السلوك ـ ٢ ص ٨٤٣
الخطط ـ ١ ص ٦١
النجوم الزاهرة ـ ٦ ص ٢٧٢
الحوادث ص ١٠٨
DARRAG
ابن اياس ـ ٤ ص ص ١٠٤ ، ٢٩١ ، ٤٢٨
الضوء اللامع ـ ٥ ص ٢٦٦ ،
ابن كثير ـ البداية ـ ١٤ ص ٢٧٣ ، مخطوط ـ الفاتيكان (عربي) ٢٧٣ ورقة ٤٧ آ
اليونيني ـ ٣ ص ٢٥٨
ابن اياس ـ ١ ص ١٥٩
ابن اياس ـ ٤ ص ص ١٠٤ ، ٢٢٨ ، ٢٩١ ، ٣٢٩
DARRAG
عبد الباسط ـ مخطوط ـ بودليان ٨١٢ ورقة ٢١٧ ب ، ٣٠٦ ب ، ٣٦٤ آ ، ٤٠٠ ب
٥٥ ـ MANTRAN
POLIAK
النويري ـ نهاية الأرب ـ ٨ ص ٢٩٨
السبكي ـ معيد النظام (ليدن ١٩٠٨) ص ٤٨
ابن اياس ـ ٤ ص ص ٢٦٢ ومابعدها ، ٤٢٨
ابن اياس ـ ٥ ص ٣٠
٥٦ ـ السلوك ـ ١ ص ٥٦٤
السلوك ـ ٢ ص ص ١١٠ ، ٢٣١ ، ٥٤١
اليونيني ـ ٣ ص ٢٥١

بيبرس المنصوري - زبدة الفكرة - مخطوط - المتحف البريطاني ١٢٣٣ ورقة ١٣٩ ب وما بعدها

السلوك - ١ ص ٧١٢

ابو الفداء - مختصر - ٤ ص ٣٣

ابو الفداء - الجغرافية (مترجم) - ٢ الجزء الأول ص ٤٩

ابن تغري بردي - المنهل الصافي - مخطوط - باريس ٢٠٦٨ ورقة ١٦١ آ .

الكتبي - عيون التواريخ - مخطوط - كمبرج ٦٩٩ ورقة ١٥٥ ب وما بعدها .

٥٧ - السخاوي - الضوء اللامع - ٦ ص ص ٢٠٣٩ ، ١٤٢ ومابعدها ، ٢٣٢

السخاوي - الضوء اللامع - ٧ ص ص ١٩٠ ، ٢٨٦

السخاوي - الضوء اللامع - ٨ ص ٢٠٣

اليونيني - ٤ ص ٢٠٠

السلوك - ١ ص ٧٣٥ وما بعدها .

المنهل الصافي (تحقيق نجاتي - القاهرة - ١٩٥٦) - ١ ص ٣٦٦ وما بعدها .

ابن الشحنة - الدر المنتخب - ص ص ١٢٨ ، ١٦٨ ، ١٧٤

الكتبي ورقة ١٦٩ ب

٥٨ - السلوك - ٢ ص ٨٠٧

ابن الفرات - ٩ ص ٣٨٢

KREKIC

SANUTO

HEYD

عبد الباسط - الروض الباسم - مخطوط - الفاتيكان - ٧٢٩ ورقة ٣٩ آ

ASHTOR

٥٩ - الضوء اللامع - ٣ ص ٢٠٨

السلوك - ٢ ص ١١٢

LEWIS

CASOLA

٦٠ - اليونيني - ٣ ص ٢٥٢

اليونيني - ٤ ص ١٥٢

ابن دقماق - الجوهر الثمين - مخطوط - بودليان ٦٤٨ ورقة ١٣٧ ب ، ١٤٤ ب

عبد الباسط - مخطوط - بودليان ٨١٢ ورقة ٢٢٢ آ ، ٣٦١ آ

LEWIS

ابن طولون ـ ١ ص ٢٢٨ ، ٢٣٩ ، ٣١٥ ، ٣٢٩ ، ٣٥٤ ، ٢٧٠

LEWIS

LEWIS

٦١ ـ KREKIC

CARR4RE

٦٢ ـ BRINNER

ASHTOR

Histoire

٦٣ ـ DARRAG

مجير الدين ـ الأنس الجليل (القاهرة ١٢٨٣) ص ص ٦٨٦ ومابعدها، ٦٩٤، ٧٠٢

ابن طولون ـ ١ ص ص ٤١ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٢١٣ ، ٢٤٩ ، ٢٩٢ ،

ابن الوردي ـ تاريخ (القاهرة ١٣٢٥) ص ١٤٤

حلويات دمشقية تحرير هـ . حبشي (القاهرة ١٩٦٨) ورقة ١٣٨ ب

السلوك ـ ٢ ص ٨٥٥

٦٤ ـ الخطط ـ ١ ص ٨٨

حوادث ص ٨٩ .

ابن اياس ـ ٢ ص ٤٩

٦٥ ـ LAPIDUS

AMARI

KREKIC

WANSBROUGH

BRINNER

LAPIDUS

ابن طولون ـ ١ ص ص ٤٩ ، ١٠٩

عبد الباسط ـ مخطوط بودليان ٨١٢ ورقة ٢٦٨ آ .

ابن طولون ـ ١ ص ص ١٤٦ ، ٢٦٨ ،

عبد الباسط ورقة ٢٣٥ آ

٦٦ ـ ابن طولون ـ ١ ص ١٢٥

عبد الباسط ورقة ١٠٤ آ ، ١١١ آ ، ٢٠٢ آ

BRECHEM

LAPIDUS

٦٧ ـ ك . صليبي ـ بنو جمعة : عائلة من الفقهاء الشيعة ـ الدراسات الاسلامية ـ ٩ (١٩٥٨) ص ص ٩٧ ـ ١٠٩

BRINNER

ASHTOR

٦٨ ـ ابن طولون ـ ١ص ص ١٨٣،١٨٥، ٢٥٩، ٢٦٢ ، ٢٦٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٢٨٩ ، ٢٩٥ ، ٣٠٠ ، ٣٠٩ ، ٣١٦ ، ٣٣٠ ، ٣٤٢

عبد الباسط ورقة ٣٦٣ ب

LAPIDUS

LAPIDUS ـ ٦٩

ابن طولون ـ ١ ص ص ١٢٤ ، ٢٥٠

MUCK ـ ٧٠

STRIEDER

NEF

Navigazioni ـ ٧١

ASHTOR

ASHTOR ـ ٧٢

عبد الباسط ـ ورقة ١٥٧ ب ، ٦٧ آ ، ٢٦٢ ب ، ٢٧٤ ب ، ٢٩٤ آ ، ٣٠٩ ب ، ٣١٧ ب ، ٣٦٣ آ

ابن اياس ـ ٣ ص ١٨

ابن طولون ـ ١ ص ص ٦٣ ، ١٢٩ ، ٢٨١

السخاوي ـ ذيل ـ مخطوط ـ بودليان ٨٥٣ ورقة ١٠٩ ب

AMARI ـ ٧٣

WANSBROUGH

WANSBROUGH

HEYD

HEERS

SPADOLINI

ASV

ASV

CARRèRE

Histoire

KREKIC

TENENT

ASHTOR

Métaux - ٧٤

Métav - ٧٥

٧٦ - بشأن مصادر وطريقة الحسابات انظر المصدر السابق ص ص ٧٤ ومابعدها ، ١٢٣ ومابعدها ،

PRIUL

AS

ASHTOI

Métaux

٧٧ - ابن طولون - ١ ص ٢٦٩

عبد الباسط ورقة ٢٠٥ ب وما بعدها

ابن طولون - ١ ص ٣١٤ ، ٣١٦

جواهر السلوك - مخطوط - المتحف البريطاني (شرقي) ٦٨٥٤ ورقة ٤٠٤ آ

AUBIN - ٧٨

المحتويات